فَرَنسِيْسُ ...
أَصْلِحْ كَنِيسَتِي

القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ

سلسلة النوابغ
٢

فرنسيس...
أصلِح كنيستي

القدّيس فرنسيس الأسيزيّ
سيرته . أخويّته . روحانيّته

أديب مصلح

منشورات المكتبة البولسيّة

طبعةٌ ثانيةٌ مُنقّحةٌ

٢٠٠٨

*

جميع الحقوق محفوظة

*

منشورات المكتبة البولسيّة
جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب. ١٢٥
هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحْلة – شارع سيّدة النجاة – مقابل مطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

إهداءٌ

إلى الفجر المشرق الذي غَمَر بسناه

غروبَ عمري

إلى حفيدي الغالي

أديب فرانسوا

مقدّمةٌ

«أنتم، يا من يُبصرون، ماذا فعلتم بالنور؟»

كثيرون من المسيحيّين يتمنّون لو لم يَكُن الإنجيل موجودًا، مؤكّدًا بلا هوادةٍ ولا توانٍ، نداءَه المِلحاح إلى البطولة والقداسة، إلى البذل بلا تحفُّظ، والحبّ بلا قياس، والتضحية بلا حدود، إلى الفرح بالعطاء، والخلاص بالصليب. فلولا الإنجيل لاستطاع المتقاعسون، وطالبو المتع الرخيصة، وملتمسو العيش الفاتر المنكفئ على الذات، في منجاةٍ من كلّ مغامرةٍ أو جهدٍ، أن يسوقوا أيّام حياتهم ساكنةً، مغلّقةً بالحيطة، منزَّهةً من القلق والأَرَق ووجع الضمير.

فالإنجيل منبع قلقٍ ناشبٍ أبدًا بالوجدان، وقَلَقُه هذا هو مَعينُ العافية، ودليلُ السلامة، فعلى حدّ قول الكردينال نيومن: «من عاش بلا قلقٍ، فهو سقيمٌ».

هذا القَلَق الإنجيليّ ما انفكّ يُحوّل مصائرَ كثيرةً ويُسدِّدها، وهو الذي قلب، لثمانية قرونٍ خَلَتْ، حياة شابٍّ غنيٍّ عابثٍ مِسْرافٍ، ماجنٍ، وجعل منه قدّيسًا، بل جعل منه القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ الذي تبوّأ في معارج القداسة مكانةً فريدةً، لمجرَّد أنَّه عاش الإنجيل بوفاءٍ مطلقٍ، عاشه حرفًا وروحًا، بكل وُعورته وعذوبته وجنونه، من غير تأويلٍ ولا تحويرٍ ولا ترويضٍ، ومضى في ممارسته إلى أقصى شوطٍ حتّى غدا به إنجيلاً حيًّا.

إنّ السموّ المُذهل الذي ارتقى إليه فرنسيس، بتجسيده عِظَة الجبل، والصدمة التي ما انفكّ يُفجّرها استقراءُ سيرته لدى الكثيرين، لَدليلٌ ساطعٌ على أنَّ الإنجيل، في

أعقاب عشرين قرنًا من النَّقد والمعارضة، ما فتئ يتجلّى أشدّ صفاءً وتألُّقًا وإقناعًا، مثل ذَهَبٍ تعرَّضَ لأشدِّ البوتقات حرارةً وصَهْرًا.

إنَّ مِثالَ فرنسيس يحملنا على مَقْت الحدود الضَّنْكة التي نميل إلى حصر ذواتنا فيها، والتطلُّع بتَوْقٍ إلى الآفاق اللاّمحدودة التي يُشرعها الإنجيل، فلا نعرف للطمأنينة طعمًا، طالما قَعَدْنا عن التماسها.

إنّ الفرق بين القداسة والضَّحالة، بين السُّموّ والتفاهة، قضيَّةُ إرادةٍ واستجابةٍ لنداءٍ. ووراءَ كلِّ حياةٍ فاشلةٍ، وكلِّ غايةٍ لم يتمَّ بلوغُها، خطوةٌ لم يجرؤ المرء على اجتيازها، ومخاطرةٌ تقاعَسَ عن خوضها، ونداءُ نعمةٍ إلٰهيَّةٍ أصمَّ دونَه أُذنيْه؛ وهذا ما أثبتته سيرة فرنسيس، الذي، لو آثر الاستكانة إلى رحراح العيش، وتواني اللامبالاة، لخطر في الوجود مثل خيالٍ لا يرسم في مكانٍ أثَرًا، ولظلّ نسيًا منسيًّا شأن ألوف الذين يعبرون الكون كلّ يوم، فلا يخلّفون فيه ذكرًا، ولا يُغيِّرون منه مظهرًا، ولا يُضيفون إليه لمسة جمال. إلاّ أنَّ فرنسيس استجاب لنداء السماء، ومضى في استجابته شأوًا بعيدًا، فوُلِدَ معه إنسانٌ جديدٌ، وانطلقت مسيرة عالمٍ جديدٍ، وغدا، هو، للقداسة مرآةً، تُراوِدُ كلَّ من يُشاهدها رغبةٌ عارمةٌ في التشبُّه به. لا بل إنّه، في استجابته لنداء السماء، تقمَّص كلَّ روعة الإنسان ومأساته، وبات موقظًا للإنسانيّة، في صدر كلّ إنسانٍ.

ولقد أثبتت الطريقة المُثلى التي عاش بها الإنجيل أنَّه، منْذ تكلَّم يسوع، لم يَعُدْ سوى سلوكٍ مسيحيٍّ واحدٍ ممكنٍ، هو السلوك الذي انتهجه الأسّيزيّ.

لقد تخطّى فرنسيس، في عيشه الإنجيل، كلّ حدود المعقول والمألوف، حتّى وُصِف بالجنون؛ ولكن، أَوَ لَمْ يكن الصليبُ نفسُه هو جنون حبّ الله للإنسان؟ وقد حطّم كلَّ التُخوم، فتشعَّبت شخصيَّته في كلّ اتّجاه، وباتت قادرةً على كلّ شيءٍ، لا بل إنّ فرنسيس، بتصدّيه لمُشكلات عصره بحلولٍ مُستوحاةٍ من الإنجيل، قد أضفى على تلك الحلول سُموًّا فائقًا، ومدىً رحبًا يخترق الزمن، ويعاصر كلّ جيلٍ وعصرٍ، فالمعاصرة الوحيدة الخالدة هي معاصرة الإنجيل، وكلُّ ما سواها، أو ما قد ندعوه كذلك، يندفع حثيثًا نحو هوّة العدم.

ولا بدعَ، بالتالي، إن وُصف فرنسيس بأنّه «رجل العصر القادم». فلقد وَجدتْ فيه حِقَبٌ عديدةٌ أَملاً ومثالاً، وما زلنا نجد لديه الحلول لمعظم أَوْصاب عصرنا

الأساسيّة، ونكتشف فيه قُدوةً للتحرُّر من الاضطراب والعزلة، ودافعًا لاستئناف الحوار مع اللّه والإنسان والطبيعة.

إنّ عصرنا حافلٌ بالمتناقضات الحادَّة الأليمة، لأنَّه حادَ عن سراط الإنجيل، وعمَّن هو، وحده، النور و«الطريق والحقّ والحياة». وهو، من ثَمَّ، يتخبَّطُ في سلسلةٍ من الأزمات، من أهمِّها:

أزمة علاقاتٍ وتعاطفٍ

مع أنَّه كان من شأن تقدُّم عصرنا المذهل في ميدان الاتّصالات والمواصلات تحطيم الحواجز والحدود، وتوثيق عرى التعارف والتعاطف بين قاطني المسكونة كافّةً. لا ريب أنّ ذلك التقدُّم قد وَلَّدَ وعيًا لضرورة التضامن البشريّ على مستوى الكون كلّه، يحمل في طيَّاته وعودًا طيّبةً؛ بَيْدَ أنَّ الأساليب التي ما برحت متَّبعة، والقوى التي ما انفكّت مُسْتَخْدَمةً لا توحي إلاّ بالقلق والرُّعب، إذ ما زالت الدُّوَل العُظمى تنظر إلى الدُّوَل الضَّعيفة والفقيرة نِظْرَتَها إلى فريسةٍ تمتصُّ دمها، وتجرِّدها حتّى من الزهيد الذي تمتلكه، وتتصرَّف، في صلفٍ وقسوةٍ، بمواردها ومصيرها، وحياة أفرادها، فتمضي اتِّساعًا الهوَّةُ بين عالَمَيْن: واحدٍ بَطِرٍ، مِسْرافٍ، يُتلف، مثلاً، في سبيل حماية «اقتصاده»، كمِّيّاتٍ جسيمةً من الغذاء، وعالمٍ آخر يطحنُه الفقرُ، ويئِنُّ ملايين جياعه، لافتقارهم إلى فتاتٍ من ذلك الغذاء المسفوح؛ عالمٍ يُنفق على أدوات الدَّمار المُريعة، وعلى وسائل السَّيطرة، ما يكفي قِسْطٌ طفيفٌ منه للقضاء على جميع أسباب الجوع، والمرض، والجهل، والفقر، المنتشرة في شتّى بقاع العالم الفسيح؛ عالمٍ يخلق في كلِّ بُقعةٍ بُؤَر توتّر، وآخر تجنح حكوماته المغلوبة على أمرها إلى إهمال مصالح شعوبها الأساسيّة، من أجل ابتياع الأسلحة، والتلهّي بالقتال، بحجّة الدفاع عن كيانها، في حين يلهث أفراد شعوبها وراء لقمة العيش، والسَّكَن اللائق، والعلم الذي ينير مستقبل أطفالهم.

وممّا هو أشدُّ إيلامًا أنَّ تلك الهُوَّة السحيقة بين شعوبٍ غنيَّةٍ وأُخرى فقيرةٍ ينحفر مثلُها، بل أكثر منها حدَّةً، في إطار البلد الواحد، حتّى الأشدّ تخلُّفًا، بين فئاتٍ بَطِرةٍ متخومةٍ، وأُخرى تَنْفُقُ جوعًا وإملاقًا، ولا يجمع بينهما سوى مشاعر الازدراء واللامبالاة من جانبٍ، والكره والحسد من جانبٍ آخر، ممّا يظهر عالمنا في مظهر عالَمٍ فَقَد روحه، وجفّت ينابيع إنسانيَّته.

لا بل إنّ، ثمَّةَ، ما هو أدهى وأمرّ، إذْ قد نهضت الحواجز صفيقةً كتيمةً، بين أُناس يكادون يلتصقون، فبات الجار يقضي السنين بالقرب من جاره لا يفصله عنه، في الغالب، سوى جدارٍ رقيقٍ، أو بضعة أقدامٍ، فلا يتعارفان، ولا يتواصلان، ولا يشعر أحدهما بوجود الآخر.

لقد سئمت شعوب عالمنا العنف والفرقة، وباتت تتحرّق شوقًا إلى سِلْمٍ حقٍّ مبنيٍّ على احترامٍ صادقٍ متبادَلٍ، وتضامُنٍ مخلصٍ قادرٍ على حلّ مشكلاتٍ تُهدِّد مصير الكوكب الذي نعيش عليه معًا؛ كما أنّها سئمتْ تسلُّطَ المال والسُّلْطة، وغدت تتطلّع، في توقٍ، إلى إخاءٍ شاملٍ، قائمٍ على التعاطف والعدل؛ وضاقتْ ذرعًا بالحدود والسُّدود التي تفصل الإنسان عن أخيه الإنسان، وراحت تتلهّف إلى الانفتاح على الكون أجمع وجميع الكائنات، وكفرت بتقدُّمٍ تقنيٍّ رنَّانٍ يترك النفس البشريّة على ما هي عليه من عطشٍ وجوعٍ، وهذا ما عبَّر عنه مالرو بقوله: «ما جدوى الشخوص إلى القمر، إن كان ذلك في سبيل الانتحار»؟ إنّ الشعوب تتطلَّعُ إلى أكثر ممَّا يَبْهَر، إنّها بحاجةٍ إلى ما يُشبعها ويُحييها، فعلى حدّ قول غوستاف تيبون: «الخطيئة الجوهريّة، بل ربَّما الخطيئة الوحيدة، هي محاولة إرواء عطش الأبديّ، بالنهل من كؤوس الزمن».

هذه التطلّعات جميعُها نَجِدُ في مسيرة فرنسيس تلبيةً لها، كما نجد فيها العلاج لأزمة التواصل والتعاطف التي حلَّتْ بعض أعراضها، فهو قد «لبس أحشاء الرحمة»، وعاش وكأنَّه مسؤولٌ عن مصير كلّ إنسانٍ يدرج على الأرض، ودانَ كلَّ استئثارٍ، ودعا إلى اقتسام خيرات الكون، بين بني البشر كافَّةً، إذ إنَّ جميعهم إخوةٌ متساوون، ينتمون إلى أبٍ واحدٍ، ولكلٍّ منهم الحقُّ في الجلوس إلى مائدة الربّ المبسوطة للجميع بلا استثناءٍ. وعملاً بتلك القناعة، كان يأبى امتلاك ما يفتقر إليه آخرون، مثلما يأبى أن يكون، ثمَّةَ، من هو أشدُّ منه فقرًا؛ إنَّه على غرار معلِّمه يسوع، أكَّد، بسيرته وتعليمه، أنَّ الأعظم هو الأوضع، والأكثر إكبابًا على خدمة إخوته، وعلى «غسل أرجلهم»، حسب تعبيره، والأشدُّ تعاطفًا معهم، وتخفيفًا لآلامهم. لقد كان رسول سلامٍ ومصالحةٍ، مؤمنًا بالحبّ وحده وسيلةً لجمع شمل البشر وتضامنهم.

يُعزى إلى لينين قوله، وهو يحتضر: «قد أكون ضللت طريقي فالعالم في حاجةٍ إلى حفنةٍ من أمثال فرنسيس الأسّيزيّ، أكثر من حاجته إلى ثورةٍ!» ومهما يكن من

صحَّة نسب هذا القول إلى لينين إلاَّ أنَّه قولٌ فَصْلٌ، فوحدهم أمثال فرنسيس، والذين ينهجون نهجه، خليقون بإعادة الأمور إلى نصابها، في عالمنا المضطرب، وبإشاعة العدل والحقِّ والمحبَّة بين أبناء الله كافّةً، المنتشرين في كلِّ مكانٍ.

أزمة ترابط الأسرة الواحدة

وقد غدا هذا الترابط في مجتمعاتنا، مخلخلاً؛ فجيلاً إثر جيلٍ، تزداد الأواصر بين أفراد الأُسرة الواحدة تراخيًا، وينفرط عقْد التضامن بين أعضائها، ويتلاشى لديهم الشعور بالمسؤوليّة المتبادَلة، كي ينصرف كلُّ فردٍ إلى ما توسوس له به أنانيَّته، ومآربه، وصغاراته.

وفي هذا السياق يتجلّى، لدى فرنسيس، شعورٌ حادٌّ بحاجة الإنسان الأساسيَّة إلى حياة الأُسرة الوثيقة الترابط، بكلّ ما تنطوي عليه من دفءٍ وتضامنٍ واتّحادٍ. ولئن هو أُكْره على هجر أُسرته، من جرَّاء مقاومة والده الشرسة لعزمه انتهاج دروب الربّ، ولاسيَّمَا درب الفقر الإنجيليّ، إلاّ أنّ وجْهَ أُمّه ظلّ رؤيا متألِّقةً تُنير ذهنَه، وذكرى عزيزةً لا تني تُذْكي في صدره الحنين. وفيما بعد، عندما التفَّ من حوله الأَتباع، أرادهم أُسرةً جديدةً يجد هو، ويجد كلٌّ واحدٍ من رفاقه، بين أحضانها، الدفءَ والتضامنَ اللّذَيْن افتقدوهما عندما هَجَرَ كلٌّ منهم أُسرته الطبيعيّة. ومن ثَمَّ، فهو لم يُطلق على الجماعة التي أسّسها اسم «جمعيّةٍ»، ولا «رهبانيّةٍ»، ولا أيًّا من الأسماء المُماثلة التي توحي بالمؤسّسة الهَرَميَّة، حيث العلاقات عَمُوديّةٌ بين رؤساءَ ومرؤوسين، بل دعاها «أخويّةً» للدلالة على ما كان يتوخّى أن تتميّز به من علاقاتٍ أُفقيَّةٍ حميمةٍ، عابقةٍ بالتآخي والمساواة والتضامن، وإحساس كلِّ فردٍ بمسؤوليَّته عن جميع إخوته؛ لا بل إنَّ قانون الأخويَّة الذي وضعه فرنسيس قد أَهاب بكلِّ أخٍ أن يرعى إخوته على نحو ما ترعى الأمُّ وليدها.

أزمة كرامة الفرد وحرّيَّته

فمن الأصنام التي يعبدها عالمنا اليوم، صنم «الدولة»، التي تُضحَّى على مذابحها، وفي سبيل مصالحها العليا، كرامةُ الأفراد، وحرِّيَّتهم ومصالحهم؛ فحتّى

الدول التي تتشدَّق بحقوق الإنسان، وتُنَصِّب ذاتها حاميةً لها في العالم، لا تتحرَّج من استلاب كرامة مواطنيها، بل من امتهان كرامة شعوب أُخرى بأكملها، بحجَّة الذَّوْد عن مصالحها الخاصّة.

وبالمقابل لم يهتمّ فرنسيس يومًا إلاّ بالإنسان الفرد، وقد أبى أبدًا أن تسمو على كرامته وحرّيَّته أيُّ جماعةٍ أو سلطةٍ، فكلُّ إنسانٍ هو ابن الله الخاصّ، ومفتدىً بدمٍ كريمٍ، وله الحقُّ في أن ينعم بحرّيَّة أبناء الله العظمى.

أزمة بساطةٍ وقناعةٍ

بساطةٌ وقناعةٌ اغتالهما مجتمع الاستهلاك، الذي يدَّعي توفير الرفاه لبني البشر، في حين غابت عن ذهنه مصالح الإنسانيّة الحقّة، وانحصر همّه في حصد أوفر المغانم، فبات لا يني يُغرق الأسواقَ بمُبْتَكراتٍ تواكبها طبولُ الدَّعاوة والتشويق، جاعلاً المستهلكين يلهثون باستمرارٍ، وراء كلّ مستَحْدَثٍ نافلٍ، فيمَا هم عن أَنفسهم غافلون، وكأنّ الاستهلاك هو هدفُ الحياة الأوحد.

على نقيض ذلك، علَّم فرنسيس وعاش. علَّم أنّ المرءَ يَغْنى بقدر ما يستغني عن متاع الدنيا، وبقدر ما يُقلِّص احتياجاته المادِّيَّة. وقد ضرب، هو، في ذلك، المَثَل، إذ اقتصر، في عيشه، على الحدّ الأدنى من الطعام والشراب، واللباس والسكن، الذي لا بدَّ منه للبقاء. فأصاب الحرّيَّة والانطلاق، والفرح الذي لا يُعكِّره أيُّ شعورٍ بالحرمان، أو أيُّ تحرُّقٍ لمزيدٍ من امتلاكٍ.

عالَمُنا يتعثَّر في خطاه، ويترنَّح لأنَّه مُثْقَلٌ بمتطلّباتٍ واحتياجاتٍ كثيرةٍ نافلةٍ، فهو، مثل مرتا، مهتمٌّ بأمورٍ كثيرةٍ، فيمَا الحاجة إلى القليل منها. ولا خلاص له إلاّ في احتذاء بساطة فرنسيس وزهده.

أزمة تواضعٍ وواقعيّةٍ

فحضارة اليوم، بمَا حقَّقته من مُنجزَاتٍ تقنيَّةٍ متسارعةٍ في وتيرتها، مُدْهشةٍ في جدَّتها وجرأتها، قد انتشت غرورًا، فتناست حدودها، وتخيَّلت أنّ إنجازاتها توليها الحقَّ في معاملة الكون معاملةَ السيِّد الدكتاتور. وإنَّ رغبَتها العارمة في إخضاع

الكائنات والسيطرةِ عليها، وٱستغلالها، قد حالت بها دون اكتناه جوهرها وأسرارها، وعرَّضتْها لخلخلة الكون، ولمواجهة أخطارٍ شتّى، من جرَّاء العَبث بسُنَنِه وقوانينه.

لقد غدا استثمار الموارد الطبيعيّة في منتهى اليسر، وبات إغراء جدواه الاقتصاديّة الفوريَّة من شدَّة الأسر، بحيث انقلب الاستثمار استهلاكًا حتّى الإنهاك والدمار. وقد تهيّأ للإنسان، اليوم، من القدرة على الطبيعة ما لم يعد، معه، يُتيح للبيئة فرصةً لتجديد ما يسلبه إيّاها من طاقاتٍ، ومن ثمَّ أصبح مفهوم التقنية الحديثة، في الغالب، مرادِفًا لمفهوم الانتحار الجماعيّ المجنون، وإنكارًا للمستقبل. وقد أمسى يُخشى ألاَّ يُورِّث الجيلُ الحاضرُ للأجيال القادمة سوى كوكبٍ غاضت منه ينابيع الحياة.

وفي هذا المجال، يتجلّى مِثالُ فرنسيس خشبة نجاةٍ، فهو قد دعا جميع عناصر الكون إخوةً وأخواتٍ، وعاش معها في تناغمٍ وانسجامٍ، وحافظ على سلامة الخليقة، وتلمَّس، بعمقٍ ومتعةٍ، كنوز جمالها.

إنَّ عالم اليوم، المغرور بعِلْمه، قد بات يتخيَّل أنَّه قادرٌ على فهم كلّ شيءٍ، وحلِّ كلِّ ما يعترض الإنسان من معضلاتٍ. وقد فاته أنّ العلم، إن أدرك شيئًا، قد فاتته أشياء، وأنّ أسرار الوجود الجوهريَّة ستبقى مستغلقةً عليه، وفي منأًى من مناله. إنّ العلم الحقّ هو الذي يتبيّن حدوده، ويعترف بها، ويُقرُّ بأنَّ هناك مضامير لا تخضع لأنظمته، ولا ينفذ إليها سوى الإيمان. فالنفس التي لم يعد لاسم «الله»، ولمعنى المُقَدَّسات صدًى في حناياها، هي نفسٌ فَقَدتْ روحَ الواقع، ومفتاح سرّه. والعلم الحقّ هو الذي يُسخِّر كلَّ طاقاته لخير الإنسان، وإلاَّ أصبح سلاحًا يقتل صاحبه، وذريعةً لنشر وسائل الدمار، كما شهدنا ونشهد، في وَجَلٍ ورعدةٍ، منذ بضعة عقودٍ.

هذا النمط من العلم هو الذي رفضه فرنسيس وقارعه، وآثر عليه الجهل.

«ويلٌ للعلم الذي لا ينقلب حبًّا»، هتف بوسويه، وهذا ما كان فرنسيس قد أدركه، وعمل به. لقد اكتشف طاقات الحبّ اللامحدودة. فالحبّ، على حدّ قول «ليبرانس رانجيه» هو «منبع كلّ حياةٍ؛ وإنَّ تعبئة الناس، أفرادًا وجماعاتٍ، لا تتسنّى بالحجّة، ولا بالمنطق، مهما كان مُحْكَمًا ومُقْنِعًا، بل بالحبّ، أو بنقيضه، البغض؛ الحبُّ، وحده، يستطيع القضاءَ على التقاليد البالية، ونسفَ الأنانيّات، حتّى الشّرِسة منها، وتخطّي مصالح السلطة والمال. الحبّ، وحدَه، يستطيع بعثَ الدفء في القلوب، ومن ثَمَّ، فقليلٌ منه أجدى فعلاً من منطقٍ غزيرٍ».

بالتواضع والتعاطف مع جميع الكائنات، لا بالغرور والاستعلاء، وبالحبّ لا بالعلم، فجَّر فرنسيس أعظم ثورةٍ إنسانيّةٍ وروحيّةٍ في التاريخ.

إنَّ العلم المَزْهوّ بذاته يقود إلى الكبرياء التي تحجب صفاء الرؤية، وإلى الأنانيّة التي تستعبد صاحبها. ومن سيرة فرنسيس نستخلص أنّ من يتحرّر من ربقة إرادته الخاصّة، كي يستسلم لمشيئة الله، تتبسّط إرادته، وتتحرّر، ومن ثمَّ، تتّسع وتتعمّق بحجم الكون، ولا يعود شيءٌ يفصله عن العمل الخلاّق، إذ يُصبح طيِّعًا بين يدَي الله الذي يصنع منه ما يشاء، ويقوده إلى حيث يشاء، فيسير بهَدْي السماء.

إنَّ الإنسان لا يُحقّق ذاتَه ولا ينضج، بملاحقته فكرةً يعزوها لنفسه، مهما سمتْ، بل بقبوله ما هو واقعٌ، في تواضعٍ وفرحٍ. فالإنسان الذي يحصر نفسه في فكرةٍ ما يسجن فيها ذاته، ويفقد المشاركة مع الكائنات، ويعجز عن معرفة الكون، ويفتقر إلى الصمت والسلام والعمق؛ وما عمقُ المرء، سوى طاقته على التقبُّل والاستقبال.

وحتّى عندما يدَّعي المرء العملَ في سبيل هدفٍ سامٍ، فهو إنَّما يسعى، من غير أن يُفصح عن ذلك، إلى إضافة ذراعٍ إلى قامته، إلى أن يمنى بالفشل، وحينئذ يتبيّن أنّ الأمر الجوهريّ الوحيد هو أنّ الله موجودٌ، وأنَّه، وحده، القادر والقدّوس والصالح. ومن اكتشف هذه الحقيقة، وفرح بها، نَعِمَ بالسلام، إذ حَسْبُه أنَّ الله موجودٌ، ومهما حدث، فثمَّةَ بهاءُ الله وسناه، وهذا ما يكفيه.

وما سيرة فرنسيس سوى حكاية هذا الاكتشاف المدهش الرائع.

أزمة حِسٍّ بالمُقَدَّسات

نتيجةً للمادِّيَّة المستشرية، ولغرور العلم الواهم بأنَّه قد أحكم قبضته على كلّ شيءٍ، وبأنّ لا وجود لِما لا يخضع لسلطانه، بحيث بات يخجل بعض المؤمنين، لا بل حتّى بعضُ من يتسنَّمون أرقى المناصب الكنسيّة، من الاعتراف بأيّ ظاهرةٍ تفوق الطبيعة، خشيةَ الاتّهام بالرجعيَّة، والنبذ من نادي المُنَوَّرين.

وبمعزلٍ عن الحسّ بالمُقَدَّسات تفقد الحياة كلَّ ألَقٍ وسِحرٍ، مهما حَفِلَتْ بالنجاح والمُتعة؛ وتضيق آفاقها إلى حجم جسم الإنسان الواهي وعقله المحدود، في حين تغدو

نفسه المخلوقة على صورة الله، أسيرة قفصٍ ضَنْكٍ يَغِلّ تطلُّعاتها المتوثِّبة إلى الانطلاق بعيدًا في عالم اللامحدود.

إنّ الإنسان الذي يفقد حسّ المقدَّسات، سرعان ما يفقد الحسَّ الخلقيّ، والحسّ الجماليّ السليم، ويفقد، بالإجمال، جزءًا جوهريًّا من إنسانيّته؛ وكذلك المجتمعات التي تفقد حسَّ المقدَّسات لا يطول بها الأمر قبل أن تُمنى بالانحطاط، وتصير إلى انهيارٍ وبوارٍ.

في هذا المضمار، ينهض فرنسيس مثالاً لا أروع ولا أسمى. فهو، منذ ارتداده إلى سبيل الربّ قد آمن، بعمقٍ، أنَّ كلَّ عملٍ وعلمٍ لا يكون الله روحهما ودافعهما وغايتهما إنّما هما عقيمان باطلان؛ وقد سبحت كلّ لحظةٍ من حياته في لُجَّةِ حضور الله الغامر، وأُشبِعَتْ بروحه المالئ كلَّ شيءٍ، فارتَدَتْ كلُّ مهمَّةٍ أدَّاها، مهما كانت وضيعةً وضئيلةً، بُعدًا أبديًّا؛ ومع واقعيّته المتبصّرة حفلتْ سيرتُه المُغْرِقة في البساطة والفقر، بعجائب خارقةٍ تُزْري بكلّ سُنَن العِلم وقوانينه.

وجديرٌ بالتنويه أنَّ فرنسيس، الذي كانت حياته بأكملها صلاةً مُتَّصلةً، وحوارًا مع الله لا ينقطع، والذي انتدبه المصلوب شخصيًّا لإصلاح كنيسته المتصدِّعة، كان علمانيًّا، وظلّ علمانيًّا حتّى قُبيل وفاته حين سيم شمّاسًا إنجيليًّا فحسب، كي يستطيع أن يتلو، في الكنائس، الإنجيل الذي كان به وَلِهًا؛ وإنَّ لفي علمانيّته لمغزًى عميق الدلالة، بعيد المرمى، إذ أثبت أنّ العيش في حضور الله ليس وَقْفًا على بعض النُسّاك والمُكَرَّسين، بل هو شأن كلِّ من رام أن يتجاوز ذاته، ويتجاوز الحياة الدنيويّة الزائلة، إلى حيث اللانهاية والخلود؛ كما أثبت أنّ الكنيسة الحقَّة ليست فئة رؤساء مؤسّساتها، بل جماعة المؤمنين، كلّ المؤمنين، الذين يعيشون الإنجيلَ بصدقٍ، ويجعلون من ممارسة تعاليمه وسيلةً لإحلال ملكوت الله على الأرض.

وإنّ فرنسيس، بفضل تأسيسه «الرهبانيّة الثالثة» التي تضمّ، الآن، في صفوفها عشرات ألوف العلمانيّين المبثوثين في شتّى بقاع الدنيا، الذين، مع انصرافهم إلى مهامّهم الدنيويّة، ونهوضهم بمسؤوليّاتهم المادِّيَّة، في قلب العالم العلمانيّ، ينهجون غير نهج هذا العالم، مُستلهمين مثالَ فرنسيس وإخوته، ويُكرِّسون قسطًا وفيرًا من وقتهم للخدمة والصلاة والشهادة للإنجيل، قد أسهم في رفد الكنيسة بِعَمَلَةٍ هي، اليوم، في أشدّ حاجةٍ إلى سواعدهم ومساهماتهم، ونواياهم الطيّبة، بعد أن راح عدد الكهنة يتقلّص سنةً إثر سنةٍ؛ كما أنّه، بتجسيده بعض المراحل البارزة في حياة يسوع، وباحتفاله

بعض الأعياد، ولاسيَّما عيد الميلاد، احتفالاً يُمثِّل الحَدَث حسِّيًّا، قدَّس الفنّ، ووطَّد أُسس تديُّنٍ شعبيٍّ نابضٍ بالحياة، هو، للكنيسة خيرُ شريكٍ وظهير.

أزمة طفولةٍ وبراءةٍ

الطفولة التي جعلها يسوع شرطًا لوُلوج الملكوت، الطفولة التي بها يقنع الإنسان أنَّه لا يستطيع بمفرده شيئًا، ولكنَّه، باللّٰه، يقوى على كلّ شيءٍ، فيُلقي، بين يديه، بوَهَنه وأحلامه ومصيره. إنَّ الإنسان لا يخلص بأعماله وحدها، مهما سمتْ في مراقي الكمال، بل عليه أن يُصبح، هو ذاته، عمل اللّٰه، على نحو ما فعل فرنسيس الذي غدا أكثر طواعيةً، بين يدي خالقه، من الصلصال في يدَي خزَّافٍ، وأكثر مرونةً وصبرًا من القصب في يدَي صانع سلالٍ، وأشدَّ فقرًا من حَطَب الغابة الميت في حومة الشتاء؛ وإنَّه، بإقراره بفقره المطلق، فتح للّٰه حسابًا ائتمانيًّا غير محدودٍ، وأوكل إليه مبادرة وجوده وخلاصه، وولج محراب طاعةٍ مقدَّسةٍ، أصبح، بها، طفلاً يلعب لعبة الخليقة الإلٰهيَّة، وتجاوز الأَلَمَ واللذَّة، واكتشف الفرح والقوّة، وأمسى قادرًا على مواجهة الشمس والموت بنظرةٍ واحدةٍ حافلةٍ بالودّ، وبنفس القدر من الجدّ والجذل.

ذلك الاستسلام المطلق بين ذراعي الربّ، جعله طليقًا، وأعاد له براءَته الأولى، فحدّق إلى الكون بعينَيْن صافيتَيْن، لا يغشاهما كَدَرٌ، واكتشف كلّ ما يعجّ به من جمالٍ وسنًى، فكانت حياته نُزهةً من دهشةٍ إلى دهشةٍ، ومن سِحْرٍ إلى سِحْرٍ.

وما أحوجنا، اليومَ، إلى قدوته في عالمٍ سجينِ أنانيَّته وكبريائه، وضحيَّةِ تكالبه على المادّة، الذي أعشى بصره، وبلَّد مشاعره، فلم يعد يَلْحَظ أَلَقًا، ولا يطرب لرُواءٍ، ولا يعرف الدَّهشةَ أمام جمال الكون ومفاتنه المجّانيَّة.

أزمة فرحٍ وطمأنينةٍ

فعالمنا فريسة خوفٍ مقيمٍ، خوفٍ من الآخرين ومن منافستهم وطمعهم وعدوانهم، وخوفٍ من الغد وما قد يحمله في طيَّاته من مفاجآتٍ مريعةٍ. اتّقاءً لذلك الخوف، تحاول مجتمعات اليوم التدرُّع بالقوانين والتأمينات، وشتّى أنماط الاحتياطات، الكفيلة بدرء

الخطر وبالمكوث في معزلٍ من كلّ مخاطرة. ومع ذلك نرى أنّ عالمنا فئتان: فئةٌ لا تملك مالاً ولا متاعًا ولا حمايةً ولا تأمينًا، يُرعبها الآخرون ويُرعبها الغد القاتم؛ وفئةٌ تملك كلَّ شيءٍ، ولكنَّها تفتقر إلى الوضع النفسيّ الملائم، وتقاسي من السأَم والكآبة النفسيّة، فتدابيرها الاحترازيّة تخنقها، والخوف يطويها على ذاتها، ويُطبق عليها سجنًا مريعًا. ومن ثَمَّ، يحاول هؤلاء إغراق سأمهم في المتعة المصطنعة والهروب، في السفر والمزيد من المقتنيات، ولكنّ سأمهم يواكبهم، وخوفهم يطاردهم في كلّ مكانٍ؛ أمَّا أولئك فقد يستسلمون لليأس، ويُسلِّمون بأنّ بؤسَهم قدَرٌ محتومٌ، أو يجهدون في التخلّص منه بالعنف والمخدّرات، فلا يصيبون سوى مزيدٍ من بؤسٍ ويأسٍ وجحيمٍ.

ولو هم استوحوا، جميعهم، مسيرة فرنسيس، لما انتهوا إلى ما انتهوا إليه، ولاَنعتقوا من إحباطهم ويأسهم وسأمهم، ولتبيَّنوا أنّ لا المالَ ولا الضمانات توفّر الفرح والسعادة، وأنّ الفقر ليس بالضرورة منبع بؤس، إلاّ إذا رافقه الظلم، وامتهان الكرامة، وفُرِضَ معه الحرمان فرضًا.

فقد اختار فرنسيس الفقرَ الطوعيّ، ووجد فيه التحرُّر والانطلاق والفرح؛ ولم يلتمس ضمانًا وتأمينًا إلاّ في عطف الآب السماويّ الذي يوفّر لطيور السماء قوتها، ويُلبس زنابق الحقل أروع لباس؛ واختار، أيضًا، أن يكون «الأصغر» لكي يكون للجميع خادمًا، عَمَلاً بوصايا معلّمه يسوع؛ وانبرى في آنٍ معًا، للذود عن كلّ مظلومٍ ومسحوقٍ ومنبوذٍ، لكيلا يُفرَض على أحدٍ فقرٌ ينطوي على حرمانٍ من حقٍّ، وانتهاكٍ لحُرمةٍ وكرامةٍ، ولكي يسود الإخاء والعدل جميع أبناء الله الواحد.

ومن ثمَّ، فالفقراء، والصغار، والضعفاء الذين يحلمون بلقمة العيش مقرونةً بالكرامة والسلام والمساواة في الحقوق، يجدون في الأَسّيزيّ رمزًا وأملاً. والجميع يجدون فيه، وفي أتباعه الذين طهّرتْهم الصلاة، وغمرهم الفقرُ بالفرح، وزوَّدهم الاستسلامُ المطلَق بين يدي الله بالجرأة والطمأنينة والعزيمة، الجوابَ على ما ينخر حضارتنا من هموم وهواجس.

إنَّ الفرنسيسكانيّة تتجلّى، اليوم، كالصورة الأوفر شفافيةً للأحلام الأكثر أوطوبيّة في التَّحابِّ الكونيّ، والإخاء الشامل، التي تراود خيال أبناء البشر.

إنَّ من شأن عودة «فقيرٍ صغيرٍ» إلى عالمنا أن تُحطِّم أنانيَّته، وقسوته، ووحشيّته، ولاإنسانيّته، وتعيد له براءته وانسجامه.

إنَّ عالَمَنا يقف، اليوم، أمام خيارٍ لا مفرَّ منه: أن يحبّ البشرُ بعضُهم بعضًا، أو أن يُفنوا بعضُهم بعضًا، أن يسيروا في خطى فرنسيس، رسول التعاطف والسلام، فيظفروا بالخلاص، ويُقرّوا ملكوتَ الله على الأرض، أو أن يمضوا وراء قارعي طبول الحرب، وأرباب الاستغلال، ويقودوا العالم إلى شفا الفناء.

لقد قيل في فرنسيس إنَّه «رجل العصر القادم»، ونحن، اليوم، إذ نقف على عتبة الألف الثالث، في هذا العصر الهَرِم الذي اخترع القنبلة الذرّيّة ومجتمعَ الاستهلاك، وضحّى بكل القِيَم على هيكل المادّة والمصلحة، وعندما نشهد طاقة الإنسان على الوحشيّة والتدمير، والازدراء واللامبالاة، قد نتساءل: هل هناك من عصرٍ قادم؟ وقد يُجَمّدنا الذعرُ قبل الاهتداء إلى جواب.

في زمن فرنسيس، كان، ثمّة، ذئبٌ رهيبٌ مفترسٌ يلتهم الحيوانات والبشر على السواء، وينشر الذعر في كلّ مكان. ذلك الذئب يختبئ اليوم داخل كلٍّ منّا، وفي قلوب الشعوب، متربّصًا للانقضاض والافتراس. لقد حرّر فرنسيس مدينة «غوبيو» من الذئب الذي كان ينشر فيها الرعب، وهو، وحده اليوم، قادرٌ على ترويض الذئب الذي يرعبنا، وعلى تحريرنا من الخوف، وإنقاذ كوكبنا من الدمار، ونفوسنا من الهلاك، بمثال سيرته.

لقد قيل: «الشعراء والصوفيّون هم وحدهم، اليوم، قادرون على إنقاذ العالم، الذي تصرعه حمّى التقنيات»، وإنّ لفي فرنسيس شاعرًا مجلّيًا، وصوفيًّا ساميًا، وطفلاً يموج بالبراءة.

وقد كتب جوليان غرين في هذا السياق: «العالم، لا محالة، هالكٌ، ما لم يرتدّ إلى الإنجيل، ولن تُبدّل في الأمر شيئًا مؤتمرات نزع السلاح، ومساخر الديبلوماسيّين». ففي سبيل تحقيق السلام «ينبغي نزع سلاح النفوس» على حدّ قول البابا يوحنا الثالث والعشرين.

فرنسيس واحدٌ من ألمع شهود يسوع في تاريخ الكنيسة، وما أشدّ حاجتنا إلى من يشهدون للإنجيل والمحبّة والإخاء والفرح، ولاسيَّمَا إن هم كانوا، مثل معظمنا، وقد خَبَروا الوَهَن والسُّقوط، ولكنّهم وقعوا في حبّ الله، واستجابوا لندائه بلا تحفّظ، فأثبتوا أنّ بوسع الإنجيل أن يُفَجّر طاقاتنا، ويُحطِّم قيودنا، أيًّا كان موقعنا، وأيَّةً كانت ثقافتنا. إنَّ القدّيسين هم أمل العالم، لأنّهم يشقُّون دروب المصالحة في غابة التاريخ،

ويُبقون جذوة الروح متّقدةً في ليل الإنسانيَّة المدلهمّ، وفي شتائها القارس. إنّ الروح يَستفزّ بين حينٍ وآخر، أمثال فرنسيس كي يُبقي، في أفق التاريخ المُثْقل بالغيوم، شعاعًا يؤذن بفجرٍ مُشرقٍ، ويؤكّد أنّ نور الله لن ينطفئ.

يقول فرانسوا مورياك «حَسْبُ العالَم حفنةٌ من أنقياء القلوب، أمثال الأسّيزي وغاندي، ينهضون جيلاً إثر جيلٍ، شهودًا يُثبتون بحياتهم البسيطة، المتجرّدة، المعطاء، البطوليّة، القائمة على الحبّ الصِّرف، سُموَّ تعاليم عظة الجبل، التي تخبو إزاءها وتنوس كلّ تعاليم العباقرة، ودهاقنة السياسة، والمصلحين الاجتماعيّين، التي لا تتَّخذ من عظة الجبل أساسًا لها ونبراسًا، ولكي تظلّ الجذوة الإلٰهيَّة مضطرمةً في حنايا النفس البشريّة، وتبقى أنوار السماء، وآفاقها الرحبة المتألّقة، تشدُّ أبصار ساكني الأرض».

وإنَّ كلّ لقاءٍ بشاهدٍ لله هو منبع دهشةٍ؛ وقد قُيّض لي أن أمضي سنواتٍ مثيرةً، متعقّبًا آثار غاندي، مستقريًا سيرته المدهشة، ومدوّنًا تفاصيلها الرائعة لقرّاء العربيّة[1]؛ ثمّ أُعطيت امتيازَ الولوج في رحاب حياة القدّيس فرنسيس – وبين مسيرته ومسيرة غاندي وجوه شبهٍ مذهلةٌ – فأنفقت في صحبته أيّامًا طوالاً ثمينةً، مذهلةً، انتهت بهذا الكتاب الذي أزفُّه، بتواضع، لكلّ من لا يزال يُعْجَب بالقداسة والبطولة، ويُجلُّ الذين، بسموّ إنسانيَّتهم، يُكَفِّرون عن كلّ صغارات البشريَّة وتفاهاتها. ولولا إدراكي لافتقار مكتبتنا العربيّة إلى سِيَر مثل هؤلاء الأفذاذ لأمسكتُ عن نشر هذا الكتاب، بسبب شعوري المضني بالتقصير الذريع في إيفاء ذلك الوجه النيّر من وجوه التاريخ والكنيسة، حقَّه.

ولقد تعلّمتُ، من تجربتي مع غاندي وفرنسيس أنّ معاشرة أولياء الله الحميمين، وحُجّاج المطلَق، حافلةٌ بالمخاطر. فهؤلاء، كالإنجيل الذي يحرّكهم، مُزعجون، وباذرو قلقٍ. ولقد طالما طاردني إنذار فرنسيس: «علينا، نحن خدّام الله، أن نشعر بالخزي، فالقدّيسون، هم، قد فعلوا، أمّا نحن، فنكتفي بسرد ما فعلوه، كي نستمدّ لأنفسنا، من جرّاء ذلك، التكريم والتمجيد».

أديب مصلح

---

(١) **السياسيُّ القدّيس، المهاتما غاندي**، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، لبنان، **١٩٩٢**.

الجزء الأوّل
عَبَثٌ وفروسيّةٌ وقلقٌ

أسّيزي

مطارح كثيرةٌ من عالمنا قد تظلُّ مغمورةً، حتّى تحلّ عليها بَرَكةُ واحدٍ من أبنائها، يرى النور على أديمها، وينمو، ويعظم، ويغدو عَلَمًا عالميًّا، ويرتبط اسمه بأسمها، فتستمدُّ منه شهرتها. فلولا القدّيس فرنسيس «الأسّيزيّ»، لما ذاع في شتّى أرجاء المعمورة صيت «أسّيزي»، تلك المدينة الإيطاليّة الزراعيّة الصغيرة، الرابضة على سفح جبل «سوبازيو» في أواسط إيطاليا، وفي منطقة «أومبريا»، على مقربةٍ من مدينة «پيروجيا» الجامعيّة.

إنّ تاريخ تلك المنطقة يضرب بعيدًا في أغوار الماضي السحيق، ويحفل بتعاقب الحضارات، بدءًا باليونانيّة فالكريتيَّة فالأتروِيَّة (ETRUSQUE) التي تحمل من الشرق معالم واضحةً، والتي خلَّفت، في العمارة والنحت، آثارًا تشهد على إنجازاتها. وما زالت الأطلال الرومانيّة، حتّى يومنا، ماثلةً هناك، بهياكلها، وآلهتها، وصروحها، وآبارها، وهي الآن جزءٌ من أبنيةٍ شيّدت فوقها أو أضيفت إليها في عصورٍ لاحقةٍ، وهي تُعبِّر عمّا كان يقطن، آنذاك، النفوس، من توقٍ إلى إدراك معنى الوجود، ونشدانٍ لما يُخلِّد مشاعر الحبّ، وتَلَمُّسٍ للحياة الحقّة، في ليلٍ من البحث داجٍ، تاه دليلُه، وتضاءلت فيه أسباب الرجاء، إلى أن عرفت الإله الواحد، بفضل بشرى الإنجيل، التي آلى فرنسيس الأسّيزيّ على نفسه، عقب اثني عشر قرنًا من انتشارها، وممّا أصابها، في تلك الأثناء، من عَبَثٍ وتشويهٍ، العودة بها إلى صفاء منبعها، وأصالة سُموِّها.

وجدير بالتنويه أنَّه كان للقدّيس روفان، القادم من الشرق، اليدُ الطُولى في نشر المسيحيَّة، في مدينة أسّيزي، التي، عرفانًا بفضله، اتَّخذتْه لها شفيعًا، وأطلقت اسمه على كاتدرائيّتها.

تقبع أسّيزي في نحو منتصف السفح، بين أحضان جبل «سوبازيو» المهيب، المكسوّ بالأدغال الكثيفة، ذات الأشجار الباسقة، مطلّةً على سهلٍ فسيحٍ، مترامي الأطراف، حيث تنتصب أشجارٌ قليلةٌ مبعثرةٌ هنا وهناك، وسط حقولٍ موَّارةٍ بالخضرة، محكمة التنسيق تؤلِّف منظرًا رائعًا، وكأنّ مِفنًّا مُبدعًا قد رسمها لوحةً نادرة، رمزًا للسكينة والخشوع.

وزائر أسّيزي، اليوم، يسلك إليها طريقًا ملتويةً مُصعِّدةً في شعاب الجبل، وهو يلتفت تارةً إلى السهل الساجي الذي يبتعد عنه، ويرنو تارةً أُخرى إلى ذروة الجبل الأشمّ الذي يتوقَّل فيه، ومن حواليه بيوتٌ مبعثرة، قرميديَّة الأساطيح، غافيةٌ في ظلال أشجار الزَّيتون والمشمش والإجّاص والكرز، وكروم العنب؛ فإذا ما انتهى إليها غشاه شعورٌ غامرٌ بأنَّ المدينة بأكملها، ما زالت تعيش بذكرى فرنسيس، وعلى ذكراه، تنبض بها، وتُعبِّر عنها، بكلّ ما فيها، فهي ربَّما أكثر من أيّ مدينةٍ حيَّةٍ أُخرى، قد احتفظت بقِدَمها، على مثل ما كانت عليه أيّام فرنسيس، وكأنَّها تحتضن، في وَرَعٍ وخشْيةٍ، آثار أقدامه على حجار أَزقَّتها المتعرّجة، المُصَعّدة والهابطة على التوالي، والتي تتدانى أطرافها أحيانًا، بحيث تغدو ممرّاتٍ مفرطةً في الضيق، ذات أدراجٍ صغيرةٍ تتلوّى كالثعابين بين صفَّين مُتَحاذِييْن من الأبنية التي تكاد تتعانق، والعالقة على منحدرات التلال الصغيرة التي تقوم عليها المدينة، أو كأنَّها تُطبق، في غيرةٍ وهوًى، على صدى أناشيد شبابه، ووَقْعِ عِظاته في شوارعها وساحاتها، يوم أصبح قدّيسًا.

إنّ حضور فرنسيس الغامر، ما زال يهيمن على كلّ أرجاء أسّيزي، وقد باتت كلّ أزقّتها وشوارعها، اليوم، تتّجه صوب أماكن تخلّد شتّى المراحل البارزة من حياته الفذّة، التي على قِصَرها، حفلتْ بانقلاباتٍ جذريّة، تتخطّى في مداها، واتّساع وقعها، حدود الزمان والمكان. وفي كلّ يومٍ يتقاطر من كلّ أرجاء المسكونة ألوفٌ من الحجّاج، ينتشرون في المدينة المباركة التي فيها ولد فرنسيس وترعرع ونما واشتهر، متلهّفين لتأثُّر خُطى ذاك الذي، باعتناقه الفقر الطوعيّ، والبساطة المُطْلقة، امتثالاً لوصايا الإنجيل، قد أصبح عَلَمًا متوهِّجًا من أعلام كنيسة يسوع، ومن أعلام التاريخ.

مدينة أسّيزي

خلاصة القول أنّ أسّيزي هي موطن فرنسيس فحسب.

أسرة بيرناردوني

قبل أن يقترن اسمه بأسّيزي، كان فرنسيس يحمل كنية بيرناردوني. فهو الابن الأكبر لپييترو بيرناردوني تاجر الأقمشة الواسع الثراء، بل أحد أثرى تُجّار أسّيزي، وزوجته جانّ، الفرنسيّة المحتد، والتي عرفت باسم السيّدة «پيكا».

ليس ما يُثبت بالتحديد تاريخ ميلاد فرنسيس، ولكن من المؤكّد أنّه تمَّ بين غروب عام ١١٨١ ومطلع ١١٨٢.

ولا بِدْعَ، بعد أن غدت سيرة فرنسيس أعجب من أسطورة، أن تزدهر الأساطير حول ولادته. فقد رُويَ أنّ أَجَلَ مولده قد حلَّ، وفاتت عليه أيّامٌ عديدةٌ، ولم تشعر أمّه بآلام المخاض، فاستبدّ بها القلق. وحينئذٍ طرق باب المنزل عابر سبيلٍ، وأوعز إلى الخادم بإبلاغ السيّدة «پيكا»، أنَّ عليها المثول إلى الإسطبل الملحق بالمنزل، وانتظار مولودها فيه. وربَّما رأت السيّدة «بيكا»، المعروفة بوَرَعها وتقواها، في تلك النصيحة، إيعازًا من السماء، فامتثلت لها. ويُقال إنّها ما كادت تضطجع على القشّ حتّى داهمتها الآلام، ولم يَطُلْ بها الأمر حتّى أَهلَّ وليدها، على غرار طفل المغارة.

وبضعة أيّامٍ بعد ولادته، طرق الباب متسوِّلٌ، وألحّ في رؤية الوليد، وعبثًا حاول الخدم إغراءه بجناح دجاجة، وإقناعه بالانصراف، غير أنّه أبى إلاّ أنْ يُلبّى طلبُه، وحيالَ إلحاحه المُستَغْرَب استجابت السيّدة «بيكا» له، وقد توسَّمت في إصراره، أيضًا، سرًّا قدسيًّا. وما إن تناول الغريبُ الطفلَ بين ذراعيه حتّى طفق يتنبَّأ قائلاً إنّ ذلك اليوم قد شهد ولادة صبيَّيْن في أسّيزي، سيصبح أحدهما من أفضل الناس، فيما سيصبح الآخر من أسوئهم. وقد أجمع المُعلّقون على أنّ الأفضل هو فرنسيس، ومضوا يجتهدون في استبانة الأسوأ، وتشعَّبت في استنتاجاتهم المذاهب. ولكن، أَلاَ يُمكن أن يكون كلاهما واحدًا، الأسوإ فرنسيس الشابّ الضالّ، والأفضل فرنسيس الذي استسلم لفعل النعمة، وانتهج أوعر الطرق سبيلاً إلى الكمال؟ أَوَلا يتعايش في حنايا كلٍّ منّا، الأفضل والأسوأ معًا، والحرب ناشبةٌ أبدًا بين قوى الشرّ المتحكمّة بوهننا، ونوازع القداسة التي لا تني تؤرقنا؟

كان والد فرنسيس غائبًا في سفرٍ، فتولّت والدته تكريسه للربّ، ومع اجتيازها عتبة

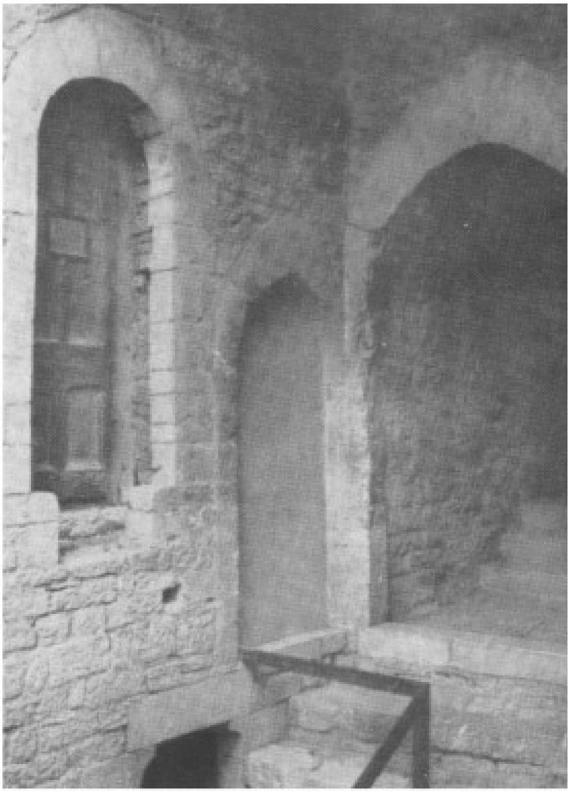

البيت الأبويّ

جرن المعموديّة

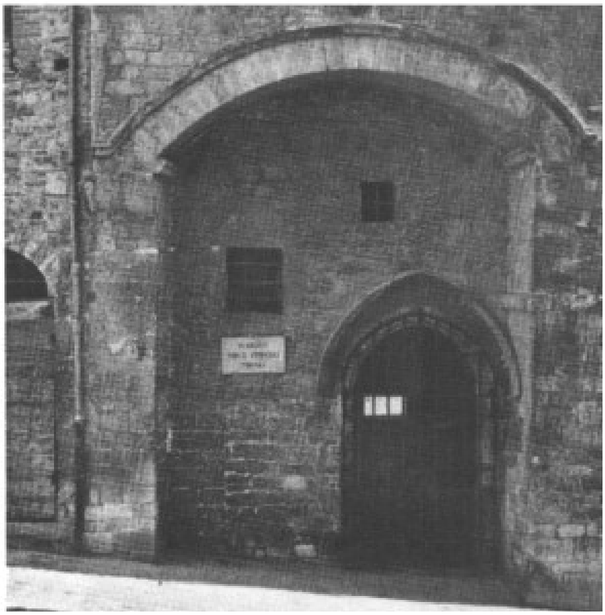

الإسطبل حيث ولد
القدّيس فرنسيس، بحسب التقليد

كاتدرائيّة القدّيس روفان، بات الصبيّ فريسة اللّه، وأسير حبّ الكنيسة حتّى آخر لحظةٍ من حياته.

وبإيحاءٍ مزدوجٍ من الحَدْس والإلهام، اختارت الأُمّ لوليدها اسم «جيوڤاني»، أي يوحنّا، تَيَمُّنًا بالمعمدان الذي قال فيه يسوع إنّ نساء العالم لم يلدْنَ أعظم منه. هي أيضًا كانت تحلم أن يغدو ابنها الأعظم، في حين كانت العناية الإلٰهيّة تريد له أن يكون كالسابق، صوتًا جريئًا داعيًا إلى التّوبة والخلاص، وقدوةً في التجرُّد والنسك والنقاء.

بيد أنّ أحلام الوالد كانت على النقيض من ذلك، فلقد كانت تجارته هي المسيطرة على مطامعه، وكانت الثروة التي أصابها بجهوده قد أَنشَتْهُ، فبات مُستبدًّا في منزله وخارجه. ولقد استشاط غيظًا عندما علم أنّ زوجته أطلقت على بكرها اسم «جيوڤاني» وأمر بأن يُطلق عليه اسم «فرانسوا» ذي الوقع الفرنسيّ، ولاسيّما وأنّه كان عائدًا من فرنسا، حيث عقد صفقاتٍ تجاريَّةً مُجزيةً؛ وكان يتطلّع إلى اليوم الذي ينضمُّ فيه ابنه البكر إلى مشاريعه التجاريّة، ويُسهم في إنمائها، وتضخيم مردودها، وتوسيع آفاقها. ولا عَجَب، بالتالي، إن عكف السيّد بيرناردوني على تلقين ابنه اللُّغة الفرنسيّة، التي كان يتباهى باستخدامها أبناء الطبقات الراقية، والتي كانت أمُّه، أيضًا، غالبًا ما تخاطبه أو تحدو له بها، وبها لقَّنته أولى صلواته؛ فهي اللُّغة التي بها نطقتْ كلماتها الأُولى، وعبَّرت عن أولى خلجات قلبها، وقد ظلَّت تلك اللغة أثيرةً على قلب فرانسوا حتّى آخر أيّامه، فكان يلجأ إليها للتعبير، غناءً، عمّا كان يُفعم نفسه من فرحٍ، ونشوةٍ، ووَجدٍ إلٰهيّ.

فرنسيس الطالب

قليلون هم الذين كانوا يتزوّدون بالعلم، في تلك الأيّام. ولكن كان على ابن الثريّ بيرناردوني أن يتزوّد بالعلوم الأساسيّة المتمثّلة في القراءة والكتابة بالإيطاليّة واللاتينيّة، فضلاً عن الإلمام بالفرنسيّة، وعلى نحوٍ خاصّ، التمكّن من العمليّات الحسابيّة الأربع الكفيلة بتأهيله للعب دوره المستقبليّ في ميدان التجارة.

اختلف فرنسيس بالتوالي إلى مدرستَيْ القدّيس نيقولاوس، والقدّيس جاورجيوس، في أسّيزي، وسرعان ما ألهبت خياله أسطورة ذلك القدّيس الفارس جاورجيوس، الذي

قهر التنّين، في سبيل إنقاذ أميرةٍ، فكان لا يملُّ من سماعها، في متعةٍ وشُرودٍ، حالِمًا بأن يصبح، هو أيضًا، ذات يومٍ، فارسًا يقهر تنّين الشرّ، ولكنّه لم يكن يدرك، بعدُ، هويّة الأميرة التي عليه أن يُنازل التنّين إكرامًا لعينَيْها، وربَّما شغله هذا التساؤل، بعض الشيء، عن دروسه، فظلّ حتّى كهولته، يرتكب أخطاءً إملائيّةً، بيد أنّه توفّق في تحقيق أحلام فروسيّةٍ فذَّةٍ، من نمطٍ خاصٍّ.

لقد ظلّ فرنسيس، حتّى آخر أيّامه، يَصِفُ نفسه بالجاهل، مع أنّه، في معايير زمانه، كان مثقَّفًا. إلاّ أنَّه لم يكن، يومًا، رجل فكرٍ، ولا هو كان مُغرقًا في العلم، بل ظلّ سحابة حياته، رجل عملٍ، مؤمنًا أنّ الانغماس في العلم يحجب عن البصيرة الوقائع الأرضيّة والسماويّة على السواء.

ولكأنّي به كان، مُذّاك، يتوجّس، ولو على نحوٍ مُبْهَمٍ، عِظَم الرسالة التي سيُنتَدَب لها، فآثر ألاّ يحتلّ ذهنَه سوى الإنجيل، وآثر جهل العالم، كي يظفر بعلم الله.

شخصيّته تتكوّن

كان فرنسيس الفتى مُتوقّد الذّهن، مُتيقّظ الشعور، حسَّاسًا، يفيض جَذَلاً، وهو يجوب شوارع أسّيزي وأزقّتها، في طريقه إلى المدرسة ومنها، ميّالاً إلى الضحك، وكانت ضحكاته مُدوِّيةً رنَّانةً.

ومع أنّ قَسَمات محيّاه كانت عاديّةً، لا تتميَّز بالجمال، إلاّ أنَّ جاذبًا كمينًا كان ينبعث منه، يجتذب إليه الآخرين، بحيث كان أترابه يجدون أنفسهم مدفوعين إلى التحلُّق حوله، راضين بتزعّمه لهم؛ فغدا، منذ طراوة عوده، قائد عصابة، خبيرًا في عقد الصداقات، ولَمّ الأتباع حوله. لقد كان، بالسليقة، منْفَتحًا على الآخرين، ميَّالاً إلى التلاقي معهم، في رقّةٍ وَرِثها عن والدته، وقد أوجز القدّيس بوناڤانتورا شخصيَّته آنذاك بهذه العبارات: «رِقّةٌ، سحرٌ، صبرٌ، ودٌّ يفوق المستوى البشريّ، كَرَمٌ يتجاوز حدود الموارد».

كلّ ذلك كان يجعل منه فتًى رقيق الظلّ، بل جذّابًا، وقد قال كاتب سيرته الأوّل، توماس شيلانو: «إنّ مشاعره الطبيعيّة كانت كافيةً لتجعل منه صديقًا لكلّ كائنٍ».

وإلى جانب ذلك، كان هَشَّ الصحّة، غالبًا ما يُضطرّ إلى ملازمة الفراش أو

الاستجمام، ممّا يفسح له فتراتٍ متماديةً من الحلم والتأمّل، سواء أمام ألسنة النار المتراقصة في الموقد، شتاءً، أو في أحضان حديقة والده، حيث الجوّ الطليّ يُشيع الانتعاش، والنهر المتدفّق يردّد، بلا انقطاعٍ، نشيد لُجَجه الصاخبة، والعصافير المتطايرة تنشر أنغامها الجَذْلى، والطبيعة كلّها، ببراعمها وأزاهيرها، بأعشابها ونباتاتها، بأشجارها وثمارها ترتجل، في كلّ لحظة، قصيدة شكرٍ وتمجيدٍ لباريها.

وقد عَلِق قلبه بالطبيعة وبجميع المخلوقات، وواكبه هذا الشغَف طوال حياته، حتّى غدا ركنًا أساسيًّا من أركان شخصيّته.

وكانت هشاشة صحّته تستدعي المزيد من حنان والدته، ومن خشيتها عليه، وإحاطتها إيّاه بأَرَقّ رعايةٍ، كما كانت تدفع والده إلى إغداق المال عليه، ولاسيّما وأنّ السيّد بيرناردوني كان يطمح في إبراز ابنه كواحدٍ من أبناء النبلاء. ولا عَجَب، بالتّالي، إن جَنَح الصبيُّ المدلَّل إلى الترف والتبذير والعبث. بيد أنّ ذلك الميل فيه لم يحجُبْ، يومًا، كرَمًا متأصّلاً، وحَدبًا على المعوزين والفقراء، كان يدفعه إلى مدّهم بأجزل عطاءٍ.

فرنسيس التاجر

كانت فترة الدراسة قصيرة الأمد، وهي، لابن بيرناردوني، لم تكُنْ سوى مدخلٍ إلى التجارة. وفي ذلك العصر، لم يكن الفتيان ينعمون بمراهقةٍ متسكّعةٍ حافلةٍ بالفراغ، بل كان عليهم المبادرة إلى احتلال مكانهم في مهنة الأسرة، منذ نعومة أظافرهم.

وهكذا ما كاد فرنسيس يتخطّى العاشرة حتّى راح يختلف إلى متجر والده، للاطّلاع على سير العمل فيه، والتأهّب للإسهام به بنفسه. كما أنّ والده قد شرع يصطحبه في بعض أسفاره إلى سائر مُدُن إيطاليا وفرنسا، كي يتيح له الاحتكاك، عن كثبٍ، بأرباب المهنة، وولوج دهاليزها، واكتشاف أسرارها، والتعرّف بأحدث أصناف الأقمشة الصوفيّة والحريريّة، وتيّارات الألوان والأزياء الرائجة، فضلاً عن أنَّ تلك الأسفار كانت تساعد الفتى على التمكّن من اللُّغة الفرنسيّة، وعلى اكتساب خبرةٍ في التعامل التجاريّ. إلاّ أنّها قد وفَّرت له، بالإضافة إلى كلّ ذلك، الإلمام بأنماط عيشٍ وتفكيرٍ مختلفةٍ، وأشرعت له آفاقًا قشيبةً رحبةً.

ومن أكثر ما لفت اهتمام الفتى، أثناء أسفاره إلى فرنسا، «التروبادور»، أي أولئك

الشعراء الجوّالون، الذين كانوا يُنشدون في الساحات، وعلى قارعات الطُّرق، قصائد الحبّ العذريّ، وأناشيد الفروسيّة، على وَقْع الرقص وأنغام الآلات الموسيقيّة. وقد ترسّخت تلك القصائد والأناشيد في ذاكرة الصبيّ، وحنايا صدره، وظلَّت تجيش بها نفسه، وينطلق بها لسانه، حتّى آخر أيَّامه، كلّما استطاره الفرح.

وكانت سنّ الرابعة عشرة هي سنّ البلوغ، ومباشرة العمل الجادّ؛ وعندما انتهى إليها فرنسيس، انخرط في جمعيَّة التجَّار، ومنحه والده سهمًا في متجره، وأَوْكل إليه المشاركة في إدارته. وقد تجمَّعت للفتى كلُّ عوامل النجاح في تلك المهمّة، فقد كان مُتوقِّد الذهن، ويحدوه حافزٌ متوثِّبٌ لإثبات الذات، والتفوُّق. وفوق كلّ ذلك، كان حلو المعشر، ظريفًا، ودودًا، جذّابًا، كثير الأصدقاء، وقد تميَّز بتهذيبٍ جمٍّ، ودماثةٍ متناهيةٍ، إذ كان يتحاشى عن خدش مشاعر أيّ إنسانٍ، ويعامل الجميع في أدبٍ مُرْهَفٍ، معاملة سيّدٍ نبيلٍ، وينتزع محبّة الجميع. وكان، أيضًا، قليل الغضب، سريع الغفران، كاتمًا للسرّ، يتكيَّف بيُسرٍ مع شتّى الطباع مهما تباينت، فضلاً عن أنّه كان مُغْرَقًا في التأنّق، مُفرطًا في ارتداء أفخر الثياب، وأكثرها غرابةً، فما عتَّم أن غدا متجرُ آل بيرناردوني قِبْلة ناشدي السِّلَع النادرة، وملتقى صَفْوة الشُبَّان من علّيّة القوم وأثريائهم، ومن طبقة أسّيزي الذهبيَّة، ومن أولئك الذين لا يتورّعون عن ابتياع أنفس الأقمشة وأغلاها، ولو هم كانوا عاجزين عن أداء أثمانها. وكان پييترو بيرناردوني، والد فرنسيس، يُشجّعهم على الاستدانة، ثمّ يستوفي ديونه من ذويهم أضعافًا، أراضي وبساتين، وقصورًا...

وسرعان ما تجلَّت مهارة فرنسيس، وطول باعه المبكِّر في ميدان التجارة، وتمكُّنه من صفات التاجر المُجلّي، خلا واحدةً، من أكثرها خطورةً، ألا وهي الاقتصاد. فقد كان مُسرفًا، مُبذِّرًا، وكأنّ كفّه مثقوبةٌ، تُنفق، في سرعةٍ وسعةٍ مذهلتَيْن، الأرباح الطائلة التي كانت تتدفّق عليها. وكان بيرناردوني الوالد يغضّ الطَّرْف عن سلوك ابنه ذاك، تقديرًا منه للازدهار الذي أصابه متجره من جرَّاء وجود فرنسيس فيه، وطمعًا في أن تنعم الأسرة، إلى جانب الثروة الطائلة، بمحاكاة النبلاء ومضاهاتهم.

كانت متعة الوالد تكمن في رؤية أكداس الذهب تتراكم في خزائنه، وأطيانه تزداد، وحدود أملاكه تمضي اتّساعًا، فيما كانت مُنية فرنسيس تحويل المال إلى ترفٍ، ورَغد عيشٍ، ومباهج؛ وعلى نحو ما كانت قد تحلَّقت حوله، أيّامَ الدراسة، طائفةٌ من الأتباع والمشاغبين، حوَّمت حوله، وقد غدا تاجرًا كريمًا، حلقةٌ من ملتمسي العَبَث واللهو،

الذين وافوه، لا من شتّى مناطق أسّيزي فحَسْبُ، بل أيضًا من القرى والمدن المجاورة. كانت تجمعهم موائده الليليَّة العامرة بأشهى الأطايب، وأعذب الشراب، يعبّون منه حتّى النشوة، ثُمّ يمضون يطوفون شوارع أسّيزي، وقد تصرَّم من الليل معظمه، وأخلد الناس إلى عميق السُّبات، يجأرون بالأناشيد الصاخبة، والدعابات الساخرة، ناشرين الضجيج والإقلاق، وهم طورًا يرفلون بأفخر الملابس، وتارةً بمباذل المهرّجين. وكان فرنسيس يدفع بموكبهم أمامه، وهو في المؤخّرة، وقد أمسك ما يشبه الصولجان، وكأنّه ملكهم غير المتوّج. وكثيرًا ما كان يقود حلقات رقص تحاكي الدبكة في بلادنا، وبصوته الجهير الدافئ العذب، يُنشد قصائد الغزل العذريّ التي تلقّنها من «تروبادور» فرنسا.

كان فرنسيس يفيض حبورًا، ويُخيّل لمن يراه أنَّ الحزن لا يعرف إلى نفسه سبيلاً. بيد أنَّ الذين عرفوه عن كثّب كانوا يستشفّون شيئًا من القلق يثوي في قرارة نفسه. ورُبّما كانت والدته أكثر الناس استشفافًا لتلك الازدواجيّة التي تطبع معظم النفوس الكبيرة، ومن ثَمّ، كانت تردّد على مسامع شاجبي سلوك ابنها: «آمل أن يصبح، هو أيضًا، ذات يومٍ، من أبناء الله».

ولا بدّ، هنا، من الإشارة إلى تضارُبٍ قائمٍ بين الجيل الثاني من كتبة سيرة القدّيس فرنسيس، وفي طليعتهم القدّيس بوناڤانتورا، الذين جَهدوا في التأكيد أنّه، رغم انصرافه إلى اللهو والعبث، وإغراقه في البذْخ والصَّخَب، إلاّ أنّه لم ينزلق قطّ إلى الفسق، وحافظ على طهر الجسد، وعفَّة القلب. ولا ريب أنّه شقّ عليهم التسليم بأنّ ذلك الجسد الذي كرّمه الربُّ بطبع سِمات يسوع فيه، قد كان، يومًا، ضحيَّةً للدَّنس.

بيد أنَّه يُستخلَص من بعض أقوال فرنسيس نفسه، ومن كتبة سيرته الأوائل، أنّه لم يكن في منجاةٍ من خطايا الجسد، في سنيِ طيشه. وإنّما في ذلك عزاءٌ جمٌّ لسواد الخطأة الذين يجدون فسحةً من الأمل واسعةً في مثال ذلك القدّيس الذي تسنَّم أسمى ذُرى الطهر، وأُعطي أن يتشبَّه بيسوع، بعد أن كان قد تردّى، في صباه، إلى حمأة الفسق، شأن الكثيرين من الشبّان.

ولكن، من المُحقّق أنَّه، ولئن هو انزلق إلى الخطيئة، قد تنكّب أبدًا عن الابتذال والإسفاف أو التبجُّح بمعاصيه، ولم يتخلَّ، قطُّ، عن خَفَرٍ مُرْهَفٍ متأصِّلٍ فيه، فقد عُهد عنه حرصه على عفّة اللِّسان، فلم تَصْدُرْ عنه، يومًا، لفظةٌ نابيةٌ، وإذا ما طَرَقَ سمعَه قولٌ مُقذعٌ أعرض عنه في انفعال، وتجهَّم وجهه، وانقلب عبثُه جدًّا صارمًا.

كما أنّ انغماسه في البذخ والإسراف على نفسه وعلى صحبه لم يصرفه عن الفقراء والمُعوزين. بل كان كلُّ سائلٍ يمدُّ له يدًا واثقًا من الظَّفر بجزيل العطاء.

وقد اتَّفق، يومًا، أنّ مُتسوِّلاً قذرًا، رثَّ الثياب، منفِّر الرائحة، داهم متجر آل بيرناردوني الذائع الصيت بأناقته، ووافى فرنسيس سائلاً حسنةً «حُبًّا باللّه»، فيما كان الشابّ المرهف، في غمرة انشغاله بعرض أنفس الديباج على نُخبةٍ من الزبُن المترفين. وأنّى لمُتسوِّلٍ زريٍّ أن يقتحم محراب الأناقة والفخامة؟ لقد سارع فرنسيس إلى حسم ذلك الموقف الشاذّ، بردّه السائل، في شيءٍ من الجفاء، وهو في شبه غفلةٍ عن نفسه. وانسلّ المسكين في مِثْل صمت الظلّ، وقد طالما خَبرَ صَدَّ الأغنياء وقسوة قلوبهم. ولكن سرعان ما نشب صراعٌ عنيفٌ في صدر فرنسيس، وراح صوتٌ داخليٌّ يؤنّبه قائلاً: «لو أنَّ ذلك السائل قد جاءك من قِبَلِ أحد أصدقائك النُّبلاء، لما تردَّدتَ في تلبيه طلبه، وها هو قد جاءك من قِبَل ملك الملوك، وسيّد الأسياد، إلاَّ أنَّك رددته خالي الوفاض، بل قرَّعته بقاسي الألفاظ».

وبغتةً هجر فرنسيس زبائنه، وديباجه، ومتجره، وهرع يجري في إثر المتسوِّل، وأفرغ في جيبه قبضةً من الذهب، وفي اندفاعٍ متفجِّرٍ من أعماقه، عقد العزم على ألاّ يَرُدَّ أبدًا سائلاً يأتيه «حُبًّا باللّه».

ولا ريب أنَّه، منذ تلك الفترة، قد شرَعَ يتألّم لَمشاهِد البؤس، والبَوْن الشاسع بين الغنى الفاحش والفقر المُدقع. فقد كانت مظاهر العوَز والفاقة تنتشر من حوله، في حين كانت ثروات أبيه وأمثاله تتضخّم، كلّ يومٍ، تضخُّمًا مُنْكَرًا. وعندما كان يتجوَّل بين أملاك والده الشاسعة، كانت تداهمه، من بعيدٍ، روائح مقزِّزةٌ تنبعث من مآوي البرص، فتبعث في نفسه الغثيان والحزن معًا، وكان يشاهد في الغابات أناسًا عضَّهم الجوع فتناولوا كلَّ ما طالت أيديهم من طعامٍ موبوءٍ، وشرابٍ وبيلٍ، فتفشَّت فيهم الأوبئة المُعدية، وعُزلوا عن العالم، وأُرغِموا على مثل عيشة الوحوش الآبدة.

مشاهدُ كانت تنحفر في أغوار نفسه مضنيةً، مزعجةً.

وبالإضافة إلى كلّ ذلك، كان متجر آل بيرناردوني ملتقى المسافرين والسياسيِّين والتجّار، وأُولي النفوذ، يتداولون كلَّ حديثٍ عن الأفكار والبِدَع والنزعات الاجتماعيّة الجديدة، التي حفلت بها تلك الحقبة الجيَّاشة، والتي خلَّفت أصداء مُدويَّة في نفس فرنسيس، وأسهمت في دفعه نحو مستقبله المجهول.

حقبة تبدُّلاتٍ جذريّة

تلك الحقبة الممتدَّة بين أواسط القرن الثاني عشر، ومطلع القرن الثالث عشر، تميَّزت بالازدهار، والثورة، والتجديد، والتبدُّلات الجذريّة، في إيطاليا وفي أرجاءٍ عديدةٍ من أوروبّا. وقد تمثَّلت تلك التبدُّلات أكثر ما تمثَّلتْ، في اندثار عهد الإقطاع، ذي النظام الهرميّ، حيث كان يقف على قمَّة الهرم سيِّدٌ مُطْلَق – وغالبًا ما كان أُسقفًا أو رجل دينٍ – يمتلك قريةً أو ناحيةً بأكملها، بما فيها من أرضٍ، وسُكَّانٍ، وبهائم، وينتدب عنه مرؤوسين مسؤولين عن تأدية الحساب بين يديه، وكلٌّ مرؤوسٍ يُعيِّن مرؤوسًا أدنى منه. أمَّا في قاعدة الهرم، فكان يثوي الفلاَّحون، رقيق الإقطاع، وعبيد الأرض، وهم لا يملكون من أمر أنفسهم ووجودهم شيئًا، ولا يقوون على التحرُّك إلاّ بإذنٍ.

ذلك العهد، الذي تمادى قرونًا طويلة، كان عهد استقرارٍ، والتصاقٍ بالأرض، ولكنَّه كان، أيضًا، عهد سحقٍ، واستغلالٍ، وإذلالٍ لسواد الشعب.

بيد أنَّ القرن الثاني عشر قد شهد ازدهارًا مدهشًا في نشاط التجارة، والتبادلات بين شتّى المدن الأوروبّيَّة، وبين أوروبّا – وفي طليعتها إيطاليا – والشرق، ولاسيَّما القائم منه على حوض البحر المتوسِّط. وكان الإقطاعيُّون يتغاضون عن ذلك النشاط، لقاء مكوسٍ ورسوم عبورٍ، يفرضونها على القوافل والتُجَّار.

وكان من علامات ازدهار التجارة في ذلك العصر، ومن نتائجه أيضًا، رواج العملات المسكوكة من ذهبٍ وفضَّةٍ، التي سرعان ما حلَّتْ، على أوسع نطاقٍ، محلّ المقايضات العينيّة. وقد برع الإيطاليّون، على نحوٍ خاصٍّ، في إنشاء نظام الصيرفة، ووسائل تيسير التبادل التجاريّ بين شتّى المراكز التجاريّة العالميّة، بفضل ما ابتدعوه من تسهيلاتٍ ائتمانيّةٍ.

وتعاظم شأن التجارة، وكانت تجارة الأقمشة من أهمّها وأوسعها، وتضخّمت الثروات، فبات أربابها يتطلَّعون إلى السلطة والنفوذ. وتكتَّل التُجّار في اتّحاداتٍ منيعةٍ غدت قادرةً على التفاوض مع الأسياد والإقطاعيّين، من أجل تحديد نسب الضرائب والرسوم بما يتماشى ومصالحها، كما أنَّهم، بفضل ما كدَّسوه من أموالٍ، أخذوا يُجرِّدون الإقطاعيّين، شيئًا فشيئًا، من ممتلكاتهم وامتيازاتهم.

وخليقٌ بالتنويه أنَّ قوافل التُجَّار لم تكن تنقل السلع فحسب، بل غالبًا ما كانت تنقل الآراء المتداوَلة، والانطباعات عن الرائج من نزعاتٍ اجتماعيَّةٍ جديدةٍ، ونماذج حكمٍ

مختلفةٍ، وغدت أحاديث العائدين من السفر خميرةً فاعلةً في تسريع عمليّات التغيير المُعتَمِلة في الأذهان والصدور.

وأُسوةً بالتُّجّار، تكتّل شتّى المهنيّين في اتِّحاداتٍ، وأصبح هؤلاء وأولئك يتطلَّعون إلى التحرُّر تحرُّرًا تامًّا من ربقة الإقطاعيّين، وإلى إقامة بلديّات تكون السُّلطة فيها أفقيَّةً، تضامنيَّةً، يضطلع بها مُنتَخَبون من عامّة المواطنين، بحيث يدعى النظام الجديد نظام «العاميّة» (COMMUNES). وما لبث أن انقلبت تلك التطلُّعات وقائعَ ماثلةً، فدمّرت حصون الإقطاعيّين وصروحهم، وبحجارها شادت البلديّاتُ أسوارًا كفيلة بحمايتها من اعتداء البلديّات المجاورة، إذ سرعان ما أثارت المطامع والمنافسة صداماتٍ مُطَّردةً بين شتّى البلديّات الناشئة.

وسرت روحٌ جديدة، وأخذت المدن الحديثة ترسم أُطُرها المستقبليّة، وبرز نظامٌ جديدٌ أوفر حركةً وتطوّرًا، واستقلاليَّةً وحرّيَّةً، وانفتاحًا كان لا بدّ منه للاطِّلاع على الاكتشافات الزراعيّة، وأساليبها الحديثة، الكفيلة بمواجهة متطلّبات العهد الجديد، وما واكبه من ازديادٍ ملموسٍ في عدد السكّان، بعد أن انحسرت موجات الأوبئة الفتّاكة، والغزوات الخارجيَّة.

غير أنَّ المال يفسد كلَّ شيء. فما كاد النظام الجديد يستتبّ حتّى مضى الأثرياء في استغلاله لمغانمهم الخاصّة، وأخذوا يشترون المناصب، يُعيّنون فيها أزلامهم، ويحتكرونها، ويتوارثونها، ومن مراكز السُّلطة التي أحكموا عليها قبضتهم، استولوا على شتّى الامتيازات، فأعفوا أنفسهم من الضرائب والمكوس، ليُثقلوا بها كواهل الكادحين ويستغلُّوهم؛ وراحت هُوّة التفاوت تتَّسع، من جديدٍ، بين مختلف فئات الشعب، وعادت أنّاتُ المحرومين والمسحوقين تتعالى.

وكان فرنسيس يرقب كلَّ تلك التناقضات: الازدهار ووجهه القاتم الآخر؛ الاستقلال وما يواكبه من استغلالٍ؛ الترف والبؤس ينشآن وينموان جنبًا إلى جنبٍ.

كان يشهد القسوة التي يُعامل بها والدُه، وأمثالُه، المدينين، رغم ما يؤدّيه لهم هؤلاء من فوائد باهظةٍ، ولاسيَّما عندما يتوسَّلون لإرجاء أجل سداد ديونهم، فيردُّونهم بعنفٍ، ويُحطِّمون مستقبلهم المهنيّ، وحياتهم.

وكان يرقب، أيضًا، طبقة الفقراء الجدد، الذين أفرزتهم الثورة التجاريّة، ومعظمهم من الفلاّحين الذين كانوا يكدحون في أرضٍ لا يملكون منها ذرَّة ترابٍ، وقد خلب

ألبابهم سراب المدن، فأمُّوها بحثًا عن عملٍ مُجْزٍ، ومالٍ بات بريقُه يُغري الجميع، فخَبَروا التكدُّس في مساكن ضنكةٍ وبيلةٍ، قذرةٍ، وعرفوا البطالة، والتسكّع، والجوعَ، والتسوُّلَ، والمهانة.

أمّا الذين عملوا منهم في المصانع، فكانوا يكدحون الساعات الطوال، في كلّ يومٍ من أيّام السنة، لقاء أجرٍ زريٍّ لا يكفيهم إلاّ لابتياع كسرات خبزٍ تُبقيهم أحياءً، قادرين على إنتاج ما يُضَخِّم ثروات أرباب العمل، ويُنفقون، في ذلك، زهرة شبابهم الذي سرعان ما يذوي، وحينئذ يُرْذَلون، ويُلْقَوْن في أحضان المرض، والعجز، والفاقة، والوحدة. كان قد خُيِّل إليهم أنَّهم تحرَّروا من عبوديّة الإقطاع، ولكنَّهم، في واقع الأمر، إنّما استبدلوا أسيادًا مستَبِدّين، بأسيادٍ مستَغِلّين.

إزاءَ كلّ ذلك، آنس فرنسيس اندفاعًا متفجِّرًا في أعماقه، اندفاع العطف والتضامن والإيثار، الذي يمضي بمن يستسلمون له، شأوًا بعيدًا في ميادين العطاء والتضحية.

ومن جهةٍ أُخرى، كان فرنسيس يشهد الكنيسة، التي كانت ضالعةً في الإقطاعيَّة، ومنغمسةً في أُمور الدنيا ومغانمها، وقد هزَّت التبدُّلات كيانَها، فيتساءل مع المتسائلين أين هي ضمانة ثباتها وصمودها؟، وفي هذا السياق قد كتب البابا لاون الثاني عشر، في مقدّمة كتاب عن فرنسيس الأسّيزيّ: «في تلك الحقبة من القرن الثاني عشر، كانت السُّلْطة حِكْرًا في يد فئةٍ ممّن لا يستخدمونها إلاّ للإمعان في سحق سواد الشعب البائس المُزْدَرى، وقد أصابت عدوى الرذائل الرائجة، حتّى أولئك الذين كانت تقتضي وظائفهم أن يكونوا للجميع قدوةً».

ولا عَجَبَ، بالتالي، إن تكاثر انتشار البِدَع الداعية إلى إصلاح المجتمع والكنيسة، والتي، في دعواتها، كثيرًا ما اختلط الصواب بالشُّذوذ والضلال.

وقد أدرك فرنسيس أنّ العالم ينشد مُعادلاتٍ جديدة، وعلاقاتٍ قشيبةً أوفر حرّيّةً، وإنسانيَّةً، ومساواةً، وعدلاً. وربَّما استشفَّ، مُذَّاك، الحلّ الوحيد المتمثِّل في العودة إلى أصالة الإنجيل، فوحده الإنجيل كفيلٌ بتوفير الضمان الأكيد لصمود الكنيسة ولسلامة العلاقات بين البشر، بما يدعو إليه من محبَّةٍ، وإيثارٍ، وتجرُّدٍ، بحيث تنتفي كلّ سيطرةٍ، ويتسنّى لأصغر الناس عقد علاقات إخاءٍ حقيقيٍّ مع الجميع.

بيد أنّ تلك الآفاق المتألّقة، كانت ما تزال غارقةً بالضباب، في ذهن فرنسيس،

فهو، بعدُ، في العشرين من عمره، وما انفكَّ نهبًا بين نزعاتٍ متنابذةٍ: إنّه الشابُّ اللاهي، ابنُ الثريّ پييترو بيرناردوني وشريكُه، ولقد أصاب من النجاح نصيبًا وافرًا، ولكنَّه غالبًا ما تساءل عن طعم المرارة الذي كان يُخلِّفه النجاحُ في أعماقه، ولاسيَّما وأنَّ مهنة التجارة كانت ما تزال، في الأذهان، مُريبةً ومرذولةً، تواكبها اللعنة، لارتباطها بمعاني السُّحْت، والرِّبى، والاستغلال؛ ورغم المظاهر الزائفة، كانت مزاولة تلك المهنة جُرحًا نازفًا في حنايا فرنسيس الشابّ.

كان مُحاطًا بتقدير الأصدقاء ومحبَّتهم وتعظيمهم، ومع ذلك، كانت زوايا فسيحةٌ من نفسه تَئِنُّ من الفراغ؛ وكان قد ظفر بالخبرة والاستقرار، إلاّ أنّه كان يُؤْنس أنَّه ما زال يقرع باب المجهول، وكان هاتفٌ سرّيٌّ لا يني يدعوه إلى هجر أرضه وعشيرته وبيت أبيه، إلى ديارٍ أُخرى سيريه إيَّاها الربّ، في حينه. كان لا يزال يسلك سلوك أترابه، ومع ذلك يمتلك شيئًا مختلفًا سيجعل منه شخصيّةً متميِّزةً، وتلك الشخصيَّة كانت ماضيةً في الصَّحو من غفوتها، جاهدةً في تحطيم شرنقتها، والكشف عن كوامن عبقريَّتها.

ومن المُحقَّق أنَّه كان، آنذاك، فريسة الله، الذي أحكم عليه قبضته، ولكن برفقٍ، وراح يقوده بتُؤَدَةٍ وثقةٍ، عبر دروب رسالته الشاقَّة السامية.

الأسير

كان فرنسيس يتطلَّع إلى الارتقاء فوق مهنة التجارة، ويصبو إلى المجد والمركز القياديّ، وخُيِّل إليه أنَّه عثر على المدخل إلى ذلك الهدف، في غروب عام ١٢٠٢، عندما نشبت الحرب بين مدينة أسّيزي وجارتها پيروجيا، فانضمّ إلى قادتها من الفرسان والنبلاء الأسِّيزيِّين. وقد أسرف والده في إلباسه أزياء النبلاء، وتجهيزه بمعدّات الفرسان، طمعًا في أن يراه وقد غدا واحدًا منهم. ولكن سرعان ما أسفرت الحرب عن هزيمةٍ نكراء مُنِيَ بها الأسّيزيُّون، وقد أعمل الپيروجيُّون بجندهم قتلاً ذريعًا، حتّى غصَّتْ بأكداس جُثَثِهم الساحاتُ والطرقات، واصطبغ نهر التبر بالنجيع القاني؛ أمّا فرسانهم فاستاقوهم أسرى، إذ لا بدّ أن يكون الفارس صاحب ثروةٍ، ومن ثَمَّ مُؤَهَّلاً لدفع فديةٍ.

كان جميع الأسرى الأسّيزيّين من النبلاء، خلا فرنسيس الذي ربَّما فاقهم ثروةً، ولكنَّه لم يكن منحدرًا من مَحْتِدٍ نبيلٍ، ولكنّه عُدَّ واحدًا منهم، واكتسب ذلك «الشرف»، حين قُيِّد معهم بأغلالٍ واحدةٍ، وقاسمهم قتام سجنٍ رطبٍ، زريٍّ، تحت الأرض.

كان قد سعى إلى المجد، فظفر بالأسر المهين، وكثيرًا ما كانت تتناهى إلى سمعه، في هدأة اللَّيل، صيحاتُ شُبّان پيروجيا الجذلى، وأناشيد النصر التي كانت تُدوّي بها مدينتهم، موقظةً في ذاكرته ليالي لهوه مع أترابه. ولكنَّ الأصوات والذكريات كانت تُخْفِق في تعكير سكونه وسجوّ نفسه، في حين كان رفاق سجنه يئنُّون من جرح الكبرياء النازف، ومهانة الهزيمة، ولا يكفُّون يبصقون الشتائم، ويتذمَّرون من الذلّ، والجوع، والقرّ، والقيود، وهم الذين لم تكن الحياة تعني لهم، من قبلُ، سوى التَرَف، والمتعة، والانطلاق.

لا ريب أنَّ فرنسيس، الهشّ البنية، كان يعاني عضّات البرد، ووخز الرطوبة، في ذلك الشتاء القارس، إلاّ أنّه كان يُثير دهشة رفاقه بإمساكه عن أيّ شكوى، بل كان دائم البهجة، لا تغيض له ابتسامةٌ، ولا ينضب منه فرحٌ، بل غالبًا ما كان يُفْلِح في انتزاع الضحك من رفاق مِحنته المنهارين، وكثيرًا ما كان يتظاهر بالعزف على الماندولين، وينطلق ينشد قصائد التروبادور بصوته الشجيّ، فيطمئنّ رفاق سجنه نفسًا، ويأنسون إلى نشيده وإلى الفرح المشعّ منه؛ وسرعان ما باتوا يأبون النوم ما لم يهدهد فرنسيس نعاسهم بأغانيه؛ ورُبّما استقرّ في خَلَد فرنسيس، منذئذٍ، أنّه منتدبٌ لنشر الفرح بين الأنام.

وكان بين الأَسرى فارسٌ متجهّمٌ أبدًا، صَلِفٌ، صعب المراس، منعزلٌ، لا يجرؤ أحدٌ على مخاطبته؛ بيد أنّ فرنسيس، برِقَّته وسِحْره، توفَّق إلى بسط أساريره، بل وإلى إشراكه في الضحك مع الآخرين. فضلاً عن أنَّه كان المؤاسي لكلّ رفاقه، يهرع إلى العناية بكلّ من تعتلّ صحّته، بحيث باتوا يتساءلون من أيّ مَعينٍ سرّيٍّ كان يستمدُّ فرحَه، ونشاطَه، رغم هشاشة جسمه؛ رُبَّما هو نفسه كان يجهل ذلك، أيضًا؛ ولكنَّه، ذات يومٍ، أجاب، بعفويّةٍ: «إنّني سعيدٌ لأنّ العالم كلَّه، سيُكرِّمني، يومًا، تكريمه للقدّيسين». تلك الإجابة تبدو هجينةً على لسان شابٍّ ماجنٍ، لاهٍ، لم يَكُنْ يعنيه، لشهرَيْن خليا، سوى المآدب، والصخب، والرقص والغناء. ورُبّما عزاها رفاق أسره إلى مسّ جنونٍ سبّبه السجن؛ ولكنّها رُبّما كانت، أيضًا، صدًى لتنبّؤاتٍ كان يُلاحق بها فرنسيسَ رجلٌ بسيطٌ كان يجوب أزقّة أسّيزي، مصابٌ بوَهَنٍ عقليٍّ، من أمثال أولئك المتخلِّفين ذهنيًّا، الذين يطوفون شوارع المدن والقرى، مثيرين سخريّة البعض، في حين يعدُّهم كثيرون «مُبارَكين» ومن أولياء الله. ذلك المعتوه كان، كُلَّما صادف فرنسيس، يخلع معطفه، ويرمي به تحت قدميه، كي يدوس

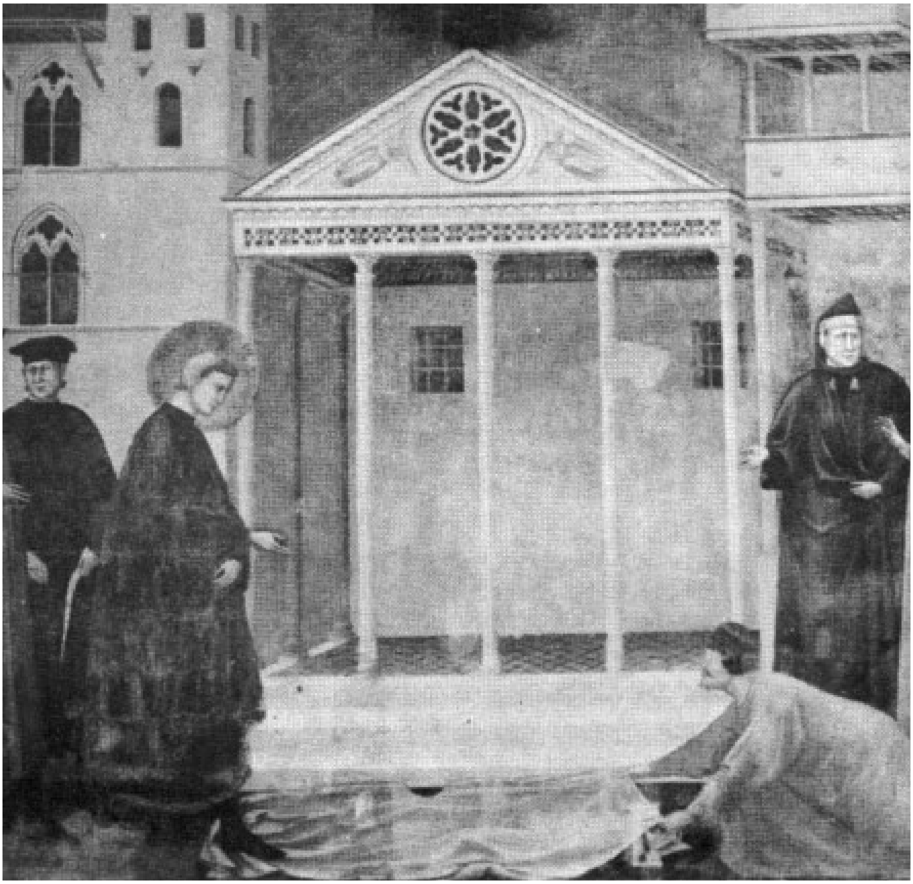

الرجل البسيط يبسط المعطف عند قدمَي فرنسيس

عليه «ملك الشبيبة» ثُمَّ يمضي متُنبِّئًا بأعلى صوته: «إنَّ هذا الشابّ سيُحقّق فِعالاً جليلةً، وسيُكرِّمه كلُّ المؤمنين أجمل تكريم». وطالما تكرَّرت تلك التنبُّؤات، التي كانت تُثير تَهَكُّم كلّ من عهدوا فرنسيس العابث، المترف، المسرف، إلا أنَّها كانت تتردّد لها، في صدره، هو، أصداءُ مقلقةٌ، إذ كان يستشفُّ فيها نداءً من عالَمٍ عُلويٍّ يزعجه، ويوقظ لديه تساؤلاتٍ حارقةً، حفرتْ في أعماقه آثارًا بعيدة الغور. ومن المُحَقَّق أنَّه كان، مُذَّاك، يؤنس في أغوار نفسه، أنَّه مُنْتَدَبٌ لأهدافٍ جليلةٍ، ولئن كانت ما تزال مُبْهَمة المعالم. وكانت والدته، على غرار إليصابات، تتوقَّع لابنها مصير من اصطفاهم الربُّ لعملٍ مُمَيَّزٍ في حقله.

في تلك الأثناء كانت الأيَّام تتصرَّم، والسجن لا ينفكّ موصدًا، إلى أن ابتُليَ فرنسيس بسِلٍّ رئويٍّ، وخارت قواه، فاستطاعت مؤسَّسةٌ إنسانيَّةٌ الإفراج عنه، لقاءَ فديةٍ باهظةٍ بادر والده إلى أدائها. وكان قد انقضى على أسره نحو عامٍ.

نقاهةٌ وتأمُّلٌ

عذبًا كان الإيابُ إلى المنزل، والتمتُّع بحُنوّ الوالدة وحنانها، وعذبًا كان، في المقام الأوَّل، الشعورُ بالحرّيّة المستعادة. ولكن، ما جدوى الحرّيّة، والجسمُ منهارٌ، لا حولَ فيه ولا طاقة، والذِّهنُ تقطنه ذكرياتٌ موجعةٌ عن رفاقٍ ذُبِحوا، وآخرين ما زالوا في أغلال الأسر؟!

لقد تمادت فترة النقاهة، وأغدقت والدة فرنسيس، في أثنائها، كنوزًا من العطف والرِّعاية، فيما كان والده يستعجل شفاءَه، كي يضطلع، من جديدٍ، بمتجر الأقمشة، ولاسيَّما أنَّه كان قد أدّى في سبيل الإفراج عنه، مبلغًا جسيمًا.

أشهرٌ طويلةٌ كرَّتْ، قبل أن يثوب إلى الشابّ بعضُ طاقاته، ويقوى على التجوُّل في أرجاء المنزل، متوكّئًا على عصًا. كلُّ شيءٍ في المنزل ما برح على حاله، أمّا أعماق فرنسيس فكانت ساحةً لتغييرٍ جَذْريٍّ.

كان الربيع، في ميعة تفجُّره، يُلَوِّن الحديقة بخضرته، وبراعمه، وزهوره، ويشيع فيها عَبقه وأريجه، ولكنَّه كان عاجزًا عن إثارة مشاعر فرنسيس الذي طالما قد شُغِفَ، من قبلُ، بسنى الطبيعة ورُوائها، ولكنَّه ظلَّ، آنذاك، مُوصَدَ القلب دون نداءاتها،

فاترًا، لا مباليًا حيال رقصات الضياء على البراري والجبال، وذؤابات الأشجار، ووَشْي العشب في الحقول، ومزيج الألوان المُزَركَشة التي تُعبِّر بها الطبيعةُ عن فرحتها بالانبعاث. ولعلَّه أخذ يتساءل: «أهذه هي الطبيعة التي كنتُ أُمَنّي بها نفسي؟ آه! ما أتعس الذين يكتفون بمثل هذه السعادة!».

إنَّ شيئًا في أغوار ذاته كان يُطالب بأكثر من الجمال الذي تقع عليه العين، وتتلمَّسه الحواسّ، بحيث غدا ما كان يُنشيه، لأشهرٍ خَلَتْ، فاقدَ الطَّعم. ورُبَّما هو نفسه أخذ يتساءل عن دواعي ذلك التَحوُّل المباغت، ولكنّه لم يقف لتساؤله على إجابةٍ شافيةٍ، فَعَملُ النعمة في النفوس يستعصي على التحليل البشريّ.

غير أنّ القوى كانت تؤوب إلى الشابّ العليل، شيئًا فشيئًا، ومعها كان يعود فيستولي عليه الجوع إلى الجمال بشتّى أشكاله، وإلى مختلف مُتع الحياة. فليس من اليسير الانسلاخ عن عاداتٍ تأصَّلت فباتت طبيعةً ثانية.

وتناسى فرنيسس، إلى حينٍ، مُثُل القداسة التي كانت نبوآتها تقضّ مضجعه، ومضى يعبّ، مجدَّدًا، من أطاييب الوجود، ويستولي على عرش الليل، يُحيق به رفاقٌ اغتبطوا بعودة مليكهم، وبفرحه الدافق، وضحكاته الرنَّانة، وأغانيه الرقيقة، وماله المبذول، ومآدبه العامرة.

بيد أنّ تظاهرات الفرح تلك ما عادت صافيةً، رائقةً، على ما كانت عليه في السابق، فهو حين يشدو للحبيبة المجهولة، يتساءل، متوجِّعًا، أيّة حبيبة على الأرض خليقةٌ بحبٍّ عظيمٍ طاهرٍ؟ وحين يقود موكب العَبَث والمجون، وقد تصرَّم من الليل معظمه، غالبًا ما يتخلَّف عن صحبه، ويتريّث وحيدًا، وقد خرست، في حناياه، أناشيد الحبّ، وصيحاتُ الفرح، وغشته كآبةٌ لا يُدرك لها سرًّا.

في مثل تلك اللحظات، كانت تُهيمن عليه موجات خيبة أملٍ هاصرةٍ، ويبدو له كلُّ ما كان، من قبلُ، يستهويه، فارغًا، أجوف، ويتساءل: ما قيمة تلك الثياب الفاخرة التي يرفل بها، والخواتم والجواهر التي تُثْقل أصابعه، وحفلات العَبَث الصاخبة، وقصائد الغزل، وأناشيد الهوى، وندامى الليل! كلُّها كانت تُرّهاتٍ تحاول عَبَثًا رَدْم هُوّة فراغ النفس، وإسباغ بريقٍ كاذبٍ على بطلان العالم وزَيْفه.

كان تحوُّله النفسيّ يتمّ بتُؤَدةٍ، وفي صراعٍ سِجالٍ بين نوازع متنابذةٍ؛ ورُبّما هو أخذ، رويدًا رويدًا، يضيق ذرعًا بالمتعة، فدفعه هذا الشعور نحو حياةٍ جديدةٍ. ومن المفارقات

التي تسترعي الانتباه، في سيرته، أنَّه، في مطلع شبابه قد طالما رغب رغبةً عارمةً في ما غدا يزدريه بعد أن أمسى اللّه سيّد قلبه الأوحد.

لقد شرع يكتشف ما يغشى نفسه من فراغٍ، ولكنَّه لم يهتَدِ، بعدُ، إلى ما يملأ هذا الفراغ به؛ ولم يعُدْ يستمرئ حياة اللَّهو، ولئن هو لم يتخلَّ عنها، بيد أنّ مِنخسًا في أعماقه كان يحفزه على نشدان شيءٍ آخر، وعلى المُضيِّ بعيدًا لتسنُّم الذُّرى.

وفي إحدى ليالي الحيرة تلك، رنا فرنسيس إلى السماء بنظرةٍ حزينةٍ مُتلهِّفةٍ؛ ومن وهاد روحه انطلق تلقائيًّا نداءٌ لم يألفه من قبلُ: «اللّه»! من غير أن يدري كانت رغبةُ اللّه تستحوذ على نفسه، وتحلُّ محلَّ الرغبات التي خَبَتْ وهمدت. في تلك الليلة، جفاه النَّومُ، وبدا كَمَنْ يبحث عن طريقٍ يجهل مآله.

وقد حاول، في الأيَّام التالية، شَغْلَ نفسه بما يبدّد اضطرابه وقلقه؛ ولكنَّ حضورًا خفيًّا ومِلحاحًا كان يحاصره بلا هوادة. فعمله في متجر أبيه غدا عاجزًا عن استقطاب اهتمامه؛ وإن هو أقبل على نظم الشعر علّه يُسرّي عن ضيقه، سرعان ما كان يقذف بريشته بعيدًا، فالوحيُ يعصاه، وصدى الألفاظ لم يَعُدْ له أيُّ وقعٍ في حناياه. ورُبَّما جال بخاطره أن يبحث عن حسناء تُلْهب بعض مشاعره، ولكنْ ما استطاعت فتاةٌ أن تهزَّ في قلبه وَتَرًا.

لقد غدا القلق من سِماته الجليَّة، وبات الجميع يستوضحون أسباب اضطرابه، فيتذرَّع بحجّة آلامٍ وهميَّةٍ في المعدة. ولكن، وحدها، أمّه، كانت تستشفّ حقيقة العِلَّة التي تُضنيه. ومن جديدٍ عَصَفَتْ بخياله أحلام المجد، وهوى المغامرات المدهشة، في بلادٍ غريبةٍ.

فارسٌ... في خدمة من؟

خُيّل إلى فرنسيس أنَّ الفرصة باتت مؤاتيةً لتحقيق أحلامه وأمجاده، عندما جرّد أحد الأُمراء الإيطاليّين حملةً في خدمة البابا والأراضي المقدّسة، وعندما قطع له أحد نبلاء أسّيزي وعدًا باصطحابه في تلك الحملة.

وأَطلق الشابُّ لنفسه العنان، بحيث عاد، هو نفسه، عاجزًا عن كبحه؛ وزجّى أسابيعَ عديدةً يُداعب أحلام الفروسيّة، ويتصوّر نفسَه في ساحات الوغى، وقد ارتدى درعه، واستلّ رمحه، وراح يُثبت للعالم، بفِعاله الفريدة، أنّه من فئة العُظماء.

وانقضت أسابيعُ ملتهبةٌ تابع، في أَثنائها، بنفاد صبر، صنع عِدَّة الفروسيّة وزيّها، ممّا اقتضى مبالغ طائلةً، أدّاها والده، غاصًّا، ولكن راضيًا، لأنّه كان، هو أيضًا، يتطلّع إلى إضافة امتياز النبل الذي سيظفر به ابنه البكر، إلى مغانم الثروة العريضة التي بات، هو، من أربابها.

وأَوكل إلى صَنَاعٍ حاذقٍ تفصيل درعٍ على قدّه، تُلائم جسمَه، ولا تعيق تحرّكات أعضائه، وقد رُصّعت بعض أزرارها بالذهب لإبراز ثروة صاحبها، فضلاً عن الخوذة، والسيف والرمح، والمِجَنّ، ورَحْل الفرس المزركش.

وظنّ أهل أسّيزي أن شابَّهم المدلَّل قد أُصيب بمسّ جنونٍ، وهم يرقبونه يُغرق في الإسراف تأهُّبًا للانضمام إلى حملة الفرسان. ولكنّه كان يكتفي، ردًّا على انتقاداتهم بالقول: «سترون أنّني سأصبح أميرًا عظيمًا».

وعندما فرغ فرنسيس من تلك الاستعدادات، وقُبَيْل انطلاقه إلى الحملة، ألقى على كتفَيه معطفًا فاخرًا، مُرَصَّعًا بالذهب، كان قد اصطنعه لنفسه، وامتطى صهوة جواده، وراح يتباهى في شوارع أسّيزي وضواحيها بزيّه النادر المثال.

وسرعان ما أثبت أَنّ الفروسيّة كانت، حقًّا، متأصّلةً في نفسه وسلوكه وكرمه، أكثر ممّا هي كانت بارزةً في زيّه الفاخر، وشدّة مراسه في القتال. فقد اتَّفق له أن صادفَ، وهو يزهو خيلاءَ بهندامه القشيب، وجواده الفاره، فارسًا من النُّبَلاء القدامى، كان له في الفروسيَّة باعٌ طويلةٌ، وتاريخٌ حافلٌ بالمآثر، ولكنّ الزمن قلب له ظهر المِجَنّ، فأصبح رثَّ الهندام زريَّه؛ وقد قرأ فرنسيس، في عينَيْه، نظرات مَذَلّةٍ وحسدٍ، فما كان منه إلاّ أن ترجَّل، وخلع معطفه النفيس، وألقاه على كتفي النبيل المعوز، وعاد إلى منزله بمعطف الفارس البالي، والفرح يغمر صدره.

لم تكن فعلته تلك مجرَّد اندفاع كرمٍ، بل كانت تعبيرًا عن وعيه لخَلَلٍ اجتماعيٍّ، خطيرٍ، أتاح للأثرياء أن يشتروا بأموالهم ما هو من حقّ الأكثر جدارةً وكفاءةً، بل بات بقدرتهم إذلال من هم أجدر منهم وأكفأ. وما كان تخلّي فرنسيس عن معطفه للفارس النبيل سوى محاولةٍ منه لإعادة ميزان القِيَم إلى وضعه الصحيح، وكفرٍ منه بما يمثّله عالم المال – وأسرة بيرناردوني أحد أساطينه – من افتئاتٍ على الحقّ والعدالة.

وفي تلك الليلة خطر لفرنسيس حلمٌ مذهلٌ، إذ رأى نفسه في قصرٍ، أو رُبّما في متجر

والده، حيث غابت أثواب القماش، وغشت الرفوفَ والجدرانَ أسلحةٌ ثمينةٌ، فاخرةٌ، متألِّقةٌ، من كلّ صنفٍ ونوعٍ، وقد نُقِشت عليها علامة الصليب. وكانت من الوفرة بحيث تكفي لتسليح كتيبةٍ بكاملها. ووسط تلك الترسانة المدهشة، انتصبت حسناء باهرة الجمال، في ثيابٍ مُهَلهلةٍ تنمّ عن فقرٍ شديدٍ، وقد همست في أذني فرنسيس: «حبيبي، هذه كلُّها لك ولرفاقك، فتسلّح». يا له من حلم! وكم عبثت أحلامٌ بمصائر بشرٍ!

أفاق فرنسيس، وقد استحوذ عليه الجَذَل، إذ رأى في ذلك الحلم تأكيدًا لرسالة الفروسيَّة التي انتدب نفسَه لها. وفي الصباح، عندما امتطى جواده، وهو في طريقه إلى ساحات المجد، كان يستطيره فرحٌ دافقٌ، ويُخيَّل إليه أنّ جميع أهالي أسّيزي يُعظِّمونه، ويحدجونه بأنظارٍ غابطةٍ، رغم المعطف الرثّ الذي استبدل به معطفه الفاخر، وأنَّهم رُبَّما كانوا يقرؤون في كتاب الغيب القريب، سجّل إنجازاته المتألِّقة.

بيد أنَّ الذي أوحى إليه الحلم كان يرمي منه إلى معنًى آخر، على نقيض ما أدرك فرنسيس وتخيَّل!

فروسيَّةٌ من نَمَطٍ آخر

رُبّما بهظت الدرعُ كتفَيْ فرنسيس، فأعياه التَّعب، أو لعلّ يد العناية سمَّرته على فراش المرض، من جديدٍ، كي تتيح له، في هدأة الصمت والتأمّل، اكتشاف رسالته الحقَّة.

فهو ما إن بلغ وصحبه مدينة «سپوليتي» في مساء يوم مسيرته الأوّل، حتّى انتابته حمّى شديدةٌ، أقعدته عن استئناف رحلته، وكانت تلك ليلةً حاسمةً في مصير حياته. فقد تراءى له، في الحلم، نورٌ باهرٌ، انبعث من وسطه صوتٌ مستوضحًا فرنسيس عن غاية رحلته. وبعد إذ بسط الشابّ مشاريعه، جرى بينهما الحوار التالي:

– من يسعه أن يهبك أكثر: السيّد أم الخادم؟
– السيّد.
– إذن ما بك تهجر السيّد لتلتحق بخادمه، وتهجر الأمير، لتسير في إثر عبده؟
– وما تريدني أن أفعل، يا سيّدي؟
– عُدْ إلى مسقط رأسك، وهناك سيُقال لك ما يتعيّن عليك فعله. فلقد أَسأتَ فهم الرؤيا التي عرضتْ لك من قبل.

وانتاب فرنسيسَ شعورٌ مذهلٌ بأنّ النُّور يخترق جسمه وكيانه، وأنّ ذلك النور إنّما كان اللّه نفسه، فنهض عن السرير، وارتمى جاثيًا معفِّرًا جبينه بالأرض، وهاتفًا: «لبَّيك يا ربّ».

بيد أنّ الشكوك عادت فداهمته، عند الصباح، وتنازعته الحيرة، من جديدٍ، فتساءل متوجّعًا: هل عليه، حقًّا، إقامة كلّ ذلك الوزن لحلم ربَّما كان هلوسةً، وفي سبيله، التخلّي عن أحلام المجد والعظمة، ولقب الكونت الذي من شأنه مكافأة كلّ من يعود من المعركة سليمًا غانمًا، وبالمقابل مواجهة سخريّة الجميع وازدرائهم إن هو قفل عائدًا من غير قتالٍ؟

وامتطى صهوة جواده، فيما نفسه تائهةٌ في عباب ضبابٍ كثيفٍ، وسار الهوينى، إلى أن بلغ مُنْعَطفًا، حيث كان عليه أن يختار، بين طريقَيْن: طريق إلى المعركة والمجد، أو آخر إلى أسّيزي، حيث المهانة، تلبيةً لنداء الربّ. ولكن علامَ اللّه ناداه، وهو قلَّما عَبِئَ به من قبل؟ وعلامَ وَضَعَه أمام ذلك الخيار الشاقّ المُمَزِّق؟ غير أنّ نفحةً سماويَّةً كانت تنساب إلى نفسه، رقيقةً، وئيدةً، وتتغلغل إلى أعماقه، مؤكِّدةً له أنّ ذلك الجرْس العذب الذي كلَّمه، ليلاً، هو الذي ما انفكّ، منذ سنواتٍ، يهمس، خافتًا، في نفسه، بل كان يقطن حتّى اندفاعه إلى المغامرة، ونَهَمَه إلى رغد العيش والمتعة؛ وشيئًا فشيئًا استحوذ عليه حنينٌ لا يقاوَم إلى اللانهائيّ؛ وإذا به، من جديد، يرنو إلى السماء، ويهتف: «اللّه، اللّه، اللّه، ربّي وإلهي!».

وفي أغوار كيانه كانت تنفرج هُوّةٌ لا قرارَ لها، يتدفّق فيها الفرح والنور.

شاول آخر يصعقه صوت الربّ، على طريق دمشق!

إنّ الربّ يستولي علينا من خلال رغباتنا التي يستمرُّ ينقّيها، طوال حياتنا، كاشفًا لنا، في أناةٍ وتؤدةٍ، بطلان كلّ ما هو، منها، زائفٌ زائلٌ. غير أَنَّ كلَّ رغبةٍ فينا لا تحسب للّه حسابًا تُفضي إلى الفشل، وهكذا، عبرَ انتقالنا من رغبةٍ فاشلةٍ إلى رغبةٍ جريحةٍ، ندنو، خطوةً فخطوةً، من الجوهريّ، إلى أن تعثر رغباتنا، في المُطلَق، على هدفها. وحينئذٍ نكفّ عن المضيّ إلى العالم، تحدونا شهوة الالتهام، بل يغدو دافعنا التأهُّب للخدمة، ويفعم الشُّكر للّه تطلّعاتنا.

لقد طالما عانى فرنسيس ذلك القلق المضني الذي يستبدّ بالقلوب السخيّة الصابية إلى إلهاب العالم، والتي يوجعها ضيق آفاق مهامّها اليوميّة وتفاهة غاياتها، إلى أن تقف على الجوهريّ، وفي سبيله، تتخلّى عن كلّ شيءٍ.

كم كان قاسيًا أمر الله بالعودة إلى أسّيزي! ولكنّ الصوت كان رقيقًا، فهو صوت الربّ! وكم أغدقت تلك النكسة من آلاءٍ على فرنسيس، وعلى العالم أجمع!

فماذا لو أنّ أحلام فرنسيس في أمجاد الفروسيّة قد تحقّقت؟ رُبّما كان أصبح أحد متنفّذي هذا العالم، وكان من شأن النجاح أن يشحذ طموحه إلى العظمة والسيطرة، وإلى الدوس على الجمّ من الناس والمُثُل، في سبيل بلوغ وَطَره.

إنّ التاريخ حافلٌ بسِيَر الفرسان الذين، رغم انتصاراتهم، لم يُفيدوا العالم سوى المزيد من إراقة الدماء، وإشاعة الأحقاد. ولكنّ الربّ قد انتدب فرنسيس لبطولة الروح، ونَشْرِ الحبّ والإخاء. لقد أراده فارسًا في خدمته وحده دون سواه.

وفرنسيس لم يتخلَّ يومًا عن الفروسيّة التي راودت أحلام شبابه، بما تنطوي عليه من مروءةٍ، ومبادرةٍ إلى مدّ يد العون للمعوزين والمضطهدين، وبذل الذات في سبيل خلاص الآخرين. غير أنَّه حوّل تلك الفروسيّة، وسما بها، وعزم على أن يكون فارسًا في خدمة السيّد الأوحد، ومُمثّليه من الفقراء والمنبوذين، عوضًا عن أن يكون فارسًا في خدمة سيّدٍ أرضيٍّ أيًّا كان، ومهما عظم شأنه.

لطالما عبَّر عن فروسيَّته باندفاعه الجَذِل، ونفوره من كلّ سفسطةٍ، وسماحة نفسه، بتهذيبه واستقامته، ونبل أفعاله وأفكاره، وبوفائه المطلق لمُثُله.

عودةٌ إلى أسّيزي

تريَّث فرنسيس في سپوليتي أيّامًا قلائل حتّى استعاد بعض قواه، وتأكيدًا لعزمه على دفن مشاريع الفروسيّة والقتال، باع درعه وأسلحته، وجواده، وزيّه الفروسيّ الذي استبدل به زيًّا عاديًّا بسيطًا، وبه قفل عائدًا إلى موطنه.

لا ريب أنّ سهام التهكُّم والطَّعْن بالجُبْن قد استقبلته وانهالتْ عليه في أسّيزي، ولكنّه ظلَّ صامدًا، قويًّا بوعد الربّ. ورُبّما كان أقسى ما خشيه وواجهه سُخط والده الذي فقد، في آنٍ واحدٍ، مالاً طائلاً، وأحلام النبل والعظمة التي علَّقها على ابنه البكر، فما جنى سوى الخزي والشماتة. ومن المؤكَّد أنَّ انفجار غضبه كان مُدوِّيًا، وأنَّ السيّدة «پيكا» قد ذرفت من الدموع مدرارًا، ولكنَّها ما فتئت إلى جانب ابنها، بكلّ قناعاتها، مؤمنةً بمستقبله الفذّ، واصطفاء الربّ له، إذ كانت تنبُّؤات الزائر الغريب، يومَ كان

فرنسيس وليدًا، ما انفكّت تترجَّع أصداؤها في أذنَيْها وقلبها باستمرار، مرسِّخةً ثقتها بمصير ابنها، ومُثيرةً لديها التساؤلات.

تساؤلاتٌ قلقةٌ كانت تنتاب، أيضًا، الشابّ الحائر، الذي خطا الخطوة الأولى، استجابةً لأمر الربّ، بعودته إلى أسّيزي، ولكنّه ما برح ينتظر إيضاحًا عن الدرب الذي يتعيّن عليه انتهاجه.

كم تبدو طُرُق الله مُبْهَمةً، أحيانًا، ومُحيِّرةً، وكم يقتضي الانقياد لأوامره من صبرٍ!

بانتظار ذلك، وبعد أن تبخَّرت أحلام المجد، كان على فرنسيس أن يعود إلى كسب عيشه، في متجر والده، وسُرعانَ ما صفح له الأسّيزيّون تهوّره. ولا سيَّما وأنّهم ما انفكّوا يحبّونه، ويُؤْخَذون بسحر معشره، وما لبث صَحْبُه أن عادوا يتحلَّقون حوله، لا بل إنّهم أعادوا تنصيبه ملكًا عليهم، وراحوا يطالبونه بمأدبةٍ كبرى احتفاءً بتلك المناسبة. ومع أنَّه كان قد فقد الرغبة في مثل تلك المآدب إلاّ أنّه، خشيةَ اتِّهامه بالبخل، إن هو أبى تلبية نزواتهم، أعدّ لهم عشاءً فاخرًا أسبغ عليه من الكَرَم والبَذْخ ما فاق كلّ ما عهدوه من قبل.

ومن أجل تلك المناسبة كان قد أصلح ماندولينه، واصطنع لنفسه رداءً أُرجوانيًّا مُوشًّى، وترأَّس المأدبة، مُثْقلاً بالجواهر والحليّ، وقد توّج هامتَه إكليلٌ من الورد الأحمر. لكن لم يَخْفَ على أحدٍ من الندامى أنّ ذهن فرنسيس كان غالبًا ما يشرد بعيدًا عنهم، بعيدًا جدًّا.

وبعد أن امتلأوا، وانتشوا، راحوا، حسب مألوف عاداتهم، يطوفون شوارع أسّيزي الغارقة في السُّبات، يوقظونها بأناشيدهم، وصَخَبهم، وقد حاولوا حمل مليكهم على الأكتاف، والتطواف به كسالف عهدهم، ولكنّه رفض، وأبى إلاّ السَّير في مؤخّرة الموكب، وبيده صولجانه الرمزيّ. وفجأةً، تخلَّف عنهم، وثبت في مكانه، صامًّا أُذُنيْه عن ترَّهاتهم، مُرهفًا السمع إلى همسات روحه، وقد انحفرت فيها هوّةٌ من الصمت والتأمّل، اجتذبته وسيطرت عليه، وغشى نفسَه نورٌ سماويٌّ ساطعٌ يرفل بألوف النجوم المتألّقة. ورنا إلى السماء، وردّد مئات المرّات:

– «الله! الله! ربّي وإلٰهي!».

ومع ذلك الدعاء، كانت شراراتٌ من نارٍ تتساقط واحدةً، واحدةً، على نفسه، نارٍ تنعش، وتنشي، وتسري في شرايينه، نسغَ حياةٍ. وغمرت كلَّ كيانه عذوبةُ الله، وفرحٌ من نمطٍ فذٍّ لن ينسى، يومًا، طعمَه، وسيترسّخ في أعمق أغوار كيانه، بل سيوسّع آفاقه بلا حدودٍ، كي يستوعب المطلق.

انقضت برهةٌ قبل أن يتبيّن صحبه غيابه، وعندما قفل نفرٌ منهم بحثًا عنه، أَلفوه ممدود الذراعين على شكلِ صليب، في حالةٍ من الشرود لم يعهدوها قطُّ لديْه، وكأنّه إنسانٌ آخر لا تربطه علاقةٌ بذاك الذي كان يرئس المأدبة وينادمهم، لسُوَيْعاتٍ خلت؛ لقد بدا لهم كمن يشهد رؤيا، وكنائمٍ وعيناه جاحظتان، فبادروه قائلين:

– أَذَهِلْتَ عنّا؟ وما الذي يشغل بالك! أَوَهل عقدتَ العزم على الزواج؟

سؤالٌ غريبٌ أيقظه من ذهوله، فانطلق جوابه يشقّ الليل، ويتردّد صداه عبرَ الزمن:

–أجل لقد أحببت حُبًّا أبديًّا! وستكون شريكة عمري، في فقرها المُدقع، أنبل النساء، وأغناهنّ، وأبرعهنّ جمالاً.

وفيما هو كان يقول ذلك قذف فوق رؤوسهم بالماندولين، والصولجان، وإكليل الورد الذي كان يُتوّج هامتَه.

لقد فجَّر جوابُه وسلوكُه ضحكاتٍ ساخرةً مُدويَّةً، وخُيّل للرفاق العابثين أنّ مسًّا من الجنون قد انتاب مَلِكَهم، فرثوا لحاله. ولكن لم يجرؤ أحدٌ منهم على ممازحته أو الردّ عليه. فقد بدا لهم مشعًّا، متجلّيًا، وكأنّ سرًّا جليلاً يسربل كلّ كيانه ويبرزه إنسانًا جديدًا مختلفًا عن كلّ ما عهدوه فيه. فعلى نقيض ما توهَّموا، كان جوابُه نابعًا من رؤيةٍ واضحة المعالم، حيَّةٍ، متألِّقةٍ، متجسّدةٍ، شدّته إليها بكل وَتَرٍ من أوتار ذاته، فعقد العزم على وقف كلّ ما تبقّى له من حياةٍ وطاقةٍ في خدمتها.

صراعه مع ذاته، الذي تمادى نحو خمس سنوات، كان قد أشفى على نهايته، وأخيرًا استسلم فرنسيس لهوى الربّ العاصف، ووقع فريسة حبٍّ جامحٍ، غدا معه مجنون الله. لقد اخترق حبُّ الله قلبَه.

ومذ ذاك أخذ يمقت ذاته، ويمقت الحياة التي انتهجها، حياةَ الفوضى والمتعة الزائفة. وتجلّت له، بكلّ روعتها، ونبلها، وغناها، الحياةُ التي كان قد تنكّب عنها، الحياةُ في

المسيح يسوع. وعزم، منذ تلك اللحظة، على الانقياد لها من غير رجعةٍ ولا نكوصٍ، وبإخلاصٍ مُطلَقٍ، حتّى آخر رمقٍ من حياته.

على دروب الربّ

في الخامسة والعشرين من عمره وُلد فرنسيس لحياةٍ جديدةٍ. لقد اكتشف الجوهرة الثمينة الفريدة التي سيبيع كلّ شيءٍ في سبيل امتلاكها والحفاظ عليها. ولم يتردّد في هجر تجارة الأقمشة، ومكاسب المال، كي يُمارس تجارةً سماويّةً، ويسعى وراء مغانم الروح.

لقد تجلّى له، بوضوحٍ، بطلان كلّ ما كان يجتذبه، من قبل، ويستهويه: الصَّخَب، واللهو، والثروة، والمجد، وبات شغوفًا بالعزلة والصمت، غارقًا في الأعماق، ينشد، في هدأتها، الله. رجل اللهو غدا رجل صلاةٍ وتأمُّلٍ، يستعذب الحوار الحميم مع الله، ويرهف السمع إلى الصوت الداخليّ الخافت الذي يقود خطانا، ويمدّنا بالأَرْز، إن نحن أحسنّا الإنصات إليه.

لقد بات يهجر متجر والده، ويفزع إلى بطون المغاور، وإلى ظلال الكنائس، وثمَّة يستغرق في التأمّل والصلاة، واكتشاف وجه الله، مردّدًا مع منشد المزامير: «اللهمّ أظهر لي سُبُلك، وعلّمني كمال دروبك».

وجه الله كان يستشفُّه، أيضًا، في المنبوذين والمسحوقين والفقراء، الذين صارت له صحبتهم أعذب من كلّ جلسات الطرب والمجون، برفقة النُّدماء المترفين.

ولا مندوحةَ من الإقرار أنّ فرنسيس، ابن التاجر الثريّ، كان أبدًا ينبض عطفًا كلّما شاهد فقيرًا، وكان شديد التأثُّر حيال من ابتلوا بالتعاسة، وهم أبرياء من كل جرائرها. إنّ ما كان ينعم به من رفاهٍ، ورغد عيشٍ، ولبسٍ نظيفٍ دافئٍ، وصداقاتٍ مخلصةٍ، واكتفاءٍ يُغنيه عن الاهتمام بمقتضيات المعيشة اليوميّة، كان يجعله يذوب عطفًا وإشفاقًا كُلَّما شهد امرأً حُرِم كلّ مُتَع الحياة تلك، من غير ذنبٍ اقترفه، وكان أبدًا متأهّبًا ليقتسم معه ما يملك، في اندفاعٍ جيّاشٍ، ومن غير حسابٍ.

ولكن، حتّى ذلك الحين، كان أبغض شيءٍ على نفسه رؤية البُرْص عن كَثَبٍ؛ وكان عندما يمرّ بمحاجرهم، يحيد عن طريقها أبعد ما يستطيع، تفاديًا لرؤيتهم، وللروائح

المقزّزة المنبعثة منهم؛ ولم يكن في نأيه عنهم أيُّ ازدراءٍ أو تعالٍ. فالرأفة والمواساة من خصاله الفطريّة، ولكنّ إرهاف إحساسه كان يتغلّب عليه فيدفع به بعيدًا عنهم.

وفي إحدى صلواته، التمس فرنسيس، المهتدي حديثًا، من الربّ، بحرقةٍ، أن يُنير سبيله، ويرشده إلى ما يتوجّب عليه فعله؛ وقد جاءه الردّ في همسٍ داخليٍّ خافتٍ: «فرنسيس، إن أنت ابتغيتَ تَبَيُّن إرادتي، فعليك أن تزدري وتمقت كلَّ ما كانت حواسُّكَ تُحبّ وتشتهي حتّى الآن. وإن أنت سِرْتَ على هذا النهج، فكلّ ما كان يبدو لك، من قبلُ، عذبًا ومرغوبًا فيه، سيغدو مُرًّا يتعذّر احتماله. وكلّ ما كنت حتّى الآن تمقته، سيتحوّل، لديك، إلى عذوبةٍ قصوى، وفرحٍ عارمٍ».

وفي الغداة، فيما كان يجوس على صهوة جواده بين الحقول، ويُجيل في خَلَده ذلك البرنامج الواضح الصّعب الذي حدّده له الربّ، إذ بجواده يجفل بغتةً، وإذ به على بُعد خطواتٍ معدوداتٍ من أبرص لم يكن من العسير تبيّنه من الزيّ الخاصّ الذي كان المجذومون يُقْسَرون على ارتدائه، ومن الأجراس التي تُدوّي بها خطواتهم إنذارًا للمارّة بالابتعاد عنهم. وانتابته موجة وَجَلٍ داهمةٌ، وطفق قلبه يخفق بعنفٍ كاد يُحطّم صدره، وهمَّ أن يُدبر فارًّا بأسرع ما يستطيع، لولا أنّ الكلمات التي سمعها بالأمس تردّدت حازمةً، جليّةً، صارمةً: «إنَّ ما كنتَ حتّى الآن تمقته عليه أن يتحوّل لديك عذوبةً، ومَعين فرحٍ». وبما أنّ لا شيءَ مثل الاقتراب من أبرص كان يُثير اشمئزازه، فقد حان له أن يُثبتَ للربّ أنّه عازمٌ، حقًّا، على انتهاج الدرب الذي رسمه له.

كان عليه أن يمارس على ذاته ضغطًا جبّارًا قبل أن يترجّل ويدنو من الأبرص الذي سطعت من أنفه وفمه المتآكلَيْن روائح الإنتان. ومدَّ له الأبرص يدًا نَخِرةً، فألقى فيها حفنة نقودٍ. ثمّ انحنى عليها، وقبّل أصابعها المتساقطة التي انتشرت فيها القروح، وهو يقاوم نفورًا طاغيًا، ثمّ قبَّل فمَه، فاندفع الأبرص، وقبّله بدوره.

وعندما ارتدّ فرنسيس إلى جواده، كان الدوار يعصف برأسه، وألوف الأجراس تقرع في صدره، والتأثُّر آخذًا بكلّ كيانه، ولكنّ سدودًا قد تحطّمت بغتةً في نفسه، ومنها تفجّرت عذوبةٌ إلٰهيَّةٌ غامرةٌ لم يَعْهَدْ مثلَها، قطُّ، رقّةً وطغيانًا؛ ثمَّ التفت إلى الأبرص مرَّةً أُخرى، ولكنّه لم يَقِفْ له على أثرٍ. لقد وفى الربّ بوعده، وأسبغ على أشدّ الأمور مرارةً، عذوبةً منقطعة النَّظير، وكان وفاء الربّ مزدوجًا، فهو الذي قال: «كلّ ما فعلتموه بأحد هؤلاء الصغار، فبي فعلتموه». وقبلة فرنسيس للأبرص، إنّما كانت قبلةً للمسيح نفسه.

القدّيس فرنسيس يعطي لفارسٍ محتاجٍ

كان البُرْص يمثّلون طائفةً واسعةً ممّن ابتُلوا «بالشقاء البريء»، وفقدوا كلّ أَمَلٍ في الشفاء، وفي العيش الكريم، بل كُتِبَ عليهم أن يروا أعضاءهم تنحلّ وتضمحلّ يومًا إثر يومٍ، وقروحَهم تنزّ دمًا وقيحًا، وروائح الإنتان تفوح منها. وبما أنّ مرضهم كان يُعَدُّ مُعديًا، كانوا يُقْسَرون على الانعزال في محاجر، بانتظار أَجَلهم المأساويّ المحتوم؛ أمّا إذا تسنّى لهم الخروج، فكان عليهم التزوُّد بأجراسٍ صغيرةٍ أو ما شابهها، لا تني ترنّ مع كلّ خطوةٍ يخطونها، منذرةً المارّة بالابتعاد عن طريقهم.

كان فرنسيس يتألّم في صميم نفسه لمصير أولئك البؤساء، ولكنّه ما كان يُطيق رؤية أيٍّ منهم أو ملامسته، إذ كان مجرّد تفكيره في ذلك يفوق طاقته.

إلاّ أنّه غداةَ لقائه الأبرص، يمّم شطر المحجر حيث تكدّس المجذومون، وطرق بابه بحماسٍ، وخرج المساكين من غُرفهم الزريّة، وإذ بنَفَرٍ منهم التهم الجذام نصف وجوههم، والتهم من آخرين عيونهم التي غدت بؤرًا داميةً، أو أصابعهم، أو أقدامهم؛ وتحلّقوا جميعُهم حول فرنسيس مادّين له أيديهم مستجدين، وفي كل يدٍ وَضَع قطعةً ذهبيّةً، ثمَّ قبّلها في وَرَعٍ وحبٍّ، وهو يصارع تقزُّزًا لا إراديًّا كانت تستثيره فيه روائح الإنتان المنبعثة من حناجرهم. ثمَّ طفق يختلف إليهم باطِّرادٍ، ويُعنى بهم في حميَّة وحَدْب.

كان ذلك أعظمَ انتصار حقّقه فرنسيس، إذ انتصر على ذاته، وبات، حقًّا، سيّد سلوكه. لقد حرَّرته قبلته للأبرص من أغلالٍ خانقةٍ كانت تُكبِّله. ولكلّ امرئٍ، في حياته، أبرصُ، من نمطٍ خاصٍّ، لا بدّ أن يتجرّأ فيُقبّله، كي يظفر بالتحرُّر.

وعندما استعاد، قُبَيْل وفاته، تلك الذكرى المضيئة في حياته، كتب في ما دعاه وصيَّتَه: «عندما كنتُ لا أزال أتمرّغ في حمأة الخطيئة، كنتُ لا أُطيق رؤية البرص، ولكنّ الربّ نفسه قادني إليهم، وقد عُنيت بهم بكلّ عطفٍ. ولمّا غادرتهم، ما كان يبدو لي، حتّى ذاك، مريرًا، استحال لديَّ عذوبةً غمرتْ منّي الروح والجسد».

بيد أنّ ذلك الانتصار لم يكن نهائيًّا، بل كان لا بدّ من أن يتجدّد كلّ يومٍ. فالوسواس الخنّاس يزداد مكرًا، وتزداد هجماته شراسةً، على كلّ من يمعن بالله ٱلتصاقًا. وطالما حاول الخبيث ثني الشابّ المهتدي عن نهجه الجديد، وردّه إلى حياة اللهو والترف، وبيان مدى حُمْقه في هجرها، من أجل حياة العزلة، والكآبة، ومعاشرة أكثر الناس

إثارةً للنفور. وإزاء تلك المداهمات الماكرة، كانت الصلاة هي ملجأ فرنسيس، يفزع إليها فتُمدّه بالثبات، والمنعة، والفرح.

ولا بِدْعَ إن هو غدا يشعر أنَّه، في وسطه وبيئته، يحاكي غريبًا في بلادٍ مجهولةٍ؛ وبعد أن كانت تتردّد أغانيه وتدوّي ضحكاته في شوارع أسّيزي وثنايا لياليها، بات دائبًا على الصَّلاة الخاشعة، والتأمُّل، وغدت مغارةٌ في بطن جبلٍ هي قِبْلته ومَعَادَه، مُثيرًا بذلك دهشة أقرب الناس إليه، حتّى أُمِّه، التي غالبًا ما كان يبثُّها نجواه وتطلُّعاته، مرسِّخًا إيمانها بأنَّه من مختاري الربّ.

كان والده آنذاك على سَفَرٍ متواصلٍ، وكثيرًا ما كان فرنسيس يجلس إلى المائدة مع أمّه وحيدين، يتبادلان الانطباعات والتطلّعات، وقد لحظت والدته أنّه أصبح يأتي، يوميًّا، بكمّيّاتٍ وفيرةٍ من الخبز، وينضّدها على المائدة، لكيلا يرتدّ سائلٌ واحدٌ صفرْ اليدَيْن. كان الفقر طاغيًا آنذاك، ورقعته تتّسع باطّراد، وترتدي، يومًا فيومًا، شكلاً أكثر مأساويّةً وإيلامًا. وكان من شأن كرم فرنسيس أن يجتذب إليه المحتاجين. وبعد أن كان رفاق السهر والمتعة هم الذين يسعون في إثره، باتت زرافات الفقراء هي التي تتوافد عليه؛ لم يكن يطيق أن يردَّ أحدًا خالي الوفاض، بل كان يجود على كلٍّ منهم بمالٍ أو بطعام؛ أو إن هو افتقر إلى ما يهبه، لم يتردّد في إعطاء قُبَّعته، أو حزامه، أو معطفه، وقد اتَّفق له، ذاتَ ليلةٍ، أن خلع قميصه خِلْسةً، وأدفأ به جسد فقيرٍ مقرورٍ. لقد كان العطاء يتدفَّق منه تلقائيًّا، تدفُّقَه من نبعٍ، بلا توقُّفٍ ولا حسابٍ.

ومع ذلك كان يراوده الشعور بأنّ إلقاء حَسَنةٍ في يد مُستعطٍ ليس هو كلّ ما يقتضيه يسوع ممّن يرغبون في التمثُّل بفقره، وأنّ عليه، هو أيضًا، أن يحيا الفقر، في جسده، وبكلّ جوارحه. وبدافعٍ من تلك الرغبة قصد روما حاجًّا.

في كنيسة القدّيس بطرس، استرعى انتباهَه شحُّ عطاءِ الحجّاج، وضآلة تبرّعاتهم، فانتابتْه ثورةُ غيرةٍ لاهبةٌ، وإذ به يستلّ كيسَ نقوده المتورّم، ويُفرغه بكامله عند أَقدام تمثال هامة الرسل. وكان لتساقط النقود الذهبيّة الوفيرة... رنَّةٌ متواصلةٌ أثارت دهشة الحضور وإكبارهم، ولكن من المُؤكَّد أنّها لم تستثر لدى أحدٍ رغبةً في التمثُّل به، بل ربَّما ارتأى بعض من شهدوا نوبة السخاء تلك أَن القدّيس بطرس قد نال كفايته لأمدٍ طويلٍ، فلا داعي، بعد، لتبرُّعاتهم.

وسرعان ما تبيّن فرنسيس نفسه ما انطوت عليه فعلته تلك من تظاهرٍ مسرحيٍّ أفقده الرضى عن ذاته؛ فهو إنّما كان يبتغي إرضاء الربّ، في المقام الأوّل، والتمثُّل بأصفيائه الأثيرين: الفقراء والمحرومين.

وفي الحال خرج من الكنيسة. في فنائها كان كثيرون من المستعطين يتدافعون نحو كلّ من يبدو لهم على شيءٍ من يُسر الحال، مستجدين حسنة. ووقع اختياره على أشدّهم بؤسًا، فأشار له أن يلحق به، وعندما انتهيا إلى زاويةٍ منعزلةٍ أقنعه بتبادل ثيابهما لمدّة يومَيْن، وأجزل له، من أجل ذلك، العطاء. كانت فرحة الشحّاذ لا توصف، لمّا لامس جسدَه قميصٌ من حريرٍ، وهو الذي لم يلبس، قطُّ، قميصًا، ورأى نفسه متسربلاً بأفخر الملابس، وفي كفّه حفنةٌ من المال تمكّنه من قضاء ليلةٍ حافلةٍ بالخمر واللهو.

أمّا فرنسيس فقد جهد في مقاومة النفور الذي استولى عليه عندما اعتمر قُبَّعَةً لَزِجة تكاد تقطر زيتًا ودهنًا، وارتدى ثوبًا رحراحًا يتجاوز، بكثيرٍ، حجمه، تفوح منه روائح القذارة والمرض، وقد بات، من جرّاء تراكم الأوحال والأوساخ، يابسًا كالحطب، ومن خلال ثقوبه العريضة والعديدة كانت تظهر للعيان بعض أجزاء جسده العاري. ولكن، رغم ذلك، تملّكه فرحٌ غامرٌ، وأخذتْه نشوةُ الشعور بأنّه أحدُ مَحْظيّي الربّ، إذ غدا يشارك، في روحه وجسده وكرامته، أكثر الفقراء بؤسًا، متربتَهم ومهانتَهم.

ومثلَهم، قَبَعَ على أدراج الكنيسة، ومدّ يده سائلاً، محبَّةً بالله؛ وخَبَر قسوة الكثيرين من الموسرين واستعلاءهم وازدراءهم. ونهش الجوعُ أحشاءَه، فلم يستطع إسكاته إلاّ باليسير من كِسَر الخبز اليابس، والفضلات المتفسّخة؛ وعلى غرار المتسوّلين، نام في العراء، وقد أخفى رأسه في ثنايا أسمالٍ نتنةٍ. وفي طريق عودته إلى أسّيزي لم يتورّع من الاستعطاء على الأبواب، ونام على قارعات الطرق، أو في الإصطبلات. وغالبًا ما كان يُكافئ المحسنين إليه بإحدى أغانيه، وهو لا يفتأ يصعّد للربّ أناشيد الشكر، إذ أتاح له ممارسة الفقر حقًّا.

تجربة التسوّل تلك كشفت له متعة تناول الطعام من يد العناية الإلٰهيَّة مباشرةً، وفتحت عينَيْه على ضربٍ من المتَع غير تلك التي ينشدها سواد الناس، والتي يتعذَّر اقتسامها مع الآخرين، أو هي تتضاءل إن اقتُسِمتْ. أمّا المُتَع التي وُفّق إلى اكتشافها، النابعة من حبّ الله، وحبّ الآخرين كالذات، عملاً بقول يسوع، فهي تتعاظم كلّما تكاثر عدد المشتركين بها، وقد غدا يلتمسها ويبتغيها.

وتسرَّبت أنباء تشرّده إلى أسّيزي، فكان غضب أبيه مُجَلْجِلاً. أمّا والدته، فبدافع خشيتها عليه، جهدت في إقناعه بالعدول عن ذلك الدرب، متذرّعةً بحجّة أنَّه خيرٌ للمرء أن يكون ثريًّا وقادرًا على مساعدة الفقراء، من أن يكون فقيرًا لا حولَ له ولا طول، ولا قدرةَ له على المساعدة، وأنَّ المرء لا يشفي قريبًا كُسرت ساقه إن هو أقدم على كسر ساقه أيضًا. غير أنّ فرنسيس كان قد عقد العزم على المُضيّ في ذلك السبيل إلى نهاية الشوط، غير آبهٍ بسُخط والده وازدراء قومه، مستعينًا بأَزْر الربّ، إلى أن غدا أميرًا للفقراء، وارتضى أن يُسمّى «الفقير الصغير»، بل بات، في ما بعد، يأبى أن يكون، على وجه البسيطة، أفقر منه.

القدّيس فرنسيس محجوزاً في قبو البيت الأبويّ

الجزء الثاني
نداء الربّ

«فرنسيس... أصلح كنيستي!»

كان فرنسيس يحيا تحوُّله النفسيّ، وكأنَّه يسبح فوق الغمام، في فرحٍ عميق الغور يندّ عن الوصف، وكلُّ كيانه يرتعش من لمسة اللّٰه الحارقة التي ما انفكّت تشعّ فيه نورًا وتُضرم نارًا.

كان لا يزال يختلف إلى متجر والده. ولكن بات من الواضح أنَّه لم يعد يُعير شؤون التّجارة أيّ اهتمامٍ، فتطلُّعاتٌ أُخرى كانت تحتلّ كلّ حيِّزٍ من قلبه وذهنه، بحيث ما عاد يعنيه إقبال العملاء المترفين الأثرياء – وهم مصدر الثروة والربح – بقدر ما يتحرَّق شوقًا إلى زيارة يسوع له في أسمال الفقراء.

وقد لحظ جميع المُقرَّبين منه أنَّه غدا يجنح إلى صمتٍ غير مألوفٍ، ويغرق في التأمّل، وقد استعاض عن فاخر الثياب بأبسطها، ممّا كان يثير حنق والده الذي، وإن كان سعيدًا لإقلاع ابنه عن التبذير، والبذخ على سهرات اللَّهو، إلاّ أنّه كان يرى زيّه الجديد، المتناهي البساطة، غير لائقٍ بابن بيرناردوني البكر. كما كان يرى، في التصاقه المتزايد بالمتسوّلين والبرص، إزراءً بمركز الأسرة، واستخفافًا بقدرها! حقًّا لقد كان عاجزًا عن إدراك التحوُّل الجوهريّ الذي طرأ على ابنه، ولا سيّما بعد أن كان قد توسّم فيه، إثرَ ما برهن عنه من حذقٍ ونباهةٍ ومقدرةٍ في ميدان التجارة، خير وريثٍ من شأنه الحفاظ على ثروة الأُسرة وإنماؤُها. وكم كانت مريرةً خيبة الأمل تلك التي شرعت تساوره!

قد يستطيع كثيرون منّا، نحن المسيحيّين الفاترين، التوفيق بين التجارة والإيمان، ولكنّ فرنسيس لم يجد إلى ذلك التوفيق سبيلاً، بعد أن استحوذ الربّ على كلّ طاقاته، ووهبه، هو، إيّاها، كاملةً، وبلا تحفُّظٍ؛ فنفس من تخترقه سهام الربّ تمسي غير قادرةٍ على العيش إلاّ بحبّه، وبتلمُّسه في صلاةٍ لا تنقطع. ولا بِدْعَ، بالتالي، إن غدا فرنسيس غالبًا ما يهجر متجر والده، ويمضي يجوس بين الحقول، متأمّلاً، مصلّيًا، باحثًا عن مكانٍ يتّسع للمشاعر التي تنوء بها نفسه. وكان قد اكتشف، على سفح جبل سوبازيو، مغارةً ظليلةً معزولةً، يفزغ إليها، فيستعرض، في هدأتها الصامتة، شريط أيّامه السالفة التي أمسى يجدها مقيتةً، بشعةً، ويذرف عليها دموع التوبة الحرّى؛ وغالبًا ما انتابه شعورٌ مضنٍ بأنّ جميع دموع الدنيا عاجزةٌ عن غسل أيّام الخطيئة تلك.

قد يبدو لنا شعور القدّيسين بجسامة خطاياهم مفرطًا في المغالاة، لأنّنا لا نستطيع أن نُميّز، مثلَهم، كلّ بشاعة الخطيئة، على نحو ما تتجلّى في عيونهم وفي عيني الربّ. ومن ثَمّ فقد لا تزعجنا أجسم خطايانا، في حين تقذفهم هفواتٌ تبدو لنا سطحيَّةً تافهةً، في وهادٍ سحيقةٍ من الابتئاس والنَّدَم، وتُفجّر فيهم ينابيع من دموع التوبة. ولا ريب أنّه لو تسنّى لنا رؤية حقيقة أنفسنا، على نحو ما يراها الربّ، لصَرَعَنا اليأس!

وفيما كان فرنسيس، يومًا، يخرج من تلك المغارة، وقد كدَّه النحيب والندم، وإذ بشابٍّ بسيط الهندام، مُشرق المحيّا، يبادره بتحيّةٍ رقيقةٍ، ويستوضحه عمّا كان يبحث داخل المغارة، فأجاب:

– إنّني أبحث عن كنزٍ.

– أعلم ذلك. وإنّك لواجده إن أنت حفرت عميقًا، ومضيت في الحفر أعمق فأعمق. وهاك هذا الكتاب؛ إنّه كتاب الأناجيل؛ تمعّن في مطالعته، وأرهف السمع إلى الصمت؛ أنصت باهتمام إلى أسى البشر، فكم من الحزن يختبئ وراء ضحكاتهم! افعل ذلك، وإنّي لواثقٌ بأنّك ستكتشف كنزك.

لقد كان في جِرْس صوت ذلك الشابّ الغريب، شيءٌ من السماء؛ فأحبّه فرنسيس، وأكبر فيه نزوعه إلى الصمت، وردّه على كلّ سؤالٍ بجوابٍ مقتضبٍ، حافلٍ بالمغزى، غنيٍّ بالبُعْد الصوفيّ. وقد قال له ذات يومٍ:

القدّيس فرنسيس يصلّي

– انظُر ما أجمل الطبيعة! فالقمح ينمو وينضج، والغيوم تجود بالغيث، والأشجار تمجّد الربّ بإعطائها الفيء والثمر. كلُّها تنقاد لعمل الربّ. إنّ من يمجّد الخالق لا يطلب شيئًا، ومن لا يملك شيئًا يسعه أن يعطي الله أكثر؛ وإنّما الفقر هو جوهرة الإنجيل.

وكثيرًا ما التقيا، بعد ذلك، حتّى غدا ذلك الغريب السرّيّ، صديق فرنسيس الأوحد، بل أمسى له الحارس والنجيّ، يكاشفه بدِخْلة نفسه. وإذا ما اعتزل في المغارة، لبث ذلك الصديق خارجها، وكأنّه يصدّ عنه هجمات العالم وفضوله. وكم قد سمع من تأوّهاته، وأصغى إلى اعترافات توبته، أو باغته، عقب ساعاتٍ من الصلاة، فألفاه، وقد أتلفه ألم الندم، وحفرت الدموع في خدَّيْه أخاديد، وقرَّحت جفنَيْه!

ذلك الألَم الصادق قد أفلح في تطهير نفس فرنسيس، وتنقيتها وتحريرها، فتسرّب إليها فرح الربّ الصافي الذي تُخفِق كلُّ منغّصات الدنيا في تعكيره، والذي تُغذّي جذوتَه الصلاةُ بلا توانٍ.

وسرعان ما انقلبت تلك المغارة أتّونًا يلتهب عرفانًا بالجميل، وتواضعًا، وحبًّا شاملاً، وفي حناياها وُلدت إحدى أقوى الشخصيّات، وأبهاها، وأكثرها تفرُّدًا في تاريخ البشريّة.

وقد اكتشف فرنسيس، على مقربةٍ من المغارة التي كانت تظلّل عزلته وندامته وتأمّلاته، كنيسةً عتيقةً، متداعيةً، مكرّسةً على اسم القدّيس داميانُس، وتكاد تكون مهجورةً لولا أنّ كاهنًا شيخًا قد ظلّ يقوم على خدمتها بحكم العادة الطويلة الأمد. وقد بات فرنسيس يختلف إليها باطّرادٍ، مُلتمسًا في هدأتها الظليلة، النورَ والدليل، وباحثًا عن جوهر ذاته.

في مقاييس اليوم تبدو تلك الكنيسة مفرطةً في الصغر، بل تبدو، بالأحرى، مُصلًّى صغيرًا محفورًا في الصخر، وهي مجرّدة الجدران، شديدة البساطة، ومتّصلة بموهفٍ يكاد يكون في مثل حجمها أو أصغر قليلاً؛ وهي تقع على منحدرٍ منعزلٍ من السَّفح، بين أسّيزي والسهل، وقد أُلحق بها، فيما بعد، الديرُ الأوّل لراهبات القدّيسة كيارا. أمامها تنبسط البساتين والكروم، ومن تحتها السهل الرائع، مِمّا يجعل منها واحةَ سكونٍ وصمتٍ وتأمّلٍ. ولا بِدْعَ، بالتالي، إن اعتبرت التقاليد أنّ القدّيس فرنسيس قد استلهم نشيد الخلائق من سَنى تلك الطبيعة الفذّ، وشرع، هناك، في نظمه.

فوق هيكل تلك الكنيسة الصَّغيرة كان ينتصب صليبٌ بيزنطيٌّ، مرسومٌ رسمًا ساذجًا، ولكنّه يُعبّر عن ألَمٍ سحيق، وينطق بإيحاءٍ تتعذّر مقاومتُه. ذلك الصليب الذي يبلغ نحو

مترَيْن طولاً، والمرسوم على خشب، بألوانٍ يغلب عليها الذهبيّ والأحمر، محفوظٌ اليوم في كنيسة القدّيسة كيارا في أسّيزي، وهو يتميَّز بنُحول ذراعَي المصلوب الطويلتَيْن المشرعتَيْن على الكون، وبنظراته الحزينة الغائصة في آفاقٍ بعيدةٍ، في توقُّعٍ وجيعٍ لأعزَّاء طال غيابهم. وقد لمح فرنسيس تلك النظرات فأدرك ما تنطوي عليه من حبٍّ جمٍّ، وجثا، وبكى، تأثُّرًا وشكرًا.

كان قد رأى من الصلبان أُلوفًا، فكلُّ مكانٍ، في إيطاليا، يزخر بها، ولكنَّها لم تكن تعني له شيئًا؛ إلاّ أنَّه بعد أن شرع يصلب ذاته، وإزاء ذلك المصلوب على هيكل كنيسة القدّيس داميانُس، اكتشف مغزى الصليب للمرّة الأولى، فتفطّر قلبه أسًى، وذاب عرفانًا بحبّ ذاك الذي ضحّى بذاته، وأراق دمه، فداءً له، هو الجاثي الآن أمامه، ودموعه المتدفّقة تغسل كلّ ماضيه، وترسّخ في أعماقه حبًّا جديدًا، طاهرًا، ساميًا، آسرًا.

أمام صورة المصلوب قاهر الموت، انقلبت حياة فرنسيس جذريًّا، ونشأت بينهما قصّة حبٍّ «للحياة والموت». لقد عثر فرنسيس، أخيرًا، على أكثر الأصدقاء حبًّا، وتيقّن أنه لم يَعُدْ وحيدًا، بل بات بإمكانه مجابهة العالم.

ولا مراء أنّ تعاطف فرنسيس مع الفقراء كان قد أهَّله لذلك الاكتشاف المُذهل، ومكَّنه من استيعاب معاني الصليب، واستجلاء سرّ «إنسانيّة» الله. فكم كان مختلفًا، ذلك المصلوب، عن إله الأغنياء، وأُولي الامتيازات، وسادة الكنيسة، وعظماء الأرض! وكم هو بعيدٌ عن المال، والسيطرة والسلطان، بل كم هو على نقيضها جميعًا! فهو يُمثّل أدنى دركات البؤس في العالم، البؤس الذي اختار، طائعًا، أن يتبنّاه، وينغمس فيه بكلِّيَّته، بحيث يغدو بوسع كلّ واحدٍ من أولئك الصغار والمسحوقين أن يرى فيه أخًا وندًّا. هو، شريك مجد الآب، وربّ كلِّ شيءٍ، ارتضى عيش الوضعاء من بني البشر، الذين يعانون المهانة والتنكيل، وشتّى صنوف الصلب، كلّ يومٍ، وفي كلّ زمانٍ!

في عزلة تلك الكنيسة العتيقة وعتمتها، أُتيح لفرنسيس أن يتأمّل مليًّا في تواضع اللّه اللامتناهي، وبقلبٍ مضطرمٍ، استسلم لنفحة الحنان التي اخترقت أغوار نفسه، واجتاحته رغبةٌ عارمةٌ في تأثّر خطى ابن الله في مسيرته الإنسانيّة، والتخلّي عن أيّة رغبةٍ في التفوّق على الآخرين، كي يكون واحدًا منهم، وأخًا لهم، بل الأصغر فيهم.

ويُروى أنّه، في تلك الفترة، كان يحوم كثيرًا في جوار كنيسةٍ صغيرةٍ أُخرى، تدعى

«پورتسيونكولا»، ستصبح، في المستقبل القريب، مقرًّا له ولرفاقه، وهو ينتحب، مذرّفًا دموعًا غزيرةً. وقد رقّ لحاله، يومًا، أحد المارّة، فبادره مستفسرًا عن سبب انتحابه، فأجاب: «إنّني أبكي من جرّاء آلام سيّدي يسوع المسيح، ولن أخجل من تطواف العالم أجمع، كي يرى الجميع هذه الدموع التي أسكبها». وأخذ التأثّر بالسائل كلَّ مأخذٍ، بحيث طفق يذرّف الدموع، هو أيضًا. وغالبًا ما كانا يلتقيان، ويشتركان في البكاء، تعاطفًا مع آلام المسيح.

من المحقّق أنّ معاني الصليب قد أخذت، منذ تلك الفترة، تستولي على ذهن فرنسيس وعقله، وتُسيّر كلّ سلوكه، وأنَّ الصليب قد وَسَم نفسَه وسمًا عميقًا أبديًّا.

وكثيرًا ما كان يردّد، وهو يُحدّق بالصليب، مثل هذه الصلاة: «يا اللّه العظيم والجزيل البهاء، يا ربّي يسوع المسيح، أَتوسّل إليك أن تنيرني، وتبدّد ظلمات نفسي. أعطِني إيمانًا مستقيمًا، ورجاءً ثابتًا، ومحبّةً كاملةً! وهبْني، يا ربّ، أن أعرفك، كي أسلك، في كلّ أمرٍ، وفق أنوارك، وبالاتّفاق مع إرادتك القدُّوسة».

التماس أنوار اللّه، وأزره على العمل وفق إرادته، ذاك كان محور الصلاة التي لا يني فرنسيس يرفعها كلّ يومٍ إلى السماء، والتي كانت من الحرارة واللجاجة، بحيث يتردّد لها مثل صدى دعاء النبيّ: «تكلّم، يا ربّ، فإنّ عبدك ينصت».

وأخيرًا رأى اللّه أنّ الوقت قد حان لكي يتكلّم. وذات يومٍ، إذ كان فرنسيس جاثيًا أمام هيكل كنيسة القدّيس داميانُس، مُحدّقًا إلى الصليب وإلى المصلوب ذي العينَيْن السوداوَيْن الواسعتَيْن العميقتَيْن، وكأنّهما بُحيرتا عطفٍ وألمٍ، غارقًا في التأمّل، وإذ بشفتَيْ المصلوب تتحرّكان، وتخاطبانه كما يخاطب الصديق صديقه، وتقولان: «فرنسيس، هيّا أصلح كنيستي المتداعية!» الخشب الميت سرت فيه الحياة، وعبرَه، مرَّت السماء وتكلّمت.

وقد تكرّرت دعوة المصلوب تلك إلى فرنسيس ثلاثًا.

لو أنّ زلزالاً ضرب الأرض ضربًا مدمّرًا، ولو أنّ الكنيسة انهارت فوق رأس فرنسيس، لما ذهل ذهولَه، وهو يسمع صوت اللّه ينبعث من صليبٍ خشبيٍّ عتيقٍ، ويناديه باسمه، وينتدبه لمهمّةٍ. وقد امتزج لديه الذهول بالفرح. فللمرّة الأولى، يبلّغه الربّ إرادته، لا عن طريق الأحلام والرؤى، أو تنبّؤات أُناسٍ بسطاء، بل بالخطاب المباشَر، والصوت الحيّ، صوت يسوع الناصريّ، المسيح، ابن اللّه، وسيّد الأكوان.

وامتزج لديه الفرح بالهوى، فالصوت السماويُّ العذب قد فجّر بين قلب اللّه وقلب فرنسيس تيّارًا من الحبّ المتبادَل الذي يندّ عن الوصف.

لقد تنازل ابن اللّه العليّ، فاستخدم فرنسيس، وأَوْكل إليه مهمّةَ إصلاح كنيسته.

بعفويّةٍ، وبساطةٍ، وتواضع، أخذ فرنسيس كلام المصلوب بحرفيّته، وتلفّت في جدران الكنيسة الصغيرة، مُقدِّرًا ما أصابها من تداعٍ، وما تحتاج إليه من إصلاحٍ ورمٍّ. ولم يجُلْ بخَلَده أنّ الربّ إنّما كان ينتدبه لإصلاح كنيسته الخالدة الجامعة، ذلك الكيان العالميّ الذي أسّسه يسوع، وانتدبه كي ينشر، بين البشر، بشرى موته وقيامته، والحبّ الأخويّ والسلام. تلك الكنيسة غدت متخلخلةً، لأنّها ذهلت عن رسالتها، وباتت مفتقرةً إلى من يدعمها ويُصلحها، بالعودة بها إلى معين الإنجيل الصافي المحيي. ولكنّ فرنسيس كان من التواضع بحيث خفي عليه المرمى الروحيّ لدعوة المصلوب، ولم يدرك منها سوى المعنى المادّيّ.

ورسم على ذاته إشارة الصليب، واندفع سعيًا إلى تنفيذ المهمّة الموكلة إليه. في فناء الكنيسة كان الكاهن الشيخ قابعًا على مقعدٍ يدفأ بأشعّة الشمس، فجثا أمامه، وقبّل يده، ونقده بضع قطعٍ ذهبيّةٍ كي يبتاع بها مقدارًا من الزيت كافيًا لإبقاء قنديلٍ مُسْرجًا أبدًا أمام الصليب، وانصرف مسرعًا على أن يعود قريبًا.

«أبانا الذي في السماوات»

إصلاح كنيسة القدّيس داميانُس، تنفيذًا لأمر الربّ، بات مهمّة فرنسيس الوحيدة الشاغلة؛ بيد أنّها كانت تقتضي مالاً وفيرًا، وتفرُّغًا تامًّا. وفي سبيلها، لم يتورّع فرنسيس عن تحقيق القطيعة الحاسمة النهائيّة مع كلّ ماضيه وأهله، كي ينصرف إليها بكلّ طاقاته.

فمن أجل توفير المال عمد إلى متجر والده، حيث انتقى طائفةً من الأقمشة الفاخرة، ووضعها في خرجٍ على متن جواده، ويمّم بها شطر مدينة فولينيو المجاورة، حيث باعها هي والجواد معًا، وعاد، وهو يضطرم حميّةً، والأحلامُ تتوهّج في ذهنه، متخيّلاً أيّ روعةٍ ستغدو عليها الكنيسة بعد أن يفرغ من إصلاحها. وبادر فألقى بحزمة المال الذي ظفر به بين يدَي الخوري الشيخ، واستفاض في بسط مشاريعه بشأن ترميم الكنيسة. ولا ريب أنّ رجل الدِّين قد أكبر في فرنسيس اندفاعه في خدمة بيت اللّه، إلاّ أنّه كان

لا يزال يخشى أن تكون حاديَه إليها نزوةٌ قد طالما اشتهر بأمثالها ابن بيرناردوني، فضلاً عن خشيته من ردود فعل والد فرنسيس؛ وقد كان، في خشيته هذه، مُحقًّا، فپييترو بيرناردوني قد أَلِف الإغضاء عن إسراف ابنه في سهرات اللهو التي تتيح له التمثُّل بأبناء النبلاء، رغم المجاعة التي كانت تعضّ أحشاء سواد شعب أسّيزي، ولكنَّه لم يكن ليرضى بأن يُنْفَق ماله على تُرَّهاتٍ لا طائل تحتها، مثل إصلاح كنيسةٍ عتيقةٍ لا يعلم أحدٌ بأمرها.

ورُبَّما خطر لفرنسيس، وهو يستخدم مال والده في إصلاح الكنيسة أنّه يُسدي له خدمةً جليلةً ويؤَهّله لثوابٍ جزيلٍ، بإشراكه في عملٍ سامٍ. ولكنّ مثل تلك الهموم لم تكن لتساور، يومًا، بال پييترو بيرناردوني.

لقد رفض الكاهن المبلغ الطائل الذي جاءه به الشابّ التائب، ولكنّ فرنسيس قد أبى، هو أيضًا، الاحتفاظ بأيّ مالٍ، إذ بات يزدري المال ازدراءه لوحل الطرقات، ما لم يُستخدَم في غرضٍ نبيلٍ، فقذف بالكيس الذي أودعه حصيلة آخر صفقاته التجاريّة، في ركن نافذةٍ من نوافذ الكنيسة العتيقة، ومضى يبحث عن مخبإٍ.

لعلّه خجل من فعلته، وراودته وساوس تُصوّر له أنَّه سرق أباه سرقةً مشينةً، ولعلّه خشي بطش أبيه وانفجار سخطه، فتوارى عن الأبصار بضعة أيّامٍ، في كهفٍ، حيث كان يوافيه رفيقه بشيءٍ من الطعام خلسةً. والمرجَّح أن السيّدة «پيكا» هي التي كانت تُنْفِذ له غذاءه، بواسطته.

بيد أنّ فرنسيس ما لبث أن خجل من خجله ذاك، ولا سيّما أنّه كان قد فعل ما فعله في سبيل تنفيذ مشيئة اللّه، فعزم على مواجهة الموقف بثبات جأشٍ، ومَثُل إلى أسّيزي، غير هيَّابٍ.

كانت ثيابه، أثناء تواريه، قد اتّسخت، ونما شعر لحيته، وشحُب محيّاه، وغدا زيُّه زريًّا، وبالإجمال أثار مظهره تهكُّم الأسّيزيّين واستنكارهم، ولا سيّما أنَّ أباه قد أشاع أمر سرقة ابنه له، فقابلوه بالشتيمة، والرَّجم، وبالوحل الذي مرّغوا به وجهه. وتعالت صيحات «مجنونٌ، مجنونٌ!» ولم يدرك الذين أطلقوها أنّهم إنّما كانوا يتنبَّؤون، ففرنسيس قد أمسى، حقًّا، مجنون اللّه!

وتنامت أصوات الجلبة إلى أسماع پييترو بيرناردوني. وعندما تأكّد له أنّ ابنه العاقّ

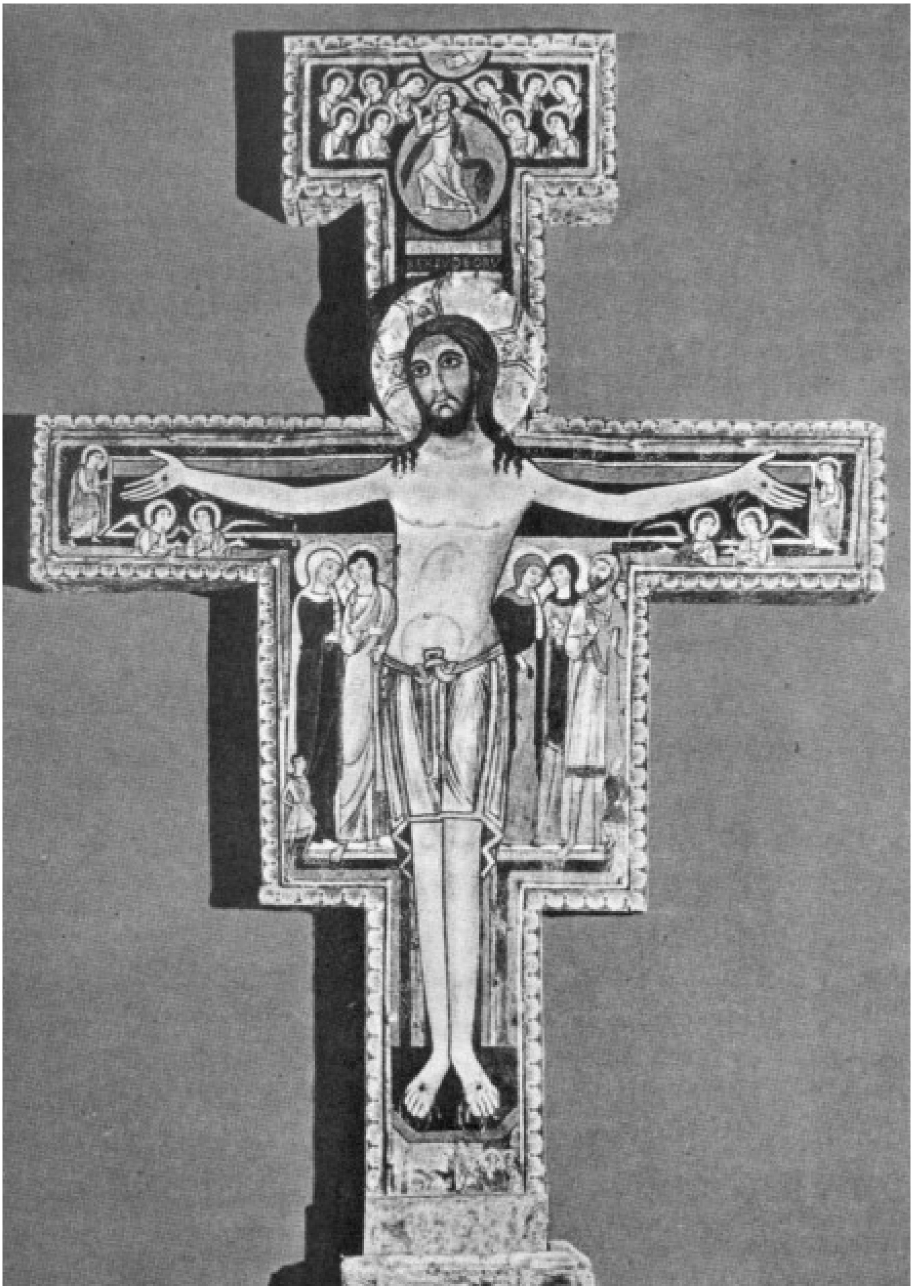

صليب كنيسة سان داميان

قد عاد، انقضَّ عليه «انقضاض الذئب على النعجة» على حدّ قول الرواة، وقبض به من عنقه، واقتاده إلى المنزل حيث سجنه في ما يشبه زنزانةً واطئةً، وشديدة الضيق، محفورةً في الصخر، يُحكم إيصادَها بابٌ من الحديد المشبّك، لا يزال بإمكان الزائر مشاهدتها في بيت آل بيرناردوني الذي أقيمت فوقه كنيسةٌ للحؤول دون استملاكه من قِبَل بلديّة أسّيزي. غير أنّ صفقاتٍ عاجلةً ما لبثت أن دفعت الوالد إلى السفر، من جديدٍ، فمضى، بعد أن أوصى بإحكام السجن على ابنه المذنب المرذول. وامتدّ سفره، وضاقت زوجته ذرعًا بمهانة ابنها البكر، ورقّت لحاله، وعبثًا بذلت جهودًا قصوى في سبيل إقناعه باستغفار أبيه، والعودة إلى سابق عهده، وإلى عمله الكريم في متجر الأسرة. بيد أنّ كلّ تلك الحجج والتوسّلات عجزت عن النفاذ إلى قناعة فرنسيس، الذي قطع كلّ صلةٍ بماضيه، وغدا الله هو أهله وعشيرته ووطنه.

وكانت السيّدة «پيكا» قد لمست بوادر تلك التحوُّلات في نفس ابنها منذ أشهرٍ، ولم يكن من العسير عليها إدراك ما انتهى إليه، ولئن شقّ عليها ذلك وآلمها. بيد أنّها، هي أيضًا، امتثلت لمشيئة الربّ التي تسمو فوق كلّ مشيئة، وأطلقت سراح فرنسيس، غير حافلةٍ لا بسخط زوجها، ولا باحتمال ألاّ تعود ترى ابنها أبدًا.

ولمّا عاد پييترو بيرناردوني، وتبيّن فرار سجينه، أرغى وأزبد وتوعَّد بشكايته إلى السلطات البلديّة كي تدينه وتعاقبه بما يعاقَب السارقون. ولكنّ فرنسيس الذي عزم على الانسلاخ عن العالم، انسلاخًا كاملاً، وضع نفسه تحت حماية الكنيسة التي باتت، هي، عالمه، واحتكم إلى أسقف أسّيزي. وإنّما هو، بسلوكه هذا، قد أبرز عنصرًا أساسيًّا من عناصر النهج الذي سيظلّ يسم مستقبله: فهو يتوخّى إضفاء طابعٍ يصدم العقول، ومغزًى غنيٍّ بالإيحاء، ودلالةٍ رمزيّةٍ مؤثّرةٍ، وشرعيّةٍ إنجيليّةٍ، على كلّ أعماله. وهو، من جهةٍ أُخرى، حريصٌ على أن يصلحها من الداخل، لا بمهاجمتها، ولا بتجريحها، بل بحمل رؤسائها على تبنّي تشبّثه بصفاء النهج الإنجيليّ، بادئًا دائمًا بإصلاح ذاته، كي تكون قدوته هي وسيلة الإقناع المثلى.

ولا مراء أنّه قد حقّق إنجازًا جللاً، عندما توفّق في اجتذاب الأسقف إلى جانبه، جانب الفقر الطوعيّ، والتجرّد، والتضحية، في مواجهة سلطان المال، وسيطرة النفوذ. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، في ذلك العهد.

وأوعز الأسقف إلى كلٍّ من پييترو بيرناردوني وابنه فرنسيس بالمثول أمامه. وكان يوم

المواجهة يومًا تاريخيًّا مدوّيًا، تحرّكت له أسّيزي بأكملها، وتراصّ أهاليها في ساحة المدينة، يحدوهم فضول مشهدٍ على جانبٍ كبيرٍ من الإثارة؛ وقد تسنّى لفرنسيس، فيه، أن يبرهن على موهبته الفذّة في إبراز ما يرمي إليه من رمزٍ بعيد الدلالة، يتغلغل عميقًا في الأذهان وسرائر النفوس، ويظلّ صداه يتردّد عبر الأجيال في الصدور.

تلخّصت مطالب الوالد في استرداد ماله المسروق، وتنازل ابنه البكر عن حقّه في الميراث. وقد لبّى المدّعى عليه تلك المطالب بأبعد ممّا طالب أبوه، وعلى نحوٍ مُدهشٍ، غير متوقَّعٍ، لم يخطر لأحدٍ ببالٍ، إذ دنا منه، بخطًى بطيئةٍ ثابتةٍ، وبتُؤَدَةٍ شرع يخلع جميع ثيابه، واحدًا واحدًا، ويرمي بها عند قدمي أبيه، حتّى غدا في عريٍ تامٍّ، تحت أنظار الجميع! أَوَلَم يكن يولد آنذاك من جديدٍ، ومن البَدَهيّ أن يأتي المرء إلى الوجود عاريًا؟

وفوق كومة ثيابه المتراكمة قذف بكيس النقود الذي كان ما برح مرميًّا في ركن نافذة الكنيسة، والذي أمسى فرنسيس واثقًا أنّه مالٌ حرامٌ لا يسوغ استخدامه في إصلاح كنيسةٍ.

ولقد ذهل الحضور عندما تبيّنوا أنَّ فرنسيس الذي عهدوه مفرطًا في الترف، كان يرتدي تحت ملابسه مِسْحًا من الوبر الخشن الذي أَلِف النُّسّاك استخدامه لقمع الغرائز البهيميَّة، وترويض الجسد.

وأجال الشابّ التائب في الجمع أنظارًا ساكنةً ساحرةً، وفي ثقةٍ وهدوءٍ أعلن: «أنصتوا، اسمعوا جميعكم! لقد بتُّ الآن قادرًا أن أقول بكلّ صدق وحرِّيَّة: «أبانا الذي في السماوات!». إنّ پييترو بيرناردوني لم يَعدْ لي أبًا، وأنا أعيد له، لا ماله فحسب، بل جميع ملابسي التي أنا مدينٌ له بها». ثمّ أردف متهلّلاً، وبصوتٍ جهيرٍ: «والآن يسعني أن ألاقي الربّ، وأنا عارٍ!».

اغرورقت عينا الأسقف بالدموع. وأقبل على فرنسيس فقبّله، وألقى عليه معطفه، ثمّ استقدم له قميصًا ومعطفًا رثّين من مخلّفات بستانيّ دار الأسقفيّة، وكأنّي بالكنيسة، متمثّلة بأسقف أسّيزي، قد بادرت إلى تبنّي ذاك الذي تخلّى عن العالم وكلّ رموزه، ليكون ابنًا لها ولمؤسّسها فحسب. وعلى غرار الأسقف بكى عددٌ غفير من الحاضرين تأثُّرًا وتعاطفًا مع الشابّ المدلّل، الذي انقلب متجرّدًا في خدمة اللّه، في حين انهالوا

بالشتيمة والاستنكار على والده الذي جفّ كلُّ حنانٍ في قلبه، والذي أقبل على كيس المال وعلى الثياب المتراكمة عند قدميه فتأبّطها، وانصرف مهرولاً تتنازعه مشاعر متضاربةٌ: فرحةٌ باستعادة ماله المسروق، وخلاصه من ابنٍ لم يقتصر على قضم بعض أمواله، بل جلب عليه سخريّة الناس وشماتتهم، بسلوكه الأحمق، وخيبة رجائه في وريثٍ كان كفيلاً بتأمين ازدهار تجارته واتّساعها؛ وسخطه على ابنٍ عاقٍّ لن يغفر له أبدًا فعلته الدنيئة.

ألا تبًّا لمال يُحيل أبًا، رمز العطف والعطاء المتجرّد، عدوًّا لابنه!

أمّا فرنسيس فلم يكن يضمر لأبيه أيّ كرهٍ، فقلبُه الذي أفعمه الحبّ الإلٰهيّ، لم يعُدْ يتّسع، بعدُ، لأيّ بغضٍ؛ ولكنَّه، بموقفه من أبيه، إنّما كان يستنكر عالم المال، وكلّ ما يُمثّله من جَشَعٍ، وقسوةٍ، وتجرُّدٍ من المشاعر الإنسانيّة، وبالتالي، من عجزٍ عن اكتشاف وجه اللّه. لا بل إنّه، بتجرّده من ثيابه كلّها، على مرأى الملأ، إنّما كان يتجرّد من أشياء هذا العالم، وكلّ علاقاته ورموزه!

منذ تلك اللحظة شرع فرنسيس يشقّ الناس بين مؤيّدٍ له ومعارضٍ، شأنه في ذلك شأن جميع من يتصدَّون لجليل الأمور، وقد ظلّ حتّى مماته، هدفًا للمعارضة، يستثير لدى الغير تساؤلاتٍ مصيريّةً، ومتحدّيًا عنيدًا، عذبًا، وساحرًا.

وفيما كان فرنسيس يواجه أباه، انتصبت أمام نافذة منزلٍ من منازل النبلاء، في أسّيزي، صبيّةٌ حسناء، رقيقةٌ، شفّافةٌ، في ربيعها الثالث عشر، تدعى «كيارا»، وهي تتلقّف، في لهفةٍ ووَرَعٍ، كلّ كلمة من كلمات فرنسيس، وترقب، في خشوعٍ، واندفاعٍ، كلّ حركةٍ من حركاته. وسوف يكون لها شأنٌ كبير، وسهمٌ هامّ، في رسالة «مجنون اللّه».

وخليقٌ بالتنويه والإعجاب أنّ تحوّل فرنسيس الجوهريّ، الذي أفضى به إلى انتباذِ متَع الحياة كلّها، ونَذْر نفسه فارسًا في خدمة اللّه وكنيسته، قد تمّ في تُؤَدةٍ وحذرٍ؛ فهو لم يُصعَق بأنوار اللّه بغتةً، على غرار بعض كبار المرتدّين، ولكنّه دأب جاهدًا على تلقُّن أبجديّة الحقائق الإنجيليّة، حرفًا حرفًا. وهو لم يكن يتمتّع بذهنٍ منهجيٍّ، ولا بالقدرة على التأمّل في الورائيّات، ولكنّه عكف على ذاته كي يكتشف في حناياها قِيَمًا جديدةً. واكتشافه هذا قد تمّ في خطًى وئيدةٍ، ولكنّها واثقةٌ. فها هي ذي الصلاة، بموكبها من الفرح تغزو قلبه؛ وها هي ذي عِشْرة الفقراء والسقماء، والتعساء والبرص، وبالإجمال جميع أولئك الذين آثرهم يسوع، تضفي عذوبةً لامتناهيةً على أكثر الأشياء مرارةً، في

القدّيس فرنسيس يتخلّى عن كلّ ما جاءه من أبيه

حين تجعل الأمور الممتعة الموقوفة على فئةٍ ضئيلةٍ من المحظيّين، مقيتةً، لا تطاق. فالإنجيل، بشرى يسوع، التي تمخر عباب الزمن، متألّقةً، هو إنجيل الفقراء، ولا سبيل إلى عيشه إلا بالتجرّد المطلق. وقد استسلم فرنسيس لتلك الحقيقة الرهيبة، وأتاح لها أن تغزو نفسه؛ وعندما انتهى به الأمر إلى التجرّد من كلّ ثيابه، وإلقائها عند قدمَيْ والده، مع كلِ ما تبقّى لديه من مال الدنيا، إنّما فعل ذلك كي يظفر بالعري التامّ، ويمسي فقيرًا حقًّا بين ظهرانَيْ فقراء حقيقيّين. وحينئذٍ، فقط، بات مؤَهَّلاً لمباشرة تحقيق الرسالة التي انتدبه لها المصلوب لإعادة بناء الكنائس الحجريّة، ثمّ كنيسة بطرس الجامعة. وسنراه، في هذا المضمار أيضًا، يتقدَّم خطوةً خطوةً، مثل فلاّحٍ يحرث ببطءٍ، لأنّه حريصٌ على الحرث العميق، ولأنّه يتوخّى أن يجعل من سلوكه عملاً يمكن للجميع استيعابه، بحيث يغدو نداءً لن يصمت أبدًا، نداءً لا يني يهزُّنا ويشدُّنا حتّى اليوم.

«منادي الملك الأعظم»

شعورٌ رائعٌ بالتحرّر، والانطلاق، والفرح الدافق كان يستولي على نفس فرنسيس بعد أن تجرّد من كلّ شيءٍ، وغدا كعصافير الإنجيل، لا همّ لها سوى تسبيح الربّ الذي يتولّى بنفسه تأمين أَوَدها.

قلَّةٌ من البشر هم الذين تسنّى لهم مثل هذا الشعور، وقد حدَّثنا عن مثله غاندي الذي باح بأنّه مذ تجرّد من كلّ امتلاكٍ، اغتنت تجربته بعناصر أربعةٍ: الحياة، والقوّة، والحرّيّة، والفرح.

طريقٌ من نورٍ كان يتوهّج أمام فرنسيس، بعد أن وقف ذاته على خدمة الربّ، وتقلّد أسلحة فارس المسيح، وعقد على الفقر قرانًا مؤبَّدًا، فأثابه اللّٰه بسعادةٍ طاغيةٍ، انتشت بها نفسه، وناء بها صدره. وكان لا بدّ من أن يُشرك بفرحه صديقه الوفيّ، المقيم في مدينة غوبيو، الرابضة على سفح جبلٍ، على بعد أربعة كيلومترات من أسّيزي.

قبل مغادرته دار الأُسقفيّة، رسم بالطبشور صليبًا على ظهر المعطف المهلهل الذي تكرّم به عليه الأسقف، ومضى بخطًى رشيقة، ونفسٍ جذلى، عبر البساتين والحرجات. وعلى حدّ ما كان يفعل كلّما فاض صدره بالفرح، انطلق يغنّي بالفرنسيّة. كان يعلن، في وجه الدنيا كلّها، فرحه بالتحرّر، بعد أن أمسى بلا أسرةٍ، ولا سقفٍ، ولا مالٍ،

ولا أيّ ملكٍ، ولا مستقبلٍ، في هذا العالم. ولكنّه، بالمقابل، تذوّق نشوة انتسابه النهائيّ والحصريّ إلى أبٍ لا مثيل له، وراح يناديه بأعلى صوته، ومن أعماق أحشائه: «أبانا الذي في السماوات»، بل كان يصرخ بذلك النداء، كما يصرخ الوليد للحياة الجديدة. كان قد عقد قرانه مع الفقر، ولا بِدْعَ إن هو انطلق ينشد في يوم عرسه.

وأدركه الليل وهو ما زال يجري وينشد، وفجأةً باغتته خشخشة أغصان أشجار تتحرّك، ومن خلالها انبرى أمامه نَفَرٌ من اللصوص، ولكن سرعان ما خاب ظنُّهم لمّا تبيّنوا زيّه الزريّ؛ وعندما استفسروه عن هويّته أجاب: «أنا منادي الملك الأعظم»؛ وقد استثار ذلك الجواب ضحكاتٍ مدويّةً من أفراد العصابة، الذين تعبيرًا عن خيبتهم، أخذوا «منادي الملك الأعظم» من يديه ورجليه، وقذفوا به في حفرةٍ عميقةٍ مليئةٍ بالثلج، علّه يثوب إلى رشده.

تريّث فرنسيس حتّى نأى اللصوص، وبعد لأْيٍ، وجهودٍ مضنيةٍ، أفلح في تسلّق جدار الحفرة، وهو يرتعد قرًّا، ولكنّه ما لبث أن انفجر ضحكًا، وواصل طريقه، مستأنفًا غناءَه، وكأنَّ شيئًا لم يحدث. ولكنّ الليل كان قد ادلهمّ، والبرد القارس قد جعل متابعة السير متعذّرة، فالتجأ فرنسيس إلى دير رهبانٍ، قائمٍ في تلك المنطقة. ولم يُخفِ الأخ البوّاب نفوره من ذلك الفقير الزريّ، غير أنّه، خشية رؤيته يَنْفُق بردًا، دفع به إلى ركنٍ من المطبخ، وألبسه ثوبًا عتيقًا خَلِقًا يقيه البرد؛ وخلال الأيّام التي قضاها فرنسيس في ذلك الدير، لم يُعطَ من طعامٍ سوى بعض كسر خبزٍ يابسٍ، كان يبلّلها بالماء الرَّنق الناجم عن غسل الأطباق.

وقد شقّ عليه أن يتبيّن إعراضَ الجميع عن المسيح المتمثّل بالفقراء، وتسلُّلَ قسوة الإقطاعيّة وعنجهيّتها حتّى إلى صفوف الرهبان وأديرتهم. ورُبّما منذ تلك الساعة تولّدت لديه خاطرة إنشاء أُسرةٍ رسوليّةٍ، تعود بالكنيسة إلى صفاء الإنجيل ونصاعته، ولا يحدوها سوى الوفاء لوصاياه، بحرفها وروحها.

ولكن كان عليه، قبل كلّ ذلك، الاضطلاع بمهمّةٍ أكثر تحديدًا ووضاعةً، مهمّة إصلاح كنيسة القدّيس داميانُس، على نحو ما فهم من كلام المصلوب له. فتابع طريقه إلى غوبيو، حيث حصل على ما يشبه زيّ الرهبان: ثوبٍ، وحزامٍ جلديٍّ، وخفٍّ، وعصًا، فضلاً عن بعض أدوات البناء.

وقد استقرّ في خَلَده، أخيرًا، أنّ الوسيلة المثلى لإصلاح الكنائس لا تعتمد على ماله أو مال أبيه أو مال الآخرين، بل على جهده وعرقه.

مرمّم الكنائس

أقبل فرنسيس على مهمّة البناء، في حمّى من الاندفاع، ولكنّه ما إن همّ بالتنفيذ حتّى اضطرّ إلى مواجهة الواقع الجافّ والقاسي. في السابق، لم يكن أيّ عائقٍ ماديٍّ يحول دون تحقيق مشاريعه ونزواته. ولكنّه الآن، وقد باشر بإصلاح الكنيسة، كان لا مفرّ له من إدراك أنّ البناء يحتاج إلى حجارةٍ وملاطٍ، وأنّ هذه إنّما تُبتاع بالمال، وأنّ المال قد بات عنه غريبًا. بيد أنّ هذا الواقع لم ينهض عقبةً دون مقصده، ولم يُثبّط عزيمته، فهو قد استعاض عن المال بإيمانٍ يجترح المعجزات، وبثقةٍ مطلقةٍ بأقوال الإنجيل: «كلّ شيءٍ ممكنٌ للّذي يؤمن»، «اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم».

وقد استعان فرنسيس على قضاء حاجته بمواهب الغناء، وأناشيد التروبادور التي تلقّنها في صباه من شعراء فرنسا الجوّالين. فبات يقبع على أيّ مرتفعٍ في ساحات أسّيزي وشوارعها، وينطلق يُنشد تسابيح لله، فيتحلّق حوله المارّة، وحينئذٍ يناشدهم قائلاً: «من يُعطِ حجرًا لإصلاح بيت الربّ، يعطِه اللّه مكافأةً، ومن يعطِ حجرَيْن، يعطِه مكافأتَيْن، ومن يعطِ ثلاثة حجارةٍ، يعطِه ثلاث جوائز».

بعضهم، لدى سماعهم ذلك النّداء، كانوا يسخرون منه، أو يُغرقون في الضحك، فيشاركهم فرنسيس ضحكهم غير عابئٍ؛ ولكنّ غيرهم، على حدّ قول رواة سيرته، «كانت تزدحم الدموع في مآقيهم، لشدّة تأثّرهم برؤيته، وقد تحوّل من الإفراط في السلوك الدنيويّ الزائف، إلى مثل تلك النشوة في حبّ اللّه».

وهكذا غدا بعض الذين سبق لهم أن رموه بالحجارة يبادرون إلى التبرّع له بحجارة البناء. وكان هو يتقبّل بالشكر كلَّ ما يوافونه به منها، صغيرةً كانت أم كبيرةً. وعلى هذا النحو، توفّق في الظفر بكلّ ما يفتقر إليه لتنفيذ مهمّته. وكان يُقِلّ على كاهله ما يتلقّاه من حجارةٍ وجصٍّ، ويمضي به إلى الكنيسة المتداعية، منهك الجسم، ولكن متدفّق الصدر حبورًا.

وقد نهض بأعمال الإصلاح والبناء شبه وحيدٍ. وأثناء عمله، كان لا يكفّ يُنشد باللُّغة الفرنسيّة، على حدّ ما كان شأنه كلّما فاض بالفرح صدره. وكان غناؤه يستوقف

المارّة، بيد أنّ بعضهم لا يتريّثون إلاّ هنيهةً، ثمّ يهزّون رؤوسهم هزءًا، ويمضون في سبيلهم؛ وبعضهم يحرصون، في مكرٍ وبيلٍ، على إسماعه مقذع التجريح؛ غير أنّ البعض كانوا يرقبونه في تأثُّرٍ، ويأخذهم العطف والإعجاب بذلك الشابّ الذي تخلّى عن ماضي الترف واللهو، كي يمارس حياة الفقر والتنسّك في خدمة الربّ؛ وكان فرنسيس يشير إلى هؤلاء، في كثيرٍ من الدماثة، قائلاً: «بل الأحرى بكم أن تقتربوا وتساعدوني في إصلاح كنيسة القدّيس الطيّب داميانُس».

ما كان أجمل تَيْنك اليدَيْن اللّتين طالما أُثقلتا بالخواتم، وتألّقتا بالذهب والجواهر، فغدتا خشنتَيْن، مُقرَّحتين، عاريتَيْن إلاّ من آثار الملاط؛ وما كان أبهى ذلك المحيَّا المغبَّر الذي لوَّحته الشمس، وتلك الثياب الممزَّقة الملطَّخة! وكم كانت سعيدةً تلك الأيّام حين كان الإرهاق ينال من الجسم المنهك والظَّهر المحطّم، فيما القلب يرقص جَذَلاً ورضًى، وما أشهاه كان العشاء الزهيد، برفقة الكاهن الشيخ، وما أحرَّها الصلاة قبل الإبحار في سُباتٍ عميقٍ حافلٍ برؤى السماء. أيّامٌ خصبةٌ بالتَّعب والسعادة، مليئةٌ بالله، اقتسمها فرنسيس بين مِلْيَسة البناء والصَّلاة والتأمُّل!

وكان الكاهن الشيخ قد رقّ لحال مرمّم كنيسته، وأخذه به الإعجاب، فآلى على نفسه أن يوفّر له أفضل ما تسمح به ميزانيّته الهزيلة من طعامٍ يقتسمانه معًا. ولكن سرعان ما اتَّضح لفرنسيس أنَّ الكاهن الطيِّب كان يُفرط في تدليله، وفي إصلاح أشهى المأكولات له، وبذلك، ومن غير أن يدري، يوقظ فيه نَهمَه السالف الذي كان قد وطَّن العزم على الإقلاع عنه. فضلاً عن أنّ فرنسيس، الذي كان قد عقد على الفقر قرانه، لم يجد من السائغ أن يعيش عالةً على سواه: فإنّما المُعدَم يستعطي، وهو بالتالي كان عليه أن يقصر طعامه على ما يستطيع استعطاءه من فضلات الأَغنياء ونفايات الفقراء. وها هوذا يعمد إلى دلوٍ من الدلاء التي كان يستخدمها في مزج الملاط ونقله، فيغسله، ويمضي به كلّما افتقر إلى ما يسدّ به رَمَقه، فيقرع أبواب منازل أسّيزي، مستجديًا أيَّ طعامٍ متوفِّرٍ.

أبوابٌ كثيرةٌ كانت تُصْفَق في وجهه، وإهاناتٌ لاذعةٌ كانت تنهمر على رأسه. الأغنياء، على نحوٍ خاصٍّ، كانوا يوسعونه تجريحًا، ويهدّدونه بإطلاق الكلاب الشرسة في إثره، ويطردونه، إذ إنّهم يرون فيه عارًا يَصِمُ طبقتهم، هو ابن الثريّ بيرناردوني الذي امتهن التسوّل؛ بيد أنّ فقراء كثيرين كانوا يجودون عليه بقليلهم، في غبطةٍ، كما

أنّ أغنياء طيّبين كانوا يُكبرون فيه زهده، وهم يشاهدونه، في امّحائه وثوبه الخلق، حيث انتشرت الثقوب كاشفةً عن أجزاءٍ من جسمه، مشرقًا أبدًا بفرح لا يتزعزع، يتعذّر وصفه، فكانوا يجودون عليه بالوجبات السخيّة والفواكه والحلوى، التي كان يتنازل عنها للكاهن الشيخ، ولمن هم أفقر منه، ولا يُغفل حصّة أصدقائه العصافير منها.

بعض الأسّيزيّين الذين كانوا يشاهدونه مستعطيًا، بعد أن تخلّى عن ثروة والده، وعن ترف العيش الذي كان يرفل فيه، عدّوه مجنونًا، في حين عدّ آخرون سلوكه قداسةً؛ ومن هؤلاء أُسقف أسّيزي، وخوري كنيسة القدّيس داميانُس، والآنسة كيارا، تلك «الحمامة الفضّيَّة»، ابنة الأسرة النبيلة، ذات الأربعة عشر ربيعًا، والنفس الشفَّافة السنيّة، التي استشفّت، بحَدْسها الملائكيّ، سموّ رسالته، وروعة دعوته المرتبطة بيسوع المصلوب، والتي دأبت على تزويده بالمال والمؤونة والطعام، سرًّا في معظم الأحيان.

كان فرنسيس يبارك المحسنين إليه، فيعتريهم انطباعٌ بأنَّه هو الذي يعطي، وأنَّهم هم المحتاجون. ولكنّه كان، أيضًا، يستمطر البركات على الذين يطردونه ويهينونه، ويشكر لهم إهانتهم. وحيالَ دهشتهم، كان يؤكّد لهم أنّ الإهانة تسعده أكثر من الخبز، لأنّها تتيح له مشاركة المسيح في آلامه. ولا ريب أنّه، أثناء انهماكه في ترميم الكنائس، قد خَبَرَ الصليب بشتّى أشكاله: ازدراء ذويه ومعارفه، والإملاق، وإماتة الذات؛ وهو، بفضل هذه كلّها، قد انتصر على العالَم، كما أنّه انتصر على ذاته، عندما استعطى خبزه اليوميّ، وبذلك تهيّأ لإدراك المعنى الروحيّ لرسالته: إصلاح كنيسة المسيح، بإنجيل الفقر.

وبات طعام فرنسيس يتكوّن من ذلك المزيج الهجين الذي يُلقى في دلوه، حيث يختلط على نحوٍ مقزّزٍ مُريبٍ، الحساء البارد، وفتات الموائد، ونفايات متفسّخة، وبعض عظامٍ عليها بقايا لحمٍ، في ما يشبه طعام الكلاب أو الخنازير. وعندما جلس فرنسيس على حجر في الطريق للمرّة الأولى، كي يتناول تلك الوجبة الهجينة، انتابه الغثيان، وكاد يتقيّأ. إلاّ أنَه أغمض عينيه، ملتمسًا أَزر الربّ، مستسلمًا لمشيئته. وجال بخاطره: «هكذا ينبغي السلوك حبًّا بمن وُلد على قشٍّ، وعاش فقيرًا، ومات عاريًا على الصليب». ويا للعجب! فهو ما إن تذوّق تلك النفايات المريبة، حتّى خُيِّلَ إليه أنّها أشهى مأدبةٍ أقبل عليها طيلة حياته، وآنس من الغبطة مثل ما آنس يوم قَبَّل الأبرص الذي كان يُثير لديه أشدّ اشمئزازٍ. ولا غرو في ذلك، فقد قال القدّيس أوغسطينُس: «لا ضيق مع الحبّ، أو إنّه ضيقٌ محبوبٌ».

تحوُّلٌ مذهلٌ كان ينتابه كلّما حطَّم تخمًا من تخوم المستحيل! لقد أدرك فرنسيس، آنذاك، ما لكبح حاسّة الذوق من شأنٍ في السيطرة على سائر الحواسّ، وفي لجم جماح الغرائز، فكَيَّفَ سلوكه وفقًا لتلك القناعة الوليدة. ولسوف يأتي يومٌ يذرُّ فيه الرماد على كلّ طعامٍ يستسيغه.

أثناء جولات استعطائه، لم يتهيّب فرنسيس من طرق أيّ بابٍ، خلا باب منزل والديه، إلاّ أنّه كان من المتعذّر التحاشي عن مصادفة والده، بين فينةٍ وأُخرى، في أحد أزقّة أسّيزي. وكان پييترو بيرناردوني ينتفض ثائرًا، كمن طُعنت كرامته، وأُهين أقسى إهانةٍ، وهو يرى ابنه البكر يستعطي كالشحّاذين، فينفجر بأقسى الشتائم، ويصبّ اللعنات على رأسه.

لعلّ تلك اللعنات قد آلمت فرنسيس في الصميم، رغم تظاهره بعدم الاكتراث بها، ورُبّما هو، من ناحيةٍ أُخرى، كان حريصًا على أن يثبت للجميع أنّ السبيل الذي انتهجه، إنَّما هو سبيل الربّ القويم، فبات يصطحب، في جولاته، متسوّلاً عجوزًا، يقتسم معه حصيلة استعطائه، وصار، كلّما باغته والده، وقذفه بشتائمه، يجثو أمام المتسوّل العجوز، متوسّلاً: «باركني، يا أبتاه!»، فيستمطر العجوز البركات عليه، وحينئذٍ كان فرنسيس يلتفت إلى والده قائلاً: «ها إنّ الربّ قد منحني أبًا يباركني، ليحلّ محلّك، أنت أبي الذي يلعنني. وها إنّ بركاته تمحو لعناتك».

ولم تكن لعنات والده، وحدها، هي التي تتهافت عليه، بل كان، أيضًا، أَخوه الأصغر أنجلو، الذي حلّ محلّه في المتجر، وفي إرث الأسرة، يبادر إلى قذفه بسهامٍ مسمومةٍ من لاذع القول، كلّما صادفه، معبِّرًا عن حنقه السحيق على الأخ الأكبر الذي لَطَّخ سمعة الأسرة البورجوازيّة الموسرة، بتمثُّله بالفقراء، ومخالطته حثالة القوم. وذات صباحٍ قارس البرد، كان فرنسيس جاثيًا في إحدى كنائس أسّيزي في أثناء القدّاس، في أسمالٍ مهلهلةٍ يرتعد بردًا، فدنا منه أنجلو وخاطب رفيقًا له، بصوتٍ مرتفعٍ مسموعٍ: «هيّا اسأل فرنسيس أن يبيعَك شيئًا من عرقه بفلسين!» ولم يتأخّر جواب فرنسيس، بالفرنسيّة، مشفوعًا بابتسامةٍ تنمّ عن فرحٍ عميق الغور: «لقد سبق لي أن بعتُ عرقي كلّه، وبأجزل الأسعار، لسيّدي ومخلّصي!» ولكن لا نتخيّلنَّ أنَّ صمود فرنسيس، حيال كلّ تلك المِحَن، كان سهلاً، خاليًا من الجراح. فالإنسان القديم فيه، لم يكن قد مات ودُفن إلى الأبد، بل كان له، بين الفينة والفينة، يقظةٌ؛ فذات يومٍ، فيما كان قدّيسنا

الشابّ يستعطي زيتًا لكنيسة القدّيس داميانُس، وقد همَّ بطرق باب أحد المنازل، وإذ به يلمح من خلال نافذةٍ مشرعةٍ، قومًا متحلّقين حول مائدةٍ عامرةٍ، وتعرّف، من بينهم، وجوه بعض رفاقه القدامى، وهم يواصلون حفلات الطعام والشراب واللهو، في غيابه، وكأنّ شيئًا لم ينقصهم. وداهمته قوافل الذكريات، واعتراه الخجل، وتصبّب جبينه عرقًا، وارتدّت يده مرتجفةً عن الباب الذي همّ بطرقه، وابتعد عن المكان مهرولاً.

ولكنّه ما كاد يخطو بضع خطواتٍ حتّى خامره الخَجَل من خجله، وجُبنِه، وضعفِه، فعاد أدراجه، وولج المنزل، وأمام جميع الحاضرين اعترف، نادمًا، بما بدر منه، قبل لحظات، من استحياءٍ بمهمّةٍ في سبيل اللّه؛ وقد ران الصمت والذُّهول، حتّى كاد الحاضرون يسمعون دقّات قلب ذاك الذي كان، بالأمس، ملك الشباب، وسيّد اللهو، والذي جاء، بأسمالٍ زريّةٍ، يستعطي زيتًا لإشعال مصابيح كنيسةٍ صغيرةٍ، عتيقةٍ، والذي كان، في تلك اللحظة يصارع، أمامهم، بضراوةٍ وبسالةٍ، شيطان الكبرياء في داخله.

لا ريب أنّ الربّ الذي يقتضي من أصفيائه البطولة، يهبهم القدرة على ممارستها!

الوجه الوحيد الذي كان فرنسيس يتحرَّق شوقًا لرؤيته كان وجه والدته، ولكنّه كان يتهيّب مواجهتها لئلاّ يحزنها مظهره الزريّ واستعطاؤه. فكان، أبدًا، في أثناء تجواله، يلتفت يمنةً ويسارًا، وهو نهبٌ بين شوقه إليها، وخشيته من إيلامها؛ إلاّ أنّه، في المساء، كان يسأل الكاهن الشيخ أن يشترك معه في الصلاة من أجلها؛ ولكن، في صبيحة يوم أحدٍ، كان خارجًا من الكنيسة، وإذ به أمام سيّدةٍ تجمّدت عندما وقعت عليه أبصارها، ولم يكن عسيرًا عليه استشفاف وجهها الحبيب خلف البرقع الذي انسدل عليه. لحظاتٌ من الصمت المربك مرّت، قبل أن تخرج من أردان المعطف الأسود يدٌ رقيقةٌ شاحبةٌ، وتحطّ على كتفه في حنانٍ متناهٍ، وقبل أن يتساقط في أُذنيه كلامٌ لم يتوقّع، حتّى في أجمل أحلامه، أن يسمع أعذب منه:

– يا بنيّ، أنا فخورةٌ بك!

واندفعت الوالدة، مسرعةً، إلى الكنيسة، حيث جثت، وبكت شكرًا وتأثُّرًا. أمّا فرنسيس فكان له من السعادة أجنحةٌ حملته إلى كنيسة القدّيس داميانُس، وهو يكاد لا يشعر ولا يرى سوى الفرح الذي يغمره، بعد أن تيقّن أنّ قلب أُمّه يواكبه ويباركه،

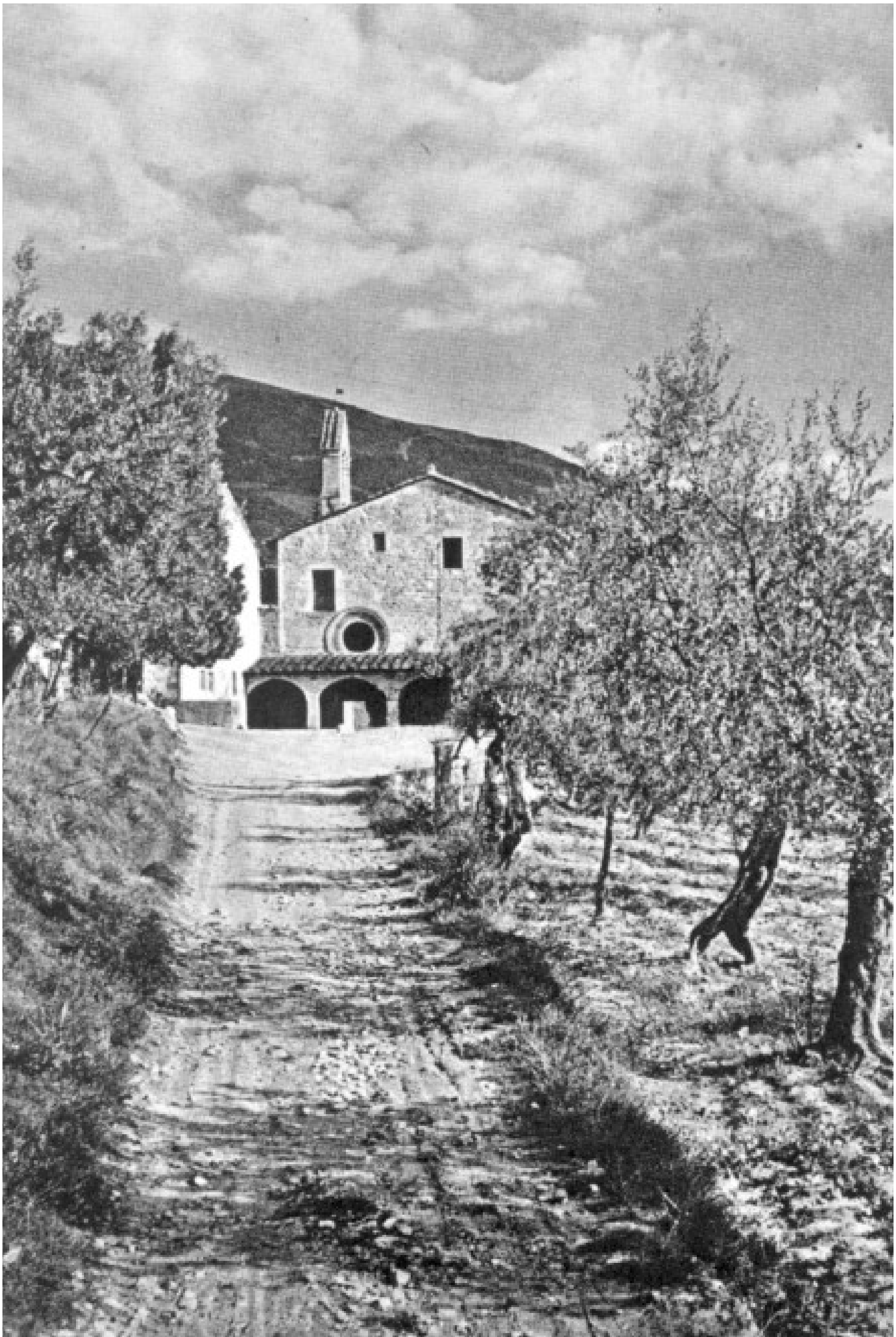

كنيسة سان داميان، أوّل كنيسة رمّمها القدّيس فرنسيس

في فقره وتسوّله، في ترميمه كنيسة الله، وفي صراعه من أجل التمثّل بيسوع. وقد ترسّخت سعادته عندما أعلن له الكاهن، يومذاك:

– طب نفسًا يا فرنسيس، فها إنّ فقرك قد غدا مباركًا.

ومع انهماك فرنسيس في البناء والصلاة، لم يَغْرُب، قطُّ، عن باله، أصدقاؤه البرص، الذين كان يلقى فيهم، حسِّيًا، يسوع الذي استأثر بكلّ حبّه. بل كان يختلف باطّرادٍ إلى مشفاهم، ويُعنى بهم عنايةً تخطَّت، في سخائها وعطفها، جميع الحدود. أيُّ فرحٍ سماويٍّ كان يسكن نفسه وهو يغسل جراحهم، ويجرّدها من اللحم المتعفّن، والقَيْح المنساب، ويقبّلها بوَرَعٍ، بل لا يُحجم عن تقبيل أفواههم التي التهمها الجُذام، وسطعت منها روائح كريهةٌ، وكأنّه يقبِّل المسيح نفسه!

وكان الشتاء، حين يتساقط الثلج كثيفًا، وتشتدّ لسعات البرد، فيتعذّر البناء، فرصةً مؤاتيةً طيّبةً لانصراف فرنسيس إلى العناية، مطوَّلاً، بأصدقائه البرص، وإلى ترميم نفسه بالمزيد من الصلاة والتأمّل، حيث كان يعتكف في الكنيسة الساعات الطوال.

ولمّا فرغ، أخيرًا، من إصلاح كنيسة القدّيس داميانُس، كان ذلك العمل قد أخذ بمجامع قلبه، إذ غدا له ترميم كنائس يسوع والعذراء بمثابة الاحتفال بعيدٍ بهيجٍ، فراح يبحث عن كنائس أُخرى، متداعية الجدران، تحتاج إلى ترميمٍ، فأصلح، على التوالي، كنيسة القدّيس بطرس الصغيرة، في ضواحي أسّيزي، ثمّ الكنيسة المعروفة بالپورتسيونكولا، التي، في جوارها، كان ينتحب لآلام المسيح، والتي غدت له، فيما بعد، مقرًّا، ولأسرته الرهبانيّة مهدًا. ثُمّ إنّه شيّد، بيدَيْه، كنيسةً مكرَّسةً للسيّدة العذراء، وأسهم، بقسطٍ وافرٍ، في إصلاح كنيسة القدّيسة مريم الأُسقفيّة، في أسّيزي، وهو، في غمرة انشغاله بترميم تلك الكنائس، ابتنى لنفسه كوخًا بين أحضان غابة، حيث كان يحلو له التأمّل والصلاة تحت قبّة السماء المُنمَّقة بالنجوم المتلألئة، وحيث اطمأنّت العصافير والأرانب والسناجيب لذلك الناسك الطيّب، رجلِ الله، وأَلِفَتْه، وأمست تأتي إليه، وتطعم من يده، وتُنصت جذلى إلى أناشيده، مشارِكةً إيّاه تمجيد الربّ وتسبيحه.

ولقد أثبت فرنسيس، بأعماله هذه، ما كان يمتاز به من تواضعٍ سحيقٍ، يبلغ مبالغ العظمة الحقّة، ومن عبقريّةٍ تستنبط الفرحَ من الأعمال المُغرقة في البساطة، إذ لم تكن جسامةُ المشاريع هي التي تستأثر باهتمامه، بل الطريقة التي يؤدّي بها أيّ عملٍ مهما

ضؤل شأنه. ولم يكن لينفر من حياةٍ وضيعةٍ، منسوجةٍ، من مهمّاتٍ بسيطةٍ، مملّةٍ. ولا مراء أنّ حياةً كهذه، من جرّاء رتابتها ووضاعة مهامّها، تقتضي حبًّا جمًّا، واستسلامًا مطلقًا لمشيئة الله، المستترة خلف أحداثٍ تبدو باهتةً، لا مجد فيها ولا تألُّق.

وعلى هذا النحو، قضى فرنسيس ثلاث سنوات في البناء والتنسّك، كانت سنوات نُضجٍ روحيٍّ، وتَلَمُّسٍ لطريق الربّ، وتَرَقُّب. وكانت الصلاة هي التي تُمِدُّه بقوّة مواصلة ذلك النهج. وهل من صلاةٍ أكثرُ رفدًا بالطاقة والمنعة من القدّاس وسرّ الإفخارستيّا؟! من ذلك المَعين الثرّ كان فرنسيس ينهل كلّما وجد إليه سانحةً، إذ لم يكن الكهنة، في ذلك العهد، يُقيمون الذبيحة إلاّ أيّام الآحاد والأعياد، أو تلبيةً لطلبٍ خاصٍّ. وكان خوري كنيسة «اليورتسيونكولا» غالبًا ما يقيم، بُعَيْد الفجر، إكرامًا لفرنسيس الذي رمّم تلك الكنيسة، قدّاسًا يكوّن فرنسيس جمهوره الوحيد. وفي أثناء أحد تلك القداديس الصباحيّة، في أحد أيّام شباط من عام ١٢٠٩، تلا الكاهن مقطعًا من الإنجيل حيث يورد القدّيس متّى توصيات يسوع للاثني عشر، عندما أرسلهم لينشروا البشرى في العالم أجمع: «بشّروا قائلين: إنّ ملكوت السماوت قريبٌ. اشفوا المرضى، أقيموا الموتى، طهّروا البرص، أخرجوا الشياطين؛ مجّانًا أخذتم، مجّانًا أعطوا. لا تقتنوا ذهبًا ولا فضّةً، ولا نحاسًا في هماينكم، ولا مزودًا للطريق، ولا ثوبين، ولا حذاءً، ولا عصًا...».

لقد أضاءت تلك الكلمات شُموسًا في ذهنه، وجاءته بالجواب على ترقّبه وتساؤلاته. ولكنّه، حرصًا منه على عدم إساءة الفهم، استفسر الكاهن عن حقيقة معناها، باهتمامٍ شديدٍ؛ ومع تفسير الكاهن كان سيلٌ من الحبور يغمر نفسه، فهتف وهو يكاد يرقص جَذَلاً: «ها هي ذي أمنيَّتي، وضالَّتي المنشودة، وها هوذا ما أتحرّق شوقًا إلى تحقيقه».

في أعقاب «خروجه من العالم»، وطلاقه لكلّ قِيَمه ومفاهيمه الأرضيّة الزائفة، بات للإنجيل في نفسه صدًى قشيبٌ، ووقعٌ جديدٌ، وبات وكأنّه يسمعه ويعيه للمرّة الأولى. لقد غدا الإنجيل يخاطبه شخصيًّا خطابًا مباشرًا، فيهزّ أعماقه، ويحوّله تحوّلاً جوهريًّا، وينتدبه لمهامّ جليلةٍ. نداءان مُلِحّان، مُتَفجّران من أعماق الإنجيل شدّا كلّ طاقاته، وكان لا مفرّ من تلبيتهما: ممارسة الفقر كما يعنيه الإنجيل، ونشر بشرى الخلاص، والسلام، وإعلان اقتراب ملكوت الله من بني البشر.

أخيرًا، عثر على ما كان الربّ يبتغي منه، واكتشف، فجأةً، في دهشةٍ، ما نشده سنين طويلةً. واستحوذت عليه تَبِعةُ المهمّة السامية الخطيرة التي أوكلها إليه يسوع: أن

ينصرف إلى نقل البشرى وبثّها، ماضيًا، في سبيلها، خفيفًا، حرًّا، بلا أمتعةٍ ولا زادٍ، ولا ما يخاف عليه أو يعرقل مسيرته، فيغدو رسولاً إنجيليًّا متنقّلاً.

لم يكن إصلاح أبنية الكنائس المتداعية، سوى امتحانٍ وتأهُّبٍ للمهمّة الجوهريّة الكبرى، مهمّة إصلاح كنيسة يسوع الجامعة، بالعودة بها إلى أصالة الإنجيل، إنجيل الفرح والفقر، وترميم النفوس المتداعية، بالانطلاق نحو البشر، على غرار تلاميذ يسوع، بلا ذهبٍ ولا فضّةٍ، ومن غير أيّ رمزٍ من رموز السُّلطان، ومن غير أيّ اتّكاءٍ على قوى العالم، وبلا دليلٍ سوى نفحة الحبّ والإنسانيّة التي استدعت ابن اللّٰه نفسه للمجيء إلينا، وجعلته يصبح واحدًا منّا، ويسير متواضعًا وفقيرًا، على دروب العالم، ناشرًا بشرى الخلاص، والمحبّة والفرح.

وفي الحال قذف فرنسيس، بعيدًا، بحذائه وعصاه، والمعطف الذي كان يقيه غائلة البرد. وفي ثوبٍ أغبر، صفيقٍ، ذي طاقيّة تغطّي الرأس حتّى الجبين، يشدّ وسطه حبلٌ غليظٌ حلَّ محلّ الحزام الجلديّ، انطلق حافي القدمين على دروب العالم، حاملاً إلى الناس سلام الربّ، وفرحه، وبشرى خلاصه.

رُبّما كان فرنسيس قد سمع مرارًا ذلك المقطع من الإنجيل عينه، ولكنّ ميزة «الكتاب» على حدّ قول جوليان غرين، أنّنا قد نسمعه طوال سنواتٍ، ثمّ، في لحظةٍ، ينبثق من صفحاته صوتٌ خافتٌ، ولكنّه مدوٍّ، لن نعود نقوى على إسكاته أبدًا.

كلماتٌ من نورٍ أضاءت، دفعةً واحدةً، طريق حياته، فوطّد العزم على عيش الإنجيل بحذافيره، وبكلّ ما يوحيه من تجرُّدٍ، وثقةٍ، وسلامٍ. لقد اكتشف، أخيرًا، وللأبد، المَعين الذي لا ينضب، حيث يلقى الانتعاش ويتبصّر الطريق، بفضل التصاقه بحرفيّة الإنجيل. إنّه على قسطٍ من العلم ضئيلٍ، ولذلك حَسْبُهُ «الكتاب» الأوحد، ولا حاجة به إلى من يفسدون معناه بتأويلاتهم، ويصرّون على إضافة تعليقاتهم النافلة على نصٍّ هو قمَّةٌ في البساطة والوضوح والشفافيّة، نصٍّ يخاطب برقّةٍ وصراحةٍ، مخاطبةً حميمة نفّاذةً، كلاًّ منّا، أيًّا كان جنسه، ولونه، ووطنه، ووضعه، في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

الجزء الثالث

مجنون اللّه

شاهد الكلمة

في مطلع عام ١٢٠٨، كان فرنسيس في حوالي السادسة والعشرين من عمره، وقد بات إنسانًا آخر، جديدًا. كثيرون يهتدون إلى سُبُل الربّ، بعزوفهم عن نزعاتهم الشرّيرة، التي لا يَكُفُّون يصارعونها، لأنَّها لا تزال تسكنهم؛ أمّا فرنسيس فقد سكن الربُّ، شيئًا فشيئًا، كلَّ كيانه، حيث لم يبقَ أيُّ حيِّزٍ لهوًى غير هواه. لقد امتلكه اللّه بكلِّيَّته، وبات هو مجنون حبّه، بلا منازعٍ.

ومن الأوصاف التي خلّفها كاتبو سيرته الأوائل، يمكننا أن نرسم له صورةً تبرز أهمّ ملامحه آنذاك: فهو ربع القامة، أقرب إلى القِصَر، رأسه مستديرٌ، متوسّط الحجم، يكسوه شعرٌ فاحمٌ يعلو جبينًا ضيِّقًا، مُبسَّطًا، تتألّق تحته عينان سوداوان، صافيتان، ينبعث منهما نورٌ شفّافٌ كنور النجوم الذي يعبر المسافات الشاسعة، ويخترق الأزمان، ويظلّ رائعًا، صافيًا، وتشعّان بأنظارٍ متّقدةٍ تُغذّيها النار التي تُلهِب نفسه ليلَ نهار؛ ويُظلّل تَيْنِك العينَيْن حاجبان مستقيمان، ويمتدّ تحتهما أنفٌ دقيقٌ، مستقيمٌ، يحيط به صدغان مبسّطان، وينتهي بشفتَيْن دقيقتين تنفرجان عن أسنانٍ متراصّةٍ، حسنة التنسيق، ناصعة البياض؛ وقد كست محيّاه لحيةٌ سوداء قليلة الكثافة، انتصبت على جانبيها أذنان دقيقتان، في حالة إنصاتٍ دائمٍ. صوتُه صافٍ، جهوريٌّ، حلو الجرْس، يبعث في نفس سامعيه الطمأنينة، ولكنَّه، في آنٍ معًا، يحرق وينفذ بعيدًا. نحيل العنق، مستقيم

الكتفين، قصير الذراعين، اللَّتين تنتهيان بيدين صغيرتَيْن، تنظلق منهما أصابع نحيفةٌ. جسمه هزيلٌ ينطوي على الحدّ الأدنى من اللَّحم والشحم، أملس الجلد، ينتصب على ساقين هزيلتين، قائمتَيْن على قدمين صغيرتين.

على غرار سواد الإيطاليّين، فرنسيس كثير الاستعانة بيديه للتعبير عمّا يختلج في صدره؛ ولكن خلف الحركات المفرطة، والاندفاع الذي يجعله حادًّا أحيانًا، يختبئ هدوءٌ سحيقٌ يحاكي هدوء البحار العميقة، تُغذّيه صلاةٌ متَّصلةٌ، وحضور اللّه المهيمن. ذلك الحضور، الذي غاص فرنسيس في لججه، قد وضعه في مأمنٍ من تغيّرات العالم، وصراع الأهواء الذاتيّة، بل كاد يمحو فيه السِّمات الوطنيّة، وتأثير الطباع الفطريّة، وأتاح له أن ينعم بتوازن المطلق الذي بات مرجعه الأوحد.

أمّا مهمّته، بعد أن اتّضحت معالمها، فقد اقتصرت على الدعوة إلى إقرار ملكوت اللّه، بالتوبة والسلام، والالتزام بوصايا الإنجيل بحرفيّتها، وأصالتها، وصفائها، من غير تشويهٍ، ولا تحويرٍ، ولا تأويلٍ. مثل تلك الدعوة كانت شائعةً آنذاك، كما كانت رائجةً صيحاتُ الاعتراض على موقف رجال الكنيسة، الذين ما انفكّوا، رغم التطوّرات الاجتماعيّة الجوهريّة، يسلكون بوَحْيٍ من العقليّة الإقطاعيَّة، مشغولين بتدعيم سلطانهم، والذَّوْد عن ممتلكاتهم الشاسعة، ومصالحهم المادِّيَّة الجسيمة، وبتنظيم جباية الضرائب، وملاحقة الدعاوى القضائيَّة، وإقامة الحفلات المُغْرِقة في البذخ، وقيادة المعارك، أكثر من مبالاتهم بشؤون الدين. كانوا قد أسبغوا صفة التكريس على النظام الزمنيّ الذي قيّدوا أنفسهم بأغلاله، واستخدموا الدِّين والسُّلطان الكنسيّ لحمايته، فلم يستطيعوا سماع نداءات حقول الربّ المفتقرة إلى عَمَلَةٍ مخلصين يحرثونها، ويبذرون فيها كلام الإنجيل المُخلّص. فكان لا بدَّ للمؤسَّسة الكنسيّة، كي تصغي إلى تلك النداءات وتلبّيها، من كسر الطوق الذي ضربته حول نفسها، والتخلّي عن الضمانات الاقتصاديّة التي أمَّنت ذاتها بها؛ ولكنّ مأساتها تَتَمَثَّل في أنَّها لم تستطع أو لم تشأ أن تتحرّر من ربقة تلك القيود التي غلَّت بها نفسها، بحيث غدا رجال الدين الصادقون البسطاء، وسواد المؤمنين، يجدون أنفسهم في غربةٍ بين أحضان كنيسةٍ أغفلت الربّ، وانحرفت عن جادّة الإنجيل.

وقد هبَّت رياح الرفض لموقف الكنيسة ذاك، في شتّى بقاع إيطاليا وفرنسا، وتعالت أصواتُ المطالبة بأجواءٍ أكثر نقاءً؛ ونهضت حركاتٌ إنجيليّةٌ متعدّدةٌ، ولكنّها سرعان ما

تاهت على دروب البدَع. وأمّا فرنسيس، فقد اختلف عنها جميعًا بأنّه ظلّ أبدًا ابن الكنيسة المخلص، المؤمن بخلودها وثباتها، الذي لم يخطر له، يومًا، مهاجمتها، بل حرص على أن تحظى جميع خطواته بتأييدها الرسميّ، وكان مدافعًا صُلْبًا عنها وعن رجالها، يحدوه إلى ذلك إحساسٌ مُرهَفٌ بالمقدّسات، في عهدٍ كادت تفقد فيه المقدَّسات حرمتَها. فقد أَجَلَّ بعمق، وأهاب بإخوته أن يُجِلُّوا الكنائس حيث يسكن الربّ، والصلبان حيثما وجدوها، والحِلَل الطقسيّة وأدوات الذبيحة المقدّسة، وكلّ كتابٍ يحتوي كلام الله، كما أهاب بهم أن يحموها ويرمّموها ويُصلحوها من كلِّ عطبٍ قد يلحق بها، بفعل الزمن، أو بإهمال البشر الأثيم.

فالكنيسة في نظره، هي بيت الله، مهما كان متداعيًا، ورجالُها، أيًّا كانوا، بدءًا من البابا حتّى أكثر كاهنٍ وضاعةً، في أصغر قريةٍ، يحظون بأعمق احترامه. ويُروى أنّ واحدًا من أعداء الكنيسة قد أشار، يومًا، إلى كاهن كان يعيش بلا خجلٍ، ولا مداراةٍ، مع عشيقته، وسأل فرنسيس، في مكرٍ، هل القدّاس الذي يقيمه مثل ذاك الكاهن ذي اليدين الملطَّختَيْن، صحيحٌ، وكان جواب فرنسيس أن هرع نحو ذلك الكاهن، وجثا أمامه، وقبَّل، في وَرَعٍ، يدَيْه اللَّتيْن تُمسكان، في الذبيحة الإلٰهيَّة، جسد المسيح.

مثل هذا الموقف من الكنيسة ورجالها هو الذي وقى فرنسيس من الانزلاق في وهاد البِدَع. لا بل يمكن القول إنّه، في هذا المضمار، رجل المفارقة العجيبة، الذي استطاع تحقيق توافق شبه مستحيلٍ بين مطلقَيْن: الكنيسة التي أخلص لها بلا تحفُّظٍ، والإنجيل الذي لم يَحِدْ عن حرفه أُنملةً، وعرف كيف يرفض بحزمٍ كلَّ نأيٍ عن روحه، ممّا أَلِفَه بعض رجال الكنيسة، سواءٌ في سلوكهم، أو في تعليمهم، أو في مسايرتهم من يَوَدُّون أن يُسمّوا مسيحيّين، ويعيشوا على نقيض أقوال المسيح.

ولئن هو تصدّى لإصلاح الكنيسة، فبقدوة سلوكه، وقداسة سيرته، وتقيُّده المطلَق بصفاء الإنجيل وأصالته. فهو قد جاء إلى الإنجيل عبر هدايةٍ وئيدةٍ جاهدةٍ؛ ومن ثمّ، رغم عنف اندفاعه، احتفظ باتّزانه المطلق للمؤسّسة الكنسيَّة؛ وهكذا توفّق في تجسيد تطلُّعات قاعدةٍ عريضةٍ من المسيحيّين الحقيقيّين، الذين يُمثّلون الكنيسة الحقَّة، والذين كانوا يطالبون بممارسة الإنجيل، بلا تشويهٍ، رغم تخاذل الإكليروس وتهافته، وبممارسة الفقر الإنجيليّ، رغم انغماس الأساقفة في حمأة الثروات وارتباطهم بالإقطاعيّة، وكانوا ينادون بكنيسة مسيحيّةٍ جديرةٍ بهذا الاسم، وفقًا لكلام الربّ، وبتحقيق ملكوت الله

على الأرض، رغم البؤس والجهل والحيرة. وكانت ميزة فرنسيس الفذّة أنّه حقّق كلّ ذلك، ويَدُه في يد الكنيسة، لا ضدَّها، وهو، بذلك، ومن غير أن يدري، قد خطا خطوةً ذات أبعادٍ جسيمةٍ، إذ وفَّر لقاء الإنجيل مع كلّ عالَمٍ حديثٍ مُتَجدِّدٍ.

ولئن بدا لنا أنّ الإنجيل مُطْلَقٌ بعيد المنال، ومَثَلٌ أسمى يتعذَّر تحقيقه، إلاّ أنّ فرنسيس، وإخوته الفقراء، قد أثبتوا، بالمَثَل الحيّ، نقيض ذلك.

بعد أن أنار قلبَ فرنسيس وذهنَه نداءُ الإنجيل، وسط مجتمعٍ كنسيٍّ جمَّدته العقليَّة الإقطاعيَّة، وكبَّلته، كانت انطلاقته التبشيريّة دعوةً إلى الحركة، والمضيّ، في إثْر الرُّسُل، إلى العالم أجمع، لإسماع كلمات يسوع الصافية، الخالدة، باعثة الحياة. وعلى نقيض المؤسّسة الكنسيّة المُرْهَقة بممتلكاتها، وعقاراتها الشاسعة، التي جعلت خطاها وكأنّها مُثْقلةٌ بالرصاص، التزم بالفقر المُطلَق، وتخلّى عن كلّ امتلاكٍ، وعن كلّ صلةٍ بالأرض، بل عن كلِّ مسكنٍ ثابتٍ، فاكتشف خِفّة السير، ورشاقة الارتحال، وتوثُّب الشباب، ونفاد صبر الرسول، وفرحه بأداء الرسالة، واكتشف أَنَّ الإنجيل هو ارتماءُ الإنسان بين ذراعي الربّ، وسعيُ الربّ نحو البشر.

وعلى نحو ما تنكَّب فرنسيس عن نظام الإقطاع البالي، تنكَّب أيضًا، بوحيٍ من الإنجيل، عن معبود النظام الجديد: صنم الذهب والفضّة. ومن كان أكثر منه علمًا بما للذَّهب والفضَّة من شأنٍ في النظام الجديد، حيث حلاَّ محلَّ الأرض في النظام الإقطاعيّ، وباتا رمزًا للنُّفوذ والسلطان، وقضيا، بدورهما، على مُثُل الإخاء بين البشر؟ لقد كان الفقر الإنجيليّ الذي التزم به هو السبيل الوحيد إلى التبشير بالسلام، السلام الإنجيليّ الذي يحقّق المصالحة بين البشر والله، ومصالحة البشر فيما بينهم، بإصلاح علاقاتهم المتبادَلة، تلك المصالحة التي لا يقوى على النُّهوض بها إلاّ من تحرَّر من كلّ مطمعٍ وإرادة سيطرةٍ. وهكذا، أيضًا، وجد السبيل إلى مشاركةٍ أخويّةٍ مع البشر أجمعين، ولا سيّما مع المحرومين.

ذَلكم هو الإنجيل على نحو ما أدركه فرنسيس، وهبَّ للعمل والتعليم بموجبه؛ ولا عَجَب، بالتالي، إن اقتصر تبشيره على حفنةٍ من المواضيع المحدّدة: العمل على إقرار ملكوت الله على الأرض، بالتوبة، والمحبّة، والسلام، فالله، مع إدانته للخطيئة، يُحِبّ الخطأة، ويسعى إلى مصالحتهم، ويُقْدِم أبدًا نحوَهم كي يُعبّر لهم عن حبّه الذي لا

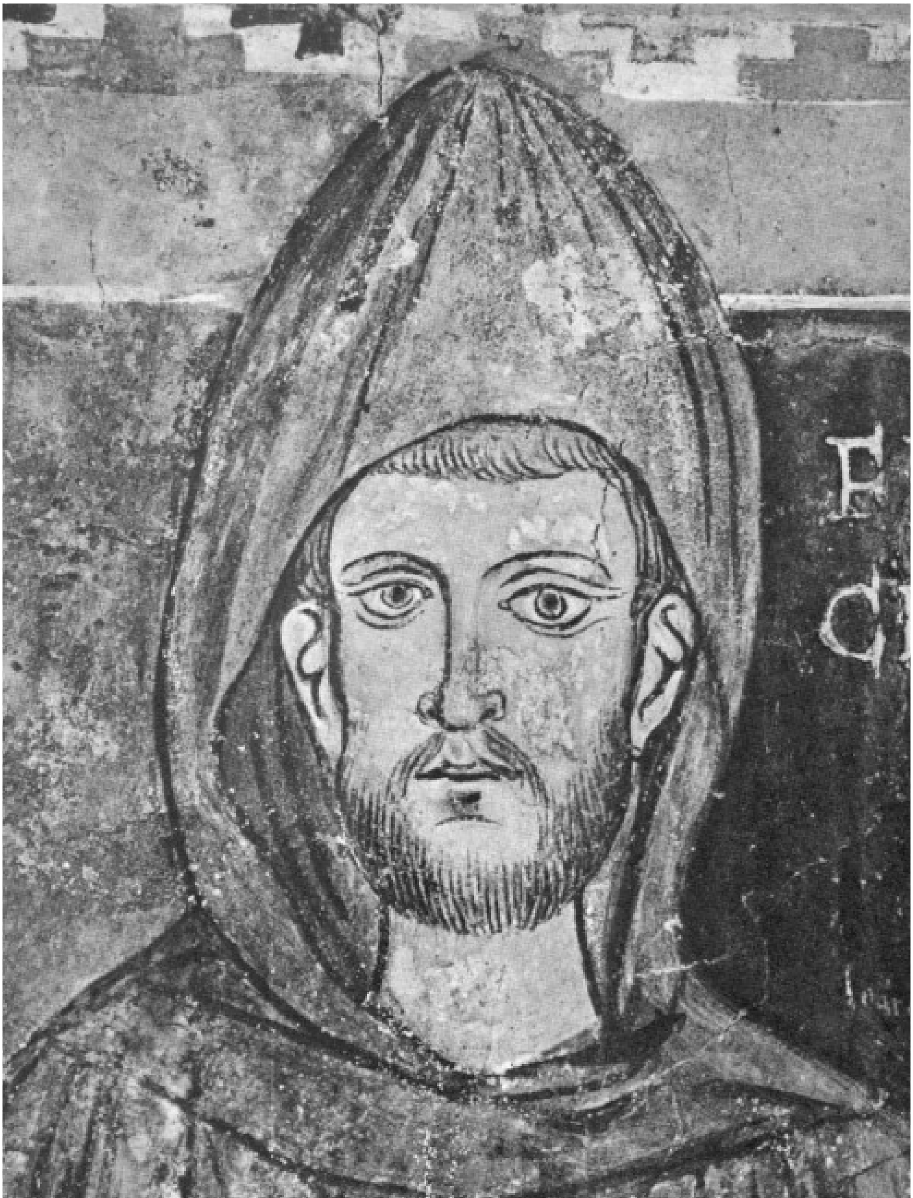

أقدم رسم للقدّيس فرنسيس الأسّيزيّ

غَوْر لعمقه. والمصالحة مع اللّه تستدعي المصالحة بين البشر، بدفن مشاعر العداء، وعقد ألوية السلام، كما تستدعي التخلّي عن كلّ شيءٍ من أجل التصالح مع اللّه والقريب والذات.

مواضيعُ بسيطة كان فرنسيس يعبِّر عنها بكلماتٍ أشدّ بساطةً؛ مواضيع لا تتجدَّد، ولكن يُخيّل لسامعيها أنَّها، أبدًا، قشيبةٌ، وأنَّهم يسمعونها للمرّة الأولى، فهي كمياه الينبوع، لا تتغيَّر، ولكنّها متجدّدةٌ، ونديّةٌ، ومنعشةٌ أبدًا، لأنَّها تنبجس من قلبٍ ينبض بكلّ حرفٍ منها، ويؤمن، في شغف، بكلّ دقائقها، يحياها بحذافيرها، في وَلَهٍ وهوًى، بحيث يتاح لجمهوره أن ينصت إلى الموسيقى السحريّة المنبعثة من أعماقه. ومن ثَمّ، فقد كانت الألفاظ، على شفتَيْه، تستعيد بكارتها الأصيلة، وتعبّر عن ملء معانيها، وكان الاستماع إليها متعةً لا تُدانيها متعةٌ.

وكما يجتاز المُغنُّون الشوارع بأغانيهم، كان فرنسيس يجتاز المدن والقرى، ناشرًا بشرى الخلاص، في الساحات والحارات، تحت قناطر الكنائس، وفي الأسواق المزدحمة، في الحقول والمزارع والغابات، بين التُجّار والفلاّحين والحطّابين والرُّعاة، مثل نحلةٍ دائبة التجوال.

وفيما كان منظر ذلك الناسك الحافي القدمين، ذي الزيّ الخشن، يلفت الأنظار، كان صوته الجليّ، الجهوريّ، الرنّان، البعيد الصدى، يجتذب القلوب، ويتسلّل إلى أعماقها، مؤثِّرًا، نفّاذًا، مُزعجًا، مطمئنًا، باعثًا السلام ومُشعِلاً الحرائق في آنٍ واحدٍ. فكلامه، في بساطته ورقّته، كالخبز الساخن الطيِّب، وفي شدّته وعنفه، كزلزالٍ يَدُكّ النفوس دكًّا.

كان يدعو الجميع، متلَهِّفًا إلى مشاركته هوى اللّه الحارق الذي يُلهب كيانه. لقد كان صوته يرتعش تأثُّرًا عندما يتكلّم عمَّن لا يحيط به وصفٌ، عن اللّه الأب الحنون، وابنه محرّر البشر، والروح القدس الذي يريد أن يجعل قلوبنا تخفق على وقع قلب اللّه. وعندما يتكلّم لسانٌ من فيض القلب تُشْرَع لسماعه القلوب. وقد كان سواد المستمعين يتعلّقون بشفتَيْه، ويتلقَّفون منهما كلام اللّه الذي طالما سمعوه فلم يُحرّك فيهم وَتَرًا، وإذ به ينطلق من فمِ فرنسيس فيزلزل كيانهم، وكأنّهم يدركونه للمرّة الأولى، بل كأنّهم يسمعونه مباشرةً من شفتي الناصريّ، وهو ينطق به في أرجاء الجليل. ولعلّهم كانوا يتساءلون عن سرّ ذلك المُبَشّر المتشرّد، شبه الأُمّيّ، الذي يخاطبهم بكلامٍ بسيطٍ،

مباشَرٍ، يتسلّل إلى أعماقهم، فيشعر كلٌّ منهم أنَّه موجَّهٌ إليه شخصيًّا، في حين طالما أخفقَ الخطباء المُفوَّهون وعلماء اللاهوت في تحريك أيّ شعورٍ فيهم، على نحو ما نجد أنفسنا، اليوم، نقارن، لاشعوريًّا، بين كلام واعظٍ يحيا ما يقول، في صدقٍ وتأثُّرٍ، فيجعل كلام الإنجيل واقعًا ماثلاً فاعلاً في حياتنا وحاضرنا، في حين يظلّ وعظ أحبارٍ، وأساقفةٍ، ولاهوتيّين، وكأنَّه درس يُلقى من كتابٍ مدرسيٍّ، في عباراتٍ جامدةٍ، مُحنَّطةٍ، أو كأنّه ماءٌ يسفح على صخر، لا يُخلّف أَثَرًا لا لدى قائليه الذين لا يحرّك فيهم سوى ألسنتهم، ولا لدى المستمعين إليه في شرودٍ. فالذي ينطق بلسانه فَحَسْبُ لا يُحدِثُ سوى الضَّجر، أمّا الذي يحبّ بصدقٍ، ويتكلَّم عن حبّه، فله منه وحيٌ يسحر ويُؤَثِّر، ويشيع عدوى الحبّ بين مستمعيه. فعلى نحو ما كان فرنسيس بسيطًا في سلوكه، يدرك بعمقٍ ما يقول، ولا يقول إلاّ ما يُدرك، متحاشيًا عن الإسهاب النافل، والفخامة، والغموض، متكلِّمًا على غرار يسوع في الإنجيل، مستهدفًا النفاذ إلى مدارك الناس، وإنتاجَ ثمار الخير فيهم؛ وكانت عظاته طليّةً، ساميةً، شعريَّةً، مبتكرةً، نابعةً من قلبه، مسدّدةً إلى قلوب الآخرين، تنتزع الناس من حزنهم وخطاياهم، وتكشف لهم السعادة التي يمكن تذوُّقها في الله.

أحد شهود عيانٍ على وعظ فرنسيس، وصفه قائلاً: «كان يرتدي ثوبًا رثًّا، ولم يكن وسيم المحيّا؛ ولكنّ الربَّ أضفى على كلماته من القدرة ما أحلّ السلام في العديد من الأُسَر التي كانت تمزّقها الخلافات الدامية».

يقول أنطوان دي سانت إكسوپيري: «يُبغض الناس بعضُهم بعضًا لأنَّهم يعانون البرد». وكان فرنسيس، وهو الرقّة المتجسّدة، يعرف سرّ بعث الدفء في مستمعيه، ومن ثمَّ، حملهم على المصالحة، فالقلب الذي يسود فيه السلام يصالح من يلامسه.

لقد كان يُدخل الإنجيل إلى حياة الناس اليوميّة، إدخال الخميرة في العجين، فتَقْلِبها، وتُصلحها، وتُحطِّم جدران الحقد والازدراء واللامبالاة التي تشطر الناس فئاتٍ، مُشيعًا في ما بينهم إخاءً حقيقيًّا. وكان يُعلّم فقر الإنجيل وتجرُّده، بحياته المُغْرقة في الفقر والتجرّد؛ ويدعو إلى التوبة، لا بلسانه فحسب، بل باختلاطه بالخطأة والمرذولين، مؤكّدًا لهم أنّ الربّ يسعى إليهم بنفسه ليُعبّر لهم عن حبّه اللامتناهي، ويبرهن لهم عن إنسانيّته التي لا غَوْر لعمق عطفها.

وخليقٌ بالتَّنْويه أنَّ إيطاليا التي كانت حقلاً لتبشير فرنسيس الإنجيليّ، كانت، في

الآن عينه، كما أسلفنا، ساحةً تتصارع عليها شتّى البِدَع والمذاهب؛ فلم يقاومها فرنسيس بالعنف والشتيمة والجدل العقيم، والحرم الكنسيّ، على حدّ ما فعل رجال الإكليروس، بل بإشاعَتِه روحًا جديدًا، جعل كلّ البِدَع تتلاشى وتتوارى تلقائيًّا، كما تتوارى الوطاويط لدى شروق أشعّة الشمس الساطعة.

ولا بِدْعَ في ذلك، فالمحبَّةُ ومِثَال الحياة خَيْرُ عظةٍ، وثورة القدوة أبلغ أثرًا وأبقى بما لا يقاس من الثورات العنيفة التي لا تغيّر شيئًا.

وفيما كان فرنسيس منصرفًا إلى التبشير، في كلِّ حينٍ وكلِّ مكانٍ، لم يكن يأبه لما يأكل أو يلبس، وعلى غرار ابن البشر لم يكن لديه مكانٌ يسند إليه رأسه. وكان بعض المعجبين بزهده وتبشيره يحاولون نفحه بعض مالٍ، فيحرص على رفضه بحزمٍ، أو يتكرَّمون عليه ببعض طعامٍ، فلا يقبل منه إلا ما يسدّ به رمق يومه، ويَطعَمُه أثناء سيره، أو عند حافّة ساقيةٍ؛ وكان ينام أينما غافله الليل، في العراء، أو في كهفٍ، أو مغارةٍ، أو إسطبلٍ.

الإخوة الأوائل

القداسة تستثير إعجاب الكثيرين، بيد أنّ عدواها لا تُصيب سوى القلّة؛ وقداسة فرنسيس، سُرعان ما عمَّتْ، واعترفت بها جماهير أسّيزي وجوارها. أمَّا الرغبة في احتذائها، فكانت، بادئَ الأمر، نادرةً، بطيئةً، مبعثرةً.

الرفيق الأوَّل الذي قاسم فرنسيس نمط عيشه، ما زال مجهولاً. أمَّا الرفيق الأوّل المعروف، فاسمه برناردو دي كوانتاڤالي، وهو أحد وُجهاء أسّيزي وأثريائها، فضلاً عن كونه حامل شهادة دكتورا في الحقوق من جامعة بولونيا الإيطاليَّة؛ وكان قد اشتهر بسداد رأيه، وحرصه على تمحيص الأمور، واستقراء أسبابها وعواقبها، بحيث غدا مرجعًا للكثيرين في النهج الذي يتوجّب عليهم سلوكه.

سنواتٍ طويلةً ظلَّ يُساوره توقٌ إلى القداسة، مُضمِرًا فيه تلك النار المقدّسة، وذلك التطلّع المتلهّف إلى ما وراء هذا العالم، الذي هو من صميم المسيحيّة، وتلك الحاجة الملحّة إلى التخلّي عن طائفةٍ من الأشياء التي تعرقل حركة الروح، وتُقيّد انطلاقه، وتحول دون تَفَرُّغه للاهتمام بالجوهر الضروريّ الأوحد.

وكان قد أثاره ارتداد فرنسيس، وانقلابه من حياة اللّهو والبذخ إلى الفقر المُطْلَق،

والزُّهد والتنسُّك. إلاَّ أنَّه كان، بالفطرة، شديد الحذر والحيطة، بطيء القرار، فأخذ يُراقب ابن بيرناردوني عن بُعْد، ويستقري أخباره وخطواته، وكثيرًا ما تبرَّع له سرًّا، بالحجارة والجصّ، أثناءَ انشغاله بترميم الكنائس، من غير أن يعلن عن نفسه. وبتؤدةٍ كانت تنضج لديه رغبة التمثُّل به، والعيش عيشته، روحيًّا ومادّيًّا، بالتخلّي عن كلّ شيءٍ.

وبعد أن باشر فرنسيس رسالة التبشير، أخذ برناردو يدعوه، بين الفينة والفينة، إلى منزله، فيتناول معه العشاء، ويتجاذب معه أطراف الحديث، ويراقبه عن كَثَبٍ؛ ومنذ الدعوة الأُولى، أَوْجس فرنسيس أنّ مُضيفه يجتاز محنةً نفسيَّةً، وأنّه يفتقر إلى عونٍ، فهرع إليه. لقد كان التباين صارخًا بين المضيف وضيفه، فأحدهما يرفل بالقطيفة والديباج، وكلّ ما فيه ينمّ عن الأناقة والإرهاف، فيما الآخر زريّ الهندام، أشبه برعاة المواشي، وبالمتسوّلين، وقد خلَّفت أعمال البناء الطويلة الشاقّة آثارًا باديةً على يديه ووجهه، بحيث بدا وجوده وسط الرياش الفاخرة، والأثاث النفيس، يجأر بالتناقض؛ غير أنَّ قاسمًا مشتركًا خفيًّا كان يجمع بينهما.

وذات ليلةٍ استجلى برناردو الدوافع التي حدت بفرنسيس إلى التحوّل الجذريّ الذي قلب مصيره رأسًا على عقب، فاسترسل فرنسيس في استعراض أيَّامه السالفة، ووصف عمل النعمة الوئيد والحثيث في نفسه، مازجًا عباراته الصادقة بعَبَرات الندم والفرح والشكر، ومستنبطًا الدموع من مآقي مضيفه؛ وتمادى البَوْح حتّى ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليل. وقد أذهل برناردو كلامُ فرنسيس عن الفقر في اندفاعٍ أشدّ من اندفاع سواد الناس في التكلّم عن المال والجاه والسلطة والنفوذ؛ وكان قد بيَّت نيّة إجراء اختبارٍ حاسمٍ لصدق قداسة فرنسيس، فدعاه إلى النوم في سريرٍ كان قد أعدَّه له في غرفة نومه، حيث بقي مصباحٌ خافتٌ مضاءً طيلة الليل. وسرعان ما اطَّرح فرنسيس على السَّرير متظاهرًا بالإغراق في سُباتٍ عميقٍ، ريثما يتأكَّد من نوم مضيفه، كي يستطيع الانصراف إلى صلواته وتهجُّده، إذ كان حريصًا على إخفاء كلّ مظاهر تقواه وخشوعه عن عيون الآخرين. وكذلك فعل مضيفه الذي ما لبث أن انطلق يتظاهر بالشخير شخيرًا مرتفعًا كي يوهم ضيفه أنَّه توغَّل في عالم النوم. وحينئذ هبط فرنسيس من السرير، وجثا عند حافّته، وبسط ذراعيه على شكل صليب، واستغرق في تأمّلٍ سحيقٍ، وصلاةٍ لا تلوي من الوجود على شيءٍ؛ وبين الفينة والأُخرى كان يطلق صيحةً لا تتغيّر: «ربّي، وكلّ

ما أملك!» دعاءٌ كان يبدو، تارةً، صرخةَ فرحٍ وشكرٍ، وتارةً، صرخة انكسارٍ وضراعةٍ، وتارةً أُخرى، همسة حبٍّ وثقةٍ.

أحيانًا كان فرنسيس يضمّ ذراعَيْه المبسوطتَيْن، ويُغطّي وجهه براحتَيْه، وينطوي على ذاته، كتلةً من وَرَعٍ وانسحاقٍ واندماجٍ في لجَّة الربّ، ثمّ يعود فيبسطهما من جديد، مردِّدًا باطّراد، في مثل نشوةٍ قدسيَّةٍ، دعاءه الوحيد، ولازمتَه الملحاح: «ربّي، وكلّ ما أملك!» دعاءٌ كان يلقى جوابه في ذاته حيث امتزجت صيحة حبّ الإنسان للربّ، بصيحة حبّ الله للإنسان امتزاجًا سرّيًّا.

وفي تلك الأثناء، كان برناردو لا يني يختلس النظر إلى ضيفه، في دهشةٍ وتأثّرٍ بالغَيْن، حتّى إنّه أغفل التظاهر بالشخير، وفجأةً وجد نفسه يردّد، لا شعوريًّا، مع ضيفه: «ربّي، وكلّ ما أملك!».

قُبَيْلَ بزوغ الشمس، عاد فرنسيس فاندسّ في سريره مُتصنّعًا النَّوم، وسُرعان ما قرعت أجراس الكنائس، وكان برناردو أوّل من نهض، ثمّ ما لبث أن ابتدر ضيفه، وكأنّه يستأنف حديث الليل، وطرح عليه سؤالاً، كان، مثل جمرةٍ، يحرق شفتيه:

– إن كان لدى عبدٍ ممتلكاتٌ تكرّم بها عليه سيّده منذ سنواتٍ طويلةٍ، وقد وطَّد العزم على التخلّي عنها، فأيّ مسلكٍ يتوجّب عليه سلوكه؟

– عليه أن يردّها إلى صاحبها.

وصمت برناردو لحظةً، وقد استقرّ رأيه، وعزم، هو الثريّ الوجيه، العالم، على التخلّي، دفعةً واحدة، عن كلّ شيءٍ، كي يضع مصيره بين يدي فقيرٍ جاهلٍ، لا يعرف سوى الله، ثمَّ أردف:

– فرنسيس إنّي راغبٌ في الحياة مثل حياتك، والنهج مثل نهجك، فما الذي يتوجَّب عليَّ فعله؟

ووثب عليه فرنسيس فقبّله، في غمرةٍ من الفرح، هاتفًا: «تبارك الله وتقدّس اسمه. بيد أنَّ سؤالك كبيرٌ على إنسانٍ في مثل وضاعتي وجهلي. ولكن هيّا بنا إلى الكنيسة، حيث يتكفّل الربّ تزويدنا بأنواره».

وفي الحال استدعى برناردو صديقًا له، يُدعى پييترو دي كاتانيا، كان، في السابق، هو الوسيط بينه وبين فرنسيس، وغالبًا ما قضى لياليَ طويلةً في صحبتهما، مشتركًا في أحاديثهما. هو، أيضًا، كان حقوقيًّا، وجيهًا، ويقال إنّه كان المستشار القانونيّ العلمانيّ

لأبرشيّة أسّيزي. وانطلق الثلاثة، بخُطًى رشيقةٍ، إلى أقرب كنيسة؛ وفي أعقاب القدّاس، التمسوا من الكاهن أن يفتح الإنجيل في ثلاثة مواضع مختلفة، تيمُّنًا بالثالوث الأقدس، وأن يتلو على مسامعهم أوّل مقطع تقع عليه عيناه، في كلٍّ منها. وكانوا قد بيّتوا النيَّة على اعتبار تلك المقاطع الثلاثة هي إشارةٌ من الربّ إلى ما يتوجّب عليهم فعله.

كان المقطع الأوَّل يقول: «إن شئت أن تكون كاملاً، فامضِ وبعْ كلّ مالك، وأعطِه للمعوزين، فيكون لك كنزٌ في السماء، ثمَّ تعالَ واتبعني». وكان المقطع الثاني: «من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه، وليحمل صليبه ويتبعني». أمّا في المرَّة الثالثة، فقد فتح الكتاب على وصيّة يسوع للتلاميذ: «لا تحملوا للطريق شيئًا، لا عصًا ولا مزودًا، ولا خبزًا، ولا فضَّةً، ولا يكنْ لكم ثوبان».

وصايا قد تبدو مُغرقةً في الشدَّة والتزمُّت، بل ربّما متعذّرةً بشريًّا. بيد أنَّها هي الشرط الذي لا مناص من تحقيقه لكلّ صابٍ إلى الكمال، وراغبٍ في السير، بلا تحفُّظٍ، على دروب الربّ.

وقد استفزَّت تلك الأقوال حماس فرنسيس، فهتف متهلّلاً: «أيّها الإخوة، هذه هي حياتنا، وهذا هو دستورنا، وذلك ينبغي أن يكون حياة ودستور جميع الذين يرغبون في مشاركتنا حياتنا؛ فلنمضِ، يا إخوتي، ولنعمل بما سمعنا». فهتف برناردو دي كوانتاڤالي بدوره، وقد أشرقت شمس الله على ذهنه وقلبه: «إنّني ماضٍ معك»، «وأنا أيضًا» أضاف پييترو دي كاتانيا، والدموع تغسل وجهه ونفسه. لم يكن يلزمهما بعد، سوى التخلّي عن كلّ شيءٍ، وارتداء ثوب الرعاة الخشن، على غرار فرنسيس، كي يصبحا الأخ برناردو، والأخ پييترو، بعد أن مات فيهما الوجيه، والثريّ، والعالِم.

رُبّما كثيرون يحلمون، ولو لحظةً، بالتخلّي، دفعةً واحدةً، عن كلّ شيءٍ، ولكن ما أندر الذين يفعلون!

مذ كان المسيح يدرج على أرضنا، جاءَه، يومًا، شابٌّ غنيٌّ، كان من استقامة السلوك، والتقيُّد بجميع الشرائع، بحيث أحبّه المعلّم من النظرة الأُولى؛ جاء ملتمسًا درب الكمال، فأشار عليه يسوع أن يبيع ما يملك، ويهبه للفقراء، ويتبعه، فشقّ عليه الأمر وقفل حزينًا، لأنّه لم يستطع الانسلاخ عن ثروته.

بيد أنّ فرنسيس ورفاقه كانوا من القلائل الذين استهانوا كلّ امتلاكٍ، في سبيل اتّباع يسوع، والظفر بكماله.

ولئن كان فرنسيس قد انتهى إلى ذلك القرار، في أعقاب مسيرةٍ وئيدةٍ قادتها النعمة الإلٰهيّة بعملها الواثق الفاعل في الأعماق، فلا يسعنا سوى التعبير عن بالغ إعجابنا بجرأة كلٍّ من برناردو دي كوانتاڤالي، وپييترو دي كاتانيا، إذ تخلّى أحدهما عن ثروةٍ طائلةٍ، وعِلم رفيعٍ، ووَضْعٍ اجتماعيٍّ مُتْرَفٍ رغيدٍ، وتنازل الآخر عن مركزٍ مرموقٍ كان يوفّر له النفوذ، كي يسيرا في خطى من عدّه الكثيرون مجنونًا، ذاك الذي كان منغمسًا في الفقر، وفي عشرة البرص والمتسوّلين. ولعلّهما قد استشفّا، بحَدْسٍ ثاقبٍ، أيّ زلزالٍ كان مُقدمًا على تفجيره ذلك التائب الضئيل الذي تجرَّد من كلّ شيءٍ، كي يحيا فقر يسوع، ويستطيع أن يدعو الربّ، بصدقٍ: «أبانا الذي في السموات». لم يكن الأمر شديد التعقيد على پييترو دي كاتانيا، الذي سُرعان ما تخلّى عن ألقابه، ومركزه الفخريّ، والقليل الذي كان يمتلكه، في حين اقتضت تصفية ممتلكات برناردو دي كوانتاڤالي بعض الوقت، والكثير من الإجراءات. وعندما تمّ ذلك، مَثُل برناردو وفرنسيس إلى ساحة القدّيس جاورجيوس، في أسّيزي – وكان ذلك في السادس عشر من شهر نيسان ١٢٠٨ – وأخذا يوزّعان حفناتٍ من الذهب على الفقراء والمعوزين، بلا حسابٍ.

واتّفق أن مرّ بتلك الساحة كاهنٌ يُدعى سلڤستر، مصابٌ بعلّة البُخل، وكان قد سبق له أن باع فرنسيس حجارةً لترميم كنيسة القدّيس داميانوس. ولكنّه عندما رأى الذهب يُنثر اعتباطًا، دنا من فرنسيس مدّعيًا أنّه تلقّى ثمنًا بخسًا لتلك الحجارة، فاستشاط فرنسيس غيظًا، وأخذ من جيب برناردو حفنتَيْن من الذهب، وقذف بهما بين يدي سلڤستر قائلاً: «أراضٍ أنت الآن، يا سيّدي الكاهن، وهل نلت حسابك كاملاً؟!».

ومضى سلڤستر مسرعًا، سعيدًا بغنيمةٍ لم يتوقّعها. ولكنّه، في تلك اللّيلة، رأى في الحلم تنّينًا رهيبًا يهدّد مدينة أسّيزي، وفي إزائه فرنسيس، وقد انبثق من فمه صليبٌ ذهبيٌّ يتطاول حتّى أجواز السماء، ويتفرّع فوق البسيطة كلّها، طاردًا التنّين، وناشرًا السلام.

وكان لذلك الحلم أثرٌ بالغٌ في إصلاح سلڤستر وردعه عن بخله، إذ راح يقارن بين جَشَعه، وحرصه المَرَضيّ على المال، وازدراء شابَّيْن علمانيَّين له؛ وأخذت تتردّد، في

منظر عامّ لسان داميان والپورتسيونکولا

منظر عامّ لسان داميان والپورتسيونکولا

حنايا صدره، كلمات يسوع في عنفٍ وعناد: «لا يستطيع إنسانٌ أن يعبد ربَّين: الله والمال»؛ فتاب، وكفّر، ووزّع كلّ ماله، وجاء فرنسيس طالبًا الانضمام إلى جماعته، التي كان فيها الكاهن الأوّل.

تلك التحوُّلات المباغتة في سلوك وجيهٍ ثريّ، ورجل قانون ذي رتبةٍ فخريّةٍ في الكنيسة، وكاهنٍ جشعٍ، باتت على كلّ لسانٍ في أسّيزي وجوارها، وكان لا بدّ لها أن تستفزّ مشاعر الإعجاب، وأحيانًا قليلةً، رغبةً في الاقتداء.

رابعُ المنضمّين إلى الجماعة، شابٌّ يُدعى إيجيديو، وهو ابن فلاّحٍ من ضواحي أسّيزي، كان مثالُ فرنسيس ورفاقه قد حرَّض عمل النعمة في نفسه، فعزم على الانضمام إليهم، وقد نفَّذ تلك الرغبة، في الثالث والعشرين من نيسان ١٢٠٨، في يوم عيد القدّيس جاورجيوس. ففي أعقاب القدّاس، يمّم شطر كنيسة البورتسيونكولا، التي كانت ملتقى الجماعة، ومقرَّها المؤقَّت. وإذ كان، في طريقه إليها، يجتاز عبر غابةٍ، لمح، في أحد ممرّاتها، فرنسيس، فناداه، وهرع إليه، وجثا عند قدميه، متوسّلاً قبوله في أحضان الجماعة، فأنهضه فرنسيس، برفقٍ ورقّةٍ، وراح يّبيِّن له أيّ مجدٍ لا يُضاهى يناله إن هو انتظم في خدمة ملك الملوك، وسيّد الأسياد، وربّ السماء، في حين أنّ كثيرين يَعُدّون حظوةً فريدةً خدمتهم لواحدٍ من عظماء الأرض. ثمّ أخذه من يده ومضى به إلى الرفاق قائلاً متهلّلاً: «إليكم هذا الأخ الطيّب الذي أرسله لنا الربّ. فلنضع المائدة، ولنأكل معًا، ترحيبًا بقدومه». لا ريب أنّ المائدة كانت على زهدٍ شديدٍ، ولكنّ الترحيب كان دافقًا محبّةً، وفرحًا، ودفئًا. ومن المحقّق أنّ مودَّةً روحيّةً آسرةً قد وُلدت، منذ اللحظة الأُولى، بين تَيْنك النفسَيْن الصافيتَيْن: نفس فرنسيس ونفس إيجيديو.

ثمّ مضى فرنسيس بتلميذه الجديد إلى أسّيزي، كي يصطنع له زيّ الجماعة، من النسيج الخشن، ذي اللَّون البنيّ المُغْبَرّ، لون العصفور الدوريّ الذي كان أثيرًا على قلب فرنسيس. وفي طريقهما اعترضتهما امرأةٌ فقيرةٌ تستجدي، وإذ لم يكن أيٌّ منهما يحمل مالاً، أوعز فرنسيس إلى الأخ الجديد أن يهبها معطفه الذي كان أثمن ما يملك، بل كلّ ما يملك، فامتثل بلا تردّد، وفي الحال، غمره فرح العطاء المتهلّل، فرحٌ لم يعهد مثله في حياته، بحيث خُيِّل إليه أنَّه ومعطفه يطيران برشاقةٍ إلى السماء؛ كما أَنّه تلقّن درسًا أساسيًّا: أنّ على كلّ من يبتغي اتّباع فرنسيس أن يكون أبدًا متأهّبًا للتخلّي عن كلّ شيءٍ!.

كان الإخوة على ارتحالٍ دائمٍ، فهم، على غرار فرنسيس، ينطلقون إلى كلّ مكانٍ

مبشِّرين بالإنجيل، يحدوهم حماسٌ عارمٌ لغزو البسيطة كلّها بكلام يسوع وحبّه؛ وفي المساء يجتمعون معًا للصلاة، ويرقدون على أرض كنيسة اليورتسيونكولا، أو في كوخٍ ابتنوه، في ما بعد، إلى جوارها؛ وفي تلك الأمسيّات الحميمة الساجية كان يتراءى لهم، وهم مستلقون على الأرض الصلبة، أنَّهم في الفردوس.

وشيئًا فشيئًا أخذ التبشير يمضي بهم بعيدًا عن أسّيزي. وفي إحدى تلك المهامّ البعيدة اصطحب فرنسيس إيجيديو، فراحا يملآن الطرقات بأناشيد تسبيحٍ للربّ يجأران بها ملءَ حناجرهما، وهما يتوثّبان جذلاً؛ وإذ لم يكن إيجيديو يُجيد الوعظ، كان يكتفي بالقول، بعد أن يفرغ فرنسيس من وعظه: «إعملوا بما يقول لكم فرنسيس فتخلصوا». ولدى عودتهما إلى اليورتسيونكولا، كان ثلاثة رفاقٍ جُدُدٍ قد انضمّوا إلى الجماعة التي ارتفع عدد أفرادها إلى ثمانية.

كان فرنسيس يجمع إخوته من حوله، في الغابة المجاورة، ويحثّهم على الصلاة، داعيًا المتعلّمين منهم إلى تلاوة صلوات الرهبان الطقسيّة في أوقاتها المحدّدة، على مسمع الجميع، ويُحرّض غير المتعلّمين على ترداد صلاة «أبانا»، بلا انقطاعٍ، في تمعُّنٍ لمراميها السامية. ثمّ كان، بأسلوبه العذب النفّاذ، يدعوهم إلى التبشير بملكوت الله، وإلى ترسيخه بين البشر، بتعليمهم ازدراء قِيَم هذا العالم المادِّيَّة، والعزوف عن ممتلكات الدنيا، وترويض الجسد. ولم يكن يُغفل تحذيرهم من أنّهم قد يلقون الازدراء والمقاومة والاضطهاد، ولكن عليهم ألاّ يخافوا، لأنّ الربّ معهم. فليلقوا عليه همومهم، وهو يتولّى جميع أمورهم. وكان يؤكّد لهم أنّ الرُّوح القدس سيتكلّم بلسانهم. ثُمَّ كان يُقبِّلهم كما تقبِّل الأمُّ أبناءها، ويرسلهم واحدًا واحدًا، أو اثنين اثنين، لزرع كلمة الربّ.

وكان يوصيهم، إذا ما رأوا، ولو من بعيدٍ، كنيسةً أو ناقوسًا، أن يركعوا حيث هم، ويتلوا هذه الصلاة: «إنّنا نعبدك، يا سيّدنا يسوع، هنا، وفي كلّ كنائس العالم، ونباركك لأنّك افتديتنا بصليبك المقدّس».

كان أولئك المبشِّرون الجُدُد، الحفاة، في ثوبهم البنيّ الخشن الذي يحاكي كيسًا، والمتمنطقون بحبلٍ غليظٍ، بزعامة فرنسيس الذي ينشد أناشيد فرنسيّة، يثيرون اهتمامًا بالغًا، ويستفزّون أسئلةً محيّرةً مُقلقةً حول الحياة والمصير، ويتميّزون عن سواهم بالفرح الصافي، النابع من تحرّرهم من كلّ امتلاكٍ، وإيكالهم أمرهم كلّه للربّ، بحيث بدوا وكأنّهم قادمون من عالَمٍ غريبٍ لا يعرف الكآبة، ويُحاكون طيورَ السماء رشاقةً وجَذَلاً، واتِّكالاً على عناية الربّ.

ولكن، مثل طيور السماء كان عليهم، أحيانًا كثيرةً، أن يتحمّلوا، بصبرٍ، قسوةَ البشر وافتئاتهم؛ فثمَّة من كانوا ينظرون إليهم كحمقى، ويرهقونهم بالسخريّة والشتائم، وثمَّةَ من كانوا يجرّدونهم من ثيابهم، ويتركونهم نصف عراة، أو يشدُّونهم من قلنسواتهم، فيرمونهم أرضًا ويجرّونهم كما تُجَرّ أكياس الفحم. وآخرون كانوا يَعدّونهم لصوصًا وشُذّاذ آفاقٍ، فيرفضون إيواءهم، على حدّ ما حَدَث للأخ بيرناردو الذي مضى إلى مدينة فلورنسا مُبشِّرًا، بصحبة الأخ إيجيديو، ولمّا حلّ الليل جابا، عبثًا، معظم شوارع المدينة بحثًا عن مأوًى، إلى أن عثرا على مستودعٍ مسقوفٍ، على مقربةٍ من أحد المنازل، فاستأذنا صاحبته بقضاء الليل فيه، وبعد لأيٍ وافقتْ، ووعدتهما بتزويدهما بغطاءٍ لكلٍّ منهما؛ وفي تلك الأثناء قدم زوجها، ولمّا علم بأمر الغريبَيْن، عنَّفها، واتّهمها بالحمق، لأنّها أَذِنت للصَّيْن بالمبيت، ولكنَّها ردَّت بأن ليس في المستودع ما يمكن سرقته سوى بعض الأحطاب. وفي الصباح، نهض الضيفان وهما يرتعدان قرًّا، ومضيا إلى الكنيسة لحضور القدّاس الأوّل، وما هي إلاّ دقائق معدوداتٌ حتّى وافت الكنيسة، أيضًا، مضيفتُهما، ولمّا وقع عليهما بصرها، أخذت نفسها بالتأنيب، فلو هما كانا لصَّين لما وجدتهما في كنيسةٍ جاثيَيْن، خاشعَيْن. وقد ازدادت لنفسها تأنيبًا عندما وافى الكنيسة مُحْسنٌ مشهورٌ أَلِف أن يوزّع على جميع الفقراء الموجودين في الكنيسة بعض الهبات. غير أنّه لمّا همّ بإعطاء الأخوَيْن الفرنسيسيَّيْن حَسَنةً، رفضا بحزمٍ ورقّةٍ، وقال له برناردو: «صحيحٌ أنّنا فقيران، ولكنّ الفقر ليس علينا عبئًا، بل نحن قد اخترناه طوعًا، عملاً بنصيحة الربّ»؛ ومضى المحسن قُدُمًا في الاستيضاح، فعلم أن برناردو نفسه كان من كبار الأثرياء، ولكنَّه تخلّص من كلّ شيءٍ، منذ فترةٍ غير بعيدةٍ، كي يستطيع التبشير بإنجيل الفقر والتوبة والسلام.

وحينئذٍ سارعت المرأة مستغفرةً، ودعتهما إلى الإقامة في منزلها، ولكنّ المحسن، بعد أن أُحيط علمًا بأنّهما لم يعثرا، في فلورنسا كلّها، على مأوًى، استضافهما في منزله.

أمّا في أسّيزي فكثيرون كانوا يصفقون في وجه الإخوة الأبواب قائلين: «كنتم أصحاب ثرواتٍ وأطيانٍ، فعلامَ بدّدتموها على الفقراء، وجئتم الآن تتسوّلون طعام يومكم!». ومع ذلك، كان الفرنسيسيّون يشكرون، ويباركون، ويمضون فَرِحين، لأنّ الفرح الذي يغمر نفس فرنسيس، كان يسكن، أيضًا، نفوسَهم، في حين لم يكن من

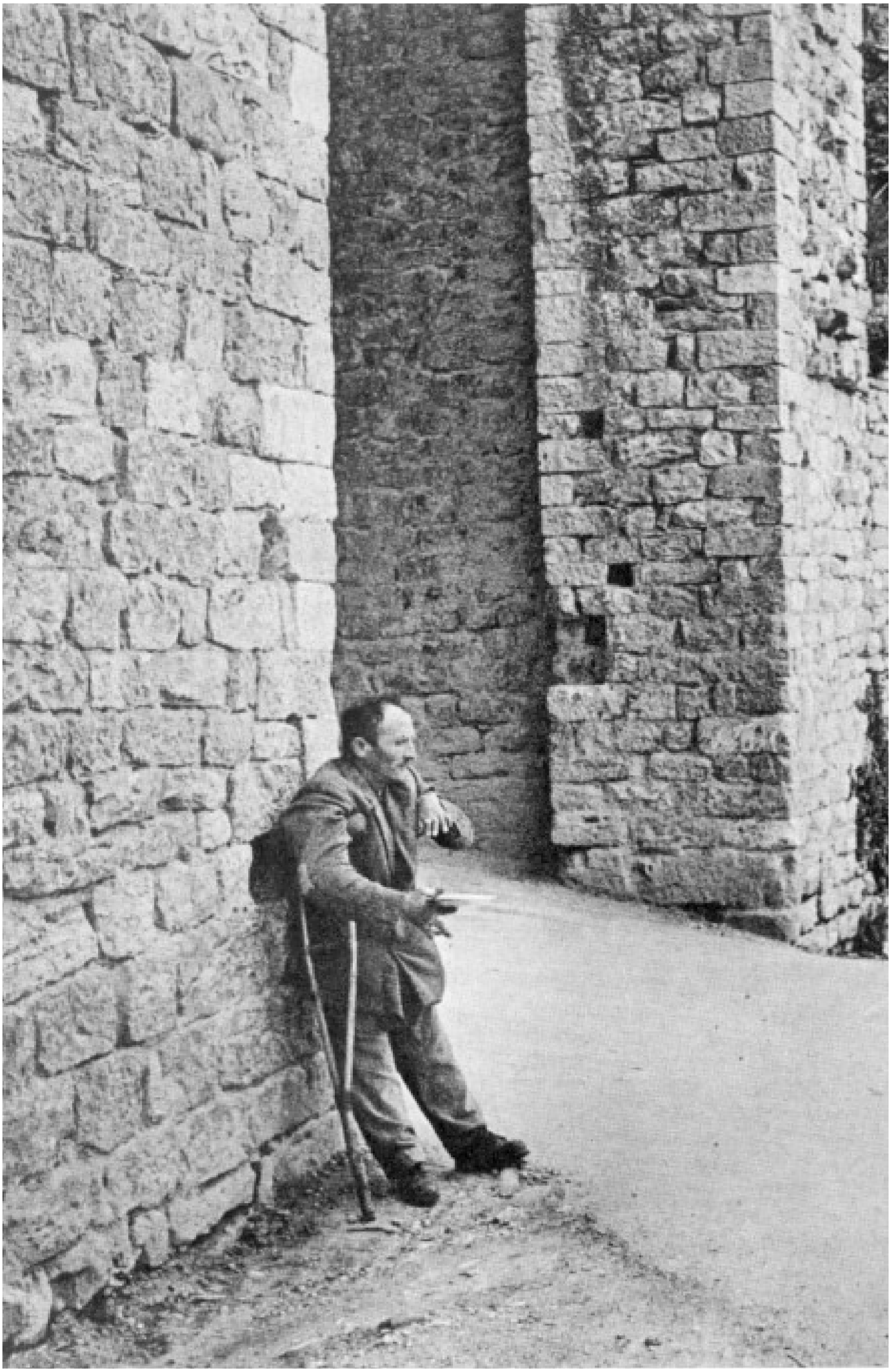

مثْل هذا الفقير كان أوّل من حرّك قلب فرنسيس الشابّ

اليسير على سواد الناس إدراك دوافعهم، وإقدامهم على بيع ممتلكاتهم وتوزيع أثمانها اعتباطًا على المعوزين، عوضًا عن تركها لأقربائهم، ثمّ لجوئهم إلى الاستعطاء.

والواقع أنّ أفراد تلك الجماعة الضئيلة – الذين كانوا يُمثّلون نواة الحركة الفرنسيسكانيّة – إنّما كانوا يعيشون مغامرةً مدهشةً، يبدون معها، في عيون الآخرين، مجانين أو حمقى. فهم قد آلوا على أنفسهم ممارسة الوصايا الإنجيليَّة بحرفيَّتها وحذافيرها، تلك الوصايا البسيطة، الصافية، الرهيبة، المتوهّجة بألَق الحقيقة الخالدة، التي اجتازت القرون، مُحطّمةً باستمرارٍ ما يواكب الزمن من شيخوخةٍ وتصلّب، في حين كان المتحذلقون، وجلُّهم أعضاءٌ في المؤسَّسة الكنسيّة، قد أضفوا عليها من التأويل والتشويه ما سلبها بريقها، وكبح ثوريَّتها، وأفقدها ديناميّتها الهائلة؛ وإذا بفرنسيس وصحبه يعيدون إليها، دفعةً واحدةً، كلّ توهّجها، بتجرّدهم المُطلَق، بامّحاء سلوكهم، بعيشهم الإنجيل في أمانةٍ، حتّى غدت عيشتهم تلك هي التبشير الأمثل بالإنجيل.

ولكنّ عيشتهم تلك كانت، في نظر الناس، حماقةً، وفضيحةً.

أسقف أسّيزي نفسه، الذي كان مُرهَقًا بالسُّلطات الزمنيَّة والثروة، والذي، مع ذلك، كان يحتفظ بجذوة إيمانٍ متّقدةٍ في أعماقه، أنذر فرنسيس بأنّ حياة الفقر التي يفرضها على ذاته وعلى إخوته، هي من القسوة بحيث يتعذّر الاستمرار في ممارستها، ولكنّ فرنسيس أجابه: «لو كان لدينا ممتلكاتٌ، لكان لزامًا علينا أن نمتلك، في آنٍ معًا، أسلحةً للدفاع عنها، والربّ ينهى عن الحرب، ويأمر بالسلام بين البشر. إنّ كلَّ امتلاكٍ يولّد، لا محالة، خصومةً مع القريب، من شأنها النيل من محبّة الله ومحبّة الناس. ومن ثمّ، فلكي نحتفظ بهذا الحبّ سليمًا ونقيًّا، فنحن عازمون عزمًا مُطْلَقًا على ألاّ نملك شيئًا في هذا العالم».

وأطرق الأسقف، صامتًا، فلئن هو كان عاجزًا عن التسامي إلى قمّةِ مُثُل فرنسيس، إلاّ أنّه كان يدرك أن لا حقّ له في معارضة تلك المُثُل.

كان الفرنسيسكانيّون الأوائل يتحرّقون توقًا إلى رؤية العالم كلّه يتوب إلى الله، وكلام الإنجيل يُبذَر في كلّ شبرٍ من المسكونة، ويُثمر ثمار خلاصٍ. وكانت قدوة حياتهم الفذّة، والفرح الغامر المتدفّق من فقرهم المُدقع، يفلحان في اجتذاب نفوسٍ تمسّها النعمة، فيتكاثر باطّرادٍ عدد المنضمّين إلى جماعتهم. غير أنّ الشكّ انتاب فرنسيس إزاء جسامة

مهمّته المتزايدة خطورةً باستمرارٍ، وهزال الوسائل المتاحة له. وإذ كان، آنذاك، قد اتَّخذ من سهل «رييتّي» مسرحًا لتبشيره، فقد بات يتسلّق، كلَّ مساءٍ، هضبة «وجيو بوستوني» وهناك كان يعتزل في مغارةٍ، بعيدًا عن العالم وجلبته، في صمتٍ مطبقٍ، لا يعكّره سوى دويّ سيلٍ بعيدٍ، وينصرف إلى الصلاة، ملتمسًا أنوار الله وأَزره. فمع نزوعه إلى الحركة والعمل الدؤوب، كان في داخله راهبٌ ناسكٌ تشدّه الوحدة والصلاة، وكانت الصلاة هي سبيله إلى العمل، ونور طريقه. وعلى غرار مؤسّسي الرهبانيّات الكبرى، كان شعاره: «صلِّ واعمل!» فمرتا ومريم، كلتاهما، كانتا تتعايشان في أعماقه، بانسجامٍ.

هناك، في هدأة تلك العزلة المُطلَقة، كان يجثو طوال الليل على الصخر، ويستبحر في تأمّل هوّة ضآلته، وهوّة عظمة الله، مؤكّدًا عظيم حبّه لله، ورغبته المتّقدة في خدمته، شاكيًا من ضآلة إمكانيّاته، وسحيق جهله، إذ كانت تتراءى له صور ماضيه المخزي، وجسامة مهمّة التبشير بالإنجيل، فيرتعد خشيةً من تدنيس كلام الله بشفتَيْه الخاطئتَيْن، ويبكي، ويتوسّل، مردِّدًا بلا انقطاعٍ: «ارحمني، يا ربّ، أنا الخاطئ التعيس»، ثمّ يضيف: «إنّني أخشى كلّ شيءٍ من فسادي الفطريّ، ولكنّني أرجو كلّ شيءٍ من صلاحك وطيبك، يا ربّ».

ولقد استجاب الربّ لذلك الانسحاق المؤثّر، ولذلك التواضع الصادق، فغمر، أخيرًا، نفس عبده بسلامٍ ساجٍ، مهيمنٍ، رائعٍ، ومعه سمع فرنسيس همس الربّ: «لا تخشَ شيئًا، يا بُنيَّ، فخطاياك قد غُفرت». واطمأنّ فرنسيس، أخيرًا، إلى أنّه سائرٌ على السراط السويّ، وإلى أنّه سينهض بالمهمّة التي انتدبه لها الربّ، لا بل إنّ العليّ قد أزاح له النقاب عن مستقبل حركته، وأراه الجماهير الغفيرة من الإخوة الذين سينضوون تحت لوائها، كما كشف له عَمّا ستصادفه الحركة من عقباتٍ وخيبات أملٍ، ومن نموٍّ وازدهارٍ؛ وحينئذٍ استطاع فرنسيس أن يخاطب رفاقه قائلاً:

«أعزّائي، فلتمتلئ نفوسكم شجاعةً وفرحًا في الربّ، ولا تبتئسوا لا من قلّة عددكم، ولا من بساطتكم، ولا من بساطتي، فلقد أراني الربّ حقًّا أنّه سيجعل منّا جماعةً غزيرةً، لن تنفكّ تزداد عددًا، وتمتدّ حتّى أقاصي المسكونة. إنّ حرصي على مصلحتكم يدفعني إلى أن أحيطكم علمًا برؤيا كان من واجبي أن أحتفظ بها سرًّا، لو لم تفرض عليَّ المحبّة أن أتكلّم. فلقد رأيت جموعًا غفيرةً قادمةً إلينا لتعيش في مثل زيّنا، تحدوها

الرَّغبة في الامتثال لدستور جماعتنا، بل إنَّه لا يزال يتردّد في مسامعي وَقْع أقدام أولئك القادمين الكُثُر: فقد كانوا يجيئون ويمضون تنفيذًا لأوامر الطاعة المقدّسة، وقد غدت هذه الأماكن ملتقى طرقٍ تفضي إليه دروبٌ قادمةٌ من جميع البلدان، ومزدحمةٌ بأعدادهم، يهرعون من فرنسا، وإسبانيا، وألمانيا وإنكلترا؛ جموعٌ تنطق بجميع اللغات تحثّ الخطى إلينا».

وأردف: «إخوتي، لكي نشكر الربّ إلهنا بإخلاصٍ ووَرَعٍ عن جميع آلائه، ولكي تتبيّنوا أيّ سلوكٍ ينبغي أن تسلكوا حيال الإخوة الحاضرين والقادمين، عليكم أن تدركوا تطوّر الأحداث المقبلة. فنحن سنشرع بقطف بعض ثمارٍ حلوةٍ شهيّةٍ، وستليها أُخرى أقلّ حلاوةً وعذوبةً، ثُمّ سوف تليها ثمارٌ مرّةٌ لا يُطاق طعمها، إذ إنَّها، رغم أريجها، وجمال منظرها، ستكون من الحموضة بحيث لن يستطيع أحدٌ تناولها. ومع ذلك، فمن المُحقّق أنّ الربّ، كما قلت لكم، سيجعل منّا أُمّةً كبيرةً. وبالإجمال إنّنا سنفعل ما يفعله صيّادٌ يلقي شباكه في البحر أو في بحيرةٍ، ويصطاد كمّيّةً جسيمةً من الأسماك، ويقلّها على سفينته، ولكن بما أنّه غير راغبٍ في نقلها كلّها، من جرّاء وفرة عددها، فهو يختار أكبرها، وتلك التي تروق له أكثر، فيحتفظ بها، أمّا الأخرى فيلقي بها في اليمّ».

وما لبث حلمُ فرنسيس أن أخذ يتحقّق، وراح عدد الإخوة يتكاثر تكاثرًا مذهلاً؛ فبعد أن كانوا ثمانية، عام ١٢٠٨، قفز عددهم إلى ثلاثة آلاف عام ١٢٢٠، وإلى خمسة آلاف مع حلول عام ١٢٢٦.

النظام الفرنسيسكانيّ

في سهل رييتّي، وفي أعقاب الرؤيا التي طمأنت فرنسيس على مستقبل جماعته، اعترضه فارسٌ متألّق الزيّ، حيّاه في أَدَبٍ جمٍّ، فبادره فرنسيس بالقول: «حتّى الآن خدمتَ العالَم خدمةً رائعةً، بسيفك ودرعك، ولا ريب أنّك فارسٌ ممتازٌ. ولكنّك، منذ هذه اللحظة، سترتدي ثوبًا من الوبر الخشن، وستشدّ حقوَيْك بحبلٍ، وستُصبح فارسًا في خدمة المسيح». وفي الحال ألقى أنجيلو تانكريدو عنه زيّ الفروسيّة، وتأثّر خُطى فرنسيس.

وقد ظلّ سهل رييتّي موضعًا أثيرًا يفزع إليه فرنسيس، في ساعات المِحَن والمرض.

وتواصل قدوم الإخوة الجُدد، فجاء، على التوالي، سباتينو، الذي لا نعرف عنه سوى اليسير، ثمّ موريكو، الذي كان فارسًا وقف حياته على العناية بالبرص، حتّى داهمه مرضٌ وبيلٌ كاد يقضي عليه، فاستعان بفرنسيس الذي صنع له دواءً من فتات خبزٍ ممزوجٍ بزيت قنديلٍ مشتعلٍ أمام إيقونةٍ للسيّدة العذراء، وأنفذه إليه مع إخوةٍ، قائلاً: «احملوا لأخينا موريكو هذا الدواء، الذي، بقدرة المسيح، لن يعيد له العافية فحَسْبُ، بل سيجعل منه جنديًّا باسلاً سينضوي للأبد في جيشنا». وما إن تناول موريكو من المزيج الذي خلطته يدا فرنسيس حتّى أَبَلَّ من مرضه، واستعاد، من منعة الجسد والنفس، ما جعله ينضمّ، في الحال، إلى الجماعة. ومُذّاك، اقتصر طعامه على الخضار النيّئة، والأعشاب، مستبعدًا اللحم، والخبز، والنبيذ، ومع ذلك لم يفقد شيئًا من مناعته وشدّة مراسه.

ثمّ قدم جيوڤاني دي كاپيلا، الذي دُعي كذلك لأنّه أَلِف اعتمار قبّعة فوق القلنسوة، وأخيرًا فيليپو الملقّب بالطويل، الذي خلّف صيت مُحِبٍّ للمسيح، شديد الوداعة، واشتهر بعمق فهمه وتفسيره للكتاب المقدّس، رغم أمّيّته.

وعندما بلغ عدد الإخوة اثني عشر، ارتأى فرنسيس أنّ ممارستهم للتبشير ممارسةً مُجديةً تقتضي صبغةً رسميّةً تخوّلها إيّاها موافقة الحبر الأعظم. وكان لا بدّ، من أجل الظَّفر بتلك الموافقة، من نظامٍ خاصٍّ للجماعة يطَّلع عليه البابا ويؤيّده.

كان، ثمَّة، آنذاك، عددٌ من المؤسَّسات الرهبانيّة الرسميّة، ذوات أنظمةٍ معترفٍ بها. وكانت أهمّها جمعيّة البندكتيّين الواسعة الانتشار، التي كانت قد وفَّقت أنظمتها مع الأنظمة الاجتماعيّة والسياسيّة السائدة، ولا سيّما الإقطاعيّة منها، فجعلت على رأسها رئيسًا عامًّا يحظى بمثل ما يحظى به الإقطاعيُّون من امتيازات، وسلطاتٍ قصوى، وممتلكاتٍ، وثرواتٍ، وكان الحكم فيها هرميًّا، تسلسليًّا. وكان، ثمّة، أيضًا جمعيّاتٌ أُخرى قد أولت العلم اهتمامًا بالغًا، وجعلت من حفظه ونشره هدفًا أساسيًّا، وباتت في مضماره رائدةً.

أمّا فرنسيس، فكان دافعه، ورائده، ونبراسه، الإنجيل بحرفيّته، فحَسْب؛ كان يرفض كلّ مالٍ، وكلّ امتلاكٍ، ويتوخّى فقرًا مُطْلقًا. فعليه وعلى إخوته أن يعملوا ويخدموا لقاء بلْغة العيش، ولا يقبلوا من أجرٍ سوى طعام يومهم، وأن يرفضوا المال رفضًا مُطْلقًا، إلاّ ما كان منه لازمًا لابتياع دواءٍ لأخٍ مريضٍ. فالمال، كالدُّود في الثَّمر، يفسد العلاقات بين البشر. وحين لا يتوفَّق الإخوة إلى عملٍ يطعمهم، عليهم أن يُقبلوا إلى «مائدة الربّ»، أي إلى استجداء المحسنين، وذلك على غرار يسوع الذي، خلال فترة تعليمه،

لم يكن لديه حجرٌ يسند إليه رأسه، ولم يتحرّج من قبول كرم المحسنين. ولقد عاش الفرنسيسكانيُّون الأوائل ذلك الفقر الإنجيليّ، في فرحٍ مذهلٍ.

وفي هذا المعنى، كتب فرنسيس في وصيّته: «كنت أعمل بيدي، وإنّني عازمٌ على الاستمرار في هذا العمل. وأَودّ، أيضًا، أن يمارس جميع الإخوة الآخرين مهنةً كريمةً؛ وعلى من لا يجيد مهنةً أن يتلقّن واحدةً، لا رغبةً في الربح، بل من أجل ضرب المثل الصالح، ولكيلا يبقى أحدٌ عاطلاً عن العمل. ولكن عندما لا نُصيب من عملنا جزاءً، حينئذ فقط علينا اللُّجوء إلى المائدة التي نصبها لنا الربّ، أي أن نقرع الأبواب، مستجدين حَسَنةً».

وفي جميع الأحوال، على الإخوة أن يكونوا متحرِّرين من ربقة الهموم اليوميَّة، وأن ينتبذوا كلّ امتلاكٍ نافلٍ، كي يظلُّوا طليقين كعصافير السماء، ولكي لا يقعوا في شراك العالم؛ وعليهم ألاَّ يكفّوا، طوال حياتهم، يشكرون للربّ عطاياه، ويسبّحون جمال أعماله.

وعلى الإخوة أن يظلّوا على ارتحالٍ دائمٍ، أُسوةً برسل المسيح، لا مقرَّ ثابتًا لهم، موطنهم العالم الرحب، وكلّ مكانٍ يستطيعون أن يشهدوا فيه لكلمة الله. فهم، أبدًا، «حُجّاجٌ وغُرَباء».

ويمتاز الفرنسيسكانيّون عن سائر الرُّهبان ورجال الكنيسة، بالمساواة في ما بينهم، وانعدام الألقاب، والطبقات والسُّلُطات، وبتسميتهم «إخوة» وتسمية جمعيّتهم «أخويّة». ولا مراء أنّ ذلك النَّهج كان فتحًا في الكنيسة، وفي المجتمع على السواء، وبداية عهدٍ جديدٍ من العلاقات بين البشر، ونموذجًا لما ينبغي أن تصبح عليه تلك العلاقات.

ويلتئم جميع الإخوة، مرَّتَيْن في السنة، لينعموا بفرحة اللقاء وينهلوا زخمًا متجدّدًا بالصلاة الجماعيّة، ويتقوّوا بروح التضامن الذي يشدُّهم ويربطهم معًا، معمِّقًا لدى كلٍّ منهم المسؤوليّة عن الجميع، وعن رسالتهم المشتركة في العالم. وفي مثل تلك المجالس، حيث تسود ديمقراطيَّةٌ حقّةٌ، وحيث ينعم الجميع بحرِّيَّة أبناء الله المُطلقة الرائعة، يناقشون مشكلاتهم، ويتبادلون خبراتهم، ويتدارسون، ويُقرّرون نظام عيشهم، والتوجيهات الكفيلة بدفع الجماعة قُدُمًا في تحقيق رسالتها.

الغابة الصغيرة المجاورة لدير الفرنسيسكانيّين

أمَّا ميزتهم الرئيسيَّة، فتُعبّر عنها التسميةُ التي أطلقها عليهم فرنسيس: «الإخوة الأصاغر»، وذلك على حدّ قوله: «لكي لا يتطلّعوا يومًا إلى أن يصبحوا كبارًا، ويرتقوا فوق الآخرين؛ فهم مدعوُّون إلى أن يبقوا في الأسفل، وأن يقتدوا بتواضع المسيح». ومن ثَمَّ حُظِرَ علهيم قبول أيّة وظيفةٍ، يمارس فيها الإخوة إدارةً أو سلطةً على أيٍّ كان، بل على كلٍّ منهم «أن يكون الأصغر، وخاضعًا لمن يقطنون نفس المنزل».

وخليقٌ بالتنويه أنّ لفظة «الأصغر»، كانت، في عهد فرنسيس، تُعبّر عن مغزًى اجتماعيٍّ عميق، إذ كانت تُطلَق على سواد الشَّعب البائس الذي يحتلّ المقام الأدنى، أو لا يحتلّ أيَّ مقامٍ على الإطلاق، في مقابل فئة «الكبار» أو «الأكابر»، فئة البورجوازيّين والأثرياء، الذين يحتكرون السُّلطات السياسيّة والاقتصاديّة.

وتأكيدًا لهذا التطلّع، كتب فرنسيس، في نظام «الأخويّة» عام **١٢٢١**: «على الإخوة أن يكونوا سُعَداء، عندما يجدون أنفسهم في صحبة صغار القوم الوضيعين، والمحتقرين، والفقراء، وذوي العاهات، والبُرْص، والمتسوّلين». ولا عَجَبَ في ذلك، فمجتمعُ مثل هؤلاء، هو المجتمع الأمثل للتبشير بملكوت الله. فهناك ضربٌ من التواطؤ السرِّيّ بين الإنجيل ومجتمع الصغار ذاك، ذلك المجتمع الذي يحمل، في آنٍ معًا، وِقْرَ آثام العالَم، وأسنى آماله في التحرُّر والمساواة؛ فالصِّغار أولئك لا يَصْبون إلى السُّلطان والسَّيطرة، بل إلى مجتمعٍ أوفر إخاءً، وحرِّيَّةً، وعدلاً، وخُلُوًّا من الحاكم والمحكوم، وترقُّبًا لواقعٍ أسمى يحقّق أرفع تطلّعاتهم، ويحقّق حلول ملكوت الله على الأرض. وهكذا، بعيشهم مع الأكثر تواضعًا وحرمانًا، يغدو «الإخوة الأصاغر» رسل البشارة الإنجيليَّة الحقَّة.

وفضلاً عن ذلك، قد حرص فرنسيس على أن يكون، هو وإخوته «الأصاغر»، في أحسن علاقةٍ مع المؤسَّسة الكنسيَّة التي كانوا يشهدون، في حزنٍ هاصرٍ، انحرافها عن جادّة الإنجيل، والكثير من شَطَطِها وأخطائها، ولكنَّهم لم يزعموا، يومًا، أنَّهم يتمتَّعون، إزاءَها، بالتفوُّق، والنقاء، ولم يتنطَّحوا لإصلاحها، على نحو ما فعلت فئاتٌ أُخرى، بروحٍ من التَّعالي على الكنيسة، وفي مقاومةٍ عنيفةٍ لها حافلةٍ بالشَّتيمة والتجريح، في حين عمل الفرنسيسكانيُّون، أبدًا، بالتَّعاون معها، والإذعان لسُلطانها، وفي احترامٍ عميقٍ لأُولي السُّلطة فيها.

وتعبيرًا عن «صغرهم»، وفقرهم، عزف الفرنسيسكانيُّون عن العِلْم، ورفضوا اقتناء الكتب، خلا عددًا ضئيلاً من الأناجيل، وكتب الصلوات؛ وأبوا أيّ امتيازٍ، خلا امتياز

الوعظ حيث يسمح لهم كهنة الرعايا بذلك؛ وكادوا ينفردون بالعناية بالبُرْص، التي أحجم عنها الآخرون؛ ومع فقرهم، وصغرهم، وإيثارهم المقام الأدنى، كان فرنسيس وإخوته يملأون الطرقات بأناشيد فرحهم، لأنّهم هم الذين اختاروا نمط الحياة ذاك، الذي أهَّلهم لاكتشاف الله حقًّا.

وإنّما هم، بذلك، كانوا يؤكّدون واقعًا ذا دلالةٍ كبيرةٍ، وهو أنّ الفرح ليس وقفًا على الموسرين، بل هو أشدّ تدفُّقًا من قلوب من اعتنقوا الفقر الإنجيليّ الطوعيّ، ونعموا بوجدانٍ راضٍ، قانعٍ.

في مثل هذا الموكب المرح انطلق فرنسيس وصحبه الأحد عشر إلى روما، وفي جعبتهم نظامٌ موجَزٌ لأخويَّتهم، مرجعه الأوحد هو الإنجيل، ولا سيَّمَا الوصايا الثلاث التي جاءت ردًّا على تساؤل فرنسيس وأخوَيْه الأوَّلَيْن، على حدّ ما أسلفنا، بالإضافة إلى حفنةٍ من التوصيات العمليّة. وقد كتب فرنسيس، في هذا السياق: «بعد أن أنعم عليَّ الربُّ بإخوةٍ، لم يُرشدني أحدٌ إلى ما يتوجّب عليَّ عمله، ولكنَّ العليَّ نفسه، أوحى إليَّ أنَّه يتعيَّن عليَّ العيش وفقًا للإنجيل المقدّس. وحينئذٍ أقدمتُ على تدبيج نصٍّ من ألفاظٍ قليلةٍ، في منتهى البساطة، وقد أيَّدها السيِّد البابا».

أمَّا قصَّة تأييد البابا للنِّظام الفرنسيسكانيّ، فهي قصَّةٌ طريفةٌ حقًّا!

البابا والفقير

كان يتبوّأ كرسيّ بطرس، آنذاك، واحدٌ من أكبر باباوات القرون الوُسطى حزمًا ونفوذًا ورهبةً، وفي نفس الآن، من أكثرهم رغبةً في إصلاح الكنيسة روحيًّا، هو البابا إنوشنتسيوس الثالث، سليل عائلةٍ نبيلةٍ أعطت الكنيسة تسعة باباواتٍ. وكان شديد الاعتداد بسلطانه المادّيّ والروحيّ، الذي يضعه دون الله قليلاً، وفوق البشر إلى حدٍّ كبيرٍ.

غير أنَّ عهده قد تعرَّض لطائفةٍ من البِدَع التي ادَّعت إصلاح الكنيسة، وهاجمتها بعنفٍ، ومن ثَمَّ فقد غدا كثير الشكّ والحذر من النزعات الإصلاحيَّة. ويقال إنَّه كان على شرفة قصر اللاتران عندما شهد موكب الفرنسيسكانيِّين الزريِّي الهندام، وهم يحاولون ولوج مقرِّه، فأمر بطردهم، في شيءٍ من الاشمئزاز، وهو يجهل أنَّه إنَّما يطرد الرجل الذي أرسلته العناية الإلٰهيَّة لمؤازرته على تحقيق ما كان يتطلّع إليه من إصلاحٍ.

ولكن من حسن طالع الفرنسيسكانيّين أنّ أسقف أسّيزي كان، آنذاك، في روما، فالتمسوا مساعدته، وهو بدوره استعان بصديقه الكردينال جيوڤاني دي سان پاولو، الذي كان يتولّى مهمّة مكافحة البدَع، واشتهر باستقامة السيرة، وحبّه للكنيسة. وقد خامرته الريَب، عندما اطّلع من الأسقف على أهداف الجماعة الجديدة، والتي كانت تُحاكي، إلى حدٍّ بعيدٍ، أهداف فئاتٍ انتهت بمعاداة الكنيسة. بيد أنَّ الأسقف طمأنه حول سلامة إيمان فرنسيس وإخوانه، وخضوعهم المُطلَق للسُّلطة الكنسيّة، وحينئذٍ خطر للكردينال أن يتحقّق من الأمر بنفسه، فاقترح استضافة فرنسيس وصحبه في منزله، كي يناقشهم نقاشًا مستفيضًا، ويراقبهم عن كثبٍ. وانتهت تلك المراقبة بإعجاب الكردينال بفرنسيس وأهدافه. وقد جهد، عبثًا، في حمله على الانضمام إلى إحدى الجمعيَّات الرهبانيَّة الكبرى القائمة، غير أنّ فرنسيس قد أوضح، في عنادٍ لا يلين، أنَّ تلك ليست دعوته، وأنّ دربه قد رسمه له المسيح نفسه، بجلاءٍ، فلا سبيل إلى اختيار نهجٍ آخر. وقد كان لصدق فرنسيس، وبساطته، وتجرُّده، وسلوكه القائم على إصلاح الذات وسيلةً إلى إصلاح الآخرين بالقدوة الحسنة، عِوَضًا عن مهاجمتهم وإذلالهم، ولخضوعه المُطْلَق للكنيسة، ولحرارة دفاعه عن الإنجيل، ما أقنع الكردينال بسلامة رسالته وتَمَيُّزها، فالتمس له مقابلةً مع الحبر الأعظم، بعد أن أسرَّ له: «لقد التقيتُ رجلاً يتميَّز بكمالٍ فائق السموّ، قرَّر العيش وفقًا لوصايا الإنجيل المقدَّس، والتقيُّد، في كلّ شيءٍ، بالمثال الإنجيليّ. وإنّني لمتيقِّنٌ، حقًّا، بأنَّ الربَّ يتوخّى استخدامه ليجدّد، به، في العالم أجمع، إيمان الكنيسة المقدّسة».

ويُروى أنّ البابا قد نَفَر من حقارة هندام فرنسيس، وبعد أن استمع إلى تلاوة النظام الذي جاءه به، لم يتمالك نفسه من مخاطبته قائلاً بازدراءٍ: «أيُّها الأخ، إنَّه لأَولى بك أن تمضي فترعى الخنازير، فأنت أشبه بها من البشر؛ والأجدر بك أن تتمرّغ في المزابل مثلها، وأن تعرض عليها نظامك، وتكون لها واعظًا...». فانحنى فرنسيس باحترامٍ، ثمّ هرول باحثًا عن أقرب قطيع خنازير، وتمرّغ معها بالوحل حتّى تلطّخ به من قمّة رأسه حتّى أخمص قدمَيْه، وقفل عائدًا بسرعة ليمثل، على هذه الحال، بين يدي خليفة بطرس، وقال له في احترامٍ جمٍّ: «ها قد قمتُ بما أمرتني به، فتكرَّم وهَبْني ما ألتمسه منك». وقد استولى على الحبر الأعظم الذهول حيالَ تلك البساطة وتلك الطاعة اللَّتين لم يشهد لهما مثيلاً، بل لم يتخيّل لهما مثيلاً ممكنًا؛ حينئذٍ، أمره الحبر الأعظم بالاغتسال والعودة إليه.

دير اللاتران، المقرّ البابويّ القديم

لم يكن فرنسيس لاهوتيًّا، ولا رجل قانونٍ، ومن ثَمّ لم يكن بوسعه الدفاع عن قضيّة الإنجيل والفقر المطلق، إلاّ بصفته صوفيًّا، لا سند له سوى المسيح، وبهلوانًا للّه يُنفِّذ بفرحٍ جميع أوامره.

وفي تلك الليلة، رأى البابا، في الحلم، نخلةً تنبت أمام قدميه، وتنمو، وتسمو، وتتعالى بتُؤَدةٍ حتّى تبلغ أجواز السماء؛ وأُوحي إليه أنّ تلك النخلة إنْ هي سوى ذلك المتسوّل ذي الزيّ البنّيّ المُغْبرّ، الذي احتقره وطرده. وفي الغداة أحسن وفادته، وجمع الكرادلة للتداول في شأن طلبه؛ وقد اتّسم موقف الكرادلة بالحيطة والتردّد، والخشية من قدرات الحقيقة الواردة من أسّيزي، ومن إمكانيّة تحوُّل ذلك الاندفاع الصوفيّ إلى بِدْعَةٍ ومروقٍ. غير أنَّ الكردينال جيوڤاني دي سان پاولو، الذي تبنّى الرسالة الفرنسيسكانيّة وأهدافها، عارضهم بجرأةٍ قائلاً: «لا يحقّ لنا منعهم من حقّ اتّباع الإنجيل، ولئن نحن ادَّعينا استحالة أهدافهم، فإنّما نحن، بذلك، نرفض الإنجيل نفسه، ونشتم المسيح». وحينئذٍ قال البابا لفرنسيس: «يا بُنيّ، اسأل المسيح أن يعلن لنا عن إرادته، كي أستطيع أن أُلبّي ما يسأله كرم نفسك».

وفي اللقاء التالي، عاد الكرادلة يُثيرون الأسئلة التي يمليها منطق الأرض والواقع اليوميّ:

– ما هي وسائل معيشتكم؟ وكيف ستتدبَّرون أمركم بلا مالٍ؟...

فردّ فرنسيس:

– إنّني إنّما أُوكل أمري إلى سيّدنا يسوع المسيح؛ فلئن هو تعهّد بمنحنا الحياة الأبديّة، فمن المُحقّق أنّه لن يحرمنا، عند الحاجة، ممّا يُوفِّر الأَوَد الضروريّ لحياتنا على هذه الأرض.

لا ريب أنّ صدق إيمان فرنسيس قد أخذ بمجامع قلب الحبر الأعظم الذي مضى، مع ذلك، في امتحانه، قائلاً:

– إنّ الإنسان، بفطرته، غير مستقرٍّ، ولا يبقى طويلاً على نفس الدروب. فامضِ واسأل الربّ أن يلهمك آراء أكثر واقعيّةً، وعندما ستتحقّق من صدق رغباتك، عُدْ إليَّ كي أُوافق على نظامك.

وانصرف فرنسيس، وصلّى، مع إخوته، في حرارةٍ بالغةٍ، وفي أثناء صلاته أوحى إليه الربّ مَثَلاً مُقنعًا، فهرع عائدًا إلى الحبر الأعظمِ، الذي، فيما كان متألّقًا بالذّهب والأرجوان، يرنو إلى الرجل الهزيل المرتدي ثيابًا رثّةً بلون التراب، راودته ذكرى رؤيا

حُلم البابا إنوشنتسيوس الثالث، وفيه رأى فرنسيس
يدعم كنيسة القدّيس يوحنّا المعمدان

كانت قد خطرت له قبل أيّامٍ معدوداتٍ، إذ رأى نفسه واقفًا على شرفة قصر اللاتران، المدعوّة شرفة المرآة، يتأمّل في الكاتدرائيَّة الكبرى «رأس كلّ الكنائس وأمّها» وفجأةً، استولى عليه الجَزَع، إذ رأى الصَّرح المهيب يترنَّح، والبرج السامق ينحني، والجدران تتقضقض، فما هي إلاّ دقائق حتّى تغدو كاتدرائيّة قسطنطين ركام أنقاضٍ مريعًا، فشلَّه الذعر، وبات عاجزًا عن أيّة حركةٍ، لا يقوى لا على نداء استغاثةٍ، ولا على ضمّ يدَيْه للصَّلاة، بل ينظر في ذهولٍ ورِعْدةٍ؛ وحينئذ انبرى، بغتةً، رجلٌ نحيلٌ، زريُّ الهندام، في ثياب فلاّح، حافي القدمين، وعلى حقوَيْه حزامٌ من حبلٍ غليظٍ. وكان ذلك الرجل المسكين يجري مباشرةً نحو الكنيسة الموشكة على الانهيار، وهو لا يلوي على شيءٍ آخر، ولا ينظر يمنةً ولا يسارًا، بل بادر وأسند بكتفه أحد الجدران الذي كاد يهوي عليه ويسحقه؛ ثُمَّ، فجأةً، وعلى نحوٍ غريب، غدا الرجل الهزيل في مثل ارتفاع الجدار ومناعته، ووضع كتفه عند حافّة السَّطح، وبحركةٍ جبَّارة، قوَّم انحناء الكنيسة المزعزعة، وأعادها أشدَّ ثباتًا من ذي قبل.

وتعرَّف البابا ذلك المُنقذ العجيب في فرنسيس الماثل أمامه، فأصغى في اهتمامٍ شديدٍ إليه، وهو يروي مَثَله:

«إنّ ملكًا مُفرط الثروة كان قد صادف في صحراء امرأةً بارعة الجمال، شديدة الفقر، وتزوَّجها، فأنجبت له أولادًا كُثُرًا. ولكنَّها آثرت البقاء في الصحراء. ولمّا كبر أولادها، أخذوا يشكون من انعدام مواردهم، فقالت لهم: «أنتم أبناء الملك، فامضوا إلى قصره، فيعطيكم كلّ ما تفتقرون إليه». فهرعوا إلى قصر الملك الذي دهش لدى رؤيته حسن جمالهم، فسألهم:

– من أنتم؟ ومن أين أتيتم؟

– نحن أبناء زوجتك الفقيرة المقيمة في الصحراء.

– لا تخشوا شيئًا، فأنتم أبنائي، ولئن كنت أُطعم على مائدتي من لا صلة لي بهم، فإنَّني، بالأحرى، سأُعنى بكم.

وأردف فرنسيس مُعلِّقًا:

– لا خوفَ، إذن، على أبناء الملك الأبديّ، وورثته، من أن ينفقوا جوعًا...

وكان لذلك المثل، وللهجة فرنسيس المضطرمة إيمانًا، أثرٌ بالغ في إقناع الحبر الأعظم،

الذي سُحِرَ بشخصيَّة فرنسيس الفذَّة، وأحبَّه محبَّةً خاصَّةً، وأذن له، وللّذين يُكلّفهم، بالتبشير بالتوبة، في كلّ مكانٍ، متجاوزًا، بذلك، صلاحيّات الأساقفة المحلّيّين. ثُمّ دعاه إلى العودة إليه، عندما يتكاثر عدد الإخوة كي يهبه المزيد. ولكي يسبغ على أخويّته طابعًا رسميًّا أمر بقصّ شعر رأسهم، قصَّةً مستديرة على شكل إكليل، علامةً على تكريسهم، ودعاهم إلى انتخاب فرنسيس رئيسًا عليهم، كما حثّه أن يكون لهم الراعي والدليل.

في طريق عودتهم إلى أسّيزي، كان الأحد عشر يرقصون جذلاً لما أحرزوه من نجاحٍ لدى رأس الكنيسة، في حين لم يشاطرهم فرنسيس مثل ذلك الاندفاع. فهو، في براءته الطفوليّة، كان يُدرك واقع الأمور في وضوح رؤية أبناء الله، وكان نهبًا لهواجس شتّى: فموافقة الحبر الأعظم كانت شفويّة فحَسْبُ، والكلمات تتطاير، كما يقول المثل الإيطاليّ، ولا سيّما وأنّ معظم الكرادلة كانوا غير راضين. ومن جهةٍ أُخرى، لقد دُفع به إلى تأسيس جمعيّةٍ، وهو لم يكن يلتمس سوى الإذن بالتبشير له ولإخوته، وكان يتوجّس خشيةً من إنشاء مؤسَّسةٍ قد تُفضي إلى خنق الرُّوح المتوثّب لدى الجماعة الصغيرة. فأخذ يُصلّي بحرارةٍ ملتمسًا أَزْر الربّ وعونه، وما عتَّم أن خيَّم على نفسه السلام، وتأكَّد له أنّ يد الربّ ما انفكّت تُمسك به وبإخوته برفقٍ، وتقودهم على دروب الإنجيل المستقيمة.

«ريفو تورتو»: الساقية الملتوية

اجتاز الإخوة الريف الرومانيّ، تحت أشعّة الشمس الحارقة، وهم متلفّعون بثياب الشعر الخشنة، حُفاةً، لا يحملون أيّ زادٍ يؤمّن قوت يومهم أو غدهم، إلاّ أنّهم ينشدون، ملءَ حناجرهم، فوق الطرقات الغبراء، مجد الله وجمال العالم. ونال منهم الإعياء، غير أنّ الآمال الزاهية التي كانت تداعب أذهانهم، وتُذكي الاندفاع في جوانحهم، في أعقاب تأييد رأس الكنيسة لأخويّتهم، قد ساعدهم على مواصلة السير حتّى سهلٍ مخضلّ، في ضواحي مدينة «أورتي». وكان لروعة المكان وقعٌ آسرٌ على تلك النفوس الفرنسيسكانيّة الوَلِعة بجمال الكون. فثمَّة شتّى أصناف الأزاهير البرّيّة، تُوشّي، بأصباغٍ متعدّدةٍ، الخضرة المتمايلة مع النسائم الرقيقة، وسط وسوسة الينابيع المنبثقة من قلب الصخور، والسواقي الهامسة بين الأعشاب. واستمرأ الإخوة الإقامة

في أحضان تلك الطبيعة الساجية، البعيدة عن ضجيج العالم، المنصرفة، في سكونٍ، إلى تسبيح الخالق. وكانت حصيلة الاستعطاء في مدينة أورتي، عمومًا، من الوفرة، بحيث تفيض عن حاجة الإخوة اليوميّة من الخبز الذي يتناولونه مبلّلاً بماء الينابيع الزلال. وإذ لم يكن يمرّ بالمكان أيّ فقيرٍ يقتسمون معه الخبز الفائض، كانوا يحتفظون به في قبرٍ قديمٍ للغد – وإن تعارض ذلك مع تعليمات فرنسيس – علَّهم يتفرّغون، أكثر، للصلاة والتأمّل، وتمجيد الربّ في خليقته.

ورُبّمَا جال في خاطر معظم الإخوة أن يتَّخذوا من ذلك السهل الرائع مقرًّا دائمًا لهم، ينصرفون فيه إلى حياةٍ نسكيَّةٍ هادئةٍ، بعيدةٍ عن العالم. وسرعان ما توجّس فرنسيس خطر وقوع الجماعة في ذلك الشِّرْك، وهي الجماعة التي أراد لها الربُّ المضيَّ إلى العالم للشَّهادة للإنجيل، فأمر صحبه بالرحيل، في الحال. ولئن شقَّ عليهم ذلك، إلاّ أنّ وجوده معهم كان يسهّل كلّ عسيرٍ.

وفي أثناء عودتهم إلى منطقة أسّيزي، تقاطعت مسيرتهم مع موكب أوثون الرابع، المتطلّع إلى عرش إمبراطوريَّة ألمانيا، وهو في طريقه إلى روما، للظَّفر بتكريس البابا، وقد تقاطرت الجماهير من مختلف المدن والقرى المجاورة لمشاهدة مظاهر الأبَّهة والفخامة التي اصطبغ بهذا الموكب الأمبراطوريّ. بيد أنّ فرنسيس وصحبه قد ظلُّوا في منأًى عن فضول الجماهير، لا تحرّكهم أيّة رغبةٍ في المشاركة بمهرجان العظمة الباطلة؛ وقد اكتفى فرنسيس بأن أنفذ إلى الرجل العظيم أحد إخوته ليبلّغه كلماتٍ بسيطةً، رهيبةً: «إنّ كلّ شيءٍ باطلٌ، وسرعان ما ستتبيّن، أنت، ذلك، بنفسك!».

رجلان اختارا طريقَيْن متعارضَيْن لغزو العالم. ولكن من ذا الذي ما زال يذكر اليوم أوثون الرابع؟

كان لا بدّ للإخوة من مقرٍّ يضمُّهم. وفزع فرنسيس إلى أسقف أسّيزي لهذا الغرض، بيد أنَّ الأسقف، رغم الأملاك الشاسعة التي كان يتصرَّف بها، ادّعى أن لا مكان لديه لإيواء فرنسيس وجماعته. واضطرّ الإخوة إلى اللجوء إلى زريبةٍ مهجورةٍ، متداعية، في مكانٍ يُدعى «ريڤو تورتو»، أي الساقية الملتوية، على مقربةٍ من مجرى سيلٍ. وريڤو تورتو هي مجموعةٌ من بيوت فلاّحين وضيعةٍ، مبعثرةٍ بين حقولٍ وبساتين عالقةٍ على أسفل جبل سوبازيو، وعلى جانبي دروبٍ ضيّقةٍ متعرّجةٍ بين كنيسة القدّيس داميانُس والسهل؛ وفيها بعض كهوفٍ طبيعيّةٍ كان الإخوة يحبّون الانزواء فيها للصلاة والتأمّل.

كانت الزريبة من الضيق بحيث لا تتّسع للإخوة إلاّ في كثيرٍ من الضنك، وبحيث اضطُرّ فرنسيس أن يكتب على كلّ عمودٍ من عمد السقف الخشبيّة اسم الأخ الذي كان عليه أن يرقد تحته.

في الصيف كان الإخوة ينصرفون إلى شتّى الأعمال في المشافي والحقول حتّى يتسنّى لهم الشهادة للإنجيل؛ ويزاول كلّ من يجيد مهنةً مهنته، فيوفّر للإخوة خبز يومهم، في حين توفّر لهم الساقية القريبة ماء شربهم واغتسالهم. أمّا إذا افتقروا إلى الخبز، فكانوا يقتصرون على اللفت والأعشاب التي يجود بها عليهم الفلاّحون.

وكان المارّة، ليلاً، يُنصتون، في خشوعٍ وإعجابٍ، إلى الصلوات الجَذْلى المتصاعدة من الزريبة العتيقة، ويشاهدون الإخوة، نهارًا، مبثوثين في كلّ مكانٍ؛ فهم، هنا، يُعنون بالبرص، وهناك، يساعدون الفلاّحين في الحرث والحصاد، ورغم فقرهم لا يتوانون عن تقديم الحسنة إلى كلّ سائلٍ، وإذا ما افتقروا إلى ما يهبونه، يجودون بقلنسواتهم، أو بكمٍّ من ثوبهم، أو بقطعةٍ يقتطعونها منه، لمساعدة فقيرٍ في إصلاح ثوبه المهترئ. أمّا المال فيتجنّبونه كالطاعون. وقد اتّفق، يومًا، أن ألقى أحد المحسنين، في مقرّهم، كيسًا يحتوي على مبلغٍ طائلٍ، ومضى، وإذ كان مارًّا، بعد أيّامٍ، على مقربةٍ من ذلك المكان، وجد ماله، كما هو، مرميًّا على مزبلةٍ، بجانب الطريق.

ولكنّ حياة الأخويّة، كانت تنقلب شديدة القسوة، في أيّام الشتاء الماطرة، حيث لا يجد الإخوة عملاً يوفّر لهم قوتهم، ويتعذّر عليهم السير بأقدامهم العارية، في الحمأة الكثيفة اللزجة؛ وتُمْسَك عنهم الحسنات، ويغرقهم المطر المنساب مدرارًا من شقوق سقف مأواهم، وينخر البرد عظامهم، إذ لا نار تدفئ أجسادهم المقرورة، في حين تُشيع العتمة الكآبةَ في صدورهم، كما يُشيع السأمَ في نفوسهم افتقارُهم إلى الكتب، وإلى أيّ شاغلٍ. ورُبَّمَا راود بعضَهم، حينئذٍ، ولو مدى لحظاتٍ، الندمُ على ما هجروه من نزلٍ وثيرٍ، وطعامٍ وفيرٍ، وحياةٍ رغيدةٍ، بل رُبَّمَا كادوا يضيقون ذَرْعًا بحياة التوبة والتقشّف، ويقفون على شفا اليأس.

في مثل تلك الأيّام القاتمة العصيبة، كان فرنسيس هو الذي يُبقي جذوة الإيمان والفرح والأمل متّقدة في قلوبهم، بفضل الصلاة، بحيث لم يُذكر سوى حالة تقاعسٍ واحدةٍ، في حين صمد الجميع، إلى أن انقلب الرأي العامّ المناهض لهم إلى مؤيّدٍ، وعمّ الإعجابُ بأُسلوب عيشهم المُشْبَع وَرَعًا وصدقًا.

ولا مراء أنّ إشعاع وجود فرنسيس كان هو روح الجماعة، وجوهرها، ونارها ونورها، فذلك الرجل الهزيل الجسم، الذي لا يبارحه المرض، يتدفّق فرحًا مُعْديًا، ويُشيع في ما حوله سلامًا نفسيًّا مذهلاً، ويربط بين جميع الإخوة بملاطِ محبّةٍ صافيةٍ غامرةٍ. لقد كان يهبهم كلّ كنوز قلبه بسخاءٍ، يهبَهم حبَّه الجمّ، ويهبهم الله.

وهو، في تعامله مع الإخوة كان يتميّز بشعورٍ مُرهَفٍ، ونظرةٍ ثاقبةٍ، يتيحان له استجلاء كوامن النفوس، وإسداء النُّصح والعون في الوقت الملائم، وعلى النَّحو المُجدي، ممّا ييسّر له إدارة الجماعة في حزمٍ، ولكن في منأًى عن أسلوب الأمر المتعالي. كمَا أنّ تعليمه كان يستمدّ جدواه من قُدوته وحبّه.

ومن المفيد إيراد بعض الأمثلة على تعامل فرنسيس مع إخوته، للتَّدليل على نمطه في إدارة «الأخويّة»، ورعايتها.

فهو، في مُستَهلّ عهد حياتهم المشتركة، توجّس لدى الإخوة الجدُد نفورًا من الاستعطاء، رغم اندفاعهم في العمل بوصاياه. فتولّى بنفسه الاستعطاء لإطعامهم؛ ولكنّهم، بعد أيّام معدوداتٍ، عندما تبيّن لهم أيّ عنتٍ كان يتحمّله في سبيلهم، من جرّاء المرض الذي كان يهدّه، وقواه الخائرة، خجلوا من تقاعسهم، وتلقّنوا منه فنّ الاستعطاء، ومضوا يستعطون، بدورهم. وسُرعان ما حلّ لديهم، محلّ الكبرياء التي كُبِحَتْ، فرحٌ طفوليٌّ متدفّقٌ، وبات كلٌّ منهم، في أعقاب كلّ جولةٍ، يروي في غمرةٍ من الضحك الغامر، تفاصيل عن مغامراته في مضمار التسوّل.

وكان حريصًا على أن يُرسّخ فيهم روح الفقر المُطلق. ولمّا اتَّفق له، يومًا، أن قابل فقيرًا أشدَّ تجرُّدًا منه عن كلّ شيءٍ، تولاّه حزنٌ عميقٌ، وشيءٌ من الغيرة، فجمع الإخوة، وقال لهم في أسًى: «يزعم الناس أنّنا، محبّةً بالمسيح، أفقر الفقراء، وها قد أثبت لنا هذا المسكين بطلان هذا الزعم».

وعندما كان يُحذّرهم من الاستسلام لملذّات الطعام، لم يكن من العسير عليهم فهم مرماه، والعمل به، إذ طالَما شهدوه يذرّ الرماد على ما يستسيغه من طعامٍ، أو يسكب فوقه ماءً باردًا كي يُفقده نكهته؛ ويُروى أنَّ الأخ بوناپرت، الطاهي، قد أعرب مرارًا عن استيائه من سلوك فرنسيس ذاك، قائلاً: «كيف لا أستاء، وأنا أراك تُفسد أطعمةً طالَما جهدتُ في جعلها عذبةً لمذاقك؟» وكان فرنسيس يبيّن له، في عذوبةٍ متناهيةٍ:

«أخي بونابرت، بِمَا أنّنا قد تصرَّفنا، كلانا، عن نيّةٍ سليمةٍ، أنا بفعلي ما فعلتُ، وأنت بذلك أحسن جهدٍ في طهوك، فلا ريب أنّ الربّ سيُثيب كلاًّ منّا على فعلته».

وعندما كان يهيب بهم إلى التيقُّظ، ومكافحة أوهان الجسد، كان من اليسير عليهم إدراك ما يعنيه، وهم يعاينونه يغطس، شتاءً، في ماء السيل الجليديّ، كي يطرد عنه تجارب التواني، ويصارع ميله الفطريّ إلى رغد العيش. إلاّ أنّه كان حريصًا على ألاَّ يدعهم يُغالون في تعذيب الذات، مبيِّنًا لهم أنَّ للجسد حقًّا في الطَّعام والنَّوم، كي يستطيع الاضطلاع بِمَا يطلبونه منه، وإنّمَا عليهم لجمه وتأديبه، إذا ما هو، بعد أن نال الضروريّ، جَنَحَ إلى الخمول أو الجموح، ويضيف: «في مثل هذه الحال، مثل الحمار الذي ظفر بطعامٍ كافٍ، ولكنّه رفض النهوض بالحمل الملقى على ظهره، يتعيّن معالجته بالعصا».

وكان حبُّه الجمّ، المتبصّر، المتفهّم، يساعده على غزو أفئدة الجميع.

وقد أثبت ذلك عندما أيقظ أحد الإخوة رفاقه من نومهم بصياحه اليائس: «إنّني أموت، إنّني أموت، إنّني أموت». فهبّ فرنسيس، وقال: «لننهض جميعنا، ولنشعل السراج». وبعد أن استدلّ إلى ذلك الذي أطلق تلك الصيحة اليائسة، سأله: «ما الذي تفتقر إليه، أخي العزيز، فجعلك تتكلّم عن الموت؟» فأجاب الأخ: «إنّني أموت جوعًا». وفي الحال عمد فرنسيس إلى بسط مائدة طعامٍ، ولكي يوفّر الحرج على الأخ الجائع قاسمه الطعام، ودعا الجميع إلى مشاركتهما، ثمّ قال لهم: «إخوتي الأعزّاء، على كلٍّ منكم أن يسلك وفقًا لطاقاته الطبيعيّة، فمنكم من يستطيعون الصمود بقدرٍ من الطعام أضأل من سواهم؛ وبالتّالي، فعلى من يحتاج إلى قسطٍ أوفى من الطعام ألاّ يشعر أنّه مرغمٌ على تقليد من لا حاجة بهم سوى إلى اليسير منه؛ بل على كلٍّ منكم أن يعطي جسده حاجته، لكي يجد فيه خادمًا قادرًا على تلبيته. ومع أنَّه يتوجَّب علينا الحذر من الإفراط في الطعام، الذي لا يقلّ ضررًا بالجسد عن ضرره بالنفس، إلاّ أنّه يتحتّم علينا ألاّ نُفرط في التقشُّف، ولا سيّما وأنَّ الربَّ يطلب منّا التوبة، لا التَّضحية».

وذات مرّةٍ، نهض فرنسيس باكرًا، واصطحب معه أخًا مريضًا إلى كرمٍ، إذ كان متيقِّنًا أنَه سيتحسّن حالاً، إن هو تناول، في الصباح، عنقودًا أو عنقودَيْن من العنب، ولكيلا يُحرجه، جلس القرفصاء إلى جانبه، وشاركه تناول بعض العنب، وقد ظلّ ذلك الأخ، حتّى وفاته، كلّمَا روى لرفاقه تلك الحادثة، متذكّرًا ما برهن له عنه فرنسيس من عطفٍ ورقّةٍ، تنهمر الدموع من عينيه.

ومرَّةً أُخرى كان على سفَرٍ مع الأخ ليون الذي خارت قواه، فجأةً، وكان إلى جانب الطريق كرمُ عنبٍ، فانسلّ إليه فرنسيس، واقتطف منه عناقيد أعادت للأخ ليون نشاطه؛ ولكن ما لبث أن انقضّ صاحب الكرم على السارق فأوسعه بعصاه ضربًا. وكانت تلك مناسبةً طيّبةً كي يشكر فرنسيس للربّ امتحانه له. ولشدّة فرحه ظلّ، طوال الطريق، يُمازح الأخ ليون منشدًا ومكرّرًا:

الأخ ليون أكل ما لذّ وطابْ

وفرنسيس هو الذي أدّى الحسابْ

الأخ ليون تمتّعْ

وفرنسيس هو الذي توجَّعْ

أخٌ جديدٌ آخر كان يرى في رضى فرنسيس عنه رضى الربّ نفسه؛ ولكن، منذ انضمامه إلى الأخويّة، خُيّل إليه، خطأً، أنّ فرنسيس كان يُعبّر للجميع، سواه، عن عطفه ومحبّته. ومن جرّاء هذا التخيُّل، بات يُفسّر كلّ بادرةٍ من فرنسيس على أنّها نفورٌ منه؛ فإذا ما توافق دخوله إلى مكانٍ ما مع خروج فرنسيس منه، عدّ ذلك تحاشيًا عن الإقامة معه في مكانٍ واحدٍ؛ وإذا ما تكلّم فرنسيس مع بعض الإخوة، ثمّ اتَّجهت أبصار هؤلاء، عن غير قصدٍ، صوبَه، بدا له أنّهم نادمون على انضمامه إليهم، وراغبون في الخلاص منه؛ وانتهت تلك التخيّلات الباطلة بإقناع الأخ المسكين أنّه ممقوتٌ من فرنسيس، ومرذولٌ من الله، ممّا دفع به إلى شفا اليأس. وتحسّس فرنسيس، من مطالعة وجهه المتجهّم، وعينَيْه المتوسّلتَيْن، ما كان ينخره من أسًى، فاستدعاه، وقال له: «يا بُنيّ الحبيب، لا تَدَع الأفكار القاتمة تستولي عليك، وترهقك. فأنت ابنٌ طيّبٌ، وغالٍ على قلبي، بل واحدٌ ممّن يحتلّون، في فؤادي، مكانًا أثيرًا، وإنّني متيقّنٌ أنّك جديرٌ بثقتي، جدارتك بحبّي. فتعالَ إليَّ، وتحدّث معي، كلّما رغبتَ في ذلك، وكلّما أثقل صدرك أيّ عبءٍ. وأهلاً بك دائمًا».

واستطار الأخ الشابّ الفرح، فجرى، وقلبه يخفق بعنفٍ، ودموع الغبطة تحرق مآقيه، لا يلوي على شيءٍ، حتّى بلغ الغابة، فارتمى جاثيًا، شاكرًا للربّ ما منّ به عليه من سعادةٍ تندّ عن الوصف.

وحبُّ فرنسيس للإخوة علّمهم أن يُحبّ بعضُهم بعضًا في إيثارٍ ولهفةٍ. ويُروى، دلالةً

على تلك المحبّة الرائعة، أنّ اثنَيْن منهم كانا في طريقٍ، فهاجمهما مجنونٌ، وراح يقذفهما بالحجارة، فأخذ كلٌّ منهما يسارع إلى الوقوف خلف الآخر، كي يقيه بجسمه من القذائف.

وكان من المألوف، إذا ما أهان أحدهم أخاه، بكلمةٍ نابيةٍ، سهوًا أو عن نفاد صبرٍ، ألاّ يقرّ له قرارٌ حتّى يصالح أخاه، وحتّى يرضى المُهان أن يدوس بقدمه الفم الذي انطلقت منه ألفاظٌ خاليةٌ من المحبّة؛ وإذا ما تمنّع، كان المذنب يلتمس من الرئيس أن يأمر المُهان أن يفعل ذلك بأمر الطاعة.

ولم يكن الإخوة يتبادلون أيّ حديثٍ نافلٍ، أو غير لائقٍ، وإن هم صادفوا، في دربهم، امرأةً، أغضوا الطرف، وارتقوا بقلوبهم إلى السماء.

أمّا فراغهم فكانوا يملأونه بالصلاة؛ وذات يومٍ سألوا فرنسيس، على نحو ما سأل التلاميذ يسوع: «علّمنا الصلاة»، فلم يجد خيرًا ممّا علّم يسوع تلاميذه، ودعاهم إلى تلاوة «أبانا الذي في السماوات»، بتمعّنٍ شديدٍ، ومن أعماق قلوبهم؛ وكان فرح الإخوة بذلك من الدّفق، بحيث باتوا يرتّلون تلك الصلاة، ترتيلاً ينمّ عن سرورٍ فائضٍ.

حبَّة الخردل تصبح شجرةً

تلك السّعادة الغامرة، في قلب الفقر المدقع، وذلك الفرح الذي يُعبّر عنه الإخوة بالغناء الطَّرِب، وتلك المحبّة الفريدة التي تجعل منهم جسدًا واحدًا، كانت، جميعها، تبدو لُغْزًا يستفزُّ التساؤل ويجتذب الأتباع باطّراد، ويحقّق تحوّلاتٍ مدهشةً في شتّى طبقات الشعب، من أثرياء، ومثقّفين، وفقراء، ومحرومين وأُمِّيّين على السواء. وكان عدد أعضاء الأخويَّة لا يني يتضخّم، مع أنّ المنضمّين الجدُد إليها يدركون إدراكًا واعيًا أيّ مصيرٍ يواجهون وكلّ ما يُقتضى منهم من عزوفٍ لا عن مُتَع العيش، والحياة الوثيرة فحَسْبُ، بل عن قسطٍ وافرٍ من الاحتياجات الأساسيَّة، كالطَّعام والنَّوم، واللِّباس، التي يقتصرون منها على الزهيد الزريّ؛ كما كانوا يعون ما يلتزمون به من كبحٍ لشهوات الجسد، ومعاناةٍ للبرد والحرمان، وسهرٍ، وصلاةٍ بلا انقطاع، كلّ ذلك ثمنًا للسعادة الفريدة، العميقة الجذور، التي ينعم بها فقراء فرنسيس؛ إلاَّ أنَّ ذلك الثَّمن كان يبدو بَخْسًا مقابل ما يتمتّع به الفرنسيسكانيّون من حرِّيَّة أبناء اللّه الرائعة، التي لا يصيبها

سوى أولئك الذين غدا العالم عاجزًا عن استهوائهم، ومن رشاقةٍ هيوليّةٍ يتميّز بها أولئك الذين أفلحوا في التخلّي عن كلّ أرضيٍّ.

في مقابل ذلك كان، لا ريب، صلب الجسد، وما ينشأ عنه من آلامٍ. غير أنَّ فرنسيس، بفضل التنكُّب عن الشهوات، استطاع إقامة علاقات سلامٍ مع الجسد المروَّض الذي استغنى عن كلّ مطلبٍ خاصٍّ، فبات بإمكانه أن يدعوه «أخانا الجسد»، وبالتّالي، استبعد واستنكر أساليب الجلد وتعذيب الذات التي يلجأ إليها بعض النُّسّاك، والتي لم تعد إليها حاجة، بعد أن عنا الجسد لمطالب الروح، وأسلس لها القياد.

وضاق كوخ ريڤو تورتو بساكنيه، إلاّ أنّ الإخوة كانوا ينعمون بأوقاتٍ فريدةٍ في صفائها وسموّها، ويُخيّل إليهم، معها، أنَّ بيتهم الضنك ذاك قد غدا زاويةً من السماء؛ لطالَما وصفه فرنسيس، مَرِحًا، بقوله إنَّه، كمركز انطلاقٍ إلى السماء، أفضل من جميع القصور. إلاّ أنَّهم قد اضطرّوا إلى مبارحته، وفي حلوقهم غصَّةٌ، عندما داهمهم فلاّحٌ فظٌّ، دافعًا أمامه حماره، وقائلاً له: «هيّا يا صديقي، ادخلْ، ولنجعلْ من هذا المكان مقرًّا لنا».

واتَّضح لفرنسيس أنّ العناية الإلهيَّة هي التي دفعت بذلك الفلاّح وحماره إلى طردهم، كي يَجِدُّوا في البحث عن مكانٍ آخر يوفّر الحدّ الأدنى من الراحة، ويتّسع للقادمين الجُدُد. ولجأ فرنسيس إلى البندكتيّين، الذين كان رئيسهم يُجلّه، ويتوسّم فيه خيرًا جمًّا للكنيسة، والذي تنازل له، بطيب خاطرٍ، عن كنيسة البورتسيونكولا (PORZIUNCOLA) المعروفة بكنيسة القدّيسة مريم سيِّدة الملائكة، وعن حقلٍ صغيرٍ محاذٍ لها، تنازُلاً نهائيًّا، بلا مقابلٍ؛ ولكنَّه شرط أن يظلّ ذلك المكان المقرَّ الرئيسيّ للأخويّة الفرنسيسكانيّة الناشئة، والنواةَ التي منها ستنبثق شجرتها الباسقة.

والبورتسيونكولا، اليوم، لا تحتلّ سوى زاويةٍ صغيرةٍ خلف هيكل كاتدرائيّة القدّيسة مريم سيّدة الملائكة، التي تغصّ، كلّ يومٍ من أيَّام السنة، بأُلوف المُصلّين والحجّاج، والتي غالبًا ما تحتضن لقاءات جماعاتٍ من مختلف الأديان والجنسيَّات تحدوهم الرغبة في إقرار السلام في العالم.

وفقًا لمعاييرنا، اليوم، لا يمكن اعتبار البورتسيونكولا كنيسةً، بل هي، بالأحرى، مُصلًّى صغيرٌ لا يتعدّى سبعة أمتارٍ طولاً، ونحو أربعة أمتارٍ عرضًا، معقود السقف؛ وقد اتّشحت جدرانه بقتام الدخان الذي كانت تنفثه سُرُج فرنسيس وإخوانه، الذين طالَما

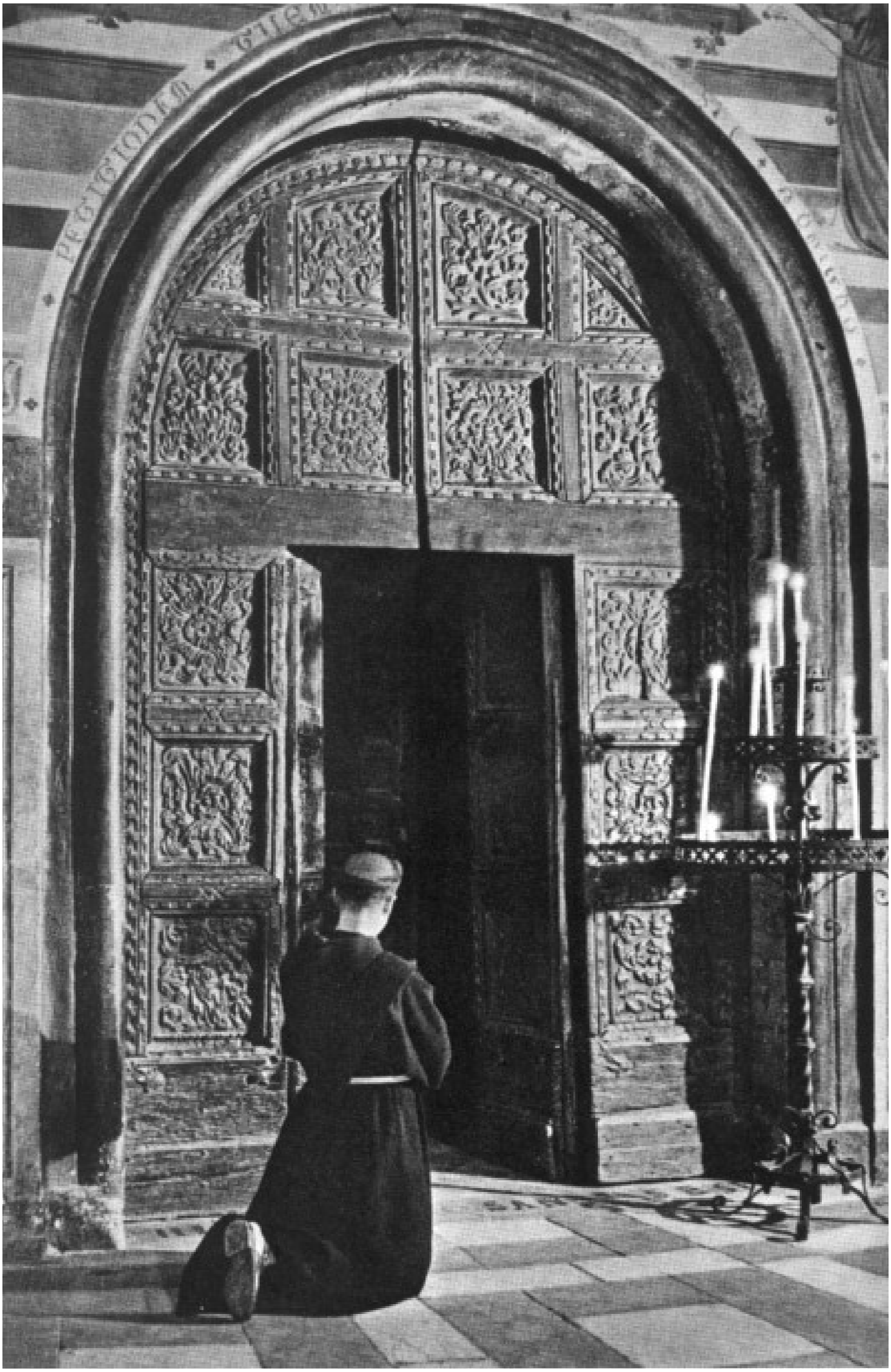

مدخل كنيسة البورتسيونكولا

قضوا الليالي الطوال، على حجار أرضه، متهجّدين، متعبّدين. ويغمر المكان جوٌّ من العتمة الرقيقة الخاشعة، من جرَّاء افتقاره إلى أيّ نافذةٍ أو مسرب نور، خلا بابه الضيّق الواطئ؛ ويهيمن على الداخل إليه شعورٌ من الوَجَل والوَرَع، فكأنَّه يلمس أنّ وجود فرنسيس وإخوانه لا يزال يُفعم ذلك الحيّز الضيّق، أو كأنَّه يراهم أمامه جاثين مستغرقين في تعبّدهم، فيخشى تعكير تقواهم.

كان فرح فرنسيس بتلك الهديّة السماويّة لا يوصف؛ فهو كان قد رمَّم بنفسه تلك الكنيسة الصغيرة، وفيها استقبل تلاميذه الأوائل؛ أمّا الحقل المحيق بها، فكان يغفو في ظلال غابةٍ طالَمَا شهدت خطواته الأولى على دروب الربّ، كمَا شهدت دموع توبته، وفرحه، وتحفُّزه لغزو العالم بإنجيل يسوع. إلاّ أنّه أبى أن يغدو ذلك المكان ملكًا لأخويَّته، التي ترفض، مبدئيًّا، كلّ تملُّكٍ؛ ومن ثَمَّ فقد أبرم مع البندكتيّين اتّفاقًا يقضي بأن يظلّ الفرنسيسكانيُّون يؤَدُّون لهم عنه إيجارًا رمزيًّا، على أن يكون ذلك الإيجار سَلَّةً من صغار السمك النهريّ، كلّ سنةٍ؛ وقد أبى البندكتيُّون بدورهم، إلاّ أن يقدّموا، بالمقابل، للإخوة، الأصاغر، جرَّة زيتٍ سنويًّا، بمثابة مخالصةٍ وإبراءٍ.

واليوم، بعد انقضاء ثمانية قرونٍ، ما انفكّ ذلك الحَدَب الذي أحاطت به جمعيَّةٌ رهبانيَّةٌ راسخة الجذور، جمعيَّةً أُخرى وليدةً، يستدرُّ دموع التأثُّر والفخر.

كان فرح فرنسيس بالعودة إلى مرابع هدايته، ومهد أخويّته، عارمًا، فيَّاضًا. وكانت الأحلام تتراقص في ذهنه، والجذل يجعله يتوثَّب، ويطفر، وهو يرسم لإخوانه الصورة التي يتخيّلها للمقرّ المقبل للأخويّة. وكان اندفاعه يتفشّى، ويغزو إخوانه الذين هبُّوا لتحقيق تلك الأحلام، في حماسٍ ملتهبٍ، على إيقاع الأناشيد والتراتيل؛ وما هي إلاّ أيَّامٌ معدوداتٌ حتّى انتصب، وسطَ الحقل الملحق بالكنيسة، كوخٌ كبيرٌ جماعيٌّ، تحت أشجار السنديان الدهريّة، ومن حوله ابتنى كلّ أخٍ له خصًّا صغيرًا، انتقى مكانه بنفسه، في الموقع الذي يروق له، ليكون له صومعةً خاصّةً، حيث الفراش كيس قشٍّ، فيمَا الأرض الصُّلبة العارية تقوم مقام المنضدة والمقاعد.

وأُقيم حول المكان كلِّه سياجٌ من أخشابٍ وأغصانٍ يابسةٍ، بمثابة حصنٍ للدير. ويا له من ديرٍ وضيعٍ، وجد فيه الفقر منزلاً لائقًا، ووجد الفرنسيسكانيُّون الأوائلُ المقرَّ الأمثل الذي لم يحلموا بأفضل منه، وفيه عاشوا أروع مُثُل الإيمان المسيحيّ، عاشوا الإنجيل بكلّ صفائه، مع يسوع!

وعندما فرغوا من ذلك البناء المتواضع الذي كان يساوي، لديهم، أفخم القصور احتفلوا بالحدث، فبارك فرنسيس الكوخ الجماعيّ، وجميع الصوامع، وأقيمت مأدبةٌ كبرى تناول فيها الإخوة الخبز مغمَّسًا بالزَّيت الصافي الذي تكرَّم عليهم به إخوتهم البندكتيّون، ثمَّ أنشد كلٌّ منهم مزمورًا أو ترتيلةً، وأخيرًا أنشد فرنسيس نشيد الفقر، وهو واقفٌ، احترامًا للفقر الذي كان يعتبره سيّدة كلّ فارسٍ من فرسانه.

أمّا الحياة في اليورتسينكولا، فكانت مزيجًا من صلاةٍ، وتأمّلٍ، وعملٍ يدويٍّ، ووعظٍ، يغمر كلَّ ذلك فرحٌ عارمٌ، نابعٌ من الفقر الطوعيّ، ومن محبَّةٍ متبادَلةٍ صافيةٍ، ومن وجود فرنسيس الذي يُسبغ على تلك الأخويّة الأولى جوًّا من سعادةٍ تبدو، حيالها، كلُّ حياةٍ رغيدةٍ، هزيلةً وزريّةً. ففي أجواء الصلاة والتقشُّف والفقر، نَعِم الفرنسيسكانيُّون الأوائل بجَذَلٍ فذٍّ قلَّما عرفت مثله أيَّة جماعةٍ أخرى؛ وآنس أولئك الذين تخلّوا، طوعًا، وفي اغتباطٍ، عن كلّ امتلاكٍ دنيويٍّ، تخلّيهم عن أقذارٍ مقزِّزةٍ، طمأنينة الارتماء في أحضان الربّ.

كان فرنسيس يُرشدهم إلى السبيل الذي عليهم انتهاجه، وفي نبرة صوته كانوا يستشفُّون صوت يسوع نفسه؛ وقد بيَّن لهم أنّهم مُنتَدَبون لخلاص نفوسٍ كثيرةٍ، وأنّهم، بعد أن تحرَّروا من كلّ قيدٍ أرضيٍّ، عليهم أن يتفرَّغوا للكرازة، مستعطين خبزهم، أو مكتسبين إيّاه بعرق جبينهم؛ فانطلقوا يبشِّرون في اندفاعٍ، ماضين، غالبًا، اثنين اثنين، مواجهين، بفرحٍ وثبات جأشٍ، السخريّة والشتائم تارةً، أو الإقبال الجَذِل على سماع كلمة الربّ، تارةً أخرى. وفي المساء كانوا يلتقون، في مثل فرحة الأطفال، إذ كانوا يحبُّ بعضُهم بعضًا حبًّا لا يوصف، على حدّ قول رواة سيرتهم. وكان الضحك البريء طاغيًا على اجتماعهم؛ ولا غروَ في ذلك، ففرنسيس يرى أنّ الكآبة من صنع إبليس، وهو قد تميّز عن سواه باكتشافه الفرح مع الإنجيل، والنَّشيد مع الفقر الإنجيليّ؛ وكثيرًا ما شاهده الإخوة يلتقط من الأرض خشبةً، فيسندها على ذراعه اليُسرى، ويحكُّها بقضيب، كأنَّه يعزف على كمانٍ، وهو ينشد طربًا، وقد استحوذت عليه نشوةٌ سماويَّةٌ، داعيًا الخليقة كلَّها إلى مشاركته تسبيح الربّ.

كان فرنسيس، آنذاك، قد غدا معتلّ الصحّة، يعاني من سلٍّ في العظام، ومن الملاريا، فضلاً عن إغراقه في التقشُّف، وعن الأصوام الطويلة الشاقّة التي أَلِف ممارستها، والتي هدَّت جسمه، ومع ذلك كان يشعّ أبدًا بفَرَحٍ عميقٍ، ساجٍ، نابعٍ من

أعماقه حيث سَكَنَ الربّ. ولا ريب أنّ السَّماء كانت تَهبُه قدرةً خارقةً على مواصلة مهامّه الجسيمة، رغم قواه الخائرة، وأنَّ الهواء الطَّلْق المُشْبَع بعبق الصنوبر كان يرفده بشيءٍ من المنعة؛ ومع ذلك فتلك الحياة الخصبة، الجيَّاشة، الشاقَّة، والدافقة سعادةً، في آنٍ معًا، تبدو معجزةً حقًّا.

مُجرَّد وجوده كان يجعل إخوته قدّيسين، من غير أن يسلبهم خصائصهم الشخصيَّة؛ فاتَّسمت حياتهم بقداسةٍ مُدهشةٍ، وبساطةٍ متناهيةٍ، واتَّصفت نفوسهم بشفافيّةٍ بلّوريَّةٍ، لا يعكّر نقاءَها أيُّ كَدَرٍ.

كان عدد الفرنسيسكانيّين لا يني يتزايد، وقد بلغ، في عام ١٢١١، نحو أربعين، أتوا من شتّى المنابت والطبقات: من المدن ومن الحقول، من سواد الشعب ومن النبلاء، من الجامعة، ومن البورجوازيّة الثريَّة، ومن الإكليروس. وكلٌّ منهم قد تخلّى عن امتلاكٍ عزيزٍ، ليعيش على غرار فرنسيس؛ فهذا قد تجرَّد من ثروةٍ وقصرٍ فاخرٍ، وذاك من حقلٍ وثَوْرٍ، وآخر من عِلْمٍ وشهادةٍ جامعيَّةٍ، وآخر من مركزٍ مرموقٍ ونفوذٍ؛ وعليهم جميعًا أسبغ فرنسيس بساطتَه وفرحَه اللَّذَيْن باتا طابعهم المشترك.

إلاَّ أنَّ كلاًّ منهم احتفظ بأُسلوبه الخاصّ في ممارسة الحياة الفرنسيسكانيّة وفي الإسهام في شؤون الأخويّة. فموريكو، مثلاً، كان حطّابًا، وإيجيديو صانع سلالٍ، وأنجيلو صيّاد سمكٍ يستبدل حصيلة صيده بالخبز والزيت لإطعام إخوته؛ في حين كان «الطويل» يساعد الفلاّحين في الحصاد، ويعود كلَّ يومٍ بشيءٍ من الحَبّ يطحنه كابيلا ويخبزه؛ أمّا ساباتينو فكان يعمل كرّامًا، وفرنسيس، أيضًا، كان يساعد الفلاَّحين في القطاف، وفي أيّ عملٍ يدويٍّ آخر؛ وإلى جانب ذلك كلّه، بل في أثناء ذلك، كانوا لا ينفكُّون يبذرون كلمة الربّ، ويُزْجون ما تبقّى لهم من فراغٍ في كنف الغابة، يُصلّون، ويحادثون الله، في فرحٍ ومرحٍ نادرَيْن.

كان فرنسيس، أبدًا، هو نبراسهم، وقدوتهم، وسندهم، وعامل ثباتهم. فهو لهم بمثابة الأب والأمّ، والمعلّم، والنجيّ، يقرأ كوامن قلوبهم، ويلبّي نزواتهم، طالما هي لا تمسّ نفوسهم بأذى، ويفعم نفوسهم بالسَّعادة، وهو يكلّمهم عن الحنين إلى السماء، ويستدرّ دموعهم الصادقة، وهو يحدّثهم عن آلام يسوع، وكأنّه يعيشها بكلّ جوانحه. وكثيرًا ما كان يصوم، كي يظلّ الفرح مرافقًا لفقرهم، وتجرّدهم؛ ويحاول بعضهم، خلسةً، تقليده في صيامه.

وفي تلك الأثناء، أهدى البندكتيُّون، أيضًا، إلى الأخويَّة الفرنسيسكانيّة الناشئة ما يدعى «المحابس» (CARCERI)، وهو مَنْسِكٌ مبنيٌّ في أعلى جبل سوبازيو، يتألّف من صوامع ضنكةٍ، محفورةٍ في الصخر، على مستوياتٍ متفاوتةٍ عُلُوًّا وانخفاضًا، ومُتَّصلةٍ فيمَا بينها بدهاليز شديدة الضيق والانخفاض، لا تني تصعد وتهبط، يُصار إليها عبر منافذ، تقوم مقام أبواب، ولكن لا يمكن اجتيازها إلاَّ بطأطأة الرأس، وإحناء الظهر إحناءً شديدًا؛ ويعجب زائر تلك الصوامع، اليوم، كيف استطاع أولئك الرهبان قضاء الساعات الطوال، في أماكن على ذلك القدر من الضنك، والحيِّز الضئيل.

وثمَّة صومعةٌ مدعوَّةٌ «مغارة القدّيس فرنسيس». ومع أنّ هذا الأخير كان نحيل الجسم، ضئيله، إلاَّ أنَّه يتعذّر تخيُّله وهو يتحرّك في تلك الزنزانة المفرطة الضيق. ولا ريب أنَّه كان يُزجي، ثمَّة، ساعاتٍ طويلةً، جاثيًا، ثابتًا لا يتحرّك، مستغرقًا في صلاةٍ حميمةٍ، يسرح، على جناحيها، في أرحب السماوات، فلا يحسّ بضيق المكان، ولا يأبه له.

ولكن ما إنْ يخرج الزائر من تلك «المحابس»، حتّى تستولي عليه روعة فسحة الجبل المهيب الذي يحضنها في صدره، حيث الأشجار الدهريّة الباسقة، والحراج الكثيفة الظليلة، والصمت الرهيب المهيمن الذي يجعل همس الربّ جليًّا نفَّاذًا، والذي لا يقطعه سوى زقزقة العصافير، وأناشيد الطيور، داعيةً الخلائق كلّها إلى تمجيد الخالق وتسبيحه.

إلى تلك «السجون» كان الإخوة يفزعون للتأمّل، وقد تحرّرت نفوسهم، في الصَّمت الداخليّ المطلق، الموصد دون كلّ ما يشرد بالذهن، وما تراه العين أو تسمعه الأذن، أو تستشعره الحواسّ. وفي ذلك العري الفكريّ والشعوريّ التامّ، كانت تتسامى أرواحهم، طليقةً، نحو خالقها، لتغوص فيه، وبصلواتها الحارَّة تسهم في خلاص نفوسٍ كثيرةٍ. وقد اختار بعض الإخوة تلك الحياة النسكيَّة، ولا سيَّمَا الكاهن سيلڤستر الذي جنح إلى الاعتكاف للتعبّد، والذي عُهِد عنه أنّه بات يكلّم الله في بساطةٍ وعفويّةٍ، على نحو ما يكلّم الصديق صديقه؛ وبرناردو الذي كان ينزوي في أحد المحابس أيّامًا عديدةً متَّصلةً قد تبلغ شهرًا كاملاً، مُستغرِقًا في التأمّل، بحيث لا يسمع حتّى نداء فرنسيس له.

ولشدَّة محبّته للإخوة، غالبًا ما أُعطي فرنسيس أن يستكشف مستقبلهم، ويستشفّ مكنونات قلوبهم. والشواهد على ذلك وفيرةٌ، نجتزئ، فيمَا يلي، بنماذجَ منها.

فهو قد شَخَصَ، يومًا، إلى مدينة بولونيا واعظًا، فتقاطرت الجماهير لسماعه، واشتدّ الزحام، حتّى شقّ عليه الوصول إلى ساحة المدينة. وهناك ارتقى منهل الماء الذي يتوسّط الساحة، وراح ينشر العِبَر السامية التي كان يُلهمه إيّاها الروح القدس على مسامع الرجال والنساء والطلاّب المحتشدين، والذين خُيِّل إليهم أنَّهم إنَّما كانوا يستمعون إلى ملاكٍ، لا إلى إنسانٍ. وكانت كلماته تُحاكي سهامًا سماويَّةً تنفذ إلى أغوار القلوب، بحيث ارتدّ كثيرون من الحضور إلى سُبُل التوبة.

وكان، في الحضور، طالبان من أُسرتَيْن نبيلتَيْن، يدعى أحدهما پيلّيكرينو (الحاجّ)، والآخر ريكاردو؛ وقد مسَّتهما النِّعمة الإلٰهيَّة، فجاءا فرنسيس معلنَيْن عن عزمهما هجر العالم، والانضواء إلى الأخويّة فاستقبلهما بجَذَلٍ، وأنبأهما قائلاً: «أنت، يا پيلّيكرينو، ستنهج دروب التواضع؛ أمّا أنت، يا ريكاردو، فستصبح خادمًا (أي رئيسًا) للإخوة الصغار».

وهكذا كان، فپيلّيكرينو، رغم واسع علمه، وطول باعه في أمور الدين، قد أبى أبدًا أن يُكرَّم برتبة الكهنوت؛ وقد ارتقى، بتواضعه، إلى أسمى مراتب الفضيلة، بحيث عدَّه الأخ برناردو، ابن فرنسيس البكر، أكثر الإخوة كمالاً على الإطلاق؛ وقد اجترح العديد من الخوارق، في أثناء حياته، وفي أعقاب مماته.

أمَّا ريكاردو، فقد خَدَم الإخوة الصغار، بإخلاصٍ وقداسةٍ، على نحو ما أُوصي؛ وكان على علاقةٍ حميمةٍ بفرنسيس الذي كان يوضح له عمق الحقائق الخالدة. وعندما أصبح رئيسًا لأخويّة أنكونا، أدارها بحِذْقٍ ونجاحٍ. غير أنَّ الربّ امتحنه، مرَّةً، بتجربةٍ قاسيةٍ، حاول مقاومتها بالإماتات، والأصوام، والتقشُّف، والدموع، والصَّلوات المتَّصلة ليلَ نهار، من غير أن يفلح في الانعتاق من ربقتها، حتّى خيّل إليه أنّ الربّ قد تخلّى عنه. وحينئذٍ قرَّر الاستغاثة بفرنسيس، وقد قال في دخيلة نفسه: «إن هو استقبلني بمحبّةٍ، فلن أفقد الأمل في رحمة الله، وإلاّ فمصيري الجحيم، لا محالة». وفي الحال يمَّم شطرَ أسّيزي، حيث كان فرنسيس الذي اشتدَّ به المرض، يرقد في دار الأسقفيَّة. وبإلهامٍ إلٰهيٍّ، علم فرنسيس بقدوم ريكاردو، ، وبدوافعه، فاستدعى، في الحال، الأخوَيْن ليون وماسّيو، وأوصاهما: «اذهبا لملاقاة ابني الغالي ريكاردو، وقبّلاه، نيابةً عنّي، وأبلغاه أنَّه، من جميع الإخوة الموجودين في العالم، هو واحدٌ من الأثيرين على قلبي».

ومضى الأخوان، والتقيا ريكاردو، فأبلغاه رسالة فرنسيس، فغمرت نفسَه عذوبةٌ فائقةٌ،

الدرج المؤدّي إلى قلاّيات الرهبان

حتّى انطلق يرقص جذَلاً، على قارعة الطريق، شاكرًا للربّ، من أعماق نفسه؛ ثمّ هرع إلى فرنسيس الراقد، الذي ضمَّه بشدّةٍ إلى صدره، وكرَّر على مسامعه تأكيد حبّه الجمّ، ثمّ رسم على جبينه إشارة الصليب، قائلاً: «يا بنيّ الحبيب، إنّ هذه التجربة قد أُرسلتْ إليك بفضل عناية الله الفائقة، لتزيدك ثوابًا. ولكنَّها الآن باتت نافلةً». وما كاد فرنسيس يتلفَّظ بهذه الكلمات حتّى تلاشت التجربة التي كانت تحاصر الأخ ريكاردو بعنادٍ، مثلما تتلاشى أبخرة الليل أمام مجد شمس النهار المشرقة، وغمر الجَذَلُ صدرَه.

وفي نوبةٍ أُخرى، فيمَا كان فرنسيس يُصلّي في البورتسيونكولا، أُعطي أن يرى، بإلهام ربّانيّ، جحافلَ من الأبالسة تحاصر الدَّير، وكأنَّها جيشٌ مهاجِمٌ يجهد في اقتحامه. بيد أنَّ أحدًا منها لم يستطع النَّفاذ، إذ كانت مناعة قداسة الإخوة تصدُّهم، وتنهض حاجزًا دون محاولاتهم الشرّيرة. ولكن اتَّفق، يومًا، أنَّ أحد الرهبان غضب من أخٍ آخر، وراح يُجيل، في ذهنه، أُسلوبًا للنَّيل منه. وحينئذٍ، بفضل تلك الخواطر الخبيثة، انسلّ إبليس إلى قلب ذلك الأخ.

غير أنّ فرنسيس، الراعي اليقظ، أدرك أنَّ ذئبًا تسلَّل إلى قطيعه، وهو هامٌّ بالتهام إحدى النعاج، فاستدعى الأخ الذي كان فريسةً للغضب، والخواطر القاتمة، وأمره بالبوح بمشاعر الكُرْه التي كانت تُسمّم نفسه، وتجعل منه أسير العدوّ. وقد ارتعد ذلك الأخ جزَعًا عندما تبيَّن له أنّ النَّقاب قد كُشِف عن دخيلة نفسه، فاعترف بمَا كان يُساوره من خواطر شرّيرة، والتمس المغفرة، في توبةٍ صادقةٍ. وهكذا تطهَّر من خطيئته، وفي الحال، انسلَّ منه الشيطان خاسئًا، وعاد الأخ نقيًّا، صافيًا، ليعيش بثقةٍ وأمانٍ، بين إخوته؛ وقد اتَّصف سلوكه بالقداسة والورع، حتّى وافته المنيَّة.

أمَّا حياة فرنسيس فكانت مزيجًا من نسكٍ، إذ كان يُزْجي لياليه كلَّها غارقًا في هوَّة الله اللانهائيَّة، ومن إدارة شؤون أخويّته، نهارًا، في حنكةٍ وتبصّرٍ، ولا يني، بمثالِه، يؤكّد المسار الصحيح الذي يتعيّن على الجميع انتهاجه.

فذات يومٍ جاءت البورتسيونكولا امرأةٌ بائسةٌ وأمٌّ لطفلَيْن، تستعطي؛ وتوافق مجيئُها مع افتقار الإخوة إلى أيّ شيءٍ يسعهم إعطاؤه؛ وكادوا يردُّونها خالية الوفاض؛ فشقّ الأمر على فرنسيس، وأمر سيلڤستر الكاهن بإعطائها كأس الذبيحة النحاسيّ، والشمعدان، وكتاب الصلوات، ولو كان من شأن ذلك حرمان الإخوة من إقامة القدّاس في مقرّهم. وهكذا لقَّن فرنسيس سيلڤستر وسائرَ الإخوة كيف يتعيَّن، أحيانًا، التخلّي عن الربّ في الكنيسة، من أجل استقباله في صدور الفقراء.

وقد تجاور في البورتسيونكولا جيلان من الفرنسيسكانيِّين؛ وفي حين نَزَع الجيلِ الأوَّل إلى العزلة والتواري والانصراف للعبادة، كان الجيل الجديد أشدّ اندفاعًا وبروزا؛ ومع ذلك كانوا، جميعهم، في تعلُّقهم بفرنسيس، وتأثُّرهم لخطاه، كتلةً واحدةً، متحابَّةً، وقد وصفهم أحدهم، وهو الأخ توماس شيلانو، الكاتب الأوَّل لسيرة فرنسيس، بهذه الأَسطر المؤثِّرة:

«إذا ما عاد الإخوة، مساءً، من أعمالهم، فالتأم، من جديدٍ، شملُهم، أو إذا ما التقوا نهارًا، في الطريق، كان الحبُّ والفرح يتألَّقان في عيونهم، فيُحيّي بعضُهم بعضًا بقُبُلاتٍ طاهرةٍ، وكلماتٍ مُفْعَمةٍ عذوبةً، وبسماتٍ مملوءةٍ خَفَرًا، ونظراتٍ ودودةٍ، خاشعةٍ، رقيقةٍ. وبِمَا أنَّهم قد تجرَّدوا من كلِّ أَثَرةٍ وحبٍّ للذات، فقد غدا كلٌّ شاغلهم أن يساعد بعضهم بعضًا؛ كان لقاؤهم مصدر سعادةٍ، ووداعهم منبع مرارةٍ، وكانت شاقَّةً عليهم ضرورة الانفصال. ولم يُعهد، قطُّ، فيمَا بينهم خصامٌ، أو حسدٌ، أو شكٌّ، أو كَدَرٌ، بل كان كلٌّ شيءٍ وحدةً، وسلامًا، وشكرًا، وأناشيد تسبيحٍ. ونادرًا ما كان يتوقَّف الإخوة عن تمجيد الربّ وعبادته، وشكره لكلّ ما كان يُتيحه لهم من خيرٍ يؤدّونه، ومن نَدَمٍ وانتحابٍ على كلِّ شرٍّ قد يبدر منهم، أو على كلّ عملٍ يفتقر إلى الكمال. وكان يُخيَّل إليهم أنَّ الربَّ قد تخلّى عنهم، عندما لا تغمر أفئدتَهم عذوبةُ الروح القدس. وتفاديًا للنُّعاس الذي ينتابهم في أثناء صلواتهم اللَّيليَّة، كانوا يتمنطقون بأحزمةٍ مزوَّدةٍ بمسامير حديديَّةٍ تخزُّهم كلّما تحرّكوا. وكان روح الله يغمرهم، ومن ثمَّ فهم لم يقتصروا على تلاوة الصَّلوات الطقسيَّة في أوقاتها، على غرار الكهنة، ولكنَّهم كانوا، في كلِّ لحظةٍ، يهتفون، بصوتٍ متوسّلٍ، وفي مثل ترتيلٍ عَذْب النغم: «أبانا الذي في السماوات»».

وحول محبّة الإخوة المتبادَلة، يقول نظام الأخويّة: «إن كانت الأمُّ تحبّ ابنها بحسب الجسد، فكم بالأحرى يتعيّن أن يحبّ إخوةٌ بالروح بعضُهم بعضًا».

ولقد نهض سلوك الإخوة الأوائل دليلاً ساطعًا زاهيًا على سُموّ المُثُل الفرنسيسكانيّة الفذَّة. وكان فرنسيس نفسه يَعُدّ أولئك الإخوة مُثُلاً جديرةً بالاحتذاء، ويتمنّى أن ينسج الإخوة الفرنسيسكانيّون جميعهم على منوالهم، وكان غالبًا ما يردّد:

«على الأخ الأصغر الأمثل أن يُحبّ الفقر مثلما يحبّه الأخ برناردو، والصلاة مثلما يحبُّها الأخ روفان الذي لا يكفّ يصلّي، حتّى وهو نائمٌ؛ وعليه أن يستغرق في الله

استغراقَ الأخ إيجيديو، وأن يتحلّى بالكياسة على غرار الأخ أنجيلو، وبالصَّبر على مثال الأخ جينيفر، ذلك المقتدي الأمثل بيسوع المصلوب؛ وعليه أن يمتلك طُهْر الأخ ليون، وسداد رأيه، ورهافة الأخ ماسّيو وفطنته، وأن يُحاكي في المحبّة، والتجرّد عن العالم الأخ لوسيدوس الذي لا يُقيم أكثر من شهرٍ في مكانٍ واحدٍ، بحجَّة أن ليس لنا مسكنٌ دائمٌ في هذه الدنيا».

وعندما كان فرنسيس يُشيد بخصال إخوته كان يَشيعُ فيه من النَّشوة ما لا يقوى معه على كبت فرحه.

وفي النُبذ التالية عن بعض الإخوة الأوائل صورةٌ مكتملة الملامح، متعدّدة الجوانب، زاهية الألوان عن الحياة الفرنسيسكانيّة في فجر عهدها، بكلّ صفائها وأصالتها، على نحو ما تعكسها سيرة قدّيسين تثقَّفوا روحيًّا على يد فرنسيس، وجَهدوا في توفيق سلوكهم مع مثاله الحيّ الذي سُحروا به وشُغِفوا، ودأبوا على الاقتداء به، كلٌّ وفقًا لطاقاته وميوله الخيِّرة الفطريَّة، وطباعه الخاصَّة.

برناردو كوانتاڤالي

كان أوّل الإخوة، وأسخاهم تضحيةً، وتخلّيًا عن كلّ شيءٍ؛ فهو لم يتجرّد من ثروةٍ طائلةٍ، وأطيانٍ قيِّمةٍ، وقصرٍ فخمٍ، فحَسْبُ، بل تجرَّدَ، أيضًا، من شهادته الجامعيَّة العليا، وعِلْمه الغزير، وسرعان ما بات يجنح إلى الاعتكاف، والإبحار في التأمّل والعبادة.

وقد خطر لفرنسيس يومًا، أن يأمره بالمثول إلى مدينة بولونيا، كي يؤسّس فيها مركزًا للأخويّة؛ وبولونيا هي مربع شباب برناردو، ومهد دراسته، ومن جامعتها الشهيرة كان قد ظفر بدكتوراه في الحقوق.

لم يتوانَ برناردو، لحظةً، وسرعان ما استعاد ذكريات تلك الشوارع التي طالما ذرعها جيئةً وذهابًا، والساحات التي طالما شهدت تحرّكاته برفقة عشرات زملائه، والتي ما انفكّت تغصّ، ليلَ نهار، بحشود الطلاّب وصَخَبهم. إلاّ أنَّه آثر استهلال مهمّته من ساحة بولونيا الكبرى؛ وفي تلك الساحة، جلس حقوقيُّ الأمس، على مرتَفَع، حافي القدمَيْن، في الزيّ الفرنسيسكانيّ الأصيل الزريّ. وما لبث أن تحلَّق من حوله الصبية مصفّقين وصائحين في قسوةٍ عهدت مثلَها شتّى الأصقاع والعصور: «مجنونٌ!

مغارة الأخ برناردو قرب أسّيزي

مجنونٌ! » وكم كانت تلك الصَّيحات عذبةً على قلب برناردو، فبمثلها استُقْبِل معلِّمه فرنسيس، في مستهلّ رسالته في أسّيزي! ولا بِدْعَ إن هي أشاعت على محيّاه البسمة، وفجَّرتْ في قلبِه ينابيع الفرح. ومن ثَمَّ لم يخطُرْ بباله الفرار، بل انتقى مكانًا من الساحة أكثر بروزا، حيثُ راح الصِّبْية يشدُّونه من قلنسوة معطفه تارةً إلى الأمام، وأُخرى إلى الوراء، أحدُهم يدفعه من هنا، وآخر من هناك؛ وانضمّ إلى الصبية بعض البالغين الذين راحوا يذُرُّون عليه التُّراب، أو يرجمونه بالحجارة، أو يرشقونه بمُقْذِع الشتيمة من غير أن يُفلِح أحدٌ منهم في تعكير سعادته الغامرة.

وقد أثار ثبات الجأش الذي أبداه برناردو انتباه قاضٍ شهيرٍ من بولونيا، كان قد راقب عن كَثَبٍ، وخلال يومَيْن متعاقبَيْن، سلوك ذلك الرجل الغريب، وتأكّد أنّ الفرح الساجي الذي يغشى محيّاه لا ينمّ عن حماقةٍ أو جنونٍ، بل عن رجاحة عقلٍ وطيدةٍ، وأنَّ الصبر الذي يتحلّى به إنَّما هو برهان فضيلةٍ راهنةٍ، وثمرة كمالٍ داخليٍّ راسخٍ، وقداسةٍ مُحقَّقةٍ، فدنا منه، واستوضحه، برقّةٍ، عن سبب مكوثه في تلك الساحة، وسط السخريّة والمضايقات، فكان جواب برناردو أن استلَّ من جيبه نسخةً من النظام الفرنسيسكانيّ، ودفعه له. في غضون ذلك، كان المشاغبون قد صمتوا، ووقفوا مترقّبين، وقد انقلب صَخَبهم فضولاً؛ وسرعان ما طالعوا الدهشة والإعجاب والجدّ على وجه القاضي، الذي التفت نحو الحضور، وأعلن في وقارٍ جمٍّ: «هذا أسمى نظامٍ رهبانيٍّ قد اطَّلعتُ عليه قطُّ». ثُمَّ خاطب برناردو قائلاً: «إن كُنتَ راغبًا في إشادة ديرٍ هنا، فإنّي، بطيب خاطرٍ، سأهبك الأبنية اللازمة لذلك، عَلَّ هذا يُسهم في خلاص نفسي». وردّ برناردو متهلّلاً: «إنّي لواثقٌ من أَنّ يسوع هو الذي أرسلك إليّ، وإنّني، باسمه، أقبل هِبَتَك شاكرًا».

وسارت الأمور على نحوٍ أفضل كثيرًا من كلّ ما توقّعه برناردو، وبات ذاك الذي استقبلته بولونيا بوابلٍ من الشتائم والإهانات محطّ احترامٍ شاملٍ، وإجلالٍ خاشعٍ، بعد أن تبيَّن الجميع شدَّة تقشّفه، وصدق تقواه، حتّى كادوا يقدّسونه، فاستولى عليه، من ذلك، الخوف، وفرَّ عائدًا إلى أسّيزي، حيث أعلن لفرنسيس: «يا أخي، ها إنّ الدَّير قد أنشئ، فأرسل إليه إخوةً. أمّا أنا، فمن جرّاء التكريم الذي أُحِطْتُ به، قد بتُّ أخشى أن أكون خسرتُ أكثر ممّا ربحتُ».

وأمَّا ذاك القاضي الذي اكتشف برناردو والرسالة الفرنسيسكانيّة، ويُدعى نيقولا دي پيپولي، فما عتَّم أن انضمّ، هو أيضًا، إلى أخويّة فرنسيس.

وقد توغَّل برناردو بعيدًا في التصوُّف والحياة الروحيّة؛ وغالبًا ما كان يُختَطَف بالرُّوح، ويعيش في أجواء الربّ، ذاهلاً عن كلّ ما يدور من حوله، مُستَغْرِقًا في تأمُّل الأسرار الإلٰهيَّة. وقد حدث له ذلك، ذات مرّةٍ، أثناء القدّاس الإلٰهيّ، إذ غدا أصمَّ وأعمى، لا يسمع ولا يرى، من حوله، شيئًا، فلم يركع مع الحضور، وقت تقديم الذبيحة، ولا هو رفع قلنسوة معطفه عن رأسه، بل ظلَّ طوال النهار قابعًا، لا يُبدي حركةً، ثمَّ راح يطوف أرجاء الدَّير، وقد أخذت به نشوةٌ سماويَّةٌ، وهو يصيح:

«يا إخوتي، يا إخوتي، يا إخوتي! هل هناك في العالم إنسانٌ، أيًّا كان نبله، ومدى عظمته، يأبى ارتداء كيسٍ زريٍّ مُغطًّى بالوحل والأقذار إذا ما هو تلقّى، بالمقابل، وعدًا بالحصول على قصرٍ من ذهبٍ ولآلئ؟» ولا ريب أنَّه كان، بذلك، يُشير إلى القصر السماويّ النفيس الذي كان يحلُّ فيه، في أثناء انخطافاته التي اطَّردت نحو خمسة عشر عامًا. وفي تلك الأثناء كان يبدو جليًّا أنَّه يعيش في السماء أكثر ممّا يعيش على الأرض، إذ كان يكتفي بلقمة طعامٍ واحدةٍ، في اليوم، ومع ذلك ينعم بأفضل حالٍ، ولاسيَّمَا بوضوح رؤيةٍ مذهلٍ، جعله مرجعًا في تفسير الكتاب المقدَّس، بحيث كان يستشيره أجلُّ العُلَماء، فيجدون لديه حلاًّ لِما استغلق عليهم إدراكه. ولقد وصفه الأخ إيجيديو بالسنونو التي تجد طعامها في تحليقها عاليًا. وهو، كالسنونو، كان قد تحرَّر من أعباء الأرض، وغدا يرى الدنيا بوضوحٍ أشدَّ كلّما مضى قُدُمًا في تحليقه؛ وهكذا كان يُزجي، أحيانًا، شهرًا كاملاً، بلا انقطاعٍ، على القِمَم الشَّاهقة، مُستبحِرًا في تأمّل الأسرار السماويَّة. وكان فرنسيس يُقدّر أجلَّ تقديرٍ تلك النِّعمة السنيَّة التي حبا اللّٰه بها أخاه برناردو، وكان يقضي معه الساعات الطوال يتحدَّثان عن اللّٰه.

وكان فرنسيس، من جرَّاء أصوامه المتواترة، الشديدة القسوة، وكثرة بكائه على خطاياه السالفة، قد فقد بصره، شيئًا فشيئًا. وذات يوم قصد المنسك الذي كان يقيم فيه برناردو للتحدُّث معه في شؤون اللّٰه، فوجده متعبِّدًا في الغابة، غارقًا في الربّ؛ إلا أنَّه ناداه قائلاً: «تعالَ تحدَّثْ مع أعمى مسكينٍ». وتريَّث برهةً، ثمّ كرَّر النِّداء نوبتَين متتاليتَيْن، ولكنّ برناردو، بسبب استغراقه في تأمُّله العميق، كان قد بات أصمّ لا ينفذ إلى سمعه أيُّ نداءٍ، فلم يسمع صوت معلّمه، الذي قفل حزينًا، خائبًا. ولكنَّه، بغتةً، افترق عن رفيقه، وانزوى في مكانٍ منعزلٍ، وتوسّل إلى الربّ أن يفسّر له سلوك برناردو، فإذا بصوتٍ رقيقٍ من السماء يهمس في أذنه: «يا لك من إنسانٍ صغيرٍ،

واهي العقل! وعلامَ اضطرابك؟ أَوَ تظنُّ أنَّ على برناردو أن يطرد الربّ كي يستقبل إحدى خلائقه؟ فحين أنت ناديتَه، كان، هو، في رفقتي، ولم يكن بوسعه أن يردّ عليك أو يأتي إليك. فلا تعجب، إذن، من صمته، فهو لم يسمع كلمةً واحدةً من كلماتك».

وإذ سمع ذلك، عاد مهرولاً نحو برناردو، كي يعتذر، في انكسار نفسٍ، عمّا أساء فيه من ظنٍّ؛ وما إن رآه برناردو مقبلاً، حتّى جرى نحوه، وارتمى على قدميه، ولكنّ فرنسيس أنهضه، وروى له ما راوده من ظنٍّ أثيمٍ فيه، وتأنيب اللّه له على ذلك، ثمَّ أنهى اعترافه بقوله: «إنّني أطلب منك، باسم نذرك للطاعة، أن تُنفِّذ ما آمرك به».

ولكنّ برناردو توجَّس خشيةً من أن يُغالي فرنسيس في طلبه، كما أَلِف غالبًا أن يفعل، فلفت نظره إلى ذلك، وأردف: «إنّني على أهبةٍ لإطاعتك بدقَّةٍ، إن أنت، من جانبك، وعدتَني بأن تفعل ما سأطلبه منك بعد ذلك».

وأجاب فرنسيس:

– إنّني أعدك، فاطلب ما تشاء.

– بل مُرْني، قبلُ، بما تريد.

– أن تعاقبني على ادّعائي، وصَلَف أفكاري؛ ولذلك فإنّني سأتمدّد على الأرض، وحينئذٍ عليك أن تسير فوقي ثلاث مرّات متتاليةٍ، وأن ترفس، كلّ مرّةٍ، حلقي وفمي وتوجّه لي الشتيمة، قائلاً: «يا لعارك، يا ابن پييترو بيرناردوني الحقير! من أين جاءك كلُّ هذا الغرور؟ أما كان أَوْلى بك أن تتمرَّغ في الحمأة؟»

كان تنفيذ ذلك الأمر قاسيًا جدًّا على برناردو، ولكنّه، بسبب نذر الطاعة، امتثل له، محاولاً أن يُخفّف من وطأته ما استطاع. وحينئذٍ التفت إليه فرنسيس قائلاً:

– والآن مُرْني بمَا تشاء، وسأطيعك حسبمَا وعدت.

– أرجوك، كلَّما كنّا معًا، ألاَّ تكفَّ عن تأنيبي، وأن تُقَوِّم أخطائي بقسوةٍ.

وقد دهش فرنسيس من هذا الطلب، إذ إنّ كلّ شيءٍ، في سلوك برناردو، كان يتَّصف بقداسةٍ نادرةٍ، بحيثُ لم يكن يرى فيه سوى دواعي الاحترام، لا التأنيب. ولذلك بات يتحاشى عن الإقامة معه طويلاً، إذ لم يكن بوسعه الوفاء بوعده.

وإنَّه لمُؤثِّرٌ، حقًّا، لَحْظُ ذلك الاندفاع في تنافس فرنسيس وابنه البكر على التوغّل في التواضع، والمحبَّة والتقوى.

وذات يومٍ، فيمَا كان فرنسيس جاثيًا يصلّي، أُعطي أن يرى، بالروح، المعارك الطاحنة التي كان إبليس يشنُّها على برناردو؛ فداخله شعورٌ غامرٌ بالرأفة على ذاك الذي كان يحبُّه محبَّة الأب لابنه، وراح يُصعِّد أدعيةً مبلَّلةً بالعَبَرات كي يؤازر الربُّ الأخَ برناردو في صراعه مع قوى الشرّ، ويَقيه من السقوط. وقد جاءه، يومًا، ردُّ الربِّ هامسًا:

«فرنسيس، لا تخشَ على برناردو شيئًا؛ فأنا من يفتقده بالمِحَن تثبيتًا لفضائله، وتتويجًا لثوابه. وهو، في نهاية المطاف، سيتغلَّب عليها جميعها، إذ إنَّه أحد المدعوّين إلى ملكوتي».

فغمر هذا الإعلانُ نفسَ فرنسيس جذَلاً، وشكر الربّ من أعماقه، ومضت محبَّته لبرناردو تتعاظم مع الأيَّام، وطالما برهن عنها أثناء حياته، غير أنَّ أسطع برهانٍ دلَّل عنه ساعة موته، إذ كان الجميع يُحيقون به منتحبين، فسأل:

– أين أنت، يا ابني البكر؟ تعالَ إليَّ يا ابني الحبيب، كي أباركك قبل موتي.

وكان الأخ برناردو من سحيق التواضع بحيثُ لم يُخيَّل له أنَّ النداء موجّهٌ إليه، بل إلى الأخ إيليّا، رئيس الأخويّة آنذاك، فقال له بوداعةٍ:

– يا أبتاه قف إلى يمين مؤسّس أخويّتنا كي يباركك.

فامتثل الأخ إيليّا، وكان فرنسيس، حينئذٍ، قد فقد البصر، ولكنّه ما إن وضع يده على رأس إيليّا حتّى اعترض قائلاً:

– لا، ليس هذا جبين ابني البكر برناردو.

إذَّاك، جثا برناردو إلى يسار القدّيس المحتضر الذي شبك يديه، بحيث وضع يده اليمنى على رأس برناردو، واليُسرى على جبين إيليّا الجاثي إلى يمينه، وخاطب برناردو قائلاً:

«فليغمرك أبو ربّنا يسوع المسيح ببركاته. فقد اخترتُك ابنًا بكرًا لي في أخويَّتنا، لأنَّني أعلم أنَّه لن يكون لك أسرةٌ ثانيةٌ، أنت والفقر الذي اقترنتَ به؛ فقد تجرَّدتَ من كلّ شيءٍ، وحتَّى من ذاتك، حُبًّا بيسوع، فلتحلَّ عليك بركات ربّنا وبركاتي، أنا خادمه

الحقير الفقير، ما حييتَ في ترحالك، وفي حلّك في هذا المقام، في سهرك وفي نومك، في كلّ لحظةٍ من حياتك، وفي ساعة موتك. وليتبارك من يباركك، وليعاقب من يلعنك؛ ولتكن الأوّل بين إخوتنا الصغار، وليُطيعوا جميعهم أوامرك. اقبلْ من تشاء في هذه الأخويّة، واطرد منها من تشاء. ولا يكن لأحدٍ من الإخوة عليك سلطانٌ يعيق تحرّكاتك».

وقد أحاط الإخوة برناردو بمثلما يحيط به الأبناء أبًا مبجّلاً محبوبًا من حبٍّ وإجلالٍ؛ وعندما دنا أجله، تقاطروا من كلّ حدْبٍ وصوبٍ للظّفر ببركاته وإرشاداته الأخيرة؛ وقد صرّح لهم وهو يحتضر: «إنّني أُؤكّد لكم أنّني لا أتمنّى، مقابل أيّ شيءٍ في الدنيا، بل مقابل ألف دنيا مثل هذه الدنيا، أن أعيش على نحوٍ آخر، مغايرٍ لما عشت، أو أن أخدم سيّدًا غير ربّنا يسوع المسيح».

وقد غادر هذه الدنيا إلى موطن القدّيسين، وهو يشعُّ فرحًا يفوق كلّ أفراح البشر.

إيجيديو

هو رابع المنضمّين إلى الأخويّة الفرنسيسكانيّة، وقد عدّه فرنسيس، أبدًا، فارسها بلا منازعٍ، وهو، على أيّ حالٍ، أسطعُ مثالٍ على النَّمَط الفرنسيسكانيّ الأصيل، والأكثر وفاءً للمُثُل الفرنسيسكانيّة الصافية التي لم يحِدْ قطُّ، عنها، من فقرٍ، وعفّةٍ، وفرحٍ، وجمعٍ بين العمل اليدويّ الدائب، والصلاة المتواترة.

في أوّل عهد انتظامه في الفرنسيسكانيّة، كان هاويًا للأسفار، كثير التنقّل، ولكنّه سواء كان على سفرٍ أو في ديرٍ، فقد برهن، دائمًا، عن بسالةٍ ثابتةٍ في ممارسة نظام فرنسيس بحذافيره، عاملاً بيديه، غير آبهٍ بمَا يجري في العالم، مستغرقًا أبدًا في الله.

كان يتعاطى أيّة مهنةٍ تتهيّأ له، وفقًا للظروف والأمكنة التي يجد نفسه فيها، ولكنّه، لم يقبل، قطُّ، مالاً جزاءً لأتعابه، ولا هو رضي، يومًا، أجرًا عينيًّا يفيض عن حاجته وحاجة رفيقه أو رفاقه اليوميّة.

لقد توسّم فيه الإخوة الأوائل مثالاً فذًّا للفرنسيسكانيّ الملتزم؛ وقد دوَّن الأخ ليون أفعاله وأقواله في كُتيِّب، عبرةً للأجيال اللاحقة من الفرنسيسكانيّين، كما أفرد كتاب الـ «فيوريتّي»، الذي يروي أحداثًا مميَّزة من سيرة القدّيس فرنسيس، ورفاقه الأوائل، فصلاً خاصًّا لفعال الأخ إيجيديو. وفي مَا يلي شذراتٌ منها:

مرَّةً أوفده فرنسيس إلى الأراضي المقدّسة، برفقة أخٍ آخر؛ ولدى بلوغهما مرفأ برانديزي، لم يجدا سفينةً مُبحرةً في الحال، واضطُرّا إلى المكوث في تلك المدينة بضعة أيّامٍ؛ فحصل إيجيديو على دَلْوٍ كبيرٍ عتيقٍ، وأخذ يملأه من مياه ينبوعٍ، ويطوف في شوارع المدينة مناديًا: «ماء للبيع»، ولقاءَ الماء كان يحصل على الخبز له ولرفيقه.

ولدى عودتهما من حَجّهما، أرست بهما السفينة في أنكونا، وهناك، أيضًا، عكف على صنع السِّلال، وشتّى الأدوات من القصب، التي كان يقايضها بالخبز؛ كما عمل في دفن الأموات لقاءَ ثوبين له ولرفيقه.

وفي أنكونا جرت له حادثةٌ ذات دلالةٍ بليغة: ففيمَا هو كان يتجوَّل يومًا بسلاله، صادفه كاهنٌ، فنظر إليه شزْرًا، وقال له بازدراء: «يا لك من تنبل!» فاستحوذ عليه، من جرَّاء ذلك، حزنٌ هاصرٌ، وراح ينتحب بمرارةٍ، ويذرف الدموع الحرّى؛ فقد صوَّر له احترامه العميق للكهنة الذي أنشأه عليه فرنسيس، أنَّه، حقًّا، كسولٌ، إذ لا يمكن لكاهنٍ سوى قول الحقيقة. وكان على رفيقه أن يبذل كلّ وسائل إقناعه، كي يُهدِّىءَ روعه، مبيّنًا له وجوب التمييز بين الكاهن بصفته كاهنًا، والكاهن بصفته بشرًا قد يخطئ في حكمه. إلاَّ أنَّ إيجيديو المسكين لم يتخلّص قطُّ من الشعور المرهق بأنَّه كسولٌ يستأهل العقاب.

وقد أمضى إيجيديو بضع سنوات في روما، حيث حرص على استهلال نهاره بحضور الذبيحة الإلهيَّة. ثُمَّ كان يمضي إلى غابةٍ فيجمع منها حزمة حطبٍ يعود بها إلى المدينة ليقايضها بالخبز. واتّفق أنَّ سيّدةً، بعد أن تبيّنت صفته الرهبانيَّة، حاولت أن تؤدّي له، ثمنًا لحطبه، ضعف ما طلب، فأصرّ، حينئذ، على ألاَّ يستوفي سوى نصف حقّه، وذلك تحاشيًا عن الوقوع في تجربة الجشع.

وفي موسم القطاف كان يساعد الفلاّحين في قطف العنب والزيتون، كما كان يلتقط بعض السنابل من الحقول، بعد الحصاد، على نحو ما يفعل الفقراء والشحَّاذون، ولكنَّه كان يَهَبُ كلَّ ما يجمعه، متذرّعًا بحجّة أن لا أهراءَ له يخزن فيها الحبوب.

وذات يومٍ سمع مساومةً بين صاحب أشجار جوزٍ وعاملٍ، حول أجرة قطفها، وبمَا أنَّ المكان كانَ بعيدًا، والأشجار عاليةً جدًّا، وقطفُها يُعرِّض لأخطارٍ جمّةٍ، لم يستطيعا الوصول إلى اتّفاقٍ. حينئذٍ اقترح إيجيديو أن ينهض بالمهمّة بنفسه، لقاء جزءٍ من حصيلة

الجوز، وظفر اقتراحه بموافقة صاحب البستان. وعندما انتهى إيجيديو إلى الشجرات الباسقة، رسم على نفسه إشارة الصليب، وراح يتسلّقها غصنًا فغصنًا، حتّى قطف كلَّ ما عليها من ثَمرٍ؛ فكانت حصّته من الوفرة، بحيث اضطرَّ أن يخلع ثوبه، ويربط أكمامه، بحيث جعل منه ما يشبه كيسًا ضخمًا أودعه نصيبه من الجنى؛ وهكذا قفل عائدًا، نصف عارٍ، إلى روما حيث وزَّع أجرته العينيَّة على المُعْوزين، حبًّا بالله.

وفي روما، عمل إيجيديو، بضعة أشهرٍ، في ديرٍ للرهبان، حيث كان ينهض بجميع الأعمال الوضيعة، فيساعد في طحن القمح، وفي شتّى شؤون المطبخ، ويأتي بالماء للدير من نبعٍ خارج المدينة، لقاء طعامه، فحَسْبُ. وكان يؤدّي، باندفاعٍ، أيّ عملٍ يُوكَل إليه، ويرضى بالحدّ الأدنى من الزاد، وبالمقابل كان مطلبه الوحيد أن تتاح له فسحةٌ كافيةٌ من الوقت لتلاوة صلواته في أوقاتها، وممارسة التأمّل والعبادة.

واتَّفق له، يومًا، إذ كان عائدًا بالماء من النبع، أن طلب منه أحد المارَّة بعضًا منه ليشرب؛ وخُيّل إلى إيجيديو أنّه لا يسوغ له التصرُّف بماء الرهبان، فاعتذر من الرجل، الذي أمطره وابلاً من الشتائم؛ ثُمَّ حثّ الخطى إلى الدير، فوضع حمله من الماء، وعاد مهرولاً إلى النبع حيث نهل دلوًا آخر، وقفل مسرعًا، باحثًا عمّن سأله الماء حتّى عثر عليه، واستغفره لعدم تلبيته، قبل قليلٍ، وقدَّم له ما أراد.

وفي أثناء إقامته في روما، استضافه أحد كبار الكرادلة، وقَبِل إيجيديو الضيافة، شرط ألاَّ يَطْعَم سوى الخبز الذي يستعطيه أو يحصل عليه لقاء عمله؛ ولم يَرُق الأمر للمضيف الجليل، إلاَّ أنَّه نزل عند رغبة ضيفه؛ وذات يومٍ هطلت أمطارٌ طوفانيّةٌ، وسُرَّ الكردينال في سريرة نفسه، إذ خُيّل إليه أنّ الأخ إيجيديو، سيُضطرّ أخيرًا، إلى القبول، ولو يومًا واحدًا، بتناول طعام الضيافة. ولكنَّ الأخ خيَّب ظنَّه، عندما وافى المطبخ، وعرض أن يُنظّفه بأكمله، وكلَّ أدواته، لقاء رغيفَيْ خبزٍ؛ واستمرّ هطول الأمطار الكثيفة، في اليوم التالي، ومرَّةً أُخرى، استحقّ الأخ إيجيديو خبزه اليوميّ، بشحذه جميع السكاكين في منزل مضيفه.

وعندما حان أوان الصوم الكبير، ارتأى إيجيديو أنَّ جوَّ روما لا يوفّر القَدْر الكافي من السَّكينة والهدوء، لممارسة صومٍ لائقٍ مع ما يقتضيه من صمتٍ وتأمُّلٍ. فقال لمضيفه: «يا صاحب النيافة، نستأذنك، رفيقي وأنا، بالذَّهاب إلى مكانٍ منعزلٍ نستطيع ممارسة الصَّوم فيه».

تفجّر نبعٍ لدى صلاة فرنسيس

وعبثًا حاول الكردينال ثنيَه عن عزمه مُبيِّنًا له أنّ المجاعة سائدةٌ في المنطقة، وأن ليس له بالقوم معرفةٌ تجعله يأمل منهم أيّة مساعدةٍ. ولكنّ الأخ إيجيديو ظلّ مصرًّا على موقفه، ويمّم، ورفيقه، شطر قمّةٍ شامخةٍ، كانت تحتلُّها، قديمًا، قريةٌ هجرها معظم أهلها، وثمّة التجأا إلى مُصَلًّى مهجورٍ حيث استغرقا في الصلاة والتأمّل.

وإذ لم يعلم بأمرهما أحدٌ، ظلاّ، أيّامًا طويلةً، مفتقرَيْن إلى أيّ طعامٍ أو شرابٍ يُقيم أَوَدهما، أو غطاءٍ يقيهما لسعات البرد القارس. وفي تلك الأثناء، تساقطت ثلوجٌ كثيفةٌ منعتهما من الخروج للاستعطاء. وعندما فقدا كلّ أملٍ في عونٍ بشريٍّ، التفت إيجيديو إلى رفيقه وقال: «أخي العزيز، لم يبقَ أمامنا سوى الاستغاثة بسيّدنا يسوع المسيح». وفي الحال ركعا، وتوسّلا إلى الله، بصوتٍ مرتفعٍ، ومن أعماق قلبيهما، كي يبادر إلى إغاثتهما، في محنتهما القصوى. وقد استجاب الربّ الرحيم إلى ندائهما؛ فقد كان يسكن، في الجوار، إنسانٌ تقطنه روح الله؛ وبوحيٍ من الروح القدس انتابه شعورٌ مقلقٌ بأنّ في المُصلّى مَنْ أشفى على الموت جوعًا وقرًّا، محاصرًا بالثلوج؛ وفي الحال أخذ بعض أرغفة، وقارورة نبيذٍ، وبضعة أغطيةٍ صوفيَّةٍ، واشتقّ طريقه بمشقّةٍ بالغةٍ بين الثلوج، حتّى انتهى إلى المُصلَّى، حيث ألفى الراهبَيْن يتعبّدان، وقد باتا، من القرّ والجوع، والهزال، شبيهَيْن بشبحَيْن مخيفَيْن. فأطعمهما، وأدفأهما، وشدّ من عزيمتهما؛ ثمّ عاد فأحاط الجيران علمًا بحالهما، فاتّفقوا، جميعًا، على تزويدهما، على التوالي، بما يحتاجان إليه طوال فترة الصيام.

وقد كان لمَثَل الأخ إيجيديو، في أهل تلك القرية، من بليغ الأثر أنّ بعضًا منهم هجروا كلّ شيءٍ والتحقوا به، في حين أنّ آخرين آثروا ملازمة منازلهم حيث مارسوا توبةً صادقةً تأثّرًا بقداسته.

وكانت قداسة سيرة الأخ إيجيديو قد طار صيتها، في أواخر أيّامه، إلى شتَّى أقطار أوروبّا، وقد انتهت أنباؤها إلى مسامع القدّيس لويس، ملك فرنسا، فمَثُل في زيّ حاجٍّ فقيرٍ، مُغْفَلٍ، وبرفقة قبضةٍ من الأصدقاء، إلى ديرٍ للأخويّة في پيروجيا، حيث كان الأخ يقيم. ومن غير أن يُعرّف عن نفسه، التمس، بإلحافٍ، مقابلته؛ وبوحي سماويٍّ علم إيجيديو بهويّة زائره، فهرع إلى باب الدير، وجثا تلقائيًّا أمام الملك الذي لم يكن قد شاهده قطّ. وتعانق الرجلان عناقًا حارًّا، وكأنّهما صديقان حميمان، قديمان؛ ودام العناق طويلاً، من غير أن يتلفَّظ أيٌّ منهما بكلمةٍ واحدةٍ؛ ثُمَّ افترقا، فاستأنف الملك وصحبه مسيرتهم، فيما قفل إيجيديو إلى صومعته.

وعندما اعتلنت هويّة الزائر العظيم، تميَّز الأخ إيليّا، الذي كان يتولّى آنذاك رئاسة الدير، غيظًا، إذ فوَّت على نفسه فرصة لقاء أحد العظماء، ولكنَّه، من غير أن يُبدي ذلك، أَنَّب الأخ إيجيديو قائلاً: «ولمَ، أيُّها الأخ إيجيديو، لم تفتح فاك بكلمةٍ، وأنت تستقبل شخصًا في مثل عظمة ملك فرنسا وقد جاءك، كي يسمع منك كلمة عزاءٍ وتشجيعٍ؟».

ولكنَّ الأخ إيجيديو أجاب في هدوءٍ: «لا تعجبوا من صمتنا، يا إخوتي الأعزّاء؛ فما إن تعانقنا، كلانا، حتّى انحدرت أنوار السماء على قلبَيْنا، وكُشِف النقاب عن خواطرنا المتبادَلة، بحيث لم يكن بنا حاجةٌ إلى كلامٍ للتَّعبير عمَّا يجول في ذهنَيْنا؛ فضلاً عن أنَّ أيّة لفظةٍ كانت عاجزةً عن ترجمة مشاعرنا، وكان من شأنها أن تولينا من الحزن أكثر ممَّا يمكن أن توفّر من المسرَّة. وثقوا بأنَّ الملك قد عاد، والحالة هذه، وقد تشدَّدت عزيمته على نحوٍ رائعٍ».

وقد عُهِد عن الأخ إيجيديو صراحةٌ لاذعةٌ وجريئةٌ في القول، أحيانًا؛ ويُروى، في هذا السياق، أنَّ اثنين من الكرادلة قد عاداه، في أيّامه الأخيرة؛ وقبل مبارحتهما له، دعياه أن يصلّي من أجلهما، فردّ قائلاً: «لا فائدة من صلاتي من أجلكما، يا صاحبَي النيافة؛ فمن الجليّ أنّ لديكما من الإيمان والرجاء أكثر ممّا لديَّ بكثير». فاستغربا جوابه، واستوضحاه عنه، متوجّسَيْن قوله اللاذع، فأجاب: «ذلك أنَّكما، مع ما تمتلكان من ثرواتٍ طائلةٍ، وأمجادٍ رفيعةٍ، ترجوان أن تخلصا، في حين أنّي، مع عيشتي الموغلة في الفقر والتجرُّد، أخشى أن أُدان!».

وممّا يُثير الإعجاب أنّ إيجيديو، الفلاَّح الأُمّي، قد سما، بفضل استغراقه في الله، إلى قِمَمٍ شاهقةٍ من التصوُّف والروحانيَّة، بحيث غدت سيرته وأقواله نبراسًا للأخويَّة. وقد اقتبس منه القدّيس بوناڤانتورا الكثير، في كتاباته الصوفيَّة، وقد شهد فيه قائلاً: «هذا الإنسان البسيط، الأُمّي، قد مارس الفضائل إلى درجةٍ ساميةٍ، واستحقَّ الارتقاء إلى قِمَم مشاهدة الله. وطالما اختُطِف بالروح، على نحو ما لاحظتُ بنفسي، حتّى تبيّن لي أنّه كان يحيا حياةً هي أدنى إلى حياة الملائكة من حياة البشر».

وقد عُرف عنه عدم إجادته للوعظ، ممَّا حدا به إلى الاعتكاف للصلاة، مؤمنًا ومعلّمًا أنّ العمل خيرٌ من الكلام، وأنّ الحجّ خيرٌ من إرشاد الغير إلى طريقه. ولكنَّه لم يتوانَ،

يومًا، عن الردّ على أسئلة الإخوة الذين كانوا يتقاطرون إليه التماسًا للنُّصح. وكان يُضمِّن ردوده تلك زبدةَ خبراته، وثمار تأمُّلاته، ومن تلك الردود جمع الفرنسيسكانيُّون الأوائل أُضمومةً من أقواله، لتكون عبرةً للأجيال المقبلة.

ويُروى في هذا السياق أنّ أخًا كان معتكفًا في صومعته يُصلّي، فباغته رئيس الدير، وأمره، باسم الطاعة، أن يمضي في الحال، فيستعطي طعامًا للإخوة. فجاء ذلك الأخ إلى إيجيديو شاكيًا ومستشيرًا: «كنت مستغرقًا في الصلاة، عندما أمرني الأخ الرئيس، أن أمضي فأستعطي الخبز. وإنّني لأرى أنّ الصّلاة خيرٌ من الاستعطاء، فما رأيك؟». فأجابه إيجيديو في رقّةٍ وبساطةٍ سماويَّتَيْن: «يا بُنيَّ، يبدو أنّك لم تدرك، بعدُ، جيّدًا، معنى الصلاة. فالصّلاة الحقَّة هي تنفيذ مشيئة الرئيس. وإنَّه لَيُبرهن عن كثيرٍ من الكبرياء ذاك الذي، بعد أن حنى رأسه للأبد تحت نير الطاعة المقدّسة، يحاول، في مَا بعدُ، التهرُّب منها، كي يتصرّف على هواه، حتّى ولو بدا له أنّ سلوكه هو المعقول. فالراهب الجيّد، في هذا المضمار، يُحاكي فارسًا يمتلك فرسًا منيعةً، يجتاز بفضلها الجبال والوهاد، وبها يبلغ أيّ هدفٍ يقصده. أمّا الراهب السيّئ، على نقيض ذلك، فهو يمتطي حصانًا بليدًا رعديدًا هزيلاً، يتخلّى عنه إذا ما أمره بالخَبَب، ويتركه بين أيدي الأعداء. فاسمع هذا جيّدًا، يا بُنيَّ العزيز: لو أنّ أخًا أُعطي، بحظوةٍ فريدةٍ، مخاطبة ملائكة السماء، وأثناء حواره معهم دعاه رئيسه، لتعيَّن عليه أن يهجر، في الحال، صحبة الملائكة، ويخضع للرئيس».

ذات يومٍ، نصح واعظًا كان يزهو ببلاغته الجوفاء أن يختتم عظاته بالثُّغاء كالخراف: «باء، باء، باء، كثيرةٌ أقوالي، وأفعالي هباء».

ورغم أُميَّته نظم إيجيديو عدَّة قصائد أشهرها قصيدةٌ في العفَّة؛ وفي أثناء إقامته في دير مونتي ريبدو، على مقربةٍ من بيروجيا، كان يؤنس متعةً كبرى في مراقبة القُبَّرات، والاستماع إلى هديلها، ومحادثتها. وكان يُشاهَد، أيّام الصيف، وهو يتجوّل بين أزاهير الحديقة، مُرتّلاً تسابيح الخالق؛ وهو، في كلّ ذلك، كان ينسج على منوال فرنسيس، الذي غالبًا ما قلّده، أيضًا، بالإنشاد، والرقص، وبحكّه خشبتَيْن، إحداهما بالأخرى، وكأنَّه يعزف على كمان.

وممّا ينهض شاهدًا على الفرح الفرنسيسكانيّ الذي كان يفعم قلبه، قوله: «لا اللسان

يستطيع وصف السعادة التي يخصّ بها الله أولياءه، ولا القلم التعبير عنها، ولا الإنسان إدراكها».

وقد اشتُهر عنه إعجابه المطلق بأبيه الروحيّ، وإجلاله الشديد له، وكثيرًا ما أكَّد: «إذا ما تلفَّظ أحدنا باسم فرنسيس، فعليه أن يتلمَّظ ليتذوَّق عذوبة ذلك الاسم على شفتيه». وكان يضيف: «عيبه الوحيد أنَّه كان واهي الصحّة؛ فلو كان في مثل منعة صحّتي، لما استطاع العالم، مهما كدّ واجتهد، اللحاق به في اندفاعه».

وهو، على غرار فرنسيس، قد استنكر، بشدَّةٍ وحزنٍ، جنوح الجيل الجديد من الإخوة، بزعامة الأخ إيليّا، إلى التنكُّب عن مبادئ الفقر الصارمة، وإشادة الأديرة الفخمة، والتي أبى، أبدًا، الإقامة في أيٍّ منها. إلاَّ أنَّه عندما اضطُرَّ إلى زيارة أحدها لتكريم رفاة أبيه فرنسيس، لم يتردّد في التعبير، بعنف، عن استيائه، إذ قال للمسؤولين عن الدَّير: «في الحقيقة لم يعد ينقصكم هنا سوى النساء». فاعترضوا قائلين: «كيف تجرؤ على مثل هذا الاتّهام، أيّها الأخ إيجيديو؟» فأجاب: «إنّمَا ابتغيت القول أنَّكم، بعد أن تخلَّيتم عن الفقر، لم يبقَ لكم سوى التخلّي عن العفّة، وقد نذرتموهما كلَيْهما!».

ولقد لقي إيجيديو وجه ربّه، في الثالث والعشرين من نيسان ١٢٦٢، وهو يوم الذكرى الرابعة والخمسين لانضمامه إلى الأخويّة الفرنسيسكانيّة.

ماسّيو

اسمٌ بارزٌ بين الإخوة الأوائل. كان قد قَدِم من مارينيانو القريبة من أسّيزي، وامتاز بقامةٍ فارعةٍ، ومحيًّا وسيمٍ، وفصاحةٍ تجعل مستمعيه يتلقَّفون كلامه مسحورين، وأحيانًا كثيرةً يُنصتون إليه راكعين؛ وسرعان ما غدا رفيق أسفار فرنسيس، ولكن غالبًا ما كان المارَّة يُجلّون ماسّيو المهيب، وينظرون شَزْرًا إلى رفيقه الزريّ الهزيل؛ وإذا ما استعطيا معًا، كان ماسّيو هو الذي يظفر بالطَّعام الشهيّ، والخبز الطازج، والأرغفة الكاملة، في حين لا يُعطى فرنسيس سوى كِسَرٍ صغيرةٍ، يابسةٍ، عفنةٍ.

ورُبَّما كان ماسّيو قد انزلق إلى وهاد الغرور، لولا قدوة فرنسيس وإرشاداته التي جعلت منه واحدًا من أكثر الإخوة تواضعًا وقداسةً.

ففي أوَّل عهد انضمامه إلى الأخويَّة، ابتدر ماسّيو فرنسيسَ، في براءةٍ مدهشةٍ،

بالسؤال: «علامَ يؤثر الجميع السَّعيَ وراءك دون سواك، وما الذي يذكي فيهم الرغبة في رؤيتك، وسماعك، وإطاعتك، مع أنَّك لست وسيمًا، وما من جمالٍ في قامتك أو في محيَّاك، ولستَ على قسطٍ من الثقافة وفيرٍ، ولست من محتدٍ نبيلٍ؟».

ولدى سماعه ذلك تهلَّل المعلِّمُ القدّيس بالرُّوح، ورفع عينَيْه إلى السَّماء، وبقي، هكذا، فترةً، ونفسُه مشدودةٌ إلى الله. ولمَّا ثاب إلى ذاته، جثا وشكر الربَّ، وسبَّحه، ثمّ التفت إلى الأخ ماسّيو، وأجاب، في اندفاعٍ عارمٍ: «أتودُّ أن تعرف لماذا يأتي الجميع إليَّ؟ ها قد أَوْضَحَ لي ذلك الربُّ الكليُّ القدرة، الذي يرى الخير والشرّ في الأرض كلِّها. وهو قد شاء أن يأتي إليّ الناس لأنّ عينَيْه القدّيستَيْن لم تشهدا، في أيّ مكانٍ، إنسانًا أكثر منّي خطيئةً، وأشدَّ فقرًا واستحقاقًا للشَّفقة؛ ولأنَّه لم يلقَ، في المسكونة كلِّها، خليقةً أحقر منّي، كي يحقِّق بها العمل الرائع الذي يرغب في تحقيقه. لذلك هو اختارني لكي يخزي كلَّ نُبْلٍ، وعظمةٍ، وجمالٍ، وحكمةٍ في العالم، ولكي يعترف الجميع أنَّ كلَّ قوَّةٍ، وكلَّ فضيلةٍ، هي من الله تأتي، لا من الخليقة، وأنّ على كلّ من يفتخر، فبالربّ وحده يستطيع أن يفخر، فله المجد والسُّلطان إلى الأبد».

ولكي يُرسِّخه في التواضع، قال له فرنسيس، يومًا، أمام سائر الإخوة: «أيّها الأخ ماسّيو، إن كان هؤلاء الإخوة قد أُوتوا نعمة الصَّلاة، فأنت قد أُعطيتَ الفصاحة، وفنَّ مخاطبة النَّاس، ولذلك، كي نستطيع الانصراف إلى التأمُّل، عليكَ أن تتولَّى بنفسك، شؤون الاستقبال، والاستعطاء، والطهي. وفيما نحن نتناول طعامنا في الدَّاخل، ستتناول أنت طعامك في الخارج، بحيثُ إذا ما جاء زائرون تستقبلهم، أنت، وتحدِّثهم بأحاديث بنَّاءة، من غير أن نُضطرَّ نحن إلى القيام بذلك». فحنى ماسّيو هامته باحترام، وخفض قلنسوته تعبيرًا عن طاعته، وظلَّ، أيّامًا عديدةً، ينهض، بمفرده، بمهامّ الطاهي والبوَّاب والمستعطي معًا. ولكن، ما لبث أن ساور الإخوةَ شعورٌ بالذنب لإلقاء كلّ تلك المهامّ على عاتق الأخ ماسّيو وحده، فجاؤوا أباهم فرنسيس متوسّلين أن يحرّره منها، وقد عبّروا عن إصرارهم بقولهم: «طالما لم تفعل ذلك، فسنظلّ فاترين وشاردين في صلواتنا». وقد استجاب فرنسيس لطلبهم، بعد أن تبيَّن أنّ امتحان ماسّيو كان كافيًا، وأعاد توزيع المهامّ على الإخوة بالعدل والقسطاس.

وذات يومٍ، كان فرنسيس وماسّيو في رحلة تبشيرٍ، وفي مهمّة بناء مناسك جبليَّةٍ، يُقيم في كلٍّ منها ثلاثة إخوةٍ أو أربعةٌ معًا، وكأنَّها أعشاشٌ لصقور الإنجيل. وكان ماسّيو

هو الذي يتقدَّم أبدًا، فيما يسير فرنسيس من ورائه، مُستغرِقًا في صلواته، وتأمُّلاته. وانتهيا إلى مفترق طرق مزدحم يتفرّع منه طريق إلى سييِنّا، وآخر إلى أريزّو، وثالثٌ إلى فلورنسا. فتوقَّف ماسّيو، وسأل معلّمه أيًّا منها عليه أن يسلك، فأجاب فرنسيس:

– ذاك الذي يرشدنا إليه الربّ.

– ولكن كيف لنا معرفة إرادة الله؟

– سأريك كيف سنتبيَّنُها. إنَّني، باسم الطاعة المقدّسة، آمرك أن تدور حول ذاتك بأقصى سرعةٍ، على نحو ما يفعل الأولاد، وأن تظلّ تدور حتّى آمرك بالتوقّف.

ومن غير ما تردُّدٍ، راح ذلك الأخ المهيب، وقد بسط ذراعَيْه، يدور على نفسه كالدوَّامة، ويدور ويدور، حتّى أصابه الدُّوار، فارتمى أرضًا؛ ولكن، إذ لم يكن فرنسيس قد أمره بالتوقُّف، سُرعان ما نهض، وعاد يدور، وهو يترنَّح إعياءً، وقد تجمهر من حوله الفضوليُّون، مصفّقين أو ساخرين، في حين كان فرنسيس مغمضَ العينَيْن، مُستبحِرًا في الصَّلاة؛ وبعد لأيٍ، أوعز إليه أن يتوقّف، فتجمّد ماسّيو في مكانه، وحينئذٍ سأله فرنسيس:

– في أيّ اتّجاهٍ تنظر عيناك؟

– في اتّجاه سييِنّا، أجاب ماسّيو لاهثًا.

– إذن فلننطلق، اليوم، إلى سييِنّا. فتلك هي مشيئة الربّ.

وانطلق ماسّيو مندفعًا، وفي إثْره فرنسيس، وكأنَّه خادمٌ صغيرٌ، غارقًا في الربّ.

وبفضل مثل تلك الامتحانات والعِبَر، تمرَّس الأخ ماسّيو بالتواضع، لا بل بات به شغوفًا، بحيث كان لا يني يدعو الربّ متلهّفًا: «هبْني التواضع، ولو كلَّفني ذلك عَيْنيَّ كلتيهما». وقد استجاب له الربّ من غير أن يسلبه عينَيْه.

ولشدَّة تواضعه، غالبًا ما كان يُخيّل إليه أنَّه خاطئٌ هالكٌ. بيد أنّ نورًا داخليًّا كثيفًا كان يغمر قلبه فرحًا. ومع شعوره المرهق بحقارته، كان، كلَّما تقدَّم سِنًّا، يزداد إيغالاً في الربّ. وينعكس ذلك على محيّاه تألُّقًا، وفي قلبه فرحًا غامرًا.

وأثناء استغراقه في الصلاة، كان يبدر منه ما يُحاكي هديل حمامٍ رتيبًا. وقد سأله أحد الإخوة، يومًا، وكان قد بلغ من العمر عتيًّا، لمَ لا يحاول أن يُدخِل على أسلوبه

بعض التجديد، فينشد أغنيَةً جديدةً، فأجاب، وقد غشت محيَّاه بسمة الغبطة: «لأنَّ من لا يجد سعادته إلاّ في أمرٍ واحدٍ، لا يستطيع أن ينشد سوى أغنيّةٍ واحدةٍ».

وعلى نقيض الكثيرين من إخوانه، كان ماسّيو زاهدًا في الأسفار، يؤثر حتّى على الحجّ إلى الأماكن المقدَّسة، رفقة إخوةٍ اشتهروا بقداسة السيرة. وكان يُبرِّر ذلك بقوله: «إنَّني أجد فائدةً أكبر في عِشْرة القدّيسين الأحياء، ممَّا أجد لدى القدّيسين المتوفَّين. فهؤلاء صامتون لا ينطقون، في حين أنَّ أولئك يتكلَّمون، وبتحدُّثهم لنا عن التجارب التي تغلَّبوا عليها، يقوننا من المخاطر التي تهدّدنا».

ولا ريبَ أنَّ أكثر القدّيسين الأحياء الذين أفاد ماسّيو من رفقتهم، كان فرنسيس الذي اختاره رفيقًا لأسفاره. ويومَ قرَّر الإخوة أن ينطلقوا، على غرار تلاميذ يسوع، اثنَيْن اثنَيْن، إلى شتّى بقاع العالم للتبشير، كانت فرنسا من نصيب فرنسيس وماسّيو. وفي ظهر أحد الأيّام، بعد أن كانا قد استعطيا زادهما من إحدى القرى، جلسا لتناول طعامهما عند نبع ماءٍ صافٍ كنهار صيفٍ، باردٍ كليل الشِّتاء، مُنْشِدٍ بين الصُّخور والأزاهير؛ وقد بسطا الزاد الذي ظفرا به على صخرةٍ بيضاء، ملساء؛ وبما أنّهمَا كانا قد استعطيا، كلٌّ بمفرده، كانت حصيلة ماسّيو وفيرةً، في حين كانت حصيلة فرنسيس هزيلةً، ومن النفايات المُعدَّة للإتلاف. إلاَّ أنّ فرنسيس كان يفيض جَذَلاً، فسأله ماسّيو، وقد انتابته موجةٌ من الكآبة، لم يعرف لها تفسيرًا:

– علامَ تضحك؟

– لأنَّنا شديدا السعادة.

– سعادةٍ؟ ومن أين لنا السعادة؟

– كيف لا؟ انظُر إلى هذه الشمس الساطعة، وهذا الماء الزلال، وهذا الطَّعام. إنَّها كنوزٌ لا نستأهلها.

– ولكن، أبتاه، كيف تتكلّم عن الكنوز، ونحن نفتقر إلى كلّ شيءٍ: فلا مائدة لنا ولا سكّين، ولا طَبَق، ولا بيت، ولا خادم؟

– بل إنّ كنزنا يتمثّل في افتقارنا إلى كلّ ذلك. فليس في ما لدينا ما هو من تدبير البشر، بل يد العناية الإلهيَّة هي التي توفّر لنا كلّ شيءٍ. ألا انظرْ، أخي ماسّيو: هذا

الخبز الذي استعطيناه، وهذا الحجر الأبيض الذي يقوم مقام المائدة، وهذا الماء الزُّلال! أهناك ما هو أجمل من ذلك؟ ولذلك أُصرّ على أن نصلّي، لكي يجعلنا الربُّ نحبُّ، بكلِّ جوارحنا، الفقرَ المقدّس الذي خضع له يسوع منذ مولده حتّى مماته. باسم الآب، والابن، والروح القدس... وارتفع دعاؤهما وَرِعًا، حارًّا، وكانت كلمات فرنسيس قد أخذت بمجامع قلب ماسّيو، الذي استشفّ فيها نفحةَ الروح القدس، فخالطت دعاءَه العَبَرات، ثُمَّ تناولا زادهما في شهيَّة، وارتويا من الماء الزُّلال الذي كانا ينهلانه بكفَّيْهما، وهما يضحكان ملءَ شدقَيْهما، فيما كانت العصافير تقاسمهما وجبتهما.

وبعد ذلك، ولجا كنيسةً للصلاة، فجثا القدّيس فرنسيس خلفَ الهيكل، وأثناء استغراقه في تأمّله، زاره الربّ، وألهب في أحشائه هوىً حارقًا للفقر المقدَّس، بحيث بدا وكأنّ لَهَبًا من الحبّ كان يتصاعد من محيّاه، ومن فمه، وجاء، وهو على هذه الحال من النشوة، وهتف: «آه! آه! آه! أخي ماسّيو»، وإذا بالأخ ماسّيو يرتفع جوًّا، بفعل لهاث فرنسيس، كالعصفور، ويقع أرضًا على بعد عدّة خطواتٍ، وقد اعتراه ذهولٌ يندّ عن الوصف. وعندما كان يروي ذلك الحدث لرفاقه، من بعدُ، كان يؤكّد أنّ الرّوح القدس قد غمره أثناء طيرانه، بفرح لم يذُقْ، قطُّ، مثل عذوبته.

ثمّ قال فرنسيس لرفيقه: «قبل شخوصنا إلى فرنسا، فلنُعرِّج على روما، ولنلتمس شفاعة القدّيسَيْن بطرس وبولس، كي يمنَّ علينا الربّ بنعمة الفقر المقدّس، فهو كنزٌ ثمينٌ، وعطيَّةٌ سماويَّةٌ لا يستأهلها إناؤنا البشريّ الزريّ. فبفضل الفقر يمكنك أن تدوس برجلَيْك الخيرات الأرضيَّة الزائلة، كما تستطيع نفسُك، وقد تحرَّرتْ من أغلالها، أن تتَّحد، أخيرًا، بالله الأزليّ. فلقد واكب الفقر يسوع على الصليب، ودُفِن معه، ونهض معه من الموت، ومعه صعد إلى السماء. والفقر يولي النفوس، حتّى وهي مرتبطة بجسمٍ حيٍّ، القدرةَ على التحليق إلى السماء، حيث تلتقي الملائكة، شرط أن تلتهب تلك النفوس حُبًّا به، بكلّ تواضعٍ ومحبَّةٍ. ولذلك، فلندعُ تلاميذ المسيح القدّيسين الذين عشقوا ذلك الكائن الملائكيّ، كي نظفر بنعمة الإخلاص المُطلَق للفقر المقدّس الثمين».

وفي كنيسة القدّيس بطرس، ركع فرنسيس في إحدى الزوايا، في حين ركع ماسّيو في الزاوية المقابلة؛ وفيما كانا يُصلّيان بحرارةٍ، ويذرفان الدموع، ظهر الرسولان بطرس وبولس لفرنسيس، وسط نورٍ باهرٍ، وقالا: «لقد أرسلنا سيّدنا يسوع المسيح، لنُبلّغك

بأنّه قد استجاب لدعائك، وأنَّه قد منحك، ومنح تلاميذك، كنز الفقر المقدَّس؛ وقد أَوكل إلينا إبلاغك، أيضًا، أنّ كلَّ من سلك بإخلاصٍ في هذا السبيل، سيظفر، مؤكَّدًا، بالسعادة الأبديَّة، وأنَّك ورفاقك ستباركون إلى الأبد».

وبارح الرسولان فرنسيس، وقد استحوذت عليه سعادةٌ غامرةٌ، فنهض وروى لماسّيو رؤياه، ورسالة الربّ، فتعانقا، وقد أفعم قلبَيْهما جَذَلٌ لا يوصَف، وقرَّرا العدول عن السَّفر إلى فرنسا، وقفلا عائدين إلى سهل سپوليتّي.

وهكذا، في مدرسة فرنسيس الفريدة تلك، تمرّس ماسّيو بالتواضع، والفقر، وشتّى الفضائل السامية، وقد مضى إيغالاً في ممارستها طوال حياته المديدة، وحتّى انتقل إلى جوار ربّه عام ١٢٨٠.

روفان

هو سليل أُسرةٍ من النبلاء في أسّيزي، وابن عمٍّ للقدّيسة كيارا، مؤسِّسة الفرع الفرنسيسكانيّ النسائيّ. انضمّ إلى الأخويّة عام ١٢١٠، وظلّ من القلائل المقرَّبين من فرنسيس، والأوفياء له، ولرسالته ومُثُله.

كان نحيلاً، مُرْهَفًا، نَزوعًا إلى العزلة والتنسّك، غير موهوبٍ للخطابة والوعظ، ولا سيَّما أنّه كان مبتلًى بتأتأةٍ تعيق تعبيره.

وذات يومٍ، قدم من كهفٍ في الجبل، عقب أسبوعٍ قضاه، ثمَّة، في التعبُّد والتنسُّك، وقد شاعت على كلّ كيانه أنوار الروح القدس؛ وإذ رآه فرنسيس مفعمًا بالله، بادره بالقول: «يا أخي، كان عليَّ أن أعظ، غدًا، في الكاتدرائيّة؛ ولكن بما أنَّك مليءٌ بالتقوى، فإنَّني أرجوك أن تنوب، في ذلك، عنّي». وانتحب الأخ روفان، متوسِّلاً، وقد غشى العرق وجهه: «أتوسَّل إليك، يا أبتاه، أن تعفيني من هذه المهمّة، فأنت تعلم أنَّني لست أجيد الوعظ».

ولكنّ فرنسيس لم يتزعزع. وأجاب: «ثق بالله، وسيكون كلُّ شيءٍ على ما يرام».

وقضى روفان ليلته يرتعد ارتعاد قصبةٍ تعبث بها الرياح؛ وفي الباكر عاد إلى فرنسيس ملتمسًا إعفاءه من المهمّة التي أوكلها إليه. ولم يرُقْ لفرنسيس انعدامُ الثقة ذاك لدى

روفان فأمره حازمًا: «بل إنّي آمرك بالامتثال؛ وباسم الطاعة المقدّسة، آمرك أن تمضي بلا ثوبٍ، مرتديًا سروالك فحَسْبُ، عقابًا لك على انعدام ثقتك بالربّ».

كان وَقْعُ ذلك الأمر كالصَّاعقة على روفان، ولكنّه امتثل له، وقد ازداد ارتباكًا، وخِزْيًا، ورِعْدةً. وقد أثار منظره، وهو شبه عارٍ، دهشة أهالي أسّيزي ومَرَحَهم، وسخريّتَهم، فتحلَّق حوله الصِّبية يُصفِّقون، ويصيحون: «مجنونٌ، مجنونٌ»؛ وكذلك فعل بعض المارّة من الكهول؛ وعلى هذا النحو، ولج المسكين الكنيسة، فكاد يُغمى على الكاهن؛ ولكنّ روفان اعتذر متلعثمًا، وفي جمٍّ من التواضع: «هكذا شاء فرنسيس».

ولّما اعتلى المنبر، أثار منظره المُنْكَر ردود فعلٍ على قدرٍ كبيرٍ من التباين، بين استغرابٍ، واستنكارٍ، وشفقةٍ؛ وعبثًا حاول ذلك الواعظ الغريب الطراز أن يبسط آراءه حول الرياء، فقد كانت الألفاظ تتعثَّر على شفتَيْه، أو تختنق في حلقه، فيكرّر كلّ عبارةٍ، على نحوٍ مُشوّهٍ، أربع أو خمس مرّاتٍ، من غير أن يفلح في التعبير عمّا يعنيه، وقد تصبّب منه العرق، وارتعدت كلّ فرائصه. حتّى إنّ الحَرَج استولى على الحضور، إشفاقًا عليه.

في غضون ذلك، كان قد استحوذ على فرنسيس أشدُّ النَدَم على العقاب المُغرق في القسوة الذي أنزله بأحد أكثر الإخوة قداسةً؛ فتجرّد هو أيضًا، من ثوبه، وأهاب بالأخ ليون أن يمضي به، بأقصى سرعة، إلى الكاتدرائيّة؛ وكم كانت دهشة الحضور بالغةً، لدى مشاهدتهم واعظًا آخر، مجنونًا، يغشى الكنيسة، وهو لا يرتدي سوى السروال. ولكنّ فرنسيس هرع إلى المنبر، فألبس الأخ روفان ثوبه، وقبّله، معتذرًا، ثُمّ استصفح الجمهور عمَّا بدر منه، وبسط لهم ما جرى؛ وسرعان ما ساد صمتٌ مسحورٌ، عندما انطلق يعظ، بصوته الجليّ، الحلو الجِرْس، متكلّمًا عن عري يسوع على الصليب، في بلاغةٍ مؤثِّرةٍ، أخذت بمجامع قلوب الحضور، واستدرَّت دموعهم؛ وما كاد يفرغ حتّى تدافعوا للتبرُّك بلمسه.

وكان فرنسيس، على غرار الراعي الصالح، قد أُعطي أن يعرف نعاجه، ويطَّلع، بوحيٍ سماويٍّ، على فضائل تلاميذه وعيوبهم، فيشدّ من عزيمة المتواضعين، ويُليِّن عريكةَ المتكبّرين، منتقدًا العيوب، مادحًا الخصال الحميدة.

وذات يومٍ كان يُحدّث الإخوة المقيمين في الدير عن الله، فيما كان روفان معتكفًا متعبّدًا في الغابة، وإذ به يمرّ على مقربةٍ منهم، وهو مستغرقٌ في الله. حينئذٍ سأل فرنسيس إخوانَه:

– ما هي، في نظركم، أقدس نفسٍ وضعها الله في العالم الآن؟
– إنَّها نفسك، أبانا القدّيس.
– كم أنتم مخطئون، يا أحبّائي، فأنا أقلّ الناس استحقاقًا، وأكثرهم مهانةً تحت شمس الله. ولكن انظروا إلى أخينا روفان هذا، الذي خرج للتوّ من الغابة. لقد أوحى لي الربّ بأنّ نفسه من أقدس ثلاث نفوسٍ موجودةٍ في العالم اليوم؛ بحيث يمكنني القول، من غير أن أخشى الوقوع في خطإٍ، إنَّه بوسعنا أن ندعوه، منذ الآن، وهو على قيد الحياة، «القدّيس روفان»، إذ إنّ ربّنا يسوع المسيح ذاته، قد أعلن قداسته بنفسه.

ولكنَّه كان يتحاشى عن التحدُّث بمثل ذلك في حضور الأخ روفان نفسه؛ هذا، وكان فرنسيس قد أنقذ روفان من تجربةٍ شيطانيّةٍ ماكرةٍ كادت تودي به، إذ كان إبليس، الذي غاظته ممارسات الأخ القدّيس، قد طفق يشنّ عليه حملاتٍ شرسةً خبيثةً، جاهدًا في زرع القنوط في نفسه، وإشاعة الشكّ في ذهنه بأنَّه، مهما فعل، فمصيره الجحيم، لا محالة، وأنّ جميع فعاله الصالحة، وصلواته وتضحياته، إنْ هي إلاّ ضربة سيفٍ في مياه مُحيطٍ.

وقد بلغ المكرُ بإبليس أن ظهر يومًا، للأخ المسكين روفان، في شكل المصلوب، وقال له: «علامَ تُرهق نفسَك بالصلوات والتقشّف، وأنت قد حُكِم عليك ألاَّ تظفر أبدًا بالحياة الأبديّة؟ صدِّقني، فأنا من يختار أولياء الله. وحذارِ من تصديق ابن پييترو بيرناردوني، إن هو ادَّعى خلاف ذلك. ولا جدوى من استشارته في هذا الأمر، لأنّه لا هو، ولا أحدٌ سواه، على علمٍ بنواياي. وثِقْ، يا صديقي المسكين، أنّك مُدانٌ منذ الآن، وكذلك هو شأن پييترو بيرناردوني، وابنه، وأبيك، وجميع الذين يتبعون فرنسيس هذا».

صحيحٌ أنَّ ذلك المكر كلَّه لم يُفلح في تحويل الأخ روفان عن ممارسة الصَّلاة والتوبة، ولكنَّه أشاع القتام في نفسه، وأفقده الثقة في أبيه الروحيّ، الذي طالما عَلِقَ به، وأطاعه في اندفاعٍ مُطْلَقٍ؛ فأقلع عن مكاشفته بدخيلة ذاته. ولكن، من حسن طالعه، أنَّ الربَّ أوحى لفرنسيس بما كان يتعرّض له روفان، ويُخفيه عنه، فأرسل الأخ ماسّيو في أثره يستدعيه. وتمنَّع روفان، بادىء الأمر، محتجًّا: «مالي ولفرنسيس؟».

ولكنّ الأخ ماسّيو ردَّ، في حزمٍ، وقد أفعمت نفسَه حكمة الله: «يا أخي روفان، ألا تعلم أنَّ فرنسيس هو ملاك الله، وأنّه قد أشاع النُّور في نفوسٍ كثيرةٍ كانت قد ادلهمَّت بفعل إبليس، وأنَّنا مدينون له، أنت وأنا، بخلاصنا؟ لذلك آمرك أن تتبعني، فأنت في أشدّ الحاجة إلى مؤازرته».

وما إن رآه فرنسيس، من بعيدٍ، مقبلاً نحوه حتّى هتف: «أيّها الأخ المسكين روفان! لمن أعَرْتَ سمعَك؟».

وعندما اختليا، أخذ فرنسيس يصف له، بالتفصيل، التجربة التي كان ضحيَّتها، موضحًا له أنّها من فعل إبليس، لا من فعل المسيح، ثمّ أردف: «إيّاك والانسياق لإيحاءاته؛ وإن اتَّفق أن جاءَك من جديدٍ، أجبه: «افتح فاك واسعًا، فإنَّني أُريد أن أتغوّط فيه!» وحينئذٍ ستراه يفرّ في الحال، وذَنَبُه بين ساقَيْه، للدلالة عن أنّه إبليس حقًّا. وإليك، أيضًا، دليلاً آخر على هويّته الخبيثة: فها هو قد قسَّى قلبَك، وأوصده دون كلّ حبٍّ، وإنّما ذلك هو ديدنه. في حين أنّ المسيح لا يُقسّي أبدًا قلب مؤمنٍ، بل، على نقيض ذلك، يُليِّنه، على حدّ قول النبيّ: سأنتزع من صدركم قلب الحجر، وأُحلّ محلّه قلبًا من لحمٍ ودمٍ.

وعندما تبيَّن روفان أنّ فرنسيس كان مُلمًّا بكلّ دقائق تجربته، ذرف دموعًا حرّى، واعترف بالخطإ الذي اقترفه، عندما لم يبُحْ بما تعرَّض له، لأبيه ومرشده، الذي ملأته كلماتُه عزاءً وعزيمةً، وعادت به إلى سالف طبيعته. وقد أوصاه فرنسيس: «لا تتخلَّ عن ممارسات الصَّلاة والاعتراف والتَّوبة، وثِقْ بأنّ هذه التجربة ستكون لك ذات نفعٍ جزيلٍ، وستتحقَّق من ذلك قريبًا».

وقفل روفان إلى صومعته، وفيما هو كان راكعًا يصلّي تراءى له الخبيث من جديدٍ، في هيئة المسيح، وقال: «ألم أنصحك بعدم الإصغاء إلى تخرُّصات ابن پييترو بيرناردوني؟ أَلَم أقلْ لك إنّ صلواتك وتقشُّفاتك نافلةٌ، لا جدوى منها، بما أنَّك مدانٌ لا محالة؟».

فردّ عليه روفان بمثل ما علّمه فرنسيس، وإذ به يفرّ مذعورًا، مُحْدِثًا عاصفة ريحٍ هوجاء، وانهيار صخور جبل سوبازيو، التي استمرَّت تتدحرج فترةً طويلةً، في صَخَبٍ جهنَّميٍّ، ناشرةً الشرر في كلّ أرجاء الوادي. وقد شهد ذلك الحدث الرهيب، رهبانٌ كثيرون، في دهشةٍ وارتياعٍ؛ وهرع روفان إلى أبيه فرنسيس، فارتمى على قدميه شاكرًا.

وبعد فترةٍ وجيزةٍ تراءى يسوع لروفان، في صومعته، وخاطبه برقّةٍ، قائلاً: «يا بُنيَّ لقد أحسنت صُنْعًا بامتثالك لإرشاد فرنسيس، فالذي قذف بك إلى هوّة الحزن عَدوّي. أمَّا أنا فسأبقى أبدًا المسيح الحقّ؛ وكدليلٍ إضافيٍّ على ذلك، لن تعرف، من بعدُ، الحزنَ، ما حَيِيتَ».

جينيفير

من أكثر الوجوه الجذَّابة تألُّقًا في الأخويَّة الفرنسيسكانيّة، كان الأخ جينيفير. ذلك الاسم يعني نبتة العرعر. وقد امتاز جينيفير بالاندفاع والتلقائيّة، كما امتاز، مادّيًّا، بجسمٍ فارعٍ منيعٍ، وذراعَيْن مفتولتَيْن، وكفَّيْن واسعتَيْن شديدتَيْن؛ وقد أحبَّه فرنسيس بحيث قال عنه: «ليته كان لدينا حقلٌ من مثل هذا العرعر».

ذات يوم، انتابت الحمّى واحدًا من الإخوة يدعى جيوڤاني، فلازمه جينيفير، يسهر عليه، ويُعنى به، ويسقيه كلّما عطش؛ وفيما كان جاثيًا إلى جانبه يُصلّي، سمعه يئنّ، فسارع إليه، وسأله هل هو راغب في كأس ماءٍ أُخرى، فأشار العليل بالنَّفي، ثمَّ أردفَ لاهثًا: «ليتني أظفر بقدم خنزيرٍ مسلوقةٍ أو مشويّةٍ، فهي كفيلةٌ بشفائي». وفي الحال وثب جينيفير إلى المطبخ، حيث تناول سكّينًا شحذه بإحكام؛ ثمَّ حاول استئذان فرنسيس بالخروج، ولكنَّه وجده مُستغرِقًا في التأمّل، فلم يشأ أن يفسد صلاته؛ وهرع إلى حقلٍ حيث كان قطيعٌ من الخنازير يرعى، فيما كان صاحبها مستلقيًا، طَرِبًا، يُغنّي. وقبض جينيفير على أحد الخنازير، فبَتَر إحدى قوائمه، وتركه يزأر وينزف، وعاد مهرولاً إلى الدَّير، حيث أصلح القائمة، وقدّمها لأخيه المريض. وما هي إلاّ دقائق حتّى لحق به راعي الخنازير، مُنذرًا، شاتمًا، مُتوعِّدًا بقتل الأخ السارق، المجرم. وأيقظت الجلبة فرنسيس من تأمّله، فاستوضح الأمر، وأنَّب الأخ جينيفير على فعلته؛ بيد أنّ الأخ استأذن بالدفاع عن نفسه، ومضى يقول، مبتسمًا، متوثّبًا، وهو يومئ بإيماءاتٍ عريضةٍ، وكأنّه يمثّل على مسرح: «إنّ أخانا الحبيب جيوڤاني، حمل الله الوديع هذا، يعاني من المرض، وقد تيقَّن أنَّ قائمة خنزيرٍ كفيلةٌ بشفائه. وبما أنّنا لا نملك مالاً لابتياعها، وفي آنٍ معًا، لا يسعنا أن ندع أخًا يموت لعدم حصوله على قائمة خنزيرٍ، فلم يكُنْ لديَّ من حيلةٍ سوى اقتطاعها من أحد الخنازير. وما قيمة قائمة خنزيرٍ، بل ما قيمة الخنزير كلّه، مقابل صِحّة أخٍ قدّيسٍ!» ثمّ ارتمى على عنق راعي الخنازير، وقبّله قائلاً: «إنّني أشكرك، لأنَّك، بفضل خنزيرك، قد أنقذت أخًا وديعًا، لذلك لا تغضب ولا تبتئس، بل فلنشكرنَّ الله معًا، لأنَّه يعطينا الثمار والفواكه والبهائم لأجل حياتنا، ويريد أن نكون، جميعًا، أبناءً له، وإخوةً فيما بيننا، يساعد أحدنا الآخر».

وأطرق راعي الخنازير برهةً، وقد تسلَّلت حُجَج الأخ جينيفير إلى أعماق قناعته، ثمّ

اعتذر عن غضبه، وقال: «في الحقيقة، لقد أَغفلتُ الربَّ طويلاً، وكان عليَّ أن أُسدي لكم بعض الخدمات، وها إنّي بكلّ سرور أُقدّم لكم هذا الخنزير».

وفي الحال مضى فنحره وشواه، وعاد به إلى الإخوة متهلّلاً.

وفي نوبةٍ أُخرى، وصل جينيفير إلى ديرٍ صغيرٍ، كان الإخوة فيه يهمّون بالانصراف إلى أعمالهم، فأَوكل إليه الأخ الرئيس، أَمر الدير، قائلاً: «احرسه جيّدًا، أثناء غيابنا، واطبخ لنا بعض الطعام نتناوله لدى عودتنا».

ولكنَّه، بعد أن انفرد بنفسه، راح يُجيل في خاطره المهمّة التي أُوكلت إليه، آسفًا على الساعات الطوال التي يُزجيها، حتمًا، أحد الإخوة في إصلاح الطعام، والتي كان من الأجدى وقفها على الصلاة. واتّخذ قرارًا خطيرًا بإصلاح كمِّيَّةٍ وفيرةٍ جدًّا من الزاد تكفي الإخوة خمسة عشر يومًا، يتحرّرون، خلالها، من ضرورة إعداد الطعام. فجمع كلّ ما استطاع العثور عليه من دجاجٍ، وبيضٍ، وخضارٍ، وألقاها كما هي: أي الدجاج بريشه، والبيض والخضار بقشورها، في وعاءٍ كبيرٍ مليءٍ بالماء، وأوقد تحته نارًا من الشدَّة بحيث لم يعد بوسعه الاقتراب منها، واضطُرّ إلى تحريك الطبيخ بعصًا طويلةٍ، من بعيدٍ؛ ولمّا عاد الإخوة دعاهم إلى الوليمة، مؤكِّدًا لهم أنَّهم سيتمتَّعون بها مدى أسبوعين، من غير حاجةٍ إلى هدر أيّ وقتٍ في إعداد الزَّاد. ولكن، لم يستطع أيٌّ منهم ازدراد لقمةٍ واحدةٍ من ذلك الحساء الهجين. وعندما تبيَّن حماقة فعلته، أخذ يستغفرهم، بسبب إفساده كلّ تلك المؤونة. ولكنَّه رُبّما هو رمى بذلك إلى لفت انتباههم إلى الوقت الثمين الذي يهدرونه يوميًّا في إعداد طعامهم.

وقد عزم جينيفير، يومًا، على الاستغراق في التأمّل أطول فترةٍ ممكنةٍ، فصمَّم على الصمت، في اليوم الأوّل، إكرامًا لله الآب، وفي اليوم الثاني، إكرامًا لله الابن، وفي اليوم الثَّالث إكرامًا للرُّوح القدس، وفي اليوم الرابع تعبيرًا عن محبّته للسيّدة العذراء، أمّ الله. وفي يومٍ تالٍ، صمت إكرامًا لأحد القدّيسين، وهكذا استطاع المحافظة على الصمت ستَّة أشهرٍ بلا انقطاعٍ.

أمَّا حين كان يتكلّم، فقد كان ينطق بحكمةٍ فائقةٍ، ومن أقواله المأثورة: «هل تعرفون أُناسًا نبلاء، يمنعهم نبلهم من حمل الزِّبل، إن كانت تلك هي وسيلتهم إلى كسب ذهبٍ بحجم بناءٍ كاملٍ؟ وعليه، فعلامَ نتقاعس، ونرفض تحمُّل التضحيات الزهيدة، إن كان من شأنها أن توفِّر لنا السَّعادة الأبديَّة؟».

ولإخوةٍ جاؤوه مستفسرين عن وسائل طرد الخواطر الدنسة أوضح أُسلوبه في هذا المضمار بقوله: «إنّني حالما أشعر باقتراب المُجرّب، أفزع إلى أعماق قلبي برفقة خواطر مقدّسةٍ ساميةٍ، وأُوصد بابه؛ ثمّ أصيح في وجه الشرّير عندما يطرق الباب: «امضِ في سبيلك، فالنَّزْل مليءٌ. ولا نفتح لأيّ قادمٍ»، وما إن يسمع إبليس ذلك حتّى ينكفئ خاسئًا».

أمَّا الوصيَّة الفرنسيسكانيّة التي كان جينيفير شديد التقيّد بها، فهي تلك التي تقول: «فَلْيُلَبِّ الإخوة طلب جميع السائلين؛ وإذا ما انتُزعت منهم حتّى جبَّتهم، فليهبوها من غير مقاومةٍ». وفي هذا المجال، كان جينيفير، على غرار معلّمه القدّيس، لا يُطيق أن يرى أحدًا في زيٍّ أكثر فقرًا من زيّه، ومن ثمّ لم يكن يتردّد في اقتطاع هدبٍ من ثوبه، أو في التنازل عن جبّته بأكملها لمن هم أكثر منه إملاقًا. وذات مرَّةٍ، في أعقاب واحدةٍ من بوادر السَّخاء تلك، كان رئيسه قد أنَّبه بعنفٍ على إفراطه؛ ولكن ما كاد جينيفير يخرج من الدير، بعد فترةٍ وجيزةٍ، حتّى التقى مُتسوّلاً يرتعد قرًّا في أسماله الرقيقة المثقوبة، فبادره بالقول: «يا له من توقيتٍ غير ملائمٍ، فإنَّ رئيسي قد حظر عليَّ منذ لحظاتٍ، أن أتخلّى عن جبّتي. ولكنَّك إن عزمت على سلبي إيّاها، فلن أمنعك». ولم يكن المتسوّل في حاجةٍ إلى أكثر من تلك الدعوة المُبطّنة، حتّى يقبل على الأخ جينيفير، ويجرّده من جبّته، ويمضي بها جاريًا، في حين عاد الأخ جينيفير أدراجه إلى الدير، بغلالاته الداخليّة، وهو عرضةٌ لسخريّة المارّة والإخوة. وحينئذٍ استشاط الرئيس غيظًا، وصاح: «لست أدري أيّ عقابٍ يتوجّب أن أُوقعه بك، عن مثل هذا السلوك المخزي». فأجابه جينيفير: «أبتاه، سأدلّك أنا إليه: مُرْني أن أعود من حيثُ أتيت، في هذا الزيّ المخزي الذي أنا فيه».

وفي أعقاب وفاة القدّيس فرنسيس، مضى الأخ جينيفير قُدُمًا في عطائه المفرط، فبات لا يتوانى عن التبرّع للفقراء بالكتب، وبجميع الأشياء الثمينة التي كان يَعُدّها نافلةً في بيتٍ فرنسيسكانيٍّ، ممَّا حدا بالإخوة إلى إحكام إقفال خزائنهم، حيث كانوا يودعون كتبهم وأشياءهم ليحموها من إسراف الأخ جينيفير في العطاء.

ومع ذلك أغفل الإخوة، يومًا، ذلك الميل لدى جينيفير، الذي لم يكن يقوى على مقاومته، فأَوكلوا إليه حراسة هيكل إحدى كنائس أسّيزي، فراح ينتزع أجراسًا فضّيّةً ثمينةً، كانت تتدلّى من أغطية الهيكل، ويوزّعها على الفقراء. وكان سخط الرئيس

عليه من الشدّة، وكان تأنيبه له من الحدّة، بحيث كاد يُبحُّ صوته. وفي حوالي منتصف تلك الليلة، قُرع باب صومعة الرئيس، وعندما فتحه فوجئ بالأخ جينيفير، حاملاً شمعةً في يدٍ، وفي اليد الأُخرى طبق حساءٍ تتوسَّطه قطعة زبدةٍ كبيرةٌ، وقائلاً: «أبت، لقد كان صراخك، هذا المساء، من الشدَّة بحيثُ بُحّ صوتك؛ ولذا جئتك بهذا الحساء بالزبدة علَّه يُفيد حلقك وصدرك». ورفض الرئيس عرضه باستياءٍ، وكاد يصفق الباب في وجهه، داعيًا إيّاه إلى الكفّ عن تلك المهازل السخيفة، ولكنّ جينيفير أجابه ببساطةٍ متناهيةٍ: «بما أنّك تزدري حسائي، وبما أنَّه لا يسوغ أن نلقي به ونهدره، أرجوك أن تمسك الشمعة، حتّى أتناول الحساء بنفسي». وحيال تلك البساطة الفريدة استسلم الرئيس، وتغلَّبت عليه الروح الفرنسيسكانيّة، فجلس والأخ جينيفير أرضًا، وتناولا الحساء معًا، وهما يضحكان.

وذات يومٍ قُبض على جينيفير، في مدينة فيتربي، بتهمة التجسّس؛ إلاّ أنَّه، عملاً بوصيّة «عدم مقاومة الأشرار» لم يعترض، ولم يقاوم، وقُيّد بذيل حصانٍ، وشُرِع بجرّه، عندما سارع رئيسه، فبدّد الالتباس الحاصل، وأثبت براءته، في حين لم ينبس هو بحرفٍ واحدٍ.

مثل تلك الطُّرَف الشيّقة، فضلاً عن سيرة الأخ جينيفير المفعمة قداسةً، قد أشاعت صيته في كلّ إيطاليا، بحيث غدا كثيرون يقدمون إليه لسماعه والتبرّك به؛ وكان، هو، يضيق بذلك ذَرْعًا. وذات يومٍ، شخص إلى روما في مهمّةٍ، وتنامى الأمر إلى بعض سكّانها، فهرعوا لمشاهدته، ومنهم بورجوازيُّون في ثيابٍ أنيقةٍ، ونساءٌ يرفلن في هفهفة الحرير، وعبق العطور؛ وكان لا بدّ للأخ جينيفير من تخييب ظنّ أولئك الفضوليّين، مُدّعي التقى. ولحظ في حقلٍ على كتف الطريق صبيَّين يتأرجحان، وقد جلس كلٌّ منهما على طرف خشبةٍس تصعد وتهبط، فرجا أحدهما أن يعيره مكانه؛ وكم كانت دهشة الرومانيّين الأنيقين بالغةً، لرؤيتهم رجل الله مستغرقًا في العَبَث كالفتية؛ ومع ذلك حيُّوه باحترامٍ، وتلبَّثوا ينتظرون حتّى يكفّ عن عَبَثه، فيوليهم بعض اهتمامٍ؛ بيد أنّ انتظارهم طال، وهو متظاهرٌ بتمتّعه المفرط بالتأرجح، إلى أن سئموا، وعادوا أدراجهم. حينئذٍ، فقط، هبط عن الخشبة، وواصل سيره.

وقد بلغ صيت قداسته من الذيوع، بحيث غدا الذين تسكنهم الأرواح الشرّيرة يفرّون إلى الحقول، إن هم رأوه، من بعيدٍ، مُقْبلاً؛ وبحيث بات فرنسيس نفسه، إذا ما

استعصى عليه أمر أحد الأبالسة، يُهدّده قائلاً: «إن لم تنصرف في الحال، فسأستدعي الأخ جينيفير». وكانت تلك الكلمات كافيةً لتحرير الممسوس من الروح الشرّير.

وقد اشتدّت العلّة بفرنسيس، يومًا، وخارت قواه، فاصطاد له جينيفير عصفورًا، وأصلحه أحسن إصلاحٍ، وقلاه بالزيت، وأقنع معلّمه بتناوله، وهو يحادثه في مرحٍ. فتناول فرنسيس العصفور المقليّ في شهيّةٍ ومتعةٍ، ولكنّه ما كاد يفرغ منه، حتّى انتابته موجة ندمٍ ساحقٍ، وراح يُقرّع نفسه قائلاً: «أيّها النَّهِم المرائيّ، إنّك لا تكفّ تدعو إلى التوبة، وتُحذّر الإخوة من مُتَع الطعام، ولكنّك، خلسةً، تلتهم الطيور! أيّها الجسد الحمار، ستدفع ثمن نَهَمِك غاليًا».

وفي الحال استدعى أخًا بسيطًا كان يرافقه كظلّه، ويمتثل، بلا تردّدٍ، إلى كلّ ما يأمره به، فطلب منه أن يضع حبلاً حول عنقه، ويجرّه كما يُجرّ الحمار، عبر شوارع أسّيزي، وهو يصيح بملء صوته: «تعالوا، أيّها الناس الطيّبون، واشهدوا هذا الرجل الذي يدعوكم إلى الصوم والتوبة، ولكنّه، خلسةً، يلتهم الطيور اللذيذة، في متعةٍ كبرى، بحجّة أنّ معدته تؤلمه. يا له من نَهِمٍ ومراءٍ!».

وهكذا راحا يردّدان تلك النداءات في أزقّة أسّيزي، يواكبهما جمهرةٌ من الفضوليّين.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الأخ جينيفير قد ظلّ من أوفى المقرّبين إلى فرنسيس، ثُمّ، بعد مماته، إلى القدّيسة كيارا، التي كانت، على فراش نزاعها، تسأله، كلّما عادها، عمّا لديه من أخبار الله، وعلى حدّ قول الرواة «كان يجلس إلى جوارها، ويفتح فمه، فتتناثر من أتّون قلبه الملتهب، شرارات أقواله المقدّسة المضطرمة».

جيوڤاني البسيط

ومن الفرنسيسكانيّين الأوائل، وجهٌ مُحبَّب عَذْبٌ، هو وجه جيوڤاني البسيط. كان جيوڤاني فلاّحًا ساذجًا، عفويًّا، من أولئك الفقراء بالرُّوح الذين آثرهم يسوع. وكان قد استمع إلى فرنسيس واعظًا، فأجلّه، وشُغِفَ به؛ ثمَّ اتّفق أن دخل، يومًا، كنيسةً ليُصلّي، وكان فرنسيس قد سبقه إليها، ولكن لم يُطِقْ ما وجدها عليه من قذارةٍ، فاصطنع مكنسةً من أغصان أشجارٍ، وعكف على تنظيفها. وتَعَرَّفه جيوڤاني، فأخذته الغيرة، وأبى أن يقف مُتفرّجًا على قدّيس يكنس، فبادر وانتزع المكنسة من يده، ونهض بالمهمّة عنه، في غمرةٍ من الاندفاع. ثمَّ جاء وجلس إلى جانب فرنسيس، وقال له إنّ

الأخ ليوناردو يداعب الحمام

صدفة لقائهما إنَّما هي تدبير العناية الإلٰهيَّة، إذ كانت تراوده، منذ زمنٍ، رغبةٌ في الالتحاق بالأخويّة الفرنسيسكانيّة؛ وتأثّر فرنسيس بذلك الاندفاع الصادق، وأوعز إلى جيوڤاني أن يتخلّى عن كلّ شيءٍ وينضمّ إلى الإخوة؛ وفي الحال جرى جيوڤاني فودَّع ذويه وإخوته، وعاد بثَوْرٍ هو كلّ حصّته من الميراث العائليّ، مؤكِّدًا أهبته لبيعه وتوزيع ثمنه على الفقراء، ولكنّ الأمر بدا وكأنَّه يُنذر بكارثةٍ على إخوة جيوڤاني، إذ كان من شأنه حرمانهم، لا من مُعيلهم فحَسْبُ، بل من الثَّوْر الذي يُمثِّل جزءًا جسيمًا من ثروة العائلة، ووسائل عيشها؛ وتعالت صيحات انتحابهم، حتّى تنامت إلى آذان فرنسيس، وحطَّمت قلبه. فشَخَص بنفسه إلى منزل ذوي تلميذه الجديد، وبدماثته المعهودة، وأُسلوبه العذب، طيَّب نفوسهم، ودعاهم إلى بسط المائدة، والاشتراك في الطعام معًا؛ وبيَّن لهم أنَّ جيوڤاني سيُصبح بمثابة ملكٍ، بتكريس نفسه لخدمة اللّٰه، وسيكون ذلك للأسرة كلِّها شرفًا عظيمًا. ولمس فرنسيس فقر الأسرة المُدقع، فبادر إلى طمأنتهم بأنَّ الثَّوْر لن يُنتَزَع منهم. وحينئذٍ عمَّهم السرور والغبطة، لأنَّهم لن يفقدوا ثَوْرهم، وفي آنٍ معًا، سيغدو أخوهم الأكبر مَلَكًا في مملكة اللّٰه.

ومذ ارتدى جيوڤاني الثَّوب الفرنسيسكانيّ، لازم فرنسيس ملازمة ظلِّه، فكان يجلس، أبدًا، خلفَه، على بعد خطواتٍ منه، ويُقلِّد، بدقَّةٍ، كلّ حركاته، فإن رفع يديه إلى السماء، رفع، هو أيضًا، يديه، وإن انحنى انحنى، وإن قحَّ قحَّ بدوره، وإن تنهَّد تنهَّد.

وقد استثار هذا التقليد، باديءَ الأمر، ضَحِكَ الإخوة، ولكنّ جيوڤاني، في بساطة الحمامة ووداعتها، كان يقول: «إنّ فرنسيس لقدّيس، ومن ثمَّ فإن أنا قلَّدته في كلّ شيءٍ، تعذَّر على إبليس النيل منّي».

وقد أحبّ فرنسيس جيوڤاني، تلقائيًّا، ولكنَّه ضاق ذرعًا بتقليده الآليّ له، فعنَّفه، ولكن عبثًا، إذ أجابه جيوڤاني: «لقد نَذَرْتُ أن أفعل كلَّ ما تفعله أنت، وسأفعل ذلك أبدًا». واستسلم فرنسيس حيال تلك البراءة التي لم ينَلْ منها العالم، وشفافيّة تلك النفس التي لم تُكدِّرْها الخطيئة.

وكانت أقسى محنةٍ تحلّ بجيوڤاني، غيابُ فرنسيس عن اليورتسيونكولا فترةً، من غير أن يصطحبه. فكان المسكين، حينئذٍ، ينزوي في زاويةٍ، كالفأر المذعور، لا ينبس بلفظةٍ، ولا يبدي حراكًا، حتّى يعود معلِّمه القدّيس.

وكان لا ينفكّ يخطو في مضمار القداسة خطواتٍ تستفزُّ إعجاب الجميع. غير أنَّ

المنيّة باغتته في عام ١٢١٣؛ ومع أنّ حياته الرهبانيَّة كانت شديدة القصر، إلاّ أنَّها خلَّفت ذكرى لم تُمحَ قطّ؛ وعندما كان فرنسيس يأتي على ذكره، كانت تمتزج، عنده، الغصَّة بفرحٍ رائعٍ، ولم يكن يصِف الغائب العزيز إلاّ بالقدّيس جيوڤاني.

ليون

أمّا الأخ الأكثر التصاقًا بفرنسيس، والأشدّ وفاءً له، فهو مُعَرِّفه، وأمين سرّه، ونجيُّه، الأخ ليون، ذو العينَيْن الزرقاوَيْن الصغيرتين، واللحية القصيرة القاسية، والذي أَلِفَ فرنسيس تسميته «حَمَل اللّه الصغير» بسبب تواضعه، وتوغُّلِه في الكمال، في حين كان الآخرون يطلقون عليه اسم الملاك. كثيرًا ما كان يشارك فرنسيس تأمُّلاته وصلواته، ويكبّ الساعات الطوال على تدوين أقواله وإرشاداته، وتطلّعاته، فإذا ما رفع عينَيْه عن الرقّ المخطوط، التمعت فيهما أنوارٌ سرِّيَّةٌ سنيَّةٌ، وكأنَّهما ما زالتا تحدِّقان إلى رؤًى سماويَّةٍ.

ذات يومٍ، كان فرنسيس وليون على سفرٍ، ولا يحملان كتاب «السواعية» المتضمّن الصلوات الرهبانيّة، ولكنّهما أبيا أن يفوّتا فرصة الصلاة. فاقترح فرنسيس أن يتلوَا دعاءً بالتَّناوب، فيبدأ هو بالقول: «أيّها الأخ فرنسيس، لقد ارتكبتَ، في هذا العالم، من الشرور والخطايا ما تستأهل معه نار جهنَّم». وكان على الأخ ليون أن يعقّب: «أجل، ذلك صحيح، وإنَّك جديرٌ بالمثول إلى أعماق الجحيم». وما كان من الأخ ليون، الذي عُهدت عنه وداعةٌ نادرةٌ، سوى القول: «حسن، يا أبتاه، فلنبدأ باسم الربّ».

وشرع فرنسيس يُقرّع نفسه قائلاً: «أيّها الأخ فرنسيس، لقد فعلت من الشرّ، وارتكبتَ من الخطايا، ما تستأهل معه نار جهنّم». ولكنّ الأخ ليون عقَّب: « أيّها الأخ فرنسيس، إنّ اللّه سيُحقِّق بواسطتك من الخَيْر ما يُؤهّلك للإقامة في الفردوس». واعترض فرنسيس صائحًا: «ليس هذا ما يتوجَّب عليك قوله، أخي ليون، بل عندما أقول: «أيُّها الأخ فرنسيس، إنَّك تستحقّ الدينونة» عليك أن تجيبني: «أجل، حقًّا تستحقّ أن يُقذف بك بين المُدانين». وحنى ليون رأسه بالموافقة، قائلاً: «حسن، يا أبتاه».

وأخذ فرنسيس ينتحب ويتنهّد، قارعًا صدره، وهاتفًا: « أيّها السيّد، إلٰه السماء والأرض، لقد ارتكبتُ من الذنوب، ما أستأهل معه أن أُلقى بين المُدانين». ولكنّ الأخ ليون أجاب: «أيّها الأخ فرنسيس، إنّ اللّه سيُحقّق بواسطتك من الأمور العظيمة، ما يجعلك قدّيسًا بين القدّيسين».

واعترت الدهشة فرنسيس من جرَّاء إصرارِ الأخ ليون على الردّ بنقيض ما أمره به، وأنحى عليه، لذلك، باللائمة، وقال له: «لمَ لا تجيبني على نحو ما أطلب منك؟ إنَّني، باسم الطاعة المقدَّسة، آمرك أن تجيبني، على نحو ما سأُلقّنك الآن. فأنا أقول: «يا فرنسيس التّعيس، كيف تستطيع الظنَّ بأنَّ اللّه سيرأف بك، مع أنَّك ارتكبت من المعاصي، تجاه الآب الرؤوف، وإله المحبّة، بحيث لا تستحقُّ أيَّة رأفةٍ؟» وعليك، حينئذٍ، أن تجيبني، بدقَّةٍ، أيّها الأخ ليون، ويا حَمَل اللّه الصغير: «صحيحٌ أنَّك غير جديرٍ بالرأفة».

ولكن ما إن فرغ فرنسيس من دينونة ذاته، حتّى أجابه ليون: «أيّها الأخ فرنسيس، إنَّ رحمة اللّه هي أعظم بما لا يُقاس من خطاياك، واللّه سيغمرك برأفته، لا بل ببركاته أيضًا». حينئذٍ امتعض فرنسيس، وأنَّب الأخ ليون بحدَّةٍ، قائلاً: «ما بك تعصى أوامري، على هذا النحو، وتجيبني، في كلّ مرَّةٍ، على النقيض تمامًا ممّا آمرك بقوله!» وردّ الأخ ليون، في جمٍّ من التواضع والاحترام: «يا أبتاه، يشهد اللّه أنَّني، في كلّ مرّةٍ، قد أردت الإجابة بمثل ما أمرتَني، ولكنّ اللّه نفسه يحملني، قسرًا، على التكلُّم بما يروق له، لا بما أرغب أنا». بيد أنّ فرنسيس مضى في إصراره قائلاً: «بحقّ حبّك لي، أرجوك، هذه المرَّة، أن تجيبني على نحو ما طلبتُ منك».

ولكنّ ليون المسكين، ردَّ قائلاً: «إنَّني، في كلّ مرَّةٍ، رغبتُ في الامتثال لرغبتك، ولم أستطع». واستأنف فرنسيس منتحبًا: «أيّها الأخ فرنسيس التعيس، الماكر، كيف تستطيع الظنّ بأنَّ اللّه سيرأف بك؟» فأجاب ليون: «أيُّها الأخ فرنسيس، ستظفر من اللّه بآلاء جليلةٍ، وستُعظَّم وتُمجَّد إلى الأبد، لأنَّ من اتَّضع، ارتفع؛ وإنّه ليتعذّر عليَّ أن أقول لك غير ذلك، فاللّه نفسه هو الذي يتكلَّم بفمي».

الفرح الكامل

وفي مناسبةٍ أُخرى، كان فرنسيس وليون عائدين من پيروجيا إلى الپورتسيونكولا وقد لسعهما البرد القارس، فبادر فرنسيس الأخ ليون، الذي كان يسير أمامه، بقوله: «أيُّها الأخ ليون، حتّى لو كنّا أفضل نموذجٍ في العالم للقداسة، والقدوة الحسنة، فثِقْ واذكر أبدًا أنَّ الفرح الكامل لا يكمن في ذلك».

وبعد أن اجتازا بضع خطواتٍ، عاد فرنسيس، وابتدر ليون بقوله: «أيُّها الأخ ليون، حتَّى لو أُوتينا سلطان إعادة البصَر إلى العميان، والحركة إلى المقعدين، والسَّمع إلى الصمّ، والنُّطق إلى البُكْم، وطَرْد الشياطين؛ لا بل لو استطعنا بعث الموتى، أربعة أيَّامٍ بعد موتهم، فاستمع جيِّدًا إلى ما أقوله لك: إنَّ الفرح الكامل لا يكمن في هذا».

وتقدَّما بضع خطواتٍ أُخرى، فاستأنف فرنسيس، للكرَّة الثالثة: «أيُّها الأخ ليون، لو أُوتينا النُّطق بجميع الأَلسُن، والإلمام بجميع العلوم، واستظهار كلّ الكتاب المقدَّس غيْبًا، واستجلاء الغيب، ومكنونات الصدور، فأؤكّد لك أنَّ الفرح الكامل لا يكمن في ذلك».

ثمَّ، عقب برهةٍ وجيزةٍ، أعاد فرنسيس الكرَّة قائلاً: «أيُّها الأخ ليون، يا حَمَل الله الصغير، حتَّى لو تكلَّمنا لغة الملائكة، واطَّلعنا على مسيرة الكواكب، واكتشفنا خواصّ الأعشاب، ووقفنا على جميع كنوز الأرض، وعلى جميع خصائص الطيور والأسماك، والبهائم والبشر أجمعين، والأشجار، والصُّخور، والمياه فلتعلم جيِّدًا، أخي ليون، أنَّ الفرح الكامل لا يكمن في ذلك».

واستأنفا السير، فترةً، في صمتٍ قطعه فرنسيس من جديد قائلاً: «أيّها الأخ ليون، حتَّى لو أُعطينا موهبة الوعظ في فصاحةٍ جعلت جميع الملحدين يرتدّون إلى الإيمان بالمسيح، فلاحظ جيّدًا ما أقوله: إنَّ ذلك لن يهبنا الفرح الكامل».

وتعاقبت، على هذا المنوال، فترات الصَّمت التي كان يقطعها فرنسيس بين فينةٍ وأُخرى ليؤكّد أنّه حتّى الحظوة بأكثر الأمور إعجازًا، عاجزةٌ عن توفير الفرح الكامل، حتَّى كاد ينفد صبر الأخ ليون، فاستوضحه متلهِّفًا: «استحلفك بالله، يا أبتاه، أن تُبيِّن لي أين نستطيع إدراك الفرح الكامل».

وحينئذٍ قال فرنسيس:

«عمَّا قريب سنبلغ اليورتسيونكولا، وقد خرق جسمنا المَطَر، ولطَّخنا وحل الطريق، وأنهكنا الجوع، فإذا ما جاء بوّاب الدير، آنذاك، ردًّا على قرعنا الباب، واستوضح بجفاء، عن هويّتنا، فأجبناه إنَّنا اثنان من الإخوة، إلاّ أنَّه ردَّ: «إنّكما تكذبان، فما

أنتما سوى لصَّين، وقاطعي طرقٍ، ممَّن يهاجمون الناس غدرًا ويسلبون حتّى الفقراء ما ظفروا به من إحسانٍ»، إذا ما تكلَّم على هذا النَّحو، ورفض فتح الباب لنا، وترَكَنا في الخارج، يعضُّنا الجوع، تحت وابل الثلج والمطر، نعاني لسعات البرد؛ وإذا ما داهمنا اللَّيل، ونحن على هذه الحال، ومع ذلك ظَلَلْنا صابرَيْن على تحمُّل تلك المهانة، والقسوة، والمعاملة الجافية، من غير أن يستبدَّ بنا الغضب، ومن غير أن نتذمَّر من سلوك الأخ البوّاب؛ لا بل إذا ما دفعنا التواضع والمحبَّة إلى التفكير بأنَّ ذلك الأخ إنّما فعل ذلك من جرَّاء معرفته لحقيقة أمرنا، وأنَّ الله هو الذي نطق، بلسانه، على هذا النحو، فثِقْ، أخي ليون، بأنَّ في ذلك يكمن الفرح الكامل.

«وفضلاً عن ذلك، إذا ما استمرَرْنا في قرع الباب، فخرج الأب البوَّاب غاضبًا، وعدَّنا حثالةً ومُزعجين، وطردنا بعد أن أوسعنا ضربًا، قائلاً: «ارحلوا من هنا، أيُّها الأنذال الوقحون، فليس لدينا طعامٌ أو ملجأٌ لأمثالكما»، حينئذٍ، أخي ليون، إذا ما تلقَّينا ذلك بصبرٍ، وفرحٍ، ومحبَّةٍ، فاعلم أنَّ في ذلك يكمن الفرح الكامل.

«بل فلنفرض أنَّنا، بدافع الجوع والبرد، وحلول الليل، عدنا فقرعنا الباب، مذرفين الدموع الحرَّى، متوسّلين الأخ البوّاب أن يدعنا ندخل، إكرامًا لله، وأن يأذن لنا بالاستلقاء في مكانٍ أمينٍ؛ ولنفرض أنَّه ازداد غيظًا، وصاح: «يا لكما من نَذْلَيْن وقحَيْن، ها أنتما ستنالان ما تستأهلان!»، فانقضَّ علينا بعصاه المُعقَّدة، وأمسكنا من قلنسوتنا، وطَرَحَنا أرضًا، ومرَّغنا في الثَّلج، وأوسعنا بعصاه ضربًا، فحينئذٍ، إذا ما نحن تحمَّلنا ذلك، أيضًا، في صبرٍ وفرحٍ، ونحن نفكّر بآلام المسيح قانعين بأنّ أفضل ما نقوم به هو أن نتألَّم محبَّةً به، فثِقْ، أخي ليون، بأنّ في ذلك **الفرح الكامل**.

«والآن سأوضح لك خلاصة كلّ ذلك، أخي ليون! ففوق فرح جميع نعم الله، والآلاء التي يحبو بها الروح القدس أولياءَه، ثمَّةَ فرحٌ أعظم، يكمن في قهر الإنسان ذاته، وفي تحمُّله، طوعًا، حبًّا بالمسيح، كلَّ أَلَمٍ وإهانةٍ وظلمٍ. فنحن لا يحقُّ لنا أن نفخر بأيٍّ من نعم الله الأُخرى، إذ لا فضل لنا فيها، بل هي من الله، ممَّا جعل الرسول يقول: «أيُّ شيءٍ تمتلكه، ولم يسبق لك أن نلتَه؟ وبما أنَّك نلتَ كلَّ شيءٍ، فعلامَ تزهو وكأنّك تملكه من عندك؟» ولكن، يحقّ لنا أن نفخر بمِحَننا، وآلامنا وصُلباننا؛ ولذلك يقول الرسول أيضًا: «لا أريد أن أفخر إلاّ بصليب سيّدنا يسوع المسيح».

* * * * * *

وفيما كان الأخ ليون يُعنى، يومًا، بفرنسيس المعتلّ، اختُطِف بالروح، في أثناء

صلاته، واقتيد إلى ضفاف نهرٍ عريضٍ، هادر الأمواج؛ وهناك راح يراقب أناسًا يُحاولون اجتياز النهر. وكان، في ما بينهم، عدَّة رهبانٍ قد أثقلتهم أعباء تبهظ عواتقهم. بعضُهم لم يستطع تخطّي ثلث عَرْضِ النهر، وبعضهم بلغوا منتصفه، وآخرون كادوا، بجهدٍ شاقٍّ، يجتازون معظمه؛ بيد أنَّ الأمواج الهائجة، والأعباء الباهظة، كانت تحول بهم، جميعًا، دون العبور إلى الضفّة الأُخرى، إذ كان التيَّار ينتهي بجرفهم، عاجلاً أو آجلاً، فيتحطّم قلب الأخ ليون عليهم.

ولكنّ الأخ ليون رأى عددًا من رهبانٍ آخرين لم يكن يُثقلهم أيُّ عبءٍ، لا بل كانوا يتألَّقون بفقرٍ واضحٍ، يلجون النهر برشاقة، ويجتازونه بيُسْرٍ، من غير جهدٍ، ولا مخاطرةٍ.

وعلم فرنسيس أنّ ليون عاين رؤيا، فدعاه إلى سردها بالتفصيل، ثمّ فسّرها له قائلاً:

«إنَّ ما رأيتَه جَلِيٌّ المغزى. فالنهر العريض الهادر يُمثّل دنيانا هذه؛ والرُّهبان الذين يغرقون في عبابه هم الذين يتقاعسون عن اتّباع وصايا الإنجيل، ولا سيّما قواعد الفقر المقدَّس. أمَّا الذين يجتازونه، بلا وَجَلٍ ولا خطرٍ، فهم من نَمطٍ آخر، وممَّن لا تجتذبهم الثروة الأرضيَّة، ولا المتعة الحسِّيَّة، ولا يلتمسون من طعامٍ ولباسٍ سوى الضروريّ الذي لا بدَّ منه. سعادتهم تكمن في مواكبة يسوع المسمَّر على الصَّليب، وكلُّ مَتاعهم: نِيرُه المبارك، والطَّاعة المقدّسة. ومن ثَمَّ فهم يجتازون بيُسرٍ نهر الحياة الدنيويَّة إلى شاطئ الحياة الأبديّة».

أنجيلو

ومن الإخوة الأوائل أنجيلو تارلاتي، وهو، أيضًا، على غرار أنجيلو تانكريدو كان فيما مضى، فارسًا. وقد عُهد إليه، في فترةٍ ما، الاضطلاع بحراسة باب الدير؛ فوافاه ثلاثةٌ من قُطَّاع الطرق الذائعي الصيت، سائلين حسنةً، بعد أن أخفقوا في الوقوع على مسافرين ينهبونهم. فردَّهم الأخ أنجيلو بجفوةٍ قائلاً: «كيف تجرؤون على ذلك، أيّها القتلة؟ ألم يكفِكُم سلب الناس الأشراف ثمرة جهدهم، فجئتم هنا، كي تلتهموا، أيضًا، موارد خدَّام الله الزهيدة؟ ألا انصرفوا، ولا تدعوني أراكم بعد اليوم، أنتم الذين لا يقيمون لا لله ولا للنَّاس حرمةً، ولا يستحقُّون أن تحملهم الأرض». وذكَّرهم بفعاله الشهيرة في ميدان الطعان والنزال، فانسلُّوا خائبين. ولكن ما كادوا يتوارون عن الأنظار، حتّى عاد فرنسيس من حملة استعطائه مُحمَّلاً بالخبز والنبيذ؛ وعندما أحيط علمًا بما جرى، أنَّب الأخ أنجيلو بقسوةٍ على سلوكه، قائلاً:

«إنَّك إنَّما تصرَّفت كما يفعل الكُفَّار! ألا يُعلّمنا الإنجيل الذي تعاهدنا على اتّباعه أنّ السقماء، لا الأصحّاء، هم الذين يحتاجون إلى طبيبٍ؟ خذْ، إذن، هذا الخبز، وهذا النبيذ، وامضِ، بأمر الطاعة، في إثْر أولئك اللصوص، وجُب الجبال والسهول حتّى تقف على أثرهم، وحالما يقع عليهم بصرُك صِحْ: «تعالوا أيُّها الإخوة اللصوص، فتناولوا الطيّبات التي يرجوكم فرنسيس أن تقبلوها». وابسط على الأرض سماطًا عليه الخبز والنبيذ، وما تيسَّر لك من جبنٍ وبَيْضٍ؛ وتَولَّ خدمة أولئك المساكين، بتواضعٍ ومرحٍ، حتى ينالوا كفايتهم من شَبَعٍ وارتواءٍ. وحينئذٍ فقط أَهِبْ بهم ألاَّ يقتلوا، من بعدُ، أحدًا، مُبيِّنًا لهم أنَّ خدمة اللّه هي أقلّ قسوةً من المهنة التي يمارسونها. ولست أشكّ، من جهتي، أنَّ الربَّ، في رحمته، سيلهمهم مشاعر أفضل».

وبالفعل ما عتَّم أولئك اللصوص أن اهتدوا إلى السراط القويم، وباتوا يؤمُّون الدَّير، كلَّ يومٍ، وعلى ظهورهم ما يفتقر إليه الإخوة من حطَبٍ للتدفئة. ولم يقتصروا على التعهُّد بكسب عيشهم بعرق جبينهم بل إنَّهم انضووا، بعد فترة، إلى الأخويّة، حيث قضوا نحبهم كأَولياء اللّه.

بمثل هذه الإرشادات والعِبَر، وبمثل ذلك السلوك، كان فرنسيس وإخوته يُحوّلون كلمات الإنجيل إلى أفعالٍ حيَّةٍ، كما لم يفعل سوى رُسُل يسوع الأوائل.

ملحمة الفقر

في سياق حديثنا عن الإخوة الأوائل، الذين رسموا، بأنماط سلوكهم، لوحةً للفرنسيسكانيَّة الأصيلة، يجدر بنا أن نُضيف أنّ واحدًا من أولئك الإخوة، الذين عايشوا فرنسيس، قد كتب ما يشبه ملحمةً تصف قران فرنسيس بالفقر، تلك الفضيلة التي تُميِّز الفرنسيسكانيّة، وتُمثّل أهمّ ركائزها.

ولئن كان البعض قد مارسوا الفقر الطوعيّ عن فلسفةٍ أو عن زهدٍ، أو بدوافع شتّى، ففرنسيس قد اعتنق الفقر بدافع الحبّ، تمثُّلاً بيسوع حبيبه، الفقير الأمثل؛ وقد اقترن به لأنَّ الفقر كان «قرين ابن اللّه العليّ، ولم يفارقه قطّ» حتّى غادر ابنُ اللّه، بالجسد، دنيانا، فظلَّ الفقر اثني عشر قرنًا، تائهًا مهجورًا.

وقد حظي الفقر، من فرنسيس، بحبٍّ فذٍّ، لم يُضارعه، قطُّ، حبٌّ، فروسيَّةً وإخلاصًا، واحترامًا، واندفاعًا، وعذوبةً.

ومن الممتع إيراد نُبَذٍ من تلك الملحمة التي تقول:

«استفسر خادم الله فرنسيس شيخَيْن التقاهما في البرّيّة عن المكان الذي تقطن فيه السيّدة التي تُدعى الفقر (في اللغة الإيطاليّة ومعظم اللغات اللاتينيّة: الفقر اسمٌ مؤنَّث)، فقد استولى عليه حبُّها. وقد أرشده الشيخان إلى منزلها، ولكنّهما أردفا: «على الساعي إليها أن يكون متجرّدًا ومتخفّفًا من كلّ عبءٍ، للتمكّن من بلوغ قمّة الجبل حيث كانت قد لاذت. فاستصحِبْ معك رفاقًا يؤازرونك في تصعيدك الشاقّ، فالويل لمن يوافي وحيدًا، وليس له من يُنجده إن هو كبا».

وقد اختار فرنسيس ثُلَّةً من الأصدقاء المخلصين، وبرفقتهم مَثُل أمام الأميرة المهجورة، وقال لها:

«لقد جئناكِ، أيّتها السيّدة، لعلمنا بأنَّكِ مَلِكة الفضائل، وها نحن نجثو عند قدمَيْك، ونتوسَّل إليك أن تنضمّي إلينا، فتكوني سبيلنا إلى مَلِك المجد، مثلما كانت له عندما جاء ليمدّ يد العون للقابعين في ظلال الموت.

«فإنّ ابن العليّ، بعد أن بارح منزله الملكيّ، بَحَث عنك، أنت التي كان الجميع يهجرونها. وقد علق بجمالك، فلم يرضَ الاقتران بسواك، على هذه الأرض. وأنتِ قد أعدَدْتِ له عرشًا لائقًا به في أحشاء تلك العذراء الفقيرة من حيث انبثق ليسطع أمام عيون العالم؛ وأنت اكتشفت له المقام الذي كان ينشده، في ذلك المذود الوضيع الذي فزع إليه، إذ لم يكن له مكانٌ في أيّ نزلٍ؛ وسحابة حياته قد لازمتِه بلا فراقٍ، ففي حين كان للثعالب أوجرةٌ، ولطيور السماء أعشاشٌ، لم يكن له مكانٌ يُسند إليه رأسه.

«وهو الذي، قديمًا، أطلق شفاه الأنبياء، شرع بمديحك مذ فتح شفتيه قائلاً: «طوبى للفقراء، فلهم ملكوت السماوات». ثمّ إنَّه، محبّةً بك، لم يختر تُجّارًا أثرياء، بل صيَّادين فقراء، وانتدبهم ليشهدوا لتعاليمه.

«وأنتِ أيّتها الزوجة الشديدة الوفاء، والحبيبة الرقيقة، لم تتركيه البتّة، ولطالما مضيتِ تأثُّرًا بخطاه، بقدر ما كنت ترين العالم يُجْمِع على ازدرائه. لولاك، لما كان به قِبَلٌ على تحمُّل ما قاساه من اضطهادٍ. فلقد وقفتِ إلى جانبه عندما شتمه اليهود، وسبّه الفرّيسيّون، وأهانه رؤساء الكهنة؛ وكنتِ معه عندما تلقّى الصفعات، والبصاق، والسياط؛ وعندما أشفى على الموت، عاريًا، باسطًا ذراعَيْه، وقد ثُقبتْ رجلاه ويداه،

كنتِ رفيقته الوحيدة، ووحدكِ صعدتِ معه على الصليب. وأخيرًا، قبل أن يعود إلى السماء، استودعك خاتم ملكوت الله كي تَسِمي به المختارين، بحيث لا مفرَّ لمن يرغب في ملكوتٍ أبديٍّ من المثول بين يديك.

«فيا أيَّتها السلطانة، ارأفي بنا، واطبعينا بسِمَة نعمتك، إكرامًا لذاك الذي أحبَّك حبًّا جمًّا، ولا تزدري صلواتنا، بل خلّصينا من كلّ تهلكةٍ، أيّتها العذراء المغمورة بالمجد والبركات».

وقد ارتعشت سيّدة الفقر جَذَلاً لدى سماعها تلك العبارات، وبصوتٍ مفعَمٍ عذوبةً، دعت زائريها إلى الاستماع لقصّتها الطويلة. وراحت تروي كلَّ ما صادفته في حياتها من منغّصاتٍ، مذ كانت ترافق آدم في الفردوس، طالما هو كان متجرّدًا، ثُمّ نأت عنه عندما رأته يُؤْثر، على خدمة الله، السعي وراء الخيرات الأرضيّة.

وأضافت: «بما أنّ إبراهيم وإسحق ويعقوب، وسائر الآباء كانوا، هم أيضًا، يحبّون الثروة، فقد ضربتُ في الأرض قرونًا عديدةً، وحيدةً وحزينةً، إلى أن جاء ابن الله كي يُحقّق الأمور الجليلة التي ذكرتموها».

ثمّ ذكَّرت سيّدة الفقر بالوصايا الثابتة والخالدة التي تركها يسوع لأتباعه قبل شخوصه إلى السماء: «لا تصطحبوا معكم في الطريق شيئًا، لا ذهبًا، ولا فضّةً... لا تقاوموا من يتوخّى تجريدكم... لا تهتمُّوا لشؤون الغد...».

وأشادت سيّدة الفقر ببطولة المؤمنين الأوائل الذين كانوا يبيعون مقتنياتهم، ويجعلون جميع مواردهم مشتركة في ما بينهم، ويعيشون في مساواةٍ تامّةٍ، وأضافت: «طالما بقي دم المصلوب حارًّا في ذاكرتهم، وطالما انتشى قلبهم بكأس آلام المسيح، مارس المسيحيُّون الفقر؛ ثُمَّ حلَّ السَّلام الذي كان لي أسوأ من الحرب، وجدَّد آلامي، إذ تخلّى عنّي جميعهم، حتّى الذين ادَّعوا أنّهم رهبان، وأقسموا لي يمين الولاء. وكم، منهم، من كانوا، في العالم، يعيشون عيشة الإملاق، هزيلين وجياعًا، يفتقرون حتّى إلى خبز الشعير، وينامون تحت أغصان النسرين، ولكنّهم بعد أن اقترنوا بي، وسمنوا في أديرتهم، حاولوا أن يتألّقوا في عيون البشر، حتّى إنّهم بصقوا في وجهي».

وقد استدرَّت تلك الشكوى دموع فرنسيس وإخوانه الذين أقسموا على الولاء الأبديّ لتلك الحسناء المهجورة التي لبَّت دعوتهم إلى زيارة منسكهم. وما إن انتهت إليه حتّى

قالت: «دعوني أشاهد مُصَلاَّكم، ومائدتكم، ومطبخكم، وقاعة نومكم، وإسطبلكم، ورياشكم الجميلة، وتجهيزاتكم الرائعة، فإنَّني، حتّى الآن لم أرَ سوى وجوهكم اللطيفة المشعَّة».

فأجابوها: «يا سيّدتنا ومليكتنا، لقد أنهك السفر خدَّامك، ولا ريب أنّك أنت، أيضًا، تَعِبةٌ. ولذلك، فلنبدأ بتناول الطعام، إن أذنت لنا بذلك. وبعد أن نستعيد قوانا، سنلبّي رغباتك». فقالت: «لا بأس، ولكنّي قبل ذلك، راغبةٌ في غسل يديَّ». فكان أفضل ما استطاعوا فعله، أن جاؤوها بإبريق فخّاريٍّ مكسورٍ، فيه بعض ماءٍ. ثمّ طلبت منشفة، وإذ لم يعثروا على أيّة منشفةٍ، اضطُرَّت إلى استخدام ثوب واحدٍ منهم لتنشيف يديها.

ثمَّ اقتادوا الأميرة إلى المائدة، وقِوامُها بعض فُتاتٍ من خبز الشعير، مُنَضَّدٍ على العشب؛ فجلسوا كلُّهم أرضًا، وبعد أن شكروا، تظاهرت سيّدة الفقر بانتظار تقديم مآكل مطبوخةٍ في أطباقٍ، ولكنّهم لم يجيئوا إلاّ بصفيحة من الماء القراح، حيث بلَّل كلّ واحدٍ منهم قطعة خبزه الجافّ.

وسألت: «أليس لديكم بعض الخضار لإتمام وجبتنا؟» فالتمسوا عذرها، إذ لا بستان ولا بستانيَّ لديهم. ولكنّهم مضوا إلى الغابة فاقتلعوا بعض الأعشاب، واقتطفوا بعض الثمار البرِّيَّة.

وقالت: «أو ليس لديكم شيءٌ من الملح، لتتبيل هذه الأعشاب المُرَّة؟».

– سيّدتي، لا بدَّ لنا من الذهاب إلى المدينة كي نأتي بالملح.

– إذن لا حاجة إليه. ولكن أرجوكم أن توافوني بسكّينٍ أقطع به هذا الخبز فهو، حقًّا، قاسٍ جدًّا.

– للأسف، ليس لدينا أيّ صانع سكاكين، ومن ثَمَّ نرجوك أن تستخدمي أسنانك.

وسألت:

– ألا أستطيع، على الأقلّ، تذوُّق نبيذكم؟

– يا سلطانتنا، نحن لا نشربه أبدًا. ويبدو لنا أنّ على عروس المسيح، أيضًا، أن تتحاشى عنه تحاشيها عن السمّ.

وبعد أن شبع الجميع، نهضوا وأَنشدوا صلاة الشكر، متهلّلين. وإذ أبدت سيّدة الفقر الرغبة في الاسترخاء، برهةً، دعوها إلى افتراش اليابسة. وطالبت بوسادةٍ، فدسّوا لها تحت رأسها حجرًا، ثمّ انسلّوا ليَدَعوها تنام. وعندما استيقظت، رغبت في زيارة ديرهم، فمضوا بها إلى قمّة تلّةٍ، وبإشارةٍ عريضةٍ، أشاروا إلى الأفق الفسيح، كما لو كانت الأرض كلُّها ملكهم وقالوا: «ها هوذا، يا سيّدتنا».

حينئذٍ أعربت السيّدة الجميلة عن رضاها، معلنةً: «حقًّا، لقد خُيِّل إليَّ، اليوم، أنَّني قد انتقلت إلى الفردوس».

فرنسيس الواعظ

أحسن فرنسيس الإفادة من إذن البابا له ولإخوته بالوعظ. وكان قد أذن لهم بمعالجة الشؤون الأخلاقيَّة والاجتماعيّة والأدبيّة، دون القضايا اللاهوتيّة، التي لم يكن فرنسيس مُؤَهَّلاً للخوض فيها، فضلاً عن عزوفه عنها. فالوعظ، عنده، إنَّما كان نابعًا من رغبةٍ مضطرمةٍ في إشراك العالم أجمعين بحبّه ليسوع الذي كان يُلهب فؤادَه، باتّباع إنجيله حرفًا وروحًا، بالفقر الطوعيّ، والتوبة، والمحبَّة الصادقة والشاملة. كلّ تلك المواقف والمشاعر كان فرنسيس قد عاشها بصدقٍ، وما انفكّ يعيشها يومًا إثر يومٍ، في كثافةٍ أوفر؛ ومن ثَمَّ، فقد كانت قُدوتُه تضفي على وعظه مزيدًا من الإقناع والتأثير؛ وإذا تكلّم عن يسوع، فحديثه كان قصيدة حبٍّ تتفجَّر من أعماقه، فتغزو قلوب مستمعيه، وأنشودة فرحٍ تسمو بنفوسهم.

لعلَّه لم يجُلْ بخاطر فرنسيس وإخوانه أنَّهم، بوعظهم، إنَّما كانوا يردمون هوَّةً مريعةً حفرها فتور رجال الإكليروس، الذين تخلّوا عن الوعظ، أو اقتصروا عليه، أيَّام الآحاد، وكأنَّه مهمَّةٌ مفروضةٌ قسرًا، أو سخرةٌ ثقيلةٌ عليهم، ولا ريب أنَّها كانت أثقل على مستمعيهم الذين سئموا عباراتهم الباردة المكرَّرة بلا روحٍ، وكأنَّها أُسطوانةٌ مشروخةٌ.

وكم التاريخ يجترّ نفسه، في هذا المضمار أيضًا!

ولا بِدْع، بالتالي، إن أنشدَّ الناس إلى ذلك الرجل الهزيل، الحافي القدمين، الزريّ الهندام، الذي يبادرهم بالتحيَّة: «السلام عليكم، وكلّ خيرٍ لكم»، ويخاطبهم بلغة القلب، لغةٍ بالغة البساطة، ولكنَّها تبدو جديدةً كلّ الجدّة، ويمكن حتّى للأُمِّيّين إدراكها، وبعباراتٍ حيَّةٍ تختلج وتخفق وتؤثّر؛ كان هو نفسه مُطْلَق الثقة بما يقول،

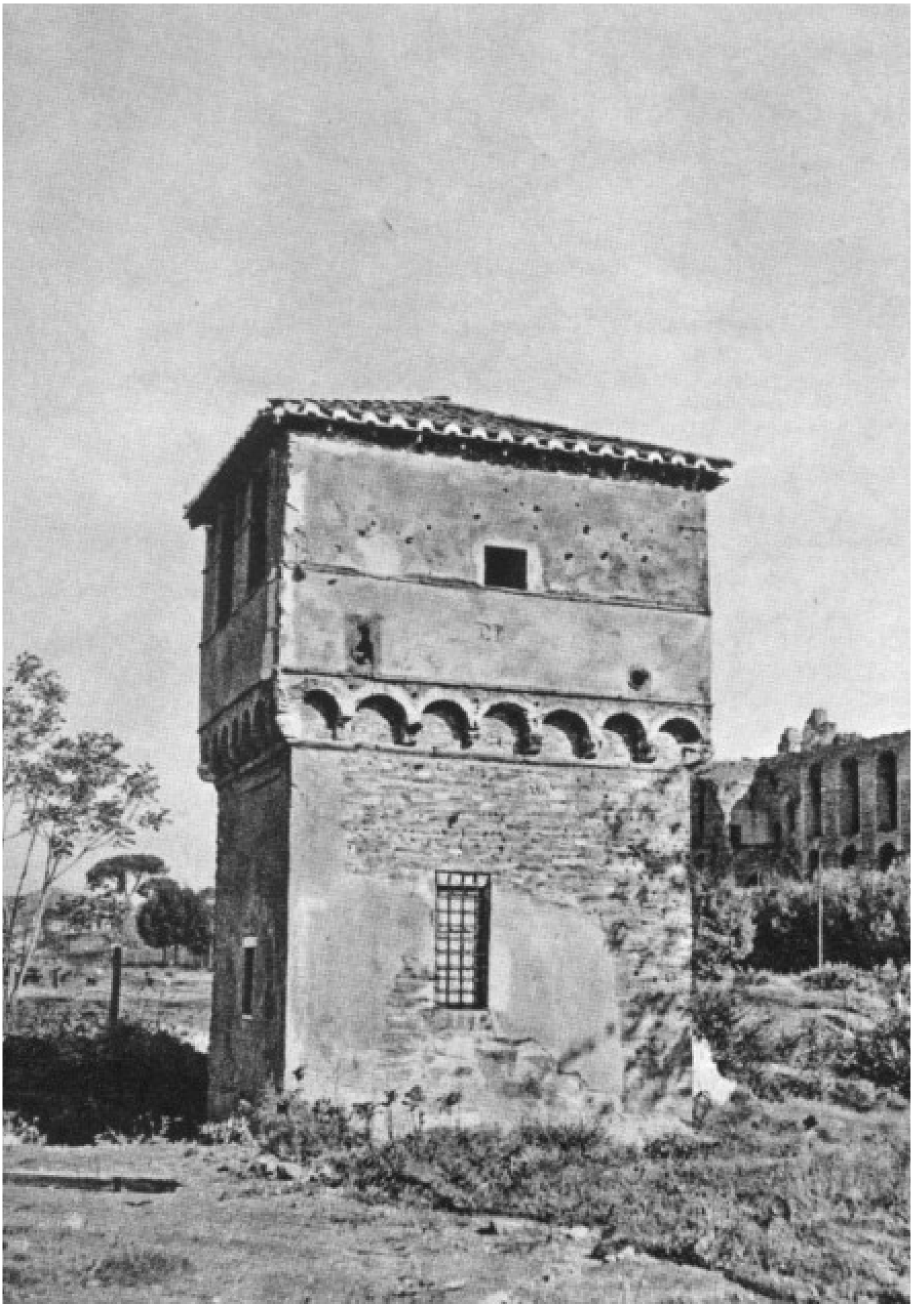

برج في رومة، يقال إنّ فرنسيس عاش فيه

فينقل ثقته إلى مستمعيه تلقائيًّا وبيسرٍ، موقظًا لديهم كلَّ ما كانوا قد تلقَّنوه، صغارًا، عن اللّه، والنفس والمصير، ثمّ أغفلوه. تلك الحقائق البسيطة، الجوهريَّة، كانت ترتدي، عندما يتكلَّم عنها، طابع الخلود والرهبة، فكأنَّهم لم يدركوها، قطّ، مثلما أدركوها، وهم يستمعون إليه.

في السابق كان يجوس خلال الحقول والغابات والأزقَّة، ليبذر كلام الإنجيل؛ أمّا الآن، فقد بات الفلاَّحون يهجرون حقولهم ومحراثهم ومواسمهم، لكيلا يُفوِّتوا كلمةً من كلماته؛ وكذلك كان آخرون يهجرون متاجرهم، ومقاهيهم، ومنازلهم، فيكتظّ أيُّ مكانٍ يعظ فيه بالحشود المتراصّة العالقة بشفتَيْه؛ وغدا، هو، يُؤْثر، من أجل ذلك، بيوت اللّه، التي غدت تزدحم كُلَّما وقف فيها واعظًا.

إنَّ قلوب الإيطاليّين تخفق بعنفٍ لقصص الحبّ. وفرنسيس كان محبًّا وَلِهًا باللّه، ولا يني يؤكّد أنّ اللّه أيضًا وَلِهٌ بالبشر، ويلتمس حبَّهم. وذلك الحبّ المتبادل، كان يُعبّر عنه في لهجةٍ مضطرمةٍ تستدِرّ الدموع من مآقي سامعيه، وتوقظ في قلوبهم الإيمان، والمحبَّة، ورغبةً صادقةً في البساطة والطيبة، وتحرِّك فيها أمواجًا عارمةً من التوبة والغفران والمسامحة؛ كان يثير فيهم، على التوالي، مشاعر الحبّ والقلق، ويؤجّج توبتهم على جميع خطاياهم، بحيث تنتابهم الرغبة في الارتماء على قدميه، مستغفرين، وواعدين بالتخلّي عن قذارتهم، إرضاءً له، ولحبيبه يسوع.

وهكذا انقلب كثيرون ممَّن ناهضوه واضطهدوه بالأمس إلى مشايعين، بل إلى أشدّ الأنصار حماسًا، وراح يزداد باطِّرادٍ عددُ الراغبين في الانضمام إلى أخويَّته، والعيش على منواله؛ وإذ لم تعد اليورتسيونكولا قادرةً على استيعاب جميع القادمين الجدُد، فقد عمد إلى تأسيس أعشاشٍ إنجيليَّة في الغابات والكهوف، وسفوح الجبال، يتَّسع كلٌّ منها لثلاثةٍ أو أربعةٍ من الإخوة.

وشيئًا فشيئًا رأت فيه أسّيزي نبيَّها، وعظيمها، وقدّيسها، ولم يعُدْ للأسقف مفرٌّ من دعوته إلى الوعظ في كاتدرائيَّتها. ويوم فعل ذلك، للمرَّة الأُولى، كان العمل الدائب، وليالي السجود الطويلة، والأصوام المتواترة المُمِضَّة قد أوهنت قواه، فحُمِل على ظهر حمارٍ إلى الكنيسة، حيث جثا واستغرق في التأمّل إلى أن حان وقت صعوده إلى المنبر الذي أبرز هزاله، في حين كانت مسحةٌ سماويَّةٌ تحوم على محيّاه. ورنا إلى ألوف الوجوه الأليفة المحدّقة إلى وجهه، فتلاشى وهنه، وسرت في أوصاله نيران طاقاتٍ مباغتةٌ،

أعادت إليه حُمَيّا شبابه. ورُبّما وقع نظره، آنذاك، على وجه أمّه الحبيب، وهي تحملق فيه، في ما يشبه العبادة، فزوّدته نظراتها بمزيدٍ من العزيمة؛ ورُبّما لمح أيضًا، وراء أحد الأساطين، أباه وأخاه، اللّذين تناسيا حقدهما عليه، بعد أن ذاع صيته، وعرف الجميع أنَّه أفلح في إقناع الحبر الأعظم، وفي اكتساب حبّه واحترامه؛ ولكنَّهما كانا، مع ذلك، يتمنّيان لو هو مَثُل في زيٍّ أقلَّ إزراءً، فيوفّر عليهما الحرج.

كان فرنسيس يروح ويجيء على المنبر، ويُرفق كلماته بإشارات عريضةٍ من كلتا يديه اللّتَيْن تبدوان وكأنَّهما تمطران وابلاً من النجوم؛ بل كأنَّه كان يطفر طفرًا على وقع الهوى المتأجّج في صدره، والذي كان يرتقي به فوق العالم، وفوق ذاته.

كان يتبسَّط في شرح المُثُل الإنجيليّة، من غير تحفُّظٍ، وهو لا يخشى أن يتَّهمه أحدٌ بالرياء، إذ إنّه لم يَدْعُ قطُّ الآخرين إلى أمرٍ لم يكن قد نفَّذه بنفسه، بكلّ أمانةٍ.

لم يكن كلامه وعظًا، بل كان قصيدة حبٍّ، ارتجلها عبقريٌّ فذٌّ، وترجَّع صداها المثير بين حنايا الكاتدرائيَّة وحنايا الصدور؛ لم يكن في تعليمه أيُّ جديدٍ، بيد أنَّ كلَّ لفظةٍ من ألفاظه كانت تتساقط كوكبًا منيرًا، مدهشًا، يهزّ الوجدان؛ لم يكن يُجيد سوى معرفة الإنجيل، ولكن إن هو تكلَّم فيه، انطلقت منه صيحات حبٍّ كتلك التي كان ينطق بها الأنبياء. وعبرَ صوته الساحر، كأغنيّةٍ رائعةٍ، كان ينساب حنان الله إلى قرارات النفوس.

وإلى ذلك، كانت كلماته البسيطة حافلةً بشحناتٍ رهيبةٍ من القَلَق الذي يزلزل كيان كلّ مستمعٍ، وينفُذُ إلى أغوار وجدانه، ويضعه في مواجهةٍ مريعةٍ مع ذاته: مع الجشع الذي يوصد القلوب ويجفّفها، أو مع الرذيلة التي تغتال الحبّ، أو مع الشَّحناء التي تطرد روح الإنجيل أكثر ممّا تفعل السيوف.

لقد كان يعرفهم، جميعهم، أبناء أسّيزي المُحدّقين إليه، وهم أيضًا لم ينسوا ذلك الشابّ الماجن المُبَذِّر الذي طالما أثار، لأربع سنواتٍ خلتْ، جمًّا من الفضائح، وها هو يعود إليهم فقيرًا، حافيًا، متمنطقًا بحبلٍ غليظٍ، فينتزع دموعهم وتنهُّدات توبتهم، وتعتري كلاًّ منهم رعشةٌ يشعرون معها أنَّ الله نفسه قد جاءهم متنكِّرًا في زيّه الزريّ، وأنَّه قد سكنه حقًّا، وبات يتكلّم بلسانه.

وكم أثمرت عظات فرنسيس، تلك، ثمار مصالحةٍ مباركةٍ بين أعداءٍ تفصل بينهم الدماء، وأُسَرٍ مزّقتها القطيعة والشَّحناء، لا في أسّيزي وحدها، بل في مدنٍ أُخرى مثل

پيروجيا وأريزّو وسيينّا! وكم قد حرَّرتْ من عبيدٍ، ووفَّقت بين قلوبٍ! ولا ريب أنّ المعاهدة التي أُبرمتْ في أسّيزي، عام ١٢١٠، بين الطبقات «العليا» والطبقات «الدنيا» على التعاون والتضامن فيما بينهما، كانت من الأُكُل الشهيَّة التي أنضجتها عظاته.

وعندما كان عليه أن يعظ في أسّيزي، كان يوافيها عشيّة يوم الأحد، فيحلّ في دار أحد الكهنة حيث يمضي اللَّيل في الصلاة، تحت أحد أفاريز بستانٍ؛ وإن هو رقد في غرفةٍ، فكان يفترش ثوبه فوق اليابسة ويتَّخذ من حطبةٍ أو حجرٍ وسادةً.

يوم عظته الأولى في كاتدرائيّة أسّيزي لم يرافقه إليها الإخوة الذين قبعوا في الپورتسيونكولا ينتظرون عودته متلهّفين، ولكنَّهم كانوا يقطنون في قلبه، وقد أتاح له الربّ أن يُعبّر لهم عن حبّه، فإذا بمركبةٍ ناريَّةٍ تجتاز الكوخ الذي كانوا فيه ملتئمين، جيئةً وذهابًا، ثلاث كرَّاتٍ متتاليةٍ؛ وقد عوَّضهم ذلك النور الإلٰهيّ عن غيابه، إذ مكَّنهم من أن يقرأ كلٌّ منهم في وجدان الآخرين، حيث لم يكتشفوا سوى النور والحبّ.

وعندما هبط فرنسيس من المنبر تهافت المصلُّون كالموج الهادر للتبرّك به، وتقبيل يديه وأهداب ثوبه الخشن، ولكنَّه انسلّ مسرعًا، وهو يهتف:

«لا أنا بل الله! الله، لا أنا».

فجثوا وواكبوه بأنظارهم وأفئدتهم.

بيد أنَّ صورةً متألِّقةً كانت قد علقت في ذهنه، بعنادٍ، إذ قد لمح، بين الحضور، فتاةً شقراء شفَّافةً، يرتسم على محيّاها نورٌ سماويٌّ، سُرعان ما لحظتها عيناه اللَّتان طالما غاصتا في تأمّل الله. كانت من أسرةٍ نبيلةٍ، واسمها «كيارا». كان قد عرفها، شابًّا، في أسّيزي، ثُمَّ التقى بها أيّام تسوّله، فهي وحدَها، دون سائر أهل المدينة، كانت تجود عليه بالطعام الشهيّ، والفواكه، والحلوى. كانت قد راقبته بإعجاب، يوم تخلّى عن ثروة أسرته ووهب نفسه لله، لسنواتٍ خلت، وكانت تستمع إلى وعظه في دهشةٍ، مرتشفةً ألفاظه بمتعةٍ، من غير أن يرفَّ لها جفنٌ، وكان جمالها السماويّ الذي زاده طهر نفسها تجلّيًا، يبديها له في صورة ملاك.

وفي طريق عودته إلى الپورتسيونكولا، أسرَّ للأخ ماسّيو، الذي كان يقود الحمار: «في أسّيزي يعيش ملاكٌ؛ فلنُصلِّ لكيلا يختطف العالَمُ تلك النفسَ الرائعة».

القدّيسة كيارا

لقد كان فرنسيس، في أعقاب هدايته، شديد الحيطة والتحرُّز من غواية المرأة، فأقصاها عن عالَمه، وتحاشى عن النظر إلى أيّ امرأةٍ أو التحدُّث إليها، وإذا ما اضطُرَّ إلى ذلك، فمن غير تحديقٍ، وهو مطرقٌ أرضًا. وقد طالما حثَّ أتباعه على احتذاء حذوه في هذا المضمار.

ومع ذلك، فلقد عقد، مع القدّيسة كيارا، واحدةً من أروع الصداقات في تاريخ البشريّة، وأطهرها، إذ جمعهما معًا حبٌّ مشتركٌ سامٍ، ودأبٌ واحدٌ على تحقيق المُثُل الفرنسيسكانيَّة المُثْلى، التي كانت روح فرنسيس وهدف حياته، والتي آمنت بها كيارا بكلّ جوارحها، ووقفت حياتها على تجسيدها، على أروع صورةٍ، وبكلّ ما أوتيت من واقعيّة النساء المؤمنات واندفاعهنّ وعنادهنّ. وبذلك غدت كيارا أسمى مثالٍ للفرنسيسكانيّة وأنقاه، وكانت تسعد بتسمية نفسها «النبتة الصغيرة التي غرسها الطوباويّ الأب فرنسيس».

وُلدت كيارا في أسّيزي، في شهر تمّوز من عام ١١٩٤، من أبوين ينتميان كلاهما إلى طبقة النبلاء، ويُمثّلان صفوة الأرستقراطيّة. وكانت والدتها أورتولانا، ومعنى اسمها البستانيّة، تجمع إلى الطيب والتقوى، الجرأةَ والإقدام، فقامت بثلاث حجّاتٍ، إحداها إلى الديار المقدّسة، كانت تقتضي، آنذاك، قدرًا جمًّا من الشجاعة. ويُقال إنّ الربّ قد وعدها، فيما كانت تصلّي أثناء حبلها، أنّها ستضع طفلةً ستكون موئل إشعاعٍ لنفوسٍ عديدةٍ، ممَّا حدا بها إلى إطلاق اسم كيارا أو «كلير» أي المضيئة، على الطفلة التي وضعتها في أعقاب ذلك.

وقد نشأت كيارا، في جوٍّ دافئٍ مستقرٍّ، ازدهر فيه ذكاؤها، وترسَّخت شخصيَّتها؛ ويبدو أنّها أصابت بعض العلمِ، وأَلَمَّت باللاتينيَّة، وقد تسنّى لها مطالعة روايات الفرسان، التي شحذت فيها رغبةً في التفرُّد، وطبعت أُسلوبها بمفردات الفروسيَّة؛ كما أنّها شُغِفَت بمطالعة سِيَرِ آباء الصحراء والنُّسَّاك، التي صادفت من نفسها حماسًا عارمًا، وضاعفت تقواها الفطريَّة غير العاديّة، فعمدت، على غرار الناسك «بولس الفرميّ» إلى استخدام مئات الحصوات لتعدّ بها مئات المرّات التي كانت تتلو فيها «أبانا» كلَّ يومٍ، وأَلِفت أن ترتدي، تحت ثيابها الفاخرة، مِسْحًا من الشعر الخشن على جسمها،

وعلى غير معرفةٍ من أحدٍ، لتتمرَّس بالتضحية، والسيطرة على ذاتها؛ وقد أجمعت كلُّ الشهادات التي اقتضتها دعوى تقديسها على أنّ طفولتها وصباها اتّسما بفضائل غير عاديّةٍ، لا بل ملائكيّةٍ، وتقوًى متّقدةٍ، كما أنّها تميَّزت بإيثارٍ من غير حدودٍ، وحَدَبٍ على الفقراء والمعوزين شديد السخاء، إذ كانت تبادر إلى إخفاء ما يُقدَّم لها من حلوى وشهِيِّ الطعام، كي تطعمه الجياع، وتوفّر النقود التي يُجاد عليها بها، كي توزّعها على المحتاجين، وتجهد أن تفعل كلّ ما تفعله من تعبُّدٍ وإحسانٍ، خلسةً عن الجميع، بحيث لا تراه سوى عينَيْ الربّ.

وفضلاً عن ذلك، كانت تملأ فراغها، شأن الفتيات الرزينات، بالعمل اليدويّ، ولا سيّمَا الوشي الذي برعت به، كما تشهد بذلك الحلَّة الكنسيّة البيضاء التي خاطتها ووشَّتها للقدّيس فرنسيس، والتي ما زالت محفوظةً. وقد غدت تلك هوايتها تسارع إلى ممارستها كلّما تسنَّت لها فُسحةٌ من فراغٍ، حتّى عندما اشتدّ بها المَرَض وأقعدها، في أيّامها الأخيرة، إذ كانت تستعين بمن يجلسها على فراشها، بعد أن تُسند رأسَها بالأوسدة، كي تستطيع الإكباب على هوايتها الأثيرة، فتوشّي أغطية هياكل، وحِلَلاً كنسيَّة رائعةً، تهديها للكنائس الفقيرة، أو تبيعها كي تؤمّن بأثمانها حاجيات ديرها الأساسيّة.

لقد نضجت شخصيَّة كيارا باكرًا؛ وفي الخامسة عشرة كانت قد غدت فتاةً تلفت أنظار الشبَّان. ويتَّضح من ثيابها المحفوظة في الكنيسة المشادة تكريمًا لها في أسّيزي أنَّها كانت فارعة القوام، نحيلةً؛ وتظهر خصلات شعرها الذي ضحَّت به يوم اعتنقت الحياة الرهبانيَّة أنّها كانت شقراء بلونِ أشعّة صباحٍ ربيعيٍّ صافٍ. إلاّ أنَّها كانت شديدة المراس، تمتلك حكمًا سديدًا، وقلبًا محبًّا وفيًّا، وإرادةً صلبةً، نيّرةً، عنيدةً. كانت لا تتَّخذ قراراتها إلاَّ بعد رويَّةٍ وتمحيصٍ؛ ولكنَّها بعد أن تتَّخذها، لا يعود شيءٌ قادرًا على ثنيها عن تنفيذها، في جرأةٍ نادرةٍ. كان يحدوها هوًى ناريٌّ، ولكنّ سلوكها كان يتَّصف بالهدوء والتبصُّر، ممَّا يُسبغ على جميع أعمالها الاندفاع والفطنة، في آنٍ معًا، ويرقى بها إلى قِمَمٍ شامخةٍ من الكمال والسموّ. وإلى جانب صلابتها في تنفيذ ما كانت تؤمن به، عُهِدَتْ فيها مهارةٌ فائقةٌ في إقناعِ الآخرين، حتّى أصحاب أسمى المقامات كالباباوات، والكرادلة والأساقفة، بمشاريعها، واستمالتِهم إلى معاضدتها في تحقيقها.

غير أنَّ كيارا، ابنة الخامسة عشرة، أخفقت في إقناع والديها بدعوتها الرهبانيَّة، وبما عقدت عليه عزمها من تكريس حياتها للربّ. كان طالبو يدها قد شرعوا يتوافدون

على منزل ذويها، وكان بعضهم يحظى بترحيب والديها، اللَّذَيْن فشلا في إقناعها بالانقياد لنصائحهما. وظلَّت كيارا تماطل وتسوّف إلى أن تمكَّنت من المُضيّ في سبيل الربّ، بمؤازرة فرنسيس وإشرافه.

لا شيء كان يجمع بين فرنسيس وكيارا، لا بل إنَّ عوامل الفرقة والتباين بينهما كانت عديدةً. فهي من أرقى أسر النبلاء، وهو ابن تاجرٍ؛ ذووها كانوا قد هاجروا إلى پيروجيا، في أعقاب ثورة الفقراء على النبلاء، وهو كان قد انتظم في جيشٍ لمحاربة أهالي پيروجيا، ومنهم ذووها، وقد أُسِر في تلك الحرب. هي كانت طاهرةً، رصينةً، معتدلةً، راسخة الإيمان، مضطرمة التقوى، منذ طراوة عودها، ولم تبارح منزل ذويها قطُّ؛ أمَّا هو فكان، في شبابه، مُنقادًا لنزواته، عابثًا، ماجنًا، ضاربًا في شعاب الضلال، مغاليًا في كلّ مسلكٍ أو اتّجاهٍ. وفي أعقاب اهتدائه، لم يكن يكفّ عن جَوْب الآفاق للتبشير بالإنجيل الذي قلبه اكتشافُه رأسًا على عقب.

ولكن حان وقتٌ بات كلٌّ منهما يرى الله في الآخر «وقد جمعهما الربُّ على نحو ما يضمُّ المرء ذراعَيْه ليصلّي»، وارتبط مصيرهما ارتباطًا لا يقاوَم.

رُبّما سمعت كيارا، في صباها، أطراف أحاديث عن مغامرات «ملك الشباب»، وعن سهراته الباذخة، ولعلَّ أغانيه وأغاني أترابه السكارى، التي كانت تُقلق بعض ليالي أسّيزي، قد تنامت إلى آذانها، إلاّ أنَّها لم تُعِرْ، يومًا، لشيءٍ من تلك التُّرَّهات بالاً. بيد أنَّ أنباء تحوُّل «ملك الشباب» إلى «صديق الفقراء»، وانقلابه الجذريّ قد استثارت اهتمامها، وحَدَثَ تعرّيه أمام أبيه، وأسقف أسّيزي، دلالةً على اختياره دروب الفقر في إثْر يسوع، قد هزَّها وشدَّها. ثُمَّ إنّها عكفت، سرِّيًّا، على رفد مشاريع ترميم الكنائس التي كان يضطلع بها بالمساعدات الماليّة والعينيّة، إذ كانت أحد المتبرّعين المُغْفَلين الذين زوَّدوا فرنسيس بالحجارة والجصّ، وأمدَّت الذين تطوَّعوا لمؤازرته في عَمَله بالطعام واللحم الكفيلَيْن بمساعدتهم على النهوض بعملهم في همَّةٍ وجدوى. وعندما كان فرنسيس يطرق أبواب منازل أسّيزي مستعطيًا، كانت كيارا تُغدق عليه أطايب الطعام، التي كان يسارع إلى الجَوْد بها على المحرومين.

في تلك الأثناء، كانت تترسَّخ في قرارة نفسها الرغبة في انتهاج مثل أسلوب فرنسيس في الفقر المُطْلَق، وتكريس حياتها للربّ، وتتوسّم في فرنسيس قدوةً لها ودليلاً. وقد تبَلْورت تلك الرغبة وانجلت معالمها بعد أن شرع فرنسيس يعظ على منابر كنائس أسّيزي، حيث

كانت كيارا تختلف، وتُصغي، مأخوذةً، إلى كلمات غاوي النفوس، الذي يتكلّم عن حبّ اللّه، وكأنّه شاعرٌ يُنشد قصيدةً تفيض بها نفسه، ويظلّ صوته يتردّد في حنايا صدرها، ويحفر في أعماق كيانها، بعد أن تؤوب إلى منزلها، وتوصد باب حجرتها، ذلك الصوت الذي يقرن العذوبةَ بالعنف، داعيًا إلى التوبة، وازدراء ثروات العالم، وإماتة الجسد، مُضرمًا فيها مثل ما كان يضطرم في حنايا صاحبه من رغبةٍ عارمةٍ في الاتّحاد باللّه.

حبُّهما المشترَك للحبّ الأسمى كان يشدُّهما برباطٍ وثيق؛ وكانت كيارا مسحورةً بتجرُّد فرنسيس، وفقره الطوعيّ، وانقطاعه التامّ للّه، وعنف لهجته، كما كانت تدرك، بحَدْسها الثاقب، أنّه كفيلٌ برفد كنيسة يسوع بنسْغٍ جديدٍ، يستمدُّه من أصالة الإنجيل وصفائه، ويحدوها دافعٌ لا يقاوَم إلى السير في ركابه، والإسهام في تحقيق مُثُله.

وفي تلك الأثناء، كان ابن عمٍّ لكيارا، قد انضوى تحت لواء الحركة الفرنسيسكانيّة، وتبنّى منهجها، تحت اسم الأخ روفان، فالتمست منه كيارا أن يُعدّ لها لقاءً بفرنسيس؛ وقد تمّ لقاؤهما الأوّل، في غابةٍ مجاورةٍ للپورتسيونكولا. ولعلّ فرنسيس كان لا يزال يخشى ضعفه، فاصطحب إلى ذلك اللقاء، الأخ فيليب «الطويل»، الذي كان يجمع إلى صفاء النفس وشفافيّتها، الرصانةَ، والتعقُّل، والصراحة، والذي لم يخشَ، قطُّ، تحذير أيٍّ كان من أيّ وهنٍ، في حين اصطحبت كيارا قريبةً لها مُسنَّةً، كانت تقطن في منزل ذويها، وتؤيّد تطلُّعاتها إلى التكرُّس للربّ؛ وكان يسوع هو راعي ذلك اللقاء، وروحه وهدفه.

باحت كيارا بين يدي فرنسيس بصُبُوِّها إلى حياةٍ موهوبةٍ بكاملها للربّ، في فقرٍ وتجرّدٍ مُطلقَيْن، وإلى مشاركته مُثُله وتطلُّعاته. ولكنّ فرنسيس، امتحانًا لصدقها وقدرتها على المُضيّ في ذلك الدرب الوعر، طلب منها أن ترتدي كيسًا زريًّا، وتجوب به شوارع المدينة مستعطيةً خبزها. وكان من شأن طلبٍ كهذا أن يُثبّط عزيمة أيّة فتاةٍ غير كيارا؛ ولكنّها إكرامًا ليسوع، ولبشيره ورسوله فرنسيس، لم تكن لتتقاعس حتّى عن التصدّي للمستحيل، ولعلّ فرنسيس كان واثقًا، في قرارة ذاته، أنّه إزاء طينةٍ مثل طينته، فلم يخشَ اختبارها بأقسى تحدٍّ، ليزيدها ثقةً في ذاتها وفي رسالتها.

وقد أسهمت جولات كيارا، في زيّ المتسوّلة، في تعميق كَلَفها بالفقر الطوعيّ، وزُهدها بالعالَم وثرواته ومُتَعه؛ كما أثبتت تلك الجولات لفرنسيس أنّ «سيّدة الفقر» التي طالما حَلِم بها، قد تجسّدت، واقعًا من لحمٍ ودمٍ، في «كيارا دي فريدوتشيو».

وفي تلك الأثناء، كانت ضغوط ذوي كيارا الرامية إلى تزويجها تزداد وطأةً وإلحاحًا، وكان لا بدَّ من وضع نهايةٍ لمواقف ملتبسةٍ متضاربةٍ؛ وعقدت كيارا عزمها على هجر منزل ذويها واللجوء إلى الله، بمساعدة فرنسيس، الذي حرَّضها على انتهاج هذا السبيل، وحدَّد مساء أحد الشعانين الواقع في ١٨ آذار ١٢١٢ موعدًا لتكريس الفرنسيسكانيّة الأُولى للربّ.

كانت كيارا، آنذاك، في الثامنة عشرة من عمرها، فتاةً ناضجةً، شديدة المراس، وبسيطةً في آنٍ معًا. صباح ذلك اليوم الحاسم، ازدانت بأجمل ثيابها الحريريَّة، وأفخر حليِّها، ورافقت ذويها إلى قدّاس الشعانين، كما أَلِفَتْ أن تفعل كلَّ أحدٍ. كانت تبدو على جمالٍ رائعٍ، وكان الناظرون إليها يغبطون فيها ثراءها وسناها، في حين كانت، هي، تتطلَّع، في لهفةٍ، إلى الليلة القادمة حيث ستعتنق، إلى الأبد، حياة الفقر والتقشُّف والعفَّة، حبًّا بيسوع.

المطران كيدو، الذي كان يحتفل بالذبيحة الإلٰهيَّة، كان على علمٍ بمشروع هجر كيارا للعالم، وكان يباركه؛ ومن ثَمَّ، فعندما أقبل الجميع إلى تسلّم سعف النخيل من يده، في نهاية القدّاس، وفقًا للتقليد الشائع في مثل ذلك اليوم، وظلَّت كيارا جاثيةً فوق مركعها، وكأنَّها مشلولةٌ، وقد ناءت تحت عبء السرّ الرهيب الذي كانت تُخفيه، والخطوة الحاسمة التي كانت تقتضي منها، بعد غروب ذلك اليوم، أن تهجر، إلى الأبد، ذويها، ومنزلها، ومرتع صباها، وكلَّ ما أَلِفَتْه طيلة ثمانية عشر عامًا، خلسةً، ومن غير كلمة وداعٍ واحدةٍ؛ واستشفَّ الأسقف كلّ ما كان يصطرع في صدرها من عواصف، فانحدر من الهيكل، وجاءها، بنفسه، بسعفة النخيل، مُعبِّرًا لها بذلك عن تشجيعه، ومشدِّدًا عزيمتها.

قضت كيارا ذلك اليوم، محاولةً تخزين كلِّ ذكريات صباها، ومودِّعة تلك الذكريات في آنٍ معًا، وهي نَهْبٌ بين غصّة الرحيل، ونشوة المغامرة التي كانت متلهّفةً إلى خوضها. ولكنَّها تصنَّعت المَرَح، بحيثُ لم يلمح أحدٌ ما كان يتنازعها. وحدها فتاةٌ قريبةٌ لها، تدعى باتشيفيكا، كانت على علمٍ بمشروع كيارا، متواطئةً معها فيه، عازمةً على مرافقتها، وانتهاج مِثْل دربها.

وعندما استسلم الجميع إلى النوم، في تلك الليلة، ظلَّت كيارا وقريبتها يقظتَيْن، جاثيتَيْن، تصلّيان، مستمدَّتَيْن القوَّة على المُضِيِّ في ما عقدتا عليه أمرهما. وبُعيد

منتصف الليل، تسلَّلتا، خلسةً، من الباب الخلفيّ للمنزل، المدعوّ باب الأموات، وهو الباب الذي يُفتح فقط لعبور نعش الميت، ويأبى الأحياء العبور منه. ولكنّ الفتاتين أزاحتا من أمامه الأخشاب التي كانت تُحْكِم إغلاقه، ولم تخشيا عبوره، معتبرتَيْن نفسيهما قد ماتتا عن العالم وكلّ ما أَلِفتاه فيه.

ليلٌ ربيعيٌّ رائعٌ، متألّق النجوم، كان يغشى الكون، في صمتٍ رهيبٍ، مُفْعَم بالسرّ، لا تتخلّله نأمةٌ ولا حركةٌ، سوى تَمَوُّج النسيم بين أفنان الأشجار؛ وقلب كيارا يدقّ بعنفٍ، وهي تهبط، وكأنَّها تطير، على الطريق المتعرّج، المنحدر إلى السهل، ولكن من غير خوفٍ. وعلامَ الخوف، وهي قد أودعت مصيرها بين يدي الله، ويدي فرنسيس؟ ولكنّ التأثُّر كان لهيبًا يحرق صدرها ورأسها، ويفجّر ألوف النجوم أمام ناظريها.

لدى انتهاء الفتاتَيْن إلى أسفل الهضبة جاءت لملاقاتهما مشاعل كانت تثقب حلك الليل، يحملها إخوةٌ قَدِموا لمواكبة عروستَيْ المسيح، وفقره، فاقتادوهما، وسط أناشيد التسبيح، إلى البورتسيونكولا، حيث كان فرنسيس، وبعض الإخوة يُصلُّون، وينشدون احتفالاً بالحَدَث البهيج.

لا ريب أنّ ملائكة السماء قد وقفت خاشعةً جذلى، تشهد تكريس الفرنسيسكانيَّة الأُولى على يد الفرنسيسكانيّ الأوّل، وقد جثت كيارا أمام فرنسيس، وحسرت وشاحها، ونفضت رأسها، فانسدلت موجات شعرها الذهبيّ التي أعمل فيها فرنسيس مِقَصًّا، استأصل ذلك الكنز الرائع. استولى على كيارا شعورٌ يندّ عن الوصف بتدفُّق غنىً لا حدود له يغمر نفسها بعد أن أخذت تتجرَّد ممّا كان، حتّئذٍ، ثروتها، ومبعث اعتزازها. ورُبَّما آنس فرنسيس وهو يقبض على ذلك الشعر الحريريّ، أنَّه يُضحّي، هو أيضًا، وللأبد، بكلّ مُتْعةٍ بشريّةٍ. ثُمَّ تلت كيارا، بحماسٍ، نذورها الثلاثة: العفَّة، والفقر، والطاعة التي جعلت منها عروس المسيح الأبديَّة.

وقَدَّم لها فرنسيس ثوبًا بنِّيًّا، أغبر، مُرَقَّعًا، وحَبْلاً غليظًا، مضت بهما إلى خلف الهيكل، حيث استبدلتْ بهما ديباجها الفاخر، وزنّارها المرصّع بالجواهر، وحذاءَها الأنيق، وجواربها الحريريّة، التي ألقت بها، جميعها، أرضًا، وانتعلت خفًّا خشبيًّا، في قدميها العاريتَيْن وكان شعورها بالغنى العارم يتفاقم كلَّما ازدادت تجرُّدًا.

ورُبَّما أعاد فرنسيس على مسامعها ما كان قد أنذرها به مرَّاتٍ، من قبلُ، بأنَّ درب الفقر قد يُزيِّنه بعض الأزاهير، ولكنَّه محفوفٌ بأشواكٍ كثيرةٍ؛ ولكنَّها أكَّدت أنَّها، بعون

اللّه وبمساعدته هو، ستقوى على المُضِيِّ في ذلك الدرب بجرأةٍ وإقدامٍ، إلى آخر الشوط، وأنّها ستجعل من ذاتها هيكلاً للربّ نقيًّا، ومن سيرتها تجسيدًا لفقر المسيح.

وراود، آنذاك، فرنسيس، أنَّ كيارا بمفردها، أقوى من جيش مُعدٍّ للقتال، فتعالى، من أعماق قلبه، دعاء شكرٍ حارٌّ للربّ الذي أنعم على كنيسته بتلك الدرَّة السنيَّة، وعلى الأخويَّة الفرنسيسكانيَّة الناشئة بتلك الركيزة المنيعة.

كان الفجر قد أنذر بالبزوغ عندما تمَّت مراسم تكريس كيارا وقريبتها، فأنفذ فرنسيس بعض الإخوة ليواكبوهما إلى دير راهبات القدّيس بولس البندكتيَّات، في باستيا، على بعد بضعة كيلومتراتٍ من أسّيزي، حيث كان قد أعدَّ لهما ملجأً مؤقَّتًا.

* * * * *

وكانت ثورة ذوي كيارا عاصفةً عندما اكتشفوا اختفاءها، فجابوا كلّ مكانٍ بحثًا عنها، إلى أن وقفوا على مخبئها، وعبثًا حاولوا إقناعها بالعودة عمَّا تخيَّلوه نزوةً عابرةً. ولكن إزاء إصرارها الصُّلْب، عمد عمُّها عميد الأسرة، إلى العنف، فاقتحم الدير بشرذمةٍ من المرتزقة المُسلَّحين، ففزعت كيارا إلى كنيسة الدير، واعتصمت عند هيكلها، وتشبَّثت بغطائه بكلتا يَديها؛ وعندما دنوا منها لاختطافها، بادرت إلى نزع وشاحها، كاشفةً عن رأسها الحليق. وحينئذٍ أدرك عمُّها، وسائر ذويها، أنَّها باتت مكرَّسةً للربّ، خاضعةً لسلطةٍ أرفع من سلطتهم، فانكفأوا خائبين.

خيبةٌ ذريعةٌ أُخرى كانت تتربَّص بهم، بعد نحو أسبوعَيْن، عندما لحقت بكيارا أختُها الصغرى كاترينا، ذات الخمسة عشر ربيعًا، التي كانت مخطوبةً، وقد حُدِّد موعد زفافها القريب، والتي كان والدها يأمل أن تنسيَه سلوكَ شقيقتها الكبرى؛ ومن ثَمَّ قد كانت ثورته عارمةً، فالتمس من أخيه الأكبر استرجاعها بأيّ ثمنٍ. وجنّد عمُّها اثني عشر فارسًا لاقتحام الدير، إلاَّ أنَّه تذرَّع أوّلاً بأسلوب الإقناع. ولكنَّه عندما لاقى من كاترينا، مثلما كان قد لقي لدى كيارا من عنادٍ وتصميمٍ، انهال عليها وأوسعها ضربًا وركلاً ودَوْسًا بالأقدام، ثُمَّ انقضَّ أحد الفرسان فاختطفها، ومضى بها، وهي تحاول المقاومة بكلّ ما أوتيت من قوّةٍ، بحيث انتثرت نُتَفٌ من ثيابها وشعرها، عالقةً بحجار الطريق وأشواكه، وأغصان الأشجار، وهي لا تفتأ تستغيث: «أنجديني يا كيارا».

لم يكن بمُكْنة كيارا توفير أيّ عونٍ بشريٍّ، حيال قُوَّةٍ مجهَّزةٍ شرسةٍ، فارتمت جاثيةً،

والتمست، بلهفةٍ، عون السماء، التي بادرت إلى النجدة. وإذا بجسد كاترينا يغدو، بغتةً، كتلةً صمّاء، أكثر ثقلاً من الحديد، بحيث لم يعد بوسع أيٍّ من الفرسان زحزحته. وجُنَّ جنون عمّها، فرفع يده التي ألبسها قفّازًا من حديدٍ، وفيما كان يهمّ أن يهوي بها على وجه الفتاة بقصد سحقه، شُلَّت ذراعه، وانتابه ألمٌ من الشدَّة بحيث راح يزأر مسعورًا. وفي عضون ذلك كانت كيارا قد وافت، ولحقت بعصابة المختطفين، فأوسعتهم تأنيبًا وتقريعًا، وهم مُطرقون مستسلمون، يغمرهم الخزي، فاستعادت أختها وعادت بها إلى الدير.

تلك الهجمات المتعاقبة على الدَّير أرهبت راهباته وأزعجتهنّ، ولا سيّما أنَّ اللاجئات اللائي سبَّبن تلك المتاعب كلَّها لم يكنّ يرتدين زيّ البندكتيَّات، ولا يخضعنَ لنظامهنّ؛ فمضى فرنسيس بأخواته إلى ديرٍ آخر للبندكتيَّات، أبدت المسؤولات عنه قدرًا أوفر من الشجاعة والصمود، إلى أن قدَّم له أسقف أسّيزي كنيسة القدّيس داميانُس، حيث كان المصلوب قد كلَّمه فقلب حياته، والتي كان قد رمَّمها بيدَيْه، والدَّير الصغير الملحق بها، ليكون مقرًّا لسيّدات الفقر. وجديرٌ بالتنويه أنَّ فرنسيس نفسه كان قد تنبّأ، بعد فراغه من ترميم كنيسة القدّيس داميانُس، أنَّها والدير الملحق بها، سيغدوان مقرًّا لطلائع الفرنسيسكانيَّات.

كان مقرّ القدّيس داميانُس يحتلُّ مكانًا أثيرًا من قلب فرنسيس؛ وكان فرحه غامرًا، إذ أتيح له أن يغرس فيه نبتةً رائعةً تُمثِّل الفرع النسائيّ للرسالة الفرنسيسكانيّة، برعاية كيارا التي كانت الأكثر أهليَّةً لتحقيق مُثُلها على خير وجهٍ. وكانت كيارا تشاطره فرحه، وتَطَلُّعه إلى تكريم الفقر الإنجيليّ بالعمل اليدويّ، والخدمة والصلاة.

وقد دُشّن ذلك المقرّ بتكريس كاترينا التي أطلق عليها فرنسيس اسم الأخت أنييس، تدليلاً على الطُّهر الذي انتُزع من براثن العالَم، والتي ما لبثت أن أصبحت رئيسة لدير الكلاريسات في مونتيشيلي، على مقربةٍ من فلورنسا؛ في ما بعد، انضمَّت إلى كيارا وأنييس أختهنَّ بياتريس، ثمّ أمُّهن أورتولانا، بعد أن ترمَّلت، وعددٌ من قريباتهنّ، كما التحق بدير القدّيس داميانُس عددٌ متعاظمٌ من النسوة، بعضهنّ فقيراتٌ جئنَ يلتمسنَ التفرُّغ لله، ومعظمهنَّ ثريّاتٌ ونبيلاتٌ تجرَّدْنَ من كلّ شيءٍ، كي يعشنَ عيشة الفقر والفرح، والصلاة والعمل، على غرار فرنسيس وكيارا، وعلى مثالهما الذي به أُخِذنَ؛ جئنَ ليهبنَ أنفسهنَّ للربّ الذي لا يهب ذاته إلاّ للنفوس التي أفرغت ذاتها من كلّ

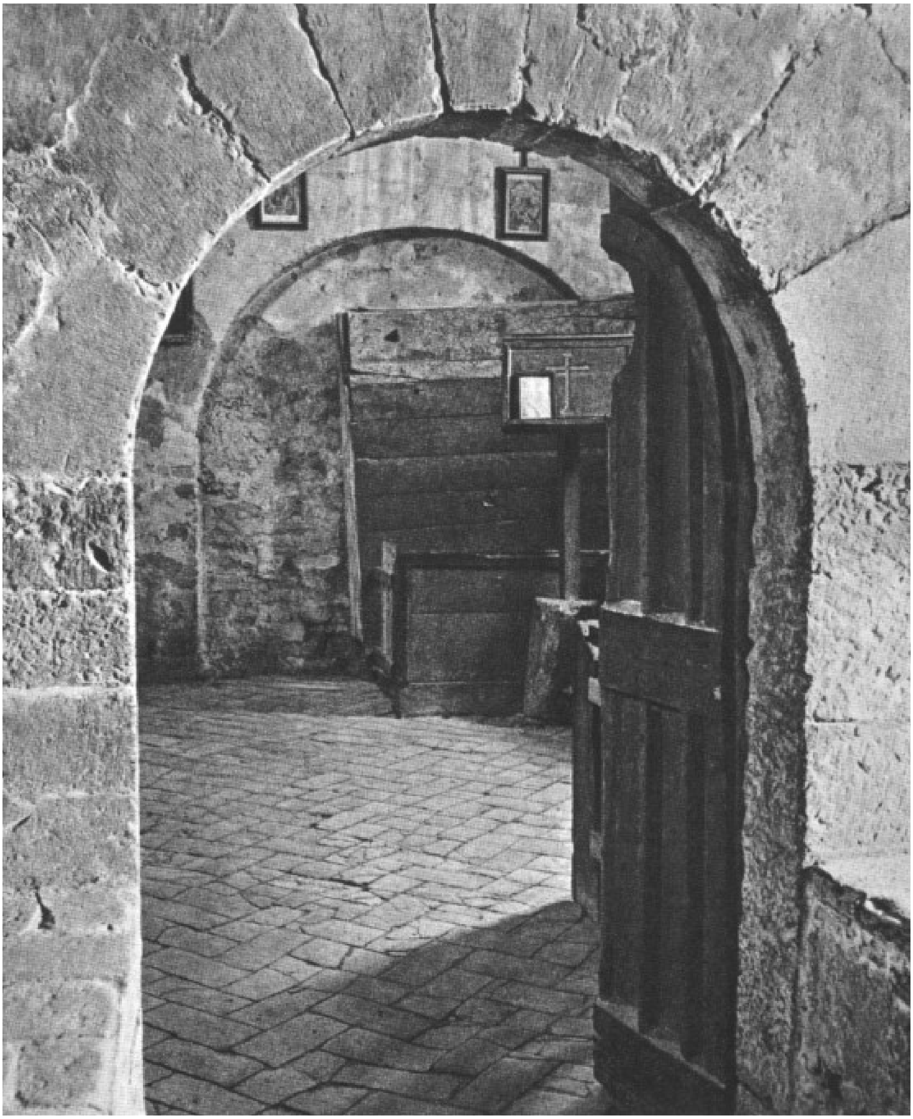

كنيسة سان داميان، (القسم المخصّص للنساء)

هوًى آخر غير هواه. كثيراتٌ منهنَّ قد زهدنَ في قصورٍ وألقابٍ وأمجادٍ، وبذخٍ وترَف عيشٍ، لاكتشاف الله، وممارسة الفقر في مقرّ القدّيس داميانُس المتداعي حيث «جدرانٌ عاريةٌ، وجسورٌ من خشبٍ لم تمسَّها يد صقَّالٍ، وسُلَّمٌ مُظلمٌ هاوٍ ينتهي إلى قاعةٍ عاريةٍ ضيّقةٍ، تُستخدم مُصَلًّى ومنامةً لكيارا ورفيقاتها. كلّ ما في دير القدّيس داميانُس فقرٌ وصلاةٌ، ودعوةٌ إلى البساطة، والبحث عن الله، ممّا يجعل كلَّ نافلٍ لا يُطاق».

كلُّ شيءٍ في دير القدّيس داميانُس، حتّى الخشب والحجر، كان مصبوغًا بلون الفقر والتواضع، ولكنَّ نورًا داخليًّا رقيقًا رائعًا كان يسري في كلّ مكان.

ويكفي الوقوف أمام «حديقة» القدّيسة كيارا الصغيرة لتبيُّن إلى أيّ مدًى تعايشَ، ثمَّة، الفقر مع الفرح والتسبيح، في مشاركةٍ حميمةٍ مع الخليقة كلّها.

ولقد أضفت كيارا على التأمُّل بُعدًا ولونًا إنجيليّين، ومزجته بالنشاط اليوميّ العاديّ، وبواقع الأشياء الوضيع، وبالأعمال البسيطة الرتيبة، فجعلت التأمُّل في متناول الفقراء والصغار والكادحين، الذين تسنَّى لهم، بذلك، اكتشاف الله، في إنسانيَّته وتواضعه.

بالإجمال سيرةُ قداسةٍ، ونزوعٌ صادقٌ إلى الكمال، تفشَّت عدواهما، فاجتذبا، باطّراد، فرنسيسكانيّاتٍ أو «كلاريسّاتٍ» (نسبة إلى كلير أو كيارا)، سيّداتٍ للفقر جديداتٍ.

معيار قبول المرشَّحات هو نفس المعيار الذي كان يعتمده فرنسيس لقبول إخوته الصغار: التخلّي عن كلّ شيءٍ للمعوزين والفقراء، وتبنّي الفقر المُطْلَق، والعمل اليدويّ، والصلاة. وعلى غرار نهج اليورتسيونكولا، درج دير القدّيس داميانُس على رفض كلّ تملُّكٍ، وكلّ هبةٍ تتعدّى حاجة الأَوَد اليوميّ، كي يظلَّ أبدًا «قلعة الفقر المطلق». وهكذا، فيما كانت بعض الأخوات تتفرَّغنَ للتعبُّد والصلاة، أو لممارسة العمل اليدويّ والخدمة، كانت أُخريات تَنطلقنَ لاستعطاء طعام الجميع اليوميّ.

وقد دبَّج فرنسيس، بيده، موجزًا للنِّظام الأساسيّ للكلاريسّات القائم على الفقر الإنجيليّ. وعندما التمست كيارا من الحبر الأعظم البابا إنوشنتسيوس الثالث، الموافقة على منحها وأخواتها «امتياز الفقر» كانت دهشته عارمةً، إذ كانت الامتيازات التي تُطلب منه، عادةً، تستهدف امتلاكًا، أو تتوسَّل مكسبًا من نوعٍ ما، وكانت تلك هي المرَّة الأُولى التي يُطلب منه «امتياز الفقر»، بحيث حرص على أن يخطّ بيده إعلان ذلك الامتياز.

وقد جسَّدت كيارا، على نحوٍ بطوليٍّ، جميع المُثُل الفرنسيسكانيّة في الفقر الإنجيليّ، والعمل اليدويّ، والكَلَف بالخدمة، والتواضع السحيق، والتقشُّف حتّى الإماتة، وعملاً بقول يسوع: «من كان فيكم أوّلَ فليكن للجميع خادمًا»، كانت تضطلع بنفسها بخدمة المائدة، والعناية بأخواتها، ولا سيَّما المريضات منهنّ؛ وتؤْثر الاضطلاع بالمهامّ الوضيعة على إيكالها لسواها، ولا تُحْجِم عن أيَّة مهمّةٍ، فلا تتردَّد، مثلاً، عن غسل أرجل الأخوات العائدات من الاستعطاء بيديها، وعن تقبيلها باحترام؛ وقد أبت، أبدًا، ما لم يُقعدها المرض، أن يقوم سواها بغسل ثياب الأخوات؛ ومثل أمٍّ رؤومٍ، كانت تستيقظ في الليل مرارًا لتغطية من انحسر عنهنّ الغطاء؛ وإذ عهد فيها فرنسيس مثلَ هذا الحدب، بات يرسل لها من ابتُلوا بعِلَلٍ يقتضي علاجها قسطًا من الصَّبر وافرًا، أو يأنف الآخرون تولّي العناية بها، فتُكبّ على علاجهم بمحبَّةٍ وتبصُّرٍ حتّى توفّر لهم الشفاء.

بطوليًّا، أيضًا، كان استغراقها في الصلاة، فبعد صلاة النوم التي تُخلد، في إثرها، الأخوات إلى الراحة، كانت تظلّ، طويلاً، جاثيةً، مُحدّقةً تارةً إلى ذلك الصليب البيزنطيّ الذي سبق وكلَّم فرنسيس، وتارةً أُخرى إلى النور السرِّيّ المسرَج، ليلَ نهار، أمام القربان الأقدس، وتتأمّل في آلام يسوع وفدائه، مردّدةً «صلوات الصليب» التي كان فرنسيس قد جمعها ولقَّنها إيّاها. ومع كلّ ذلك السهر المتواتر، كانت أولى المستيقظات، فتشعل السُّرُج، وتضيء الكنيسة، وتُعِدّ الإفطار، كي تتيح لسائر الأخوات لحظاتٍ إضافيَّةً من الراحة، قبل إيقاظهنّ، ثمّ تقرع جرس صلاة الصَّباح.

ورغم حدبها على أخواتها، لم تكن تأخذها بجسدها رأفة. ففي مطلع عهد إقامتها في الدَّير كانت ترقد على كومة من الزرجون (أغصان الكرمة اليابسة)، وتتوسّد حطبةً، ولكن، عندما اعتلَّت صحَّتها، قسرها فرنسيس على استخدام فرشةٍ من قشٍّ. وكان لا بدَّ من ضغوط فرنسيس، أيضًا، للحدّ من غلوائها في الصيام، إذ كانت قد أَلِفتْ، في أثناء الأصوام الكنسيّة، أن تنقطع عن كلّ طعامٍ ثلاثة أيَّامٍ في الأسبوع، في حين كانت تجتزئُ، في الأيّام الأُخرى، ببضع لقمات خبزٍ، وبضع رشفات ماءٍ، وترفض أبدًا تناول أيّ طعامٍ مطبوخٍ في كافَّة أيَّام السنة. وربَّما هي، للتعويض عن الصَّوم، وبعد أن أمرها الأسقف بتناول حدٍّ أدنى من الخبز يوميًّا، عكفت على ارتداء قميصٍ من جلد خنزيرٍ، على جسمها، مباشرةً، بحيث لا يكفّ شعره القاسي يخزُّها باستمرارٍ.

وقد حرص فرنسيس، بادئ الأمر، على تدعيم نبتته الفتيّة، فجعل إخوته يقتسمون

مع الكلاريسّات حصيلة استعطائهم اليوميّ، وأنفذ إليهنّ كهنةً لتعليمهنّ الصلاة، وإقامة الطقوس لهنّ، كما أَلِف الاختلاف إلى مقرّهنّ، ليرسِّخ فيهنّ روح الفقر الإنجيليّ الذي غدا مِحْوَر نظامهنّ الأساسيّ.

إلاَّ أنَّه فطن، في فترةٍ مبكّرةٍ، إلى حظر اختلاط الإخوة والأخوات، فسنَّ أنظمةً صارمةً في هذا المجال، وحرص على ألاَّ يُكلَّف بخدمة الأخوات الروحيّة، إلاَّ من عهد فيهم نفورًا من مخالطة النساء. وبعد أن كان هو في المرحلة الأُولى، رئيسًا على الأخوات، قسر الأخت كيارا، عام ١٢١٥، على أن تتسلَّم رسميًّا رئاسة الكلاريسّات. ومذ ذاك غدت زياراته لدير القدّيس داميانُس تتباعد أكثر فأكثر، حتّى أصبحت نادرةً، عابرةً، رغم توسّل الراهبات لرؤيته والاستماع إليه؛ ومن ثَمَّ اتَّهمه بعض الإخوة بالقسوة، والتخلّي عن نبتته الأثيرة؛ ولكنَّه كان لا يتردَّد في الإجابة على أولئك، أو على الذين يُبدون اندفاعًا مفرطًا في اجتذاب أخوات جديداتٍ، في لهجةٍ تنطوي على إنذارٍ ساخرٍ، قائلاً: «إنَّ الربَّ نفسه هو الذي وقانا من الاقتران بزوجاتٍ، ولكن ألا يُمكن أن يكون الشيطان هو الذي يُرسل لنا أخواتٍ؟!» وغالبًا ما كان يروي لهم المثل التالي:

– ملك أنفذ إلى الملكة رسولَيْن، ولمَّا عادا، وقدَّما تقريرهما، استفسر عن رأيهما في الملكة. فقال الأَوَّل:

– لديك، يا صاحب الجلالة، زوجةٌ رائعةٌ. وهنيئًا لمن ينعم بمثلها.

أمَّا الرسول الثَّاني فاكتفى بالقول:

– لقد أُعجبتُ بالاهتمام الذي كانت تتلقّى به تعليماتكم.

– وما رأيك في جمالها؟

– يا صاحب الجلالة، لكُم وحدكم أن تحكموا في ذلك. أمّا أنّا فكان عليّ إبلاغها رسالتكم فحَسْبُ.

حينئذ قال له الملك:

– بما أنّ عينيك طاهرتان، فسأكافئك بإبقائك إلى جانبي أبدًا.

ثمّ التفت إلى الرسول الآخر وأصدر فيه حكمه قائلاً:

– أمّا أنت الذي تمنّى امتلاك تلك التي تفرّست فيها عيناه، فاخرج من هنا، ولا تُدَنِّس، بعدُ، قصري، بحضورك.

وكان فرنسيس يعلّق على ذلك المثل قائلاً: «إن كان لملوك الأرض، مثلُ هذه المطالب، فكيف لا يقتضي يسوع طهرًا مُطْلقًا من أولئك الذين ينفذهم إلى قريناته؟».

وإذ كانت إحدى التوصيات الصادرة عن الكرسيّ البابويّ قد شدَّدت على وجوب الفصل بين أديرة الرهبان والراهبات، فقد حظر رئيس دير للفرنسيسكانيِّين على رهبانه المُكَلَّفين بالعناية بالراهبات، تعريفهنَّ أو إرشادهنّ، فاستنكرت كيارا ذلك الحظر بعنفٍ. وعندما جاء بعض الإخوة بقسط الراهبات من حصيلة الطعام الذي استعطوه، وافَتهم بنفسها، وأبلغتهم: «عودوا إلى رئيسكم، وبلّغوه، من قِبَلي، أنَّكم طالما لم تعودوا قادرين على تغذية نفوسنا بأحاديثكم الوَرِعة، فلا حاجة بنا، بعدُ، إلى تغذية أجسادنا بصدقاتكم».

وأحيط الحبر الأعظم بذلك الموقف، فألغى توصياته التي أُسيء تفسيرها.

كما أنَّ فرنسيس أكَّد على ضرورة مواصلة العناية الروحيَّة بالأخوات. ولكنَّه، من جهةٍ أُخرى، حرص على أن يلقِّنهنَّ عبرةً كفيلةً بتخليصهنّ من كلّ غلوٍّ عاطفيٍّ، لئلاّ يخالط حبَّهن ليسوع أيُّ تعلُّقٍ بشريٍّ بممثّليه من كهنةٍ ورهبانٍ، أيًّا كانوا، ولكي تكون علاقتهنّ بيسوع صميمةً، مباشَرةً.

وفي هذا السياق، نزل، يومًا، عند رغبة كيارا وأخواتها اللائي طالما ألححن في الاستماع إلى وعظه؛ فوافى المُصَلّى حيث كنَّ مجتمعاتٍ، متلهّفاتٍ إلى سماعه، وجثا أمام الهيكل، واستغرق في صلاةٍ صامتةٍ طويلةٍ، وهو شاخص العينَيْن إلى السماء؛ ثمّ استقدم شيئًا من الرماد، فذرّ بعضه على رأسه، ورسم ببعضه الآخر دائرةً من حوله، للدلالة على أنَّه، مثل كلّ إنسانٍ، خاطئٌ، ومثل كلّ شيءٍ، باطلٌ وزائلٌ، ونهض فتلا مزمور التوبة: «ارحمني يا الله»، وانصرف مُطرقًا، من غير أن يتفوَّه بلفظةٍ واحدةٍ. وكانت تلك واحدةً من أبلغ عظاته، من غير كلام.

ومع ذلك يمكن القول إنَّه نادرًا ما ساد توافقٌ مُطلَقٌ بين نفسَيْن، واتّفاقٌ شاملٌ حول شؤون الأرض والسماء، مثلما ساد بين فرنسيس وكيارا، التي كان قلبها البنويّ يعكس، مثل مرآة، أصدق صورةٍ لمُثُل «الفقير الصغير».

ولم تكن كيارا محطّةً عابرةً في حياة فرنسيس، بل قد خلّف لقاؤهما في مسيرته وفي نفسه أبعد أثرٍ وأبلغه. فهو كان قد تخلّى جذريًّا عن المرأة كي يهب ذاته للّه كاملةً، من غير تحفُّظٍ ولا تجزئةٍ؛ وعندما التقى كيارا تقبَّلها على أنّها عذراء مكرَّسةٌ للربّ، ذات رسالةٍ شخصيَّةٍ ساميةٍ، تواصل رسالته وتكمّلها؛ وقد احتلّ كيانها المكرَّس من ذاته مكانًا أثيرًا، بعيدًا عن كلّ شهوة، ونشأت بينهما صداقةٌ نقيَّةٌ طاهرةٌ، منزَّهةٌ من كلّ ميلٍ بشريٍّ وبيلٍ، كما لم تنشأ، إلاّ نادرًا جدًّا، صداقةٌ نقيَّةٌ طاهرةٌ بين رجلٍ وامرأةٍ.

وقد ظلَّت تلك المرأة الفريدة حاضرةً أبدًا في حياة فرنسيس الروحيَّة، تلتمس أَزْره، وتدعم، بدورها، مسيرته الروحيّة. هي تستعين بنصحه وإرشاده، وهو يلجأ إلى مشورتها كلَّما تشابكت أمامه المسالك، واستغلقت الحلول؛ هي تستنير بسيرته وأقواله وكتاباته، وهو ينشدُ لديها سواء السبيل؛ وعندما انطفأ من عينيه النور، واحلولكت نفسه، كانت له، حقًّا، «كيارا» أي الوُضَّاءة المُنيرة، لا بنصائحها فحَسْبُ، بل بإشعاع كيانها الروحيّ النفَّاذ، الذي كان يُشيع الضوء في أعماقه، بحيث بات فرنسيس، في ساعات مِحَنه، وظلمات شكّه، وخيبات أمله، ولا سيَّمَا بعد أن تكاثر عدد الإخوة والأديرة، وشرع بعض المنضمّين الجُدُد ينزعون نزعاتٍ مغايرةً لمبادئ المؤسّس الجوهريَّة، يعود إلى حَرَمِ القدّيس داميانُس، حيث وُلِدَتْ رسالته، فيلتمس لدى ابنته الروحيّة، العزاء والسَّنَد اللَّذَيْن يفتقر إليهما، أو يُنفذ إليها رُسُلاً مستمدّين نصحها.

وهي، بالمقابل، كانت تسترشده في كلّ ما يستعصي عليها، أو تعتزم الإقدام عليه. تلك العلاقة الحميمة كان يغمرها ويحدوها حبٌّ مشترَكٌ، نقيٌّ، للربّ، لا حدود له. وقد تجلّى ذلك الحبّ السامي الطاهر، يوم اضطُرّ فرنسيس إلى استضافة كيارا إلى مائدة الطعام، بعد أن كانت قد توسَّلت، سنواتٍ، أن يقبل دعوتها إلى مائدتها، إلاَّ أنَّه كان يرفض، ويماطل، ويتملّص، خشية أن يُتَّخذ قبوله مَثَلاً يُساء فهمه. غير أنَّ إخوانه المخلصين ضاقوا ذَرْعًا برفضه، فعاتبوه قائلين: «إنَّها لقسوةٌ مفرطةٌ، وتنكُّرٌ لواجب المحبَّة الإلٰهيَّة، أن تستمرّ في رفض دعوة عذراء كرَّمها الربّ؛ وحتَّى لو أنَّها طلبت منك ما هو أعظم شأنًا من أمرٍ تافهٍ، مثل مقاسمتها الطعام، فعليك تلبية طلبها. ولا يُغرُبَنَّ عن بالك أنَّها نبتَتُك الروحيَّة الصغيرة، وأنّ إرشاداتكَ أسهمت في انتزاعها من مفاتن العالم».

وأطرق فرنسيس برهةً، ثمَّ قال: «إن كنتم مُجمعين على واجب مقاسمتها الطعام،

خُصَل من شعر كيارا محفوظة حتّى اليوم في أسّيزي

فليكن. ولكي يكتمل سرورها، أقترح أن يتمّ ذلك ههنا في البورتسيونكولا. فأُختُنا كيارا تقيم، منذ زمنٍ طويلٍ، حبيسة دير القدّيس داميانُس، وسيكون من دواعي فرحها أن ترى، من جديدٍ، هذا المكان الذي فيه وهبتْ نفسها للربّ. وعليه، فباسم اللّه، سنتناول طعامنا معها ههنا».

وفي الموعد المضروب، واكب بعض الإخوة كيارا وإحدى أخواتها إلى البورتسيونكولا، حيث سَعِدَت بالرُّكوع أمام هيكل العذراء، سيّدة الملائكة، التي شهدت قصَّ شعرها، وتكريسها للربّ، لسنواتٍ خلتْ، ثُمَّ، فيمَا راحَ الإخوة يُرونها الدير، كان فرنسيس مُكبًّا على إعداد المائدة، على الأرض العارية، وفقًا لمألوف عادته. ولّما أَزِف موعد الطعام جلس فرنسيس، وأحد الإخوة أرضًا، وجلست كيارا ورفيقتها، وتحلّقَ سائر الإخوة من حولهم. ولكن ما كادوا يشرعون في تناول اللقمات الأُولى حتَّى انطلق فرنسيس يتكلّم عن اللّه في وَرَعٍ رائعٍ، وفصاحةٍ أَخّاذةٍ، وعُمْقٍ فريدٍ، بحيث فاضت نِعَم اللّه على الجميع وانتابهم انخطافٌ جماعيٌّ في اللّه.

وفي تلك الأثناء، شاهد أهالي أسّيزي، وشتّى القرى المجاورة ألسنةً كثيفةً وعاليةً من اللهب منتشرةً فوق البورتسيونكولا، وكنيسة العذراء، سيّدة الملائكة، والغابة المحيقة به. وخُيِّل إليهم أنَّ حريقًا هائلاً قد شبَّ وأخذ يلتهم المكان بأسره، فتراكضوا من كلِّ صوبٍ لإطفائه. وكم كانت دهشتهم عارمة، عندما انتهوا إلى الكنيسة والدير، فلم يُلفوا للنار أيّ أَثَرٍ، ووجوا الدير فطالعهم مشهدٌ فريدٌ مُذهلٌ: رهبانٌ وراهباتٌ جالسون أرضًا، حول مائدة طعامٍ على جانبٍ كبيرٍ من التقشُّف، أيديهم مرفوعة إلى العلاء وعيونهم شاخصةٌ إلى السماء، وهم ذاهلون عن كلّ شيءٍ، سادرون في عالمٍ آخر. وأدركوا أنَّ النار التي شاهدوها إنَّما كانت نار الحبّ الإلهيّ التي غمرت ذلك المكان المقدَّس.

غيرَ أنّ مِثل تلك اللقاءات بين فرنسيس وكيارا كانت عابرةً، نادرةً. ومن ثَمَّ، عندما اشتدَّ المرض بفرنسيس، وأشفى على نهايته المحتومة، وكان ذلك عام ١٢٢٦، فجيء به إلى البورتسيونكولا، حيث مُدّد على أرض صومعته، ريثما يلقى حتفه، أنفذت كيارا رسولاً تلتمس رؤيته مرَّةً أُخرى، ورُبَّما أخيرةً، ولكنّه أنفذ إليها أخًا وأوصاه: «قُلْ للأخت كيارا أن تضع جانبًا كلَّ حزنٍ، وأنَّه لا سبيل لزيارتها لي الآن. ولكن أكِّدْ لها أنَّها وسائر الأخوات، سيرينَني، قبل موتهنّ، وسيظفرن بعزاءٍ عظيمٍ». وبعد أيّامٍ معدوداتٍ، انتقل القدّيس إلى جوار ربّه، فهرع أهالي أسّيزي للاستيلاء على جثمانه،

والعودة به إلى مسقط رأسه. وفي منتصف الطريق المُصعِّد، توقّفوا، في كنيسة القدّيس داميانُس، حيث سجّوا الجثمان أمام الحاجز الذي تقيم خلفه الراهبات، بحيث استطعن أن يشاهدن، للمرَّة الأخيرة، أباهنّ الروحيّ، حسبَما وعدهنَّ. ثُمَّ تجرَّأ بعض الإخوة، فخلعوا الحاجز، ورفعوا الجثمان على أكفّهم عاليًا كي يمكّنوا جميع الأخوات من التملّي من رؤيته ووداعه، قبل أن يمضوا به وسط وابلٍ من العبرات والتأوُّهات.

أمّا كيارا، فرغم تقشُّفها المُسرف، عاشت ستّين عامًا، منها نحو اثنين وأربعين عامًا من الحياة الرهبانيَّة، وقد كدَّر عددًا من سنواتها الأخيرة غيابُ الأب الروحيّ، القدّيس فرنسيس؛ غير أنَّها كانت تستمدّ بعض العزاء من حضور بعض الإخوة الأوائل الذين ظلُّوا أوفياء للمُثُل الفرنسيسكانيَّة الأصيلة، أمثال ليون، وأنجيلو، وجينيفير، الذين ما انفكّوا يختلفون إلى دير القدّيس داميانُس، فيستعيدون معها ذكرى الراحل الغالي، ويؤكّدون العزم على الإخلاص للخطّ الذي انتهجه، ويتكلّمون عن الله، في صوفيَّةٍ لاهبةٍ. حتّى الأخ إيجيديو الذي اعتكف في صومعةٍ لا يُبارحها، ولا سيَّمَا إثر وفاة فرنسيس، بات يخرج، بين الفينة والفينة، ليزور الفرنسيسكانيَّة الأولى الوفيّة، كيارا، فيتبادل معها ذكريات الأب الذي افتقدوه، والأحاديث عن الله. وفي أثناء إحدى تلك الزيارات جرت حادثةٌ تبرز روعة الروح الفرنسيسكانيّ.

فقد كان أخٌ فرنسيسكانيٌّ إنكليزيٌّ، دكتورٌ في اللاَّهوت، يعظ في كنيسة القدّيس داميانُس؛ ولا ريب أنّ كلامه كان ينمّ عن علمٍ غزيرٍ، ولكنَّه كان يفتقر إلى مثل طلاوة وعظ فرنسيس الذي طالما تكلّم في ذلك المكان عينه، وإلى مثل قدرته على التسلّل إلى أغوار النفوس، وهزّها. فما كان من الأخ إيجيديو إلاَّ أن قاطعه، طالبًا منه الصَّمت، وإفساح المجال له كي يقول بضع كلمات؛ فتنحّى الأخ الدكتور جانبًا، واندفع الأخ إيجيديو يتكلّم وهو «ملتهبٌ بروح الله». ثمّ تنحّى بدوره كي يتيح للأخ البريطانيّ إتمام عظته. وكانت فرحة كيارا بما حدث أكبر ممّا لو هي شهدت ميتًا يُبعَث، وأعلنت، جذلى: «هذا، حقًّا، ما كان يرغب فيه أبونا القدّيس فرنسيس، أن يتحلّى دكتورٌ في اللاهوت بقدرٍ كافٍ من التواضع بحيث لا يتردَّد عن الصَّمت، عندما يعرب أخٌ لا رتبة كهنوتيّة له عن رغبته في الكلام عوضًا عنه».

وعلى غرار أبيها الروحيّ، اتَّصفت كيارا بالتواضع، والرأفة، وسحر المعشر، وحبِّ الخليقة كلّها، وبالتفاؤل والفروسيّة.

فلطالما دأبت على العناية بالمرضى، ولا سيَّمَا المصابين بعللٍ مستعصيةٍ، منفّرةٍ. وعندما نمت إليها أنباء فرنسيسكانيّين استشهدوا في المغرب، اندفعت للمثول إلى هناك، كي تمزج دمها بدمهم، شهادةً على إيمانها. ولكنَّ فرنسيس حال دونها ودون رغبتها تلك.

وقد ارتقت كيارا قمَّةً من الصوفيَّة شاهقةً، بحيث غدت في حوارٍ مع الله متَّصلٍ. وفي كلِّ يومٍ، منذ الظهر حتّى الغروب، كانت تستغرق في تأمّل آلام المسيح، فينتابها من الألم ما يستدرّ منها دموعًا غزيرةً ممزوجةً بالدم. وكانت أدنى إشارةٍ إلى الفادي وأقواله تنتقل بها إلى العالم العلويّ.

ولدى خروجها من المُصلّى، في أعقاب مكوثها الطويل فيه، كان محيَّاها يشعّ بِشرًا، وتنمّ كلماتها عن فرحٍ بعيد الغور؛ وكثيرًا ما انتابها الانخطاف في أثناء استغراقها في الصلاة. وقد دام انخطافٌ اعتراها ليلة خميس الآلام أربعًا وعشرين ساعةً، وهي لا تلوي على شيءٍ. وفي نوبةٍ أُخرى، في ليلة عيد الميلاد، كانت من شدَّة الوهن، من جرّاء المرض، بحيث لم تقوَ على المثول إلى الكنيسة. ولكنَّ الربَّ مَنَّ عليها بمتابعة القدّاس الذي كان يحتفل به فرنسيس، بحيث لم يفُتْها كلمةٌ منه، وهي مستلقيةٌ على سرير المرض، في صومعتها، كما أُعطيَتْ أن ترى تمثال الطفل الإلهيّ الذي كان فرنسيس قد نصبه في صدر مغارة غريشيو.

وهي، إلى ذلك، كانت، على غرار فرنسيس، شديدة الإعجاب برُواء الطبيعة، التي كان جمالها تعظيمًا للربّ بلا حدودٍ، وتسبيحًا لعمله الرائع فيها.

ولا يزال زائر دير القدّيس داميانُس يستطيع مشاهدة «حديقة القدّيسة كيارا»، وهو حيِّزٌ ضيِّقٌ على شرفة الدير كانت تغرس فيه الأزهار وترعاها، ويقال إنَّها كانت تقتصر منها على أصنافٍ ثلاثةٍ: الزنبق، رمز الطهر، والبنفسج، رمز التواضع، والورد، رمز محبّة الله والبشر. وكانت تُحرِّض الأخوات اللاّئي تدعوهنَّ مهمّتهنّ إلى المُضِيّ خارج الدير إلى تأمّل الأشجار والنباتات، وسنى الطبيعة. كما أنَّها كانت تحنو على الحيوانات.

غير أنّ تلك الرقَّة كانت تُخفي شخصيَّةً شديدة المراس، وبسالةً لا تعرف الخوف. وقد دلَّت على ذلك، على نحوٍ خاصٍّ، في مناسبةٍ شهيرةٍ. ففي عام ١٢٤٠، عندما نشبت معارك بين قوّات البابا وفريديريك الثاني، ولمّا غزا هذا الأخير أراضي الكنيسة، مستخدمًا مرتزقةً، من غير المسيحيّين، لا يقيمون للحبر الأعظم حرمةً، ولا يخشون

حُرْمهُ، مُطْلقًا يدهم في السلب والاعتداء، وقد داهموا سهل سپوليتي كالجراد، وهاجموا دير القدّيس داميانُس، وكان اقتحامهم له يعني انتهاك أقداسٍ وأعراضٍ، فضلاً عن إعدام نزيلاته، اللاّئي تجمَّعنَ مرتعداتٍ حول أمّهن كيارا؛ وكانت هذه، آنذاك، طريحة الفراش؛ ولكنّها لم تفقد شيئًا من رباطة جأشها، بل طلبت أن تُنقَل بفراشها إلى جوار باب الدير الموصد، فتكون أولى الضحايا في حالة وقوع اعتداءٍ. ثمّ استقدمت من الكنيسة كأس القربان المقدَّس، وأمامه استغرقت في دعاءٍ حارقٍ، حميمٍ، ملتمسةً من الربّ، بلهفةٍ، أن يُنقذ بناتها العذارى، كما التمست حماية مدينة أسّيزي وأهاليها. وإذ بصوتٍ يحاكي صوت ولدٍ، يتصاعد من الكأس قائلاً: «سأظلّ دائمًا حارسكنَّ». فنهضت مستقيمةً، في الحال، وقد أفعمتها الثقة؛ وما هي سوى لحظاتٍ حتّى رفع المهاجمون الحصار عن الدير بغتةً، وانكفأوا نائين عن المنطقة كلّها.

ولطالما تكرّرت استجابة الربّ الخارقة لدعاء القدّيسة كيارا، وفاءً منه للوعد الذي قطعه لمن يُؤمنون به، وينفّذون وصاياه، بأن يفعلوا، ليس فقط الأعمال التي يعملها هو، بل أعظم منها أيضًا. ومن أطرف ما يُروى في هذا السِّياق أنّ إحدى الراهبات قد اعتلَّتْ، وأخذت تهزل وتذوي، على نحوٍ مريعٍ، لافتقادها كلَّ شهيّةٍ للطعام، ورفضها كلّ غذاءٍ حتّى أشرفت على الهلاك. فسألتها كيارا برقّةٍ، هل ثمّة أيُّ نوعٍ من الطعام تشتهيه وترغب فيه، فذكرت الأخت المريضة نوعًا من سمك الترويت، ونمطًا من الفطائر، كانت كَلِفَةً بها قبل التحاقها بالدير، ومُعبِّرةً عن رغبتها فيها. وفي الحال، جثت الأمّ القدّيسة، وما كادت تشرع في الدعاء حتّى قُرِع باب الدير، وإذ بفتًى يحمل صِرَّتَيْن تحتويان الأطعمة التي كانت الأخت العليلة تشتهيها. وما إن سلَّم الأمانة حتّى تلاشى كالشبح.

ومن روايات عجائبها الطريفة أنّ البابا غريغوريوس التاسع قد حلَّ، يومًا، ضيفًا على دير القدّيس داميانُس، وعندما أزف موعد الغداء، كانت بضعة أرغفةٍ مستديرةٍ مُنَضَّدةً على المائدة، فالتمست كيارا من الحبر الأعظم أن يباركها، فأبى، وأصرَّ أن تباركها، هي بنفسها، وأن ترسم عليها إشارة الصليب الذي كان نبراس حياتها. ولكنّها استكبرت الأمر، واحتجَّت بأنَّه لا يسوغ لها مباركة أيّ شيءٍ، في حضور ممثّل المسيح شخصيًّا. فاضطُرَّ البابا أن يُلزمها بذلك، بأمر الطاعة؛ وعندما امتثلت للأمر، ارتسم على كلّ رغيف كانت تباركه، واحدًا فواحدًا، صورة صليبٍ مُحْكَم المعالم. وقد تناول الحضور

بعض هذه الأَرغفة المباركة، واحتفظوا بالبعض الآخر، تمجيدًا للربّ على عجائبه بواسطة خادمته الوفيَّة.

ومن قبلُ، كان البابا غريغوريوس التاسع، يوم كان لا يزال كردينالاً، قد زار، يومًا، الأخت كيارا، واطَّلع، عن كَثَبٍ، على أسلوب عيشها وكتب لها، في أعقاب تلك الزيارة:

«كنت (قبل زيارتي لك) أُقرّ ببؤسي، وأعترف بخطاياي؛ ولكنّني الآن، وقد أدركتُ استحقاقاتك السامية، وشهدت تقشُّف حياتك الرهبانيّة، بِتُّ أشعر، بعمقٍ، وطأة عبء الخطايا الذي يُرهقني. لقد تماديت في إغضاب ربّ الكون أجمع، بحيثُ، ما لم تظفر لي دموعك وصلواتك بغفران سيّئاتي، فلن أستحقّ الانعتاق من تورُّطي بالدنيا، والانضمام إلى جماعة المُخَلَّصين. ولذلك، فإنّني أضع نفسي أمانةً بين يديك، وأُوكل إليك روحي، على نحو ما أَوكل يسوع على الصليب روحه إلى أبيه. وستُؤدّينَ عنّي الحساب، يوم الدين، ما لم تتولَّيْ أمر خلاصي، بعنايةٍ بالغةٍ. فإنّي متيقِّنٌ، يقينًا وطيدًا، بأنَّ كلَّ ما تطلبه تقواك ودموعك من الديّان الأسمى، يهبك إيّاه».

بيد أنّ وفاء كيارا لفرنسيس يتجلّى، أكثر ما يتجلّى، في تشبُّثها بالفقر الذي كان أثيرًا على قلبه؛ وتعبيرًا عن كَلَفِها به، كتبت، يومًا، إلى أختها أنييس: «أيُّها الفقر المقدَّس العزيز، فلتكن مباركًا أنت الذي يوفّر لنا ثروات السموات الخالدة! فلتكن مباركًا أنت الذي كرَّمه باري العالم باختياره إيَّاه، في أثناء مكوثه على الأرض».

وفي سبيل الفقر المقدَّس، خاضت كيارا معركةً تمادت نحو ثمانيةٍ وثلاثين عامًا، تصدَّت، خلالها، لثلاثة بابوات، ولم يُكتب لها النصر فيها إلاَّ عشيَّة وفاتها. فقد كان عسيرًا على المسؤولين الكنسيّين التسليم بوجود أديرةٍ لراهباتٍ حبيساتٍ تفتقرنَ إلى كلّ صنوف الامتلاك والدخل. صحيحٌ أنَّ كيارا كانت قد ظفرت من البابا إنوشنتسيوس الثالث بامتياز الفقر، وبحقّ عدم التملُّك، وبالعيش بفضل الحسنات اليوميّة، والعمل اليدويّ، غير أنَّ خَلَفه البابا غريغوريوس التاسع، صديق الفرنسيسكانيّين ومحاميهم، يوم وافى أسّيزي عام ١٢٢٨، لتطويب القدّيس فرنسيس، قد حاول رَدْع كيارا عن مُضِيّها في طريق الفقر المُطْلَق، وقال لها: «إن كانت النُّذور هي التي تمنعك من التمتُّع بدخلٍ دائمٍ، فباستطاعتي حلُّك من هذه النذور».

فأجابته: «أيَّها الأب الأقدس، أرجوك أن تحلَّني من خطاياي، ولكن لا رغبة لديّ في أن أُعفى من اتّباع يسوع».

ومضت تُلحِف في التماس موافقة الحبر الأعظم على منحها الحقّ بعدم التملُّك. وقد أثار طلبها هذا ضَحِكه، مثلما كان قد أثار ضحك سَلَفه، إذ لم يكن قد أَلِف، قطّ، إلحافًا في التماس مثل تلك المطالب؛ غير أنَّه استسلم لطلبها الملحاح. وإذ لم يكن لمثل ذلك النظام الرهبانيّ سابقةٌ، فقد دبّج بِيَده نصّ براءةٍ جاء فيها: «بما أنَّه قد اتَّضح أنّ الحرمان من الأشياء الأساسيّة لا يرهبكنّ، فإنّنا نفوّضكنّ، بمنحةٍ رسوليّةٍ، أن تعشنَ في الفقر الأقصى، ونسمح لكنّ بألاّ تكُنَّ، مُلزماتٍ بتقبُّل أيّ امتلاكٍ».

غير أنَّ بعض أديرة «سيّدات الفقر» القائمة آنذاك قد عزفت عن استخدام «امتياز الفقر»، ونسج على منوالها بعض الأديرة الجديدة التي تأسَّست بعد ذلك، بحيث غدت الجمعيَّة خاضعةً لنظامَيْن متضاربين. ولم يَرُقْ ذاك التضارب للبابا إنوشنتسيوس الرابع، فقرّر إزالته، وأصدر براءة في ٦ آب ١٢٤٧، تفرض على الكلاريسّات نظامًا يجيز لهنّ التمتّع بدخلٍ ثابتٍ مضمونٍ.

وخُيِّل للجميع أنَّ وريثة «الفقير الصغير» الروحيَّة قد هُزمت، ولا سيَّمَا أنَّ أيَّامها قد باتت معدودةً. إلاّ أنّها وقفت تلك الفسحة الخاطفة من العيش المتاحة لها، لوضع نظامٍ يُخالف البراءة البابويّة، ولمحاولة كسب تأييد الكرادلة العديدين الذين كانوا يتعاقبون على عيادتها. وقد عكست الفقرة الثامنة من ذلك النظام المُثُل الفرنسيسكانيّة الأصيلة، حسب روح فرنسيس، إذ نصّت أنّ «على الراهبات أَلاّ يمتلكنَ لا بيوتًا، ولا أراضي، ولا أيّ شيءٍ، بل يعشنَ كغريباتٍ وحاجّاتٍ، في هذه الدنيا، خادماتِ الله في تواضعٍ وفقرٍ، ومعتمداتٍ، في ثقةٍ، على الحسنات».

وجاء البابا إنوشنتسيوس الرابع، بدوره، يعود رئيسة دير القدّيس داميانُس المحتضرة، ولم يكن يُخفي إعجابه الشَّديد بها، ومحبَّته لها، وقد كشف عن ذلك، عندما طلبت منه أن يحلَّها من خطاياها، فقال: «ليتني كنت في مثل حاجتك الضئيلة إلى المغفرة». واغتنمت القدّيسة تلك السانحة لتقدِّم دفاعها الأخير الحارّ عن قضيَّة حياتها الجوهريّة، وأفلحت في انتزاع موافقة ممثّل المسيح على منحها، هي وبناتها، «امتياز الفقر الأسمى». وفي التاسع من آب ١٢٥٣، مهر الحبر الأعظم بتوقيعه النظام الجديد الذي كانت قد وضعته، فهرع أحد الإخوة من پيروجيا، مقرّ البابا آنذاك، حاملاً تلك الموافقة البابويّة

التي طالما ناضلت القدّيسة كيارا في سبيلها. وكانت تلك تعزيتها الأخيرة، إذ إنَّها فارقت الحياة في اليوم التالي.

وكانت، عشرين يومًا قبل وفاتها، قد انقطعت عن كلّ طعامٍ، إلاّ أنَّها ظلَّت محتفظةً بصفاء ذهنها، ومنعة نفسها، وكانت هي التي تعزّي أخواتها المحيقات بفراشها، وهنّ لا يتمالكنَ عن الانتحاب، فتشدّد من عزيمتهنّ، وتحثُّهنّ على الوفاء للروح الفرنسيسكانيّ، ولا سيَّما الفقر المقدّس. وقد قالت لأختها أنييس، رئيسة دير مونتيشلّي، التي لم تكن قد رأتها منذ ثلاثين عامًا، حتّى جاءت تودّعها الوداع الأخير، فجثت عند فراشها لا تبارحه، ولا تني تبلّله بعَبَراتها: «لا تنتحبي، يا أُخيَّتي الحبيبة، فلن أغيب عنك طويلاً، إذ إنَّك ستلحقين بي عمّا قريبٍ». وبالفعل، لقد لحقت بها أنييس بعد أشهرٍ ثلاثةٍ.

واستدعت القدّيسة المُدْنفة أصدقاء فرنسيس المخلصين من البورتسيونكولا: ليون، وأنجيلو، وبرناردو وجينيفير، وطلبت منهم أن يعيدوا على مسامعها رواية آلام يسوع؛ كما التمست من جينيفير أن يوافيها «بأخبار الله»، فطفق يتكلَّم بألفاظٍ من نارٍ عن الحبّ الإلهيّ، كانت تحاكي شرارات لهيبٍ تتناثر من قلبه المضطرم، وتملأ نفس المحتضرة عزاءً. ولمَّا حثَّها مُعرّفها على تحمّل آلامها في صبرٍ وثباتٍ أجابت: «أخي العزيز، منذ اعتلنت لي نعمة ربّنا يسوع المسيح بواسطة خادمه العظيم، القدّيس فرنسيس، لم يَبْدُ لي أيُّ ألمٍ، أو تقشُّفٍ، قاسيًا، وغدا كلُّ مرضٍ سهل الاحتمال!»

وفي أيَّامها الأخيرة، باتت أبصارها عالقةً بباب صومعتها، وكأنَّها تترقَّب قدومًا غاليًا. وفجأةً، وسط صمتٍ مُطْبقٍ، لم يكن يقطعه سوى عَبَرات الأخوات هتفتْ: «امضي بلا وجلٍ، وراء دليل دربكِ الممتاز! امضي بلا وجلٍ، فالذي خلقكِ قد كرَّسكِ، وسهر أبدًا عليكِ، وأحبَّكِ بحنانٍ، حبّ أمٍّ لابنها! يا إلهي أشكرك، وأُمجّد النعمة التي أسبغتها عليَّ بمنحي الحياة». ثمّ صمتت، وعيناها محدّقتان، وكأنَّها تنصت إلى جوابٍ، فسألتها إحدى الأخوات: «مع من تتحدَّثين؟» فأجابت: «أتكلَّم مع نفسي المسكينة». ثمّ استأنفت، بعد لحظةٍ: «وأنت، يا أختاه، ألا تشاهدين ملك المجد الذي يتاح لي الآن تأمّله؟».

لا ريب أنّ عينيها اللّتين انطفأ فيهما، آنذاك، نورُ الشمس، كانتا تشاهدان موكبًا متألِّقًا قدم لاصطحابها إلى الموطن السماويّ، تتقدّمه سيّدة الأكوان، أمّ الله العذراء،

القدّيسة كيارا

التي أَلْقَتْ عليها وشاحًا من نورٍ، ثمّ دليل دربها فرنسيس، وطغمات من الملائكة والعذارى متوهّجاتٍ بالنور السماويّ.

وكان ذلك في الحادي عشر من آب ١٢٥٣.

وقد احتفلَ بجنّازها، في اليوم التّالي، البابا إنوشنتسيوس الرابع، وكوكبةٌ من الكرادلة. وقد اقترح الحبر الأعظم أن يُقام لها، عوضًا عن قدّاس الأموات، قدّاسُ العذارى الذي يُحْتَفل، فيه، بتطويب القدّيسات، وكأنّه كان يبتغي تطويبها في الحال. ولكنّ أُسقف أوستيا التمس التريّث، وإرجاء تطويبها بعض الوقت، وقد تمّ، فعلاً، سنتين بعد وفاتها.

يوم تُوُفّيت كيارا، كان هنالك مئةٌ وثلاثون ديرًا للراهبات الكلاريسّات والفرنسيسكانيّات، منها ٧٦ ديرًا في إيطاليا وحدها، و٢٢ ديرًا في إسبانيا، و١٦ ديرًا في فرنسا، وأُخرى في بلادٍ مختلفةٍ. وما انفكّت تلك الأديرة تتكاثر عددًا وتتّسع، في شتّى بقاع الأرض، وتحتضن تَوْقَ طَغَمات العذارى اللاّئي لبَّيْنَ دعاء يسوع، وقرَّرْنَ السير على خطى كيارا وفرنسيس، في دروب الإنجيل.

ربيع الفرنسيسكانيّة

لقد تزامن تأسيس الفرع النسائيّ، بقيادة كيارا، مع ربيع الحركة الفرنسيسكانيّة التي بلغت، في تلك الفترة، أوج ازدهارها، بحيث شبّه بعض المؤرّخين تلك الحقبة، بالانفجار. فقد تلاقت عبقريّة فرنسيس مع تطلّعاتٍ شعبيّةٍ إلى مسيحيّةٍ أنقى وأقرب إلى الإنجيل. وبذَرَ فرنسيس، في تربة عصره، كلمة الله، فَنَمَتْ، وغدت شجرةً وارفة الظلال، تتهافت طيور العالم إلى أفيائها، كي تُنشد ملءَ حناجرها، وامتدّت فروعها إلى شتّى بقاع إيطاليا وأوروبّا، ثمَّ ما لبثت أن غمرت ظلالها أفريقيا وآسيا، فالعالَم بأسره.

لقد ولَّت حقبة الاضطهاد والسخريّة، وبات «الفقير الصغير» يسحر الألباب والأفئدة، كما غدا إخوته الوعّاظ الفقراء، المتسربلون بالثياب الغبراء الخشنة، والمتمنطقون بالحبال الغليظة، والمنادون بالسلام والمحبّة والتوبة، رمزًا للمسيحيّة الإنجيليّة الصافية، بُشَراء ربيعٍ روحيٍّ رائعٍ.

وكانت مُثُلهم النقيّة تطرد تخرُّصات البِدَع المتكاثرة الناشئة، كما يطرد الفجر سجوف الليل. فهم، على نقيض الآخرين، كانوا يتنكّبون عن النقد، وإثارة الأحقاد، وعن

كلّ تمحُّكٍ ومهاترةٍ، ويقتصرون على إبراز بساطة الإنجيل بكلّ صفائها وطلاوتها، مؤيّدين وعظهم بمُثُل عيشهم الصادقة، المذهلة.

لقد كانوا خاضعين، بتواضعٍ وحبٍّ، للكنيسة، فأحبَّهم الإكليروس ولم يقاومهم، ولا سيَّما أنَّهم، مع ممارستهم الفقر الطوعيّ المطلق، لم يخالط ممارستَهم هذه أيُّ رياءٍ أو تحدٍّ، ولم يتناولوا، قطّ، بالثلب رجال الدين الذين كان عددٌ كبيرٌ منهم يعيشون في البذخ والتَّرَف.

الهراطقة أنفسهم الذين لم يسعَ الإخوة، يومًا، إلى تحقيرهم، أو مناصبتهم العداء، كانوا يَدَعونهم وشأنهم؛ وحتّى اللصوص كانوا يلتمسون صداقتهم، إذ، وحدَهم، دون سواهم، وبإيعازٍ من فرنسيس وتوجيهه، كانوا يُعبِّرون لهم عن صداقتهم، ويؤكّدون لهم ثقتهم. أمَّا سوادُ القوم فكانوا يُجلّونهم، ويلتهمون، بنَهَمٍ، كلام الحقّ من شفاههم، وبعضهم يزهد في كلّ شيءٍ للانضمام إلى أخويَّتهم، فيتضاعف، باطّرادٍ، عددهم. ولم يكن الإخوة، في حُمَيّا اندفاعهم، ليحجموا عن القيام بحركاتٍ بهلوانيّة، كي يجتذبوا الناس إلى سماع بُشرى الخلاص، ويدعوهم إلى التوبة.

وشرع حلم فرنسيس يتحقّق، إذ أخذت تتعالى، يومًا فيومًا، جلبة وقع أَقدام الإخوة الذين راحوا يَذْرَعون طرقاتِ شتّى أقطار إيطاليا وأوروبّا والعالم، حيث يمضون، اثنَيْن اثنَيْن، يسيران الواحد في إثر الآخر، بحيث ينصرف كلٌّ منهم في أثناء سيره، للخشوع والتأمّل والصلاة. وهكذا، فعدد الأخوة الذي لم يتجاوز الاثني عشر عام **١٢٠٩**، عندما مثلوا إلى روما للحصول على موافقة البابا على نظامهم، تعدّى خمسة آلافٍ، بعد عشر سنواتٍ، عندما التأموا في مؤتمر العنصرة. واستمرّ عددهم يتضخّم مع الأيّام، وأديرتهم تتكاثر في شتّى أرجاء أوروبّا.

وأمّا فرنسيس نفسه، فكان الشَّعب يُحيقه بما يشه العبادة، إذ كان مثوله إلى أيّ مكانٍ يُقابَل باستقبال الأبطال والعظماء، وبالتظاهرات الحاشدة، وبأغصان الأشجار، والتراتيل والمزامير، وقرع النواقيس، وبهتافٍ مجلجلٍ ينطلق من ألوف الحناجر: «هو ذا القدّيس، هو ذا القدّيس!» كثيرون كانوا يقتطعون، خلسةً، خِرَقًا من ثوبه للتبرّك بها، حتّى يكادون أحيانًا يُعَرُّونه، ويُظهرونه في غلالاته الداخليّة. وكثيرًا ما كان يُحاول ردع مثل أولئك بقوله: «لا تتسرّعوا في تقديسي، فأنا ما زلتُ معرَّضًا للخطيئة، ولإنجاب بنين وبنات». ورُبَّما أوحت له ذلك التحذير تجربةٌ حادَّةٌ كان قد تعرَّض لها، قُبَيْل ذلك،

القدّيس فرنسيس أمام البابا هونوريوس الثالث

فيما كان يتعبّد، ليلاً، في صومعته – ومعلومٌ أنَّه يروق لإبليس شنّ هجماته على ضحاياه أثناء قيامهم بالصلاة – إذ راح الخبيث يجهد في إقناعه بأنَّ الله لا يقتضي من الإنسان تدمير ذاته، ومن ثمّ فخَيرٌ له أن يعيش كما يعيش سواد الناس، وأن يؤسّس أُسرةً سعيدةً، عوضًا عن التشبّث بتبتُّلٍ قاسٍ، لا طائل تحته. وفي الحال هبّ فرنسيس ناهضًا، فخلع ثوبه، وقال: «بما أنّ هذا الثوب ملكٌ للجمعيّة، ولا يسوغ أن يُمزَّق، فسأحترمه؛ ثُمّ خاطب جسده قائلاً: «أمّا أنت، أيّها الأخ الحمار، فستنال بعض السياط كي تُحسِن السلوك بعد اليوم»، وطفق يسوط جسده بحبالٍ غليظةٍ، ولكنّه، مع ذلك، لم يُفلت من براثن التجربة؛ فهرع إلى الخارج حيث كان ضوء القمر يسكب نوره الحليبيّ على الثلج الكثيف. ومضى يصنع من الثلج كُتَلاً ذات أشكالٍ بشريّةٍ، حتّى مثلت أمامه سبعٌ منها، وراح يتنقّل من إحداها إلى الأُخرى، وهو يُحدّث نفسه قائلاً: «انظُر جيّدًا، يا فرنسيس! ها قد اكتملت الأسرة التي زيَّن لك الشرّير تأسيسها: هذه البدينة هي زوجتك، وهؤلاء الأربعة الصغار هم الصبيان والبنات الذين أنجبْتهم لك. وهذان الضَّخمان هما خادمك وخادمتك، وهم، الآن، جميعهم يعتمدون عليك لإعالتهم. هيّا أسرع فزوّدهم بما يرتدون، فهم عراةٌ، ويكادون ينفقون قرًّا، في هذا البرد القارس... ما لك تتقاعس؟ أتجد أنّ عبئهم باهظٌ؟ إذن، فالتزم بخدمة الربّ، يا صديقي، ولا تَدعْ أيّة خاطرةٍ أُخرى تشغل بالك في هذا الوجود». في تلك الأثناء، كان إبليس قد فرّ حيال ثبات فرنسيس وصموده، فعاد القدّيس إلى صومعته هادئَ النفس، واستأنف صلاته.

على غرار المسيحيّين الأوائل، لم يكنْ أيُّ مكانٍ موطنًا ثابتًا لطلائع الفرنسيسكانيّين، وفي آنٍ معًا، كانوا يعتبرون أيّ مكانٍ موطنًا لهم. أينما حلّوا، كانوا يستَعْطون خبزهم، ويُقدّمون عمل سواعدهم مجّانًا حيثما لمسوا من الأهالي حاجةً له، ويأبون أيّ مالٍ يُؤَدّى أو يُقدّم لهم؛ ينامون كيفما اتَّفق لهم، وأينما تيسّرت لهم الإقامة، وكثيرًا ما يفترشون اليابسة، ويلتحفون بغطاء الليل ونجومه؛ ويغتسلون في السواقي، ويجتزئون بالنَّزر من الطعام، ويُسهبون في الصلاة. وسواء هم لقوا ترحيبًا أم لم يلقوا، فقد كانوا، أبدًا، يَعِظون بحرارةٍ حارقةٍ، ويُنشدون ملءَ حناجرهم، معبّرين، عاليًا، عن الفرح العميق المتفجّر من أغوار كيانهم.

من كلّ أُفُقٍ كانوا يأتون: شبّانٌ في مُقْتَبل العمر، وغالبًا من الأثرياء، يهجرون كلّ

شيءٍ: العالَم، ومُتَع الجسد، ومطامع المال والمركز، ورغد العيش، وقد سحرتهم مُثُل فرنسيس الرائعة الشفافيَّة، ويلتمسون الانضمام إلى الأخويّة الجديدة، حيثُ الجميع أندادٌ، متساوون، يعيشون عيشةً مُغْرِقة في الفقر، ولكنَّها دافقةٌ بفرحٍ غامرٍ.

وكان فرنسيس، بحسّه المُرهَف، يستقبل كلّ قادمٍ جديدٍ كما يليق به، نبيلاً كان أم ثريًّا، فلاّحًا أو عاملاً مُعدَمًا. ولكن بعد أن يلبسه الثوب الأغبر الخشن، والحبل الغليظ، كانت تسقط كلُّ الفوارق، وتتلاشى التناقضات، ويُصبح الجميع سواسيةً، من غير تفرقةٍ أو تمييز، خاضعين لنظامٍ واحدٍ، وأسلوبٍ في العيش واحدٍ.

أمّا معيار فرنسيس في قبول القادمين الجدُد، فكان على قَدْرٍ كبير من البساطة، إذ كان حَسْبُه أن يلمس فيهم سلامة الطويّة، وصفاء النيّة، والزُّهد في الدنيا، وحبّ الفقر.

ولا ريب أنّ نداءً صوفيًّا أخَّاذًا كان ينطلق من فرنسيس وإخوته، فيسارع إلى تلبيته جموع التائبين والأتباع، وكذلك زرافاتٌ من النساء اللاَّئي مسَّتهنَّ النعمة ففزعنَ إلى دير القدّيس داميانُس، ملتمساتٍ السلام الداخليّ الساجي، والفرح الحقّ، مضحّياتٍ، في سبيل ذلك، بكلّ شيء، وثمَّة، كانت شفافيَّة القدّيسة كيارا، وإشعاع القدّيس فرنسيس يُذكيان في نفوسهنّ محبّة الله، والالتزام بالفقر المقدّس.

وهكذا، من أماكن شتّى، وحيثُما وُجد أتباع فرنسيس، كانت تتصاعد إلى السماء، أناشيدُ الفرح. لقد كانت، حقًّا، فترةً رائعةً لم تتكرَّر قطُّ، فالفرنسيسكانيّة كانت ما انفكّت تلقائيّةً، صافيةً، مستمِدّةً زخمها من نبعها الثرّ الأصيل.

والأخويّة التي أسّسها فرنسيس كانت حديثةً، ثوريَّةً، بيد أنّ ثورتها كانت ثورة بناءٍ لا تهديمٍ، لا تتصدّى لأحد بتجريحٍ، بل تدعو إلى مُثُلها بمَثَلها، ونموذج عيشها، وقدوتها الرائعة التي غدت غذاءً طيّبًا لنفوسٍ عطشى إلى السموّ والقداسة. وكانت تُبرز ارتباط رجالٍ أحرارٍ، منضوين في نظام أفقيٍّ، إزاءَ الأنظمة الإقطاعيّة، الاستعباديّة، الهرميَّة؛ وتبرز الفقر الطوعيّ الفَرِح، إزاءَ امتلاك الأرض والمال الجشع؛ وتُبرز التجوال الدائم لزرع كلام الإنجيل، مقابلَ الرهبانيّات الثابتة، فالإخوة الأوائل كانوا على ارتحالٍ دائبٍ، مناضلين في سبيل السلام وخلاص العالم. وكان فرنسيس يُبقي جُذوة الحماس مضطرمةً في نفوسهم، بتأكيده لهم أنّهم باختيارهم الربّ، الكلّيّ العظمة والمجد، دون سواه، ثروةً وحيدةً لهم، قد باتوا شعبًا لله مختارًا.

أولئك الفرنسيسكانيّون الرُوَّاد قد جعلوا حتّى أغرب الأحلام تبدو وشيكة التحقيق،

ولا سيَّمَا أحلام تحرير الكون من سيطرة إبليس، ومن الأحقاد البشريّة، وكانت رؤيتهم لذلك العالم الجديد، المتغذّي بالإنجيل، تُفعم صدورهم بهجةً، وتنسيهم عريهم، بحيث كان الأثرياء والنبلاء منهم يتعايشون في التصاقٍ حميمٍ بالفقراء والفلاّحين، تحت سلطة فرنسيس التي تجمع الحزم إلى الطيب، وتُفرغ البساطة على كلّ شيءٍ. وكانت تَهُبّ على أولئك الإخوة الأوائل نَفَحاتٌ فريدةٌ من الأمل والحبّ والفرح والاتّحاد، تُوسّع نفوسهم بحجم العالم أجمع.

وقد جاء في نظام الأخويّة، تدليلاً على ذلك الربيع الروحيّ الرائع، والبطوليّ التحدّي: «فليتحاشَ الإخوة عن الظهور في سحنةٍ كئيبةٍ، مكفهّرةٍ، أو مرائيةٍ، بل فليُظهروا كم هم فرحون في الربّ، رقيقو المعشر، وضحوكون كما يليق بهم».

وكان فرنسيس روحَ تلك الجماعة ومحرّكها؛ كان يعيش كما يعظ، وكذلك كان يفعل إخوته، وكانت تنبعث من وعظهم وسلوكهم قوّةُ جذب هائلةٌ، تُسهم مواهبُ فرنسيس الطبيعيَّة، وسحرُه الأخّاذ في النُّهوض بها إلى أسمى قدراتها. فقد كان يمتلك طاقةً فذّةً على اقتناص اهتمام الجماهير والتأثير فيها، وكان يُخاطب حساسية الجميع، قارنًا روحانيَّته المُرْهَفة، الرفيعة، بمواهب بهلوانٍ لله. كان يتكلَّم في حرارةٍ لاهبةٍ، وكأنّه مستسلمٌ لقيادة الروح؛ ولا عَجَب بالتالي، إن ساورت أعدادًا متكاثرةً بآطّرادٍ الرغبةُ في انتهاج درب الفرنسيسكانيّة، شبابًا وشابّاتٍ، كُهولاً وشيوخًا، متزوّجين ومتزوّجاتٍ، اعتمل فيهم الصُبُوُّ إلى التوبة واتّباع نهج الفقر؛ وقد لقَّنهم فرنسيس وإخوتُه كيف يُحقّقون تلك الرغبة، وهم في منازلهم، فكانوا للإخوة خير عَوْن، أثناء جولاتهم التبشيريّة، وباتوا يُشكّلون الفرع العلمانيّ للفرنسيسكانيّة، الذي ما انفكّ يتعاظم شأنًا حتّى أيَّامنا هذه، والذي يُدعى «الرهبانيّة الثالثة».

لقد كانت الفرنسيسكانيّة، حقًّا، نسمةً منعشةً، في جوٍّ مشحونٍ بانحلال الإكليروس وتنكُّره للإنجيل، وخيرُ دليلٍ على ذلك رسالةٌ كتبها آنذاك، أسقفٌ فرنسيٌّ يُدعى «جاك دي ڤيتري»، اتَّفق له أن مرَّ ببيروجيا، التي كانت، حينئذٍ، مقرًّا للكرسيّ البابويّ، وشهد أجواء الدسائس السائدة فيه، وقد كتب إلى أصدقاء له قائلاً:

«أثناء إقامتي في القصر البابويّ، شهدتُ أُمورًا أصابتني بحزنٍ عميق: فقد كان الجميع مهتمّين بقضايا دنيويّةٍ، وبالسياسة، والحقوق الزمنيّة، بحيثُ لم أكد أستطيع أن أسمع أو ألفظ كلمةً واحدةً تتعلّق بمواضيع روحيَّةٍ...

«بيد أنَّ، ثمَّة، ما وفّر لي العزاء، في تلك البقعة. فهناكَ عددٌ كبيرٌ من رجالٍ ونساءٍ، وبينهم كثيرٌ من الأغنياء، والأعيان قد هجروا كلّ شيءٍ، حبًّا بالمسيح، وزهدوا في العالم؛ ويُطلق عليهم اسم «الإخوة الأصاغر» و«الأخوات الصغيرات». ولا بدّ من الإقرار بأنّ الحبر الأعظم والكرادلة يُحيطونهم باحترامٍ شديدٍ. غير أنَّهم لا يُولون الشؤون الزمنيَّة أيّ اهتمامٍ، بل هم دائبون، باستمرارٍ، على إنقاذ النفوس من بطلان العالم، والحؤول دون هلاكها. وقد مكَّنتهم نعمة اللّٰه، حتّى الآن، من جمع حصادٍ وفيرٍ، فالذين يسمعونهم يُعلمون أصدقاءهم، ويحرّضونهم على الاستماع إليهم، وهكذا يجتذب كلُّ جمهورٍ جمهورًا آخر.

«إنَّهم يعيشون وفق نموذج الجماعة المسيحيّة الأُولى، التي كُتِب عنها: «كانت كلُّ جماعة المؤمنين تُؤلّف قلبًا واحدًا وروحًا واحدةً». في النهار ينطلقون إلى المدُن والقرى ليحملوا إلى النفوس بُشرى الخلاص، ويعودون ليلاً إلى خلواتهم حيث يُكبّون على الصلاة والتأمّل. تقيم الراهبات معًا، في عدّة أديرةٍ، منتشرةٍ في ضواحي المدن، ويرفضنَ أيّة هبةٍ، ويوفّرن معيشتهنّ من عمل أيديهنّ، فحَسْب. أمّا رجال تلك الرهبانيّة الجديدة، فهم يلتئمون مرَّةً في السنة، بنجاحٍ كبيرٍ، في مكانٍ معيَّنٍ، فيقتسمون الطعام معًا، ويبتهجون بالربّ. وهناك، بمشاركة أُولي العلم والخير، يناقشون نظامهم، ويُصدرون قوانينهم، التي يؤيّدها البابا بموافقته...

«يبدو لي أنَّ الربَّ قد قرّر استخدام هؤلاء الرهبان البسطاء والفقراء، كي يُخلّص، بواسطتهم، أكبر عددٍ من النفوس، وكي يفضح، بقدوة سلوكهم، تقاعس أساقفتنا الذين باتوا، مثل كلابٍ خُرْسٍ، يأبون النباح، عندما يتعيَّن عليهم ذلك».

أمَّا عن علاقة فرنسيس الطيّبة بالسلطة الكنسيّة، التي أشار إليها الأُسقف الفرنسيّ، فثمَّة أحداثٌ عديدةٌ تنهض مِصداقًا عليها. ومن المحقّق أنَّه، في تلك الفترة، على نحوٍ خاصٍّ، وبعد أن انتقل مقرّ كرسيّ بطرس، مؤقَّتًا، إلى پيروجيا، غدا تبادل الزيارات الودّيّة بين ذلك الكرسيّ والفرنسيسكانيّين مُطَّردًا. وكان القادمون من پيروجيا إلى اليورتسيونكولا يتنسَّمون فيها روحًا منعشًا، ويقتبسون نورًا هاديًا من الإنجيل الذي غَفِلوا – في سلوكهم – عنه، على حدّ ما جرى للكردينال هوغولينو الذي كان أوّل المتبنّين للأخويّة الفرنسيسكانيّة، وما لبث أن غدا من أشدّ المدافعين عنها، والداعمين لها؛ وقد أمَّ يومًا، في حاشيةٍ حاشدةٍ، اليورتسيونكولا حيث كان الإخوة ملتئمين؛ ولمّا شهد مدى

الفقر الذي كان يصبغ جميع نواحي حياتهم من طعامٍ زريٍّ، زهيدٍ، يتناولونه على الأرض العارية، ومن افتراشهم اليابسة، أو بعض القشّ، لم يتمالك من ذرف دموع التأثّر، هاتفًا: «أيّ مصيرٍ سيكتبه لنا الربّ، في الآخرة، ونحن نزجي أيّامنا في البذخ والتنعّم!».

الراهب الفقير والبابا المحتضر

ويُروى، أيضًا، أنّ خريف عام ١٢١٦ قد شهد هبوب رياحٍ حارّةٍ خانقةٍ مشحونةٍ بالأوبئة، وسط عاصفةٍ مجنونةٍ كانت تهدر فيها الرعود، وتشقّ بروقها السماء، وتكاد رياحها تقتلع الأشجار وسقوف البيوت، وتذرو في كلّ مكانٍ، عُمُدًا من الرمال، من غير أن تهمي قطرةُ غيثٍ واحدةٌ. وفي إحدى تلك الليالي، استغرق فرنسيس في الدُّعاء – في مُصلّى سيّدة الملائكة – وقد تصبَّب عرقًا، وهو لا يني يردّد: «غفرانك، اللّهمّ، غفرانك»، ملتمسًا الصفح عنه وعن الخطأة أجمعين، وراجيًا الربَّ أن يُبعد عن الأرض غضبَه. وفجأةً أشعَّ من صورة يسوع وأمّه نورٌ ساطعٌ، وهمس صوتُ الربّ في أذنه، وفي أعماق كيانه: «أيّ عونٍ ترغب في أن أُوفّره للخطأة المساكين؟» وتوثّب قلب فرنسيس جَذَلاً، واستغلق عليه الجواب لحظات، إلاّ أنَّه وجد نفسه يقول، وكأنَّه في غفلةٍ عن ذاته، وقد رفع ذراعَيه صوب يسوع وأُمّه متوسّلاً: «ربّي وإلهي، الغفران لكلّ من يؤمّ هذه الكنيسة تائبًا، معترفًا، الغفران!» ومرَّةً أُخرى سمع همسًا يقول: «حسنٌ، ولكن عليك أن تكلّم في ذلك، الحبر الأعظم».

وفي الحال، خرج من الكنيسة، وقد استطاره الفرح حتّى كاد يرقص، وأخذ يهتف بأعلى صوته: «إخوتي، إخوتي!» وعندما تحلّق الإخوة من حوله، راح يسرد لهم الرؤيا التي عرضت له، ويُقبّلهم واحدًا واحدًا؛ ثمّ أمسك بذراع الأخ ماسّيو قائلاً: «هيّا بنا إلى الحبر الأعظم، فها هو في بيروجيا على مقربةٍ منّا».

كانت الجماهير متراصَّةً أمام القصر البابويّ، بحيث يعسر العبور إليه، فقد شاع نبأ احتضار الحبر الأعظم بعد أن ألمَّت به حمًّى خبيثةٌ مُعديةٌ. ولكنّ فرنسيس كان مُصِرًّا على المثول بين يديه، أيَّةً كانت الظروف والعواقب، فجهد، هو والأخ ماسّيو، في شقّ طريقٍ إلى الداخل، وما إن تعرَّفه بعضُهم حتّى تعالت صيحاتٌ: «هوذا فرنسيس، هوذا القدّيس الشحّاذ». وتلقائيًّا أفسحت لهما الجماهير سبيل المرور.

في دهاليز القصر وردهاته، كانت قد انتشرت، هنا وهناك، جماعاتٌ من الكرادلة والأساقفة يتهامسون، في حين لم يكن برفقة الحبر المحتضِر سوى حفنةٍ من الأطبّاء يتشاورون في ما يستطيعون توفيره من علاجٍ. ومضى فرنسيس ورفيقه مباشرةً إلى غرفة البابا، إلاّ أنّ أحد الأساقفة حاول ردعهما عن ولوجها، مُبيِّنًا لهما خطورة العدوى التي قد يتعرّضان لها. ولكنّ فرنسيس ردّ قائلاً: «إن كان أطبّاء الجسد لا يخشون العدوى، فعلامَ نخشاها نحن، وبوسعنا تقديم صلواتنا علاجًا أجدى؟».

كان الحبر المريض راقدًا، ترطّب جبينَه الملتهب أقمشةٌ مُبلّلةٌ، وقد شدَّ، بعنفٍ، على صدره صليبًا، بيديه كلتيهما. وجثا فرنسيس أمامه، فصلّى، ثمّ دنا فلثم يده. وحرَّك الحبر الأعظم جفنَيه في حركاتٍ سريعةٍ متتاليةٍ، فطالعه منظر راهبٍ ضئيل الجسم يعلوه الغبار، منظرٌ لم يألَفْه، إذ اعتادت عيناه مشاهدة أساقفة مزدهين بالأرجوان، ولكنَّه ما لبث أن تعرّف فرنسيس، فشاعت على محيّاه بسمةُ عزاءٍ، وانحدرت من عينيه دمعتان حارقتان، فقد كان ذلك الراهب الفقير، بأسماله التي تعلوها الأتربة وتفوح منها روائح القشّ ورطوبة المغاور، هو الوحيد الذي يصلّي له ومعه، فمدّ له يدًا ألهبتها الحمّى، وتسارعت نبضاتها، عنيفةً كضربات المطارق، وراحا يُصلّيان معًا في صمتٍ مطبقٍ، خاشعٍ، رهيبٍ. وفجأةً ارتعش فرنسيس، فقد غدت اليد التي اشتبكت بيده باردةً كالصقيع: لقد ارتحل البابا إنوشينتسيوس الثالث إلى العالَم الآخر، ويدُه بيد الراهب الفقير، وقد ارتسمت على محيّاه، بفضل صلاة فرنسيس ومؤاساته، ابتسامةٌ ملائكيَّةٌ.

وفي مساء ذلك اليوم عينه، نُقل جثمان البابا المتوفّى إلى الكاتدرائيّة، ولكن لم يجسر أحدٌ من الأساقفة أو الكرادلة على السهر عليه، خشية الإصابة بالعدوى. واستغلّ اللصوص ذلك الجُبْن، فجرَّدوه، ليلاً، من ثيابه الفاخرة، وخاتمه، وصليبه، وتركوه شبه عارٍ. ولمّا طالع فرنسيس ذلك المنظر، في الصباح، لم يتوانَ عن خلع معطفه، كي يجعل منه للمتوفّى العظيم غطاءً.

وسُرعان ما دُفن البابا، في معطف فرنسيس، في زيّ «الإخوة الأصاغر»، وتعالى من صدر فرنسيس هذا الدعاء:

«اللّهمّ، اشمل برحمتك آخر المنضمّين إلى أخويّتنا، هذا الراقد!».

غفران الپورتسيونكولا

في اليوم التالي، انتُخب على كرسيّ بطرس البابا هونوريوس الثالث، الذي كان يمتاز ببساطته، وعدله، ومسالمته، والذي كان قد وزّع كلّ ثروته على الفقراء، فهتف فرنسيس: «حمدًا لله، فهو، أيضًا، يحمل في صدره روح أخٍ أصغر».

وهرع إلى مقابلته، ملتمسًا منه تحقيق وعد يسوع وأمّه بمنح كلّ من يزور كنيسة العذراء، سيّدة الملائكة، الغفران الكامل، إن هو اعترف، وتاب، وقصد أن يعيش وفقًا للإنجيل. ومع أنّ مثل تلك الغفرانات كانت تكافئ الذين ينهضون بمهامّ جسيمةٍ في خدمة الكنيسة، ولم تمنح، قطّ، لزائر كنيسة معيَّنةٍ، غير أنّ البابا الجديد كان واثقًا من أنّ فرنسيس إنّما كان يتكلّم بإيعاز من الربّ، فلم يتردّد في تلبية طلبه، ممّا أثار استنكار الحاشية البابويّة التي احتجَّت بأنَّ مثل ذلك الغفران السهل قد يصرف المؤمنين عن المهامّ الخطيرة في خدمة الكنيسة؛ واضطرّ الحبر الأعظم، أخيرًا، إلى قصر الغفران الممنوح لزائري كنيسة سيّدة الملائكة، على يومٍ واحدٍ في السنة، هو الثاني من شهر آبٍ.

ولئن كان الكثيرون قد أساؤوا استخدام الغفرانات واستغلّوها، بيد أنّ فرنسيس لم يتوخَّ من منحه الغفران سوى خلاص أكبر عددٍ من النفوس، وجرّها إلى توبةٍ صادقةٍ. ويُقال إنّه ردّ على الحبر الأعظم عندما سأله هل يبتغي براءةً رسميّةً مكتوبةً وممهورةً بخاتمه، أن لا حاجة له إلى مثلها، مؤكِّدًا: «حسبي كلامكم، فالسيّدة العذراء هي العَقْد، والمسيح هو الكاتب بالعدل، والملائكة هم الشهود». ثمّ مضى وهو يرقص جَذَلاً.

فرنسيس والأساقفة

ومع أنّ الحبر الأعظم كان قد أَذِن لفرنسيس وإخوته بالوعظ في كلّ مكانٍ، إلاّ أنّ الفرنسيسكانيّين كانوا حريصين على الظفر بموافقة الإكليروس المحلّيّ، قبل مباشرة الوعظ في أيّة أبرشيّةٍ. وكان فرنسيس يضرب، في احترام السلطات الكنسيّة المحلّيّة، أروع مَثَلٍ، على حدّ ما جرى له مع أسقف مدينة إيمولا الذي جاءه، يومًا، ملتمسًا إذنه بالوعظ في أبرشيَّته، فما كان من الأسقف، إلاّ أن أجابه بجفوةٍ: «يا أخي، إنّني ههنا كي أضطلع بهذه المهمّة، ولذلك لستُ بحاجةٍ إلى من يلقّنني دروسًا». فانحنى فرنسيس باحترامٍ ومضى، إلاّ أنّه عاد، بعد ساعةٍ، فبادره الأسقف بالقول، في تشنُّجٍ واضحٍ: «ماذا جئت تطلب أيضًا؟» فأجابه فرنسيس، في رقَّةٍ متناهيةٍ، واحترامٍ بالغٍ: «يا صاحب السيادة،

عندما يطرد أبٌ ابنَه من الباب، فلا حيلة للابن سوى العودة من النافذة. ولذلك، أنا أيضًا، ابنك المحبّ، لم أتردّد في العود لرؤيتك». وكان تأثُّر الأسقف بتواضع فرنسيس وصدقه من الشدّة، بحيث نهض فقبّله، وأذن له ولإخوته بالوعظ في أبرشيَّته، ما شاؤوا.

فرنسيسكانيّون جددٌ

وقد تميَّزت تلك الحقبة من حياة فرنسيس بنشاطٍ رسوليٍّ دافقٍ؛ فقد كان لا يني يجوب مدن إيطاليا وقراها، مُبشِّرًا، نافخًا روحًا إنجيليًّا متجدّدًا، مستقبلاً تحت لواء أخويّته العديد من الإخوة الجدُد، مقيمًا، في كلّ مكانٍ، المناسك التي انتشرت كغرساتٍ عَطِرةٍ في حواشي المدن، وعلى سفوح الجبال المجاورة، والتي كان يسارع إلى احتلالها أعدادٌ متجدّدة باستمرارٍ من الذين هجروا كلّ شيءٍ، واعتنقوا الفقر على منوال فرنسيس، كي يقفوا حياتهم على العبادة والدعوة إلى التوبة، والسلام والمحبّة. وقد تجلّت تلك المناسك رمزًا للتجدّد الروحيّ الناصع؛ وعَلِق الأهالي بحبّ أؤلئك الرهبان بعد أن تبيَّنوا تجرُّدهم الطوعيّ المطلق، كما يحبّ الناس الأطفال بسبب وهنهم وبراءتهم، واستمدّوا أمثل قدوةٍ من سلوكهم الذي أبرز الدينَ مُنزَّهًا من كلّ مطمعٍ وجشعٍ، وأغدقوا عليهم الخبز والصداقة.

وفي تلك الحقبة انضمّ إلى الأخويّة الفرنسيسكانيّة عددٌ من الإخوة الذين كان لهم فيها، من بعدُ، دورٌ بارزٌ. فأثناء مرور فرنسيس بمدينة پيزا، قَبلَ انضمام الأخوين ألبيرتو وأنييلو. وفي فلورنسا بارك انضمام جيوڤاني بارنيتي الذي غدا، في ما بعد، رئيسًا عامًّا على الأخويّة بين عامي ١٢٢٧ و١٢٣٢. ومن الطريف ذكره أنَّ هذا الأخير كان خرّيج كليّة حقوق بولونيا، ثمّ تبوّأ مركز قاضٍ في إحدى المدن الإيطاليّة. وإذ كان عائدًا، ذات مساءٍ، إلى منزله، رأى قطيع خنازير عائدةٍ من المرعى، وهي تتدافع بعنفٍ متسابقةً على الولوج إلى الزريبة، ممّا كان يجعل دخولها عسيرًا وبطيئًا، فمازح راعي الخنازير قائلاً:

– إن بهائمك لشرسةٌ!

فأجابه الراعي:

– أجل، مع أنَّ باب الزريبة واسعٌ جدًّا، وبوسع الخنازير الدخول بيسر، وفي فترةٍ أقصر بكثيرٍ؛ لكنَّها، مثل القضاة، الذين يتدافعون على باب جهنّم، وكأنَّهم يخشون ألاّ تبقى فيها أماكن تتّسع لجميعهم.

وكان ذلك الجواب بمثابة وَمْضة برقٍ أضاءت، بغتةً، ودفعةً واحدةً، كلّ مصير جيوڤاني، الذي عزم، في الحال، على هجر مركزه، وسلوك دروب الربّ.

وفي تلك الفترة، أيضًا، استقبل فرنسيس، في أخويّته، الأخ غي الذي أصبح، من بعد، قدّيسًا. وكان غي نبيلاً؛ وقد طرق بابه، ذات مساءٍ، الأخ فرنسيس وأحد رفاقه، فقَبلهما بمحبّةٍ، وغسل أرجلهما، وكأنّه يستقبل ملائكةً، وأقام لهما مأدبةً سخيّةً، وقام على خدمتهما بنفسه. ثمّ خاطب فرنسيس قائلاً: «يا أبتِ، إنّني أرغب في توفير احتياجاتكم من الآن فصاعدًا. فالربّ قد غمرني بخيرات الثروة، وعليَّ أن أُعبّر له عن شكري، باقتسامها مع الفقراء. وعليه، فعندما تحتاجون، بعد اليوم، إلى جلابيب ومعاطف، لا تهتمّوا باقتنائها، إذ يطيب لي أن أقدّمها لكم».

وعندما خلا فرنسيس برفيقه أَسرّ له: «في الحقيقة قلّما رأيت إنسانًا في مثل تهذيب مضيفنا، ولا شيء يسعدني أكثر من انضمامه إلى أخويّتنا. إنّه معترفٌ بجميل الربّ عليه، كريمٌ على الفقراء، وذو أدبٍ جمٍّ حيالَ القريب. واعلم، يا أخي، أنّ الأدب هو من أجمل صفات الله الذي يُطلع شمسه، ويبعث غيثه على الخطأة والصدّيقين، سواءٌ بسواءٍ. إنّ الأدب، هو حقًّا، صِنْوٌ للمحبّة، إذ إنّه يُطفئ البغضَ، ويُقيم المودّة بين الناس. ولذلك علينا أن نعود فنمرّ، يومًا، بهذا المكان، عسى أن يكون الربّ قد ألهم هذا النبيل رغبة الانضمام إلينا، لخدمته».

وبالفعل انضمّ غي إلى الأخويّة الفرنسيسكانيّة، وقضى ما تبقّى من عمره، معتزلاً في مغارة في أسفل وادٍ، على ضفّة ساقيةٍ؛ ولم يكن يبارح تلك الخلوة، إلاّ ليمضي، بين فينةٍ وأُخرى، داعيًا أهالي الأماكن المجاورة إلى التوبة.

أمّا في روما، فكان فرنسيس، حسب مألوف عادته، يُبشّر في كلّ شارعٍ ومفترق طرقٍ، ويجعل كلّ كنيسةٍ يعظ فيها تكتظّ بالمستمعين. وفي أثناء جولاته التبشيريّة تلك، انضمّ إليه الأخ زكريّا، الذي ما لبث أن أصبح من روّاد المرسَلين الفرنسيسكانيّين في إسبانيا؛ وكذلك الأخ غليوم، أوّل فرنسيسكانيٍّ إنكليزيٍّ؛ كما عقد صداقةً، من نمطٍ فريدٍ، مع نبيلةٍ من روما تدعى جياكوما دي سيتيزولي أرملة غراسيان فرانجيپاني، التي كان يطيب لفرنسيس أن يدعوها «الأخ جاكلين»، لما تميّزت به من شدّة المراس، ورجولة العزيمة.

ومن الذين انضمّوا، في تلك الحقبة، إلى الأخويّة الفرنسيسكانيّة، توماس دي شيلانو الذي أصبح أوّل كاتبٍ لسيرة القدّيس فرنسيس، والأخ إيليّا الذي لعب في

الأخويّة دورًا رئيسًا أدّى إلى شقّها شقّين، من جرّاء سعيه إلى جعلها مؤسَّسةً رسميَّةً ذات شهرةٍ واسعةٍ ونفوذٍ بالغ، وذات أملاكٍ، ومقتنياتٍ، وأديرةٍ مبنيّةٍ، ونظامٍ أقلّ تشدُّدًا في ما يتعلّق بالفقر، وأكثر شدّةً من حيث التنظيم والانضباط، ممّا أدى إلى إقصاء فرنسيس المؤسّس عن أخويّته، بعض الحين، بعد أن مُني بأقسى خيبة أملٍ في حياته.

ولقد حَرَمت الكنيسةُ الأخ إيليّا، في ما بعد، واستنكرت سلوكه، ولكن من المؤكَّد أنَّه ترك أثرًا سلبيًّا على بعض فئات الفرنسيسكانيّين، الذين حادوا عن جادّة فرنسيس، وتخلّوا عن الكثير من صفاء رسالته.

ولكن قبل حلول تلك النَّكسة، كان الربيع الفرنسيسكانيّ ما انفكّ متفجّرًا، دافقًا بالعطاء. كان فرنسيس قد بلغ ذُرى الحكمة والقداسة، ومن ذلك المعين الثرّ كان يفيض دفقًا من المصالحة الصادقة الشاملة، ومن الفرح والتسامح، والسلام والمحبّة. وبفضل صبره وتبصُّره، أَشاع أُسلوبه الرهبانيّ الجديد، وجعله مقبولاً، ولم يكفَّ، يومًا، عن إشراع أبوابٍ وآفاقٍ جديدةٍ، واكتشاف ينابيع خفيّةٍ، وإضافة المزيد من المداميك إلى بناء مستقبلٍ قشيبٍ؛ وهو، أبدًا، في كلّ ذلك، مُبدعٌ، فَرِحٌ، مُخلصٌ، حارٌّ، جذّابٌ، لا يقاوَم. ولا عَجَب إن تداعى إلى اقتفاء أثره، والانضواء تحت لوائه، أُلوفٌ من الرجال والنساء، سُرعان ما راحوا يجوبون، بحُرّيّةٍ وحميّةٍ، دروب إيطاليا وفرنسا، وإنكلترا، وألمانيا، وإسبانيا، وشتّى بقاع حوض المتوسّط، مفعمين قناعةً، مبشّرين بالتوبة، محطّمين التقاليد البالية، مُبشّرين بإنجيلٍ صافٍ منزَّهٍ من كلّ ما علق بممارسته من تشويه. لقد كانوا، في تلك الحقبة، عنصرًا متميّزًا، شابًّا، ولا عجب إن نُبذوا أحيانًا، أو طُردوا في عنفٍ ومهانةٍ، شأن رُوّاد كلّ حركةٍ مجدِّدةٍ؛ ومع ذلك كان مدُّهم لايني يهدر، ويتقدّم، وينتشر.

وقد أشاع ذلك المدّ الزاخر الحماس في صدر فرنسيس، وأيقظ فيه أحلام الفروسيّة التي راودت خواطر شبابه، فخطر له أن يركب موج ذلك المدّ، وينطلق به إلى شتّى بقاع الأرض، كي ينشر فيها رسالة يسوع.

أحلامٌ فروسيّةٌ في سبيل المسيح

كانت الحملات الصليبيّة، آنذاك، في أوجها، ولكنّها كانت قد غَفِلت عن أهدافها الأساسيّة، وزاغت عن غاياتها، وانصرفت إلى المكاسب الخاصّة والمكائد السياسيّة

الدنيئة. واضطرمت في نفس فرنسيس الرغبة في المثول إلى المشرق، واستخدام وسائل الحبّ، حيث أخفقت وسائل العنف، وأسلحة القتل. لقدكانت تتأجّج في حناياه الرغبة في بذل دمه شهادةً ليسوعٍ، وفي آنٍ معًا، تحدوه الثقة بأن لا مستحيل لدى الربّ؛ ومن ثَمَّ، فقد استقلّ باخرةً ميمّمةً شطر سوريّة، في نهاية عام ١٢١٢ بصحبة واحدٍ من الإخوة؛ ولكنَّ عاصفةً هوجاء قذفت بالسفينة إلى الشواطئ الدلماتيّة الصربيّة. وإذ كان متعذّرًا، آنذاك، استئناف الإبحار إلى المشرق، قرّر العودة إلى إيطاليا، ولكنَّه مُنِعَ ورفيقه من استقلال السفينة التي كانت متّجهة إلى أنكونا، لافتقارهما إلى أجرة الرحلة. بيد أنّ أحد الملاّحين رقّ لحالهما، فأدخلهما السفينة، خِلسةً، وأخفاهما. وقد طالت الرحلة من جرَّاء الأنواء، والرياح المضادّة، ونفدت مؤونة السفينة من الطعام، وحينئذٍ اكتُشِف أمر المسافرَيْن السرَّيَّيْن، فهدّد القبطان بتسليمهما إلى سلطات أوّل مرفإٍ يبلغه. غير أنّهما بادرا إلى التبرّع للرّكّاب بالزاد الذي كان قد أُعِدّ لرحلتهما إلى الأراضي المقدّسة، فصُفِح عنهما؛ ثُمّ إنّهما بفضل مودّتهما، ورقّتهما، وخدمتهما الصادقة للجميع اكتسبا محبّة الركّاب وعطفَهم.

الشاعر الراهب

وما كاد فرنسيس يطأ أرض مرفأ أنكونا حتّى انطلق يُبشّر من جديدٍ، واتَّفق أن حلّ في ديرٍ للراهبات في مدينة سان سيڤيرينو الصغيرة، حيث كان الشاعر الذائع الصيت ديڤيني يزور إحدى قريباته، الراهبة في ذلك الدير. وديڤيني كان قد كُلّل بالغار في كابيتول روما، ونودي به ملكًا للشّعر. وقد تسنّى له سماع فرنسيس واعظًا، فلم يأبه به، باديَ الأمر، ولا سيّما أنّ منظره الزريّ كان عاجزًا عن جذب الانتباه. ولكنّ وعظ فرنسيس، في بساطته، وبُعْده عن السفسطة والنظريّات اللاهوتيّة المعقَّدة، وفي عنف تعرُّضه للخطيئة، وتهويله بعقابها الأبديّ، وبإبرازه بطلان العالم وزيفه، وبحرارة دعوته إلى التوبة، كان، على غرار وعظ المعمدان، يقطر رهبةً، وأَثَرًا بالغًا يخضّ النفس، ويهزّ الكيان، ويحرّك الذهن.

وما لبث الشاعر ديڤيني أن وجد ذاته مأخوذًا بكلام ذاك الراهب الهزيل، الذي تغلغل إلى غياهب ذهنه وفؤاده، حتّى خُيّل إليه أنّ فرنسيس إنّما كان يخاطبه شخصيًّا دون سواه، وأنّ كلَّ كلمةٍ من كلماته كانت تخترق صدره مثل سهمٍ حادٍّ، من يد صيّادٍ ماهرٍ. وفجأةً استنارت نفسه، واتَّضحت له أسباب الحيرة وعدم الرضى التي كانت

تراوده منذ سنواتٍ، رغم الأمجاد التي كانت تغمره، والصَّخب والمجون اللَّذَيْن كانا يملآن أيّامه ولياليه؛ فهبّ، وامتطى جواده، ولحق، مسرعًا، بفرنسيس، الذي كان قد استأنف تجواله، فلمّا صار إليه، ترجّل، وجثا عند قدميه، هاتفًا: «السلام، هبني السلام!» وبعد أن وهب أحدَ الفلاّحين فرسه، وأودع قيثارته أمام تمثالٍ للسيّدة العذراء، في كنيسة إحدى القرى، تقبَّل من يد فرنسيس، وفي غمرةٍ من الفرح، الثوب الرهبانيّ الأغبر، والحبلَ الغليظ على حقوَيه، والاسم الجديد الذي أطلقه عليه فرنسيس، اسم باشيفيكو، دلالةً على السلام الذي كان يتوق إليه. ولا مراء أنّ ذلك الأخ الجديد كان أثيرًا على قلب فرنسيس، إذ كان يجمعهما وَلَعٌ واحدٌ بالشعر والإنشاد.

بعد نحو مئة عامٍ، شاعرٌ آخر طبَّقت شهرتُه الآفاق، وذاعت في كلّ أصقاع المسكونة، جاء، هو أيضًا، يلتمس، في النهج الفرنسيسكانيّ، الطمأنينة والرجاء، في شخص دانتي، الشائب المحدودب، الذي قرع، في غروب أيّامه، باب ديرٍ فرنسيسكانيٍّ، فلمّا فتَح له الأخ البوّاب الباب، وسأله ماذا ينشُد، أجاب: «السلام، السلام!».

الأخ جاكلين

كان كثيرون من أهالي روما يلتمسون زيارة فرنسيس لمنازلهم، تبرُّكًا به؛ ولكنَّه كان يأبى تلبية أيّةٍ من تلك الدعوات، مؤثِرًا الانزواء في إحدى زوايا ديرٍ، واطِّعام نفايات الأغذية التي يُجاد بها عليه. غير أنّ صديقه الكردينال هوغولينو قد حثّه على قبول دعوة السيّدة جياكوما فرنجيپاني، فهي تتمتّع بروحٍ فرنسيسكانيّةٍ حقّةٍ، وبأريحيَّةٍ سمحاء، مخلّدةً بها تقليد آل فرنجيپاني، ومعنى هذا الاسم «كاسرو الخبز»، وقد عَلِق بهم مكافأةً لهم على إنقاذهم أهالي روما من المجاعة برفدهم إيّاهم بكمّيّاتٍ كبيرةٍ من الخبز والأطعمة.

وقد ترمَّلت السيّدة جياكوما، وهي ما تزال دون الخامسة والعشرين، وجال بخاطرها أن تعتنق الحياة الرهبانيّة؛ غير أنّ وصايتها على ولديها القاصرين قد حالت دون تحقيق هذه الرغبة. ولكنّها غدت رائدة الفرع الفرنسيسكانيّ العلمانيّ. الذي دُعي «الرهبانيّة الثالثة (TIERS - ORDRE)» ولا سيّمَا في أعقاب لقائها بفرنسيس.

يوم زارها فرنسيس للمرَّة الأُولى، لم تستقبلْه في ردهات القصر الفخم الذي كانت قد ورثته من آل زوجها، بل في الغرفة القَشِفة، بل الصومعة، حيث كانت تقضي

حياتها؛ غرفةٍ من حجرٍ غير مصقولٍ، مطليّةٍ بالكلس، كلّ أثاثها منضدةٌ من الخشب الطبيعيّ، ومقعدان خشبيّان، وفرشةٌ من قشٍّ ممدودةٌ فوق لوحٍ خشبيٍّ؛ أمّا جدرانها العارية فلم يكن يزيّنها سوى صليبٍ حديديٍّ صغير. وثمّة، قدّمت السيّدة فرنجيپاني لفرنسيس الخبز والماء القراح، ممّا استطار القدّيس فرحًا، إذ لم يتوقّع مثل ذلك الجوّ الفرنسيسكانيّ في مثل ذلك القصر، فحدّثها طويلاً عن فقر المسيح وبساطته، وهي تصغي، مسحورة، إلى أقواله.

ثمّ التمست منه أن يتذوّق بعض أقراص الحلوى التي كانت تُعِدّها بنفسها لولديها الصغيرين. وممّا يثير الدهشة أنّ فرنسيس، ذلك المتقشّف، بل المفرط في التقشّف، قد استساغ تلك الحلوى، فاستزاد منها مُثنًّى وثلاثًا؛ وبات كلّما زار منزل السيّدة فرنجيپاني يتمتّع بتناول بعضٍ منها، لا بل إنّهُ قد التمس، وهو على فراش الموت، تذوّق شيءٍ منها.

وقد غدا منزل تلك السيّدة، لفرنسيس، كلّما أمَّ روما، بمثابة بيت عنيا ليسوع، حيث كانت له، في آنٍ معًا، مرتا ومريم. وقد اعترف فرنسيس أنّها واحدةٌ من امرأتين اثنتَيْن لا غير، رأى ملامح وجهيهما منذ ارتداده إلى الربّ، أمّا الثانية فهي الأخت كيارا.

وقد أسدت السيّدة فرنجيپاني، أو «الأخ جاكلين» كما دعاها فرنسيس، خدماتٍ جليلةً للأخويّة الفرنسيسكانيّة التي زوّدتها بكثيرٍ من ضروريّات العيش، كما زوّدت عددًا كبيرًا من الإخوة بأثوابهم الرهبانيّة.

وكان فرنسيس، إعرابًا عن صداقته لها، قد أهدى إليها حَمَلاً أثيرًا لديه، كان قد أنقذه من الذبح، لأنّه ذكّره بالحَمَل الإلهيّ، وجعل منه رفيقًا يواكبه أينما ذهب؛ وفي عِشْرَة فرنسيس تدرَّب الحَمَل على الحياة الروحيّة، فبات يصمت، ويجمد في مكانه، كلّما استغرق معلّمه في الصلاة والتأمّل. وبعد أن أهداه للسيّدة جاكلين بات يرافقها كلّما أمّت الكنيسة، ويُقعي إلى جانبها ساكنًا صامتًا حتّى تعود إلى البيت فيسير إلى جانبها فرحًا.

وإذا ما استغرقت، يومًا، في النوم، كان يدنو من فراشها فيوقظها بلمسة من رأسه وبثغائه، حاثًّا إيّاها على النهوض لأداء واجباتها الدينيّة.

وقد استقرّت «الأخ جاكلين»، إثر وفاة فرنسيس، في أسّيزي، حيث كان يحلو لها الاجتماع بالإخوة الأوائل المخلصين لفرنسيس ورسالته؛ وعلى غرار كيارا، كانت تجد عزاءها في محادثتهم عنه، وعن الربّ.

تقدمة فارسٍ

وعاد نداء المشرق يراود فرنسيس، بعد سنتَيْن من محاولته الأولى الفاشلة، فعزم على المُضيّ إلى المغرب العربيّ، للتحدّث إلى «أمير المؤمنين». وكان يحدوه اندفاعٌ مضطرمٌ، بحيث كان يهرول هرولةً، فلا يقوى رفيقه بيرناردو دي كوانتاڤالي على اللحاق به. ولكن يبدو أنّ الربّ كان يريد منه أن يُرسّخ حركته في إيطاليا وأوروبّا قبل التطلُّع إلى آفاقٍ أبعد، فأوقفه في منتصف الطريق، بعد أن مناه بعلّةٍ حالت دون مواصلته مسيرته، ويُعتقد أنّه كان، آنذاك قد بلغ إسبانيا.

ورُبّما اعتملت في نفس فرنسيس، إثر حقبةٍ حافلةٍ بالحركة النشطة، الرغبةُ في الانقطاع للتأمّل والعبادة والانغماس في الله، طيلة الصوم الأربعينيّ. وفي اليوم الأوّل من الصوم، التمس من صديقٍ أن يقتاده بزورقه إلى جزيرةٍ صغيرةٍ مهجورةٍ، على ألاّ يرجع ليُعيده إلاّ يوم الخميس العظيم، قُبَيْلَ الفصح. وهناك، في هدأة الجزيرة ووحدتها سلخ مدّة الصيام كلّه مُستغرقًا في الربّ. كان قد اصطحب معه، مؤونةً لتلك الفترة كلّها، خمسة أرغفةٍ، ولكنّه لم يتناول منها كسرةً واحدةً، بل كان يُطْعِم منها أرنبًا صغيرًا لازمه، ولم يُبارحه لحظةً، طوال مكوثه في الجزيرة. وانقضت الأيّام، ونفس فرنسيس تزداد كلَّ يومٍ، نعمةً، وسموًّا، وتجلّيًا، وفرحًا، في حين كان جسمه يزداد هزالاً ووهنًا، إلى أن سمع، ذات صباحٍ، صوت مجاذيف تشقّ المياه، ثمَّ خشخشة الزورق بين أشجار الشاطئ، فأدرك أنّ الخميس المقدّس قد حلّ؛ ولكنّه، قبل صعوده إلى الزورق، جال في خاطره، أنّه، وهو الخاطئ، لا يسوغ له أن يتمثّل بالربّ تمثُّلاً كاملاً، فتناول نصف رغيفٍ جافٍّ، كسره بحجر، وبلّله بالماء، وازدرد منه بضع لقماتٍ، قبل أن يقفل راجعًا إلى إخوته.

وسرعانَ ما استأنف تجواله في شتّى بقاع إيطاليا؛ ولا غَرْوَ أنّه، بوحيٍ من الروح، يمّم شطر منطقة رومانيا الإيطاليّة؛ وذات صباحٍ مُشرقٍ، وجد نفسه، برفقة الأخ ليون، على مقربةٍ من قلعةٍ تدعى مونتيفيلتري، كانت ترفرف فوقها عشرات الأعلام، في حين كان أفواجٌ من الفرسان المزدانين بأبهى حللهم، يهبطون من على متن خيولهم المطهّمة، وفيما كانت تنحدر من العربات الفخمة الوثيرة سيّداتٌ من عليّة القوم يرفلن بالديباج، وبأنفس نماذج الأناقة، وفيما خُدّامٌ، في أزياءٍ مزركشةٍ، يروحون ويجيئون، في حركةٍ دائبةٍ، وكان كلٌّ ذلك ينبئ بحفلةٍ حافلةٍ، يتخلّلها سباق خيلٍ، احتفاءً بتكريس شابٍّ

نبيلٍ فارسًا. لا مراءَ أنّه كان للفروسيَّة تأثيرٌ آسرٌ على نفس فرنسيس، بيد أنَّ دافعًا آخر خفيًّا كان يحدوه إلى المشاركة في ذلك الاحتفال، فأسرَّ لرفيقه: «هيّا بنا، فلندخل، عسى أن يمكّننا الربّ من اكتساب فارسٍ له». وفي الحال دخل فرنسيس فاعتلى جدارًا واطئًا اتَّخذه منبرًا، وفاجأ القوم بمخاطبته إيّاهم، بِجرْسه القويّ الرنّان، مستهلاًّ خطبته ببيت شعرٍ إيطاليٍّ مأثورٍ يقول:

«إنّ ما أصبو إليه هو من الرفعة

بحيث تغدو كلّ شدّةٍ، في سبيله، متعةً».

واسترسل في الإشادة بعظمة الفروسيّة، إلاّ أنَّه أسهب في بيان بطلان أهدافها، إذ إنّ أجمل سيّدةٍ تُركَب، إكرامًا لها، المخاطر، صائرةٌ إلى فناءٍ، في حين أنَّ هناك فروسيَّةً أسمى مقامًا قد مارسها المرسلون والشهداء والعذارى، فأصابوا لقاءها مكافأةً أبديَّةً، وخيراتٍ لا تزول ولا تفنى.

كان في نبرة صوته، وفي فصاحته النابعة من صدقه، من بليغ الأثر، ما خضّ قلوب العديدين من الفرسان؛ بيد أنَّ واحدًا منهم، هو الكونت رولاندو، صاحب قلعة كيوزي، وافاه قائلاً: «أبتاه، أودّ التحدّث معك، في شأن خلاص نفسي».

لا ريب أنّ قلب فرنسيس طفر جذلاً، لتلك المبادرة، بيد أنَّه كان يؤثر أن يدع لروح الربّ العمل المتأنّي العميق في النفوس، فضلاً عن احترامه لتقاليد الفروسيّة وآدابها، فقال للنبيل: «يا بُنيَّ، اذهب أوّلاً فأتمّ واجبات الضيافة، واشترك في المأدبة مع صحبك، ثمّ تعالَ نتحدَّث على مَهَل، فأنا بانتظارك». وطال بينهما الحديث، وفي نهايته قال الكونت: «إنّي امتلك، في توسكانا، جبلاً منعزلاً يدعى ألڤيرنا، وهو موقعٌ ممتازٌ للتأمّل والخشوع. فإن رغبتم في الإقامة فيه، أنت وإخوتك، فسيسرُّني جدًّا أن أُقدّمه لكم، خلاصًا لنفسي».

كم الله كريمٌ، وكم هو يُغدق عطاياه بسخاءٍ، مستخدمًا أتقياءه، لتوفير احتياجات خرفانه! فقد كانت تُساور فرنسيس، منذ فترةٍ، رغبةٌ حارقةٌ في أن يكون للإخوة موئلٌ منعزلٌ مؤاتٍ للتعبُّد، بعيدًا عن ضجيج العالم، وفي اتّصالٍ خالصٍ مع الله. وها إنّ أمنيّته تتحقّق من حيث لم يحتسب. وعاد فرنسيس إلى الپورتسيونكولا جَذِلاً، وأبلغ إخوته نبأ الهبة السماويّة؛ وإذ كانت قواه الخائرة لا تتيح له تفقّد المكان بنفسه، أنفذ

اثنين من الإخوة، مَضَيا مع رجال الكونت إلى الجبل المُهْدى، فاستكشفاه، واختارا منه هضبةً أقاما عليها كوخًا، وتسلّما جبل الألڤيرنا، باسم الربّ. وجديرٌ بالتّنويه أنّ فرنسيس اكتفى بعطيّة الكونت الكلاميّة، إذ كان ينفر من أيّ تملُّكٍ. وقد تصرَّمت سنواتٌ عديدةٌ قبل أن يُوثِّق أبناء الكونت تلك الهبة بصكٍّ رسميٍّ، بعد أن كان كلٌّ من والدهما وفرنسيس قد لقي وجه ربّه.

وسرعان ما اعتملت في نفس فرنسيس الرَّغبةُ في الصَّلاة على قمّة الألڤيرنا، رغم قواه المنهارة، فاصطحب كُلاًّ من الأخ ماسّيو، الذي عيَّنه رئيسًا للرحلة، والأخ تانكريدو، الفارس السابق، والأخ ليون الذي كان أمين سرّه، وشخصوا جميعهم، معًا، إلى الجبل. وتوقّفوا مساء اليومِ الأوّل، في ديرٍ لقضاء الليل فيه. وفيما استسلم الجميع للسُّبات، انتحى فرنسيس زاويةً من الكنيسة، متهجّدًا. فشنَّ عليه جماعة الأبالسة هجومًا لا يعرف مثلَ خبثه سواهم، إذ راحوا يجرُّونه على أرض الكنيسة، في كلّ اتّجاهٍ، ويوسعونه ركلاً وضربًا، وسط جلبةٍ هائلةٍ يبدو أنَّها لم تزعج أحدًا سواه. غير أنَّه صمد، في ثباتٍ بطوليٍّ، وخاطب أعداءه قائلاً: «أيُّها الأرواح الملعونون، افعلوا بجسدي ما يتيح لكم إلهي فعله، فسأحتمل بكلّ طيبة خاطرٍ، إذ ليس لديَّ عدوٌّ ألدّ من جسدي». وراح يشكر للربّ إشارة الحبّ العظيم تلك التي أبداها له، عبر تلك التجربة. وأُسْقِطَ في يد الأبالسة فوَلّوا خاسئين. وحينئذٍ، مضى فرنسيس إلى غابةٍ مجاورةٍ، حيث طفق يخاطب يسوع، وهو يذرف دموعًا غزيرةً حرّى لذكرى آلامه.

وفي الصَّباح وجده الإخوة، وقد ارتفع فوق الأرض، مُحاطًا بغمامةٍ متألّقةٍ، ولكنّه، من الألم، كان عاجزًا عن أن يخطو خطوةً واحدة على الأرض، وكان لا بدّ من امتطائه حمارًا لبلوغ غاية مطافه. وفي أثناء الطريق، خطر للفلاّح، صاحب الحمار، أن يُسدي بعض النصح لرجل الله، فسأله:

– هل أنت، حقًّا، الأخ فرنسيس الأسّيزي؟

– أجل.

– إذن، اسعَ أن تكون، حقًّا، على نحو ما يُصوّرك الجميع من فضيلةٍ وقداسةٍ، فكثيرون قد وضعوا فيك ثقتهم، فإيّاك أن تُخيِّب آمالهم!

وما كان من فرنسيس إلاّ أن انزلق من على ظهر الحمار، وجثا عند قدمَي الفلاَّح

ولثمهما، شاكرًا له نصحه؛ وبلغ التأثّر بالفلاّح كلَّ مبلغٍ، وسارع إلى إعادة رفع القدّيس على متن الدابّة، واستأنف الركبُ السير حتّى سفح الجبل. وثمَّة، استلقى القدّيس في ظلِّ شجرةٍ كي ينال قسطًا من الراحة، فهيّأ له الربُّ ترحيبًا مُنقطعَ النظير، إذ تداعت ألوف العصافير والطيور من جميع آفاق السماء، ووافت تزقزق فرحةً، وتُصفّق بأجنحتها تأهيلاً به، وبعضها حطَّ على ذراعَيْه وقدميه ورأسه، في صيحاتٍ من الغبطة الدافقة. وأخذت الدهشة بالفلاّح والإخوة الثلاثة كلَّ مأخذٍ، حيال ذلك المشهد العجيب، وآنس فرنسيس أنّ الربّ يبارك اختياره لتلك الخلوة، فهبَّ ناهضًا، وراح يجوس المكان، إلى أن وقع خياره، على حُفْرةٍ في صخرةٍ، اتَّخذَ منها منبسطًا، حيث كان الله في انتظاره، كي يُكرّر في نفسه وجسده ذكر آلام يسوع.

حيرةٌ أمام مفترقٍ

وبات فرنسيس ينعم في تلك الخلوة المليئة بالله بعزاءٍ كبيرٍ، متمثّلٍ في اندماجه الحميم بالربّ، وإدراكه، على نحوٍ أفضل، أسرار الكون. ومع أنَّه كان قد استطاع، أبدًا، التوفيق بين الاتّجاهين اللّذين كانا يتنازعانه: العملِ والتأمّل، إذ كان نحلةَ عملٍ دائبٍ نهارًا، وصوفيًّا متهجّدًا، ليلاً، إلاّ أنَّ تجربةً هاصرةً راحت تحاصره وتقضّ مضجعه، مثيرةً شكوكه في سلامة نهجه، ومُصوّرةً له أنَّه قد يخدم الربّ على نحوٍ أفضل، إن هو اعتزل العالم اعتزالاً كاملاً ونهائيًّا، وانقطع للعبادة والتأمُّل فحَسْب. غير أنَّه خشيةَ الوقوع فريسةً لوساوسَ شيطانيّةٍ، وَطَّن العزم على العمل بنصح نفسَيْن كان واثقًا من أنَّهما قد غدتا هيكلاً يقطنه الربّ. فأنفذ رفيقه الوفيّ، الأخ ماسّيو، إلى كلٍّ من الأخ سيلڤستر المتصوّف، المنقطع للعبادة في مساجن جبل سوبازيو، وإلى الأخت كيارا، ملتمسًا منهما استجلاء مشيئة الله حول رسالته. وتوقّف ماسّيو، أوّلاً، في دير القدّيس داميانُس، الواقع في منتصف الطريق، حيث بلّغ الأخت كيارا طلب فرنسيس، وأمهلها ريثما تستطلع، هي وأخواتها، أنوار الله، في شأنه؛ وتابع تصعيده في جبل سوبازيو، حيث وافى الأخ سيلڤستر، وتلبَّث، ثمّة، إلى أن حصل منه على جواب الربّ؛ ثمّ قفل عائدًا، وتوقّف ثانيةً في دير القدّيس داميانُس، حيث أبلغته الأخت كيارا إلهام الربّ لها ولأخواتها، حول تساؤل الأخ فرنسيس.

لقد كانت كيارا متيقِّنةً أنّ على كليهما – فرنسيس وهي – تحقيق المُثُل الإنجيليَّة، ولكن بأسلوبَيْن متباينَيْن متكاملَيْن. فلئن كان يقودهما وحيٌ واحدٌ بأنّ الربّ يُكتَشَف

على دروب الفقر والإخاء، إلاَّ أنَّه كان على فرنسيس وإخوته أن ينجزوا ذلك الاكتشاف على دروب البشر، منادين ببشرى الخلاص، في حين كان عليها وعلى أخواتها اختبار ذلك الاكتشاف عينه، على غرار العذراء مريم، في صمت الصلاة.

ولمّا انتهى، أخيرًا، الأخ ماسّيو إلى البورتسيونكولا، قبَّله فرنسيس بحرارةٍ، ثُمَّ غسل له رجلَيْه ممّا علق بهما من غبار المشوار الطويل، وقدَّم له الطعام بنفسه، ثمّ مضى به إلى الغابة المجاورة، فجثا أمامه، خاشعًا، وغطّى رأسه بقلنسوته احترامًا، وأصغى في وقارٍ إلى قرار الربّ، وحينئذٍ بلَّغه ماسّيو أنَّ جواب الله لكلٍّ من سيلڤستر وكيارا وأخواتها كانَ واحدًا متطابقًا، ومفاده أنَّ على فرنسيس أن يمضي واعظًا في أرجاء المعمورة كلّها، طالما كان بإمكانه ذلك، فالله لم يختره لأجل خلاص نفسه فحَسْب، بل أيضًا من أجل خلاص الآخرين.

وفي الحال، نهض فرنسيس، واصطحب الأخوَيْن ماسّيو وأنجيلو، وانطلق يبشّر بالتوبة ومحبَّة يسوع، في مدينة كانارا. ولا ريب أنّ عظته، يومذاك، كانت أروع عظةٍ تفوَّه بها، يومًا.

وأثناء تلك الجولة، مرّ فرنسيس وأخواه بمحاذاة حقلٍ كانت أشجاره مغطّاةً بأعدادٍ هائلةٍ من الطيور من كلّ صنفٍ ولونٍ، على نحوٍ لم يشاهَدْ، قطّ، مثلُه، وقد استفزّ ذلك المنظر فرنسيس طَرَبًا، فامتلأ من الروح القدس، والتمس من رفيقيه أن ينتظراه ريثما يعظ «إخوته العصافير».

وما إن هو خطا بضع خطواتٍ في الحقل حتّى التأمت آلاف الطيور من حوله في سكونٍ وصمتٍ، منصتةً بانتباهٍ إلى أقواله، معِ أنَّه في روحاته وجيئاته، وهو يحدّثها، كان يمسّ بعضها بأردان ثوبه، فلا تبدي حراكًا.

وقد خاطب فرنسيس ذلك الجمهور الغريب، قائلاً: «إخوتي العصافير!، كم عليكم أن تشكروا للربّ ما أغدقه عليكم من آلاءٍ! فواجبكم أن تُسبّحوه دائمًا، وفي كلّ مكان، إذ وهبكم حرّيّة الطيران حيثما يطيب لكم، وألبسكم أثوابًا مزدوجةً حينًا، وثلاثيّةً حينًا آخر، من ريشٍ زاهي الألوان.

«سبّحوه، أيضًا، لما يوفّره لكم من طعامٍ، من غير جهدٍ تبذلونه للحصول عليه، وللأناشيد التي لقّنكم إيّاها، ولعددكم الذي كثّرته بركته، ولسلالتكم التي حافظ عليها قديمًا في سفينة نوح، ولعنصر الهواء الذي خصّكم به.

القدّيس فرنسيس يخاطب العصافير

«إنّ الربّ يغذّيكم، من غير أن تبذروا أو تحصدوا، ويهبكم الينابيع كي ترتووا من مياهها، والتلال والجبال كي تتّخذوا منها ملجأً، وأشجارًا باسقةً كي تبنوا فيها أعشاشًا آمنةً، وبما أنّكم لا تعرفون كيف تغزلون أو تخيطون، فقد وفّر لكم أيضًا ولأبنائكم ما يلزمكم من لباسٍ.

«كلّ هذه الآلاء تُثْبت أنّ الربّ يحبُّكم حبًّا جمًّا. وبالتالي، إخوتي العصافير، لا تكونوا ناكري جميل، ولكن أشيدوا، باستمرارٍ، بمجد ذاك الذي يغمركم بأفضاله».

ولدى سماعها تلك الأقوال، كانت الطيور تفتح مناقيرها، وتُصفّق بأجنحتها، وتمدّ أعناقها، وتحني رؤوسها خاشعةً، وتُعرب، بتحرُّكاتها وأناشيدها، عن فرحها الغامر، ممّا أثلج قلب فرنسيس جَذَلاً، كما سحره عددها الضخم، وتنوُّعها الواسع، والوِدّ الذي عبّرت له عنه، وأخيرًا رسم عليها إشارة الصليب، ودعاها إلى الانصراف، فانطلقت على شكل الصليب الذي رسمه عليها، وفي جماعاتٍ أربعٍ، إلى جهات السماء الأربع، والآفاق البعيدة.

بعد ذلك، شَخَص فرنسيس برفقة الأخ ماسّيو إلى مدينة ألڤيانو، ونهض واعظًا وسط ساحتها. وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب، واصطخب الجوّ بصيحات أسراب السنونو التي راحت تشقّ السماء جيئةً وذهابًا، مالئةً إيّاها بزقزقتها الحادّة. ولم يأبه فرنسيس لها، بل أنشد وماسّيو أحد المزامير، فتقاطرت الجماهير، وتراصّت، في صمتٍ خاشعٍ، مترقّبةً وعظ الرّاهب القدّيس. غير أنّ أسراب السنونو ما انفكّت تطلق صيحاتها المدوّية، التي كانت تطغى على كلماته، وتحول دون نفاذ أيٍّ منها إلى مسامع الحضور؛ فالتفت إليها فرنسيس في كثيرٍ من الصبر، وقال برقّة: «أخواتي السنونوات، يبدو أنّه قد حان لي أن أتكلّم؛ أمّا أنتنّ فحَسبكنّ ما أنشدتنّ وثرثرتنّ! فأنصتنَ إلى كلام الربّ، وامكثنَ هادئاتٍ، صامتاتٍ، ريثما أفرغ من عظتي!» وفي الحال، خرست جماعة السنونو، وجثمت على الجدران والأسطحة، خاشعةً، هادئةً، ما استمرّ فرنسيس واعظًا.

ذلك المشهد العجيب، وعبارات فرنسيس الخارقة أخذت بمجامع قلوب الحضور، فالتمس كثيرون منهم حَذْوَ حذوه، والانضمام إلى أخويّته. ولكن إذ كان معظمهم من المتزوّجين، وأرباب الأسر، نصحهم بالتريُّث إلى أن يضع نظامًا يتلاءم ووضعهم، ويضمن لهم تحقيق رغبتهم في التوبة، والتقرّب من اللّه.

مثل تلك الأحداث الغريبة كثيرًا ما تكرَّرت في حياة فرنسيس، فبينه وبين الكائنات قد قامت وشائج مودَّةٍ وأخوَّةٍ من نمطٍ فريدٍ، لا مثيل لها سوى لدى حفنةٍ من مختاري الربّ.

فرنسيس والخلائق

تحفل سيرة فرنسيس بالعديد من الروايات عن علاقاته الفريدة بالحيوانات، وشتّى المخلوقات. وقد جاء القدّيس بوناڤانتورا على ذكر العشرات منها، فذكر مثلاً، أرنبًا كان يتبعه أينمَا ذهب، كما تفعل صغار الكلاب؛ وعصفورًا كان يختلف إليه للتزوُّد ببركته؛ وطير تُدْرُجٍ، في مدينة سِيينّا، كان يذوي كلَّما نأى عنه صديقه فرنسيس؛ وصرصارًا، في البورتسيونكولا كان يسارع إليه، لدى ندائه، فيحطّ على يده، ويشاركه في تسبيح الخالق؛ ونعجةً شديدة التقوى، عايشته في البورتسيونكولا، أيضًا، وكانت ترافقه إلى الصلاة، وتخرّ ساجدةً أثناء تكريس القربان في القدّاس، وتُحيِّي تمثال العذراء بثُغاءٍ عذبٍ.

لا مراء أنَّ هناك سرًّا يجعل الحيوانات تطمئنّ إلى القداسة، فهي، رُبَّما، بغريزتها الصائبة، تستشفُّ فيها أسرار البراءة الأولى الخالية من كلّ خبثٍ فترتاح إليها، وتلتمس قربها؛ وقد حفلت سير قدّيسين كثيرين مثل ما اتَّسمت به سيرة فرنسيس من أُنسِ المخلوقات بهم، وتقرّبها منهم؛ بيد أنّ فرنسيس قد تميَّز ببلوغه قمّة الحكمة البشريّة التي حقَّقت انسجامًا مُحكمًا مع الخليقة كلّها، ووثَّقت وشائج أُخوَّةٍ مع كلّ كائنٍ، سواءٌ كان حيوانًا أو جمادًا، بحيث دعا الماء والنار والهواء، والشمس والقمر، وكلّ مخلوقٍ «أخًا»، في عفويَّةٍ وصدقٍ متناهيَيْن.

ومن الطريف إيراد بعض الأمثلة عن علاقاتٍ مدهشةٍ قامت بين فرنسيس ومختلف الحيوانات، فضلاً عمَّا أوردناه. فذات يومٍ، فيما كان مارًّا بمحاذاة ضفاف بحيرة رييتّي، أهدى إليه صيَّادٌ سمكةً جميلةً كان قد اصطادها لتوّه. فخاطبها فرنسيس بقوله «أختي السمكة»، ونصحها أن تكون في المستقبل، أكثر حيطةً، فلا تسمح للبشر باصطيادها، ثُمَّ ألقى بها في الماء، معيدًا لها حرِّيَّتها؛ بيد أنّ السمكة أبت الابتعاد، وظلّت تختلج فَرِحةً، أمامه، إلى أن باركها، وأمرها بالانطلاق.

وكان كلُّ حيوانٍ يقع عليه ناظراه، يستأثر بمكانٍ في قلبه. ففي الشتاء، كان يوفّر لجماعة النَّحل عسلاً ونبيذًا ساخنًا كي يساعدها على تخطّي الأشهر الصعبة. وذات يومٍ، لم يتردَّد في افتداء حَمَلَيْن كانا يقادان إلى المسلخ مقابل معطفٍ له جديدٍ. ومرَّةً أُخرى شاهد فتًى يحمل بعض يماماتٍ في قفصٍ، كان ماضيًا بها إلى السوق ليبيعها، فأشفق عليها، وبادر صاحبها بالقول: «أيُّها الشابّ الطيّب، إنّك ستوفّر لي فرحًا جمًّا، إن أنت وهبتني هذه الطيور البيضاء التي يشبّهها الكتاب المقدّس بالنفوس الطاهرة، المتواضعة الوفيّة، عسانا نَقِيها من الوقوع بين أيدي أناسٍ قساة سيقصفون رقابها».

وامتثل الشابّ، فأخذ فرنسيس اليمامات، وأخبأها في صدره، وراح يخاطبها قائلاً: «أخواتي اليمامات الصغيرات، ما أشدّ بساطتكنّ وبراءتكنّ، وما أبعدكنّ عن الخبث! لمَ وقعتنَّ أسيراتٍ؟ إنّني أودّ أن أنقذكنّ من الموت، وأساعدكنّ على التكاثر، عملاً بوصيّة الربّ لكنّ». وقد ابتنى لتلك الطيور أعشاشًا، وسرعان ما شرعت تبيض وتفرّخ وتتكاثر تحت أنظار الإخوة المملوءة دهشةً وفرحًا. وكانت تلك اليمامات تأبى مبارحة أعشاشها قبل أن تظفر ببركة فرنسيس.

وكان إذا ما صادف في طريقٍ ديدانًا تزحف، مُعرَّضَةً لأن تُداس وتُسحَق، يرفعها برفقٍ، ويجعلها في مأمنٍ من الهلاك.

وكانت الخراف والنعاج، على نحوٍ خاصٍّ، تحتلُّ من نفسه مكانًا أثيرًا، إذ كانت تذكّره بيسوع، الذي طالما شبّهه بها الكتاب. وقد اتّفق له يومًا، فيما كان في جولة كرازةٍ، أن رأى راعيًا يقود قطيعًا من الماعز والتيوس، وبينها نعجةٌ وديعةٌ تسير الهوينى، وترعى في هدوءٍ؛ فأخذ يتنهَّد قائلاً لرفيق دربه: «أترى هذه النعجة التي تسير برِفْقٍ بين الماعز والتيوس؟ هكذا كان سيّدنا يسوع المسيح يسير برقّةٍ وتواضعٍ وسط الفرّيسيّين ورؤساء الكهنة. فلنرأف بتلك النعجة، ولنبتَعْها فنحرّرها من بيئةٍ سيّئةٍ». وإذ لم يكونا يمتلكان ما يؤدّيان به ثمنها، وقفا حزينَيْن حائرَيْن، إلى أن مرّ بالمكان تاجرٌ رقَّ لحالهما، ونقدهما المبلغ الذي كانا يفتقران إليه، فأدَّياه ثمنًا للنعجة واصطحباها. ولمّا انتهيا إلى مدينة أوزيمو مَثُلا أمام الأسقف الذي احتفى بقدومهما، ولكنّه عجب لاصطحابهما نعجةً، ولِمَا كان يُغدقه عليها القدّيس من عنايةٍ رقيقةٍ. ولكنّه بعد أن ألمّ بالدافع الذي حمله على ابتياعها، أكبر فيه صفاء نفسه. وفي الغداة أَودع فرنسيس النعجة ديرَ راهباتٍ، سُرِرْنَ بتلك الهديّة، وأحطنَها بعنايةٍ فائقةٍ، واحتفظنَ بها طويلاً؛ ومن صوفها

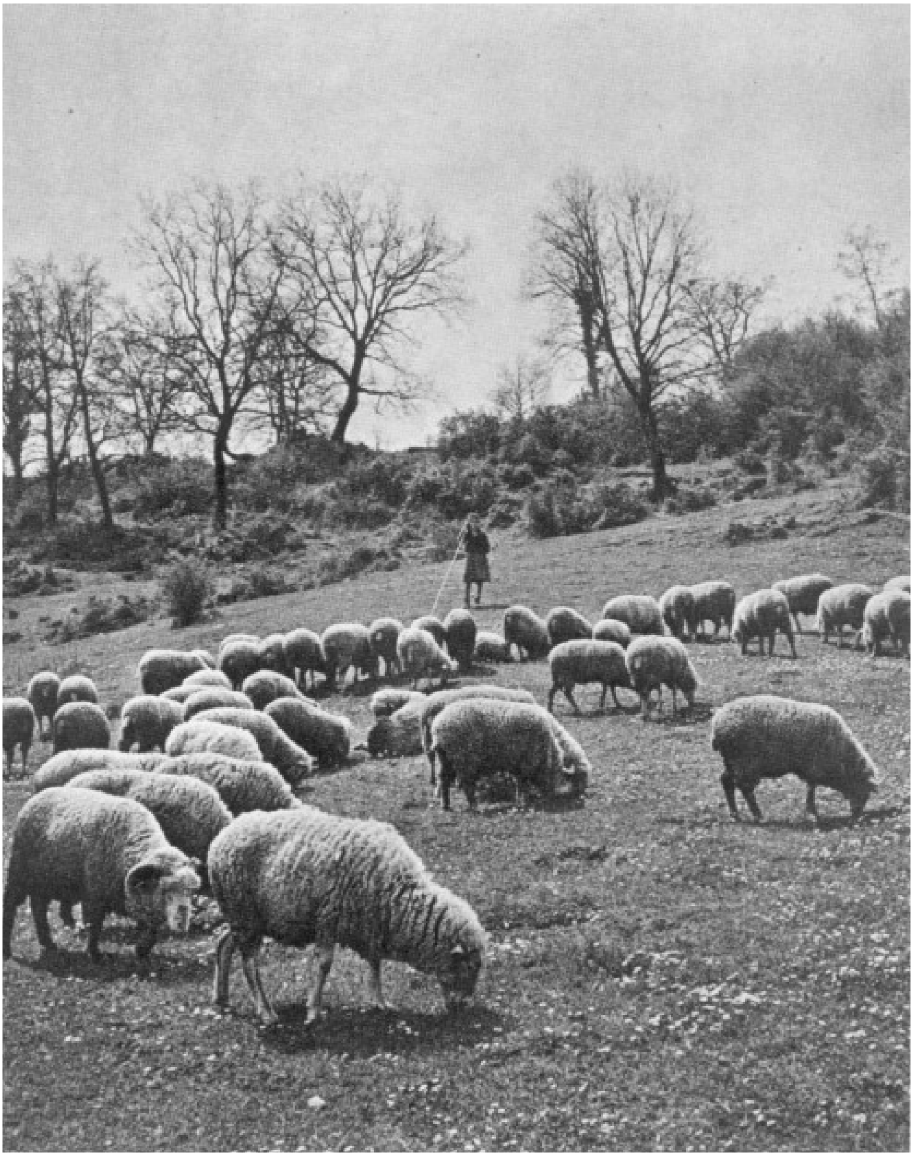

قطيع من الغنم

حِكْنَ للقدّيس ثوبًا ضمَّه إلى صدره في فرحٍ دافقٍ، وقبّله بحبورٍ، داعيًا الجميع إلى مشاركته فرحه ذاك.

ولئن هو أخذ على جماعة النَّمل حرصها الشديد، وتقتيرها خوفًا من الغد، إلاّ أنّه كان يستمدّ عِبَرًا من القبّرات الرماديّة، ويقول فيها: «إنّها، بقلنسواتها، تشبهنا إلى حدٍّ ما، وبريشها الذي يحاكي لونه لون التراب تدعونا إلى الاكتفاء بالزريّ من اللباس. وهي من التواضع بحيث تبحث عن طعامها في الرغام والرَّوْث؛ وهي، أخيرًا، بتحليقها عاليًا جدًّا، وبتسبيحها للربّ بما تنثره من شَدْوٍ في أجواز السماء، تُعلّمنا ازدراء هذا العالَم وأشياءه، وتدعونا إلى اتِّخاذ السماء لنا موطنًا، منذ وجودنا على الأرض».

وذات يومٍ تحلَّق حوله، في مدينة سِيينَّا، قطيعٌ من النعاج التي أخذت تثغو ثغاءً غريبًا، وكأنَّها تبوح له بأسرارٍ، وتشاركه تمجيد الخالق.

وقد بلغت قداسة فرنسيس من التأثير بحيث بات يُروِّض أشدَّ الحيوانات المفترسة فتكًا. وأروع مثالٍ على ذلك، قصَّته الشهيرة مع ذئب غوبيو. وغوبيو محلَّةٌ قريبةٌ من أسّيزي، حلّ في جوارها ذئبٌ رهيبٌ، على قدرٍ منقطع النظير من الضخامة والشراسة، ونشر في كلّ منطقتها الذُّعرَ، إذ راح يفترس البهائم والبشر على السواء، حتّى غدا الناس يخشون مغادرة منازلهم، وإذا ما اضطرّوا إلى ذلك، فلا يخرجون إلاّ وهم مدجَّجون بالسلاح؛ ومع ذلك لم يكن الذئب يتوانى عن افتراس أيّ مُسلَّحٍ يستفرده. وعندما نمت تلك الأنباء إلى فرنسيس عَزَم على إعادة الطمأنينة إلى أهالي تلك المنطقة، وعلى مواجهة الذئب، غير حافلٍ بتحذير الأهالي وتخويفهم، وتوسُّلاتهم بألاّ يعرّض نفسه للهلاك. ومضى، وحيدًا، أعزل، غير هيَّابٍ، نحو مخبأ الذئب، فيما احتشد الناس على أسطحة المنازل وفوق أسوار البلدة يراقبونه، وَجِلين، مرتعدين؛ وقد بلَغَ رُعبهم أَوجه، عندما شاهدوا الذئب مقبلاً كالسهم، فاغرًا شدقَيه، مكشّرًا عن أنيابه الفتّاكة. ولكن سرعان ما انقلب ذعرهم دهشةً وذُهولاً، عندما رأوا فرنسيس يرسم، بكلّ ثقةٍ ورباطة جأشٍ، إشارة صليبٍ على المفترس المداهم، ويخاطبه بهذه العبارات: «أخي الذئب، باسم المسيح، آمرك ألاَّ تُصيبني، وألاّ تصيب مخلوقًا بأذًى». وإذا بالذئب يُطبق شدقَيْه، ويحني رأسه، ويتحوّل جريُه الهائج إلى مشيةٍ وئيدةٍ ساكنةٍ، وكأنَّه تحوَّل، بغتةً، إلى حَمَلٍ وديعٍ. ثُمَّ جاء فأقعى عند قدمي فرنسيس، الذي استأنف مخاطبته قائلاً: «أخي الذئب، كم قد أوغلتَ في عيث الفساد في هذه المنطقة، حيثُ

تعدَّيت على خلائق الله مخالفًا أوامره، إذ لم تقتصر على التهام البهائم، بل لم تخشَ من القضاء على البشر الذين براهم الله على صورته ومثاله، بحيث تستأهل الإعدام عن جرائم السرقة والقتل البشعة التي اقترفتها، وبحيث غدا جميع الأهالي يمقتونك، ويلعنونك. بيد أنَّني، أخي الذئب، أودّ أن أُحلّ السلام بينك وبينهم، شرط ألاَّ تهاجم، من بعدُ، أحدًا، وألاَّ يُطاردك إنسانٌ ولا كلبٌ، وسيصفح الجميع عن جرائمك السالفة».

وحينئذٍ عَبّر الذئب، بإشاراتٍ من رأسه وأُذنَيْه، وذنبه، وكلّ جسمه، عن موافقته على اقتراح فرنسيس الذي تابع قوله: «بما أنَّك راضٍ بشروط المصالحة هذه، فإليك وعدي: طالما أنت بقيتَ على قيد الحياة، سيأتيك الأهالي بكلّ ما تحتاج إليه من طعامٍ وشرابٍ، لكيلا يُمزّق الجوعُ أحشاءَك. فإنَّني أعلم أنَّ الجوع هو الذي دفعك إلى اقتراف جرائمك. ولكن، في المقابل، أطلب منكَ وعدًا بألاَّ تهاجم، بعدُ، إنسانًا ولا حيوانًا، فهل تعد؟».

وهزّ الذئب رأسه بالموافقة، ولكنّ فرنسيس طلب إشارةً أوضح تعبيرًا، وأكثر إلزامًا، ومدّ يده، فرفع الذئب قائمته الأماميّة، وألقاها بتُؤَدةٍ في راحة رجل الله، وحينئذٍ قال فرنسيس: «آمرك الآن، أخي الذئب، باسم يسوع المسيح، أن ترافقني، بلا وَجَلٍ، وبكلّ اطمئنانٍ، كي نحيط الأهالي علمًا بالعهد الذي قطعناه معًا».

وقفل فرنسيس عائدًا إلى بلدة غوبيو، والذئب في إثره، مُذْعنًا مطأطئًا، مثل كلبٍ أليفٍ. وإنْ هي إلاّ لحظاتٌ حتّى ازدحمت ساحة غوبيو بسواد أهاليها، الذين راحوا يتأمَّلون مشهدًا يُكذّبون عيونهم فيه. واهتبل فرنسيس تلك السانحة كي يعظهم مُبيّنًا كم أنّ أشداق الجحيم أشدّ خطرًا على النفس وإهلاكًا لها من أنياب الذئاب المفترسة، وخلص إلى القول: «إنّ أخي الذئب الماثل ههنا قد وعدني، مُقْسمًا بقائمته الأماميّة اليمنى، أن يقيم السلام معكم، وألاَّ يؤذي، من بعدُ، أحدًا، شرط أن توفّروا له كلّ صباحٍ أَوَد عيشه، وإنّي لضامنٌ وعده وحُسْن وفائه». فتعالت من حناجر الحضور أجمعين صيحةٌ: «أجل سنفعل ذلك!» وحينئذٍ التفت فرنسيس إلى الذئب طالبًا منه تأكيد عهده أمام الجميع، فعبَّر، مجدّدًا عن قبوله، بهزّ رأسه، وأُذنيه، وكلّ جسمه، ثمّ رَكَع ورفع قائمته اليمنى ووضعها في كفّ فرنسيس.

وعاش الذئب، بعد ذلك، سنتَيْن، مُدَلَّلاً، مُكرَّمًا، متنقّلاً من بيتٍ إلى بيتٍ، حيث

كان يلقى الترحيب والملجأ والطعام الوفير، وحيث كان الصغار والكبار، وحتّى الكلاب، يتسارعون إلى مداعبته. وكان تجواله في المدينة يُعيد إلى الأذهان ذكرى قداسة فرنسيس، وعظمة أعمال الربّ فيه. وعندما مات الذئب من الشيخوخة، واكبه كلّ أهالي غوبيو، باكين، إلى مقرّه الأخير، وهم يسبّحون الربّ، ويعظّمون عجائبه.

ولم يقتصر حَدَب فرنسيس وكَلَفه على الحيوانات فحَسْبُ، بل تخطّاها حتّى إلى الجماد وإلى كل ما ابتدعته يد الخالق وقد اتَّسمت علاقاته بها بالرهافة والرقّة، وبحسٍّ عميقٍ بالجمال؛ فقلبه كان يخفق بحبٍّ صادقٍ جمٍّ للطبيعة، التي كان رواؤها يُلهب مشاعره، فيقرّ لله بالامتنان على خلقه شتّى الجمالات الخارقة، ولا سيَّما الشمس والقمر، وكلّ نورٍ. وفضلاً عن ذلك، كانت كلُّ خليقةٍ، في نظره، بمثابة كلمة الله الحيَّة، أو بمثابة رمزٍ إلى صفةٍ من صفات كماله، فغدت الخلائق تساعده على إدراك الخالق إدراكًا أفضل.

فالماء كان يرمز إلى التوبة لأنَّه وسيلة العماد؛ ومن ثمَّ، فهو إذا ما غسل يديه، حَرِصَ على ألاّ ينساب الماء إلى حيث يدوسه المارّة بأرجلهم. فضلاً عن أنَّه كان يرى «الأخ الماء جزيل الفائدة والتواضع، ثمينًا وعفيفًا». وإذا ما داس حجارةً أثناء سيره، كان يفعل ذلك في كثيرٍ من الحيطة والاحترام، إكرامًا لذلك الحجر الذي أصبح رأسًا للزاوية، للمسيح الذي دعاه القدّيس بولس صخرةً.

وكان يهيب بالإخوة الذين يحتطبون ألاَّ يقتطعوا شجرةً من جذورها، وأن يدعوا لها أملاً في الانبعاث، لحياةٍ جديدةٍ، إكرامًا للصليب الذي قُدّ من شجرةٍ.

وكان يوعز إلى الأخ المكلَّف بالعناية بحديقة البورتسيونكولا أن يضحّي بشيءٍ من الحيّز المخصَّص للخضار، في سبيل غرس الزهور واستنباتها، «فالأخوات الزهور» أكثر دعوةً إلى تمجيد الربّ، وأوفر عكسًا لسناه وعظمته.

وكان النور، في نظره، هو الأشدّ جمالاً ودلالةً على النور الأسمى، بحيث ما كان يطيق رؤية مصباحٍ يطفأ.

كانت الأشياء تحدّثه عن الربّ: فصلابة الصخر توحي إليه بقوّة الخالق، وتفتُّح زهرة الصباح يشير إلى نقاء الله وجماله، ومناقير صغار الطيور الفاغرة كانت تهمس له نشيدًا يُشيد بحنان قلب الله الذي منه ينبع كلّ حبٍّ وجمالٍ.

وتلك المشاهد كلُّها كانت تُفعمه فرحًا، وتُذكي فيه الرَّغبة في شكر الله وتسبيحه. وكان يغمره الشعور بأنّ الكائنات كلَّها تشاطره ذَيْنك الشكر والتسبيح.

رُبّما حاول بعض دعاة حماية البيئة، اليوم، ضمّ فرنسيس إلى جماعتهم، ولكنَّه من المحقّق أنّ ما كان يحدوه في المقام الأوَّل، كان إحاطة كلّ ما صنعته يدا الخالق بالحبّ والتكريم؛ ولقد لخَّص مشاعره المرهَفة تلك، في غروب حياته، بنشيده الشهير: «نشيد الخلائق» أو «نشيد الأخت الشمس»، والذي سنتعرّض له في حينه. ذلك النشيد كان يحضنه في صدره منذ صباه، ويعيشه في كلِّ لحظةٍ من حياته، إذ كان، حقًّا، عاشقًا للكون، يحبّ العالم المنظور حُبَّه للعالم غير المنظور، ففي كليهما كان يرى الله، ويلمسه، ويسمعه، ويُفتن به. كان، أبدًا، يُجيل، من حوله، أنظار محبٍّ دائم الدهشة، فيرى كلَّ شيءٍ جديدًا، نديًّا، قشيبًا كالله نفسه.

المجامع الفرنسيسكانيّة

تكاثَرَ عددُ الإخوة، وغدا مُتَعذّرًا على فرنسيس أن يقيم مع كلٍّ منهم مثلَ تلك العلاقات الحميمة التي كانت تربطه بكلٍّ من رفاقه الأوائل الاثني عشر؛ ولكنَّه كان يتلهّف إلى الاتّصال بهم أعمق اتّصالٍ وأصدقه، كي يبثَّ في صدورهم روح الرسالة المتميّزة التي أوكلها المصلوب إليه وإليهم. فبات ديدنه التحوُّل بين الأديرة والمناسك، وكلِّ مركزٍ يقيم فيه إخوةٌ ارتدوا الثوب الأغبر وحزام الحبل، واقترنوا بالفقر المقدّس، فيتبادل معهم أحاديث المحبّة، والاختبارات الروحيّة والحيويّة، والصلاة المشتركة.

كان حريصًا على ألاَّ يتعدّى غياب أيّ أخٍ عن المركز الأمّ فترةً محدّدةً، يعود بعدها، ولو لأيّامٍ معدوداتٍ، إلى اليورتسيونكولا، عودته إلى النبع ينهل منه زخمًا وتجدُّدًا، ورسوخًا في مبادئ الأخويّة الأساسيّة ومُثُلها. ثُمّ إنّه، رغبةً منه في توثيق الصلات بين الإخوة، وتعميق جدوى التبادل في ما بينهم، دعاهم إلى الالتئام، جميعًا، في مهد الأخويّة، مرّتين في السنة: مرّةً يوم عيد العنصرة، ومرّةً أُخرى في **٢٩** أيلول، عيد القدّيس ميخائيل، كي يُرسّخوا، بينهم، روح الإخاء، والشعور بالانتماء إلى عيلةٍ واحدةٍ متضامنةٍ، ويتشاوروا حول الأساليب المُثلى لتحقيق رسالتها ونشرها في العالم.

وفي الواقع، كانت تلك المجامع، في المقام الأوّل، احتفاءً بلقاءٍ، وتعبيرًا عن حبٍّ روحيٍّ مضطرمٍ ينتظم الإخوة جميعًا. وكان سيلٌ فيَّاضٌ من الفرح الصوفيّ يتدفّق من

تلك القلوب التي تجرَّدت من كلّ شيءٍ، وخبرت سعادة الفقر المطلق، وغناه اللامحدود.

بعد الفراغ من صلواتهم المشتركة ومداولاتهم، كانوا ينتشرون في الغابة المجاورة فيقتسمون طعامًا زهيدًا قِوامه الخبز، كما يقتسمون الفَرَح العارم الذي يغمرهم، ويُعبّر عن سعادتهم البالغة بتبادل جمٍّ من المشاعر والخواطر، وبالالتقاء حول الأخ الأمثل، فرنسيس، والاستماع إلى صوته الحبيب، والنَّهل من معين قداسته الثرّ.

ومع أنّ فرنسيس، إبّان مجمع الأخويّة الأوَّل، كان ما يزال في أواخر العقد الثالث من عمره، إلاّ أنّه قد غدا هشّ الصحّة، التي نال منها إغراقه في التقشّف وإماتة الذات، وممارسة الأصوام المتواترة، والفقر بما يواكبه من مكابدة القرّ والسَّهر، والنَّصَب الدائم. بيد أنّه ما برح قائدًا ساحرًا، فَرحًا، واثقًا من نفسه، مع جنوحٍ واضحٍ إلى تعميق معالم تشبُّهه بيسوع، وإلى التوغّل في الصوفيّة والاستغراق في الله، وشعورٍ أكثر إرهافًا بعبء مهمّة إنقاذ عددٍ من النفوس، وإصلاح الكنيسة.

كانت قداسته قد أخذت تتجلّى، آنذاك، من خلال خوارق يُجريها الربّ على يديه، عملاً بالوعد الذي كان يسوع قد قطعه لمن يعملون بكلامه بأن يفعلوا لا الأفعال المعجزة التي فعلها هو نفسه، فحَسْبُ، بل أعظم منها أيضًا. وقد اتَّفق، يومًا، أن زار فرنسيس مشفًى كان بعض إخوته يُعْنَون فيه بالبُرْص، والتقى واحدًا من البُرْص قد بلغ به اليأس كلّ مبلغٍ، بحيث كفر بالله، وجرى التجديف على شفتيه بلا انقطاعٍ، غير حافلٍ بردع الآخرين له، وتحذيرهم إيّاه من عقابٍ أبديٍّ قد يجلبه له كفره وتجديفه. وقد بادره القدّيس فرنسيس بالقول: «ليهبك الله السلام!» ولكنّ الرجل ردّ بعنفٍ ومرارةٍ: «وأيّ سلامٍ أرجو من إلهٍ سلبني طمأنينتي ومالي، وجعلني متفسّخًا مقزِّزًا؟!» وجهد فرنسيس في تهدئة جأشه، وحثّه على الصبر، مؤكّدًا له أنّ سُقم جسده، إنَّما هو تمهيدٌ لخلاص نفسه؛ ولكنّ المسكين كان قد ضاق ذَرْعًا بكلّ شيءٍ، وأجاب أنّه لم يعد له قِبَلٌ على احتمال آلامٍ لا نهاية لها، وشكا سوء عناية الإخوة به؛ فانتحى فرنسيس، لحظاتٍ، ودعا الربَّ بعمقٍ، ثمّ عاد إلى الأبرص فأكّد له أنَّه سيُعنى به بنفسه، ولكنّه لم يُفلح في إزالة القنوط والشكوك من صدره. وشاء الأبرص اختبار صدق فرنسيس فطلب منه أن يغسله بأكمله، إذ إنّه لم يَعُد يُطيق الروائح المقزِّزة المنبعثة منه؛ وسارع القدّيس فاستقدم ماءً ساخنًا نُقعت فيه أعشابٌ عطرةٌ، وراح يغسله بكلتا يديه، وإذ بالبثور،

وقشور اللحم المتفسّخ تهوي، ويتجلّى، تحتها، من جديدٍ، جلدٌ شابٌّ نظيفٌ، سليمٌ؛ وفيما كان الأبرص يستعيد سلامة جسده، كانت تتجلّى له قذارة نفسه أشدّ قبحًا ممّا كان الجسم العليل، فراح يسكب دموع التوبة والندم. وهكذا أثبت فرنسيس أنّه، على غرار المعلّم الإلٰهيّ، كان معنيًّا بشفاء الروح والجسد معًا، وبسلامة النفس قبل سلامة الجسد.

ويُروى أيضًا أنّ صبيًّا على قسطٍ مستفيضٍ من الطهر والاندفاع قد جاء ديرًا يقيم فيه فرنسيس والتمس الانضمام إلى أخويّته. ورُبّما خطر لفرنسيس، للوهلة الأولى، إعادته إلى ذويه، ولكنّه ذكر قول يسوع: «دعوا الصغار يأتون إليّ، ولا تمنعوهم»؛ فقبَّله، وألبسه الثوب الفرنسيسكانيّ. وكانت تجيش في نفس الصبيّ رغبةٌ عارمةٌ في تقليد فرنسيس، وفضولٌ حادٌّ للاطّلاع على جميع جوانب سلوكه. وإذ علم أنّه يستيقظ ليلاً للتَّهجُّد والصلاة، تريَّث، ذات مساءٍ، حتّى استلقى القدّيس على لوحٍ خشبيّ، واستسلم للسُّبات، فرقد على مقربةٍ منه، وربط حبل حزامه بحزام فرنسيس، بحيث يضمن الاستيقاظ معه؛ ولكن سرعان ما تكشَّفت الحيلة للقدّيس، ففكّ، برفقٍ، عقدة الرباط، ومضى، خلسةً، مع الفجر، للصلاة، واستيقظ الصبيّ، بعد فترةٍ، فراح يجوس الغابة بحثًا عن المعلّم، إلى أن سمع بين الأشجار أصواتًا فمضى نحوها، وإذا بفرنسيس في حالة انخطافٍ، وكأنّهُ متسربلٌ بالنور، يخاطب المسيح والعذراء أمّه، بحضور يوحنّا المعمدان، فيما حشدٌ من الملائكة يتطايرون، ويرنّمون، ويجعلون اللَّيل ساطعًا متألِّقًا. وكانت صدمة الدهشة على الصبيّ من شدّة الوقع، بحيث وقع مغميًّا عليه. ولمّا ثاب فرنسيس من انخطافه، وقفل عائدًا إلى الدير صدمت قدمه جسم الصبيّ المرميّ أرضًا، فحمله بين ذراعَيْه، وعاد به؛ ولم يعنّفه، ولكنَّه استحلفه ألاَّ يبوح بشيءٍ مما رأى لإنسانٍ، طالما بقي، هو، فرنسيس، على قيد الحياة.

وخلافًا لما يجري في الرهبانيّات الأُخرى، حيث تقتصر المجامع على الرؤساء والقيِّمين والمدبّرين، كانت المجامع الفرنسيسكانيّة على قدرٍ وافٍ من الديمقراطيّة، يشترك فيها جميع الإخوة بلا تمييزٍ، في مساواةٍ تامَّةٍ، وتسودها حرِّيَّة أبناء الله العظمى، حيث لا سائد ولا مسود، بل إخوةٌ متساوون تحت أنظار أبٍ سماويٍّ، فيتناقشون صراحةً، ومن غير قيدٍ، في قضاياهم، ويتبادلون خبراتهم، وينتخبون مسؤوليهم، ويحدّدون اتّجاهاتهم، ويُقرّون الخطوات الكبرى التي عليها يعتمد مصير جماعتهم.

ومن ثَمَّ كان لتلك المجامع شأنٌ حيويٌّ في حياة الأخويّة؛ فبها يستمدّ الإخوة زخمًا

جديدًا من جوّ الصلاة والتسبيح الجماعيَّيْن، ويعون هويَّتهم الواحدة، ويلمسون تضامنهم ومسؤوليَّتهم المشتركة عن مستقبل الجماعة، وخطر رسالتها في العالم، ويُعبّر كلٌّ منهم، بأُسلوبه الخاصّ، عن إسهامه في حياة الجماعة.

كانت تلك الظاهرة الفريدة تجتذب إلى اليورتسيونكولا العديدين من أحبار الكنيسة ومسؤوليها الذين يقدمون لاستجلاء أسرار ازدهار الفرنسيسكانيّة والفرح القاطن في أعضائها، والمشعّ منهم، ومقدرتهم، مع أنّ معظمهم لم يُلمّوا بشيءٍ من علم اللاهوت، على استقطاب الجماهير إلى يسوع، حيث فشلوا هم المثقّفون، وعجزت خطبهم المُغرقة في الفصاحة، وحججهم المدعَّمة بالعلم، عن مسّ القلوب، وتحريك الألباب، فيتساءلون، حائرين، هل يكفي، حقًّا، اتّباع الإنجيل حرفيًّا، للتمكّن من إجراء مثل تلك الانقلابات الجذريّة؟!

وكانت تلك المجامع، حقًّا، وعظًا بالمَثَل والقُدوة، إذ كانت جموعٌ غفيرةٌ من عُلّيّة القوم ودهمائه تتقاطر لمطالعة ذلك المشهد الفريد، فتدرك كُنْهَ التطويبات الإنجيليَّة، وتقنع بأنّ هناك جانبًا آخر للحياة أكثر تألُّقًا وصدقًا من ذاك الذي تتقلّب في زيفه وبطلانه.

وفضلاً عن ذلك، كانت تلك المجامع فرصةً لفرنسيس فريدةً كي يذكّر جميع الإخوة برسالتهم المتميّزة، رسالة الفقر الإنجيليّ، فقرٍ طوعيٍّ، ولكنَّه غير منعزلٍ عن الناس، بل معاشٍ مع الفقراء، على نحو ما أراده وعاشه يسوع نفسه، فقرٍ يُبرز حبّ يسوع وإيثاره لكلّ فقيرٍ وضعيفٍ ومنبوذٍ، فقرٍ يتحوَّل حبًّا وخدمةً. ثمّ إنَّه كان يُسدي لإخوته نصائح عمليّةً ترشد سلوكهم اليوميّ؛ ومن أهمّ المواضيع التي كان يُحبّ التأكيد عليها، تحريضهم على التأمّل، في أثناء الذبيحة الإلهيَّة، في سرّ الإفخارستيّا، والسجود الخاشع لحضور الله الفعليّ في القربان، ووجوب احترام الكنيسة ورجالها أيًّا كان سلوكهم، واجتناب دينونة أحد ولا سيّما الأثرياء الباذخين، الذين يقفون من فقرهم على أقصى نقيضٍ؛ وكان يحثُّهم على السلوك المهذَّب إزاء الجميع، وعلى عدم الاكتراث لأخبار العالم، وحصر كلّ اهتمامهم بالله وبما يرضيه.

وكان يشدّد على وجوب تحلّي الإخوة بالسلام، فيردّد عليهم مِثْلُ هذا القول: «عليكم، أبنائي، أن تُبقوا السلام قاطنًا في قلوبكم، أنتم المكلّفين بتوفير السلام للآخرين». وفي سبيل ذلك، كان كلٌّ أخٍ تُفقده التجارب سلامه الداخليّ، يهتبل سانحة المجتمع، فيفزع إلى فرنسيس، ويبوح له بمكنونات صدره، فيجد لديه، لا محالة، البلسم الذي يفعمه عزاءً، ويعيد إليه سكونه وطمأنينته.

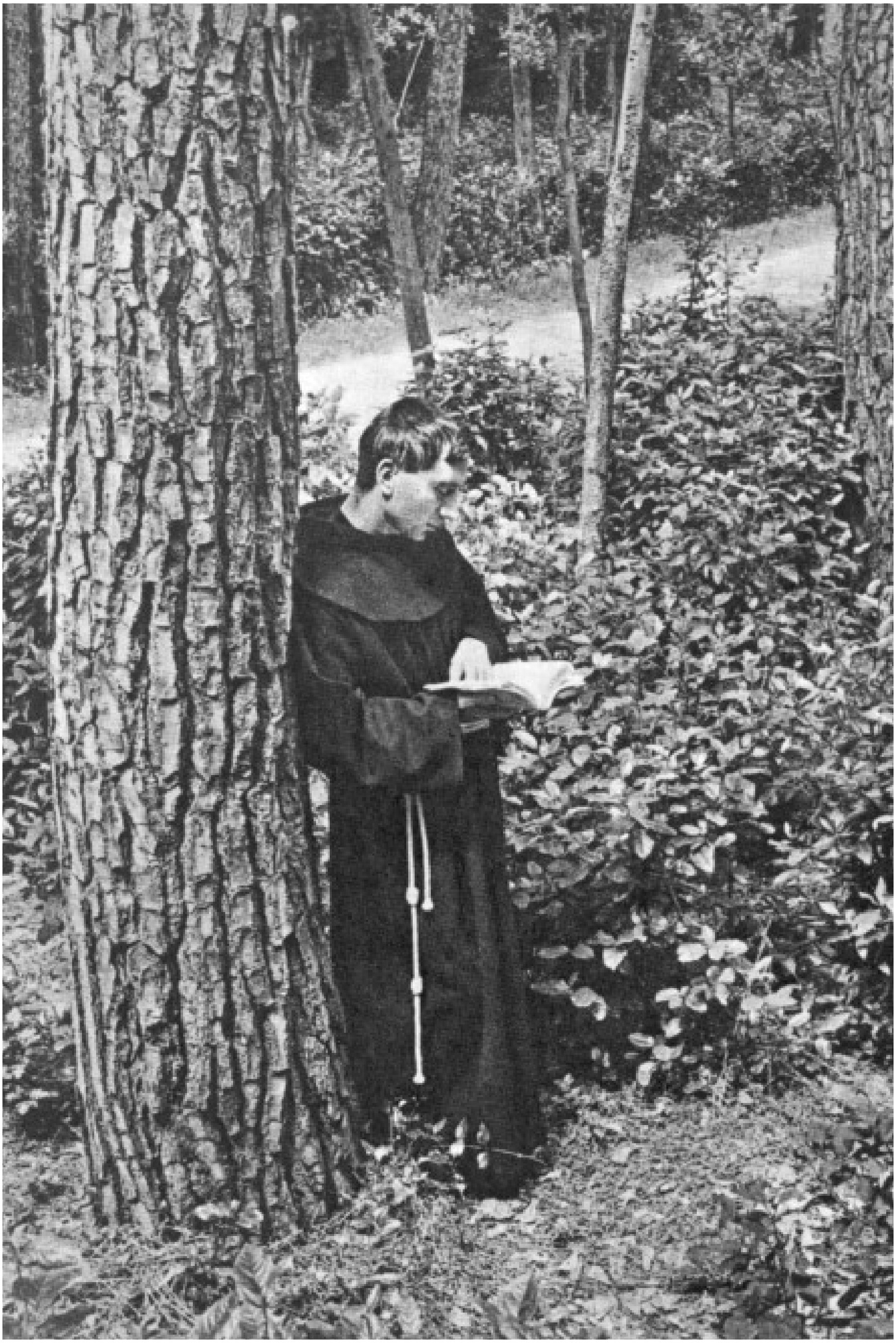

راهب يصلّي في البرّيّة

قسطٌ كبيرٌ من إرشادات فرنسيس تلك لإخوته قد دُوّن ونُشِر، ولا يزال يمثِّل، حتّى اليوم، نبراسًا لكلّ صابٍ إلى العمل المجدي النظيف، في حقل الربّ.

وقد أقرَّ المجمع الأوَّل، الذي رُبَّما عُقِد عام ١٢١٥، أوّل تنظيمٍ للأخويّة التي كانت، حتَّئذٍ، خاضعةً للتلقائيَّة، والإلهام الفرديّ، والعلاقات الشخصيَّة المباشرة، والتي لم تعُدْ قادرةً على المُضيّ في ذلك النهج، بعد أن اتَّسعت وتشعَّبت. فأنشئت لها فروعٌ في المدن الإيطاليّة الرئيسة، وقُسمت إلى «مقاطعاتٍ» أو «أقاليم»، يتَّخذ كلٌّ منها اسم البلد الذي تُقيم فيه، ويديرها «راعٍ» أو «خادمٌ»، وهذه، بدورها، تنقسم إلى فروعٍ أصغر، يُديرها «حارسٌ»، ويتّضح من هذه الألقاب التي أطلقها فرنسيس على رؤساء الأديرة والمناسك حرصه على تذكيرهم بأنّ وظيفتهم تُلزمهم بمهمّات الخدمة، ولا تهبهم أيّة امتيازاتٍ؛ وكان يحلو له أن يشبّههم بالأمّهات الساهرات على أبنائهنّ؛ وفي آنٍ معًا يؤكّد ثقل التبعات الملقاة على كواهلهم. وقد كتب، في هذا السياق: «فليذكر (الرؤساء) كلمات المخلّص: إنّما جئتُ لأَخدُم لا لأُخدَم؛ ومن ثَمَّ عليهم أن يكونوا لسائر الإخوة خُدّامًا، فيزوروهم باطّرادٍ، ويرشدوهم، ويشدّوا من أَزرهم، ويسهروا عليهم سَهَر الراعي على خرافه. وعلى الإخوة أن يخضعوا لهم، في كلّ ما لا يتعارض مع مُثُلنا. وينبغي ألاَّ يَغْرُب عن بال القيّمين أنَّهم قد اؤتُمنوا على نفوس الإخوة، فإذا ما هلكت إحداها من جرّاء خطإٍ منهم، فسيحاسبهم عنها الربّ».

وفي غروب عام ١٢١٥، وبالتحديد في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني من ذلك العام، التأم المجمع المسكونيّ الكنسيّ الرابع عشر في كاتدرائيّة اللاتران بروما، ونوقشت خلاله قضايا لاهوتيّة، وحُدّدت فيه عقيدة انبثاق الروح القدس من الآب والابن التي ما انفكّت حجَّة تشقّ قسمًا كبيرًا من الكنيسة إلى شرقيٍّ وغربيٍّ، وعقائد أخرى؛ وبُحثتْ، في ذلك المجمع، أيضًا، ضرورة إصلاح الإكليروس، الذي غالبًا ما كان منغمسًا في التّرَف والفُسْق، ومبتلًى بفساد المال والانحلال الأَخلاقيّ، أو بالجهل، ممّا أثار العديد من الفئات المتمرّدة على الكنيسة، مطالبةً بإصلاحها إصلاحًا جوهريًّا. ولا ريب أنّ الإصلاح كان حاجةً لازبةً أساسيَّةً، على أن ينبثق من صُلْب الكنيسة، ويستهدف لا تهديمها، بل تنقية رجالها وتقويمهم، وتدعيم بنيانها على أُسُس الإنجيل الأصيلة المنيعة.

وفي مثل تلك الحقب القاتمة المحفوفة بالمخاطر، يستنهض الربّ قدّيسين يدرأون عن

العالم سيل غضبه، وبقدوة سلوكهم يعيدون إلى الأذهان نقاء تعاليمه، ويُبقون جذوة الإيمان، في قلوب سواد الشعب، متّقدةً. وقد كان فرنسيس واحدًا من أولئك، بل كان النموذج الأمثل الذي تفتقر إلى مثله الكنيسة لإصلاح ذاتها. وكان لا بدّ له من حضور المجمع المسكونيّ، ولكن أيُّ مكانٍ لذلك الراهب الزريّ الهندام، وسط بذخ أصحاب النيافة والغبطة الصاخب، المتألّق، ولا سيّما وأنّ الكردينال دي سان پول الذي كان يُشرع له أبواب المقرّ البابويّ، كان قد انتقل إلى جوار ربّه، لأربعة شهورٍ خلتْ؟ ولكنَّ الربَّ هيّأَ له أميرًا آخر من أُمراء الكنيسة، هو الكردينال هوغولينو، الذي كان قد سُحِر بصدق فقره، وسُموّ قداسته التي لم تَعُدْ تَخفى على عينٍ يقظةٍ، واستشفّ فيه وفي أخويّته الآخذة في الازدهار والانتشار، عنصرًا أساسيًّا من عناصر إصلاح الكنيسة، فأخذ بيده، ودعم مسيرته.

ومع أنَّ المجمع المسكونيّ كان قد أقرّ عدم السماح بتأسيس أيّة جمعيّةٍ رهبانيّةٍ جديدةٍ لا تستمدّ نظامها من الأنظمة الرهبانيّة المعروفة والمعترف بها، ولا سيّمَا تلك المنسوبة إلى القدّيسين باسيليوس، وبندكتس وأوغسطينُس، إلاّ أنّ البابا إنوشنتسيوس الثالث، راعي المجمع، قد استثنى من ذلك الحظر الأخويّة الفرنسيسكانيّة التي كان قد وافق، شفويًّا، من قبلُ، على تأسيسها، وأعلن، في تلك المناسبة الاعتراف بها رسميًّا؛ كما تمّ الاعتراف برهبانيّةٍ حديثةٍ أُخرى اختارت النهج وفق النظام الأوغسطينيّ، وكان يقودها رائدٌ روحيٌّ آخر، قائدٌ لجماعةٍ من الوعّاظ، خبيرٌ باستقطاب الأتباع، واستنهاض النفوس الرسوليّة، هو القدّيس دومينيك. وكأنّي بالحبر الأعظم كان يستشفّ في تَيْنك الجماعتَيْن أملاً مشرقًا في إصلاح الكنيسة.

كان دومينيك يكبر فرنسيس اثنتي عشرة سنة، وكان يجمع إلى الفضيلة، والغيرة، العلمَ الغزير، والحنكةَ الإداريّة. القاسم المشترك بينهما كان حبًّا ليسوع مضطرمًا، وحرصًا على إنجيله ضنينًا، ولكن بأساليب متباينةٍ. فبقدر ما كان دومينيك شغوفًا بالعلم، ضليعًا فيه، كان فرنسيس صادفًا عنه، زهيد الزاد منه. وبقدر ما كان دومينيك كَلِفًا بالانضباط في كلّ شيءٍ حتّى في زيّ اللباس الرهبانيّ ودقّة تفصيله، كان فرنسيس تلقائيًّا، مستسلمًا لنفحات الروح، لا يمتلك ولا يجيد سوى الفقر.

كان دومينيك، الإسبانيّ الأصل، قد باشر رسالته بالانضمام إلى جماعةٍ من الأساقفة آلوا على أنفسهم مناهضة البِدَع المعادية للكنيسة، الآخذة في الانتشار؛ ولكنّه سرعان

ما تبيّن أنّ الشعب لم يكن يأبه لحُجَج الأساقفة وأعوانهم، مهما كانت سديدةً مُفحِمةً، وهو يراهم يجوبون البلاد على خيولٍ فارهةٍ، وقد تدثَّروا بأفخر الألبسة، وازدانوا بالحليّ، وتزوّدوا بأنفس الأطعمة، مُزرين بفقر الشّعب وبُؤْسه. فاستقلّ عن الأساقفة، وأحاط نفسه بجماعةٍ من «الوُعّاظ» الذين، بالإضافة إلى تمكُّنهم من علوم اللاهوت، كانوا ناصعي المسلك، يمارسون التقشُّف الشديد، ولا يتردّدون في جَوب البلاد حفاةً، ولا يتهيَّبون مجابهةَ أيّةِ بدعةٍ أو هرطقةٍ، ولا يستطيع أيُّ مسيحيٍّ أن يأخذ على نهجهم أيَّ مأخَذٍ.

ويُروى أنّ دومينيك كان قد رأى، في الحلم، السيّدة العذراء تقدّمه للربّ بصحبة راهبٍ مجهولٍ، مُنْتَدَبٍ، هو أيضًا، لردّ العالم إلى جادّة التوبة، وعندما التقى فرنسيس، عَرَضًا، في روما، تعرّف، فيه، ذاك الراهب المجهول، الذي كان، في الحلم، رفيقَه، فبادره، وقبّله، وقصَّ عليه حلمه، وقال: «فلنكن أصدقاء، ولن يقوى علينا شيءٌ في هذه الدُّنيا».

كلاهما كانا يتمتَّعان بصداقة الكردينال هوغولينو الذي هيّأ لهما لقاءً آخر بحضوره، ورُبَّما حرَّض دومينيك على إقناع فرنسيس بضمّ الجماعتين الرهبانيَّتين في جماعةٍ واحدةٍ، وقد يكون الكردينال قد رمى، من وراء ذلك، إلى ضمان تنظيم الفرنسيسكانيّين الذين أخذوا يتكاثرون، لخشيته من ألاّ يتمكّن فرنسيس من الاستمرار في إحكام إدارته لأعداد الإخوة المتعاظمة باطّراد. بيد أنَّ فرنسيس رفض ذلك العرض بلباقةٍ، إذ كان حريصًا على ألاّ ينتقص أيُّ نظامٍ من الوفاء المُطلَق للفقر المقدَّس، الذي بنى عليه أخويَّته، وعلى ألاّ ينال أيُّ تنظيمٍ من جوهر الرسالة التي انتدبه لها المصلوب.

ثمّ إنَّ الكردينال، بدافع رغبته في رفد الكنيسة برعاةٍ منزَّهين عن الفساد، عرض على المؤسّسَين انتقاء أساقفةٍ من صفوف جمعيّتَيْهما، قائلاً: «بما أنّ الرُّعاة، في الكنيسة الأولى، كانوا فقراء، وتُلهبهم المحبّة، لا الجَشَع، فلمَ لا ننتخب الرعاةَ بين صفوف إخوتكما؟» ولكنّ المؤسِّسَيْن القدّيسَيْن رفضا العرض بحزمٍ، فقال دومينيك: «على إخواني أن يقنعوا بالكرامة التي ينعمون بها، ولستُ أطيق أنْ يتطلّعوا إلى سواها». أمّا فرنسيس، فكان جوابه: «لقد دُعي إخوتي «الأصاغر» لكيلا تراودهم، يومًا، فكرة أن يصبحوا من «الأكابر»، إنّ دعوتهم الخاصّة هي أن يظلّوا، أبدًا، في مراكز وضيعةٍ. فأبقوهم فيها، ولو اضطررتم إلى إرغامهم على ذلك، إن أنتم شئتم أن يكونوا ذوي جدوى للكنيسة. بل إنّني أتوسّل إليكم ألاّ تتيحوا لهم أبدًا أن يصبحوا أساقفةً».

وقبل ان يفترق المؤسِّسان القدّيسان، أوصى كلٌّ منهما الآخَر أن يصلّي من أجله؛ ثمّ التمس دومينيك من فرنسيس أن يهبه الحبل الذي كان يتمنطق به، ذكرى مقدَّسةً؛ واستجاب فرنسيس لطلبه، بعد لأيٍ، وكثيرٍ من التردّد، فاحتزم به دومينيك فوق جلبابه الداخليّ، وصرّح لرفاقه، فيما كان فرنسيس يبارحه: «في الحقيقة أُعلن لكم أنَّ كلَّ راهبٍ يتأثّر خُطى رجلٍ على هذا القدر من القداسة سيظفر بفائدةٍ جلّى».

وظلَّ الرجلان يحبّ أحدهما الآخر حبًّا جمًّا، حتّى قيل فيهما إنّهما كانا قلبًا واحدًا، ونفسًا واحدةً.

وتوالت المجامع الفرنسيسكانيّة، وكان أشهرها ذاك الذي دعي «مجمع الحصير». وقد انعقد، على الأرجح، يوم أحد العنصرة لعام ١٢١٧، وكان ذا وقعٍ فريدٍ. وقد دُعي كذلك لأنّ عدد الذين حضروه قد تجاوز خمسة آلاف أخٍ قدموا من كلّ أفقٍ. وإذ لم يكن، ثَمَّة، مكانٌ يتَّسع لجميعهم، اضطرّوا إلى الانتشار في الغابة والحقول المجاورة للپورتسيونكولا، فئاتٍ من ستّين، أو مئةٍ، أو مئتين، تحت خيامٍ من الحصير، أو في خصاصٍ من القصب.

لم يكونوا يتبادلون أيَّ حديثٍ دنيويٍّ أو ساخرٍ، بل يزجون وقتهم في الصلاة، والتسبيح والترنيم، والأحاديث البنّاءة. كثيرون منهم كانوا يرقدون في العراء، على اليابسة، أو فوق شيءٍ من القشّ، أو تحت خيام الحصير؛ أمّا وسادتهم فحَجَرٌ أو حطبةٌ. وكان صيت قداستهم يجتذب أساقفةً وكرادلةً، يستطلعون ذلك النمط الجديد الفريد من الرُّهبان المتشبّثين بالفقر.

وقدم الكردينال هوغولينو، هو أيضًا، لحضور ذلك المجمع، فلمّا طالعه ذلك العدد الهائل من الإخوة المنهمكين في الصلاة والتأمّل الخاشع، وأعمال البرّ، ووجوههم المشعَّة بالفرح العميق والعزيمة الجيّاشة، ذرف دموع التأثّر، وهتف: «حقًّا هذه هي ساحة الله، وهؤلاء هم جنوده». وهبط عن جواده، فخلع معطفه الأرجوانيّ الفاخر، وأحذيته، وانتظم، حافيًا، في حشدٍ حافلٍ إلى المُصلّى، مشاركًا في التراتيل. وبات يأتي كلَّ يومٍ من پيروجيا المجاورة لمشاركة الفرنسيسكانيّين مجمعهم؛ ويقال إنّه ارتدى، يومًا، الزيَّ الفرنسيسكانيّ، ورغب في مشاطرة بعض الإخوة غسل أرجل الفقراء، فأكبَّ على غسل رجلي أحدهم، إلاّ أنّه رغم الجهود الجادَّة التي بذلها في ذلك المجال، بدا وكأنّه يحتفل بطقسٍ رسميّ، ولم يُفلح في إزالة الأقذار السميكة العالقة بهما، فصاح به الرجل، وهو يجهل هويّته: «أيُّها الأخ، خيرٌ لك أن تُعنى بشؤونك، وتدع أمر غسل الأرجل لهؤلاء الذين يُتقنون هذا العمل أفضل منك».

وبين من حضروا مجمع الحصير كان، أيضًا، القدّيس دومينيك، الذي تلقَّن، من تلك المناسبة، عبرةً ثمينةً. فقد انبرى فرنسيس خطيبًا في الإخوة، وكانت خلاصة خطبته: «نحن قد ارتبطنا بوعودٍ عظيمةٍ، ولكنَّ وعودًا أعظم قد بُذلت لنا بالمقابل. فلننفّذ وعودنا، ساعين وراء تلك التي وُعدنا بها. إنَّ المتعة لقصيرة الأمد على الأرض، أمّا عقابها فأبديٌّ. والألم في الدنيا خفيفٌ، أمّا مجد الآخرة فلا حدود له». وحثّ إخوته على الخضوع للكنيسة، والدعاء من أجل المسيحيّة جمعاء؛ وأهاب بهم أن يتمرّسوا بالصَّبر في المِحَن، ويتدرَّعوا بمثل طهر الملائكة، ويعيشوا في سلامٍ مع الله والبشر، ويتحلَّوا بالتواضع والتسامح حيال الجميع، كما أوصاهم بازدراء تُرّهات العالم، وبحبّ الفقر على نحو ما علّمه الإنجيل. وأنهى خطبته بهذه الدعوة: «إنّني آمركم، أنتم جميع الحاضرين ههنا، أن تنصرفوا إلى الصلاة وتسبيح الربّ، غير مهتمّين بطعامكم الجسديّ، إذ قد تعهّد المسيح، صراحةً، بتوفيره لكم». وامتثل الإخوة للأمر، فانقطعوا للصَّلاة فحَسْب.

وقد وصف دومينيك، أوَّل الأمر، ذلك السلوك، من قِبَل رئيسٍ مسؤولٍ، بالحُمْق وانعدام الفطنة، وتوقَّعَ الويلَ لأولئك الألوف من الرجال الجياع اللامبالين. ولكن سرعان ما أثبت الربُّ له وللجميع خَطَل مثل تلك الظنون، وتكفُّله بإطعام الفقراء الذين يولونه أمرهم، إذ أخذت تتقاطر إلى البورتسيونكولا قوافل الحمير والبغال، محمَّلةً بالخبز والنبيذ والجبن والفول وشتّى الأطعمة، فضلاً عن الصِّحاف، والأطباق والأقداح، ولوازم المائدة، قادمةً من أسّيزي وبيروجيا، وفولينيو وسپوليتّي، ومختلف القرى والمدن المجاورة. وكان المتبرِّع بالقدر الأوفر من تلك الأطعمة، والذي يُسدي للإخوة القسط الأوفى من الخدمة، يعدُّ نفسه الأكثر حظًّا وحظوةً وسعادةً؛ وقد تبيَّن القدّيس دومينيك، في ذلك، تدخُّلاً من العناية الربّانيّة، فالتمس صفح فرنسيس عن إساءة ظنّه فيه، ووطَّن العزم، مذ ذاك، على أن يمارس، هو وإخوته، الفقر الإنجيليّ، على غرار فرنسيس.

وفي أثناء ذلك المجمع نمى إلى فرنسيس أنّ بعض الإخوة يُفرطون في التقشّف وإماتة الذات، وأنَّ بعضهم يتمنطقون تحت أرديتهم بأحزمةٍ حديديّةٍ ذات مسامير حادّةٍ تخترق أجسادهم كلّما تحرّكوا، وتحول دون صلواتهم باطمئنانٍ؛ وعلم أنَّ مثل تلك الممارسات

قد أَوْدت ببعضهم، فأمرهم بخلع مثل تلك الأحزمة، في الحال، وجمعها في مكانٍ معيَّنٍ، حيث تراكمت وأُتلفت.

وبمناسبة تلك المجامع، كان فرنسيس يُنْفِذ الوُعَّاظ من إخوته إلى شتّى المناطق، وفقًا لكفاءة كلٍّ منهم، بعد أن يباركهم واحدًا واحدًا، في محبَّة الأب ولهفته، ويدعوهم إلى اجتياز العالم من غير أن يتيحوا له تلويثهم، وغير مصطحبين سوى كتب الصلوات الطَّقسيَّة، «كغرباء وحُجّاجٍ»، ويوصيهم: «امضوا دائمًا اثنين اثنين، سيروا بتواضعٍ وحشمةٍ، أكثروا من الصلاة... وحتّى في سفركم تصرَّفوا وكأنَّكم في منسكٍ، واحملوا صومعتكم معكم، فصومعتكم هي جسدكم الذي يواكبكم حيثما ذهبتم، والراهب الذي يقطنها هو نفسكم التي يتعيَّن عليها أن تظلّ أبدًا متَّحدةً مع الله بالفكر والصلاة».

وكان الإخوة يمضون مفعمين اندفاعًا وفرحًا، مثل أسراب القبّرات، حاملين إلى الجهات الأربع الرسالة التي أوكلها إليهم فرنسيس؛ وهم، على حدّ ما قال فيهم، أيضًا، الأسقف الفرنسيّ جاك دي ڤيتري، الذي أسلفنا شهادته في الفرنسيسكانيّين: «لا يحملون، في ترحالهم، كيسًا ولا هميانًا، ولا خبزًا، ولا مالاً في أحزمتهم، ولا أحذيةً في أرجلهم... وليس لهم أديرةٌ، ولا كنائس، ولا حصادٌ ولا كرومٌ، ولا قطعانٌ ولا بيوتٌ، ولا أيّ ملكٍ من أيّ نوعٍ، ولا مكانٌ أو متاعٌ يسندون إليه رؤوسهم. ولا يرتدون فراءً، ولا أقمشةً فاخرةً، بل يقتصرون على جلابيب من الصوف الخشن لها قلنسوات. أمّا المعاطف والياقات، أو أيّ رداءٍ آخر، فغير مألوفٍ لديهم. إذا ما دعاهم أحدٌ على مائدته، أكلوا وشربوا ما يقدّم لهم، وإذا ما رقّ أحدٌ لحالهم، فجاد عليهم بطعام، تحاشوا عن الاحتفاظ للغد بأيّ شيءٍ منه. وهم بكمال سلوكهم وقداسته، لا بمواعظهم فقط، يجتذبون العديد من الناس من كلّ الطبقات إلى ازدراء العالم، وهجر منازلهم وأوطانهم، وممتلكاتهم الجسيمة أحيانًا، في سبيل التزيّي بزيّ الإخوة الأصاغر، المقتصر على رداءٍ خشنٍ، وحبلٍ على الحقوين».

وكانت تلك المجامع تلهب مشاعر فرنسيس، وتلهمه أقوالاً سماويَّة، فيهتف، مثلاً، في سياق إرشاد الإخوة: «حيث الحبّ والحكمة، لا خوفَ، ثمَّة، ولا جهل؛ وحيث الصبر والتواضع، لا قلقَ ولا غضب؛ وحيث الفقر والفرح، لا شهوة ولا ألم؛ وحيث الهدوء والخشوع، لا هموم ولا اضطرابات باطلةً. حيث خوف الله يحرس الباب، لا

قِبَلَ للعدوّ الخبيث على الدخول، وحيث الرأفة والمحبّة، لا مكان لممتلكاتٍ نافلةٍ، ولا لقسوة القلب».

وهو، المنشد السابق، كانت تستيقظ لديه مواهب الإنشاد، فيتغنّى بشتّى الفضائل التي تجسّدها، على أسمى صورةٍ، السيّدة العذراء، على حدّ قوله:

«السلام عليك، أيّتها السيّدة الحكمة؛ الربّ يحيّيكِ، أنت وشقيقتك البساطة المقدَّسة الطاهرة،

«وأنت، أيّها الفقر المقدّس، الربّ يحيّيك، أنت وشقيقك التواضع،

«وأيّتها السيّدة المحبّة، الربّ يحيّيكِ، أنت وأختك الطاعة،

«وأنتنّ، يا جميع الفضائل المقدّسة، الربّ يحيّيكنّ، فأنتنّ منه منبثقاتٌ.

«أيّتها الحكمة المقدَّسة، إنّك تخزين إبليس وجميع حِيَله،

«وأنت، أيّتها البساطة المقدَّسة الطاهرة، إنّك تخزين كلّ ذكاء هذا العالم، ومكر الجسد،

«وأنت، أيّها الفقر المقدّس، إنَّك تقضي على جميع الشهوات والأهواء، والهموم الدنيويَّة،

«وأنت، أيّها التواضع المقدّس، إنّك تزري بكلّ كبرياء، وبكلّ من يغريهم العالم، وبكلّ ما هو دنيويٌّ،

«وأنت، أيّها الحبّ المقدّس، إنّك تقضي على كلّ تجارب الشيطان، وغوايات الجسد، ومخاوفه كلِّها.

«وأنت، أيّتها الطاعة المقدّسة، تقضين على كلّ نزوات اللحم والدم، وتخضعين الجسد للروح، بحيث يستطيع الإنسان خدمة جميع البشر على الأرض، لا بل جميع البهائم، المتوحّشة والآهلة على السواء...

«وسلام عليك، أيّتها المرأة المقدّسة، الملكة الكلّيّة القداسة، مريم والدة الله، أنت الدائمة البتوليّة، إنّ الربّ من سمائه انتقاكِ، وقدّسك بابنه القدّوس المحبوب، والروح القدس المُعزّي، وإنّه لفيك قد كمن، ويكمن، أبدًا، ملءُ كلِّ نعمةٍ وخيرٍ.

«سلامٌ عليك، يا قلعة اللّه الملكيّة! سلامٌ عليك، يا هيكل عهد اللّه! سلامٌ عليك، يا مقرَّ اللّه ورداءه! سلامٌ عليك يا أَمَة اللّه وأُمَّه!

«وسلام عليكنّ جميعًا، أيَّتها الفضائل المقدّسة التي تزدهر بفضل النعمة والروح القدس، في قلب المؤمن، وتُحوِّل من كانوا ملحدين خُدَّامًا للّه غيورين!»

ذلك الكَلَف بالفضائل، وبالسيّدة العذراء، وتلك الحقائق السماويّة السامية، كان فرنسيس يغرس بذارها عميقًا في صدور الإخوة، ويحثّهم على جَوْب العالم، بيتًا بيتًا، لإدخالها إلى سرائر الناس، ومساعدتهم، بالنشيد، على استشفاف السماء، وطَرْق أبوابها.

الفرنسيسكانيُّون يغزون العالم

في المجامع اللاحقة تقرّر إنفاذ مرسلين، من الإخوة، إلى شتّى دول أوروبّا، فضلاً عن المدن الإيطاليَّة؛ ولم يُخْفِ فرنسيس على المُنتدَبين لتلك المهمّة مشاقَّها ومخاطرها، فهم يجهلون ألسنة البلدان التي يقصدونها، كما يجهلون أعرافها وتقاليدها، وليس لهم فيها مرجعٌ أو معارف، فضلاً عن مثولهم إليهم عُزَّلاً مجرَّدين من كلّ مالٍ أو زادٍ، أو حتّى من أيّة توصيةٍ من رئيسٍ دينيٍّ، كان فرنسيس يأبى التماسها لنفسه أو لإخوته، إذ كان يؤثر أن يرسّخ فيهم روح الرسالة والفقر والقداسة، والتوق إلى الشهادة حتّى الاستشهاد، مُعْرِضًا عن تمهيد السبل لهم بالتوصيات من مقاماتٍ عليا.

لم يكن جميع المرسلين وُعَّاظًا، ولكن كان يقتضي من كلٍّ منهم أن يكون، بسلوكه، شاهدًا على الإنجيل، على حدّ ما يتبيّن من رسالته إلى جميع الإخوة: «إن كان الربّ قد أرسلكم إلى العالم أجمع، فلكي تشهدوا لكلمته بالوعظ والعمل...».

فالإخوة المرسَلون، رُحَّلٌ لا قرار لهم، يمجّدون الربّ بأقدامهم وبألسنتهم على السواء، والعالم الرحب هو ديرهم. وقد شدَّد فرنسيس، بنحوٍ خاصٍّ، على «أسلوب السفر في العالم»، وممّا جاء في توصياته: «عندما يسافر إخوتي عبر العالم، أنصحهم، وأنبّههم، وأوصيهم، باسم ربّنا يسوع المسيح، أن يتحاشوا عن النزاعات والمماحكات، وإصدار الأحكام على الآخرين، وأن يكونوا ودودين، مُشعّين سلامًا، وُدَعاء، متواضعين ومهذَّبين ورقيقين مع الجميع... وأيّ بيتٍ دخلوا، فليبادروا إلى القول: «سلامٌ لهذا البيت». وعملاً بالإنجيل، فليكن مُتاحًا لهم أن يأكلوا من كلّ ما يُقدَّم لهم».

ومن توصياته أيضًا: «إخوتي الأعزّاء، كي تقووا على أداء أمر الله، على الوجه الأكمل، احرصوا على أن يقوم في ما بينكم السلام والوحدة، وحبٌّ لا يتزعزع. لا تحسدوا أحدًا، فالحسد هو الذي ولّد الخطيئة الأصليّة! كونوا صبورين في المِحَن، ومتواضعين في النجاح! احتذوا بالمسيح في فقره وطاعته، وعفَّته، فسيّدنا يسوع المسيح ولد فقيرًا، وعاش فقيرًا، ولقَّن الفقر، ومات فقيرًا. ولكي يبرهن لنا كم أحبّ العفَّة، اختار أن يولد من العذراء، وحافظ، هو، على بتوليّته... أمّا الطاعة، فقد مارسها منذ مولده، حتّى موته على الصليب...

«لا ترتجوا شيئًا إلاَّ من الله وحده، فهو الذي يقودنا ويعيننا! احملوا معكم، دائمًا، نظام أخويّتنا، وكتاب الصلوات اليوميّة، ولا تتوانوا عن تلاوة جميع طقوس النهار...

«أبنائي، إنّني، حقًّا، سعيدٌ بإقدامكم على المُضيّ في رسالتكم، ولكن، من جهة أُخرى، ينزف قلبي دمًا عندما يخطر لي أنَّه يتعيّن عليّ الانفصال عنكم. ولكن لا بأس، فأمر الله أولى بالتنفيذ من رغبتنا الخاصّة! ومن ثَمَّ، أرجوكم ألاَّ تغرُب عن بالكم آلام المسيح، عسى أن يشدّ هذا المشهد من أَزْركم، ويشجّعكم على التألّم من أجله!»

ولا بدّ من الاعتراف بأنّ الموجة الأُولى من الرسالات قد فَشِلتْ، في معظمها، فشلاً ذريعًا، من جرَّاء عدم كفاية تنظيمها، وارتجالها أحيانًا. فالستّون مرسلاً، مثلاً، الذين قصدوا ألمانيا، لم يكونوا يجيدون من اللغة الألمانيَّة، سوى لفظة «يا»، أي «نعم». وقد سئلوا، بادئ الأمر، هل كانوا من المسيحيّين الخاضعين للكنيسة، فأجابوا «يا»، ولقوا الترحيب، والملجأ، والطَّعام، ممّا حداهم إلى الإكثار من استخدام تلك اللفظة الساحرة؛ فلمّا سئلوا، فيما بعدُ، هل كانوا من الهراطقة المتمرّدين على الكنيسة، لم يتوانوا عن الجواب «يا»، فقوبلوا بالضرب والسَّجن وشتّى ضروب التعذيب.

وكذلك كان شأن الذين يمَّموا شطر المَجَر، وقد مَثُلوا إليها برفقة أسقف مجريّ كان عائدًا إليها من إيطاليا، ولكنَّه ما إن بلغ موطنه، حتّى تركهم وشأنهم للمصير القاتم الذي كان يتربّص بهم، إذ راح الفلاّحون يُطلقون الكلاب الشرسة في إثرهم، فيما كان الرعيان يطعنونهم بعصيِّهم الحادّة الأطراف. وخُيِّل إلى الإخوة أنَّهم قد يظفرون برضا المَجريّين إن هم تنازلوا لهم عن معاطفهم؛ ولكنّ تلك المبادرة لم تخفّف وطأة عداء المجريّين لهم. فتنازلوا لهم، أيضًا، عن أثوابهم، عملاً بنصيحة الإنجيل من غير أن يُفلحوا في استمالتهم، وأخيرًا تنازلوا لهم عن سراويلهم، واضطرّ بعضهم إلى

مواصلة طريقهم، عراةً، ولكن من غير جدوى. ورُبّما زادت تلك التنازلاتُ الفرنسيسكانيّة المجريّين تعنُّتًا، وطمعًا، حتّى إنّ أحد الإخوة قد أُرغم على التخلّي ستّ كرَّات عن سرواله، ولم يجد حيلةً، في نهاية المطاف، سوى طلي غلالاته الداخليّة بِرَوْث البقر، حتّى يصرف أولئك القساة عن محاولتهم سلبه إيّاها.

كانت رغبة فرنسيس تشدّه إلى سوريّا، إذ كان لا ينفكّ يعتمل فيه التوق إلى الاتّصال بالعالم الإسلاميّ. بيد أنّ فشله السابق، كرَّتين متتاليتين، قد جعله ينتدب لتلك المهمّة الأخ إيليّا ذا الشخصيّة القويّة، والعِلْم الغزير، والذي كانت تتنازعه، حياله، مشاعر متضاربةٌ من حبٍّ شديدٍ، وخشيةٍ كمينةٍ، إذ كان يلمس لديه تطلُّعًا وبيلاً إلى السلطة، والأمجاد الدنيويَّة.

ومن ثَمّ وقع خيار فرنسيس على فرنسا، التي كانت تشدّه إليها مشاعر محبّةٍ عميقة الجذور، وإعجابٍ بما يحيط به الفرنسيُّون الحضور الإلٰهيّ في القربان المقدّس، من إجلالٍ وتكريمٍ. وفيما هو كان في طريقه إلى فرنسا، برفقة الأخ ماسّيو، كان يتغنّى بالفقر المقدّس قائلاً: «إنَّه هو الذي يتيح لنا أن ندوس بأرجلنا المتاع الأرضيّ الزائل، ويزيح العوائق التي تنتصب أمامنا، حائلةً دون بلوغنا إلٰهنا الأبديّ. وهو، أيضًا، يمكّننا من التحدّث مع الملائكة، منذ وجودنا على هذه الأرض، وهو الذي يوحّدنا بالمسيح الناهض من الموت، العائد إلى أبيه، إذ يرتقي بنا، ونحن بعدُ في الحياة الدنيا، إلى السماء». ثمّ خلص إلى القول: «بما أنّنا، في الحقيقة، أيّها الأخ ماسّيو، نحن الآنية السَّمْجة، غير جديرين باحتواء ثروةٍ إلٰهيَّةٍ مثل هذه، فلنمضِ ندعو الرسولين القدّيسَيْن (بطرس وبولس)، اللَّذَيْن كانا لتلك الجوهرة الإنجيليّة عاشقَيْن ممتازَيْن، ملتمسَيْن منهما أن يحصلا لنا على النعمة التي إليها نصبو، عسى أنّ المسيح، معلّم الفقر الأكبر، يتكرّم بشفاعتهما، فيجعلنا أوفياء لتلك الفضيلة الغالية الحبيبة، وتلاميذ وضيعين لها».

ويبدو أنّ هواجس قد أخذت تساوره وتقلقه على الإخوة الذين أرسلهم إلى شتّى بقاع العالم، إذ قد رأى، في الحلم، دجاجةً سوداء صغيرةً، لها قوائم قصيرةٌ مثل قوائم الحمام، لا يغطّيها سوى القليل من الزَّغب. كانت تجهد في مدّ أجنحتها إلى أبعد ما تستطيع من غير أن تُفلح في حضن جميع فراخها التي كان بعضها يجري بعيدًا عن رقابتها. وقد قال فرنسيس، عقب ذلك الحلم: «تلك هي أنا، هذه الدجاجة السوداء الصغيرة. فعليّ أن أكون بسيطًا مثل حمامةٍ، وأن أطير إلى السماء، على أجنحة حبّ

الفضائل. إنّ الربّ، في رحمته، قد وهبني، وسيهبني الكثير من البنين الذين لن يسعني حمايتهم جميعًا. فعلّي أن أُوكل أمر حمايتهم للكنيسة المقدّسة التي ستَقيهم وتقودهم في ظلّ جناحيها».

ومن ثَمّ، فقَبْلَ مثوله إلى فرنسا، عرَّج على فلورنسا حيث كان يقيم الكردينال هوغولينو لالتماس نصحه وأَزْره. وكان الكردينال يتوسّم خيرًا جمًّا للكنيسة في فرنسيس وإخوته الذين يعيشون الإنجيل بصدقٍ، ويرى فيهم عونًا لها منيعًا؛ ولكنَّه عارض بشدَّةٍ مُضيَّ فرنسيس إلى فرنسا، بعد أن أسهب في إقناعه بأنّ كثيرين من عناصر الدوائر البابويّة لا يستسيغون الأسلوب الفرنسيسكانيّ، ويودّون وأْد تلك الحركة؛ فإن كان فرنسيس حريصًا على بقاء أخويّته، فعليه ألاّ يغادر إيطاليا، كي يستطيع مواصلة رعاية إخوته والسَّهَر على بقاء أخويّتهم، والصمود في وجه من يُضمرون لها شرًّا، وإلاَّ عرَّضها لمخاطر مُهلكةٍ؛ وأخيرًا أفلح الكردينال في انتزاع وعدٍ من فرنسيس بالمكوث في إيطاليا، وبالمقابل تعهّد بمؤازرته، ودعمه، وإرشاده، والذّود عن أخويَّته.

لا مراء أنّ فرنسيس الذي كان يتوق إلى الكرازة، والذي لم يكن يطيق أن يكون دون سائر الإخوة تصدّيًا للمخاطرة في بلادٍ غريبةٍ، قد مُنِيَ بضربٍ من خيبة الأمل، ولكنّه استجاب لنُصح الكردينال، فلم يغادر إيطاليا، وكلَّف الأخ باشيفيكو بترؤّس الرسالة في فرنسا. ووفى الكردينال، من جانبه، بوعده، فأنفذ كتبًا إلى أساقفة مختلف البلدان التي أمَّها مرسلون فرنسيسكانيّون، موصيًا بهم، وضامنًا سلامة إيمانهم، ملتمسًا لهم الإذن بالكرازة. ثمّ إنّه في ١١ حزيران ١٢١٩، حصل لهم من البابا على براءةٍ موجَّهةٍ إلى جميع رجال الكنيسة توصي بالوعّاظ الفرنسيسكانيّين، الذين شبَّهتهم تلك الوثيقة برسل المسيح الأوائل الذين مضوا يزرعون كلمة الله، وأكّدت تأييد الكرسيّ الرسوليّ لأسلوب عيشهم.

وهكذا شرعت الرسالات الأوروبيّة تلقى النجاح والازدهار، ولا سيّما في فرنسا والبرتغال، حيث، بعد فترة ارتيابٍ عابرةٍ، عانى في أثنائها الرُّوّاد الفرنسيسكانيّون بعض الصعاب، أخذوا يلاقون ترحيبًا حارًّا. ففي البرتغال، تبنَّتهم الملكة، وأشادت لهم ديرًا أشرفت، هي، على رعايته. أمّا في فرنسا، فسرعان ما غدا الفرنسيسكانيّون يمتلكون، أيضًا، ديرًا هامًّا، بات موئل إشعاعٍ مرموقًا، ولئن هم تخلّوا، بعض الشي، عن الفقر المطلق الذي رسمه لهم فرنسيس نهج حياةٍ.

راهب فرنسيسكانيّ يهمّ للرسالة

وحتّى ألمانيا التي لقيت فيها البعثة الفرنسيسكانيّة الأولى أشدّ تنكيلٍ، فقد غدت للفرنسيسكانيّة أرضًا مضيافًا؛ وكان فرنسيس، قُبَيْل اختتام مجمع العنصرة لعام ١٢١٩، من الإرهاق، بحيث تعذَّر عليه الكلام، فهمس ما يريد قوله في أذن الأخ إيليّا الذي أعلنه على الإخوة، وفحواه أن ليس جميع الألمان سيّئين، بل فيهم مسيحيّون يتميَّزون بالتقوى، وتشاهَد نماذج منهم، في الحجَّاج الذين يمرُّون غالبًا بالأديرة الفرنسيسكانيّة، في طريقهم إلى زيارة قبرَيْ الرسولَيْن العظيمَين في روما؛ وسأل: هل من يتطوَّع لتلك المهمّة، فاختير منهم سبعة عشر مرسلاً أفلحوا في الاضطلاع بالمهمّة على خير وجهٍ. وفي غضون سنواتٍ معدوداتٍ، غدت الأديرة الفرنسيسكانيَّة منثورةً على امتداد الأراضي الألمانيّة، ومنها انتشرت إلى بوهيميا، وبولونيا، ورومانيا، والنروج. ومن الطريف ذكره أنّ الأخ جوردان الذي رأس طليعة الرسالة الثانية إلى ألمانيا، عندما عَرَضَ عليه وُجَهاء مدينة إيرفورت أن يبنوا للإخوة ديرًا، أجاب: «لست أدري ما هو الدير، ولكن إن شئتم ابنوا لنا فقط بيتًا على مقربةٍ من ساقيةٍ، بحيث نستطيع أن نغسل فيها أرجلنا».

أمّا في انكلترا، فقد تأسّست الفرنسيسكانيّة في أعقاب مجمع ١٢٢٣، بفضل عشرةٍ من الرُّوَّاد في لندن وكنتربوري وأكسفورد، وقد أبدوا من الحماس في التعلُّم، مثل ما أبدوا من الحرص على الفقر المقدّس، بحيث كانوا، جميعهم، حتّى من كان منهم برتبة أسقف، يعملون بأيديهم في إشادة أديرتهم. وحتّى الذين كانوا، منهم، يتابعون دروسًا جامعيّةً، كانوا يجتازون، يوميًّا، مسافاتٍ طويلةً على أقدامهم الحافية، وسط ركام الثلوج، أو مياه المستنقعات الآسنة، حيث يغوصون حتّى ركبهم. ورغم بؤسهم، كانوا في غمرةٍ من السعادة، بحيث كانوا يضطرّون إلى قطع صلواتهم، أحيانًا، ريثما تعبر نوبة الضحك التي تنتابهم فجأةً.

وكان انتشار الفرنسيسكانيّة في إنكلترا سريعًا وموفَّقًا، وانضوى تحت لوائها عددٌ من ذوي الأسماء المتألّقة. وكان أوّل المنضمّين إليها شابٌّ يدعى سالومون، كان قد اشتهر، على غرار فرنسيس الشابّ، بكَلَفه بالأناقة والبذخ. إلاّ أنّه، مذْ نذر الفقر الفرنسيسكانيّ، ألقى على كتفه جرابًا، وراح يتسوّل. ويوم قرع باب ذويه، ورأته شقيقته، صفقت الباب في وجهه، بعد أن قذفته بهذا القول: «لعن الله الساعة التي رأيتك فيها في هذا الزيّ». وقد أفعمت تلك الشتيمة قلب الفرنسيسكانيّ الشابّ غبطةً،

إذ أتيح له أن يعامَل على غرار ما عومل فرنسيس من قِبَل ذويه. وقد انتُدِب ذلك الأخ للعناية بالفقراء، فمضى يطوف متسوّلاً لهم الدقيق والتين، وجامعًا لهم الأحطاب، في حين كان، هو، غالبًا ما يرقد في العراء، مرتعدًا من القرّ، ينهش الجوع أحشاءَه.

وهكذا، في غضون عشرين عامًا، غدا للفرنسيسكانيّين اثنان وأربعون ديرًا في إنكلترا، وكان القوم يُطلقون عليهم، بادئ الأمر، اسم «إخوة جمعيّة الرسل» إذ كان سلوكهم يذكّر بتواضع مؤسّسي الكنيسة الأبرار.

فرنسيس يعظ أمام البابا...

وكان الحبر الأعظم، في عام ١٢١٨، قد أبدى، هو وفئةٌ من الكرادلة، رغبةً في الاستماع إلى وعظ فرنسيس، بعد ما نمى إليهم بليغ تأثيره في الجماهير، حيث كان يتفوّق حتّى على أغزر الأساقفة علمًا، وأوسعهم شهرةً؛ ورُبَّما هم بيَّتوا رغبة التأكّد من سلامة عقيدته وتعليمه، ومن أنَّ هزال زاده اللاهوتيّ لا يبتعد به عن سراط الإيمان القويم. وكان الكردينال هوغولينو حريصًا على ألاَّ يترك فرنسيسُ لدى البابا والدوائر الرومانيَّة انطباعًا سلبيًّا؛ ومن ثَمّ، فلكي يضمن عدم وقوعه في الخطإ، ويَقِيه من أيّ مأخذٍ، دبَّج له خطبةً باللاتينيَّة، مُحْكَمة السبك، وعلى قدرٍ وفيرٍ من الفصاحة، وأهاب به أن يستظهرها جيّدًا، بحيث يغدو قادرًا على إلقائها حرفيًّا. وجَهِدَ فرنسيس حتّى أحسن حفظ الخطبة، ولكنَّه لمّا مَثُل أمام جمهوره المهيب، امّحى، فجأةً، من ذهنه، كلُّ ما كان قد حفظه، ولم يبقَ فيه من نصّ الكردينال حرفٌ واحدٌ. وكانت تلك فرصةً نادرةً كي يُثبت أنَّه رجل الله، وآلة الروح القدس؛ فلم يضطرب، ولم يرتبك، بل جثا خاشعًا، مختليًا بذاته وبالله، مستغيثًا بالسماء، استغاثةً حارَّةً، ثمَّ، بعد أن نال بركة الحبر الأعظم، فتح الكتاب المقدّس الموضوع على الهيكل، وتلا فيه العبارة التالية: «طول النهار، غشى الخزي وجهي». ومنها استمدَّ مادَّة عظةٍ مرتجلةٍ على قدرٍ من الجرأة غير معهودٍ، مبيِّنًا أنَّ أولئك الأحبار والأساقفة الماثلين أمامه إنْ هُمْ إلاّ وجه الكنيسة، بيد أنَّه وجهٌ ملطَّخٌ بالكبرياء، وحبِّ التَّرَف، وقبحِ المسلك، وبذلك يضربون للعالم المسيحيّ أسوأ قدوةٍ، في حين كان على ذلك الوجه أن يتألّق بالجمال، جمال وجه المسيح نفسه...

كان يتكلّم بلغةٍ إيطاليّةٍ عاميّةٍ تتدفّق من صدره، حمَمًا بركانيَّةً، ورُبّما لحظ بعضهم

أنَّه، في غمرة اندفاعه، كان، على غرار النبيّ داود، وهو ينشد، يحرّك قدميه على إيقاع رقصٍ يعبّر عن نشوته؛ ومن العجب أنّ ذلك النقد الصريح لم يستفزّ غضبَ مستمعيه، بل أصابهم بالذهول، إذ كان حسْبُهم أن يلقوا نظرةً صادقة في أغوار ضمائرهم، وأُخرى على ملابسهم الباذخة كي يُقرّوا بصحّة كلام فرنسيس الذي، في لباسه الأغبر الرثّ، كان ينطق بلسان الأنبياء، مُبلّغًا عدم رضا الربّ عمَّن بيدهم مقاليد الكنيسة؛ ورُبّما مسح بعضُهم، خِلْسةً، دموع التأثُّر والنَّدامة.

سُلطة فرنسيس

تحقّق، إذن، حلم فرنسيس برُؤية ألوف الإخوة يأتون إليه من كلّ أُفُق وينطلقون يكرزون بالكلمة في شتّى بقاع الأرض؛ بيدَ أنّ حلمه الأكبر، حلم الوفاء للفقر الإنجيليّ المطلق «حلم ١٢٠٩ أوشك أن ينهار في هوّة النجاح»، على حدّ قول جوليان غرين.

حتّئذٍ، كان فرنسيس هو الأب المُبجَّل، والرئيس الذي لا يُنَازَع، والذي تُتبع كلُّ كلمةٍ من كلماته وكأنّها نبوءةٌ لا تخطئ. فالفرنسيسكانيّون الأوائل الذين نشأوا في ريڤو تورتو، وتأثّروا بحضوره وروحانيَّته، كان حَسْبهم نظامه «البسيط والموجز». ولكنّهم ما عتّموا أن غدوا أقلّيَّةً ضئيلةً تائهةً في لجّةٍ ممّن لم يستطع فرنسيس التأثير فيهم، أو ممَّن لم يعرفوه عن كَثَبٍ، ولا سيَّما بعد أن تكاثر عددهم تكاثُرًا مفاجئًا جسيمًا، وبعد أن انتشروا في كلّ صوبٍ. لقد كان حصاد فرنسيس من الوفرة بحيث لم تستوعبه أهراؤه، فتدخّلت أيادٍ غريبةٌ، بذريعة تنظيم الأخويّة، ورُبّما هي فعلت بنيّةٍ صادقةٍ، ولكنّها كانت تفتقر إلى البساطة الفذّة، والزَّخم الروحيّ، والعفويّة الديناميكيّة التي ميّزت إدارة فرنسيس، فانتهت بسلب الحلم الفرنسيسكانيّ الكثير من روعته وأصالته، بحجّة الإدارة الحازمة، ودرء الفوضى.

صحيحٌ أنّ حزم الإدارة لم يكن من صفات فرنسيس البارزة، وأنّ أسلوبه كان أخويًّا عاطفيًّا، يعتمد على التأثير المباشر الحميم، أكثر من اعتماده على السُّلطة، بيد أنَّه لم يكن فوضويًّا ولا مهزوزًا، بل كان صارمًا في توبيخه، إذا ما صادف اعوجاجًا، حازمًا في قراره عندما تقتضي الضرورة الحزم. غير أنَّ نطاق الأخويَّة اتّسع إلى أبعد من تأثيره، وغدا كثيرون من رؤساء الأديرة في المناطق والأقاليم يُختارون من المتنفّذين والمثقَّفين الذين لم يكن يروق لهم الخضوع لرجلٍ زريّ الهندام، ضئيل الزاد من العِلْم، حتّى

إنّ بعضهم رأى فيه زعيمًا خياليًّا واهمًا، خَطِرًا على مستقبل الأخويّة، وراحوا يتطلّعون إلى نظام أكثر عقلانيّةً، وأقلّ صرامةً في التشبّث بالفقر، وأقرب إلى أنظمة الرهبانيّات الأُخرى، يجيز الدراسات العليا، والإقامة في أديرةٍ مريحةٍ، والتمتّع بالامتيازات الكنسيّة؛ ورُبّما دعم هذا الاتّجاه الكاردينال هوغولينو الذي كان يتوخّى أن يجعل من الفرنسيسكانيّة قوّةً متماسكةً منتظمةً في خدمة الكنيسة، ولكنَّه من حيثُ لم يدرِ، عرَّضها، بذلك، إلى التحوّل من أخويّةٍ قائمةٍ على المحبّة والعفويّة والوفاء المُطلَق للإنجيل، إلى جمعيَّةٍ يحكمها نظامٌ جامدٌ عقلانيٌّ أُفرغ من ديناميكيّته الفذّة.

وقد توجَّس فرنسيس، بحَدْسه الثاقب، خشيةً من ذلك التحوّل الذي كان يحسّ به لدى بعض «المثقَّفين» وأسرَّ لفئةٍ من أصدقائه المخلصين بهواجسه في هذا المضمار. وقد تجسَّدت تلك الهواجس في مجمع ١٢١٩. وجديرٌ بالتنويه أنَّ فرنسيس كان، آنذاك، على سَفَرٍ، وانتهى إلى البورتسيونكولا، قُبَيْل افتتاح المؤتمر، فطالعته مفاجأةٌ أطاحت بصوابه، إذ رأى إلى جانب مقرّ الأخويّة، بناءً فخمًا من الحجر والقرميد قد انتصب، فما كان منه إلاَّ أن صعد إلى السطح، وبمساعدة بعض إخوته المخلصين راح يقتلع القرميد والحجر، ويرمي بها أرضًا. وكان عازمًا على المُضيّ في عمله هذا حتّى هدم البناء بأكمله. ولكنَّ فئةً من الإخوة الذين كانوا يتطلّعون إلى سكنٍ أفضل، استعانوا بفرسان أسّيزي ووجهائها، الذين هرعوا فأكّدوا لفرنسيس أنَّ ذلك البناء هو ملكٌ لبلديّة أسّيزي، وقد أنشأته لإيواء الغرباء الذين سيحلّون على مدينتهم ضيوفًا، وأنّ لا شأن للأخويّة الفرنسيسكانيّة به. حينئذٍ فقط توقّف عن الهدم، وهو غير راضٍ عن نهوض ذلك البناء وسط بقعةٍ أرادها موئلاً للفقر المُطلَق.

غير أنّ مفاجأةً أُخرى أشدَّ قسوةً كانت تتربّص به داخل المؤتمر، إذ إنّ «الإخوة المثقَّفين»، اعتبروا النظام الذي كان فرنسيس ماضيًا في إقراره، والذي كان يزداد توغُّلاً في دروب الفقر، نِظامًا غير واقعيٍّ، ويستحيل تنفيذه، وأنَّه من الأفضل للأخويَّة انتهاج مثل نهج الجمعيَّات الرهبانيّة الأُخرى، وكان أولئك المعارضون قد أقنعوا الكردينال هوغولينو بإبلاغ فرنسيس وجهة نظرهم تلك؛ وقد استمع القدّيس إلى الكردينال في صمتٍ؛ ومن غير أن يتلفَّظ بكلمةٍ واحدةٍ، أخذ بيده، ومَثُل بصحبته أمام الإخوة المجتمعين، وأعلن بصوتٍ يخنقه تأثُّرٌ بالغٌ: «إخوتي، إخوتي، إنّ الربّ دعاني إلى انتهاج دروب التواضع والبساطة، ودعا لمرافقتي على هذه الدرب كلّ الراغبين في

اقتفاء أَثَري، وحَذْو حذوي. ومن ثَمّ فلا تحدّثوني، بعدَ اليوم، عن نظام القدّيس بندكتس أو أيّ نظامٍ آخر! فلقد أبلغني الربُّ رغبته في أن أكون بسيطًا وأحمق، كما لم يكن أيّ إنسانٍ آخر حتّى الآن، وهو يبتغي أن يقودنا في سُبُلٍ غير سبل العِلْم. أمّا حكمتكم ومعارفكم، مهما بلغت، فسيخزيكم الربّ بها، وأخشى أن يرسل منفّذي عقابه، فيقتصّ منكم، بحيث تُضطرّون إلى العودة، مرغَمين أو طائعين، إلى دعوتكم، وأنتم خاسئون إذا ما راودتكم رغبةٌ في التنكُّب عنها».

وقد ألقت تلك اللعنات الرعبَ في قلوب المجتمعين، بحيثُ لم يجسر الكردينال نفسه على الدفاع عن وجهة نظره.

ثُمّ استأنف فرنسيس كلامه قائلاً: «أنتم الإخوة الأصاغر، لا تدركون مشيئة الله، ولا تفسحون لي الفرصة كي أدفع العالم بأجمعه إلى طريق الربّ وفقًا لرغبته. عليكم، أوّلاً، أن تردّوا الأساقفة إلى السِّراط القويم، بتواضعكم، وطاعتكم المملوءة احترامًا، فهم عندما سيرون قداسة سيرتكم، وما تبدونه لهم من احترامٍ، سيبادرون فيطلبون منكم أن تكرزوا وتردّوا الشعب إلى الله، وسيوفّرون لكم جمهورًا من المستمعين أكثر ممّا ستؤمّنه لكم الامتيازات التي بها تطالبون، والتي من شأنها أن تنفخ صدوركم كبرياء. أمّا إذا ما تجرَّدتم من كلّ جشعٍ، وإذا ما أقنعتم الشعب بواجب احترام حقوق كنائسه، فسيطلب منكم الأساقفة الاستماع إلى اعتراف رعاياهم... إنّ الامتياز الوحيد الذي ألتمسه من الربّ هو ألاّ أحصل على أيّ امتيازٍ من البشر، سوى امتياز أن أكون خاضعًا للجميع، وأن أردّ إلى الله العالمَ أجمع، وفقًا لنظامنا المقدَّس، وبالقدوة أكثر ممّا بالكلام».

في هذه العبارة الأخيرة كان يكمن سرّ الفرنسيسكانيّة كما أدركها فرنسيس: الوعظ بالمَثَل، وبقدوة السلوك، وبكلمة الله المعاشة بصدق، والمقتَسمة بسخاءٍ مع الجميع، ومن غير حاجةٍ إلى توصيةٍ من أحدٍ، خلافًا لمعظم الفئات الرهبانيَّة والكنسيَّة الأُخرى.

أمّا على الذين حمّلوه تَبِعة المصير القاتم الذي لقيه المرسلون الفرنسيسكانيّون الأوائل في ألمانيا والمجر، من جرّاء ارتجال تلك البعثات، وعدم تزويد فرنسيس إخوانه المرسلين بأيّة توصيةٍ من جهةٍ كنسيّةٍ عليا، فقد ردّ فرنسيس بالقول: «إنّ المسيح عندما ضُرِب وأُهين، لم يسعَ للحصول على توصيةٍ من أحدٍ، وإنّه لمن دواعي غبطة أيّ مُحبٍّ للمسيح أن يلقى مثل ما لقي هو من اضطهادٍ».

وهكذا، ولئن أبرز مجمع ١٢١٩، شرخًا آخذًا في الاتّساع بين فرنسيس وفئةٍ من الإخوة الجدُد، إلاَّ أنَّه لم يتعدَّ ذلك إلى أيّ تعديلٍ جوهريٍّ في بنية الأخويَّة. وكانت أهمّ القرارات التي أفضى إليها ذلك المجمع، توسيع الرسالات في أوروبّا، وإنفاذ رسالات أُخرى إلى بلدانٍ غير مسيحيّةٍ، مثل المغرب العربيّ، ولا سيَّما مراكش وتونس، والمشرق. وقد تطوَّع فرنسيس نفسه لقيادة بعثة مرسلين إلى مصر وسوريا؛ فعيّن نائبين عنه أوكل إلى أحدهما مهمّة زيارة الأخويّات المنتشرة في إيطاليا، وإلى آخر مهمّة استقبال الوافدين الجُدد إلى البورتسيونكولا؛ ثُمَّ يمَّم شطر مرفإ أنكونا يواكبه جمعٌ غفيرٌ من الإخوة.

فرنسيس في المشرق

كانت الباخرة المتّجهة إلى مصر تُقلّ جيشًا من الصليبيّين، ولا تتّسع لأكثر من ثلاثة عشر مسافرًا إضافيًّا. فخاطب فرنسيس الإخوة قائلاً: «بما أنّني أحبّكم جميعًا بلا تمييزٍ، فلنسأل الربّ أن يظهر لنا إرادته في من يودّ أن يكونوا لنا رفاق سفرٍ»، واستدعى ولدًا كان يعبث على الشاطئ، وطلب منه أن يعيّن بإصبعه، عشوائيًّا، اثني عشر أخًا، وهؤلاء أبحروا مع فرنسيس.

أقلعت الباخرة في ٢٤ حزيران ١٢١٩، وكانت محطّتها الأولى في جزيرة قبرص؛ وهناك استسلم أحد الإخوة، هو الأخ بربارو، لسورة غضبٍ، فشتم واحدًا من إخوته؛ ولكن سرعان ما ظهرت على غضبه الروحُ الفرنسيسكانيّة، فبادر إلى معاقبة نفسه، والتقط رَوْث حمارٍ ملأ به فمه، بعد أن قال: «هذه هي الحلوى التي تليق بلسانٍ يقذف سُمّه الخبيث!».

ثمّ أرست الباخرة في دمياط التي كان يحاصرها الصليبيُّون منذ نحو سنةٍ؛ وتبيّن فرنسيس، بحزنٍ بالغٍ، أنَّ دافع الكثيرين من المحاربين كان روح المغامرة، والتلهّف إلى السلب والمُتعة، ومن ثَمّ أدرك سبب فشل مثل تلك الحملات، فضلاً عن مقته للقتل والحرب. ولمّا علم أنّ الصليبيّين قد عزموا على الهجوم في صباح ٢٩ آب، لم يتردّد في إنذارهم بأنَّهم سيُمنون، إذا ما هاجموا، بهزيمةٍ نكراء. ولكنّ قادة الجيش سخروا منه، ومضوا في ما حزموا عليه أمرهم. وحلَّت الكارثة التي أودت بحياة تسعة آلاف محاربٍ، بعضهم من الفرسان الإسبان البواسل، ممّا استقطر من مآقي فرنسيس دموعًا غزيرةً.

كان القدّيس قد وافى المشرق رغبةً منه في حمل بشرى الخلاص إلى المسلمين، ولكن سرعان ما اتَّضح له أنّ أولئك الذين رفعوا الصليب شعارًا، واتَّخذوا من اسم المسيح هويّةً، كانوا أَوْلى بالتبشير، فهم، في معيار الإنجيل، أبعد عن المسيح من المسلمين. فراح صوته العذب الذي كان قد سحر الإيطاليّين، يدوّي بين صفوف المحاربين باعثًا تيّارًا من الحبّ دافقًا، مسّ بعض أشدّ القلوب قسوةً، فهجر كثيرون مهنة الحرب والسلاح، واعتنقوا الفقر الفرنسيسكانيّ، وتأثّروا خطى فرنسيس على دروب التوبة والفقر الإنجيليّ.

وعلى نفس الدرب سار أيضًا عددٌ كبيرٌ من رجال الدين، وبعضهم تخلّوا في سبيل ذلك، عن مناصب كنسيّةٍ رفيعةٍ، كي يصبحوا إخوةً أصاغر، ويرتدوا الثوب الأغبر وحزام الحبل الغليظ. وقد عبّر الأسقف الفرنسيّ جاك دي ڤيتري، الذي كان في مصر آنذاك، عن شكواه من انضمام العديد من كهنته إلى أخويّة فرنسيس، بحيث تعيَّن عليه بذل جهودٍ مُضنيةٍ ليحول دون التحاق أقرب معاونيه، هم أيضًا، بفرنسيس، وقد قال في الأخويّة الفرنسيسكانيّة: «إنَّها ماضيةٌ في الانتشار، في العالم أجمع، وذلك لأنّ نهجها يتمثَّل تمثُّلاً دقيقًا بنهج الجماعات المسيحيّة الأولى، بل بنهج الرسل أنفسهم».

لقاءٌ مع أمير المؤمنين

واستغلَّ فرنسيس هدنةً عُقِدت بين فريديريك الثاني والملك الكامل، فعزم على المثول إلى ديار المسلمين لمحاورتهم عوضًا من مقاتلتهم، رغم معارضة القادة العسكريّين والأساقفة؛ فاصطحب أحد الإخوة ومضى مُنشدًا مع صاحب المزامير: «إنّني وإن سلكتُ وادي ظلال الموت، لا أخاف سوءًا، لأنّك معي»؛ وما عساه يخشى امرؤٌ وهب حياته كلّها بلا رجوعٍ، وما كان له قطُّ عدوٌّ، بل كان يرى في كلّ إنسانٍ صديقًا مُحْتَمَلاً؟

وما لبث أن اعترضه ورفيقَه المسلمون، وأوسعوهما ضربًا، فيما كان فرنسيس يهتف بأعلى صوته: «سلطان! سلطان!». وظنّ الجنود أنّهم حيال رُسُلٍ منتَدبين، فأوثقوهما، ومضوا بهما إلى المعسكر، حيث أوضح فرنسيس رغبته في محاورة السلطان بشأن الإنجيل؛ وكان الملك الكامل من سعة الفكر، والتسامح، والكَلَف بالنقاش بحيثُ رحّب بالراهبَيْن. ولكن يقال إنّه، في محاولةٍ لإحراجهما، بسط أمامه سجّادةً نقشت عليها رسوم صلبانٍ عديدةٍ، قائلاً في سريرة نفسه: «إن هما داساها اتّهمتهما بإهانة إلٰههما،

القدّيس فرنسيس في حضرة السلطان

وإذا ما رفضا دوسها أخذت عليهما نفورهما من الدنوّ منّي». ولكنّ فرنسيس مشى فوق السجادة بلا تردّدٍ، وعندما لفت الملك انتباهه إلى أنّه يدوس بقدمَيه صليب المسيحيّين، أجابه: «يحسن بك أن تعلم أنّه كان، ثمَّة، على الجلجلة، فضلاً عن صليب يسوع، صليبا لصَّين. إنّنا نعبد الأوّل، وندع لكم الآخرين، ولن يساورنا القلق من السير فوقهما، إذا ما خطر لكم نقشهما على سجّادتكم!».

وسرعان ما أخذت السلطانَ بالراهب الفقير مشاعرُ المحبَّة والإعجاب، وانعقدت بينهما وشائج صداقةٍ حميمةٍ. ودعا السلطان فرنسيس إلى البقاء بجواره، فأجابه فرنسيس أنّه قد يفعل ذلك، إن هو رضي اعتناق دين المسيح. ولكنّ الملك الكامل لم يكن مستعدًّا للتخلّي لا عن دينه ولا عن زعامة شعبه، ولا استبدال المال والمتعة والسلطان بفقر فرنسيس، فأَغدق الهدايا على ضيفه الذي رفضها كلّها رغم حثّ السلطان له على أخذها وإنفاقها على الفقراء. ويقال إنَّه اقتصر من كلّ تلك الهدايا على بوقٍ بات يستعين به على دعوة الناس إلى سماع عظاته.

ويُقال إنّ الملك الكامل قد دعا فرنسيس للصلاة معه في أحد المساجد فلم يتردّد القدّيس في الاستجابة لتلك الدعوة، وقال: «إنّني سأدعو، ثَمَّةَ، ربّي، فاللّه في كلّ مكانٍ». ولا ريب أنّ ذلك اللقاء قد قوَّم لدى كلٍّ من الرجلَيْن فكرةً مُسبَّقةً خاطئةً عن دين الآخر، فاتّضح لفرنسيس أنّه يمكن، أيضًا، عبادة اللّه الواحد خارج المسيحيّة، كما تبيّن للملك الكامل أنّ المسيحيّين الحقيقيّين هم دعاة حبٍّ وسلامٍ. وبالإجمال، كانت تلك، حقًّا، خطوةً «مسكونيّةً» قبل الأوان. وقد شقّ فراق الرجلين على كليهما، وأنفذ الملك مُشيّعين واكبوا فرنسيس ورفيقه حتّى مخيّم المسيحيّين.

وفي الخامس من تشرين الثاني **١٢١٩**، سقطت دمياط، واحتلّ الصليبيّون المدينة؛ ولكنّ مناظر الجثث المجندلة، وشراسة المنتصرين، وتكالبهم على المغانم والسلب قد أدمت فؤاد فرنسيس أكثر ممّا كانت قد أدمته هزيمتهم، فلم يُطق المكوث في مصر، ومضى إلى عكّا.

وكان على متن الباخرة التي أقلّته إلى فلسطين ملكُ القدس جان دي بريين الذي فرّ، هو أيضًا، من دمياط، وقد أفعمت نفسَه المرارةُ والاشمئزاز من الوحشيّة التي وسمت سلوك الصليبيّين في أعقاب استيلائهم على دمياط. وهكذا قُيّض للملك أن يشهد قدّيسًا خلّف في نفسه أبلغ أثرٍ وأعمقه؛ وقد أسهم جوّ البحر، وصمتُه الرهيب، الداعي

للتأمّل، في ترسيخ بذور تحوُّلٍ جذريٍّ أحدثه ذلك اللقاء، وقاد جان دي بريين بتُؤَدةٍ وثباتٍ، إلى الصدوف عن العالم، والزُّهد في الجاه والسلطان، وانتهاج الدرب الفرنسيسكانيّ. ولكنّ فرنسيس كان قد غدا في جوار ربّه عندما نضجت تلك الثمرة النادرة في بستانه؛ وقد لُبِّيت، فيما بعد، رغبة الملك الأخ، لدى وفاته عام ١٢٣٧، فدُفِن في كنيسة القدّيس فرنسيس في أسّيزي، إلى جوار ذلك الذي قلب حياته، ودفع مصيره في منحًى لم يتوقّعه يومًا.

وفي عكّا التقى فرنسيس الأخ إيليّا ممثّل الفرنسيسكانيّين في الديار المقدّسة، ومنه ألمّ بنبأ استشهاد إخوته الخمسة الذين توجّهوا إلى المغرب يوم هو غادر إيطاليا إلى مصر. كما أُحيط علمًا بأنّ الأقلّيَّة المسيحيّة في تونس قد رجت الإخوة الفرنسيسكانيّين الذين وافوها أن يغادروها في الحال عائدين من حيث أتوا، لكيلا يسبّبوا لهم المتاعب مع الأكثريّة المسلمة؛ بيد أنَّ واحدًا منهم قد بقي في البلاد خِلْسةً، فما لبث أن أُلقي عليه القبض، وحُكم عليه بالإعدام، وقد استشهد، راكعًا ضامًّا بين يديه نظام الأخويّة الفرنسيسكانيّة حتّى ساعة استشهاده.

وكانت غنيمة فرنسيس من تلك الرحلة أن أتاحت له زيارة الديار المقدّسة، والحجّ الخاشع، وبحبٍّ مضطرمٍ، إلى الأماكن التي قدّسها حبيبه ومعلّمه الأوحد، يسوع بمروره ومكوثه فيها. وقد يكون نَعِم بقضاء عيد ميلاد ١٢١٩ في بيت لحم، وعيد البشارة، لعام ١٢٢٠، في الناصرة، وأسبوع الآلام في بستان الزيتون والجلجلة، وعيد الفصح في القدس، وجمع من ذلك حصادًا وفيرًا من نِعَمٍ، وعزاءٍ وفرحٍ.

ولم يكن ليجول بخَلَده، وهو ينعم بزيارة موطن معلّمه الإلٰهيّ، أنَّ نائبَيْه في إيطاليا، وبعضَ إخوته قد استغلّوا غيابه، لينتهجوا دربًا بعيدًا عن دربه، ويُقرّوا أنظمةً لا تتوافق ونظامه، حتّى كادوا، بسلوكهم البعيد عن روح الفرنسيسكانيّة، يُودون بها. ورُبَّما شجّعهم على المضيّ في ذلك المنحى شائعاتٌ راجت، مؤكّدًا بعضُها غَرَق فرنسيس في البحر، وبعضها الآخر استشهاده على أيدي المسلمين، أو اختطافه من قِبَلهم، ممَّا حدا بأحد الإخوة المخلصين له بالتوجُّه، خِلسةً، إلى فلسطين، متوسِّلاً إليه أن يعود سريعًا، رأفةً بأخويّته، وبإخوانه الأوفياء، الذين فجعتهم رؤية كلّ ما بناه عرضةً للهدم والضياع.

الجزء الرابع

معركة القانون

عودةٌ إلى الوطن

استصحب فرنسيس من الديار المقدّسة الإخوة سيزير دي سباير، الألمانيّ المحتد، وهو قانونيٌّ ضليعٌ كان قد انضمّ إلى الأخويّة في سوريّة، وبييترو دي كاتيانا، رفيق أيّام فرنسيس الأولى، والأخ إيليّا، الذي برهن عن مواهب إداريَّةٍ فذَّةٍ أثناء تولّيه رئاسة الأخويّة الفرنسيسكانيّة في سوريّة. كان يحدوه الأمل في أن يؤازره أولئك الثلاثة على إعادة التماسك والصفاء إلى الأسرة الفرنسيسكانيّة المزعزعة المضطربة، ولم يكن ليخطر له ببالٍ أنَّ أحدهم، الأخ إيليّا، سيغدو خصم مبادئه الأعنف، وأنّه سيلعب الدور الحاسم في شقّ الأخويّة، والابتعاد بها عن نهج مُؤسِّسها.

في عرض البحر وهدوئه، في ذلك المدى الفسيح حيث لا يستبان للبحر شاطئٌ، ولا للسماء حدودٌ، كان يجيل، طويلاً، في خلده، أمر مصير أخويّته، مستعجلاً الوصول، للوقوف على ما آل إليه في أثناء غيابه؛ وربَّما تردّدت في صدره الكلمات التي كان المصلوب قد أسمعه إيّاها في فجر رسالته: «امضِ، يا فرنسيس، وأصلح بيتي الذي يتداعى، كما ترى». وقد غدا لتلك الكلمات صدًى موجعٌ، فالبيت المتداعي إنَّما هو البيت الذي أشاده بنفسه، وفقًا لمشيئة الربّ؛ وعيناه اللَّتان قرَّحتهما شمس المشرق وغباره، مهما حاولتا اختراق الأفق، ما كانتا تريان سوى الشَّرْخ الرهيب الذي امتدّ في جدرانه، منذرًا بانهياره، وكأنَّه بيت واهي الأسس، رديء البنيان.

بيد أنّ تلك الهواجس كانت عاجزةً عن لجم خيال فرنسيس، وإهماد الجذوة المتّقدة في حناياه؛ فراح يجهد في التغلّب على قلقه بالسعي إلى بلورة مشروع «الرهبانيّة الثالثة»، التي كانت فكرتها تختمر، منذ سنواتٍ، في ذهنه، وكان لا بدّ من إيجاد صيغةٍ لها كفيلةٍ بتلبية تطلُّعات عددٍ متعاظمٍ باطّرادٍ من العلمانيّين المتزوّجين الذين استهوتهم مُثُله، وراق لهم نهجُه الإنجيليّ، والتمسوا اقتفاء مثله، وهم في مواقعهم، وعلى نحوٍ يحظى بتأييد السلطات الكنسيّة.

الواقع المرير

مذ وطئت قدما فرنسيس شاطئ البندقيّة، وافته الأنباء أكثر إقلاقًا وتخييبًا للأمل ممّا توقّع. فغيابه الطويل وما ولَّده من إشاعاتٍ عن غرقه في البحر، واستشهاده واختطافه، قد شجَّع بعض من كانت تعتمل لديهم الرغبة في الانعتاق من شروط الفقر الصارمة التي كان يتشبّث بها بلا هوادةٍ، وفي انتهاج دروبٍ أكثر شبهًا بتلك التي انتهجتها الرهبانيَّات الأُخرى، رغم اللعنات التي صبَّها فرنسيس، في مجمع ١٢١٩، على النازعين إلى مثل ذلك المنحى، وفي رفع الحظر عن التعليم، وعن الإقامة المستقرّة في أديرةٍ مريحةٍ، وفي الحصول على امتيازاتٍ كنسيَّةٍ شتّى. وقد اتّضح أنّ النائبَيْن اللّذين دفع إليهما فرنسيس مقاليد الأمور، في غيابه، كانا يشجّعان تلك النزعات ويؤيّدانها.

وفضلاً عن ذلك، اهتبل بعض ضعاف النفوس غياب الزعيم، فتشرَّدوا وتسكّعوا، وارتدى بعضهم أزياءً غريبةً، وأطلقوا لحًى مفرطةً في الطول، وتباهوا بالقذارة؛ وهجر أحدهم الأخويّة، وأنشأ مركزًا مختلطًا للبرص يتعايش فيه الرجال والنساء معًا، فعمَّ التململ من تلك الممارسات الشاذّة.

والتأم بعض رؤساء الأديرة، مع نائبَيْ فرنسيس، في مجمع مُصغَّر، بغية إصلاح الوضع وإحكام ضبطه، إلاَّ أنَّهم كانوا يفتقرون إلى الزخم الروحيّ، ونَفَحاتِ الروح، والمحبَّة، فلم يخرجوا بنتيجة سوى فرض تشريعاتٍ تتعلّق بالصوم والقطاعة الإلزاميَّيْن، في أيّامٍ محدّدةٍ، والتماس بعض الامتيازات للإخوة، ولأخوات القدّيسة كيارا.

وتبيَّن أنَّ أحد نائبَيْ فرنسيس، غريغوريوس النابوليّ، كان قد تمادى في إساءة استخدام سلطانه، فتسلَّط، وقسا وعتا، وأنزل بكلّ من اعترض على تدابيره المخالفة

لروح الفرنسيسكانيّة، عقاباتٍ ظالمةً تعسُّفيَّةً، فطرد بعضهم، وجلد آخرين، أو عاملهم وكأنَّهم شذّاذ آفاقٍ. وبات الإخوة الأوفياء لفرنسيس ورسالته يتامى، مشرّدين، لا يكفّون ينتحبون لغياب راعيهم الحبيب.

تلك الأنباء هدّت فرنسيس، أكثر ممّا هدّه المرض؛ فبالإضافة إلى الرَّمد الشَّديد الذي نال من عينيه نيلاً ذريعًا، كان قد عاد مُصابًا في كبده ومعدته إصاباتٍ بليغةً، ممّا دفعه إلى نشدان فترة نقاهةٍ وخشوعٍ، فافترق عن رفاق سفره، وفزع إلى جزيرةٍ مقفرةٍ، حيث أخلد إلى الصلاة والتأمّل الهادئ.

نورٌ متألّقٌ في الظلام

إلاّ أنّ همّه الأوّل، وسط ذلك الطوفان المنذر، كان أن تبقى سفينة الأخت كيارا وأخواتها في مأمن، ونموذجًا دائمًا للوفاء الثابت للمُثُل الإنجيليّة؛ من المحقَّق أنَّه لم يرواده، قطّ، شكٌّ في إخلاص القدّيسة كيارا، ولكنَّه أشفق عليها من محاولات المجدّدين، ومن مراودات بعض الرؤساء الكنسيّين، العاجزين عن إدراك سموّ الأهداف التي نذرت لها سيّدات الفقر أنفسهنَّ. ومن ثمّ، كانت مبادرته الأُولى، في أوج محنته، هذه الرسالة التي أنفذها إلى ابنته الروحيَّة:

«أنا الأخ الأصغر فرنسيس، أودّ أن أحيا حياة سيّدنا الأسمى، يسوع المسيح، وفقره، وكذلك حياة أُمّه القدّوسة وفقرها، وأرغب في مواصلة هذا النهج حتّى مماتي؛ وإنَّني أرجوك وأناشدك أن تحيَيْ، أيضًا، تلك الحياة، وذلك الفقر، وأحذّرك من الابتعاد عنهما أبدًا، بأيّ شكلٍ، وبناءً على إرشاد أيٍّ كان أو نصحه».

وفي الواقع كان البابا أونوريوس الثالث لا يني يضغط على كيارا كي تقبل أخويَّتُهما حقَّ التملُّك؛ ولكنَّها كانت لا تتزعزع عن إخلاصها لنذر الفقر، ولا تحيد عن رفضها لأيّ مساومةٍ بشأنه، ثابتةً في تشبُّثها بالوعد الذي قطعته لأبيها الروحيّ فرنسيس، حتّى اضطُرّ الكرسيُّ الرسوليُّ إلى إلغاء البراءات التي كان قد أصدرها بالسماح لسيّدات الفقر الكلاريسيّات بالتملُّك.

ومعروفٌ، في هذا السياق، موقف كيارا العنيد الشجاع من خليفة أونوريوس الذي حاول، هو أيضًا، إذ هي كانت في أيّامها الأخيرة، إعفاء أخويّتها من نذر الفقر، فردّت قائلةً: «أرجوك، أبتاه، أن تحلّني من خطاياي، ولكن دعني أقتفي آثار يسوع المسيح»!

وعندما استُخرج جثمانها من لحده عام ١٨٩٣، بعد ستّة قرون من وفاتها، لوضعه في مثوًى بلّوريٍّ، على هيكل الكنيسة المكرّسة لها، وجدت في جيب ثوبها، رسالة فرنسيس التي أوردنا نصَّها.

انتفاضةٌ في مدينة بولونيا

عقد فرنسيس العزم، بعد فسحةٍ من العزلة والتأمُّل والصلاة، على المثول بين يدي الحبر الأعظم لالتماس أَزره ونصحه، قبل مواجهة الإخوة في البورتسيونكولا، ولكنَّه كان خائر القوى، بحيث عجز عن السير، فامتطى حمارًا كان يجرّه الأخ ليوناردو، وهو سليل أسرةٍ نبيلةٍ. وفي بعض الطريق وسوس لليوناردو الشيطانُ، فانتابته انتفاضةُ تمرُّدٍ، وراح يخاطب نفسه، في السرّ، قائلاً: «كم من أمورٍ غريبةٍ في هذه الدنيا! فمن كان يستطيع التصديق، مَثَلاً، أنّ رجلاً مثلي، لم يكن ذووه ليرضوا حتّى بمصافحة آل بيرناردوني، سيضطرُّ، يومًا، إلى السير على قدمَيْه، فيما ابن بيرناردوني يتبختر هكذا؟!».

وإذ كان يُجيل تلك الخاطرة في خلده، انزلق فرنسيس فجأةً عن الدابَّة، قائلاً: «إنَّك محقٌّ، يا أخي، فمن المؤكّد أنّ من حقّك امتطاء الحمار، فأنت نبيلٌ، وعليَّ أنا أن أسير على قدميَّ». وذُهل ليورناردو لانفضاح سرّه، وكوامن نواياه، فهوى جاثيًا أمام القدّيس ملتمسًا صفحه.

ولدى دنوّ فرنسيس من مدينة بولونيا، رغب في زيارة المقرّ الوضيع الذي كان قد افتتحه فيها، لنحو عشر سنواتٍ خلت، الأخ برناردو كوانتاڤالي. إلاّ أنَّه صُدِم بمفاجأةٍ أطاحت برشده، إذ ألفى المقرّ غدا صرحًا مهيبًا يعيش فيه الإخوة في رغدٍ وبحبوحةٍ، منصرفين إلى تحصيل العلم في مكتبته المكتنزة بالأسفار القيّمة، بعد أن حوَّل الرئيس الإقليميّ، جيوڤاني دي ستاكيا، ذلك المقرّ، إلى مركزٍ للدراسات. حيال تلك الإهانة الموجَّهة للفقر والبساطة المقدَّسين، شبَّت في صدر فرنسيس نيران الغضب المقدّس، فاستدعى الأخ جيوڤاني، وصاح فيه قائلاً: «أَوَتريد أن تُدمّر أخويَّتي؟ أَوَنسيت أنَّني أريد أن يُعنى الإخوة بالصلاة، أكثر من اهتمامهم بالعلم؟» ثمَّ أنزل عليه لعنة الله، وطرد جميع الإخوة، قسرًا، من ذلك الدير اللَّعين، وأمرهم أن يتدبَّروا أمر إقامتهم في أماكن أكثر تواضعًا وتوافقًا مع رسالة الإخوة الأصاغر، وحيثما تيسَّر لهم ذلك؛ ولم

يشفق حتّى على أخيه الأثير على قلبه، ليون، الذي كان راقدًا في ذلك الدير، عليلاً، طريح الفراش، بل أمره هو أيضًا، بالبحث عن مأوًى آخر؛ ثمّ مضى حزينًا.

فرنسيس والعلم

وهنا يتعيّن بيان موقف فرنسيس من العلم، فقد أُشيع أنَّه كان له عدوًّا، ورُبَّما أوحت بعض تصرُّفاته وأقواله بمثل ذلك الظنّ. غير أنّ ذلك الحكم لا يطابق الواقع تمامًا، ويحتاج إلى المزيد من الإيضاح والتمييز.

فلفرنسيس أقوالٌ كثيرةٌ في تقدير العلم، وقد جاء في بعض إرشاداته: «علينا أن نُجِلّ، ونُقدّر أسمى تقديرٍ، اللاهوتيّين، وكلّ الذين يسدون لنا خدمة جلّى بتفسيرهم لنا كلام الله، وبذلك يهبوننا الروح والحياة».

وقد عُهِد عنه حرصه على التقاط أيَّة ورقةٍ مطبوعةٍ مرميّةٍ على الأرض، خشية أن يكون اسم الربّ مكتوبًا عليها، أو أن تتضمّن أحرفًا يمكن أن يتألّف منها اسمه القدّوس. وكان يحثّ إخوته على حذو حذوه في هذا المجال.

وكان يُجلّ المتعلّمين من إخوته إن هم كانوا يقرنون العلم بالفضيلة والتواضع، فقد أَلِف أن يدعو الأخ القدّيس أنطونيوس البادواني «أسقفه» والأخ پييترو دي كاتانيا «سيّده»، ولم يتردّد في إيكال أخطر المهامّ في الأخويّة إلى مثل هؤلاء الإخوة.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الحقبة التي عاش فيها فرنسيس قد شهدت انطلاقةً عِلْميّةً جبَّارةً، فتأسَّست في أوروبّا سبع عشرة جامعةً جديدةً، منها ثمانٍ في إيطاليا وحدها، في حين اتَّسعت الجامعات الثلاث القديمة العريقة في كلٍّ من باريس وبولونيا وأُكسفورد اتّساعًا عظيمًا.

وفي تلك الحقبة عينها، نشأت في الكنيسة نزعةٌ صريحةٌ وبيّنةٌ إلى تشجيع علم اللاهوت، وإنشاء جيلٍ جديدٍ من الإكليروس الراسخ الثقافة، المتمكّن من الوعظ وعظًا سليمًا، ومن مناهضة البِدَع والهرطقات التي أَخذت تتكاثر وتنتشر. فالرهبان، في تلك الأيّام، كانوا زاهدين في الوعظ، أمّا الأساقفة وكهنتهم فكانوا يتقاعسون عنه، إذ كان الأساقفة مشغولين عنه بإدارة مصالحهم المادّيّة الضخمة، في حين كان معظم كهنتهم على جهلٍ مطبقٍ؛ وهؤلاء وأولئك، فضلاً عن ذلك، كانوا يعيشون في تَرَفٍ وبذخٍ،

منغمسين في مُتَع الجسد، مزرين بوصايا الإنجيل، بحيث فقدوا كلّ مصداقيّةٍ، ومال عنهم الشعب، رافضًا الاستماع إليهم. وقد تمادى بعض الأساقفة في الاستهتار بكلام الله، بحيث «أجَّروا» الوعظ لفئة من العلمانيّين الذين أصابوا شيئًا من العلم، على أن يقاسموهم حصيلة المال الذي يجبونه في الكنائس.

وقد انبرى الدومينيكيّون لمواجهة ذلك الوضع المريع، وجايلت نشأتهم نشأة الحركة الفرنسيسكانيّة، وقد أبلوا، في ذلك المجال البلاء الحسن، إذ أكبّوا على التعمّق في علم اللاهوت بدَأَبٍ نَهِمٍ منقطع النظير، فبرز منهم، في غضون نصف قرنٍ، نحو سبع مئة دكتورٍ في اللاهوت، في حين لم يكن العالَم المسيحيّ كلّه يَعدُّ أكثر من عشرين دكتورًا في اللاهوت، في ذلك الحين. وقد أوكل الأساقفة إلى ذلك الجيل الجديد من الإكليروس المثقَّف مهمّة الوعظ، فنهضوا بها نهوضًا رائعًا، ولا سيّما أنَّهم كانوا يقرنون العلم بنصاعة السلوك، والوفاء لروح الإنجيل.

وكان فرنسيس يحبّ الدومينيكيّين، ويُجلّهم، ويعترف بفضل الخدمات الجليلة التي يؤدّونها للكنيسة.

إلاّ أنَّه كان وطيد الإيمان بأنّ له ولأخويّته، في الكنيسة، دورًا آخر مختلفًا، أكثر خفاءً واتّضاعًا، وإن هو لم يكن أقلّ شأنًا، دور العودة إلى الفقر والبساطة الإنجيليّين، ودعوة العالم إليهما، كي، بهما، يتمّ له الخلاص، وذلك بالمَثَل وقدوة السلوك، أكثر ممّا بالكلام، وبالصلاة المتواصلة، والتمثُّلِ بالمسيح المصلوب، والعناية بالبرص والمنبوذين، والعمل اليدويّ الوضيع، وبالمكوث في الصفوف الخلفيّة، والدركات الاجتماعيّة السفلى، والالتزام الوفيّ بوصايا الإنجيل.

مثل ذلك الدَّور السامي في اتّضاعه وامّحائه لم يكن يقتضي علمًا غزيرًا، وتبحُّرًا في الدراسة، ولذلك لم يرضَهما فرنسيس له ولإخوته، وكان رفضه لهما عنيدًا عنيفًا.

وهو، من ثمَّ، كان يتمنّى أن يتخلّى المتعلّمون من إخوته عن علمهم، مثلما يتخلّى النبلاء عن لقبهم، والأغنياء عن ثروتهم، ويجهدوا في اقتناء «البساطة المقدّسة، ابنة النعمة، وأخت الحكمة، وأمّ العدل»، فلا شيء لديه كان أسمى من تلك الفضيلة «التي تكتفي بالله، وتزدري كلّ ما سواه، وبذلك تسمو فوق كلّ علمٍ».

أمّا غير المتعلّمين من إخوته فكان يحثُّهم على الرضى بما هم عليه، مؤكّدًا لهم أنَّ معرفة أسرار الله، إنّما توهب للبسطاء بالروح، وتستغلق على المتوغّلين في العلم؛ فمهما

أحد المبتدئين

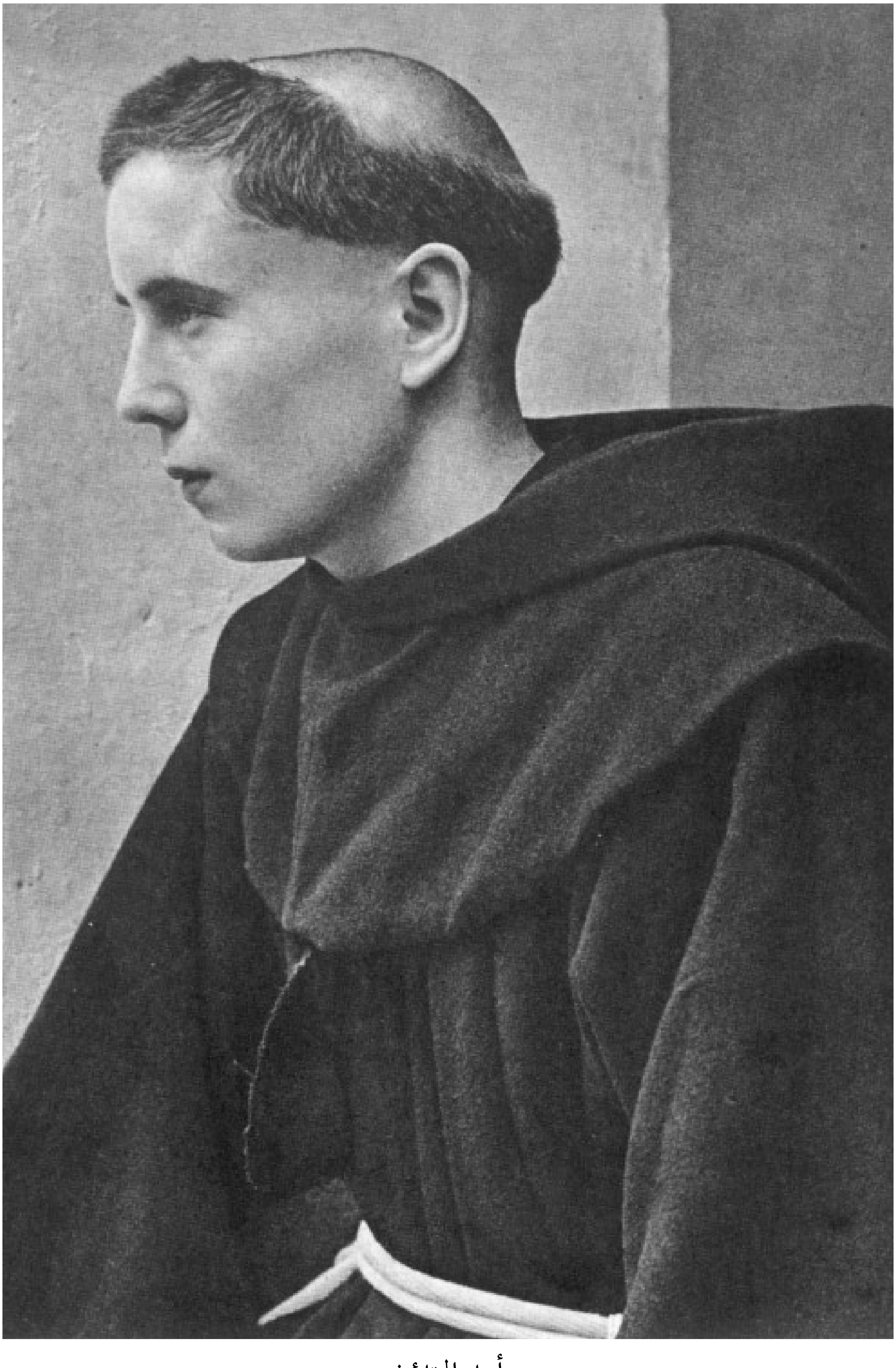

أحد المبتدئين

بلغ الإنسان من علمٍ، سيظلّ عاجزًا عن استجلاء أسرار اللّه، في حين أنّه يظفر بالأنوار السماويّة التي تقرّبه من اللّه، بالصلاة والتواضع فَحَسْب. وكان يضرب نفسه مثلاً فيقول: «أنا، أيضًا، راودتني الرغبة في الكتب والمعرفة، ولكن كي أتبيّن مشيئة اللّه بهذا الشأن، تناولتُ كتاب الإنجيل، والتمستُ من الربّ أن يهديني، في الصفحة الأولى التي سأفتح عليها الكتاب، إلى ما يريد منّي. ولمّا فرغت من دعائي فتحت الكتاب، فطالعني هذا المقطع: «لقد أُعطيتم معرفة سرّ ملكوت السموات، أمّا أولئك فكلُّ شيءٍ لهم بأمثالٍ، لكي ينظروا نظرًا ولا يبصروا، ويسمعوا سماعًا ولا يفهموا»». ولطالما ردَّد: «كثيرون هم الذين يودّون الارتقاء في سلّم العلم، ولكن طوبى لمن يزهد فيه حبًّا بالربّ».

كان يلاحظ أنّ العلماء يُنفقون وقتًا طويلاً في دراسةٍ لا ينتهون بها إلى غاية، في حين كان بوسعهم إنفاقه على ما هو أجدى لنفوسهم؛ ففي يوم الدينونة سيُلقى بكلّ كُتُبهم في زوايا النسيان، ويمثُلون، هم، مُصفري اليدين، أمام الديّان. وكثيرًا ما ردّد على مسامع الراغبين في العلم، ولا تحدوهم إليه روح اللّه، أنّ الشيطان وحدَه يملك من العلم أكثر من كلّ علماء الأرض مجتمعين، ولكنَّ أمرًا واحدًا يستحيل عليه: أن يكون وفيًّا للربّ.

إنّ ما كان يخشاه من العلم على إخوته، قضاؤه على اتّضاعهم وبساطتهم، ومن ثَمّ النَّأي بهم عن الرسالة التي انتُدِبوا لها، رسالة الطفولة الإنجيليّة التي تفتح أبواب ملكوت اللّه، والتي هي أثمن وأسمى من كلّ علمٍ. فحَسْبُهم أن يعرفوا يسوع ورسالته البسيطة، ويَحْيَوها بحذافيرها.

قد يكون، ثَمَّة، علماء متواضعون، غير أنَّه كان يرى أنّ معظم العلماء يتّصفون بالزهو والخُيَلاء والصَّلَف، والعناد، والترفّع عن الطاعة؛ كما أنَّ المكتبات الضخمة تقتضي أبنيةً فخمةً تتعارض مع السكن الوضيع الذي كان يودّ ألاّ يرضى بسواه إخوتُه الذين اقترنوا بالفقر.

كان يحترم العلم عند الآخرين، ولا سيّما إن هو استهدف الخدمة، ولا يدينه، كما لم يكن يدين الأبنية الفخمة ذاتها، ولكنّه يأباها لإخوته، إشفاقًا عليهم من الغرور والتماس تقدير الغير، والصدوف عن البساطة المقدّسة، والنأي عن المقام الوضيع الذي، وحده، يليق بالإخوة الأصاغر.

ولطالما أكّد لإخوته أنّ الجهد في اكتساب الفضائل خيرٌ من إلقاء المحاضرات بشأنها، وأنَّ الأبطال والقدّيسين الذين استحقّوا تكريم الله والإقامة في ذاكرة البشر إنَّما هم استأهلوا ذلك ببذل دمهم وحياتهم. أمّا مُدَّعو البطولة فيؤثرون اقتناص المجد بمطالعة الكتب التي تروي فعال أولئك الأبطال والقدّيسين على محاولة الاضطلاع بمثل تلك الفعال.

حجَّةٌ أُخرى كانت تكمن وراء مقاومة فرنسيس للعلم في أخويّته، وهي نابعةٌ من واقعيّته المتبصّرة، ومن حرصه على الأمانة لرسالته: فالعلم، في تلك الحقبة، كان وَقْفًا على فئةٍ ضئيلةٍ محظيّةٍ، وكان يُضفي على أصحابه ضربًا من التفوّق على الآخرين. وهو، من ثَمّ، كان يتساءل، هَلِعًا، أليس من شأن الإخوة الأصاغر، إن هم ترقّوا في معارج العلم، أن يتنكّبوا عن المقام الأخير الوضيع الذي تُلزمهم به رسالتهم، وينتظموا في صفوف ذوي الحظوة والسُّلطان، ويتعالَوا على الصغار والمساكين؟

ورُبَّما هذا ما رمى إليه فرنسيس بموقفه من ذلك الأخ المبتدئ الذي كانت تعتلج في صدره رغبةٌ عارمةٌ في امتلاك كتاب المزامير، وقد ظفر بإذن رئيس ديره بذلك، ولكنَّه كان يعلم مقت فرنسيس لامتلاك الكتب، ولم يُطِقْ أن يفعل أمرًا لا يحظى برضاه، فجاءه متوسِّلاً. ولكأنّي بالقدّيس قد رأى في ذلك الأخ موجةً جديدةً من الإخوة الذين تعتمل في نفوسهم رغبة العلم والدراسة، واستشفّ ما قد تجلبه عليهم تلك النزعة من وبيل العواقب، فمضى يُبيِّن له بطلان مطلبه ومخاطره، مُحرّضًا إيّاه على الاكتفاء بالانجيل الموجودِ في مقرِّ الأخويّة، والذي تُتلى صفحاتٌ منه كلَّ يومٍ، إذ حَسْبُه تأمّل كلماته، واستيعاب معانيها سبيلاً إلى مراقي الفضيلة. ولكنّ الأخ المبتدئ، الذي طغت على ذهنه رغبة امتلاك كتاب المزامير لم يقنع ولم يرْعَوِ، وعاد يلحّ في طلبه، فغمغم فرنسيس في نبرةٍ تنمّ عن غَضَبٍ مقدّسٍ: «إنَّك ترغب، بادئ الأمر، في كتاب مزامير، ثمّ سترغب في كتاب سواعيّةٍ، وعندما ستحصل عليه، ستجلس على كرسيٍّ وثيرٍ، مَزهُوًّا، وستأمر أحد إخوتك قائلاً: «هيّا آتني بسواعيّتي!» وإذ كانا جالسَيْن إلى جانب موقدٍ همدت ناره، التقط القدّيس قبضة رمادٍ وفرك بها رأس المبتدئ الكَلِف بالكتب وهو يقول: «سواعيّةٌ! سواعيّةٌ! إليك بسواعيّتك!» فانسلّ المسكين خجلاً، فيما كانت أنظار فرنسيس تغوص في المستقبل، وتقرأ، في قَلَقٍ هَلِعٍ، ما قد يصير عليه الإخوة من تعالٍ على الآخرين إن هم تفشّت، فيما بينهم، عدوى الكتب.

ومضت أيّامٌ التقى بعدها الأخ المبتدئ نفسه بفرنسيس في طريقٍ، فألحف، من

جديدٍ، في التماس موافقته على اقتناء كتاب المزامير، وضاق فرنسيس ذرعًا بإصراره، فقال له: «امضِ فافعل ما يقوله لك رئيسك». فهرول المبتدئ فَرِحًا، تاركًا فرنسيس وحده في الطريق. وفجأةً ومضت في ذهن القدّيس خطورة جوابه، فصاح مناديًا الأخ المبتدئ، طالبًا منه أن يتوقّف، ولحق به، ثمّ شخصا معًا إلى المكان الذي كان قد فرك فيه رأسه بالرماد للمرّة الأُولى، وهناك جثا أمامه، وقرع صدره مستغفرًا عمّا بدر منه من نفاد صبر، ولكنّه عاد فأكّد له، في تُؤَدةٍ ورقّةٍ، أنّ نظام الأخويّة لا يسمح لأيّ فرنسيسكانيٍّ أن يمتلك أيّ شيءٍ عدا ثوبه وحَبْله وسرواله، وإن هو كان عليلاً، فخِفًّا ينتعله. لقد تبدّل أسلوب رفضه، وتنزّه عن العصبيّة، ولكنّه كان أكثر عنادًا وتصلُّبًا في مقاومة النزعة إلى امتلاك الكتب.

وإثر فترة صمتٍ أضاف: «ما أكثر الذين يحدوهم اليوم نَهَمٌ إلى المعرفة والعلم، ولكن الطوبى، حقًّا، لمن يجعل ذاته عاقرًا وجاهلاً حبًّا بالله».

وكان يرى أنّ اقتناء الكتب لا يتعارض مع البساطة الإنجيليّة فحَسْب، بل، أيضًا، مع الفقر الإنجيليّ. وقد سأله، يومًا، رئيس أحد الأديرة: «ما عساني أفعل، وأنا أمتلك كُتُبًا تساوي أكثر من خمسين رطلاً فضّةً؟» فأجابه فرنسيس: «من جهتي، لن أرغب أبدًا في أن يجعلني امتلاك مثل تلك الكتب أعصى أوامر الإنجيل الذي أقسمت أن أُسدّد نهج حياتي على هدي تعاليمه!».

* * * * *

ولكن ألم يكن الجهل الذي يطوّبه فرنسيس متعارضًا مع مهمّة الوعظ التي تمثّل أحد أهداف أخويّته الأساسيّة؟

في الواقع، كان سلوك فرنسيس، في هذا المجال، نابعًا من منطقٍ مُحْكَمٍ. فالوعظ الذي سمح للإخوة الأصاغر بالاضطلاع به كان ينبغي أن يظلّ مقتصرًا على الإرشاد، والدعوة إلى التوبة، وممارسة الفضائل، في منأًى عن الخوض في مواضيع لاهوتيّةٍ شائكةٍ؛ ومثل ذلك الوعظ لم يكن بحاجة إلى معرفةٍ علميّةٍ وكتابيّةٍ، بقدر حاجته إلى صدقٍ وتقوًى، وإحساسٍ صادقٍ مقرونٍ بشيءٍ من الشّعر يمسّ قلوب البشر ويرقى بها إلى الفرح الروحيّ. ولذلك كان فرنسيس يُحرّض إخوته على التحاشي عن العظات الطويلة، والنّسج على منوال يسوع الذي كان يكتفي بعباراتٍ موجَزةٍ، والاستسلام لنَفَحات الروح، ولذلك، أيضًا، كان الأجدر بهم النأي عن التبحُّر في الكتب لكيلا

إخوة في الصلاة

يجنحوا إلى الاعتماد على علم البشر، وينصرفوا عن وحي الروح، وفرنسيس نفسه كان، في هذا المجال، القدوةَ المُثلى، إذ كان يعبّر، بكلماتٍ قليلةٍ، عمَّا يتعذّر التعبير عنه، ويتحاشى عن أسلوب الوعّاظ القائم على تسلسل الحجج، والجدليّة؛ بل كان وعظه عفويًّا، وفي منتهى البساطة، ولكن ذا تأثيرٍ سرّيٍّ مُذهلٍ. وخير مصداقٍ على ذلك، عظته التي ارتجلها، في تلك الحقبة، في مدينة بولونيا، تلك المدينة المزهوّة بتاريخها، وأبنيتها الفخمة، والتي كان يذكرها دائمًا بغصّةٍ: فهي التي كانت قد هزئت بأخيه برناردو قبل أن يتبنّاه أحد وجهائها، وهي التي وفّرت لإخوته، من بعدُ، ما ضلَّلهم من وثير المقام، ومغريات العلم، فضحّوا بالفقر والبساطة المقدَّسَيْن على مذبح كبرياء العقل واسترخاء العلم المطمئنّ، ممَّا أثار لديه سورة غضبٍ مقدَّسٍ أتَيْنا على ذكرها.

وتنامى إلى أهالي بولونيا أنّ القدّيس في مدينتهم، فالتمسوا منه عظةً، واحتشد ألوفٌ منهم في الساحة الكبرى، يدفعهم الفضول لرؤية ذلك الذي يفخر بجهله، والاستماع إليه لمعرفة كيف سيستطيع مخاطبتهم، هم المزدهين بعلمهم.

وألقى فرنسيس نظرة شفقةٍ على الأبنية المحيقة بالساحة، وإلى صروح السادة التي انتصبت شاهقةً، هناك، تسدّ الأفق، متنافسةً في التسامق الواحد فوق الآخر، معبِّرةً عن تنافس أصحابها على التفوُّق وإبراز ثرواتهم.

وسط كلّ مظاهر الكبرياء تلك، وخُيَلاء العلم المتجلّية في جامعة بولونيا الوقورة، أُولى جامعات العالم المتحضّر، فات أهالي المدينة أنّ الربّ عندما يسكب حكمته على لسان أحد مختاريه المستسلمين له، يجعله قادرًا على إفحام أفصح الفصحاء، وأنَّ القلب، عندما يتكلّم بصدقٍ، ينفذ تأثيره إلى أبعد من كلّ ما يستطيعه أرباب البلاغة.

وبولونيا، مدينة العلم، كانت، من جرَّاء ما يولِّده العلم من أَثرةٍ وصَلَفٍ، مدينة الشقاق والحفيظة اللَّذَيْن مزَّقا أهالي البلد الواحد فئاتٍ متنابذةً. ولكن ما إن فتح فرنسيس فاه، حتّى سكب الربُّ على شفتَيه دعوات الحبّ والسلام، التي انسابت في عفويّةٍ وصدقٍ، فخضَّت قلوبَ مستمعيه، ومسَّتْ منها الشِّغاف، وحرَّكت الأحشاء. وقد استولت الحيرة حتّى على أعتى المثقَّفين الذين لم يألفوا، قطُّ، مثل ذلك الكلام الخالي من التنميق، النفَّاذ إلى أعمق الأعماق، وقد أدهشهم من فرنسيس استشهاده بنصوص الكتاب المقدَّس استشهادًا مُحْكَمًا يستدرّ من تلك النصوص أسمى معانيها وأروعها، وقد أشاعت كلماته الخفّاقة بالحبّ أصفى مشاعر المحبَّة بين مستمعيه، فامتدَّت للتحيّة

أيادٍ كانت، من قبلُ، تودّ أن تتقابل بالخناجر، وانطلقت عبارات المودّة والمصالحة من شفاهٍ طالما تبادلت عبارات الضَّغينة والحقد والشتيمة؛ وفي اندفاع تفاهمٍ اعترى الجميع، تدافعوا كلُّهم نحو الواعظ يقتطعون نتَفًا من ثوبه الأغبر البالي، كي يصطنعوا منها ذخائر مقدّسة، بعد أن تيقّنوا ولمسوا أنَّهم في حضرة قدّيسٍ قلَّما تجود الدنيا بمثله.

لقد كان فرنسيس يرفض العلم للعلم، ولا يرتضي منه إلاّ ما كان يستهدف غايةً عمليَّةً متمثِّلةً في إعلان كلام الله. وكان واثقًا أنّ بلوغ هذا الهدف لا يحتاج إلى كُتُبٍ كثيرةٍ، وكان يربأ بإخوته أن يقعوا في فخاخ كبرياء العلم، وما يورّث من وهمِ التفوُّق، ويدعوهم إلى الجهد في اكتساب البساطة المقدَّسة. وكان يدعم رأيه هذا بالمثل التالي: «انعقد، مرَّةً، مجمعٌ حافلٌ دُعِيَ إليه رهبانٌ من كلّ أرجاء العالم للاستماع إلى عِظَتَيْن، كان على عالِمٍ أن يلقي أولاها، وعلى أُمِّيٍّ أن يُلقي الثانية. وقبل أن يفتح العالِم فاه، حدَّث نفسه قائلاً: «ليس هذا الوقت المناسب كي أبسط معارفي، فثمَّة، لا ريبَ، من هم أوفر منّي علمًا، ولن أُفلح في انتزاع إعجابهم، ولذلك سأتكلّم ببساطةٍ». ومن ثَمَّ، ارتدى كيسًا خَلِقًا، وارتقى المنبر، ومضى يتلو في تواضعٍ جمٍّ بعض الحِكَم عن قِصَر الحياة، وجدوى الصبر، وعن السعادة الأبديّة التي يظفر بها أولياء الله.

«واستحسن المستمعون تلك العظة البنّاءة. بيد أنّ الراهب الأُمّي الذي آن دوره للكلام، قد مُني بخيبة أملٍ، إذ تبيّن أنّ الواعظ الذي سبقه قد سَلَبه العِظَة الوحيدة التي يجيدها، فقال في نفسه: «بما أنّ العلماء يتمثّلون الآن، في كلامهم، بالبسطاء، فسأتبنّى أُسلوب العُلماء، وعلى غرارهم، سأفسّر الكتاب المقدّس تفسيرًا متألّقًا». وإذ كان يحفظ بعض فقرات من المزامير، استسلم، في تفسيرها، للروح القدس، وقد أيّده الربّ بأزرٍ شديدٍ، بحيثُ طغت الدَّهشة على المستمعين».

وكان فرنسيس يُعقّب على ذلك المثل بقوله: «ذلك المجمع هو أخويَّتنا، التي يُبارك الآب السماويّ تنوّع أعضائها، وحيث يتبادل العُلَماء والأُمِّيّون خير ما عندهم: فيضع الأوّلون ذواتهم، مثل البسطاء، في مدرسة الروح القدس وحدها، ويتمثَّل الآخرون بتواضع العلماء الذين يزهدون في التألُّق في عيون العالم، كي يكونوا أوفياء لرسالتنا في الامّحاء، ونشدان ازدراء العالم».

لقد كان هدف الفرنسيسكانيّين العثور على الله، وتبليغه للآخرين. ولكنَّ ذلك لم يكن يستلزم، في نظر فرنسيس، الدراسة المستفيضة، ولا الكتب الكثيرة، بل كان مؤمنًا

بأنّ العلم ينفخ، والحبّ يبني، وكان شديد الخوف من كبرياء الذكاء؛ ولطالما أكّد وكرّر على مسامع إخوته أنّ خير وعظٍ هو الوعظ بقدوة السلوك، وأنّ الصّلاة الخاشعة والتهجُّد يُنقذان من النفوس أكثر، بما لا يقاس، من كلّ ما تستطيع إنقاذه أبلغ العظات وأفصحها. ومن ثَمّ، فالصلاة، والسلوك وفق الإنجيل، هما قِبْلة اهتمام الفرنسيسكانيّين، ولسواهم أن ينهجوا ما يستحسنونه من سُبُلٍ. فخيرٌ للإخوة الأصاغر أن يركعوا في عزلة مغارةٍ خفيَّةٍ، أو منسكٍ متوارٍ في قمّة جبلٍ، ويصلّوا من أجل الآخرين، على أن يقفوا على منبر كاتدرائيّةٍ، وصدورهم تموج غرورًا ووهمًا، وزهوًا بتقدير الناس لشخصيّاتهم الفذّة. والصلاة هي الوسيلة المُثلى لتلقُّن ما من شأنه مسّ القلوب وتحريكها. وفرنسيس نفسه كان من الدائبين على تأمّل الكتاب المقدّس، واستيعاب معانيه؛ ولكنَّه مع تقدّمه في السنّ بات يوقن أن حَسْبه ما تعلَّمه منه، وأنّ الأجدر به وقف ما بقي له من عمرٍ على تمثُّل ما سبق وطالعه، وتقصّي معانيه، والبحث عن الوسائل المُثلى لوضعه موضع التنفيذ.

وطالما حذَّر إخوته الوعّاظ من «حكمة العالم»، وممَّن يُمثّل لهم الكلام كلّ شيءٍ، فيما هم لا يُقيمون للأفعال شأنًا، ويستعيضون بالتألّق بعلمهم عن الجهد في سبيل الكمال؛ وغالبًا ما كان يخلص إلى القول: «في ما يتعلَّق بي، كلُّ ما أعرفه هو يسوع المسيح فقيرًا ومصلوبًا، وذلك حَسْبي».

وكان موقنًا أنّ للصلاة وأعمال البرّ من الأَثَر في إنقاذ النفوس، أكثر، بما لا يقاس، من الوعظ، ويُصرّح: «كثيرون هم الإخوة الذين يقفون أسهارهم على الدراسة عوضًا عن الصلاة، ويعزون ما يُؤَدّونه من خيرٍ لمواعظهم البليغة، سالبين، بذلك، أفضال آخرين. ولكنّ هؤلاء هم، حقًّا، فرساني البواسل، أولئك الذين يعيشون في معزلٍ عن العالم، في الصلاة والتأمّل، وفي الأماكن المقفرة يبكون خطاياهم، وخطايا الآخرين، ويعيشون في بساطةٍ وتواضعٍ. لهؤلاء سيُري الخالق، عندما ستمثُل نفوسهم أمامه، ثمارَ عملهم، ومكافأتهم المتمثّلة في طغمات النفوس التي أسهموا في خلاصها بمثال سلوكهم، وأدعيتهم، ودموعهم، وسيخاطبهم الربّ قائلاً: «أبنائي المحبوبين، لقد ألقى آخَرون عظاتهم الفصيحة، المليئة علمًا، ولكنّي، أنا، بفضل استحقاقاتكم، قد خلَّصت البشر، ومن ثَمَّ، يحقّ لكم أن تنعموا بثواب أعمالكم، وثمار ما استحققتموه، أي الملكوت السماويّ، إلى الأبد! أمّا الذين لم يفعلوا سوى تعليم الآخرين وإرشادهم،

القدّيس أنطونيوس البدوانيّ

ولم يكتسبوا لنفوسهم شيئًا، فعليهم أن يقفوا عراةً، مُجرَّدين، يكسوهم الخزي، أمام محكمة المسيح!».

وكثيرًا ما ردَّد، في هذا السياق، القول: «إنّ المرأة العاقر هي التي أنجبت البنين الكثيرين».

وكان، في تصوُّره لصفات الرئيس الأمثل لديرٍ فرنسيسكانيٍّ، قد أدرج شرطًا، في نظره، جوهريًّا، وهو ألاَّ يكون مولعًا بجمع الكتب.

ولا بدّ من التنويه، مرَّةً أخرى، بأنّ فرنسيس لم يكن يخشى الكتب، ويعاديها، في ذاتها، بل كان يخشى تدهور العلاقات الأخويّة والإنسانيّة الناجمة عن التعلّق بالكتب، والمعرفة الكتابيّة، وكان يحارب مثل تلك المعرفة التي غالبًا ما تنقلب ضربًا من التملُّك، ومصدر سلطانٍ على الآخرين.

ولكن، مع كلّ تشدّده في هذا المجال، تغلَّب، في نهاية المطاف، فريق أصدقاء الكتب والعلم، على رغبته. وكان للكردينال هوغولينو، في ذلك، اليد الطولى. فقد كان يرغب في استخدام فئةٍ من الإخوة المتعلّمين في إصلاح الكنيسة، وتثقيف الإكليروس، ومناهضة البِدَع؛ وقد تذرّع بمثال الدومينيكيّين حجَّةً دامغةً على إمكان الجمع بين العلم والقداسة، والدعوة إلى الفضيلة والتوبة، وهكذا تمكّن من إقناع فرنسيس بإعادة فتح جامعة لاهوت بولونيا. ووقع الخيار على القدّيس أنطونيوس البادوانيّ، الذي كان قد أثبت، عَرَضًا، طول باعه، وراسخ علمه الذي أخفاه سنين طويلةً في التواضع والنسك والتهجّد، كي يضطلع بتعليم الإخوة الفرنسيسكانيّين، وقد ورد في رسالة التكليف:

«إلى الأخ العزيز جدًّا، أنطونيو، تحيّة في المسيح من الأخ فرنسيس. إنَّه يسرُّني أن تؤدّي للإخوة دروسًا في اللاهوت، على ألاّ يفضي ذلك إلى إهمالهم الصَّلاة، وألاَّ يطفئ فيهم روح الخشوع، وفقًا لما نصَّ عليه قانوننا».

والقدّيس أنطونيوس الملقَّب بالبادوانيّ، نسبةً إلى مدينة بادوڤا الإيطاليّة المجاورة لمدينة البندقيّة، حيث قضى رَدَحًا من حياته ومات، هو برتغاليّ المحتد، وُلد في لشبونة عام ١١٩٥. وكان كاهن أبرشيّة كو-إمبري البرتغاليّة عام ١٢٢٠، عندما جيءَ برفاة الشهداء الفرنسيسكانيّين الخمسة من المغرب لدفنهم في كنيسته. وقد ألهب مثالُهم نفسه، فعزم

على الانضمام إلى الأخويّة الفرنسيسكانيّة، وشَخَص، في الحال، إلى المغرب، غير أنَّ مرضًا شديدًا أَلمَّ به، فعاد أدراجه، ولجأت السفينة التي كان يستقلّها إلى جزيرة صقلّية، بسبب عاصفةٍ هوجاء منعتها من مواصلة إبحارها. ومن هناك انتظم في موكب الإخوة الذين وافوا أسّيزي لحضور مجمع ١٢٢١، في البورتسيونكولا، حيث لم يلحظه أحدٌ.

ثمّ قضى أنطونيوس بضع سنوات في مغارةٍ، في منسك سان پاولو، على مقربةٍ من مدينة فورلي، لم يكن يُبارحها إلاّ للاشتراك في الذبيحة الإلٰهيَّة، ولتكنيس المنسك، وقد تألَّق علمه اللاهوتيّ، ومواهبه الخطابيّة فجأةً، وعَرَضًا، يوم تخلَّف الواعظ المكلَّف بالخطابة بمناسبة سيامةٍ كهنوتيَّةٍ في منسك فورلي، فدفعه الإخوة، قَسْرًا، إلى معالجة الموقف، في اللَّحظة الأخيرة، وإذ بهم يكتشفون درَّةً نادرةً. ومذَّاك، قضى ما تبقّى من عمره، كلّ الوقت الذي لم يكن فيه مشغولاً بإلقاء الدروس في جامعتي بولونيا الإيطاليّة، ومونبيليه الفرنسيّة، متنقِّلاً بين شتّى مدن إيطاليا وفرنسا، ساحرًا المستمعين بفصاحة وعظه، وقدس سيرته.

ويُقال إنَّه كان يجيد كثيرًا من اللغات، وإنّ الأسماك ذاتها كانت تطرب لسماعه؛ ولكن من المحقق أنَّه حيثما وعظ، كان الناس يهجرون أعمالهم، والتجّار يُقفلون حوانيتهم، تجنُّبًا لتفويت فرصة الاستماع إليه. وقد اشتهر بدحض البدع، ومهاجمة الأساقفة المتقاعسين والسيّئي السلوك.

وقد تُوفّي، مكلَّلاً بالمجد والقداسة، في السادسة والثلاثين من عمره؛ وأُعلِنتْ قداستُه سنةً واحدةً بعد وفاته؛ وفي عام ١٩٤٦ سُمّي أحد ملافنة الكنيسة الجامعة.

باشر القدّيس أنطونيوس تدريس اللاهوت عام ١٢٢٣، في جامعة بولونيا، وبسرعةٍ مذهلةٍ، انتشرت جامعات اللاهوت الفرنسيسكانيّة في أُكسفورد وباريس وكولن، ومدنٍ أوروبيّة شتّى، وسرعان ما غدت موائل إشعاعٍ عالميّةٍ، ولمعت فيها أسماءٌ ذات شهرةٍ جامعةٍ، ممّن ما زالت كتاباتهم مرجعًا قيّمًا؛ ومن أشهرهم إسكندر الهالسيّ «الملفان الذي لا يناقض»، والقدّيس بوناڤنتورا «الملفان الملائكيّ»، وروجير بيكون «الملفان الرائع» وأوكام «الملفان الذي لا يقهر»، والطوباويّ «دانس سكوت» منافس القدّيس توما الأكوينيّ، وبطل عقيدة الحبل بلا دنسٍ.

وإزاء ازدهار علم اللاهوت بين صفوف الفرنسيسكانيّين، حرّرهم البابا غريغوريوس التاسع – الكردينال هوغولينو سابقًا – من واجب الاقتصار على الإرشاد التقويّ المناقبيّ، وأَذِن لهم بشرح الكتاب المقدَّس، ومناهضة البِدَع.

ولكن، في المقابل، ظلَّت مدرسة فرنسيس الأَصيلة المشبعة بروح ريڤو تورتو، متشبِّثةً بالبساطة الإنجيليَّة، وكان يقودها الإخوة ليون، وإيجيديو وسواهم. ومنها وُلدت أعمالٌ تقرن السموَّ بالبساطة، مثل «مرآة الكمال»، «والممارسة المقدّسة» و«الأزاهير»، التي ما انفكّت تنهل منها نفوسٌ كثيرةٌ تعجز المجلّدات اللاهوتيَّة الضخمة عن أن توفّر لها أيّ غذاءٍ روحيٍّ.

هؤلاء الأُمَناء لروح فرنسيس ورسالته اتَّهموا جامعات اللاهوت بتقويض عمل المؤسِّس، فقد أعلن الأخ إيجيديو، مثلاً، بعد أن ازدهرت جامعة لاهوت باريس: «ملعونةٌ هي باريس، فقد سلبتنا أسّيزي». وكان الأخ إيجيديو يرى أنّ أبحاث اللاهوتيّين مفرطةٌ في الإطالة النافلة، فيقول لهم: «من كلّ أبحاثكم لا أجد سوى مادَّتين جديرتَيْن بالتقصّي: أولاهما تلك التي تعلّمني تسبيح الربّ، وتمجيد أعماله، والثانية تلك التي تحثّني على التوبة عن خطاياي». وكان يهيب بهم ألاّ يهدروا وقتهم في محاولة شرح ما لا يمكن شرحه.

وقد طعن الأخ إيجيديو في السنّ، ولكنّه ما انفكّ غاضبًا لتفشّي مرض العلم في الأخويّة، وقد وافى، يومًا، الرئيس العامّ على الأخويّة، آنذاك، القدّيس بوناڤنتورا، وسأله:

– أبتِ، هل يسعنا، نحن جميعًا، أمّيّين ومثقَّفين، على السواء، أن نخلص؟

فأجاب القدّيس وقد أضاءت محيّاه ابتسامةٌ ودودةٌ:

– أجل بالتأكيد.

فاستأنف إيجيديو:

– وهل بوسع إنسانٍ يفتقر إلى الثقافة أن يحبّ اللّٰه مثل إنسانٍ مثقّفٍ؟

ورُبّما، في تلك الأثناء، لمح القدّيس بوناڤنتورا فلاَّحةً عجوزًا عائدةً من الحقل متعبةً، زريَّة الهندام، فقال:

– لا بل إنّ فلاَّحةً عجوزًا باستطاعتها حبّ اللّه أكثر من أستاذٍ في اللاهوت.

وفي الحال هرع الأخ إيجيديو إلى شرفةٍ مطلَّةٍ على الحديقة، وراح يصيح، ملء حنجرته، على رؤوس الملأ:

– اسمعوا. جميعكم! إنَّ فلاَّحةً عجوزًا لم تتعلّم، قطُّ، حرفًا، وتجهل القراءة، بإمكانها أن تحبّ اللّه أكثر من الأخ بوناڤنتورا نفسه!

في حماية الكنيسة

عاد فرنسيس من المشرق مضعضع الصحّة، خائر القوى، مُبتلًى بشتّى العلل، إلاّ أنّه كان ما برح موئل إشعاعٍ نفَّاذٍ، أخّاذٍ، بعيد المدى. وقد أشاع نبأ رجوعه موجة ارتياحٍ بين أصدقائه والمخلصين له الذين تنفّسوا، أخيرًا، الصعداء، وخرجوا من مخابئهم، يحدوهم الرجاء أن يروه يعيد كلَّ شيءٍ إلى نصابه. أمّا هو، فلم يكن في مثل تفاؤلهم، إذ لم يَخْفَ عليه أنّ المُجدّدين إنّما فعلوا ما فعلوه بدعم مقاماتٍ عليا، وتشجيعٍ منها. وكان لا مناص له من وضع أخويّته تحت حماية الكنيسة، كي يضمن بقاءها في مأمنٍ من عبث المتمرّدين، وطغيان نزواتهم. فهرع إلى قداسة البابا أونوريوس الثالث ملتمسًا منه تعيين أحد الكرادلة راعيًا لأخويّته.

وقد أثلجت تلك البادرة صدر الحبر الأعظم، فلبَّاها خير تلبيةٍ بتعيين صديق الفرنسيسكانيّين، والذائد عن حياضهم، الكردينال هوغولينو، أسقف أوستيا «حاميًا، وحاكمًا، ومُقَوِّمًا للأخويّة». وقد لعب ذلك الكردينال دور الحكَم بين مؤسّس الفرنسيسكانيّة، ودعاة التجديد وربّما اتّهمه بعضُهم، اليوم، بالإسهام في انحراف الأخويّة الفرنسيسكانيّة، عن جادَّة الرسالة الأَصيلة التي رسمها مؤسّسها، بحجّة حمايتها، وقد يكون، في ذلك، بعض الصواب، إذا ما اعتبرنا تأييده لفئة المجدّدين، ودعاة العلم خلافًا لرغبة فرنسيس أحيانًا. غير أنّ هذا التأييد لم يكن مُطلقًا، بدليل الحُرْم الذي رَشَق به الأخ إيليّا، زعيم الحركة التجديديّة، الذي رئس الأخويّة، وتمتّع بنفوذٍ عريضٍ في جميع أرجاء العالم المسيحيّ، عندما اتَّضح للكردينال، الذي كان قد جلس على السدّة البابويّة، أنّ سلوك الأخ إيليّا غدا يهدّد روح الفرنسيسكانيّة بالتلاشي.

ومن العدل القول إنّ الكردينال هوغولينو قد أجلَّ فرنسيس وأحبّه وأخلص لروح رسالته، وحمى أخويّته من الزوال، وهي، بعدُ، وليدةٌ تحبو، عندما تنكّرت لها الدوائر

الرومانيّة، وكادت تئدها مثلما وأدت كثيرًا من الحركات المماثلة لها. وقد توسّم الكردينال في الفرنسيسكانيّة سندًا فعّالاً للكنيسة، في حقبةٍ كان الإكليروس فيها فاسدًا عديم الجدوى، فتبنّاها، وساعد على نموّها وانتشارها، وفي هذا السبيل كان لا بدّ له من تنظيمها، ومن تليين الشروط الصارمة التي كان مؤسّسها متشبّثًا بها، ورُبّما هي كانت قد ظلَّت، لولا تدابيره هذه، محدودة الدور، ضئيلة الأثر، صائرةً إلى الانكماش.

من هذا الملحظ يمكن القول إنّ الكردينال هوغولينو قد حمى، حقًّا، روح الفرنسيسكانيّة، ويجدر بالتذكير أنَّه هو الذي دفع الأخ توماس دي شيلانو إلى تدوين ملاحم البطولة الرائعة التي ميَّزت بدايات الفرنسيسكانيّة، فمكّن أبناء فرنسيس، في جميع الأجيال القادمة، من الإلمام بإرث أبيهم، والاقتباس من مُثُله السامية، التي وإن بدت عسيرة المنال، إلاّ أنّها ظلَّت خميرةَ عدم رضًى تعتمل في صدور بعض أبنائه، والمعجبين به، جيلاً إثر جيلٍ، وتحفزهم إلى إصلاحاتٍ مستمرّةٍ يقتضيها كلّ عصرٍ، لما فيه صلاح البشريّة، ودوام الكنيسة.

لقد بيّن الكردينال لفرنسيس أنّ نظام ١٢١٠، القائم على ثلاث فقراتٍ من الإنجيل تدعو إلى الفقر والتجرّد، إنّما كان دستور سلوكٍ أكثر منه قانونًا رهبانيًّا، وكان الإخوة القلائل، في إطاره ينعمون بحرّيّةٍ كبرى في اختيار أسلوب العيش الذي به يستطيعون أداء رسالتهم، غير خاضعين لأيَّة سلطةٍ بشريَّةٍ ضاغطةٍ، وتنتظمهم مساواةٌ قصوى، حيث لا رئيس ولا مرؤوس، ولا تجمعهم سوى محبَّةٍ بلا حدودٍ، واحترامٍ عميقٍ لقدّيسٍ يعتمد الحبّ ليسوسهم أكثر من اعتماده الأمر والسلطان.

بيد أنّ ذلك الدستور لم يَعُدْ يفي بمتطلّبات جماعةٍ بلغ تعدادها بضعة آلافٍ، فلا بدّ من إصدار قانونٍ جديدٍ يتلاءم والوضع الراهن، ويضمن الانضباط، ويقضي على الغموض والتسكّع والشذوذ، ويعتمد مزيدًا من الحرص في قبول المرشّحين الجُدد. ومن ثَمّ فعلى القانون أن يفرض على كلّ منتسبٍ جديدٍ قضاء سنة ابتداءٍ وامتحانٍ وتثقيفٍ، يختبر، هو، في أثنائها، طاقته على الوفاء لنظام الأخويّة، ويختبر رؤساؤه قدرته على الاضطلاع بالرسالة، ويُعدّونه لها إعدادًا لائقًا، قبل أن يرتبط بنذورٍ مؤبّدةٍ؛ كما على القانون الجديد أن يُقيّد تنقّلات الإخوة بموافقة رؤسائهم المحلّيّين، منعًا للتسكّع والفوضى؛ وبالإجمال، على ذلك القانون أن يتضمّن رؤيةً مفصَّلةً لحياة الأخويّة، ولواجبات السلوك فيها، دفعًا لكلّ التباسٍ وفوضى.

لقد بدا واضحًا لفرنسيس أنَّ صفحة البدايات الرائدة، والاندفاعات المتوثّبة قد قُلبت، وحان زمان «الإدارة» والإداريّين الذين يُحدِّدون ويَحُدّون ، بعد أن كانت المبادرات الطليقة، والاستسلام المطلق لنفحات الروح هي السائدة. وساور فرنسيسَ شعورٌ بأنَّ زمنه قد ولّى، فالإدارة ليست من مزاياه، فهو مُفجّر مبادراتٍ فحسب، فضلاً عن أنَّ صحّته المتداعية لم تعُدْ تؤهّله للنهوض بمهمّةٍ على ذلك القدر من الثقل. ومذ ذاك بيّت العزم على التخلّي عن رئاسة الأخويّة لسواه، كي يستطيع التفرّغ لوضع القانون الذي كان حريصًا على إيداعه تطلّعاته لمستقبل الأخويّة، وتصوّره لما يتحتّم على الإخوة فيه من سلوكٍ، وفقًا لما كان المسيح قد انتدبه له شخصيًّا.

وكان شديد الحرص على ألاّ يوكل أمر وضع ذلك القانون لأيدٍ غريبةٍ، قد تكون عابثةً، ولأُناسٍ قد لا يُلمّون بكلّ أبعاد رسالته ومقتضياتها الجوهريّة.

ولكي ينصرف إلى هذه المهمّة أَوكل إلى الكردينال هوغولينو وضع قانون «الرهبانيَّة الثالثة»، التي قد طالما أجال بشأنها الأفكار، والتي ظفر من الحبر الأعظم بالموافقة على تأسيسها.

الرهبانيّة الثالثة

لقد أسلفنا القول إنّ فرنسيس كان، إثر بعض عظاته، يستثير من حماس الجماهير ما يدفعها إلى التماس الانضمام إلى جماعته، إرضاءً للمسيح، وضماناً لخلاصها، وحبًّا به؛ بيد أنّ القدّيس كان يخشى تكاثر عدد الإخوة، تكاثرًا فوضويًّا، ومن غير تمييزٍ، بل إنّه كان يتذمّر، أحيانًا من عدد المنتسبين الجُدد، فيغمغم: «ثمَّة فائضٌ من الإخوة الأصاغر، فليأتِ يومٌ، يشكو فيه الشعب من قلّة عددهم عوضًا عن الارتطام بهم في كلّ مكانٍ!».

إلاّ أنّه كان حريصًا على تشجيع النزعات الخيّرة لدى بعضهم، ومساعدتهم على سلوك دروب التوبة، والبرّ، والعفّة، والفقر الطوعيّ. كان له أصدقاء مشهورون ممّن انتهجوا ذلك السبيل، أمثال النبيل رولاندو كيوزي الذي وهبه جبل الألڤرنا لجعله مركز عبادةٍ، والمعتزلة الرومانيّة براكسيد التي ألبسها بيده الثوب الفرنسيسكانيّ والحبل، والسيّدة جاكلين فرانجيپاني، التي دعاها «الأخ جاكلين»؛ ورُبَّما كان أَوّلهم وأوسعهم

شهرةً، الطوباوي لوكييزو الذي كان أحد رفاق لهو فرنسيس، أيّام صباه العابث، ثمّ امتهن التجارة والسياسة في مدينة سييِنّا. ولم تكُن سيرته الأُولى تتميَّز بالفضيلة، بل كان الجشع رائده، فيَعمَد إلى احتكار الحنطة، أيّام الوفرة، ويخزنها كي يبيعها بأغلى الأثمان، أيّام المجاعة. وكانت زوجته التي تقرن الذكاء بالجمال، تشاركه ميوله وتُنمّي مطامعه. واضطُرّ الزوجان، يومًا، إلى الفرار من أعدائهما السياسيّين في سييِنّا، واللجوء إلى منطقة فلورنسا، حيث أكملت إرشادات فرنسيس ما كان النفي قد شرع يُجري في نفسيهما من تحوّلٍ؛ فباعا كلّ ممتلكاتهما، ووزّعاها على المساكين، ولم يحتفظا إلاّ بمنزلٍ وضيعٍ، تُحيق به حديقةٌ صغيرةٌ كانت تؤمّن لهما حاجاتهما على خدمة المساكين الذين كانا يستضيفانهم في بيتهما، ويتقاسمان معهم إنتاج حديقتهما. أمّا المرضى العاجزون عن القدوم إليهما، فكانا هما يشخصان إليهم لمعالجتهم، أو لجلبهم إلى منزلهما؛ وكثيرًا ما رأى الجيران السيّد لوكييزو عائدًا باثنين من المرضى، أحدهما على متن حماره والآخر على كتفه. وعندما كان يفتقر إلى مالٍ ينفقه على مرضاه، لم يكن يتورّع عن طرق الأبواب مستعطيًا، وكانت كياسته تُشرع له القلوب والمَحافِظ بسخاءٍ.

وقد أُعطي الزوجان اللّذان كان يجمعهما حبٌّ عميقٌ، واللّذان لم يفترقا، يومًا، في سرّاءَ أو ضرّاءَ، أن يغادرا الفانية معًا. فقد كان لوكييزو طريح الفراش عندما تداعت صحّة زوجته فجأةً، وأخذت تحتضر؛ فكان حزنه عليها من الشدّة بحيث تفاقم مرضه، إلاّ أنَّه نهض فساعدها على تناول الأسرار الأخيرة، ثمّ أخذ بيدها، وقال لها: «حبيبتي، بما أنّنا أحببنا أحدنا الآخر حبًّا جمًّا في هذه الدنيا، فلِمَ لا نمضي معًا إلى العالم الأبديّ؟ أرجوك أن تنتظريني برهةً». ثمّ رقد في سريره، والتمس من الكاهن تزويده بالأسرار، ورسم على ذاته إشارة الصليب، واستنجد للمرّة الأخيرة بالعذراء مريم، وبالقدّيس فرنسيس، وعندما تأكّد أنّ زوجته فارقت الحياة، أسلم الروح.

بالإضافة إلى هؤلاء، اختار كثيرون جدًّا، من رجالٍ ونساءٍ، سبيل فرنسيس، وكانوا يعيشون جماعاتٍ أو فرادى إلى جوار أديرة الإخوة الأصاغر، أو أديرة «سيّدات الفقر»، أخوات القدّيسة كيارا؛ وكانوا يوفّرون لإخوة فرنسيس وأَخَواته دعمًا مادّيًّا منيعًا، وكانوا يُعرفون باسم «جمعيّة التائبين»، أو «جمعيّة المتعفّفين»، إذ كان يُقتضى من طالبي الانضمام إلى تلك الجمعيّات الانقطاع عن كلّ علاقةٍ جنسيَّةٍ بين الأزواج باتّفاق الطرفَيْن.

وكان عليهم أن يبقوا في العالم على أن ينهجوا غير نهج العالم، وأن يتخلّوا عن كلّ مالٍ أو ملكٍ ظفروا به بوسائل مشبوهةٍ، وهذا غالبًا ما يعني واجب تخلّيهم عن كلّ شيءٍ؛ وأن يُدوّنوا وصيّتهم في وقتٍ مبكّرٍ منعًا لكلّ نزاعٍ بين الورثة؛ وأن يمتنعوا عن كلّ قَسَمٍ، إلاّ في ظروفٍ استثنائيّةٍ جدًّا؛ وأن يتحاشوا عن اللجوء إلى المحاكم؛ وألاّ يحملوا سلاحًا؛ وألاّ يعملوا في وظيفةٍ عامّةٍ؛ وأن يرتدوا ثيابًا فقيرةً خاليةً من الأناقة؛ وأن يقتسموا وقتهم بين الصلاة وأعمال البرّ؛ وكانوا غالبًا ما يقيمون مع أسرهم، ولكنّهم يعتزلون للتنسّك، على غرار الإخوة الأصاغر.

مثل تلك الممارسات كانت تستجلب، أحيانًا، عداوة السلطات المحلّيَّة، ولا سيَّما عندما كانت مدينةٌ بأكملها، كما حدث مرَّةً، تتبنّى نظام «التائبين»، فتمتنع عن حمل السلاح أو عن قَسَم الولاء للحاكم في حربه ضدّ أعدائه التي غالبًا ما يكون دافعها مصالحه الخاصّة، ممَّا حدا بالبابا أونوريوس الثالث، وبخليفته غريغوريوس التاسع إلى الأخذ بأَزر تلك الجماعات في مواجهة السُّلطات المدنيّة، وحمايتها من تعسُّفها، حتّى استطاع «الإخوة التائبون» بذر مبادئ السلم واللاتسلُّح، وترويض «ذئاب» القرون الوسطى، إلى حدٍّ بعيدٍ.

وكان لا بدّ من إسباغ صفةٍ رسميَّةٍ على تلك الجماعات، وإحاطتها بتأييد الحبر الأعظم؛ وكان ذلك يتطلَّب قانونًا، كان فرنسيس قد أنضج، في ذهنه، خطوطه العريضة، إلاّ أنَّه أوكل إلى الكردينال هوغولينو أمر إصداره، وممّا جاء في ذلك القانون:

– **في مجال تقديس الذات:** على الإخوة والأخوات ارتداء ألبسةٍ وضيعةٍ تتلائم وحياة التَّوبة التي اعتنقوها، وفقًا لمواصفاتٍ حدَّدها القانون. وعليهم تجنّب المآدب، والمسارح، والرقص، وسائر المُتَع الدنيويّة، والاقتصار على وجبتَيْ طعامٍ يوميًّا، وممارسة القطاعة أربعة أيّام في الأسبوع، والصيام كلّ يوم جمعةٍ، فضلاً عن الصَّوم نحو مئة يومٍ في السنة.

وعلى المتعلّمين من أعضاء الرهبانيّة الثالثة تلاوة صلوات الساعات السبع؛ وعلى الآخرين أن يتلوا أربعًا وخمسين مرّة «أبانا» و«المجد للآب»؛ وأثناء الصَّوم الأربعيني على الجميع الاشتراك في صلاة السَّحَر؛ وعلى الجميع فحص ضميرهم كلّ مساءٍ،

والاعتراف والتناول ثلاث مرّاتٍ، على الأقلّ، في السنة؛ وأن يلتئموا جميعًا، كلّ شهرٍ، لحضور القدّاس، والاستماع إلى عظةٍ، والاشتراك في صلواتٍ جماعيّةٍ.

– **في المجال الاجتماعيّ:** على الإخوة أداء ما يترتّب عليهم من ضرائب، ووفاء ما عليهم من ديونٍ، وإعادة كلّ ما حصلوا عليه بصورة غير شرعيّةٍ. وعليهم تحريض أعضاء أُسَرهم على خدمة الربّ خدمةً صالحةً، ودعوة المرضى إلى التوبة، ورفع أمر من يُثيرون الشكوك إلى المسؤول الكنسيّ عن الجماعة. وعليهم المشاركة في تشييع الموتى من إخوانهم، وتلاوة الصلوات استرحامًا لهم. وفي كلّ اجتماعٍ شهريٍّ تجمع مساعداتٌ للفقراء والمرضى، الذين لا يسوغ إهمالهم، ويتوجّب على المسؤولين الكنسيّين زيارتهم وتعزيتهم.

ويُفرض على كلّ أخٍ تدوين وصيّته في غضونِ ثلاثة أشهرٍ من انتسابه إلى الجماعة، وأن يتصالح مع أعدائه، وألاّ يعادي إنسانًا. ويُحظر على الإخوة حمل السلاح، وأداء أيّ قَسَمٍ علنيٍّ.

– **في تنظيم الأخويّة:** يسوس كلَّ أخويَّةٍ زائرٌ، له السُّلطة العليا عليها، وخادمان وعدّة مُرشدين. مهمّة الخادمين التأكُّد من سلامة إيمان طالبي الانتساب، والاستماع إلى تعهّدهم بالولاء لنظام الأخويّة حتّى مماتهم؛ والدعوة إلى اللقاءات الشهريّة، وتوزيع الحسنات والعناية بالمرضى. أمّا المرشدون فيُنتَخَبون من الإخوة، ويقدّمون المساعدة للخادمين.

ذلك القانون إن هو إلاّ مجموعةٌ من الأوامر والنواهي خاليةٌ من اندفاع فرنسيس وطلاوته، ومن استشهاداته الدائمة بالإنجيل، ممّا يؤكّد أنّه، ولئن هو كان والد فكرة تلك الجماعة، لم يُسهم بشيءٍ في صياغة قانونها؛ بيد أنَّه حاول إصلاح ذلك الخَلَل، فكتب «رسالة إلى جميع المؤمنين» تُعتبر بمثابة مدخل لذلك القانون الجافّ، تعوّض ما افتقر إليه من روحانيّةٍ ونَفْحةٍ إنجيليّةٍ؛ وممّا جاء فيها:

«بما أنّي خادمٌ للجميع، فعليَّ أن أكون أبدًا في تصرّفهم، وأن أبلّغهم كلمات سيّدي يسوع العطرة. ولكن بما أنّ أمراضي وأوهان جسدي تحول دون زيارتي لكم جميعًا، قصدتُ من هذه الرسالة، التي ستكون رسولي إليكم، أن أُعيد على مسامعكم كلمات سيّدنا يسوع المسيح، كلمة الآب، وكلمات الروح القدس التي هي روحٌ وحياةٌ».

ثمّ يقول:

«إنَّه لمن أجل خلاصنا جميعًا تجسّد كلمة الله في أحشاء العذراء مريم، وبعد أن عاش مع أمّه فقيرًا، قدَّم نفسه على الصليب ضحيّةً. ومن دواعي الأسف أنَّ قليلين هم الذين يرضون أن يتذوَّقوا عذوبة الربّ، ويتبيّنوا كم حمله خفيفٌ، فيما يؤثر كثيرون الظُّلمات على النور. أمّا الذين يمارسون تعليم الإنجيل، فهؤلاء يستأهلون أن يدعوا طوباويّين. ولكن ما الذي يقتضيه منّا الإنجيل؟ إنّه يأمرنا أن نحبّ الله بقلبٍ نقيٍّ، وأن نعبده بالروح والحقّ، وأن ندعوه باستمرارٍ، فنتلو، في المقام الأوّل، الصَّلاة الربّيّة، ونتناول جسد المسيح ودمه. وفضلاً عن ذلك علينا أن نكون كاثوليكيّين جيّدين، فنختلف إلى الكنائس، ونعترف بخطايانا إلى الكهنة الذين، وإن كانوا خطأةً، فهم، مع ذلك، مُنتَدبو الله الرسميُّون، وبالتالي يستحقّون احترامنا.

«ويأمرنا الإنجيل، أيضًا، أن نحبّ قريبنا كنفسنا. فلنحسن، إذن، إلى إخوتنا، ولنتجنّب الإساءة إليهم. وإن كانت وظيفتنا القضاء، فلنحكم برأفةٍ؛ وإن كانت مهمّتنا أن نأمر، فلنمارس السُّلطة بتسامحٍ، معتبرين أنفسنا خدَّامًا للآخرين. وإن كان دورنا أن نطيع، فلنفعل ذلك بتواضعٍ، إلاّ إذا أُمرنا بما هو خطيئةٌ؛ ولنتحاشَ عن إفراط المائدة، ولنمارس التوبة، ولنعطِ الفقراء بسخاءٍ؛ وأخيرًا، فلنكن بسطاء، متواضعين، طاهرين، فذلك خيرٌ من أن نكون حريصين، حاذقين حسب مفهوم الجسد.

«وليستقرّ روح الربّ على جميع من يسلكون على هذا النحو، وليتّخذ فيهم مقرًّا له، فهم أبناء الآب السماويّ الذي يتمّمون أعماله، وهم، أيضًا، أزواج سيّدنا المسيح، وإخوةٌ له، وأمّهاتٌ. إنّنا له أزواجٌ عندما تتّحد نفسنا المقدَّسة مع يسوع المسيح بالروح القدس، ونحن إخوته، عندما نتمّم مشيئة أبيه الذي في السموات؛ ونحن أُمّهاتٌ له، عندما نحمله في قلوبنا بمحبّتنا، وبصدق ضميرنا، وعندما نلده بأفعالٍ مقدَّسةٍ من شأنها إنارة القريب. يا له من مجد، ويا لها من كرامةٍ، ويا لها من عظمةٍ، أن يكون لنا أبٌ في السماء! بل أيّ كرامةٍ، وأيّ سحرٍ، وأيّ سعادةٍ، وأيّ سلامٍ، وأيّ عذوبةٍ، وأيّ فرحٍ حميمٍ، وأيّ حظوةٍ قصوى أن يكون لنا أخٌ وَهَب حياته عن خِرافه!...».

* * * * *

وما زالت الرهبانيَّة الثالثة تتكاثر في كلّ أرجاء العالم، ضامَّةً في عضويَّتها أُلوفًا من ناشدي الكمال، وممّن جذبهم مثال فرنسيس، وسحرتهم مُثُله في العيش الوفيّ لوصايا

الإنجيل. وقد رفعت الكنيسة إلى مراتب القداسة نحو مئةٍ من أعضاء الرهبانيّة الثالثة، وقد لمعت منهم أسماءٌ متألّقةٌ، مثل القدّيس لويس ملك فرنسا، وفرديناندو، ملك إسبانيا، والأميرة إليزابت الهنغاريّة، وخاطئاتٌ تائباتٌ مثل مرغريت دي كورتوني، وصوفيُّون أمثال أنجيلا دي فولينيو، وعذارى طاهراتٌ مثل روزا دي فيتربي، وعدد من البابوات، أو كهنةٌ بسيطون مثل القدّيس خوري أرس، وتُجّارٌ، وفنّانون، وأُدَباء مثلٍ بيترارك، ورفائيل، وميكل أنجلو، وموريللو، وغالفاني، وكريستوف كولومبوس، فضلاً عن مئتين وخمسة وأربعين طوباويًا يُمثّلون فخر السِّجلاّت الفرنسيسكانيّة.

فرنسيس أخٌ أصغر

في تلك الأثناء، حلّ موعد مجمع التاسع والعشرين من أيلول السنويّ، وقد توافد إليه أُلوف الإخوة من كلّ صوبٍ، تحدوهم رغبةٌ لاهبةٌ في رؤية قدّيسهم الذي حباهم به الربّ مرشدًا، وقائدًا، وقُدوةً، ويختلج فيهم الشوق إلى سماع صوته الحبيب، والاهتداء بإرشاداته المنيرة؛ وقد شاعت في نفوسهم الطمأنينة، بعد أن كذّب حضورُه شائعاتِ موته واختطافه، وإن شقّ عليهم أن يجدوه مضعضع الصحّة، مهدود الجسم، وقد أخذ العمى يدبّ إلى عينَيْه المقرّحتَيْن، اللّتين لا يني يمسح عنهما الدموع المنسابة منهما بلا انقطاعٍ. ومع ذلك كان إشعاعه الروحيّ ما زال أشدّ نفاذًا من ذي قبل، ومجرّدُ حضوره يعيد إلى الأذهان ذكرى حضور المسيح نفسه.

كان فرنسيس يودّ التصدّي للتصدّع الناشب بأخويّته، والعودة إلى تسلّم جميعِ المقاليد، فيُقوّم الاعوجاجات التي برزت في غيابه، وتلك التي أخذت تذرّ قرنها منذرة بالمزيد من الاعوجاج، ومن الحياد عن الرسالة التي انتُدب لنشرها في العالم. بيد أنّ مواجهة الموقف كانت تقتضي إدارةً حازمةً، ومهارةً في التسلّل بين سراديب الدوائر الرومانيّة، وصرامةً في فرض النظام، وهو لم يكن يملك سوى أفكارٍ مُبْهَمةٍ عن التنظيم وفقًا للحكمة البشريَّة، وأفكارٍ أكثر إبهامًا عن ممارسة السُّلطة التي كانت، عنده، تذوب في الحبّ؛ وما تبقّى له من قوًى كان يودّ وَقْفَه على وضع قانون الأخويّة، ضمانًا لسلامته من كلّ عَبَثٍ، ولا سيّما بعد أن استشفّ شبح الخيانة لمبادئ رسالته الإنجيليّة يتجلّى من خلال نزعة المجدّدين إلى الانعتاق من قيد الفقر المقدّس الذي باتوا يرون فيه ضربًا من الوَهْم والتشدُّد الذي لا طائل تحته، ومن قيود البساطة بجنوحهم إلى الاستقرار في أديرةٍ مريحةٍ، والانصراف إلى التبحّر في العلم؛ ومن خلال رغبة الدوائر الرومانيّة

المبتدئون

في إدارة الأخويَّة بواسطة سُلطةٍ متراتبةٍ، متسلسلةٍ، مُحكمة التنظيم، حازمة السياسة، تحلّ محلّ حُرّيَّة أبناء الله العظمى، والمبادرات التي يقودها الروح، والمحبَّة التي كان فرنسيس يُتقنها دون سواها.

وقد شرع مجمع الأخويّة المنعقد، آنذاك، بعزل نائبَيْ فرنسيس اللَّذَيْن تماديا في سوء استخدام سلطاتهما في أثناء غيابه، وبإلغاء جميع التدابير التي اتّخذاها، ثُمّ أقرّ القانون الناصّ على فرض سَنَة ابتداءٍ يخضع لها كلُّ منتَسِبٍ جديدٍ، والتدابير التي تقضي على التشرُّد والتسكّع.

ثُمّ جاء دور فرنسيس كي يتكلّم، وكان الإخوة يترقَّبون بتوقٍ كلماته، إلاَّ أنَّها وقعت عليهم وقوع الصاعقة. وقد اعتراهم الذهول عندما سمعوه يقول: «منذ الآن، اعتبروني ميتًا؛ ولكنَّني أُقدّم لكم الأخ پييترو دي كاتانيا، الذي سنخضع له جميعنا، أنا وأنتم». ثُمّ إنَّه في حركةٍ دراميّةٍ، جثا أمام پييترو دي كاتانيا، وقدّم له فرض الطاعة، وتطلّع إلى السماء، وفتح ذراعَيْه ودعا: «ربّي، إنّني أُعيد إلى يديك هذه الأسرة التي ائتمنتني عليها، بما أنَّني بتُّ عاجزًا عن العناية بها من جرّاء الأوهان التي أنت بها أعلم؛ وإنّني أُوكلها إلى رعاةٍ آخَرين عليهم أن يُؤدّوا الحساب أمامك، يومَ الدين، عن الإخوة الذين سيكونون قد سبّبوا ضياعهم بإهمالهم، أو بقدوتهم السيّئة، أو بإفراطهم في الشدّة».

«منذ الآن اعتبروني ميتًا». كلماتٌ، ولئن خلت من المرارة ومن أيّ تلميحٍ خفيٍّ، وقعت في هوّة الصمت وقع نبأ فاجعةٍ، وتردَّدت لها في صدورٍ كثيرةٍ أصداء ناقوس حزنٍ.

أمّا فرنسيس فقد انزاح عن كاهله عبءٌ ثقيلٌ بعد أن تنازل عن الإدارة لمن هو أكثر أهليَّةً لها، واستطاع التفرُّغ للعمل الأساسيّ المتمثّل في ترسيخ روحانيّة الأخويّة، ووضع قانونها الذي سيظلّ ناظمًا لسلوكها ما دامت قائمةً. وممّا عمَّق شعوره بالارتياح أنّ اختياره لپييترو دي كاتانيا كان اختيارًا موفَّقًا، قوبل برضى جميع الفئات؛ فالرئيس الجديد هو رفيق الساعات الأُولى، وقد لازم فرنسيس منذ مولد رسالته، واعتنق بصدقٍ جميع تطلُّعاته ومُثُله، وأَلَمَّ بجميع شؤون الأخويّة وتطوّراتها، وامتاز بمؤهّلاتٍ إداريَّةٍ ممتازةٍ، فضلاً عن أنّ نشأته الحقوقيَّة، وقدراته العلميَّة كانت كفيلةً بإخراس أيّ اعتراضٍ من قِبَل جماعة المُثقَّفين.

غير أنَّ ذلك الارتياح لم يدُمْ طويلاً، فقد استدعى الربّ پييترو دي كاتانيا إلى جواره، ولم يمضِ، بعدُ، على تولّيه الرئاسة ستّة أشهرٍ؛ وانتابت الحيرةُ فرنسيس، غير أنَّ الكردينال هوغولينو سارع إلى وضع حدٍّ لها بترشيحه الأخ إيليّا رئيسًا جديدًا. وعندما وافق فرنسيس على ذلك الترشيح لم يكن يتوقّع مدى الوبال الذي سينجم عنه؛ فشخصيَّة الأخ إيليّا الشديدة التعقيد لم تكن قد انكشفت، بعدُ، إذ كان إيليّا قد اعتصم، حتّى ذاك، بصبرٍ جمٍّ، واحتاط بالكثير من الحذر، قبل أن تسنح له الفرصة التي طالما تطلَّع، تائقًا، إليها، كي يُجسِّد مطامعه في إبراز شخصيّته المتألّقة، وفي إضفاء صبغةٍ من العظمة الرنَّانة على الأخويَّة الفرنسيسكانيّة، مكرِّسًا بها انتصاره الشخصيّ الباهر، ومناقضًا كلّ أحلام مؤسّسها، بحيث قيل فيه إنَّه أقلّ فرنسيسكانيَّةً من أيّ إنسانٍ.

الأخ إيليّا

لا يزال غموضٌ كثيفٌ يكتنف شخصيّة الأخ إيليّا، ولا عجب في ذلك، فهي شخصيَّةٌ تموج بالتناقضات. ولكن من المحقَّق أنّه كان عصاميًّا، شديد الذكاء، تحدوه رغبةٌ عارمةٌ في التألّق والتفوّق والعظمة، وأنَّه كان يتذرَّع، لتحقيق مآربه، بقدرٍ جمٍّ من الحيطة والصبر.

يُعتقد أنَّه من مواليد أسّيزي، وأنَّه وُلد في نفس الوقت الذي وُلد فيه فرنسيس. وقد نشأ نشأةً وضيعةً، وعمل في صناعة الفُرْش والأسرّة، إلاّ أنَّه كان دؤوبًا على التعلّم، وفي سبيل تحصيل العلم تقلّب في شتّى الأعمال الكفيلة بتوفير نفقاته، فدرَّس صغار التلاميذ، وعمل كاتبًا بالعدل، إلى أن تخرَّج من جامعة بولونيا.

كان يُحبّ فرنسيس ويُجلّه، ولكنَّه لم ينتسب إلى أخويَّته إلاّ بعد أن لحظ سرعة انتشارها، واستشفّ، بحَدْسه الثَّاقب، عظمة مستقبلها الذي أخذ يتطلّع إلى تحقيقه بنفسه، فيضمن به، لذاته، نصرًا مُبينًا.

وكان فرنسيس يحبّه، ولكنَّه كان يُؤنس تجاهَه قَلَقًا مُبْهَمًا، وربَّما لمس، مذ عرفه، الطموح المضطرم الذي كان يُلهب صدره، ويحفز تطلّعاته، فيخاف منه على الأخويّة، ويخاف عليه. وبعد أن غدا رئيسًا عامًّا على الأخويّة، وذاع صيته، وتعزَّزت أمجاده،

لم يكفَّ يومًا، عن التماس رضى فرنسيس الذي كان يستنكر سعيه وراء الأمجاد، وإهماله لروح الأخويّة. وقد وافاه، يومًا، في أحد الأديرة طالبًا بركته، ولكنَّ فرنسيس أشاح بوجهه عنه، كرَّةً إثر كرّةٍ، وجهد في التحاشي عن محادثته. ولكن إزاء إصراره وتوسُّله، اقتصر على مخاطبته بعبارةٍ واحدةٍ: «إنّك تودي بنفسك إلى الهلاك، يا إيليّا!» وقد استولى الحزن على إيليّا فجثا أمام فرنسيس متوسّلاً: «صلِّ من أجلي، يا أبتاه!».

وبقدر ما كان فرنسيس راسخًا في البساطة والتواضع، كان إيليّا كَلِفًا بالأمجاد والتألُّق، والمظاهر البرّاقة، وبإسباغ حلَّةٍ من العظمة حتّى على التواضع، إذ لم يكن يتورّع عن قرع طبول الدنيا كلّها للتغنّي بالبساطة الإنجيليّة، إكرامًا لفرنسيس. ورُبَّما راودته، بين الفينة والفينة، نزعاتٌ صوفيَّةٌ، وميولٌ إلى الفضيلة، ولكنَّ مطامعه المهيمنة على كلّ كيانه كانت تنأى به أبدًا عن سبيل مؤسّس الفرنسيسكانيّة، وروحانيّته العميقة، وعن الإلهام الفريد الذي دفعه في دروب رسالته.

وقد ظلَّ إيليًّا يُجلّ فرنسيس طالما هو بقي على قيد الحياة، متحاشيًا عن إغضابه، أو التصدّي له؛ وقد بذل جهودًا مخلصةً في سبيل تخفيف وطأة الآلام المبرّحة التي كدَّرت أيَّامه الأخيرة؛ وعقب موته، حرص على تكريمه أعظم تكريمٍ بإشادته على سفح جبل سوبازيو، «الدير المقدّس» الفخم الذي جعله مقرًّا خاصًّا له، وملجأً للباباوات، والذي يعلو كنيسة القدّيس فرنسيس، بل الكنائس الثلاث المتطابقة إحداها فوق الأُخرى، والتي يتكوّن منها المقرّ المهيب. صرحٌ فخمٌ يصرخ بالغنى والجبروت، شاء به إيليّا تكريم معلّمه، والتعبير عن إجلاله له، بالأسلوب الذي كان يمقته، فوق كلّ شيءٍ، فرنسيس الزاهدُ في كلّ مجدٍ، والمُغرِق في التواضع والبساطة!

منذ تعيينه، تزعّم إيليّا حركة المجدّدين، ومضى قُدُمًا في إشادة الأديرة الفخمة حتّى باتت مشاريع البناء هاجسه ووسواسه، وتوغَّل في إنشاء الجامعات والمدارس كي ينافس بها الدومينيكيّين، بعد أن حمل الكردينال هوغولينو على إقناع فرنسيس بالإحجام عن معارضة نزعة العلم لدى إخوته، وأوجد، بالاتّفاق مع الكردينال، المبرّرات والخِدَع القانونيّة، مثل اعتبار الكرسيّ الرسوليّ هو مالك الأديار والمدارس الفرنسيسكانيّة، بحيث لا يتعارض ذلك مع رفض فرنسيس لأيّ تملّكٍ.

وقد جهد إيليّا، ما دام فرنسيس على قيد الحياة، في ألاَّ يُغضبه كثيرًا، احترامًا له وإشفاقًا عليه. ولكنَّه، عقب وفاته، وخلوّ الساحة له، نزع عن وجهه كلّ الأقنعة، وتحلَّل

من قيود الحيطة، ومضى يعيث فسادًا، فطغى واستبدّ، وبات يُعيّن الرؤساء ويخلعهم على هواه، وفقًا لما يُظهرونه من خضوعٍ ومداهنةٍ وتملّقٍ، أو لما يواجهونه به من معارضةٍ. وقد نكَّل بكلّ معارضيه، ولا سيّما بالأوفياء لنهج فرنسيس، وجرَّعهم شتّى ضروب الغُصَص، فلم يتورّع، مثلاً، عن سجن رفيقه ومساعد فرنسيس، الأخ سيزير دي سباير، وعن تعذيبه حتّى الموت، كما أمر بضرب الأخ ليون بالسياط؛ وتحامل على الأخ برناردو دي كوانتاڤالي، حتّى اضطرّه إلى الفرار من أسّيزي، هربًا من غضبه وتعسُّفه. وإذ لم يكن إيليّا ذا رتبةٍ كهنوتيّةٍ، فقد ناصب الكهنة، في الأخويّة، العداء، وأذلَّهم، وأناط أهمّ المناصب بإخوةٍ لا رتبة كهنوتيّةً لهم.

وبحجّة تمثيل الأخويَّة تمثيلاً لائقًا، أصبح يأبى التنقّل إلاّ على صهوات الجياد الأصيلة المزركشة بالذهب، وأقام على خدمته ثُلَّةً من الغلمان المتأنّقين، واتَّخذ له طاهيًا رفيع المواهب يُصلح له من الأطعمة أفخرها وأشهاها، بحيث اشتهرت مائدته برهافتها ورفعة ذوقها وغناها؛ وبات يأبى النهوض حتّى لسادة القوم وعظمائهم، إذا ما جاؤوه زائرين.

وإلى ذلك كان يتمتَّع بذكاءٍ متوقّدٍ، وبلباقةٍ فذّةٍ، وبدهاءٍ خارقٍ، فتقرَّب من عظماء العالم، وأصاب لديهم حظوةً فريدةً، فغدا مستشار البابوات والأباطرة على السواء، أي أُولي أعظم سلطتَيْن آنذاك، وحَكَمًا ووسيطًا بينهم، فتهافت عظماء العالم على خطب ودّه، وأغدق عليه الملوك والأمراء الهدايا، حتّى قيل عنه إنَّه «لم يحظَ أحدٌ في العالم المسيحيّ كلّه، بمثل شهرته، في زمانه».

وقد شغلته مهامّه الدبلوماسيّة، وعلاقاته مع العظماء عن إدارة الأخويّة الفرنسيسكانيّة، فانتدب لهذه المهمّة وكلاء عنه مجرَّدين من كلّ فضيلةٍ، بل من كلّ خُلُقٍ، فما كانوا له، في الواقع، سوى مستشاري سوءٍ، وأدوات انتقامٍ وتمثيلٍ بمعارضيه؛ فتعالت صرخات التظلّم من كلّ صوبٍ؛ واتَّفق رؤساء الأديار الفرنسيسكانيّة في كلٍّ من ألمانيا وفرنسا وإنكلترا، عام **١٢٣٥**، على رفع شكواهم إلى البابا غريغوريوس التاسع، مناشدين إيّاه بوضع حدٍّ لديكتاتوريّة إيليّا التي باتت لا تُطاق. ولكنّ الحبر الأعظم الذي كان يستخدم وساطات إيليّا مع الملوك، تريّث حتّى عام **١٢٣٩**، حيث اتَّضح له أنّ إيليّا قد أمسى أكثر انحيازًا إلى جانب الإمبراطور من جانبه، فرشقه بالحُرْم الكنسيّ وخلعه عن رئاسة الأخويّة الفرنسيسكانيَّة؛ فالتجأ إلى الإمبراطور فريديريك

الثاني الذي ضمَّه إلى حاشيته. ثُمّ حاول إيليّا عام ١٢٤٤، بعد أن جلس على كرسيّ بطرس البابا إنوشّنتسيوس الرابع، كسب رضاه، واستعادة سُلطاته على الفرنسيسكانيّين، غير أنّ مساعيه لم تكسبه سوى حُرمٍ كنسيٍّ ثانٍ؛ ففزع مع بعض أتباعه إلى ديرٍ قرب مدينة كورتوني حيث أشاد مزارًا للقدّيس فرنسيس. وقُبَيْل وفاته طرق أحد الإخوة، ويُدعى فرنسيس، باب الحبر الأعظم، ملتمسًا لإيليّا الصفح، فظفر له به؛ ومات إيليّا في ٢٢ نيسان ١٢٤٥، وقد تصالح، في لحظاته الأخيرة، مع الكنيسة.

المشرّع

عام ١٢٢١، كان الأخ إيليّا هو الذي يدير الأخويّة، وصاحب السُّلطة المادّيّة والزمنيّة فيها؛ ولكنّ فرنسيس كان ما برح، في نظر روما، هو الزعيم بلا منازعٍ، وفي نظر معظم الإخوة، هو روح الأخويّة وقائدها المحبوب، ومرشدها المُلْهَم، ومشرّعها المُنتَدَب لوضع قانونها النهائيّ. وقد اختار، لمؤازرته في تلك المهمّة، الأخ سيزير دي سباير، العالم الطويل الباع بالقانون والكتاب المقدّس، والذي كان يشاطر فرنسيس تطلّعاته وأحلامه، وينافسه في اندفاعه.

وانبرى فرنسيس لمهمّة التشريع بحماسٍ مضطرمٍ. لقد كان عليه، بالطبع، أن يُضمّن القانون الجديد القرارات الحديثة التي كانت تفرض سَنَة ابتداءٍ، وتمنع التشرُّد والتسكّع؛ بيد أنّ ما كان يطغى على تفكيره هو تصوّره لمستقبل الأخويّة على ضوء السنوات العشر السالفة من عمرها. فقد كان ما برح يتردّد في حنايا صدره صدى كلمات الإنجيل، والبدايات البطوليّة. كلّ ذلك، فضلاً عن مجموعة مقتضيات التنفيذ العمليّ للرسالة الفرنسيسكانيّة، كان يُمثّل العناصر الأساسيّة لصياغة القانون النهائيّ؛ وقد أفرغ فرنسيس على تلك العناصر صوفيّته الملتهبة، وعبقريَّته المتحرّرة الفريدة، وشاعريَّته العذبة، ونظرته الواسعة بحجم العالم أجمع، وبحجم جميع الخلائق التي تقطنه.

ولا بِدْعَ إن جاء نصّ القانون الأوّل الذي وضعه فرنسيس مزيجًا مذهلاً منقطع النظير من أساليب متداخلةٍ، تسير فيه جنبًا إلى جنب نفحات الشعر، وتوثُّبات الصلاة، والإرشادات والتدابير العمليّة المفصّلة التي أنضجتها حياةٌ من النضال الدؤوب المستمرّ؛ ويغمر فيه الأوامر والنواهي حنانٌ حارٌّ، ودفاعٌ مندفعٌ عن حرِّيَّة كلّ فردٍ، حرِّيَّة أبناء اللّه

العظمى، وتهيمن على كلّ ذلك كلمات الإنجيل التي تحتلّ من نصّ القانون حيِّزًا رحبًا، فكأنّ الإنجيل هو الذي يتكلَّم ويُشرِّع.

لقد أراد فرنسيس قانونًا يشعّ بالحرِّيَّة، حيث القسط الأدنى من التدابير القانونيّة، والقسط الأوفى من الإنجيل.

لقد كان فرنسيس يَجيش حماسًا، وهو يضع القانون، مستسلمًا لنَفَحات الروح، مُطلقًا لقلبه العنان، فجاء ذلك القانون المستفيض سيلاً هادرًا يتدفّق من علٍ، في ثلاثٍ وثلاثين صفحةً، محطِّمًا كلَّ السدود والأقنية، وصورةً رائعةً لفرنسيس الذي لا يُبارحه شبابه عندما يتكلّم عن الله، وانعكاسًا لحياته التي استُهِلَّت بالبذخ، وانتهت إلى الثوب المُرقّع، ابتدأت بالتبذير من غير قيدٍ، وانتهت إلى مقتٍ شديدٍ للمال، ونفورٍ منه؛ جاء خلاصة خبرة فرنسيس في إدارة الأخويّة منذ عام ١٢٠٩، وحصيلة تجربة حياةٍ مدهشةٍ، متوثّبةٍ، غنيَّةٍ، حياةٍ تُغنّي وتُنْشد، وهي تجتاز المراحل البطوليَّة، من رسالة الإنجيل الداعية إلى التجرّد والفقر المُطْلَقَيْن، وإنكار الذات، والعمل اليدويّ، والتسوّل بما واكبه من خجلٍ وفرحٍ، والحياة المرتحلة لزرع بذار الكلمة، والانطلاق إلى الآفاق البعيدة.

ذلك القانون كان زبدة الإيحاءات السماويّة التي رافقت جهاد فرنسيس، وجوابًا على صلواته المستمرّة سحابة تلك السنوات؛ بل جاء تمجيدًا للعفّة، ذلك الكنز الثمين الذي يتعذّر رؤية الله بمعزلٍ عنه، وللتوبة التي اكتملت فتحوّلت فَرَحًا بالتحرّر من عبوديّة أهواء الجسد، وتعبيرًا عن حبٍّ جيّاش، وصرخة إيمانٍ من أعماق الكيان، ونشيد تعظيمٍ للربّ تطغى عليه نشوةٌ صوفيَّةٌ ذاهلةٌ مذهلةٌ، وفي نهاية القانون يصبّ ذلك السيل الهادر، بكلّ ما جرفه في طريقه، في محيطٍ من التسبيح والشُّكر.

فضلاً عن كلّ ذلك، جاء ذلك القانون تحدِّيًا للمجدِّدين، إذ لم يتزحزح فيه فرنسيس قيدَ أنملةٍ عن مبادئه الثابتة في الفقر والبساطة الإنجيليَّيْن.

ورُبّما هو آنس، عقبَ فراغه من وضعه، مثل فرح الأمّ التي وضعت وليدها، بعد أن جسّد فيه رؤيته لأخويّةٍ إنجيليّةٍ، حقًّا، على ضوء تجربةٍ حيّةٍ، أخويّةٍ فقيرةٍ ممتزجةٍ بالفقراء والمرذولين، تقوم على الصلاة والتبشير، متحرّرةٍ من كلّ رغبةٍ في السيطرة. ولكن لم يكن يشاطر فرنسيس هذا الشعور سوى فئةٍ ضئيلةٍ من إخوته المخلصين الذين خفتت أصواتهم إزاء استفحال نفوذ المجدّدين. وقد أذهل ذلك النصّ هؤلاء مثلما أذهل

الدوائر الرومانيّة، فهم، جميعًا، كانوا دون فرنسيس بُعْدَ نَظَرٍ وسِعَةَ أفقٍ، وشاعريَّةً، وتطلّعًا إلى الكمال الإنجيليّ، وأكثر اهتمامًا بالتدابير العمليّة التي هي في منال الجميع؛ وقد استغلق عليهم تداخل الأساليب الذي اعتمده فرنسيس، ومسحة الشعر، والصوفيّة التي أضفاها على ما يُفرض أن يكون سَردًا لموادّ تنظيميّةٍ عقلانيّةٍ مُحكَمة التسلسل.

وعُرِض القانون للنقاش في مجمع العنصرة لعام ١٢٢١، الذي كرَّس التطوّر الخطير الذي كانت تعيشه الأخويّة، ودلّ على أنّ أيّام كان فرنسيس النبيّ الذي لا يُقاوَم، والذي تُعتَبر كلماته آياتٍ يلتهمها الجميع بنَهَمٍ قد ولَّت. صحيحٌ أنَّ أحدًا لم يجسر على معارضة جوهر القانون وفحواه، إلاّ أنّ ردّ فعل المجمع حياله كان فاترًا.

كان يرئس المجمع الأخ إيليّا، المزهوّ بتحقيق حلم الرئاسة التي طالما تطلّع إليها بلهفةٍ، وحرص على التمتّع بها إلى أقصى حدٍّ، وممارستها بكلّ ما يستطيع من سلطانٍ، في حين كان فرنسيس يقبع على الأرض إلى جانبه، وقد شحّ نظره، وبُحّ صوته، وخار حَوْلُه، فإذا ما رغب في إبلاغ رأيٍ، أو إبداء ملاحظةٍ، شدّ طرف ثوب «الرئيس»، وهمس في أذنه ما يريد. غير أنَّه، مع ذلك، كان متأهِّبًا للدفاع عن قانونه بلا وَجَلٍ ولا هوادةٍ، وقد أكّد تأهُّبه ذلك، باستهلاله كلامه عند تقديمه القانون قائلاً: «تبارك الربّ إلٰهي، الذي يُعلّم يديّ القتال». وكان واثقًا من أنَّ مئات الإخوة الذين استقبلهم بنفسه في الأخويّة، ونفث فيهم روحه واندفاعه، لا بدّ أن يقفوا إلى جانبه، للذَّود عن رسالتهم الأصيلة، ومن ثَمّ، تجنَّب إيليّا وأتباعه المواجهة، ولكنَّهم اعترضوا بأنّ قانون فرنسيس مفرطٌ في الاستفاضة، والاستشهادات والاستطرادات النافلة، وتغلب عليه الشطحات الغنائيَّة والصوفيّة، وتثقله نصوص الإنجيل، في حين هو يفتقر إلى الإجراءات العمليَّة التفصيليّة، بحيث فَقَد صفة الوثيقة القانونيّة التي كانوا ينتظرونها؛ ومن ثَمّ كان لا بدَّ من تشذيبه وإيجازه وتكثيفه، حتّى يصبح أكثر اقتضابًا، ودقّةً وواقعيّةً، وأكثر توافقًا مع نصّ «قانون».

ولا ريب أنّ إيليّا وأتباعه كانوا يُبيّتون نيَّة توسّط الكردينال هوغولينو الذي لم يستطع حضور ذلك المجمع، كي يتناول ذلك القانون بالتعديل، فيحذف منه كلّ النصوص المتشدّدة، ولا سيّما في مجال الفقر، ويُدخل إليه موادّ تلبّي رغباتهم في التعلّم والتملّك.

وعندما انفضَّ المجمع اعترت الجميعَ كآبةٌ لم يعهدوا لها مثيلاً من قبل، إذ افتقدوا، وهم يفترقون، ذلك التوق إلى الاجتماع مجدَّدًا، بعد حينٍ. ففرنسيس، روح الجماعة

الخفَّاق المضطرم كان لا يزال هو القدوة المثلى، ولكنَّ يده الحانية الخبيرة بعالَم الروح لم تعُدْ هي تقود خُطاهم. أمَّا الرئيس الجديد فكان يفتقر إلى ذلك الحبّ الدافق الفائض من قلب فرنسيس، الذي كان يغمرهم، ويملأهم عزاءً واندفاعًا؛ فكلّ ما كان يُجيده إيليّا هو أن يأمر، ويتزعَّم، ويُطاع.

ومن حسن طالع المسيحيّة أنّ نصّ ذلك «القانون الأوّل» الذي وضعه فرنسيس ورفضه مجمع ١٢٢١، قد حُفِظ وثيقةً ثمينةً، تنهل منها الأجيال اللاحقة حتّى اليوم. وإنَّه ليطيب لنا أن نورد، فيما يلي، نبَذًا منه:

«– دستور الأخوة: الطاعة والعفّة، وعدم امتلاك أيّ شيءٍ، بل التخلّي عن كلّ شيءٍ، وإنكار الذات في سبيل اتّباع يسوع.

– إن التمس أحدٌ الانضمام إلى الأخويّة، فليستقبله المسؤول برقّةٍ، وليُبيّن له أنّ عليه بيع كلّ ما يملك وتوزيعه على الفقراء. من غير ما تدخّل من الإخوة في شؤونه المادّيّة. ثمّ يعطيه الرئيس ثياب الابتداء لمدَّة سنةٍ، وبعد انقضائها يلتزم بالطاعة، وبعدم هجر الأخويّة، أو الانتقال منها إلى رهبانيّةٍ أُخرى.

– وليرتدِ جميع الإخوة ثيابًا فقيرةً يمكنهم رقعها بقِطَعٍ من أكياسٍ، أو بخرقٍ أُخرى، بمباركة اللّه. وعليهم المضيّ قُدُمًا في هذا النهج ولو اتُّهموا بالرياء.

– على الرؤساء – خَدَمة الأخوة – أن يُكثروا من زيارتهم لهم، وأن يرشدوهم روحيًّا ويُشجّعوهم. وعلى الإخوة طاعتهم بإخلاصٍ في ما لا يتعارض ونهج الأخويّة. وليذكر الرؤساء قول الربّ: «قد جئت لأخدُم لا لأُخدَم»، وأنّ العناية بنفوس الإخوة قد أُوكلت إليهم، فإذا ما هلك أحدٌ من جرّاء خطإهم أو قدوتهم السيّئة، فسيؤدّون عن ذلك الحساب، يوم الدين، أمام الربّ يسوع. وليعامل الإخوة بعضُهم بعضًا وفقًا لنصيحة المسيح: «كلّ ما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوا أنتم أيضًا بهم».

– إن أَمَرَ أحد الرُّؤساء أخًا بما يتعارض مع ضميره أو مع قانون الأخويّة، فعلى الأخ أن يعصى ذلك الأمر، إذ لا يسوغ ارتكاب معصيةٍ أو خطيئةٍ باسم الطاعة. وإن لحظ الإخوة رؤساء يسلكون وفق الجسد لا وفق الروح، في ما يتعلّق بالحرص على تنفيذ قانون الأخويّة، فليرشدوه، وإن لم يرعوِ، فليناقشوا الأمرَ مع الرّئيس العامّ أثناء انعقاد مجمع العنصرة، وكذلك فليفعلوا مع أيّ أخٍ يَحيد عن قانون الأخويّة.

وليسعَ الجميع إلى مؤازرة من يقع في الخطيئة، برقّةٍ،

ولا يكُنْ للإخوة، فيما بينهم، سُلطةٌ أو سيطرةٌ لأحدٍ على الآخر. بل من أراد أن يكون فيهم الأكبر، فليكن لهم خادمًا.

ولا يُسئْ أحدٌ لآخر، بل فليخدم أحدُهم الآخر، وليخضع له طائعًا.

– وليجهد المُكلّف بالخدمة في شدّ أَزر من يعاني من أزمةٍ، كما يتمنّى أن يعامَل لو هو وُجِد في وضعٍ مماثلٍ. ولا يُدْعَ أحدٌ رئيسًا، بل فليُدعَ الجميع إخوةً أصاغر، وليغسل بعضهم أرجل البعض.

– عندما يعمل الإخوة لدى الغير فليتحاشوا عن أيِّ منصبٍ يجعلهم يأمرون الآخرين، أو أيّ عملٍ مشبوهٍ، وأيّ عملٍ قد يؤدّي إلى هلاك نفوسهم، بل فليكونوا أصغر الجميع، وخاضعين للجميع.

وليمارس كلُّ واحدٍ المهنة التي يتقنها، وليتقاضَ، لقاء عمله، ما يحتاج إليه، خلا المال.

وبما أنّ البطالة هي عدوّة النفس، فليُكِبّ الإخوة، دائمًا، على عملٍ صالحٍ، أو على الصلاة.

وليحرص الإخوة، أينما وُجدوا، على ألاّ يمتلكوا أيًّا من الأماكن التي يقيمون فيها، حتّى مناسكهم، وألاّ يدافعوا عنها في وجه الطامعين فيها. وليستقبلوا كلّ من يأتيهم، صديقًا أو عدوًّا، سارقًا أو لصًّا، بمحبّةٍ.

– وليحرص الإخوة على عدم إظهار وجوهٍ كئيبةٍ أو متجهّمةٍ، كالمرائين، بل فليكونوا فَرِحين بالربّ، مبتهجين، ورقيقي المعشر، كما يليق بهم.

– وليحترز كلُّ أخٍ، أينما كان أو مرّ، من أن يتلقّى أو يوعز إلى غيره أن يتلقّى مالاً أو دراهم، لا في سبيل شراء ثيابٍ أو كتبٍ، ولا بمثابة أجرٍ عن عملٍ؛ وليُمْتَنَعْ عن ذلك مُطلقًا، تحت أيّة حجّةٍ، إلاّ في حالة الضرورة القصوى من أجل معالجة الإخوة المرضى؛ إذ ينبغي ألاّ نُقيم للمال والدراهم من قَدْرٍ أكثر ممّا نقيم للحصى. فإنّما الشيطان يبتغي أن يعمي بصيرة كلّ من يرغب فيها، ويقدّرها أكثر من تقديره للحجارة.

ولنحترز، نحن الذين تخلّوا عن كلّ شيءٍ، من فقدان ملكوت الله، مقابل هَنَةٍ لا شأن لها كالمال، ولا نهتمّنّ به أكثر من اهتمامنا بالغبار الذي ندوسه بأرجلنا.

وإذا ما حدث أن قَبِل أحد الإخوة مالاً – إلاّ من أجل المرضى – أو احتفظ به، فليُنظَر إليه كأَخٍ زائفٍ، وسارقٍ ولصٍّ، و«حامل كيسٍ» (مثل يهوذا الإسخريوطيّ) إلى أن يتوب توبةً صادقة.

وليمتنع الإخوة عن قبول المال بمثابة حَسَنةٍ، بأيّة حالٍ من الأحوال، ولأيّ غرضٍ.

– وليجهد الإخوة في التشبُّه بفقر سيّدنا يسوع المسيح وتواضعه، فلا يمتلكوا شيئًا من متاع العالم، عملاً بقول الرسول: «إنّنا لم (ندخل) العالم بشيءٍ، ولن نستطيع أن نخرج منه بشيءٍ، ومن ثمَّ فإن كان لنا القوت والكساء فلنقنع بهما».

– وليسعد الإخوة بوجودهم بين ظهرانَيْ أقوامٍ وضيعين ومُحْتَقَرين، فقراء وذوي عاهاتٍ ومرضى، وبُرْصٍ ومتسوّلي الطرقات. وإذا اقتضى الأمر، فليمضوا يتسوَّلون، ولا يشعروا من جرَّاء ذلك بالخجل، ذاكرين أنّ سيّدنا يسوع المسيح، ابن الله الحيّ، الكلّيّ القدرة «قد جعل وجهه مثل حصاةٍ»، حسب قول النبيّ، ولم يخجل بذلك. فقد كان فقيرًا، مرتَحِلاً، وعاش من الحسنات، هو والطوباويّة أمّه، وتلاميذه. فالحسنة إرثٌ وحقٌّ للفقراء، اكتسبهما لنا سيّدنا يسوع المسيح؛ والإخوة الذين يجهدون في الحصول عليها سينالون مكافأةً كبرى، كما أنّهم يوفّرون لمن يؤدّونها غنًى وثوابًا.

وليُعلم الإخوة بعضُهم بعضًا، من غير حَرَجٍ، بحاجاتهم المتبادَلة، كي يوفّروها في ما بينهم، وليحبّ كلّ واحدٍ أخاه، وليُطعمه، كما تحبّ الأمُّ ابنها وتغذّيه، بما ييسّره له الربّ.

– إن أصيب أخٌ بمرضٍ، أينما وُجد، فعلى الإخوة ألاّ يبارحوه إلاّ بعد أن يضعوا إلى جانبه أخًا، أو، إذا اقتضى الأمر، عدَّة إخوةٍ ليقوموا على خدمته، كما يودّون أن يُخدَموا، هم أنفسهم. وعلى الأخ العليل أن يشكر للربّ افتقاده له، وألاَّ يفرط في التماس العلاج والشفاء، وألاّ يحبّ جسده أكثر من نفسه.

– ليتحاشَ الإخوة عن النميمة، والمماحكات الكلاميّة، وليجهدوا في حفظ الصمت ما استطاعوا، وليحترزوا من الغضب، وليعبّروا، بأعمالهم، عن محبَّتهم، بعضهم لبعض، وليتجنّبوا الحكم على الغير، وليسعوا إلى الدخول من الباب الضيّق.

– ليحترز الإخوة من أيّة نظرةٍ أثيمةٍ إلى النساء، ومن معاشرتهنّ، ومن السير معهنّ في الطريق، أو مشاركتهنّ الطعام، أو التحدّث معهنّ على انفرادٍ.

– عندما يمضي الإخوة إلى العالم، عليهم ألاَّ يحملوا للطريق شيئًا: لا عصًا، ولا مزودًا، ولا خبزًا، ولا فضَّةً. وأيّ بيت دخلوا فليقولوا أوّلاً: السلام لهذا البيت، وليمكثوا فيه يأكلون ويشربون ممّا عندهم. وعليهم ألاّ يُقاوموا الشرّير، بل من لطمهم على خدّهم الأيمن، فليقدّموا له الآخر أيضًا؛ وإن أخذ أحدهم ثوبهم، فلا يمنعوه من أخذ ردائهم؛ كلّ من سألهم فليعطوه، ومن أخذ مالهم فلا يطالبوه أبدًا.

– على الإخوة ألاَّ يمتلكوا بهيمةً عندهم أو عند آخرين؛ وألاَّ يمتطوا في سفرهم راحلةً، إلاَّ إذا اضطرّهم إلى ذلك المرض أو أيّة ضرورةٍ مُلحّةٍ.

– على الذين يمضون للتبشير في بلاد غير المؤمنين، اتّباع واحدٍ من أسلوبَيْن: الامتناع عن أيّ جدالٍ، والخضوع، في سبيل الله، للجميع، والشهادة عن مسيحيَّتهم بسلوكهم. أو إن هم وجدوا الظروف مؤاتيةً، فليبشّروا بالإنجيل، ذاكرين أنَّهم وهبوا حياتهم للربّ، فلا يَخشوا الاستشهاد.

– لا يعظنَّ أحدٌ من الإخوة خلافًا لتقاليد الكنيسة ووصاياها، أو من غير إذن رئيسه؛ وعلى الرئيس ألاَّ يمنح مثل ذلك الإذن إلاّ بعد تمحيصٍ. ولكن على جميع الإخوة أن يعظوا بقدوة سلوكهم.

وعلى الواعظ ألاّ يحتكر الوعظ، وأن يتخلّى عن تلك المهمّة حالما يُؤْمَر بذلك، ومن غير اعتراضٍ. وعليه أن يتَّضع، وألاَّ يزدهي بفصاحته، أو بأيّ عملٍ يجريه الله على يديه، على حدّ قول يسوع: «لا تفرحوا بأنَّ الأرواح تخضع لكم».

وعلينا، جميعًا، أن نتيقَّن من أنَّنا لا نمتلك سوى شوائبنا وخطايانا، وأن نعمل بقول القدّيس يعقوب: «احتسبوا من دواعي السرور الكامل أن تقعوا في مِحَنٍ متنوّعةٍ».

– ولنحترز من حكمة العالم، وفطنة الجسد؛ فالفكر الجسديّ يبتغي الكلام، ولا يهتمّ بالأعمال، ولا يُعنى بدينٍ وقداسةٍ كامنَيْن في الروح، بل يتوخّى دينًا وقداسةً يتجلّيان في الخارج، لعيون البشر. عن هؤلاء قال يسوع: «حقًّا أقول لكم إنَّهم نالوا أجرهم في هذه الدنيا».

ولنَعْزُ كلَّ خيرٍ إلى الله وحده ونشكره.

– إن أنكر أحد الإخوة الإيمان والمناقبيَّة المسيحيّة، بالقول أو بالفعل، وأبى التوبة، فليُطرَد من الأخويَّة.

– بوسع الإخوة، عندما يجدون ذلك مناسبًا، أن يتلفَّظوا بمثل هذه التسابيح والنصائح، أمام أيٍّ كان، وببركة الله: «خافوا وكرّموا، سبّحوا وباركوا، اشكروا واعبدوا الربَّ الكليَّ القدرة، في ثالوثه ووحدانيّته، أبًا وابنًا وروحًا قدسًا، خالق كلّ شيء؛ توبوا وأثمروا ثمار توبةٍ لائقة. واعلموا أنّكم ستموتون قريبًا. أعطوا تعطوا، اغفروا يغفر لكم. إن لم تغفروا للناس سيّئاتهم، فلن يغفر لكم الربّ سيّئاتكم...».

– فلنتأمّل قول الربّ: «أحبّوا أعداءكم، أحسنوا لمن يبغضونكم، فسيّدنا يسوع المسيح، الذي علينا اقتفاء أثره، سمَّى «صديقًا» من خانه، واستسلم طوعًا لجلاّديه. أصدقاؤنا، إذن، هم جميع من يُسبّبون لنا ظُلْمًا ومضائق ومتاعب، وإهاناتٍ وشتائم، وآلامًا وهمومًا، والاستشهاد والموت. هؤلاء علينا أن نحبَّهم كثيرًا، فإنّ ما يُسبّبونه لنا سيوفّر لنا الحياة الأبديّة.

– فلنبغض جسدنا برذائله وخطاياه، إذ إنَّه بجنوحه إلى الملذّات ينتزعنا عن الله، وعن الحياة الأبديّة... ولأنَّ خطايانا تجعلنا قذرين، بؤساء، أعداءً للخير، نازعين للشرّ، فكما يقول الربّ في الإنجيل: من قلب الإنسان تخرج الأفكار الشرِّيرة، الفسق والزنى والقتل والسرقة والطمع والخبث والمكر والحسد، وشهادات الزور، والشتائم والكبرياء والحماقة.

ولكن، وقد انتبذْنا العالم، ما علينا سوى الجهد في تحقيق مشيئة الربّ وفي إرضائه، ولنحذرنّ من أن تكون نفوسنا قارعة الطريق، أو الصَّخر، أو الشوك التي عناها يسوع في مَثَل الزارع.

فلنَدَع الموتى يدفنون موتاهم، ولنحذر مكائد إبليس الذي يحاول الحؤول دون ارتقاء فكر الإنسان وقلبه نحو الله، وإخماد وصايا الربّ وكلامه في ذاكرته، وتضليل قلبه بشؤون الأرض وهمومها، كي يستقرّ هو فيه.

إنّني، باسم الحبّ المقدّس، الذي هو الله، أتوسَّل إلى جميع الإخوة، الرؤساء والآخرين، أن يزيحوا كلَّ عائقٍ وهمٍّ ما استطاعوا، كي يخدموا، ويعبدوا، ويمجِّدوا الربّ بقلبٍ طاهر، وفكرٍ مستقيم، وهذا هو ما يطلبه الربّ فوق كلّ شيءٍ. فلنُقِم له أبدًا في ذواتنا هيكلاً ومنزلاً، ولنُصلِّ دائمًا بلا كللٍ، فالله روحٌ، وعلى عابديه أن يعبدوه بالروح والحقّ. ولنفزع إلى الله راعي نفوسنا الصالح، الذي يبذل ذاته عن خرافه.

وهنا يورد فرنسيس مقاطع مستفيضةً من الإنجيل، ثمّ يتدفّق تسبيحًا وشكرًا للربّ على كلّ ما فعله من أجل البشر، ويسأل جميع القدّيسين والملائكة مشاركته ذَيْنك

التسبيح والشكر، ويلتمس من جميع البشر الكائنين والذين سيُخلقون أن يلتمسوا له ولإخوته نعمة الثَّبات في الإيمان الحقّ والتوبة. ثمّ يقول:

«فلنحبّ، جميعنا، بكلّ قلبنا، وكلّ نفسنا، وكلّ ذهننا، وكلّ قوَّتنا، وكلّ طاقتنا، وكلّ إرادتنا، وكلّ مَلَكاتنا، بكلّ جهودنا، وكلّ عاطفتنا، وكلّ أحشائنا، بكلّ رغباتنا وإرادتنا، الربّ الله الذي وهبنا ويهبنا، جميعًا، كلَّ جسدنا، وكلَّ نفسنا، وكلَّ حياتنا، الذي خلقنا وافتدانا، وسيخلّصنا برحمته وحدها، الذي أعطانا ويُعطينا جميع الخيرات، نحن الأشقياء التعساء، الفاسدين النتنين، الناكري الجميل، والماكرين.

«ولتكنْ غاية كلّ رغباتنا وإرادتنا، ومُتَعنا وأفراحنا، خالقنا وفادينا ومخلّصنا، الله الحقّ الأَوحد، الذي هو ملء الخير، الخير كلّه، الخير الكامل، الخير الحقّ الأسمى، الصالح وحده، الرؤوف، الرقيق، المفعم عذوبة، الذي وحده قدُّوسٌ، وعادلٌ وحقٌّ، ومستقيمٌ، وحده عطوفٌ وطاهرٌ ومجرَّدٌ من كلّ دنسٍ، الذي منه وبه كلُّ غفرانٍ، وكلّ نعمةٍ، وكلّ مجدٍ... ومن ثمّ فلا يستوقفنا، ولا يفصلنا عنه شيءٌ، ولا ينهض بينه وبيننا حاجزٌ. بل في كلّ مكانٍ، وفي كلّ ساعةٍ وزمنٍ، فلنؤمن جميعًا، كلَّ يومٍ وباستمرارٍ، حقًّا وبتواضعٍ، ولنمتلك في قلوبنا ونحبّ، ونُكرّم، ونعبد، ونخدم، ونبارك ونُمجّد ونُعظّم فوق كلّ شيءٍ، ولنشكر الربّ الأعلى والأسمى والأبديّ، ثالوثًا وواحدًا، آبًا وابنًا وروحًا قدسًا، خالقًا كلَّ شيءٍ، ومخلّص المؤمنين به، من يضعون فيه رجاءهم، ويحبّونه، هو الذي لا بدء له ولا نهاية، الذي لا يتبدّل ولا ينقسم، ولا يوصف، ولا يُدرَك، ولا يُسبَر له غَوْرٌ، المبارك، الجدير بالتسبيح، المُمجّد، المُعظّم فوق كلّ شيءٍ، السامي، العليّ، العذب، المحبوب، اللذيذ، المرغوب دائمًا وكُلِّيَّةً، وفوق كلّ شيءٍ، إلى دهر الدهور».

وبعد أن يهيب بجميع الإخوة أن يُلمّوا بكلمات ذلك القانون ومعانيه، ويذكروها دائمًا، ويسأل الله مباركة من يعلّمونها، ويتعلّمونها، ويحفظونها، يقول: «أرجو الجميع، مُقبِّلاً أرجلهم، أن يحبّوا كثيرًا هذه الأقوال ويحفظوها، وألاَّ يحذفوا منها أو يضيفوا إليها شيئًا، وألاّ يكون لهم دستورٌ سواها».

أسلوب فرنسيس

قبل المُضيّ في سرد وقائع معركة القانون، لا بُدّ من الإشارة إلى أنّ كتابات فرنسيس، سواء هي تناولت القانون أو الإرشاد، تمتاز بما يُضفيه عليها من حرارة حبّه، وفيض حنانه، وروحه المُشبَع بالإنجيل، ممّا يسبغ عليها طابعًا فريدًا لا يجاريه فيه أحدٌ.

حَسْبُنا، لبيان ذلك، المقارنة بين جوابٍ بعث به القدّيس إلى الأخ إيليّا ردًّا على استشارته حول معاملةِ أيّ أخٍ ارتكب خطيئةً، ونصّ المادّة التي أضيفت إلى القانون بناءً على رسالة فرنسيس. أمّا هذه الرسالة فقد جاء فيها:

«لو ارتكب أحد الإخوة كلّ خطايا الدنيا، وجاء إليك، فتصرَّف بحيث لا تدَعُه يمضي إلاَّ وقد قرأ في عينَيْك، وسمع منك كلمات العطف والصفح؛ فبذلك سأعلم أنَّك تحبّ الربّ وتحبّني، أنا خادمه وخادمك. وإن لم يأتِ المذنب إليك، فاذهب أنت إليه، واسأله إن لم يكن راغبًا في الصفح؛ ولئن هو عاد إليك ألف مرَّةٍ، مُقرًّا بخطاياه، فعليك أن تحبّه، حتّى أكثر من حبّك لي، بحيث تستطيع أن تجذب قلبه إلى الله؛ وعليك أن تكون دائمًا متعاطفًا مع مثل هؤلاء الإخوة (الخاطئين)...».

ويخلص فرنسيس إلى القول: «من جميع الفصول التي، في قانوننا، تتناول الخطيئة، أودّ أن نصوغ معًا، بمؤازرة الربّ، ومساعدة إخوتنا، مادّةً على النَّحو التالي:

«إذا ما وقع أحد الإخوة في خطيئةٍ مميتةٍ، بحافزٍ من الروح الشرّير، عليه أن يعترف بذلك لرئيسه. وعلى جميع الإخوة العالمين بارتكابه الخطيئة أن يتجنّبوا تعييره بها، أو الحطّ من قدره، بل، على النقيض من ذلك، عليهم أن يُظهروا له قدرًا وافيًا من العطف، وأن يحيطوا خطيئته بالكتمان؛ فليس الأصحّاء هم الذين يفتقرون إلى العلاج، بل السُّقَماء وحدهم بحاجةٍ إليه. وكذلك على الإخوة أن يرسلوا الأخ الخاطئ، برفقة واحدٍ منهم إلى الأخ الحارس (الرئيس). وعلى هذا الأخير أن يبادر إلى مدِّ يد العون له، بكثيرٍ من العطف، كما يودّ أن يُساعَد هو نفسه، إن هو وُجِد في وضعٍ مماثلٍ. وإن ارتكب أخٌ خطيئةً طفيفةً، فعليه أن يعترف بها لأقرب أخٍ له، ريثما يأتي كاهن يستطيع حلَّه منها. ولكن في أيّة حالٍ، ينبغي، ألاَّ يُفرض عليه أيُّ عقابٍ سوى القول: امضِ، ولا تخطئ من بعد!»

أمّا المادّة التي أُضيفت إلى القانون، بوحيٍ من هذه الرسالة، فقد صيغت على النَّحو التالي:

«إذا ارتكب أحد الإخوة خطيئةً مميتةً، بحافزٍ من العدوّ الشرّير، وكان البتّ بأمر تلك الخطيئة مُناطًا بالرئيس الإقليميّ وحده، فعلى ذلك الخاطئ أن يلجأ فورًا إلى رئيسه الإقليميّ. وإن كان هذا الأخير كاهنًا، فعليه أن يفرض على الأخ كفَّارةً، في رقّةٍ. وإن

لم يكن كاهنًا، فعليه أن يطلب من أحد كهنة الأخويّة فرض كفّارةٍ عليه، حسبما يبدو له حسنًا في الربّ. وعلى الرؤساء ألاّ يغتاظوا من جرّاء خطايا الآخرين، وألاّ يستنكروها يتعالٍ، فالغضب والتعالي حاجزٌ دون المحبّة المسيحيّة».

لا ريب أن هذه المبادئ تنطوي على تعليماتٍ سليمةٍ حسب الأصول، وقد أُضيفت إليها بعض الاعتبارات التي من شأنها إرضاء فرنسيس؛ ولكن أين منها الحبّ الإنجيليّ الذي يتفجّر من رسالة فرنسيس، والذي يفيض على الخاطئ، ويجعل رئيسه يرتمي بين ذراعيه، وكأنّه يتوسّل إليه أن يصفح عنه، بل أين توصية فرنسيس بعدم رجم الخاطئ، وبكتمان أمره، وبمساعدته كما يرغب كلُّ واحدٍ أن يُساعَد إن هو أخطأ. بل أين نصيحة فرنسيس بأن يقتصر على القول لمن ارتكب خطيئةً طفيفةً: «امضِ، ولا تعُدْ إلى الخطيئة!»؟

وهكذا قُيِّض لفرنسيس أن يرى كثيرًا ممّا كتبه يُمحى أو يَشوَّه، فهو، مَثَلاً، بدافع إجلاله لسرّ القربان والكتاب المقدّس قد فرض على كلّ أخٍ يجد على الأرض، أو في مكانٍ غير لائق، مخطوطًا كُتِب عليه كلمات التّقديس، أو حتّى، فقط، ألفاظ «الله»، أو «الربّ»... أن يلتقطه بوَرَعٍ، ويحتفظ به في مكانٍ لائقٍ. ولكنّ خلفاءه ارتأوا أنّ مثل تلك الفريضة تسبّب للإخوة حَرَجًا كبيرًا، فألغوها.

بيد أنّ ما أحزن فرنسيس وآلمه، فوق كلّ شيءٍ، هو إصرار بعضهم على حذف فقرات الإنجيل من القانون، في حين أنّ كلام الإنجيل، وحدَه، هو نورٌ وروحٌ وحياةٌ. لقد كانت كلُّ كلمةٍ من كلمات الإنجيل تُحذَف، مديةً تُغرَس في قلبه، ولكأنّي بخلفائه الذين كان عليهم المضيّ بأمانةٍ في ترسيخ رسالته ونشرها، قد راحوا يُعبّرون عن اعتقادهم بأنّ تطلُّعاته ومُثُله الإنجيليّة أوهامٌ سخيفةٌ. ومذ ذاك، بدا فرنسيس لأصدقائه إنسانًا عليلاً أُصيب بطعنةٍ قاتلةٍ.

غير أنّه، خشيةً من تمزّق الأخويّة، ومن إيكال صياغة قانونها إلى أيدٍ عابثةٍ، رضي، وفي نفسه ألف غصّةٍ، تلبية رغبة إيليّا وأشياعه، في إيجاز قانونه الأوّل، وتعديله.

الشريد

لقد حزّ في قلب فرنسيس أن يرى تيّار الإنجيل قد أخذ يتراجع بين إخوته، مثلما ظلّ

يتراجع بين البشر مذ غادر يسوع أرضنا، وآلمه أن يرى أحلامه في إنجيلٍ معاشٍ بكلّ أصالته ونقائه وجنونه، قد أخذ يتلاشى أشلاءً.

ولكن لا! لن يستسلم، بل سيظلّ يحيا هذا الإنجيل، هو والقلّة الوفيّة من إخوته، وسيمضي يبشّر به، بالوعظ والقدوة. ورُبَّما هو، بدافعٍ من تلك الرغبة، رضي، آنذاك، أن يُرسم شمَّاسًا إنجيليًّا، بحيث يتاح له تلاوة الإنجيل عَلَنًا في الكنائس، وبحيث يظفر بامتياز حمل كأس القربان في بعض الاحتفالات، وكان يؤنس، حينئذٍ، أنَّه يحمل الربّ نفسه. فقد رأى فرنسيس دائمًا تلازمًا بين كلام يسوع في الإنجيل، وحضوره الجسديّ في القربان المقدّس.

ها هوذا فرنسيس، إذن، يحمل عصا الترحال، ويغدو شريد الله، يجوب البلاد ناشرًا الدعوة التي ائتمنه عليها المصلوب؛ وحيثما مرّ كان الناس يتدافعون لمشاهدة قدّيسٍ والاستماع إليه. ولكن لا التجوال، ولا إجلال الناس كانا يفلحان في لأْم جرح قلبه المكلوم، أو في محو بشاعة خيانة فئةٍ من إخوته أصرّوا على تجريد القانون من نصوص الإنجيل، ووجدوا نظام الفقر والبساطة، الذي نصّ عليه ذلك القانون، قاسيًا. إنّه لم يكن ليتخيّل، يومًا، أنّ أحدًا من إخوته سيقف مثل هذا الموقف، الذي بدا له وكأنّه اعتراضٌ على مقتضيات الإنجيل نفسه!

ومن ثمّ فإلى إخوته المخلصين: جينيفير، وماسّيو، وإيجيديو، وروفان، وسيلڤستر، وبرناردو وسواهم، إلى تلك الأناجيل الحيّة، كان يقوده تجواله البطيء، فيلتمس لديهم العزاء، ويُمِدّهم هو بالعزيمة على الثبات في الوفاء لما نَذَروا له نفوسَهم. كلٌّ منهم كان قد اعتكف في منسكٍ ضَنْكٍ، محفورٍ على سفح جبلٍ، قابعٍ في ظلال غابةٍ؛ وفي تلك المناسك الضَّنْكة كان فرنسيس يجد مُتَنَفَّسًا رحبًا لروحه، وتلطيفًا لألم عينَيْه المتفاقم، ونسمةً عليلةً تُنعش رئتَيْه المنهكتَيْن، وجوًّا من الصمت والخشوع مؤاتيًا للصلاة والاستغراق في الله، وإعمال الفكر في القانون الذي تعهّد بتعديله، والذي بات هاجسه.

إزاء سموّ النجوى التي كان يتبادلها فرنسيس مع أولئك الإخوة الأنقياء، الذين باتوا يعيشون في الله وحده، كم كانت تبدو صغيرةً وتافهةً مناورات الإخوة المعارضين، ومماحكات الدوائر الرومانيّة!

ولا ريب أنَّه قد التمس العزاء، أيضًا، لدى ابنته الروحيّة كيارا التي صمدت وأخواتها صمودًا بطوليًّا، في مواجهة محاولات النَّيل من الفقر والبساطة الإنجيليَّين، ورفضت رفضًا قاطعًا عروض الكرسيّ الرسوليّ، بإعفائها من نَذْر الفقر، وبالسماح لجمعيَّتها بامتلاك الأديرة والعقارات. لقد كان وفاؤها بَلسَمًا لروحه، وحافزًا لُمضِيّه في الجهاد.

ونزولاً عند إلحاح بعض إخوته شخص إلى رييتّي، أملاً في الظفر بمعالجة نطاسيّين يخفّفون من أَلَم عينَيْه، ويعيدون إليه بعض بصره الذي أخذ العمى يداهمه. ولكنّ أولئك المعالجين لم يكونوا، في الغالب، سوى مشعوذين، يُضاعفون آلامه، ويزيدون داءَه تفاقُمًا.

وكانت قواه ماضيةً خَوَرًا، يومًا إثر يوم، وهمَّته الشمّاء تفزع كلُّها إلى نفسه التي، وحدَها، ظلَّت تأبى الكلَل، متأهِّبةً للنِّضال المتمثّل في إعادة صياغة قانون الأخويّة، على نحوٍ يضمن إيجازه، وتضمينه نصائح الكرسيّ الرسوليّ، مع عدم التفريط بذرَّةٍ من مبادئه الجوهريَّة، وإفراغه في قالب من الوضوح، يحميه من كلّ تأويلٍ.

مسؤوليّة تعديل ذلك القانون الباهظة، كانت ترين بوقرها على نفسه، وتكاد تبعث فيها القنوط؛ وفيما كانت تتنازعه بشأنها الهواجس، رأى في الحلم إخوةً له جياعًا يلتمسون طعامًا؛ فراح يلتقط من الأرض فتات خبزٍ مبعثرًا، مُفْرِطًا في الصِّغَر؛ ولكنّ ذاك الفُتات كان ينساب من بين أصابعه هباءً. فوقع في حيرةٍ، أنقذه منها هاتفٌ هَمَس في سمعه: «يا فرنسيس، اصنع من هذا الفُتات المتناثر قربانًا أطعم به إخوتك». فامتثل للأمر، وتناول ألوف الرهبان من ذلك القربان بنَهَم، ولكنَّ بعضهم رفضوه فابتُلوا بالبرص. وقد استغلق عليه، بادئ الأمر، مغزى تلك الرؤيا، فأكبَّ على الصلاة، وإذ بالصَّوت يهمس من جديد: «الفُتات هو كلمات الإنجيل، والقربان هو قانون الأخويّة، والبَرَص هو الخطيئة» حينئذٍ اشتدّ عزمه على المُضيّ في إعداد القانون المُعدَّل، ولكنَّه آثر التهيّؤ لتلك المهمّة الخطيرة بصَوْمٍ أربعينيٍّ، واصطحب اثنين من الإخوة ليؤازراه في أدائها: أمين سرّه، الأخ ليون، وحقوقيًّا ضليعًا، هو الأخ بونيتزو.

واختلى الثلاثة في منسك فونتي كولومبو الصخريّ، الجاثم على تلَّةٍ مُخْضلَّةٍ، تكسوها أشجار السنديان، وتُطلُّ على وادٍ ضيّقٍ يهدر فيه سيلٌ متدفّقٌ من سفح الجبل. وفي صمت تلك الطبيعة البكر، وبعد صيام الأربعين يومًا، عكف فرنسيس وأخواه على وضع القانون المُعَدَّل.

منسك فونتي كولومبو الصخريّ

القانون النهائيّ

لم تتَّضح مشقّة المهمّة التي تصدّى لها فرنسيس بكُلّ قسوتها وإرهاقها، إلاّ عندما شرع في تنفيذها، وأدرك إلى أيّ مدًى كانت تتجاوز طاقاته. فلقد ألفى ذاته، وكأنَّه نسرٌ جبّارٌ أُودع قفصًا ضنكًا، وطُلب منه التحليق، فبات عليه أن يقصَّ جناحيه بيديه، أو كمن طُلب منه أن يضرم غابةً شاسعةً على ألاَّ يشعل منها سوى نارٍ صغيرةٍ لا تتعدّى إطار موقدٍ. وتساءل موجَعًا كيف السبيل إلى التوفيق بين مطالب الإخوة المعارضين وتوجيهات الكردينال هوغولينو التي تمليها، في الغالب، حساباتٌ بشريَّةٌ موغلةٌ في الصغارة، من جهةٍ، وأوامر الله، التي لا تقبل المساومة، والتي بلَّغَه إيَّاها يسوع صراحةً، من جهةٍ أُخرى. بل كيف له أن يُضَحِّي بفقراتٍ ينبض قلبه في كلِّ حرفٍ منها، ولا سيّما عباراتٍ نطق بها يسوع نفسه، وأن يُعبِّر عمَّا يفيض به حنانه، ويناشد أفئدة إخوته، بعباراتٍ جافَّةٍ قانونيَّة، لا يُتاح له دعمُها وإضاءتها بنصوصٍ من الإنجيل غاليةٍ على قلبه؟ ما الوسيلة إلى إخراس الشاعر الذي لا يني يتململ في صدره، وقسره على استخدام العبارات المُقتَضَبة الباردة؟

إزاء تلك المهمّة شبه المستحيلة لم يكن لديه من ذريعةٍ سوى الارتماء في أحضان الربّ، والتماس أزره وأنواره.

كان فرنسيس يركع على مرمى حجرٍ من رفيقيه، مُبتهلاً، متأمِّلاً، متوسِّلاً إلهام الله، ثُمَّ يُبلِّغ الأخ بونيتزو موادَّ النظام واحدةً فواحدةً، وبونيتزو كان يصوغها في عباراتٍ قانونيّةٍ، دفعًا لاعتراض المتحذلقين، ويمليها على الأخ ليون الذي يُدوّنها.

ومضت الأيّام، والإخوة الثلاثة في عزلةٍ مع الربّ، وضاق الرؤساء الإقليميّون ذرعًا، وخشوا أن يأتي القانون الجديد في مثل طول القانون القديم، وفي مثل شدَّته التي لا تُطاق، إذ قد أَلِف فرنسيس أن يفرض على نفسه أعباءً باهظةً لا قِبَل لهم على احتمالها، ولا رغبةَ لهم فيها. وتآمر سبعةٌ منهم، فوافوا إيليّا منذرين بأنَّهم سيرفضون مثل هذا القانون، وأنَّه لمن الأفضل لفرنسيس أن يحتفظ به لنفسه، وطلبوا من إيليّا إبلاغ المؤسِّس رأيهم ذاك. وكان إيليّا يُجِلّ فرنسيس ويخشى إغضابه، فتردّد. ولكنَّه، إزاء إصرارهم، رضي أن يرافقهم إلى معقل فرنسيس فيحادثوه بما حزموا عليه أمرهم.

وتجهَّم فرنسيس عندما رآهم قادمين يقودهم الصَّلَف والغرور؛ وبلَّغه إيليّا مطلب رفاقه

بوضع قانونٍ سهل المنال يستطيعون تنفيذه، وإلاَّ فهم يرفضون أيَّ قانونٍ لا يولي رغباتهم اهتمامًا.

وقد جاء في رواية «مرآة الفضائل» حول ذلك الحدث أنَّ القدّيس صاح بأعلى صوته إلى السَّماء قائلاً: «يا ربّ، أرجوك أن تجيب، أنت، عنّي!».

وحينئذٍ سمع الجميع صوت المسيح من العلاء يقول: «يا فرنسيس، ليس في هذا القانون ما هو منك، بل كلُّ ما فيه هو منّي. وإنّي لآمُرُ أن يُنفَّذ حرفيًّا، من غير تحفُّظٍ ولا تأويلٍ؛ أمّا من لا يرغب في اتّباعه، فما عليه سوى مغادرة الأخويَّة». فارتعد رؤساء الأخويَّة المتمرّدون، وارتدّوا على أعقابهم خاسئين.

بيد أنَّ فرنسيس طلب من الأخ إيليّا العودة، بعد فترةٍ، لتسلّم نصّ القانون الجديد، ففعل ووعد بدراسته وإبداء رأيه فيه، في غضون مدَّةٍ قصيرةٍ. ولكنَّ أيّامًا طويلةً انصرمت، ولم يبدر عنه أيُّ ردّ فعلٍ، حتّى اضطُرّ فرنسيس إلى مغادرة منسكه، والشُّخوص إلى أسّيزي مُستَطْلِعًا جليَّة الأمر. وادَّعى إيليّا أنَّ القانون قد فُقِد منه، وأنَّه لم يستطع العثور عليه رغم بحثه الحثيث عنه، فاعترى فرنسيس حزنٌ بالغٌ، وتأكَّد أنّ رؤساء أخويّته الجدُد إنَّما كانوا يتوخَّون إقصاءَه عن حياتهم، والانعتاق من قانونه الذي استثقلوه، فحدَّق إلى السماء، معاتبًا الله وقائلاً: «ألم أقل لك، يا ربّ، إنَّهم لا يثقون بك!».

ورُبَّما كان إيليّا وأتباعه قد عمدوا إلى المماطلة والتسويف، علَّ صبر فرنسيس ينفد فيتخلّى عن قانونه، أو لعلّ الأمراض الجسيمة الناشبة به تودي به، في أَجَلٍ قريبٍ، فتخلو لهم الساحة لصياغة قانونٍ يتلاءم وتطلُّعاتهم ورغباتهم. ولكن فاتهم أنَّ فرنسيس لم يكن ليتخلّى عن مهمّةٍ كان يعدُّها أمانةً مُقدَّسةً، وإرثًا ثمينًا لأجيالٍ وأجيالٍ من الإخوة، ولا هو كان ليعهد بها إلى من لا يؤمنون بروح رسالتها إيمانًا راسخًا، فأعلن أنَّه سيُعيد كتابة القانون مرَّةً أُخرى؛ وعاد أدراجه إلى منسكه في فونتي كولومبو.

ولم يَجِدْ معارضوه، حينذاك، بدًّا من توسيط الكردينال هوغولينو كي يحمله على تليين القانون في ما اعتبروه متَعذِّرًا على سواد الإخوة الأعظم، وتضمينه تدابير تتيح لهم مثل ما للرهبانيَّات الأُخرى من امتيازاتٍ وتسهيلاتٍ.

وكان الكردينال يرى في الأخويّة الفرنسيسكانيّة خشبة خلاصٍ للمسيحيّين وللكنيسة. ولكنَّه، في آنٍ معًا، كان يرغب في جعل قانونها أكثر يسرًا، وأَقلَّ صرامةً، وفي مُتناوَل

أوسع الجماعات عَدَدًا، غير محصورٍ بنُخبةٍ ممَّن أَلهبتهم نار الله. فدأب، بلباقةٍ وصبرٍ، على انتزاع التنازلات من فرنسيس، تحقيقًا لذلك الهدف؛ وكان فرنسيس يرتضي بالتنازل، مُكرَهًا، طالما الأمر يتعلَّق بعباراتٍ أو تدابير عمليَّةٍ، لا تتعارض وجوهر رسالته. ولكن بات واضحًا أنَّ بين الإنجيل كما كان يدركه هو، والإنجيل كما كان يودّ فهمه معارضوه والدوائر الرومانيّة، أو كما كانوا يؤوّلونه، كانت تنحفر حفرةٌ سحيقةٌ. ومن المحقَّق أنَّ الكردينال هوغولينو، بحمله فرنسيس على التنازلات المتعاقبة، قد أفرغ قانونه من زَخْم ديناميّته، واندفاعه الفريد، وأنَّه، بسعيه لجعله قانونًا يسيرًا، سهل المنال، اغتال، من غير أن يدري، سنى أروع حلمٍ حلمه إنسانٌ، وأسمى مَثَلٍ تطلّع إليه مسيحيٌّ، قطّ.

ويحسن بنا أن نورد مثالاً على التباين بين موقفي كلٍّ من فرنسيس، والكردينال هوغولينو؛ ففرنسيس كان قد أصرَّ على إدراج فقرةٍ تنصّ على أنَّه «عندما لا يُعنى خدَّام الأديرة (الرؤساء) بإفساح الفرصة للإخوة كي يُنفّذوا القانون بحذافيره، يُسمح للإخوة بالتزام ذلك القانون، ولو لم يرضَ بذلك الرؤساء». وكان فرنسيس قد أشرع، في ذلك المجال، سابقةً، عندما أَذِن للأخ سيزير دي سباير، ولجميع الإخوة الراغبين في حذو حذوه، بالانفصال عن سائر المعارضين، بحيث يستطيعون الامتثال للقانون بحرّيةٍ و«حرفيًّا من غير تحفُّظٍ ولا تأويل»، حسب رغبة المسيح، وهو بذلك، إنّما حرص على إيجاد مخرج للإخوة الأوفياء، الرافضين الانسياق مع تيَّار التنكّب عن رسالته الأصيلة، ولا سيّما في ما يتعلّق بالبساطة والفقر الإنجيليّين.

وقد عبَّر الكردينال هوغولينو عن خشيته من أن يؤدّي ذلك التشريع إلى زرع الشقاق، في المستقبل؛ ولكنَّه حيال إصرار فرنسيس، وَعَد بتلبية رغبته، على أن يسكب بنفسه تلك الفكرة في صيغةٍ تحميها من سوء التفسير. بيد أنّ النصَّ الذي انشأه لهذا الغرض قد أضعف، إلى حدٍّ بعيدٍ، فكرة فرنسيس، بل شوَّهها. ففي حين كان يرى فرنسيس أنَّه يحقُّ للإخوة، بل يتوجَّب عليهم، باسم الطاعة نفسها، عصيان أوامر رؤسائهم، عندما يتَّضح أنّ ذلك العصيان هو السبيل الوحيد للتقيُّد المُطلَق بالقانون، فالقانون أرفع من الرؤساء وأسمى، ونَذْر الطاعة مرتبطٌ بالقانون لا بالرؤساء؛ وفي حين كان فرنسيس يرى في مثل أولئك الإخوة الأوفياء لنصّ القانون وروحه، أبناءً محبوبين، وأبطالاً مناضلين عن المُثُل الصحيحة، جعل منهم نصُّ الكردينال مرضى جديرين بالشَّفقة، ودعا إلى معاملتهم بحيطةٍ، وإلى محاولة إقناعهم بالحُسْنى.

وهكذا كُتِب على فرنسيس أن يرى الكثير من أفكاره وأقواله يُشوّه، ويُمسَخ، ويُجرَّد من روحه.

وتقدَّم فرنسيس بمشروع القانون النهائيّ، في مجمع العنصرة الذي انعقد في الحادي عشر من حزيران ١٢٢٣، وضمّ بضعة آلافٍ من الإخوة. لا ريب أنَّه كان يتوقَّع انتقادًا ومقاومةً، ولكنَّه لم يتخيَّلهما على ذلك القدر من الحدَّة والشراسة، ولا سيَّما وأنَّهما لم يصدرا عن الرؤساء فحَسْب، بل أيضًا عن بعض الإخوة الذين مضوا إلى شتّى بقاع الأرض مُرسَلين، ولم يتمكَّنوا، دائمًا، من التقيُّد بحرفيَّة الوصايا الفرنسيسكانيّة، مثل عدم التزوُّد بطعامٍ للطريق، أو بثوبٍ إضافيّ، أو عدم استخدام دابَّةٍ للتنقُّل. وكان فرنسيس، حفاظًا على تجنّب الشقاق، وإزاء تصلُّب بعض إخوته – ذلك التصلُّب الذي يقف الله نفسه حيالَه عاجزًا – يتنازل عن بعض الممارسات المادّيّة التي كان يؤثرها، وهو يستغفر ربَّه عن ذلك التراخي، ولكنَّه يأبى التنازل عن روح القانون، روح البساطة والفقر، وعن نقاء الحياة الداخليّة، وصفاء القلب والنوايا حيث تكمن الفضيلة الحقّة، فلا يهادن مع الشهوات، ولا يُغضي عن شرود النظر، وجموح الخيال، وانفلات اللسان، مؤكِّدًا أنَّ النظرة المقرونة بالشهوة لا تختلف عن الزنى خطورةً، والتمتُّع بتخيُّل المعاصي لا يختلف عن اقترافها، والنَّيل من سمعة أخٍ إن هو إلاّ كمثل وَلْغ دمه. ولكنَّه، بالمقابل، كان يدعو إلى الصفح بلا تحفُّظٍ ولا حدودٍ عن كلِّ خاطئٍ يعترف بخطيئته ويتوب عنها، على نحو ما علَّم يسوع الغفران.

لم يكن من اليسير عليه التسليم بكلّ تلك التنازلات، ولكنَّه كان يوافق عليها مُكرهًا، تفاديًا للشقاق. لا بل إنَّه أقدم على حذف مقاطع من القانون غاليةٍ على قلبه، وضحّى حتّى ببعض مقاطع من الإنجيل إكرامًا لربّ الإنجيل؛ وكان كلَّما أخفق في حمل بعض الإخوة على أداء جميع واجباتهم، وطَّد عزمه على أن يؤدّيها، هو بنفسه، كاملةً، من غير أيّ انتقاص. وقد برهن، في أثناء تلك المواجهات مع الأخ إيليّا وأتباعه، عن ترفُّعه عن استخدام الضغط لإقرار وجهات نظره «كما تفعل سلطات العالم»، بل كان يؤثر بلوغ هدفه بالحُسنى لا بالقوَّة، مع إصراره على عدم المسّ بجوهر رسالته وروح القانون. غير أنّ بعض من كان يحدوهم الطموح والغرور، لم يتورّعوا عن استغلال لاعنفه ومسالمته كي يفرضوا تدابير تخالف رأيه.

وهكذا، في أعقاب سنتَيْن من الصراع مع الآخرين ومع نفسه، انتهى فرنسيس إلى

وضع قانونٍ موجزٍ كثَّف في عشر صفحات ما كان قد بسطه في ثلاثٍ وثلاثين صفحة، واقتصر على إيراد خمس فقرات من الإنجيل، فيما أورد القانون الأصليّ نحو مئةٍ منها. ثمَّ تناوله الكردينال هوغولينو بالتنقيح وفق معادَلةٍ مُحكَمة تُداري حساسيَّات المجدّدين، من غير أن تخيّب آمال المحافظين، وسكبه في قالبه النهائيّ لعرضه على الدوائر الرومانيَّة.

لقد خلا نصُّ ذلك القانون من التوثُّبات الصوفيَّة والشعريَّة، ومن فيض القلب الدافق، وأناشيد التسبيح، ومن الأَلَق الذي كان فرنسيس يودّ إضفاءه عليه، ولم يستطع أن يُطلق فيه العنان لقلبه وروحه، ولا أن يُعبّر بحرِّيَّة عن كلّ تطلُّعاته وأحلامه الزاهية، بيد أنَّه، بعناده وصبره وتضحيته، تمكَّن من إنقاذ جوهر رسالته، فظلَّ الروح الإنجيليّ خفَّاقًا من خلال النصّ الجافّ ظاهريًّا؛ وارتسمت فيه، بوضوحٍ، المعالم الرئيسيّة للطريق الذي شاء أن يسلكها إخوته، وتجلَّت فيه المبادئ الجوهريّة القمينة بالنموّ في قلب كلّ فرنسيسكانيٍّ حقٍّ، والازدهار في وجدانه؛ وظلَّتْ بَصْمة أسلوبه وبعض تعابيره الأثيرة واضحةً في النصّ الموجز. وهو، فوق كلّ شيءٍ، ضمَّن قانونه ذاك، إشاراتٍ بيّنةً إلى ما يتجاوز بكثيرٍ المعنى الظاهر من نصّه، وإلى ما يساعد الفكر على استشفاف ما لم يقوَ النصّ على قوله، وإلى ما يدفع الإرادة صوب حياةٍ غنيَّةٍ دفَّاقةٍ، لا يقوى أيُّ قانونٍ على احتوائها.

وبالإجمال، نهض ذلك القانون على ثلاثة أُسُسٍ جوهريّةٍ:

– الإنجيل هو دستور الحياة الوحيد. بهذه الحقيقة استهلّ فرنسيس قانونه واختتمه. وتلك، لعمري، حقيقةٌ كفيلة بحمل الفكر إلى أبعد الآفاق التي تتجاوز، بلا قياسٍ، النصّ المكتوب، وتشرع مجالاً بِكرًا لا محدودًا، تنعدم فيه القيود والحسابات، وتسود فيه حرِّيَّة أبناء الله العظمى.

– الإنجيل يلتقي بالتاريخ ويُجسّده في كلّ عهدٍ، واتِّباع الإنجيل يعني حياةً فقيرةً متواضعةً، في إثر يسوع، ويُفضي إلى مشاركةٍ أخويَّةٍ بين البشر أجمعين. ولا عجب إن ناشد فرنسيس إخوته قائلاً: «تلك هي، إخوتي، عَظَمة الفقر الأسمى، الذي جعلكم ورثةً لملكوت الله، وملوكًا فيه، فُقَراء في الخيرات الأرضيَّة، أغنياء في الفضائل؛ فليكن ذلك الفقر نصيبكم، فيقودكم إلى أرض الأحياء، حيث مشاركةٌ صادقةٌ مُفْعَمةٌ بالحنان».

– أرض الأحياء هذه تؤدّي إلى الانفتاح على روح الربّ: «فليعتبر الإخوة أنَّ عليهم، فوق كلّ شيء، أن يظفروا بروح الربّ، ويَدَعوه يعمل فيهم». فاتّباع الإنجيل لا يعني الالتزام بأوامر ونواهٍ، بل الاستسلام لنَفَحات الروح الذي كان يحدو المسيح نفسه، روح البُنُوّة، لا روح عبوديَّةٍ وخوفٍ، بل روح حرِّيَّةٍ ومحبَّةٍ، روحٌ يُتيح لنا أن ندعو اللّه «أبّا»، «أبتاه»، وينتظمنا، مع البشر أجمعين، في علاقة إخاءٍ صادقٍ.

وهكذا خرج فرنسيس من معركة القانون لا غالبًا ولا مغلوبًا، فقد اضطُرَّ إلى تنازلاتٍ كثيرةٍ استنزفت منه دمًا غزيرًا، وآلمته في الصميم من نفسه، ولكنَّه، رغم المناورات والتصلُّب، حقَّق معجزة الحفاظ على جوهر رسالته، وبفضل تلك المعجزة، ما انفكَّت الشعلة التي أضرمها متَّقدةً حتّى أيّامنا هذه، تحدو نفوسًا صافيةً وتقودها على دروب الإنجيل، تعيشه بحرفيَّته «من غير تحفُّظٍ ولا تأويل»؛ وما فتئ فرنسيس، منذ قرونٍ ثمانيةٍ، حيًّا في أتباعه المخلصين، بل في كلّ من اتَّبع الإنجيل بوفاءٍ؛ وما زالت أصداء البورتسيونكولا وريڤو تورتو تسحر طغماتٍ من النفوس الطاهرة، فيمضي إخوة فرنسيس يجوبون العالم، مثل حجَّاج وغرباء، لا يمتلكون على الأرض شيئًا، سوى كنز الفقر السامي الذي لا يستبدلونه بأيّ كنزٍ.

وبقي على فرنسيس مهمَّة تصديق قانونه النهائيّ، وإقراره رسميًّا من الحبر الأعظم؛ فمَثُل، برفقة ثُلّةٍ من إخوته إلى روما، لعرضه على قداسة البابا أونوريوس الثالث.

ولكن، أيُّ بَوْنٍ بين هذا الشُّخوص إلى روما، وذاك الذي كان قد تمَّ لثلاث عشرة سنةً خَلَتْ، حين وافى الإخوة الاثنا عشر الأوائل للظَّفر بموافقة الحبر الأعظم على تأسيس أخويّتهم. لقد كانوا، آنذاك، يجرون جَرْيًا، بقلوبٍ ترقص جَذَلاً، وأقدامٍ تطفر اندفاعًا، ونفوسٍ نضرةٍ مثل نفحة حياةٍ جديدةٍ. أمَّا الآن ففرنسيس عليل الجسم، جريح النَّفس، يجلس بصعوبة على متن حمارٍ، فيما إخوته يسيرون إلى جانبَيه، وشيءٌ كالرصاص يُثقل أقدامهم، وشيءٌ أثقل من الرَّصاص يَرين على صدورهم.

ولكنَّهم كانوا يَجِدون عزاءً جمًّا في موقف الشَّعب الذي ظلَّ مسحورًا بالقداسة، مُكبرًا للمُثُل الإنجيليَّة المُعاشة بصِدْقٍ، والتي ازْوَرَّ عنها الكثيرون مِمَّن فُرِضَ أن يكونوا دُعاتَها ورُسُلها. فحيثما مرّ موكب فرنسيس تدافعت الجماهير للتبرّك به، حاملةً الشُّموع ومُنشِدةً الأناشيد، حتّى كانت الساحات تغصّ برجالٍ ونساءٍ راكعين خُشَّعًا أمام البطل والقدّيس. فقد كان، حقًّا، بَطَلاً وقدّيسًا، ذلك الرجل الهزيل، العليل، الأعشى،

المُقرَّح العينين! ومن هنا وهناك، كانت تتعالى صيحاتٌ تقول: «نحن، أيضًا، بحاجةٍ إلى نظامٍ يُتيح لنا مقاسمتكم أُسلوب عيشكم»، فيُطلعهم الإخوة على قانون الرهبانيَّة الثالثة الذي كان قد أصدره الحبر الأعظم، في أعقاب عودة فرنسيس من الشرق. وبين الهاتفين مُطالبين بمِثْل ذلك القانون كان أغنياء سابقون وزَّعوا كلَّ ثرواتهم على المحتاجين، وباتوا يكسبون لقمة عيشهم بممارسة مهنةٍ وضيعة؛ وبُرجوازيُّون أصبحوا يختلفون باطّراد لعيادة البُرْص ويُعنَوْن بهم؛ وتُجَّارٌ أقفلوا حوانيتهم كي ينقطعوا للعبادة في المغاور والكهوف؛ وأزواجٌ اتَّفقوا على ممارسة العفَّة؛ وفقراء غدوا يحبُّون فقرهم، ويرتضون به سعداءَ طائعين.

حَدَثٌ فذٌ لم يَعْهَد العالَمُ له نظيرًا، قطٌّ، وكأنَّ الروح كان يحتفل بربيعه!

كفّارة الحبّ

لم يستطع فرنسيسٍ أن يغفر لنفسه كلَّ عبارةٍ اضطُرَّ إلى حذفها من قانون الأخويّة، سواء هي كانت فقرةً من الإنجيل، أو دعوةً إلى التوغّل في الفقر والبساطة، أو تسبيحًا للربّ وتمجيدًا. ولكي يُكفّر عن ذلك الحذف، ألزم ذاته بمزيد من الامّحاء والتجرّد، والاستغراق في التعبّد، وعمد إلى ترسيخ تلك المبادئ التي كانت قد غدت جزءًا من كيانه، سواء بالوعظ الذي عاد ينشره أثناء تجواله، أو برسائل مستفيضةٍ يوجّهها إلى جميع الإخوة أينما كانوا، أو في وصيَّته الروحيَّة التي أودعها خلاصة إيمانه برسالته.

وقد غدا وعظه، في تلك الفترة، ذا تأثيرٍ بالغٍ، يقلب النفوس، ويُحدث المعجزات، مع أنَّه ظلَّ يأتي في كلامٍ بسيطٍ، يتلفَّظ به إنسانٌ مُغرقٌ في البساطة، ولكنَّه كلامٌ يسري في ألفاظه ونبراته شيءٌ غريبٌ، يتعذّر وصفه، ولا يمكن تعلُّمه في الكتب: هو نورُ القلب، ونارُ القداسة المعاشة، كلَّ ساعةٍ، وكلَّ لحظةٍ.

أمّا رسائله، فقد استفاض، بها، في ترسيخ الحياة الروحيَّة السامية الصادقة، القائمة على الصَّلاة المستمرَّة، وممارسة الأسرار الإلهيَّة. وأهمّ تلك الرسائل واحدةٌ موجَّهةٌ إلى جميع الإخوة، يستهلّها بالانحناء أمامهم، وتقبيل أقدامهم، والتماس عفوهم، لأنَّه لم يكن لهم دائمًا القُدوة المثلى، ثمّ يحادثهم محادثة القلب، محادثة الأخ لا الرئيس، مُشرعًا أمامهم دروب الربّ، مؤكّدًا، بنحوٍ خاصٍّ، على سرّ الإفخارستيّا، وقُدسيّة كلام الربّ. وقد جاء، في تلك الرسالة:

«لئن كان اللَّحد الذي ثوى فيه جسد المسيح، فترةً قصيرةً، يُحاط بالتَّكريم، فكم يجب أن يكون مُقدَّسًا، وبارًّا، ومُوقَّرًا ذاك الذي يمسّ بيَدَيْه، أو يتلقّى في فمه وقلبه، ويُعطي الآخرين، غذاءً، المسيحَ الذي لم يعد ميتًا، بل مُنتصرًا ومُمجّدًا إلى الأبد، وذاك الذي يتمنّى الملائكةُ أن يُلقوا عليه أبصارَهم.

«فتأمَّلوا كرامتكم، أيُّها الإخوة، وكونوا قدّيسين، لأنّه هو قدّيسٌ. إنّه، بهذه المهمّة، قد كرَّمكم الربّ أكثر من الجميع؛ فأنتم أيضًا، أكثر من الجميع، أحبُّوه، واحترموه، وعظّموه. وما أعظم بؤسكم، وما أتعس ضعفكم، إن أنتم، فيما تمسكونه هكذا بين أيديكم، كنتم تجيلون في خواطركم الاهتمامَ بأيّ شيءٍ آخر في الوجود!

«فليرتعدْ كلُّ إنسانٍ، وليهتزَّ العالَم أجمع، ولتَطْرب السماء، عندما يمثُل المسيح ابن الله الحيّ على الهيكل بين يدي كاهنٍ. يا للعظمة الرائعة، والمحبَّة المُذهلة، والتواضع السامي، والسموّ المتواضع، عندما يتواضع، في سبيل خلاصنا، سيّد الكون، الله وابن الله، بحيث يرتضي أن يختبئ تحت أعراض كِسْرة خبزٍ! تأمَّلوا، إخوتي، تواضع الربّ، وعظّموه في قلوبكم، واتَّضعوا أنتم أيضًا، كي يُمجّدكم. ولا تحتفظوا لأنفسكم بشيءٍ منكم، لكي يتقبَّلكم بكاملكم، ذاك الذي يهبكم ذاته بالكامل».

ثُمّ يحرّض فرنسيس الإخوة على العناية بالكتب المقدَّسة التي تحتوي كلام الله فيُجلّونها أينما وجدوها، ويحفظونها في تقوًى وعنايةٍ، ويلملمون ما تشعَّث وانتثر منها، ويعيدون تنظيمها في أماكنها «فأشياء كثيرةٌ قد قدَّسها كلام الله، وقدرة كلام المسيح هي التي حقَّقت سرّ الهيكل».

وهكذا تتَّصل وتكتمل الحلقة، لدى فرنسيس، بين كلام الله في الإنجيل، وسرّ القربان، ذَيْنِك العمادَيْن اللَّذَيْن أنشأ عليهما الربُّ كنيسته.

محنة فرنسيس

مع كلّ ما كان فرنسيس قد بذل من تضحياتٍ، بل مع كلّ ما كان قد عانى من استشهادٍ للحؤول دون ترويض الإنجيل وإخماد ناره الحارقة في أخويّته، وللحفاظ على جوهر قانونه ورسالته، كان قد قُيّض له أن يجرع كأس الألم والخيبة حتّى الثُّمالة.

رُبَّما هو ظنَّ، إثر إقرار القانون النهائيّ، أنَّ كلّ شيءٍ قد بات واضحًا، ولكنَّه لم

يتخيَّل أنَّ بينه وبين كثيرين من الرُّؤساء قد انقطعت الوشائج، وتباينت اللُّغات والمفاهيم، إلى نقطة اللاتفاهم.

معاناته التي استنزفت قواه، في أثناء إعادة صياغة القانون، واضطراره إلى حذف مقاطع منه كان، مَعَها، يستأصل فَلَذاتٍ من ذاته، لم تكن لتُقارَن بالخيبة الذريعة التي مُنِيَ بها، عندما تأكّد له أنَّ خلفاءه، والقيِّمين على إدارة أخويَّته، ماضون في خيانة كلّ مبادئه.

لم يكن فرنسيس، كما أسلفنا، عَدُوًّا للعلم، ولا للتَّحديث؛ وكان يدرك ضرورة التطوّر والتكيُّف مع المستجدّات، بعد أن تكاثر عدد الكهنة والمتعلّمين بين إخوته؛ ولكنَّه كان يُدرك إدراكًا عميقًا فرادة رسالته التي انتَدَبه لها المصلوب، صراحةً، والتي تتميَّز عن جميع الرسالات الأُخرى التي كان يُجلّها ويعترف لها بالفضل، فرسالته كانت قائمةً على ازدراء كلّ شيءٍ دنيويٍّ، حتّى العِلْم، في سبيل تكريم الفقر والبساطة. وقد آمن حفنةُ الإخوة الأوائل بتلك الرسالة، وأخلصوا لها. بيد أنّ الرؤساء الجُدُد قد تناسوها وأغفلوها، ونأت تصرُّفاتُهم عن هديها. فقد عمل الأخ إيليّا، بتُؤدَةٍ ومهارةٍ ماكرةٍ، على تحويل الأخويّة إلى مؤسَّسةٍ، وأيّده في ذلك المنحى الكردينال هوغولينو بحجّة تنظيم الجماعة، وحماية «الفكرة» الفرنسيسكانيّة، فكاد يتبخّر، بذلك، حُلْمُ فرنسيس العظيم، الفريد.

وحيثُما مرَّ فرنسيس كان بوسعه أن يتبيَّن تغييرًا جوهريًّا يتناول أخويَّته. فالأماكن الوضيعة التي ارتضى الإخوة، حتَّئذٍ، أن يُقيموا فيها أخذت تزول كي تحلَّ محلّها أديارٌ مبنيَّةٌ على خير نسقٍ، وإلى جانبها كنائس خاصّةٌ بهم، في حين كانوا، في السابق يغشون كنائس الأبرشيّات مثل سواد المؤمنين. وفي أماكن شتّى كانت تُفتَتح لهم مدارس، يُشجَّع فيها المبتدئون على التبحُّر في علم اللاهوت.

وكان يُراقب، بحزنٍ ووَجَلٍ، الأخويَّة التي أنشأها على الإخاء والمساواة والحرّيَّة، تتحوّل إلى جماعةٍ متراتبةٍ، متسلسلة السُّلطات، قائمةٍ على تفوُّق السلطان، وإلى آلة تفرّخ وُعّاظًا مثقَّفين، وعلَماء، ورُبَّما أساقفة. وكان يتجلّى له أنَّ بعض إخوته، ولا سيَّما المتولّين مراكز القيادة، باتوا يخجلون من بساطته وفقره وجهله، فكان يعترف لأصدقائه بأسًى: «إنَّهم بذلك يطعنونني بسيفٍ من الألم، ويُقلّبونه، كلّ يومٍ، في قلبي».

ولم يكن أساه نابعًا من شعوره بفَشَلٍ شخصيٍّ، ولكن من رؤيته للمبادئ الإنجيليَّة التي أنشأ عليها أخويَّته، تُنْتَهَك بلا وَرَعٍ ولا خَجَلٍ؛ وكان شديد القلق على عواقب ذلك الانتهاك، ولا سيَّما أنَّه، منذ مستهلّ تجربته، كانت لا تنفكّ تتَّضح له العلاقة الوثيقة بين ملكوت اللّه وعالَم الصغار والفقراء، ويتأكَّد له أنَّ أسرار الملكوت لا تعتلن إلاّ للصغار، البسطاء بالرُّوح؛ أمّا من يبتعد عن عالَم الصغار، فهو يتنكّر للإنجيل، ولو امتلك العالَم كلَّه. فالصغار، لأنَّهم مُحتَقَرون، ومُداسون، ومسحوقون، يتطلَّعون إلى عالَم أوفر عَدْلاً وإخاءً، وفي أعماق كيانهم الجريح يحملون رجاءَ العالم. هذا الرجاء الذي لا يُقهر، ينطوي على ما يتخطّى الإنسان، والذين يحملونه منفتحون على أسرار الإنجيل، مُلِمّون بمراميه الخفيَّة، مُدركون أنَّ خلاص البشريَّة مرتبطٌ بالعودة إلى إخاءٍ حقيقيٍّ صادقٍ.

مأساة فرنسيس كانت تكمن في تنكُّر فئةٍ رحبةٍ من إخوته لتلك القناعات التي جهد في ترسيخها في صدورهم، وذلك، لكي يتفوَّقوا على الآخرين، ويُصبحوا ذوي علمٍ وسلطانٍ.

لقد سعى، جاهدًا، إلى إقرار الإخاء في البساطة والفقر، فإذا به على ذلك الدرب شبهُ وحيدٍ.

كان يشهد، جزِعًا، انهيار ما بناه، فيتساءل، وجيعًا، أهو أساء البناء بذلك القَدْر، أم هو ضلَّ السبيل؟ ألم يكن النهج الذي اختطَّه لنفسه ولإخوته، وعلَّمه، وذاد عنه، باسم اللّه، بوحيٍ سماويٍّ حقًّا؟ أَوَيُمكن أن يكون قد وقع أُلعوبةً بين يدي إبليس، أو ضحيَّة أوهامٍ، وجرى وراء سرابٍ، مُدَّعيًا اقتفاء آثار الإنجيل، في حرصٍ شديدٍ؟

أمام تلك التساؤلات الوجيعة، ظلَّت السَّماء صامتةً، طويلاً، فقضى نحو سنتين من النزاع المتواصل، يُصارع الشكّ والحيرة، ويكاد يُصاب بالقنوط، ويواجه وَجَع وِجْدانٍ لا يُطاق، ولم يُنقذه منه، بعد لأيٍ، سوى اللّه.

تلك الهواجس المُرهِقة كانت تضاعف آلامه الجسديَّة المُضنية، فقاسى من الآلام ما قلَّما قاسى نظيرَه إنسانٌ، قطّ.

وبات مثلَ ضوء سراجٍ يعلو ويهمُد ولا يستقرُّ على حال؛ فهو يستعيد، بين الفينة والفينة، عزيمة القتال، ويتأهَّب للذَّود عن مبادئه ضدّ المتمرّدين، وينتفض، ويستنكر،

ويستنزل اللعنة على الذين دمَّروا عمل الربّ، ولكنَّه سرعان ما يتَّهم نفسه بالكبرياء، ويمَّحي أمام اللّٰه تائبًا، نادمًا، صغيرًا. وكان يجيب أولئك الذين يُحرّضونه على الاقتصاص ممَّن خانوا مُثُله: «لا، لن أكون لهم جلاَّدًا ولن أُصيبهم بأذًى، بل أبتغي إصلاحهم بقدوتي؛ فلنصلِّ، ولنتألّم صامتين؛ ذلكم هو سلاحنا الأمثل».

لقد نشب في أعماقه قلقٌ راح يلتهم نفسه ببطءٍ، وبات النحيب ديدنه، فكان يبكي بلا انقطاعٍ، حيرةً، واضطرابًا، وخشيةً على مبادئ الإنجيل التي انتُهكت. وقد شوَّه البُكاء والألم ملامح وجهه، فغدا ذلك الوجه الذي كان أبدًا مُشِعًّا، لا يعكس أيّة ومضة نورٍ، وانسدل عليه حجاب حزنٍ صفيقٌ. فانتحى، واعتزل، وبات يأبى مواجهة الإخوة، ويُعْرِض عن توسُّلات الأخت كيارا التي ألحفت في التماس رؤيته ومواساته؛ فهو كان يخشى عليها وعلى الإخوة أن يقرأوا في وجهه الحزين، وفي نفسه المدمَّرة، مَصْرع الفرح، وهيمنة الشكّ القاتل، ومن ثَمَّ فقد آثر الوحدة مع حفنةٍ من إخوته المخلصين.

والوحدة نوعان: وحدةٌ تَطوي الإنسانَ على ذاته فينكمش، ويتضاءل، والأُخرى تُشرعه على تجاوز ذاته، فيكبُر، ويعظُم شأنًا، وتتحوّل وحدته مشاركةً وفَرَحًا.

وفرنسيس ألقى بوحدته وحزنه وشكّه في أحضان الربّ، وفزع إلى الصلاة، وحينئذٍ اكتملت حكمته، بعد أن تبيَّن أنَّ رسالته لا تقتصر على التنعُّم بشمس الفرح والمحبَّة والأَمَل، بل عليها أيضًا النفاذ إلى أغوار ليل التجرُّد المُطلَق.

وذات يومٍ، في غمرة نوبة إحباطٍ، كلَّم فرنسيس الربَّ قائلاً: «يا إلٰهي، إنَّني أُعيد لك الأسرة التي أعطيتنيها» فأجابه الربّ: «قل لي، علامَ تحزن إن ترك أحد الإخوة الجمعيَّة، وإن لم يَسِر آخرون على الدرب الذي أرشدتك إليه؟ قل لي، من ذا الذي غرس هذه الأخويّة؟ من ذا الذي يُلهم البشر ويدفعهم إلى الانضواء إلى هذه الأخويّة تائبين؟ من ذا الذي يَهبهم قوَّة الثَّبات؟ ألستُ أنا من يفعل ذلك؟».

ثُمَّ أضاف الصَّوت: «أنا لم أختر فيك عالِمًا خطيبًا مُفوَّهًا لإدارة أُسرتي الرهبانيَّة، بل توخَّيتُ اختيار إنسانٍ بسيطٍ، كي تعلم أنت، ويعلم الآخرون، أنّني أنا من يسهر على قطيعي. ولقد وضعتُك وسطهم علامةً كي يُشاهدوا الأعمال التي أُجريها فيك ويحذوا حَذْوَها. إنَّ من يسلكون في طريقي يمتلكونني، وسيمتلكونني على نحوٍ أكمل. أمَّا الذين يَوَدّون الحيادَ عن تلك الطريق فهم سيُجرَّدون ممَّا يبدون أنَّهم يمتلكونه. ولذلك أقول لك ألاَّ يُساورك مثلُ هذا الحزن، بل أحسن فعلَ ما عليك فعلُه، واجتهد في أداء

مهمّتك، فلقد غرستُ هذه الأخويَّة بحيث إذا ما راق لأخٍ ما أن يعود إلى قيئه، ومات خارج الأخويّة، فإنَّني سأبعث آخَر يحلّ محلَّه، ويتلقّى الإكليل الذي كان معدًّا له، وإن لم يكن قد وُلِدَ بعدُ، فسأبعثه إلى الحياة. ولكي تتيقّن من أنَّني أحبُّ من كلّ قلبي هذه الأخويَّة ونَهْجَها، فإنَّني أُؤكّد لك أنَّه ولو لم يبقَ فيها سوى ثلاثة أعضاءٍ، فلن أتخلَّى عنها أبدًا».

تلك الكلمات أعادت النور لذاك الذي كان يتعثَّر في غياهب الشكّ، غير قادرٍ على استشفاف مشيئة الله. وبالتالي فقد بات يُجيب كلّ من يأتيه ملتمسًا الإذن في اقتناء كتابٍ، أو تليينًا لأحد بنود الفقر: «افعلوا ما يقوله لكم رؤساؤكم. أمَّا أنا فقد أبلغني الربّ أنّ مهمّتي غدتْ محصورةً في الدُّعاء من أجل إخوتي، وفي إرشادهم إلى الطريق القويم بقُدوة سلوكي».

ومذَّاك خفَّت وطأة حزنه لرؤية بعض الإخوة يحيدون عن دربه، ولرؤية الزؤان ينمو إلى جانب القمح الطيّب الذي بذره، ويكاد يخنقه. فأَوَليس ذلك أمرًا طبيعيًّا في أرض البشر، أَوَلم يَدْعُ يسوع نفسه إلى ترك الزؤان ينمو، لكيلا يُؤَدّي إلى اقتلاع القمح أيضًا، حتّى يوم الحصاد حين يتمّ الفرز؟

ومن المحقَّق أنَّ تلك المحنة قد نقَّت فرنسيس من كلّ نتوءٍ في طباعه لم يكن قد سُوّي بعدُ، وأكملت تعليمه إيثار يسوعَ على كلّ شيءٍ، حتَّى على أخويَّته التي باتت أعزَّ عليه من حياته.

ولا ريب أنَّ صداقة القدّيسة كيارا قد لعبت، في تلك الأيَّام الحالكة، دَوْرًا فعَّالاً في إضفاء السلام على نفس فرنسيس؛ فهي كانت تجسّد الوفاء المُطلَق للمُثُل الفرنسيسكانيَّة الأصيلة، وبساطة الإنجيل الصافية، والسُّكون في قلب العاصفة. وهي، بصلواتها، ونصائحها، وشفافية سلوكها، قد جعلته يدرك أنَّ سكون القلب هو الشَّكلُ الأمثل للفقر، وأنّ السلام يتمثَّل في الاستسلام المُطلَق لله لا استسلام الوَهَن واليأس، بل تسليم الإرادة الواعية لإرادةٍ أسمى. وهكذا أسهمت، بصداقتها، في انتزاعه من براثن الليل، وبفضل تأثيرها المُرهَف خلّصته ممّا كان لا يزال عالقًا به من حدَّة الطبع، ومن كلّ تململٍ.

وبعد أن أخذ ليلُه ينجلي، وعاصفةُ نفسه تسكُن، عاد فرنسيس إلى البورتسيونكولا. وفيما كان ذات ليلةٍ راكعًا يُصلّي، مذرّفًا الدموع، رازحًا تحت وِقرٍ من الألم مُرهقٍ، همس الروح في نفسه:

– يا فرنسيس، لو كان لك من الإيمان مقدار حبَّة خردلٍ، لقُلتَ لهذا الجبل: انتَقِلْ من هنا، وارتمِ في البحر، فيمتثل.

– وما هو هذا الجبل، يا ربّاه؟

– إنَّه جبل تجربتك!

وفي الحال تلاشت التجربة الطاحنة التي كانت آخذةً بخناقه منذ سنتَيْن، وهيمن على نفسه سلامٌ عظيمٌ، وعاد وجدانه صافيًا مثل ماء بحيرة تنعكس في مرآتها أشعَّة الشمس المتوهّجة. وحينئذٍ أدرك أنَّ الإيمان، حبّة الخردل الصغيرة، قد أفلح في زحزحة جبل التجربة الذي كان يرزح تحته.

ولم ينطفئ الحُلْم رغم كلّ ما غشاه من سُحُبٍ، ولم تمُت الفكرة، فلا شيء يقوى على قتل فكرةٍ نَيِّرةٍ!

عيد ميلادٍ فريدٌ

في شهر تشرين الثاني من عام ١٢٢٣، أصدر الكرسيّ الرسوليّ براءةً تُكرّس قانون فرنسيس المُعدَّل، دستورًا رسميًّا للإخوة الأصاغر. وكان فرنسيس، في تلك الأثناء قد عاد إلى روما لمناقشة الكردينال هوغولينو في بعض بنوده، قبل إقراره.

وممَّا يلفت الانتباه أنَّه في حين كان ستَّة عشر كردينالاً قد بادروا إلى التوقيع على براءة قانون جمعيَّة الدومينيكيّين، لم يُوَقّع على براءة قانون الأخويَّة الفرنسيسكانيَّة سوى البابا وحده، فالدوائر الرومانيّة لم تكن تهضم نظام الفقر!

وأثناء إقامة فرنسيس تلك الأخيرة في روما، حلَّ ضَيْفًا على الكردينال هوغولينو. غير أنَّ حياة القصور لم تستطع النيل من أسلوب عيشه الفقير. فذات يومٍ، دعاه الكردينال إلى الاشتراك في غداءٍ رسميٍّ، ووصل إليه فرنسيس متأخّرًا بعض الشيء، ولكنَّه قبل أن يجلس إلى المائدة الفخمة التي استقرَّ من حولها أُمراء الكنيسة وعظماء العالم، استلّ من أردان أكمامه، كِسَرًا من الخبز الأسود الجافّ، التي كان قد استعطاها في الطريق، وراح يوزّعها على كبار المدعوّين، ممَّا رمى المُضيف في حَرَجٍ شديدٍ. بيد أنَّ فئةً من المدعوّين قد سَعِدتْ بمشاطرة القدّيس الفقير حصيلة تسوّله، واحتفظ بعضُهم بنصيبهم منها ذكرى غاليةً. أمّا الكردينال فانتحى بفرنسيس جانبًا، بعد الغداء وعاتبه

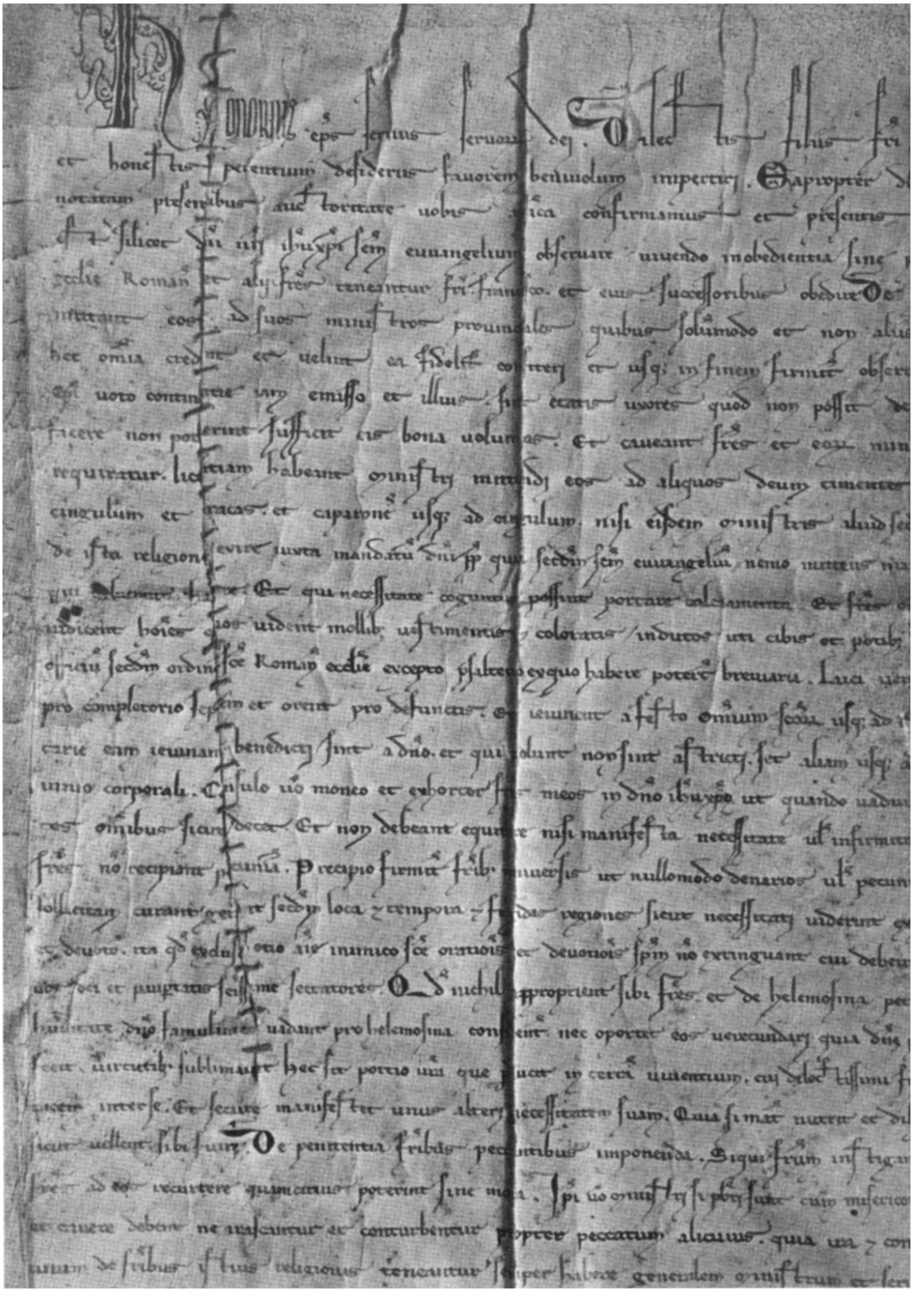

صكّ البابا في تصديق دستور الرهبانيّة

قائلاً: «علامَ تُهينني، فتمضي تتسوّل، وأنت ضيفي! ألا تعلم أنَّ بيتي، بكلّ ما يحتوي، هو لك؟».

فأجاب فرنسيس: «يا سيّدي، بما أنَّه لا يروق شيءٌ في عيني اللّٰه أكثر من الفقر المقدَّس، فليس، ثَمّة، ما يسبّب لك العار، بل إنَّه لشرفٌ رفيعٌ أن نُكرّم، في بيتك، مُعلّمنا المشترَك، الذي تنازل وعاش فقيرًا على هذه الأرض، حبًّا بنا. فضلاً عن أنّه يتوجَّب عليَّ التفكير بإخوة اليوم، وإخوة الغد، الذين قد يزدرون الاستعطاء، ممَّا يُحتِّم عليَّ التصرُّف بحيث لن يجدوا عُذرًا، إن هم استحوا من الاتّضاع».

فأقبل الكردينال على فرنسيس لاثمًا وجنتَيْه، وقد أخذ به التأثّر كلّ مأخذٍ، وقال: «يا بُنيّ، افعل ما يحلو لك، فمن الواضح أنَّ الربَّ معك، وهو الذي يلهمك».

وفي تلك الأثناء، كان الأخ أنجيلو، الذي وافى روما حاجًّا، يعمل في خدمة الكردينال برانكاليوني، فعزم فرنسيس على استصحابه للعودة معًا إلى مقاطعة أومبريا. بيد أنَّ الكردينال المذكور ألحف في استضافة القدّيس، أيضًا، بضعة أيّامٍ، ريثما تتحسَّن أحوال الطقس الرديئة التي كانت سائدةً آنذاك. ولكي يُغريه بالقبول، دعاه إلى الإقامة في مكانٍ منعزلٍ من قصره، وإلى تناول طعامه مع الفقراء الذين كانوا يختلفون يوميًّا إلى ذلك القصر ليَطْعَموا. وانضمَّ الأخ أنجيلو إلى الكردينال في التوسّل إلى فرنسيس كي يمكث، ثَمَّة، بضعة أيّام، وأَعدَّ له، في برج الحديقة، مكانًا خفيًّا يُقيم فيه، وتعهّد بأن يَرُدّ عنه الزائرين والفضوليّين. ولكن، منذُ اللّيلة الأُولى، زارت فرنسيسَ طغمةٌ من الأبالسة أمعنت فيه لَطْمًا ورَكْلاً وجرًّا، وإِزعاجًا. فاستدعى، منذُ الفجر، الأخ أنجيلو وقال له: «إنَّما الأبالسة هم مُنفّذو عِقاب اللّٰه، وهم مُكلَّفون بدفع الرهبان إلى الاعتراف بخطاياهم والتكفير عنها، أو، إن هم أخطأوا عن جهلٍ، يحملونهم على فحص ضمائرهم فحصًا دقيقًا. وبما أنّني قد اعترفتُ بكلّ خطاياي، وكفَّرتُ عنها، فلا ريب أنَّ الربَّ يُنذرني بأنّ إقامتي هنا لا تروق له. فعندما سيعلم إخوتي أنّني أُقيم في قصر كردينال، رُبَّما سيقول بعضهم: ها إنَّه ينعم برحراح العيش، فيما نحن نمارس الأصوام والكفَّارات في مناسكنا الزريّة. واجبي أن أكون للإخوة قُدوةً. ولا شيءَ يُفيدهم مثل إقامتي بين ظهرانيهم، ممَّا يجعلهم راضين بوضعهم عندما لا أكون، أنا، أفضل منهم حالاً. فلنرحل، إذن، من هنا، في الحال».

ثمّ استأذن فرنسيس الكردينال بالانصراف، بعد أن روى له أحداث ليلته وقال:

«هكذا ترى، يا سيّدي، كيف استأهَلَ من كنتَ تظنُّه قدّيسًا، بسلوكه الصَّلِف، أن تطرده الأبالسة من منزلك».

وغادر روما، التي لن يُكتَب له رؤيتها ثانيةً، بعد أن ظفر بإذن الحبر الأعظم بالاحتفال بعيد الميلاد، احتفالاً فريدًا، بأُسلوبه الخاصّ.

وكان يُساوره الشُّعور بأَنَّه قد بلغ المرحلة الأخيرة من شوطه، وأنّ عليه، قبل لقاء وجه ربّه، أن يعيش في نجوى حميمةٍ معه، وأن يتشبّه، إلى أبعد مدى، بالمُخلّص. فاستقرّ في منسك فونتي كولومبو، حيثُ كان قد قضى أيّام محنته القاسية.

ومع دُنوّ عيد ميلاد المخلِّص، أخذ يُعدّ العدَّة لتحقيق حُلْمه بالاحتفال به احتفالاً متألِّقًا. فلطالما أحبَّ ذلك العيد، وتأمّل، في وَرَعٍ وتأثُّرٍ بالغ، سِرّ مولد الفادي، وتطلَّع إلى بعث ذلك الحَدَث، في طقوسٍ تُجدِّد روعته تجديدًا حيًّا. لقد كان يتحرَّق توقًا إلى إبراز فقر الله، وسط مجتمع المال، وإبراز تواضعه وسط مجتمعٍ متعطِّشٍ إلى الأمجاد، وإبراز حنان الطفل الإلٰهيّ ورِقّته، بين ظهرانَي عالَمٍ تُمزّقه الحروب. وأيّ مكانٍ أفضل لتحقيق ذلك من مُجتمع الفلاَّحين الجبليّين الفقراء، البُسطاء، الوُدَعاء؟ وأيّ مناسبةٍ أجدر بذلك من عيد ميلاد يسوع؟

ففرنسيس كان يدعو الميلاد عيد الأعياد، إذ إنّ الله، في مثل ذلك اليوم، جعل ذاته طفلاً، ورضِع حليب امرأةٍ مثلَ كلّ مخلوقٍ بشريٍّ. وكان فرنسيس يُقبّل، في إجلالٍ وفَرحٍ، الصُّوَر التي تُمثّل الطفلَ يسوع، ومن شدّة تأثُّره كان يتلعثم كالأطفال بعبارات تقطر حنانًا، فقد كان لاسم يسوع، على شفتَيْه، مثلُ حلاوة العسل.

وقد وقع عيد الميلاد، مرَّةً، يوم جمعةٍ، فسأله أحد الإخوة: هل يسوغ تناول اللَّحم في ذلك اليوم؟ فأجاب: «إنَّه لحرامٌ أن ندعو يوم جمعةٍ مثل ذلك اليوم، الذي فيه وُلد يسوع. لا بل يحقّ للجُدران نفسها تناول اللحم في هذا اليوم المقدَّس، وبما أنّها لا تستطيع ذلك، فلنمسحها بالدهن، لكي تفرح بطريقتها. أمَّا البقر والحمير فيحقّ لها حصَّةٌ مضاعَفةٌ من العَلَف، تكريمًا للحمار والثور، اللّذَيْن، بنَفَسِهما، أدفآ يسوعَ في المذود»، ثمّ أضاف: «لو أنَّني رأيت الإمبراطور، لرجوتُه أن يأمر رجاله بذرّ الحبوب على الطرقات، ليلة الميلاد، مأدبةً للطيور وأخواتها القبّرات».

على مقرُبةٍ من منسك فونتي كولومبو، تقبع قرية غريتشيو، التي كان يملكها نبيلٌ

يُدعى جيوڤاني دي فيليتا، زَهِد بالأمجاد ليتقرّب من الله، وانضمّ إلى جماعة التائبين. وكان يمتلك، إلى جوار القرية، هضبةً حفرت في سفحها المغاور، وكَلَّلَت هامتَها خميلةٌ داكنةُ الخَضار، وقد وهبها للإخوة الفرنسيسكانيّين ليجعلوا منها مناسك. ورأى فرنسيس فيها المكان الأمثل لإحياء ذكرى الميلاد، بحيث تراه العيون، وتلمسه الأيدي، وتخفق له القلوب تأثُّرًا، وجَذَلاً، وشكرًا للربّ، ويعيشه الناس على نحو ما عاشه الرعاة، لاثني عشر قرنًا خلت.

فاستدعى صديقه جيوڤاني دي فيليتا، وبَسَطَ بين يَديْه الحُلْم الذي كا يتحرَّق توقًا إلى تحقيقه بتمثيل ليلة الميلاد تمثيلاً حيًّا، في مغارةٍ، ومعلفٍ حقٍّ، مليءٍ بالقشّ، يقف إلى جانبيه حمارٌ وثَورٌ حيَّان، بحيث يشعر كلُّ من يغشى المكان أنَّه يُشاهد، حقًّا، صورةً لذلك الحَدَث التاريخيّ الفذّ.

وألهبت تلك الفكرة النبيلَ التائب، اندفاعًا، فبادر إلى تحقيقها على خير وجهٍ. ودُعي إلى ذلك الاحتفال غير المعهود جميعُ أهالي القرية، والإخوة المنتشرون في المناسك بتلك الناحية.

وكانت ليلة الخامس والعشرين من كانون الأوَّل عام **١٢٢٣** ليلةً عَذبةً، عذوبةً فائقةً. وقُبَيْلَ انتصافها سالت الدروب والشِّعاب بمشاعل تثقب العَتَمة بمئاتٍ من النجوم المتحرّكة، وبأناشيد تتجاوب من كلِّ صَوب، فيطرب لها النسيم، وتذوب لها السَّماء والأرض، حنانًا. وكانت قِبْلة الجميع مغارةٌ في صدر الجَبَل، حيث ينتظرهم فرنسيس، وقد رزح تحت تأثُّرٍ بالغٍ، وأفعم قلبَه فرحٌ يندّ عن الوصف، وانبعثت من قلبه زَفَرات الحبّ ملتهبةً. كان كلّ شيءٍ قد أُعدّ وفقًا لرغبته، فانقلبت تلك المغارة الضائعة في سفح هضبةٍ، سماءً حقيقيَّةً، ومهرجانًا رائعًا للبساطة والتواضُع، على نحو ما عاشهما الله المُتَجسِّد.

وأُقيم القدّاس الإلٰهيّ على هيكلٍ نُصب في كُوَّةٍ محفورةٍ في جدار المغارة؛ وقد اعترف الكاهن الذي احتفل به أنَّه لم يشعر قطُّ بمثل ما غمره تلك الليلة من عزاءٍ، ومن شعورٍ أخَّاذٍ بحضور يسوع الحسّيّ. أمّا فرنسيس فقد ارتدى حلَّة شمَّاس إنجيليٍّ، وشرع مع الكاهن في إقامة الذبيحة، وتلا الإنجيل بصوته العذْب، فبدا وكأنَّه صدًى لنشيد الملائكة الذين بشَّروا الكون بميلاد المخلّص، ونادوا للناس الأنقياء السريرة بالفرح والسلام، في مثل تلك الليلة التي ترقَّبتْها البشريَّة بلهفةٍ مُذْ وُجدت، وما زالت تعيش

على ذكراها حتّى منتهى الدهور. وكان صوت فرنسيس، في تلك المناسبة النادرة، قد استعاد جِرسه الرنّان، فنهض بالقلوب إلى ذرى الخشوع، وأشاع فيها الفَرَح والنشوة.

ثمَّ ألقى عظةً سالت بالعذوبة ألفاظها، فتحدَّث عن مولد الملك الفقير، وكأنَّه يعيش ذاك الحدث الجَلَل بكلّ جوارحه؛ وكان يذكر «طفل بيت لحم» في رقَّةٍ تذوب لها النفوس، وتمتدّ لفظة «بيت لحم» على شفتيه، وكأنَّها ثُغاء حَمَلٍ رضيعٍ؛ وكُلَّما تلفَّظ باسم يسوع، مرَّ بلسانه على شفتَيْه، وكأنَّه يتذوَّق حلاوته بنَهَم.

لقد تخيَّل واحدٌ من أكثر الفرنسيسكانيّين المُعاصرين توغُّلاً في تحليل روح الفرنسيسكانيّة، هو إيلوا ليكلير أنّ عظة فرنسيس قد تضمَّنت هذه العبارات:

«في تلك المناسبة، كشف لنا اللّه عن أعماق كيانه، فإذ هو ليس القدرة والسموّ والعِلم والمجد فحَسْب، بل أيضًا البراءة والطفولة والحنان إلى ما لا نهاية. إنّ اللّه طفولةٌ وحنانٌ لأنَّه أبٌ، ولا نهاية لأُبوَّته.

«لم يكن البَشر يُدركون مدى أبوّة اللّه، ولم يكن بوسعهم معرفة ذلك، حتّى أظهر لهم اللّه ابنه... ولكنّ بعض الناس يتصوَّرون دائمًا أنّ العظمة هي في القدرة والسيطرة، ويا لضلالهم! فالعظمة الحقَّة، العظمة الحقَّة الوحيدة هي في أن يُحبّ المرء حقًّا، ويتشبّه بالآب.

«بيد أنّ هذه العَظَمة، في العالم، مُهدَّدةٌ. فمنذ أن تجلَّى لنا ملكوت اللّه في صورة طفلٍ يُحيق به الوهَن، ما انفكّ مهدَّدًا، مُعرَّضًا للاضطهاد والموت... إنّه مهدَّدٌ في داخلنا وخارجنا، إذ لا تنفكّ تستيقظ في كلٍّ منّا الشهوة العتيقة، والرغبة في السيطرة والالتهام، والبروز كالأقوى، والأوفر قدرةً.

«هذا السرّ، ما زلنا نحتفل به في طوايا الليل، وفي ثنايا شتاءٍ قارسٍ، شتاء الطبيعة والبشر، وفي طوايا ليلٍ قارس البرد يُخيّم على الأرض؛ ولكنَّنا واثقون أنَّ هذا اللَّيل، هذا الليل المتمادي في الطول، هو ليل الميلاد، هو مولدٌ مستمرٌّ، نحن فيه مشتركون. إنّها ليلة مولد الإنسان لحياة اللّه، ليلةٌ يُشرق عليها النور، نورُ ذلك الطفل الذي أُعطيناه عربونَ حنانٍ لامتناهٍ، بلا قياسٍ.

«وفي كل مرَّةٍ يُشْرَع قلب إنسانٍ، كي يتغلغل في طيَّاته هذا الحنان، يزداد النور إشراقًا، لأنَّ وجه ذلك الطفل يزداد ظهورًا في الإنسانيّة، ولأنَّ فردوس الطفولة يزدهر في قلب الإنسان».

ويُضيف إيلوا ليكلير قائلاً:

«في ليلة الميلاد المقدَّسة تلك، من عام ١٢٢٣، وسط صمت الطبيعة الفسيحة المتَّشحة بالثَّلج، شقَّ عطف اللّه، من جديدٍ، طريقًا إلى قلوب الفقراء فاكتشفوا، مذهولين، تواضعَ اللّه وحنانَه. ولم تكن المغارة الحيَّة، في نظرهم، حَدَثًا ساحرًا فحَسْب، فهي قد تفجَّرت من قلب قدّيس، في عالَمٍ يسوده العنف، ومن ثمَّ كانت عودةً إلى نبعٍ خفيٍّ من الطفولة والحنان اللّامتناهيين، كانت تعبيرًا حسِّيًّا ناطقًا، عن البحث عن اللَّه، عبر دروب الحبّ، والطفولة المستعادة.

«وقد اعترى البريَّةَ كلَّها الشعورُ بأنَّ ذلك اللَّيل قد بات مُشِعًّا».

لقد تميَّز وعظ فرنسيس دائمًا بجعل الفكرة المجرَّدة واقعًا محسوسًا، وباكتشاف العبارات التي تُجسّد الحقائق تجسيدًا ملموسًا، وبابتداع الحركات المسرحيَّة التي تصدُم المشاعر وتُلهب الخيال؛ وقد كان لتجسيده الميلاد، في تلك الليلة، من الوَقْع، ما جَعَل العالَم المسيحيّ أجمع، في كلّ أرجاء الكون، ينسج على منواله، ويُحيط تلك الذكرى السامية بأبهى حلَل الاحتفال والتكريم، حتّى باتت مغارة الميلاد تقليدًا متوارَثًا عزيزًا، في كلّ بيتٍ.

لقد كان ذهن فرنسيس وقلبه، تلك الليلة، في بيت لحم، ولكنَّه بدا وكأنَّه يرى يسوع الطفل فعلاً في مذود مغارة غريتشيو. ويُقال إنَّ الوجيه جيوڤاني دي فيلتا، وبعض الحضور قد رأوا بوضوحٍ، في ذلك المِذوَد، طفلاً راقدًا، احتضنه فرنسيس بحنانٍ بين ذراعَيْه، فاستيقظ وابتسم له، وداعب بيدَيْه الصغيرتَيْن وجنتَيْه، وطرف ثوبه الخشن، ثُمّ رَمَقَ جيوڤاني بنظرةٍ حانيةٍ مكافأةً له على جهوده في تحقيق حُلم فرنسيس. ولم يدهش جيوڤاني من تلك الرؤيا، فلطالما أيقظ فرنسيسُ يسوعَ الغافي في قلوبٍ كثيرةٍ، بأقواله وقداسة سلوكه.

وفي تلك الليلة عادت البشريَّة ترى بعيون أطفالٍ، بفضل فرنسيس، الذي لم يكن لاهوتيًّا ولا فيلسوفًا، ولكنَّه كان شاعرًا، وكانت حياته كلُّها قصيدةً، على حدّ قول شيسترتون. كان شاعر إنسانيّة اللّه، وشاعر الإخاء الإنسانيّ. وفي تلك الليلة أبرز من جديدٍ، في إبداعٍ شعريٍّ وعبقريٍّ، حنان اللّه، كما لم يستطع أيُّ لاهوتيٍّ، قطُّ، أن يفعل؛ فاكتشف البشر، باستماعهم إلى أناشيد الميلاد، عالَمًا جديدًا، و«إله المجد الذي صار لنا أخًا»، وبات بالإمكان لقاؤه في العلاقات الإنسانيَّة الأخويَّة.

وهكذا، اختتم فرنسيس تلك السنة التي انثالت فيها دماؤه غزيرةً، وقاسى خلالها من ضروب المِحَن والنضال والأحزان ألوانًا، في نشوةٍ من الفَرَح الصوفيّ السامي.

القدّيس فرنسيس في مغارة غريتشيو ليلة عيد الميلاد

الجزء الخامس
في رحاب اللّه

بين الله والعالم

أنهى فرنسيس شتاء ١٢٢٣ وربيع ١٢٢٤ في أحد مناسك غريتشيو، مستغرقًا في تأمُّل الميلاد، متمنّيًا أن يعيش سرَّ التجسُّد المذهل، عيدًا لا ينتهي؛ ولكنَّه عاد يعاني من ذلك التمزُّق الذي واكبه طيلة حياته بين الرغبة في الاعتكاف والوحدة مع اللّه، من جهةٍ، والانطلاق إلى العالم الرحب لإسماع الكلمة، والإعلان عن بشرى الخلاص، من جهةٍ أُخرى. لقد عاد نهبًا بين التنسُّك والوعظ.

كانت التجربة المضنية التي حاصرتْه طويلاً، والمحن الباهظة التي أرهقته، قد طهَّرته، إلى حدٍّ بعيد، ممَّا كان لا يزال عالقًا به من شوائب بشريَّةٍ، وأتمَّت تجرُّده الداخليّ، وأفضت به إلى البساطة المُطْلقة، وسمتْ به فوق عقم اضطرابات العالم. ومع تحرُّر نفسه، تحرَّرت رؤيته التي غدت أكثر واقعيَّةً وتبصُّرًا. فإلى جانب تطلُّعه المضطرم إلى التوحّد باللّه مع نخبةٍ من الأوفياء لنهجه، كان يترسَّخ لديه اليقين بأنّ مهمّة الخميرة ليست في البقاء نقيَّةً بنأيها عن العجين، بل مهمّتها الاندماج في العجينة البشريّة بكلّ حسناتها ونقائصها؛ وقد أدرك أنَّ عليه التوجّه إلى الجميع: الأخيار والأشرار، السُّقَماء والأصحّاء على السواء، وبين ظهرانيهم جميعًا، الشهادة لصبر اللّه اللامتناهي، ولصفحه الذي لا ينضُب، ولنعمته المتجدّدة أبدًا؛ وعندما تتمّ هذه الشهادة يتحقّق ملكوت اللّه، الآن وهنا، ويتألّق نور الإنجيل في ظُلُمات العالم؛ ومن ثَمّ فقد بات وقته

موزَّعًا بين الجولات التبشيريّة في القرى المجاورة، وزيارة شتّى مناسك الإخوة، وفسحاتٍ من العزلة والتعبّد والسكون مُفْعمةٍ باللّه.

في مستهلّ رسالته كانت تحدوه آمالُ تلامس الوَهْم بمدّ جسورٍ بين الأرض والسماء يقود عليها الناسَ أجمعين إلى الفردوس؛ ولكنّ التجربة سرعان ما بدَّدت كثيرًا من أوهامه، ولا سيَّما بعد أن ازْوَرَّ عن نهجه الإنجيليّ عددٌ من إخوته كي يُلبّوا غرور العِلْم والسُّلطان ورغد العيش، فأدرك، بكلّ مرارته، مَثَلَ مَلِك الإنجيل الذي دعا بعض المختارين إلى مأدبةٍ، فلمّا أزف موعدها شرعوا يتقاعسون عن الحضور متذرّعين بشتّى الحُجَج الواهية؛ ولكنّه على غرار مَلِك الإنجيل، حَرِص على تعميم دعوته، ولا سيّما على المنبوذين، والمُحتَقَرين، والذين يستخفّ بهم العالم.

كانت رغبته في الوعظ توازي رغبته في الانقطاع للعبادة. بيد أنّ صحَّته المعتلَّة، غدت تنهض عائقًا دون انطلاقه ليجوب البلاد كما أَلِف أن يفعل في ميعة شبابه. وهو، في تلك الأثناء، كان قد أدرك أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أنَّ على الأفعال أن تحتلّ المقام الأوَّل فوق الأقوال والتعليم؛ فعكف على الوعظ بقُدوة سلوكه، وبالتوغُّل في التمثّل بمعلّمه الإلٰهيّ، حتّى في أدقّ التفاصيل، كما عَكَف على ترسيخ مبادئه الأساسيّة بإثباتها في وثائق مكتوبةٍ، مُذكِّرًا بركائز رسالته التي اضطرّ إلى إغفالها في قانون الأخَويَّة.

رسائل فرنسيس

إنّ حرص فرنسيس على خلاص الناس أجمعين قد دفعه إلى تدوين رسائل إلى شتّى الجهات مُذكّرًا بمبادئ الخلاص الأساسيّة، فكتب في تلك المرحلة الأخيرة من حياته، «رسالة إلى جميع المسيحيّين»، و«رسالة إلى جميع رؤساء الأديرة» و«رسالة إلى جميع السُّلطات»، فضلاً عن وصيَّته، وبعض الأناشيد التي فاضت بها نفسه، ولا سيَّما «نشيد الخلائق» أو «نشيد الأخت الشمس».

تلك الرسائل لم يطوِها فرنسيس على أفكارٍ جديدةٍ، بل إنّه حرص، عبرَها، على ترسيخ الأفكار القديمة الدائمة التي قادت حياته، وكانت مرتكز مبادئ رسالته، أي التطويبات الإنجيليّة، في جميع الأذهان والقلوب؛ وهي قد لا تعني الكثير للقارئ المتسرّع الذي قد يرى فيها الكثير من التكرار، غير أنّ من يعرف فرنسيس جيّدًا، يُدرك أنَّ ذلك القليل الذي يقوله، ولا يفتأ يردّده، كان يملأه ويمتلكه بأكمله.

مواضيعه تدور حول محبَّة الله وخدمته، والتوبة والصوم، والتعفّف عن ملذّات الجسد، والترفُّع عن الرذائل والخطايا، وتحرير القلب والنوايا من الشهوات الوبيلة، وحبّ الأعداء ومساعدتهم؛ وعدم التماس الحكمة الزمنيَّة، والمراكز العالية، والدأب على الصلاة، والاعتراف والتناول، وإصلاح الشرّ المُرتَكَب، والتعويض عمَّا أُصيب به الغير من أضرار؛ وهو في سبيل الحثّ على التوبة، والتعويض عمَّا اقترفه الإنسان من ظلمٍ وإضرارٍ بالآخرين، استمدَّ صُوَرًا من صميم الواقع، فرسم، مثلاً، لوحةً لإنسانٍ وَهَن جسدُه، ودنا أَجَلُه، فجاءه الأهل والأقارب قائلين: «عليك أن ترتّب أمورك»؛ وتظاهر امرأته وأبناؤه وأصدقاؤه، وكلُّ الذين لهم به صلة، بالبكاء، ونظر المدنف من حوله، فرأى تلك الدموع، وخدعته تلك المشاعر الزائفة، فقال: «أجل، بكلّ جسدي، وبكلّ نفسي، أودُّ أن أُودِع بين أيديكم كلَّ ما أملك». ولكن، في الواقع، إنَّه لَمُدانٌ، ذلك الإنسان الذي يُوكل لتلك الأيدي روحَه وجسدَه، وكلَّ ما يملك، والذي يثق بمثل تلك المشاعر الكاذبة. ولذلك قال الربّ. بلسان النبيّ: «ملعونٌ من يستسلم لإنسان». وفي الحال يستدعي الأهلُ والأقرباءُ كاهنًا. فيقول الكاهن للمحتضر: «أتريد أن تتوب عن كلّ خطاياك؟» فيجيب المريض: «نعم» ويسأله الكاهن: «أوتريد أن تعوّض، بقدر استطاعتك، كلّ من خدعتهم وحرمتهم ما كان لهم حقًّا؟» ويجيب المحتضر: «كلاّ لأنّي أَوْكلت كلّ شيءٍ إلى أسرتي وأصدقائي». وعندئذ يفقد النطق، ويفارق الحياة، قبل أن يُصلح ما اقترفه من ظلمٍ... إنَّه ترك كلَّ أملاكه لأسرته وأصدقائه، وهؤلاء يقتسمونها ويقولون: «فلتكن نفسه ملعونةً، لأنَّه لم يكتسب مالاً أوفر يورثنا إيّاه». وهكذا هو يفقد كلّ شيءٍ في هذه الدنيا، وفي الآخرة يقاسي عذاب جهنَّم الأبديّ».

أمَّا الإخوة الكَهنة فيُذكّرهم فرنسيس بواجب العناية بالهيكل والقربان والكتاب المقدَّس.

ويحذّر المسؤولين المدنيّين ألاَّ تشغلهم مهامّهم عن أنفسهم التي هي وحدها هامَّةٌ لهم. فعندما يحين الموت، ماذا يبقى لهم؟ وبما أنّ في يدهم السُّلطة، فهو يحرّضهم على استخدامها لحضّ الناس، بواسطة منادٍ، أو بأسلوبٍ آخر، على الصلاة، كلَّ مساءٍ. وقد كان فرنسيس، بذلك، رائد ناقوس التبشير الذي يقرع في أوقاتٍ معيَّنة من النهار، مُذكِّرًا المسيحيّين بيسوع وأُمِّه، وداعيًا إيّاهم إلى الصلاة.

القدوة

بيد أنّ الوعظ الأهمّ كان حريصًا على ممارسته بقُدوة حياته، «فهو كان واحدًا في كلامه وسلوكه»؛ وكان يأبى إلاَّ أن يُطلع الجميع على مواطن ضُعفه، فلا يقدّروه فوق قدره. فأثناء الصيام الأربعينيّ لعام ١٢٢٤، كانت معدته من سوء الحال، بحيث لا تستبقي طعامًا، فنصحه الأطباء بالتنكُّب عن الأطعمة المُعَدَّةِ بالزيت، والاستعاضة عنها بأطعمةٍ مُعدَّةٍ بالشَّحم الحيوانيّ. ولكنَّ الهواجس، من جرّاء ذلك، أقضَّت مضجعه، فأعلن على رؤوس الجماهير التي احتشدت يوم عيد الفصح لتراه: «رُبَّما جئتم معتقدين أنَّني رجل وَرَعٍ يخاف الله. ألا فلتعلموا أنّني، خلال هذا الصيام، قد تناولت أطعمةً مُعدَّة بالشَّحم!»

وأمره الأطباء، مرَّةً، بتبطين ثوبه، بفروة خروف لإدفاء معدته، ولكنَّه أصرَّ على إبراز قسم من الفروة خارج الثوب، أيضًا، كي يعلم الجميع أنَّه يُعنى بجسده، خلافًا لما يوحي به ثوبه الزريّ. وكان لا يني يُردّد: «لا أريد أن أكون، في ما لا يراه الناس منّي، غير ما يرونه». وكان، إذا ما دُعي إلى مائدةٍ واستساغ طعامها، يبادر إلى إطلاع إخوته على ضعفه هذا؛ وإذا ما قدَّم لإنسانٍ حَسَنَةً، وشعر بالرِّضى عن نفسه، شكا ذاته لإخوته.

وكان تشدُّده يبرُز، في ميدان الفقر، فقد قال له، يومًا، أحد الإخوة: «إنَّني آتٍ من صومعتك»، فعقد العزم، منذ تلك اللَّحظة، على الإقلاع عن استخدام تلك الصومعة لأنَّها اعتُبِرَتْ خاصَّته. وكان يرى أنَّ بيتًا من طينٍ يُجلّله سقفٌ من خَشَبٍ غير مصقولٍ، مُفْرطٌ في البَذْخ، فيكتفي بكوخٍ من أغصان أشجارٍ، بل يؤثر الإقامة في شِقِّ صخرةٍ، والرُّقاد على اليابسة، متوسِّدًا حجرًا، على غرار ابن البشر.

وكان يعتبر الاهتمام بخبز الغد إنَّما هو شأن من يعيشون في البذخ. أمَّا إخوته فكان يمنعهم من إعداد الزَّاد مساءً لليوم التالي، كما كان يَحظر عليهم أَن يقبلوا، من الزاد الذي يجود به عليهم المحسنون، أكثر ممَّا يَلزمهم استهلاكه في الحال.

ولكي يُضفي على ثوبه طابع المهانة كان يرقّعه برِقَعٍ كبيرةٍ، صفيقةٍ، متنافرةٍ؛ وإذا ما احتاج إلى ثوبٍ جديدٍ، كان يترقَّب حتّى يمنَّ عليه به أحد المحسنين. وإن هو رأى فقيرًا في ثيابٍ مهلهلةٍ أكثر من ثيابه، حَزِنَ واعتراه الخجل؛ وكان أمثال ذلك الفقير

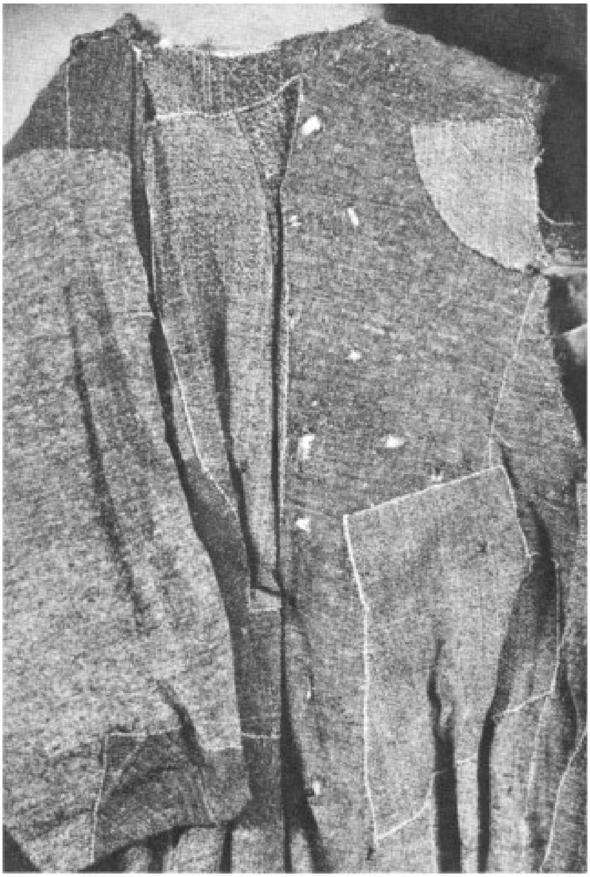

ثوب القدّيس فرنسيس

حذاء القدّيس فرنسيس

رفيعي القَدْر في عينيه، فيودّ لو يتنازل لهم عن كلّ ما يملك؛ عن معطفه، أو جزءٍ من ثوبه، بل عن سرواله؛ وكان يقول: هذا كلُّه حقٌّ لهم، وسأعتبر نفسي سارقًا إن أنا احتفظتُ بما يخصُّهم. وكلَّما أُعطي شيئًا كان يبحث عمَّن هو أحوج منه إليه، كي يهبه إيّاه، ولا سيَّما إن كان ثوبًا جديدًا. وكثيرًا ما كان يهب المستعطين الثياب التي يُصيبها من المحسنين، فيبقى شبه عارٍ، ويُضطَرُّ إخوته إلى استعادتها ممَّن أخذوها لقاءَ هبةٍ أُخرى، وعندما لحظ فرنسيس ذلك، غدا يُحرّض الذين يهبهم ثيابه أن يستوفوا عنها أجزل تعويضٍ إن ما حاول إخوته استعادتها.

وذات يومٍ جاءت ديرًا كان هو يقيم فيه، امرأةٌ لها ابنان قد انضمّا إلى أخويَّته، وهي على قدرٍ مريعٍ من الفقر والمتربة. ولم يجد فرنسيس ما يجود عليها به سوى الكتاب المقدَّس المُستخدَم في تلاوة الطقوس، فأعطاها إيَّاه كي تبيعه وتتدبَّر بثَمَنه أمرها. وردًّا على اعتراض بعض الإخوة قال: «إنَّني واثقٌ أنَّ الله أكثر رضًى عنَّا، عندما نساعد أمّهاتنا (وكان يعني بكلمة الأمّهات كلَّ النساء اللواتي لهنّ أبناء بين صفوف الإخوة) منه عندما يرانا نحتفظ بكتابه ونَرُدُّهنَّ خائباتٍ». ومرَّةً أُخرى، أمر الأخ پييترو دي كاتانيا أن يبيع أغطية الهيكل ليتحسَّن بها على المحتاجين، قائلاً: «خيرٌ لنا أن يكون هيكلنا عاريًا، ونتبع الإنجيل، من أن يكون لنا هيكلٌ غنيٌّ بالزينة، ونعصى الإنجيل». وهكذا كان حريصًا على أن يحافظ على نقاء السُّلوك، وعلى اقتفاء الإنجيل حقًّا، لا ظاهريًّا فحَسْب.

واتَّفق له أن وافى ديرًا في غريشيو غداة عيد الفصح، قُبَيْل الظُّهر، فوجد الإخوة منهمكين في إعداد مائدةٍ فاخرةٍ، مدُّوا عليها سِماطًا نظيفًا، ونسَّقوا أقداحًا زجاجيَّةً، وصِحافًا فاخرةً، احتفاءً برئيسٍ جاء لزيارتهم؛ فانسلَّ فرنسيس خارجًا، في الحال، والتقط قُبَّعةً خَلِقةً كان قد رماها أحد الشحَّاذين، فاعتمرها وغطَّى بها وجهه، واتّكأ على عصًا، ثُمّ قرع الباب، ولما فُتح، قال بصوتٍ مُتَهدِّجٍ: «حُبًّا بالله أحسنوا إلى مسافرٍ مريضٍ». فأدخلوه وأعطوه بعض حساءٍ وخبزًا، فانتحى بها زاوية قرب الموقد، وجلس أرضًا، ووضع الطبق على ركبتيه وقال: «الآن، على الأقلّ، قد جلستُ كما يليق الجلوس بأخٍ أصغر. ولكنَّني، قبل قليل، عندما دخلتُ ورأيت تلك المائدة الفاخرة، لم أستطع التصديق بأنَّني بين إخوةٍ فقراء، مُضطرّين إلى ذرع الطرقات لاستعطاء خبزهم اليوميّ على الأبواب». وحينئذٍ فُتِحتْ عيونهم، مثل تلميذَيْ عمّاوس، وتعرَّفوه،

فتجمَّد الطعام في حلوقهم، فرموا بملاعقهم جانبًا، ونهضوا عن مقاعدهم، وارتموا عند قدميه باكين مستغفرين.

وهكذا، ولئن أسلم فرنسيس أمرَ أخويَّته لله، وأقلع عن النقاش والتصدّي والكفاحِ الضاري في سبيل تنفيذ مبادئها الإنجيليَّة تنفيذًا كاملاً أمينًا، إلاَّ أنَّه ما كان يُفوِّت فرصةً عارضةً للتذكير بتلك المبادئ، وللإنحاء باللائمة على كلّ تنكُّرٍ أو انتهاكٍ لها، حريصًا، ما استطاع، على التعليم بشهادة سلوكه، وأُسوته.

ومرَّةً أُخرى، في يوم عيد الميلاد، كان فرنسيس يتناول طعام الغداء مع إخوته، فأخذ أحدهم يستعرض حزن العذراء عندما اضطُرَّت إلى وضع وليدها في زريبةٍ، حيث لا سرير يرقد فيه سوى معلفٍ، ولا غطاء أو وسادة غير القشّ، ولا دفءَ له، في تلك الليلة القارسة البرد، سوى لُهاث الحمار والثور. وإذ بفرنسيس يُجهش بالبكاء، ويأخذ رغيفه، ويجلس على الأرض العارية ليأكله، لكيلا يكون أفضل حالاً من يسوع وأُمّه.

وفي الواقع، كان فرنسيس قد أَلِف شَظَف العيش بحيث بات لا يستمرئ أيَّ ضربٍ من ضروب الهناء. فذات يومٍ أُجريت له عمليَّةٌ في محاولةٍ لشفاء عينَيْه، وكُويَ صدغاه بضراوةٍ، فقسره إخوته على استخدام وسادةٍ لإسناد رأسه عليها في أثناء اللَّيل. وما إن أطلَّ الصباح حتّى ناداهم وقال، مُتبرّمًا: «إخوتي، اعلموا أنَّ وسادتكم اللعينة هذه قد منعتني من النَّوم! فقد بدا لي كلُّ شيءٍ يدور من حولي، وأنّ ساقيَّ ترتجفان، وإنَّني لأعتقد أنّ إبليس يكمُن في هذه الوسادة!» ثُمّ أمر أحد الإخوة بأخذها، في حَذَرٍ، وبإلقائها خلف ظهره، في مكانٍ ناءٍ، من غير أن يلتفت إلى الوراء.

ولم تكن تلك هي المرَّة الوحيدة التي حاصره فيها الأبالسة، ليلاً، وأقضُّوا مضجعه، بل طالما سمع خطواتهم خلفه، ومن حوله، ولهاثهم وراء ظهره، ورؤوسهم البشعة تختلس النظر إلى كتاب صلواته. بيد أنّ أكثر ما كان يضيق به همسٌ في أذنه، في صمت الليل المُطبق، أثناء تهجُّده، يقول في سخريَّةٍ حانقةٍ: «عَبَثٌ كلُّ ما تفعل، فمهما صلَّيتَ وتوسَّلتَ، فأنت، في نهاية الشوط، لي»، فيُصارع المسكين، وييتئس، وينتحب، ويلتمس عون الربّ بقلبٍ واجفٍ، وفي الصباح يجده الإخوة شاحبًا، مُنهدًّا إعياءً ووَجَلاً. وقد روى، ذات صباح، ما جرى له، من هذا القبيل، للأخ پاشيفيكو، وقال: «إنَّما يحدث لي ذلك، لأنَّني أكبر خاطئٍ في الوجود». وفي تلك اللحظة تجلَّت للأخ الشاعر، پاشيفيكو، رؤيا شاهد فيها السماء مشرعةً، وبها عرشٌ خاوٍ تُحيق به

الملائكة. وجاءَه هاتفٌ يقول: «هذا هو العرش الذي طُرِد منه لوسيفورس، وقد منحه الربُّ لفرنسيس، ثوابًا له على تواضعه الرائع».

وكان فرنسيس يُعلّم إخوته الثباتَ في التجارب ويقول: «لا يستطيع إنسانٌ اعتبارَ نفسه خادمًا حقًّا لله، إن لم يتعرَّضْ لِجَمٍّ من التجارب. وإنَّما كلُّ تجربةٍ تمَّ التغلُّبُ عليها خاتمُ خطوبةٍ يُهديه الربّ للنفس». وكان يحثّهم على مقاومة التجارب بثلاثة: الصلاة، والطاعة، والفَرَح الإنجيليّ في الربّ، الذي لا يُخفِق أبدًا في هزم جميع الأفكار القاتمة والشرّيرة. وكان فرنسيس، لإخوته، القدوةَ المُثلى في كلٍّ من هذه الثلاثة.

فهو، مُذ تخلّى عن رئاسة الأخويّة، أَلِف أن يُبقي، إلى جانبه، أخًا آخر، يخضع له خضوعه للرئيس، أيًّا كان ذلك الأخ، سواء كان مبتدئًا أو الرئيس العامّ. وقد سأله الإخوة يومًا: «ما هي الطاعة الكاملة؟» فأجابه: «خذوا جُثَّةً، وضعوها حيث تشاؤون. فهي لا تُبدي أيّة مقاومةٍ، ولن تسعى إلى تغيير جِلْسَتها، ولن ترغب في الرحيل. وإن وضعتموها على عرش، فهي لن تنظر إلى أعلى، بل دائمًا إلى الأسفل؛ وإن ألبستموها أُرجوانًا فلن تبدو فيه إلاَّ أكثر شحوبًا. وكذلك هو شأن من يُمارس الطاعة الكاملة: فهو لا يسأل إلى أين يُرسَل، ولا يسعى إلى معرفة إلى أين سيصل ولا يبذل أيَّ جهدٍ للتملُّص من المُهمَّة المُوكَلة إليه. وإن هو بلغ الأمجاد، فلا يؤدّي ذلك إلاّ إلى مضاعفة تواضعه. وكلّما أمعن الآخرون في الثناء عليه، وجد نفسه أكثر استئهالاً للشَّفقة».

لا بل إنَّه كان ينظر إلى الطاعة نِظرةً بوذيَّةً أحيانًا، فيرى أنَّها الامتناع عن مقاومة لا البشر فحَسْب، بل حتَّى الحيوانات المفترسة والكواسر، وشتَّى عناصر الكون. فقد أبى، يومًا، إطفاء حريقٍ نشب بثوبه، وأنحى باللائمة على نفسه لأنَّه فكَّر، باديَ الأمر، أن يحرم «أخته النار» من جسده التي كانت راغبةً في التهامه. وهكذا علَّم فرنسيس «اللاعنف»، الذي تبسَّط غاندي، بعد سبعة قرون، في تعميمه على السياسة، وعلى شتّى مناحي الحياة؛ وكلاهما قد استوحياه من تطويبات الإنجيل، ومن قول يسوع: «من لطمكَ على خدِّكَ الأيمن فحوِّل له الأيسر»، وما يلي ذلك من قَوْلٍ، في الإنجيل، يدعو إلى التسامح، وعدم مقاومة الشرّ بالشرّ، ومسالمةٍ تَظْهَر على كلِّ عُنفٍ.

أمّا الصَّلاة، فقد مارسها فرنسيس، ودعا الآخرين إلى ممارستها باستمرارٍ، وبلا انقطاعٍ، حتَّى قال عنه توماس دي شيلانو: «إنَّه ليس إنسانًا دائبًا على الصلاة، بل هو الصلاة نفسها، وقد تجسَّدت بشرًا»، فكأنَّ ستارًا مفرطَ الرِّقَّة فقط كان يفصله عن العالَم

الآخر والأبديّة. وقد أُعطيَ أحياناً سماعَ أناشيد التسبيح الملائكيّة المنبعثة من وراء ذلك الستار. وفي مثل تلك اللحظات الفريدة، كان فرنسيس يصمت، بغتةً، ويقطع كلّ حديثٍ إن هو كان وسط الإخوة، ويغطّي وجهه بمعطفه أو بكفَّيه؛ وكان الإخوة، عندئذٍ يسمعونه يتنهَّد بعمق، أو يُتمتم شيئًا بينه وبين نفسه، أو يرونه يهزّ برأسه وكأنَّه يجيب أحدًا، فينسحبون بتُؤَدَةٍ إذ كانوا يعهدون لديه رغبةً في الخلوة، عندما يستغرق، على هذا النحو، في محادثة السماء، بمنأىً عن كلّ مراقبةٍ وفضولٍ. فقد كان حريصًا على ممارسة تعبُّده وصلاته، في الخفية، بعيدًا عن الأنظار، فينسلّ إلى الغابة، مع الفجر، والجميع نيامٌ، مثلما كان يسوع يفزع إلى البرّيّة وقِمَم الهضاب للصَّلاة، وحيدًا. وقد تعقَّبه، مرَّةً، بعض الإخوة، وهو في خلوة صلاته، فرأوا نورًا ساطعًا يُقيم فيه يسوع ومريم محاطَيْن بأجواقٍ من القدّيسين والملائكة، يحادثانه. ولكنَّه كان حريصًا على إخفاء تلك الكرامات طيَّ كتمانٍ مُطْبقٍ، ويأبى التكلُّم فيها، وغالبًا ما كان يقول لإخوته: «إن تلقّى أحد خُدّام الله، أثناء صلاته، عزاءً من فوق، فعليه، قبل اختتام صلاته، أن يرفع عينَيْه إلى السماء، ويضمّ يدَيْه، ويقول: «يا ربّ، هذه التعزية، وهذه العذوبة، اللّتان تنازلتَ فأرسلتهما من السماء إليّ أنا الخاطئ غير المستحقّ، أردُّهما إليك الآن لكي تحفظهما لي». وعندما يؤوب إلى إخوته، عليه أن يبدو كما كان دائمًا، خاطئًا تاعسًا».

وإلى ذلك كان يشجّع الصلاة الجماعيَّة، ويحرص على الوقوف أثناءها مستقيمًا غير مستندٍ إلى أيّ شيءٍ: وقد باغته وابلٌ من المطر، ذات يومٍ من كانون الأوّل **١٢٢٣**، وهو عائدٌ من روما، وكان واقفًا في بعض الطريق يُصلّي الفرض، فتابع صلاته حتّى النهاية، وتبلَّل بأكمله، ولكنَّه لم يتحرَّك، ولم يأبه لما كان ينصبُّ عليه.

ومرَّةً، كان قد فرغ لتوّه من صنع كوبٍ خشبيٍّ، قضى في قدِّه وحفره الكثير من ساعات فراغه، حين قُرع جرس الصلاة الثالثة، فهرع إليها؛ ولكنَّه باغت نفسه، فيما كانت شفتاه تردّدان المزامير، وقد انشغلت عيناه في تأمُّل ذلك الكوب في رضىً وارتياحٍ؛ ومع عينَيْه شَرَد ذهنه عن التمعُّن في الألفاظ التي كان يتلوها؛ فلم يتردَّد، لحظةً، في إلقاء الكوب الخشبيّ، الذي سبَّب شروده، في الموقد، طُعمًا للنَّار.

لقد كان، حقًّا، جادًّا في صلاته. وعندما كان أحدهم، وهو يودّعه، يسأله أن يُصلّي من أجله، فيعده بذلك، كان يَعُدّ ذلك الوعد دَيْنًا، عليه وفاؤه بكلّ مسؤوليّةٍ، ولم يعتبر قطّ مثل ذلك السؤال وذلك الوعد عبارات مجاملةٍ فارغةٍ، كما هو رائجٌ بين الناس.

وكان كَلِفًا بسماع القدّاس كلَّ يوم، وقد تيسّر له ذلك، طالما أقام في المدن أو القرى الكبيرة حيث توجد كنائس، ولكن كان يتعذّر عليه أثناء إقامته في المناسك المنعزلة وفي ذرى الجبال؛ ومن ثمّ فهو لم يتلقَّ، قطّ، هديَّةً أثمن من تلك التي حباه بها البابا أونوريوس الثالث، بمناسبة عيد ميلاد ١٢٢٤، عندما أذن للإخوة الأصاغر بإقامة القدّاس في مناسكهم، على هيكلٍ صغيرٍ متنقّلٍ، يحقُّ لهم حمله معهم أينما ذهبوا، ومُذّاك بات الأخ ليون يُقيم له القدّاس كلّما شاء.

أمّا وسيلته الثالثة لبلوغ سلام النفس، فكانت الفرح الدائم؛ وقد طالما ردّد: «أولئك الذين يمتلكهم إبليس، فليمضوا مطرقين، أمّا نحن، فحريٌّ بنا أن ننعم بالربّ». وكان يضيف: «عندما تكون النفس حزينةً، وحيدةً، مفعمةً بالهموم، فهي، حينئذٍ، تجنح إلى الالتفات صوب التعزيات الخارجيّة، وملذّات العالَم العقيمة». وبالتّالي، كان لا يكفُّ يدعو الإخوة إلى العيش في فرح الربِّ؛ وكان يمقت الوجوه المتجهّمة، ويأبى أن يكون الإخوة حالمين مكتئبين، بل يريدهم أبناء للنور، جَذِلين. وإذا ما سُئل عن مصدر مثل ذلك الفرح كان يُجيب: «إنَّه ينبع من نقاء القلب، ومن المثابرة على الصلاة». أمّا أعداء الفرح، فالخطايا والفتور: «فعندما يتجمّد الروح، وشيئًا فشيئًا يفقد أمانته للنعمة الإلٰهيَّة، حينئذٍ يجهد اللحم والدم في السيطرة على ما يَطيب لهما».

ومن ثَمَّ فالشرط الأساسيّ للحفاظ على الفرح الإلٰهيّ، يكمن في التنكّب، لا عن كلّ معصيةٍ جسيمةٍ فحَسْب، بل عن كلّ خطيئةٍ طفيفةٍ. فكما أنّ ذرَّة غبارٍ تعلق بالعين من شأنها تعكير الرؤية، كذلك ينبغي التحاشي عن كلّ ذرّة غبارٍ تعكّر رؤية النفس، مثل معاشرة النساء. وكان فرنسيس، في هذا المضمار، القُدوة المُثلى؛ إذ إنَّه، في حضور امرأةٍ، كان يُطرق في الأرض، أو يرفع عينيه إلى السماء، وإذا ما تمادى الحديث، بادر إلى بتره. وقد زاره في أحد الأديرة امرأةٌ وابنتها، بحضور أحد الإخوة، فأسمعهما فرنسيس إرشادًا بنّاءً وصرفهما. وحينئذ سأله رفيقه: «لمَ لم تنظر إلى الفتاة التي كانت تلتهم كلَّ كلمةٍ تخرج من شفتَيْك، وتتلقّاها في وَرَعٍ بالغٍ؟» فأجابه فرنسيس مُستنكِرًا: «ومن ذا الذي لا يتهيّب من إلقاء النظر على خطيبة المسيح؟» فكلُّ امرأةٍ تقيَّةٍ كانت، في نَظَره، خطّيبةً للمسيح، فلا يجسر على رفع أنظاره إلى أيٍّ منهنَّ.

ومكافأةً له على ذلك التجرُّدِ المُطلَق أنعم عليه الربّ، في أيّامه الأخيرة، مع كلّ أحزانه وتباريح آلامه، بفَرَحٍ داخليٍّ عميق الغور، كان، في بعض الساعات، يتصاعد

من أَعماقه نشيدًا لا يقاوَم، فيتغنّى، هو نفسه، بما كان يشدو في داخله. تلك الألحان السماويَّة كانت تصفو وتعذُب يومًا إثر يومٍ، في حنايا صدره، وتتملَّكه بحيث لا يُحجم عن تناول خشبتَيْن يُسند إحداهما على ذراعه وخدّه، ويُمرّ الأُخرى عليها وكأنَّها قوسٌ فوق وَتَر كمانٍ، ولا يتردَّد، أحيانًا، عن الرقص على إيقاع تلك الموسيقى السماويّة التي كانت تتردّد أصداؤها في حنايا نفسه. وغالبًا ما كان يتغلّب عليه التأثّر، في نهاية الشَّوط، فيُلقي بالقوس والكمان، ويُجهش ببكاء الفرح، ويتوه في انخطافٍ إلى عالَم السماء.

ذلك الفرح الذي كان يُضاعفه وجودُه وسط نُخبةٍ من إخوته المخلصين في سهل رييتّي، كان يُنسيه، بعضَ الشيء، ما يجري هناك، في بولونيا وباريس، والإخوةَ الذين آثروا الإقامة الوثيرة في القصر البابويّ، أو أولئك الذين أَولوا الدراسةَ الجامعيَّة كلّ اهتمامهم، وكلَّ الذين غدوا غير ما كان يرجو لهم أن يكونوا، وعملوا خلاف ما كان يرغب أن يفعلوا. ولكي يطرد من ذهنه ذلك الواقع الحزين، راح يتخيَّل صورة الأخ المثاليّ، فتتكامل، في ذهنه ملامحها من شتّى الصفات التي كان يتميَّز بها كلٌّ من الإخوة الُمحيقين به، المخلصين لنهجه.

وكان يُسعده، أكثر، أن يعلم أنَّ هناك، بالإضافة إلى إخوته المقرَّبين، مَن ظَلَّ حريصًا على مبادئ الأخويّة، وانضمَّ إلى ذلك القطيع الوفيّ لصوت الراعي الصالح. فكانت سعادته غامرةً، ذات يومٍ، عندما زاره أخٌ قادمٌ من إسبانيا، وروى له كيف يعيش الإخوة هناك، فقال: «إنَّهم يُقيمون في منسكٍ صغيرٍ، وقد تدبَّروا أمرهم بحيث يُعنى كلٌّ منهم أسبوعًا، بشؤون مقرّهم، وينصرف إلى الصلاة، فحَسْب، في الأسبوع التالي. وقد انقسموا، لهذا الغرض، إلى فريقَيْن، يتناوبون كلَّ ثمانية أيَّامٍ. ولكن، ذات يومٍ، قُرِع الجرس مؤذِنًا بموعد الطعام، فتبيّن غياب أحد الإخوة؛ وراح الجميع يبحثون عنه، ولا سيَّما وأنَّ وجبة الطعام، في ذلك اليوم، كانت، على خلاف المألوف، شهيَّةً. وأخيرًا عثروا عليه مطَّرحًا على الأرض، وقد بسط ذراعَيْه على شكل صليب، جامدًا مثل جثَّةٍ، وقد سرحت روحه في انخطافٍ سماويٍّ. فلم يجسروا على إيقاظه، وعادوا أدراجهم بتُؤَدَةٍ وحيطةٍ. ثُمَّ ما لبث أن انضمَّ إليهم ذلك الأخ، وكأنَّه لم يحدث له أيّ أمرٍ خارقٍ، وجثا أمامهم بتواضعٍ، واستصفحهم عن تأخُّره».

مثل ذلك السلوك كان يُثلج قلب فرنسيس حبورًا، فلم يتمالك من الهتاف: «أشكرك،

اللهمّ، لأنّك وهبتَني مثل هؤلاء الإخوة». ثمّ التفت إلى الأفق، باتّجاه إسبانيا، وبارك، بإشارة صليبٍ عريضةٍ، إخوته الأبرار هناك.

وبالإجمال، كان فرنسيس يعيش الإنجيل، أكثر فأكثر، بكلّ جوارحه، ويوغل في التشبّه بالمخلّص، بحيث كتب مؤرّخ سيرته الأوّل: «إنّ الذين عايشوه (آنذاك) يعلمون أنّ يسوع كان يُمثّل غذاءَ أفكاره الدائم، فقد كان يملأ قلبه، وكان على شفتَيْه ونُصْبَ عينَيْه، وكانت أعضاء جسده، وطاقات نفسه، موسومةً بطابع المسيح». وكان الإخوة المقرَّبون يشهدون، بإعجابٍ، تمثُّله المطَّرد المتزايد بالنموذج الإلٰهيّ، حتّى بات كلّ شيءٍ في حياته يذكّر بحياة المخلّص.

في القمم مع الله

أزف عيد العنصرة، عام ١٢٢٤، فوافى فرنسيس إلى البورتسيونكولا كي يحضر، للمرَّة الأخيرة، مجمع الأخويّة التقليديّ المنعقد في تلك المناسبة؛ غير أنَّ ذلك المجمع لم يُكْسِبُه إلاَّ خيبة أملٍ مضاعَفةً، فقد انقلب اجتماعًا مُصغَّرًا، مقصورًا على بعض رؤساء الأديرة الذين انحصرت بحوثهم العقيمة في شؤونٍ إداريّةٍ ومادّيّةٍ لم يكن فرنسيس يُطيقها. وكم افتقد آنذاك، المجامع الأولى، وما كان يواكبها من جوّ عيدٍ، وفرحة لقاءٍ، وأحاديث تقرن الوَرَع بالمرح، وهيمنة الروح الإنجيليّ! أجل لقد غاب روح الإنجيل عن ذلك اللقاء، كما غاب روح فرنسيس الذي كان غريبًا في ذلك الجوّ الكئيب، فلم يكن لحضوره المتكتّم، المتخفّي، مثل ذلك الأثَر المهيمن الذي كان يأخذ بمجامع القلوب، في المجامع السابقة.

مكث فرنسيس، في البورتسيونكولا، بضعة أسابيع، ثُمَّ تملَّكته رغبةٌ عارمةٌ في الاعتزال أقرب ما يكون من الله، وكأنّ نداءً يتسرّب إليه من قِمَّة ألفيرنا، التي، منْذ زارها للمرَّة الأُولى، آنس أنَّ الله قد ضرب له فيها موعدًا للقاءٍ حميمٍ. ففي الواقع، تتمتَّع ذُروة ذلك الجبل، السامقة إلى علوّ ١٢٨٠ مترًا، بجمالٍ موحشٍ أخّاذٍ. ففي جنباتها تكثر الصخور الجسيمة التي اقتلعها زلزالٌ مغرقٌ في القدم من جسم الجبل، ونثرها هنا وهناك، أو حطَّها، رهيبةً، على مشارف مهاوٍ سحيقة، كما انتشرت الفوالق المريعة، والأَكمات الداكنة، ذات الأشجار الدهريّة الوارفة الظلال. ومن ذلك العلوّ الرفيع، يسرح الطرف، جَذِلاً، إلى آفاقٍ لامتناهيةٍ، متنقِّلاً بين السهول الفسيحة

جبل ألڤيرنا

المخضلَّة، والأَكمات المتوَّجة بالحَرَجات، المنبسطة بين مياه بحرٍ هنا وبحرٍ هناك، قاتمة الزرقة متلألئة الأمواج. فلو أنَّ أحد الأنبياء القُدامى خُيِّر في انتقاء مكانٍ لمخاطبة الله، لما انتقى أفضل من تلك القمّة. ومع أنَّ فرنسيس كان غارقًا في الله، حاملاً سماءَه بين ضلوعه، إلاَّ أنَّ تلك الخلوة الشاهقة كانت تضعه على اتِّصالٍ أوثق بالله.

وكان الكونت دي كيوزي، عقب إهدائه ذلك الجبل للأخويّة الفرنسيسكانيّة قد بنى على قمّته، تنفيذًا لرغبة فرنسيس، بعض أكواخٍ من أغصان أشجارٍ وطينٍ، كي تكون للإخوة مناسكَ، كما أشاد مُصلًّى صغيرًا، أطلقَ عليه اسم مُصلّى اليورتسيونكولا أي «كنيسة القدّيسة مريم سيّدة الملائكة». وقد اختار فرنسيس، لمرافقته إلى ذلك الجبل المقدّس، بعض الإخوة المُفضَّلين، وهم «الرفاق الثلاثة»: ليون وأنجيلو وروفان، وكذلك ماسّيو وسيلڤستر، وبونيتزو، وإلّوميناتو. وقد أُوْكل زمام الرحلة إلى الأخ ماسّيو الذي لخَّص برنامجها بقوله لفرنسيس: «أنت ستكون حارسنا (رئيسنا). سنرقد حيث ستأمرنا، وساعة الطعام سنستعطي خبزنا؛ وفيما عدا ذلك، فوفقًا لتقاليدنا، سنتلو صلواتنا في أوقاتها، وسنتكلّم عن الله، وسنسير صامتين».

وكان فرنسيس قد آنس تحسُّنًا في صحَّته، فعزم على الشُّخوص إلى ألڤيرنا، سيرًا على قدمَيْه، كالآخرين، ولكن، بعد مسيرة يومَيْن، أُنهك، فاستعار له رفاقه حمارًا كي يواصل رحلته على متنه؛ وتبرّع الفلاح، صاحب الحمار، بمرافقة القدّيس. ولكنَّ صيف آبٍ كان لظىً حارقًا في النّهار، وكانت رمضاء الطريق مُمضّةً، فانهدَّ الفلاّح، في بعض الطريق، إعياءً وعطشًا، وارتمى أرضًا، رافضًا مواصلة السير ومنذرًا: «إمّا أن تجدوا لي ماءً فأشرب، أو أقضي نحبي هنا، حيث أنا!» فانحدر فرنسيس عن الحمار، وجثا وأخذ يُصلّي، متلهِّفًا؛ وسرعان ما عثر الإخوة على نبعة ماءٍ، عند صخرةٍ مجاورةٍ، فارتووا، هم والفلاَّح المتعَب، وانتعشوا جميعهم.

وقُبَيْل بلوغ قمَّة الجبل الذي سيغدو لفرنسيس، في آنٍ واحدٍ، جبل الزيتون، وطور ثابور، توقَّف الموكب لإصابة قسطٍ من الراحة، وجلس القدّيس تحت ظلال سنديانةٍ؛ وإذ كان سارحًا في تأمُّل المنظر الفسيح المدهش المُشرَع أمامه، انقضَّت عليه أسرابٌ كثيفةٌ صاخبةٌ من العصافير، وحطَّت على رأسه، وكتفَيْه، وذراعَيْه وساقَيْه، وهي تُطلق زقزقات الفرح والحبور. فأعلن لإخوته: «من هذا الاستقبال الجَذِل أُدرك أنَّ الربَّ يريد أن نمكث في هذا المكان».

وما إن علم الكونت رولاندو دي كيوزي بوصول فرنسيس وإخوانه إلى ألڤيرنا حتّى سارع إلى الترحيب بهم، وتزويدهم بكلّ ما يَلزمهم من مُؤَنٍ، وتعهَّدَ، جازمًا، بتوفير كلّ احتياجاتهم، طالما مكثوا في الجبل، كي يتمكّنوا من الانصراف باطمئنانٍ إلى صلواتهم وتعبّدهم. وامتثالاً لرغبة فرنسيس، أمر رجاله فأقاموا كوخًا منفردًا من أغصانٍ وطينٍ، على منأًى من مناسك الإخوة، كي يكون لفرنسيس صومعةً منعزلةً.

وما إن رحل الكونت حتّى بادر فرنسيس إلى تذكير الإخوة بعدم الإفراط في استغلال كرمه، وبالثَّبات على الوفاء لنذر الفقر المقدّس، ثمّ قال لهم: «إنّني أشعر بدُنوّ أَجَلي، ولذلك أرغب في العيش هنا وحيدًا، كي أبكي خطاياي أمام الله، فإذا ما وافى زائرون، استقبلوهم بأنفسكم، فأنا لا أريد أحدًا إلى جانبي سوى الأخ ليون». ثُمَّ باركهم واعتكف في كوخه، الذي ما كان يبارحه إلاّ عَرَضًا، فيجلس تحت سنديانةٍ عتيقةٍ، سامقةٍ، ممتدَّة الأفنان، ويُمتّع عينَيْه، اللّتين سينحجب عنهما النور قريبًا، بتأمُّل قطاعٍ رَحْبٍ من بلاده الحبيبة التي أبدع الباري صنعها، وأضفى عليها أجمل رُواءٍ.

وهو، وفقًا للتقاليد الفرنسيسكانيّة، اتَّخذ له «أُمًّا»، أي أخًا مُكلَّفًا برعاية شؤونه المادّيّة، وقد وقع خياره على الأخ ليون، صديقه القديم الدائم، الذي كان قد سيم كاهنًا بعد انضمامه إلى الأخويَّة، وأصبح لفرنسيس مُعرِّفًا، ونجيًّا، وأمين سرٍّ، ومعوانًا؛ وبما أنَّ فرنسيس كان غالبًا معتلَّ الصحّة، فقد أمسى له، أيضًا، مُمَرِّضًا، ومؤاسيًا. وقد أصاب القدّيس في اختياره، فقد تميَّز ليون أبدًا بالبساطة والطيب، والطاقة على الحبّ، والوفاء.

وكان على ليون أن يوفّر لمعلّمه عزلةً تامَّةً، وألاّ يدنو من صومعته إلاّ في أَوقاتٍ محدَّدةٍ يأتيه فيها بالماء والخبز، أو يقم له فيها القدَّاس. ولكن، من حسن طالعنا، أنَّ ليون لم يُطِعْ، في ذلك، طاعةً تامَّةً، بل دأب على التجسُّس على أبيه الروحيّ، تحدوه أفضل النوايا، وأهمُّها خشيته وقلقه عليه؛ وكان يَسْتَرِقُ السَّمع أحيانًا، فتطرق أذنَيْه نجاوى رقيقةٌ مع الربّ، أو زَفَراتُ حبٍّ هائمٍ، أو انخطافاتٌ ساميةٌ، أو تساؤلاتٌ حيرى حول مصير الأخويَّة التي أَسَّسها، ورآها تحيد عن الدَّرب الذي رسمه لها؛ وكثيرًا ما عاينه وقد ارتقى، بضع أذرعٍ، فوق الأرض، مُتحرِّرًا من جاذبيَّتها؛ وبما أنّ القدّيس يكون، آنذاك، في حالة انخطافٍ، كان ليون يدنو خِلسةً منه، ويُقبّل قدمَيْه المتدلّيَتَيْن في الجوّ، ويقول: «ربّاه، ارأف بي، أنا الخاطئ، وبفضل استحقاقات هذا الأب القدّيس، دَعْني أجد حُظوةً في عينيك».

سمات الصليب

كانت الأيّام والمِحَن قد وطّدت لدى فرنسيس اليقين بأنّ التأمّل في الله، والاستغراق في الصّلاة ينبغي أن يحتلاّ، دائمًا، الحيّز الأكبر من الاهتمام، ويسموا فوق المؤسّسات والصيَغ والأقوال. وقد تمرّس بهما فرنسيس، فبات يَنْقَضّ، بوثبةٍ واحدةٍ، إلى أحضان الربّ، ويتحاور ببساطةٍ مع اللامتناهي. وكثيرًا ما كان يُخْتَطَف بالروح، ويفلت من قيود الزمان والمكان والواقع الأرضيّ.

وكان مأخوذًا بسرّ التجسّد، أعظم سرٍّ على الإطلاق، ذلك السرّ الذي جعل الله يلبس جسدًا مثل جسدنا، وجميع أوهاننا، خلا الخطيئة، ويضع ذاته في متناول عيوننا، وأيدينا وحواسّنا.

وبعد أن جسَّد ميلاد يسوع في مغارة غريتشيو، راح يجهد، في عُزْلة ألفيرنا، وفي صلاته المستسلمة للربّ، أن يُجسّد آلامه في ذاته. لقد كانت آلام يسوع آخذةً بمجامع قلبه، طاغيةً على تفكيره وشعوره؛ وإذ كان، ذات يومٍ، يُجيل أنظاره في ملامح الجبل الرهيبة، علق بصره بالصخور الجسيمة المنتشرة على جنباته، والفوالق المريعة السحيقة التي تشقُّه من ذروته إلى أسفله، فأخذ يتساءل أيّ زلزالٍ أو كارثةٍ طبيعيّةٍ قد أحدثتها؛ فأُوحي إليه أنّها نتيجة زلزلة الكون، يوم أسلم يسوع روحه على الصليب؛ حين تصدّعت الجبال من أعلى إلى أسفل؛ ومذ ذاك سيطر عليه الشعور بأنّه، في ذلك المكان، وكأنّه في الجلجلة.

ومع استغراق فرنسيس في الله، كان يسكنه همُّ إخوته والبشر أجمعين. فذات يومٍ وافى اثنان من الإخوة إلى ألفيرنا للظفر ببركة أبيهما القدّيس، الذي كان، آنذاك، معتكفًا، وطال اعتكافه، ولم يكن بوسع أحدٍ معرفة موعد خروجه منه؛ وإذ لم يكن بمكنة الأخوين الزائرين التريُّث طويلاً، تيقّنا أنّ الربَّ ضنَّ عليهما بتلك التعزية، من جرّى خطاياهما، فعادا أدراجهما خائبَيْن حزينَيْن، وواكبهما بعض رفاق فرنسيس يواسونهما. وفيما كان الأخَوان العاثرا الحظّ يُجيلان في خلدهما أفكارًا سوداء يائسةً، في تلك اللحظة عينها، ساور فرنسيسَ شعورٌ مزعجٌ بأنَّ إخوةً له يتألّمون، لعدم قدرتهم على مشاهدته، فخرج من صومعته، وأطلّ من فوق صخرةٍ مشرفةٍ على الوادي، وأدرك، من رؤية الإخوة المنحدرين، كلّ ما جرى، فأنفذ في إثرهم أخًا يدعوهم إلى التوقّف. وسمع الإخوة صوت نداءٍ، فالتفتوا، وإذا بفرنسيس، في قمّة الجبل يرسم

عليهم إشارة صليبٍ عريضةً. وخُيِّل للأخوَيْن الزائرَيْن أنَّ الربَّ نفسه، من عليائه، كان يباركهما، فغمرهما عزاءٌ عظيمٌ، وعادا إلى ديارهما جَذِلَيْن.

إثر احتفال فرنسيس، في الخامس عشر من آب، بعيد انتقال السيّدة العذراء التي كان شديد التعبّد لها، عزم على ممارسة صوم كبيرٍ يمتدّ حتّى التاسع والعشرين من أيلول، حيث يُحتفل بعيد القدّيس ميخائيل. إلاّ أنَّه كان يَنشُد، في شعاب القمّة، وبين تضاريس صخورها، مكانًا منعزلاً، يواري فيه اللهيب الداخليّ الذي كان يضرمه، بعيدًا عن كلّ عينٍ، خلا عين الربّ؛ وإذ كان يرتاب في تنصُّت الأخ ليون عليه، أمره بالابتعاد حتّى باب منسكه قائلاً: «ستحضر عندما أناديك». ثمَّ ابتعد وابتعد، وناداه بصوت عالٍ، فهرع الأخ ليون. وتبيّن فرنسيس، إذَّاك، أنَّه لم يبتعد بالقدر الكافي، وأنَّه لم يُصِبْ، بعدُ، ما كان يَنشُدُه من اختفاءٍ وعزلةٍ، فراح والأخ ليون يبحثان معًا عن مكانٍ أكثر بعدًا وخِفْيةً، يتعذَّر معه اختلاس النظر أو السمع، إلى أن اكتشفا ما يشبه ثغرةً محفورةً في الصخر، مُطلَّةً على هوَّةٍ سحيقةٍ، تقابلها صخرةٌ جاثمةٌ فوق الوادي؛ واضطرَّ الإخوة إلى مدّ جسرٍ خشبيٍّ فوق الهوَّة للوصول إلى تلك الشرفة، حيث أنشأوا خِصًّا من قَصَبٍ لأبيهم فرنسيس، الذي، ما إن فرغوا من عملهم، حتّى صرفهم قائلاً: «عودوا الآن إلى مناسككم، فإنَّني، بنعمة الله، أودّ أن أعيش، هنا، وحيدًا، في صمتٍ مطلقٍ، لا يزعجني فيه أحدٌ». ولم يستثنِ سوى الأخ ليون الذي أوعز إليه أن يزوره مرَّتَيْن في اليوم، فقط، إحداهما في الصباح، يأتيه فيه بالخبز والماء فيضعهما عند باب صومعته، ويمضي، والأُخرى، بُعَيْد منتصف الليل، كي يشترك معه في صلاة السَّحَر. ولكن، كان عليه، في الجيئة الثانية، وقبل اجتياز الجسر إليه، أن يعلن عن حضوره باستهلاله الصلاة بقوله: «يا ربّ افتح شفتيَّ»، فإذا ما ردّ عليه فرنسيس بالقول: «كي يلهج فمي بتسبيحك»، وافاه في صومعته، وإلاَّ كان عليه أن يعود أدراجه في الحال.

بعد أن اتّخذ تلك التدابير، باشر فرنسيس صيامه الطويل، ودخل مرحلةً ملائكيَّة من حياته، مضى فيها توغُّلاً في الله، واكتمل اتّحادًا بيسوع، وتشبُّهًا به، وأمعن في التهجُّد والتقشّف، والندم على خطاياه السابقة، والتأمُّل في الله.

غير أنَّه، بقدر ما كان يمضي قُدُمًا في ذلك النهج، كانت قوى الجحيم تُمعن في امتحانه والتنكيل به، حتّى إنَّه، أسرَّ، يومًا، للأخ ليون: «لو يعلم الإخوة كم أُعاني من مكائد إبليس، لأشفقوا عليَّ جميعهم بلا استثناءٍ!».

غير أنَّ الربَّ كان يشدُّ من أَزره، وسط تلك المِحَن الضارية، المُطَهِّرة، فيُمدُّه، بين فينةٍ وفينةٍ، ببعض عزاءٍ؛ وقد أذاقه، يومًا، شيئًا من طعم السعادة الأبديَّة، فأنفذ إليه ملاكًا موسيقيًّا، مرّ بالقوس على وَتَر كمانه، مرَّةً واحدةً، فكاد يُغمى على فرنسيس من روعة اللحن الذي انبثق. وقد باح، فيما بعد، للأخ ليون قائلاً: «لو أنَّ ذلك الملاك أسمعني نغمةً ثانيةً، لكانت روحي انعتقت من جسدي، إذ إنَّ سعادتي بتلك الموسيقى تخطَّت كلّ حدود الاحتمال البشريّ».

وفي وحدته تلك، عقد فرنسيس علاقات صداقةٍ مع صَقْرٍ كان قد اتَّخذ من الصخور الموحشة المشرفة على منسكه معقلاً، وقد عَلِقَ الصقرُ ذلك الجارَ القادِمَ المتميّز، وأحبَّه، ودأب على رعايته، وتعهَّد بإيقاظه في موعد صلاة السَّحَر، فجرَ كلّ يومٍ، إذ كان يَخفُق بجناحَيْه على جدار كوخه، فإن ما آنس منه وَهَنًا أو مرضًا، تريَّث في إيقاظه، كي يتيح له إصابة قسطٍ أوفى من الراحة.

وكذلك كان يفعل الأخ ليون، فلا يُثنّي عبارة «يا ربّ افتح شفتيَّ» إن لم يردّ عليه فرنسيس في الحال؛ بيد أنَّ القلق استبدَّ به، ذات يومٍ، عندما لم يتلقّ من معلّمه جوابًا، فاجتاز الجسر الخشبيّ إلى صومعته، في حيطةٍ شديدةٍ، وإذ لم يعثُرْ عليه فيها، راح يبحث عنه في الغابة التي كان يغمرها القمر بضوئه الحليبيّ الصافي، فألفاه مُخْتَطَفًا، مُحاطًا بالنور، يناجي كائنًا غير مرئيٍّ، ومردّدًا القول: «من أنا، ربّي العطوف، إزاءك، أنا الدودة الحقيرة، أنا الخادم الصغير البطّال؟».

إلاّ أنَّ ليون في غمرة إعجابه وذهوله، ساوره القلق، وخشي أن يتبيَّن القدّيسُ خرقَه لعزلته، فيستغني عن خدماته، إذ كان الموت أهون عليه من البعد عن معلّمه وصديق عمره، فهمّ بالفرار؛ إلاَّ أنّه، في عجلته وارتباكه، ارتطم بشجرةٍ، فأفاق فرنسيس من غيبوبته وصاح: «مَن هنا؟»، فأجاب ليون، خَجِلاً وَجِلاً: «أنا الأخ ليون يا أبتاه!»

– «ولكن، أيُّها النعجة الصغيرة العزيزة، ألم أحظر عليك أن تراقبني على هذا النَّحو؟ ومع ذلك، قل لي، بأمر الطاعة، هل رأيتَ أو سمعتَ شيئًا؟».

فأقرَّ ليون بما شهد، واستفسر عمَّا استغلق عليه فهمه، فأوضح له القدّيس: «يا حَمَل يسوع المسيح الصغير، وأخي العزيز الوفيّ ليون، أثناءَ صلاتي التي سمعتَ بعضًا منها، رأيتُ كتلتَيْن من نورٍ، تعرَّفتُ في إحداها الخالق، وفي الأُخرى تعرَّفتُ نفسي، وعندما

أخذتُ أسأل من أكون أنا إزاءه، كنت غارقًا في تأمُّلٍ أرى فيه عمق محبَّته الإلٰهيَّة اللامحدودة، وهوَّة بؤسي التعيسة، فأتساءل: «مَن أنتَ، يا ربّ، أنت الأسمى والأكبر والأحسن، حتّى تتنازل فتأتي إليَّ، أنا أتعس ديدان الأرض، الخليقة الزريّة القبيحة، الجديرة بالازدراء!»: هذا هو معنى الكلمات التي سمعتَها، يا حَمَل الله. ولكن إيَّاك وتَعَقُّبي، بعد الآن».

ثُمَّ اعترف له بأنَّ الربَّ قد أعلن له عن أمورٍ خارقةٍ ستحدث قريبًا على الجبل، ولكنَّه، إذ لم يكن، هو نفسه، على علمٍ بماهيّة تلك الخوارق، رافق الأخ ليون إلى المُصَلَّى، وطلب منه فتح الإنجيل، ثلاث مرّاتٍ متعاقبةٍ، عشوائيًّا. وفي المرَّات الثلاث كان الإنجيل يُفتح على رواية آلام المسيح. فأدرك فرنسيس أنَّه، بعد أن جَهِد في التشبُّه بيسوع في حياته، بات عليه التشبُّه به في الآلام التي سبقت موته؛ ورغم قواه الخائرة وطَّن العزمَ على مواجهة ذلك الاستشهاد الأخير في همَّةٍ وعزمٍ ثابتَيْن.

ولا بدَّ من التذكير بأنَّ الصليب قد احتلّ، من حياة فرنسيس، حيِّزًا رحبًا، فمصلوب كنيسة القدّيس داميانُس هو الذي كان قد انتزعه من العالم، ودفعه على درب الفقر الإنجيليّ؛ وكانت ذكرى آلام المسيح تعتصر قلبه حزنًا، فيبكي، بمرارةٍ، خطاياه، التي كانت لتلك الآلام سببًا.

وكان يحثُّ إخوته على تلاوة هذه الصلاة وتكرارها ما استطاعوا: «إنَّنا نعبدك، يا ربّ، ونسبّحك، لأنَّك بصليبك المقدّس، تنازلتَ وافتديتَ العالم».

ومن فرط تكريمه للصليب، طالما حذَّر إخوته من دوس قشَّتَيْن، أو خشبتَيْن متقاطعتين على شكل صليبٍ.

وكان الإخوة، في رؤاهم، يشاهدون فرنسيس، دائمًا، مقترنًا برمز الصليب، فسيلڤستر رأى صليبًا ذهبيًّا كبيرًا ينبعث من فمه، ويمتدّ فوق العالَم أجمع؛ وپاشيفيكو كان يرى فرنسيس وقد اخترقه سيفان متصالبان، أحدهما من رأسه حتّى قدميه، والآخر كان يعبر صدره وذراعيه. أمّا الأخ ليون، فقد رأى، يومًا، صليبًا ذهبيًّا جسيمًا يسير أمام فرنسيس، ولا يحمله أحدٌ.

وحلَّ عيد رفع الصليب المقدّس الذي تتغنّى فيه الطقوس الكنسيَّة بالصليب، بأعذب الأقوال وأبعدها أثرًا. وكان فرنسيس قد تلا تلك الصلوات، منذ الفجر، فاستولت عليه

معانيها العميقة؛ ثُمَّ خرج إلى الغابة، وجثا باتِّجاه الشرق، ورفع إلى السماء عينَيْه الدامعتين، وبسط ذراعيه، وأخذ يُصلّي، في حرارةٍ لاهبةٍ، قائلاً: «يا إلٰهي يسوع، إنّني ألتمس منك نعمتَيْن قبل موتي: أولاهما أن أُعاني، في نفسي وفي جسدي، بقدر ما يمكن ذلك، مثلَ الأوجاع التي قاسيتَها، أنت، يا يسوع العذب، في آلامك المُضنية؛ والثانية أن أشعر، في جسدي، بكلّ قدرٍ مستطاعٍ، مثلَ الحبِّ اللامتناهي الذي كان يلهبك أنت ابن الله، والذي حداك إلى معاناة كلّ تلك الآلام، في سبيلنا، نحن الخطأة التُّعساء!».

وغَمَر نفسَه شعورٌ مُعَزٍّ بأنَّ الربَّ سيحبوه بالنعمتَيْن اللَّتَيْن التمسهما، فازدادت صلاته حرارةً، وازداد في تمعّن مغزى الصليب إيغالاً، وفي حبِّه للمصلوب هيامًا. وفيما هو كذلك، وافاه كائنٌ من نارٍ ونورٍ، ملاكٌ متوهّجٌ من ذوي الأجنحة الستّة الذين يُحيقون بعرش الخالق العظيم، ويُشعّون بنور مجده وأزليّته. ودنا منه الملاك، بحيث رآه بكلّ وضوحٍ، فتبيَّن أنّ ذلك الكائن المجيد المُضيء كان، أيضًا، كائنًا متألّمًا، تغطّي أجنحتُه جسمًا مصلوبًا، وُثِّقتْ يداه ورجلاه إلى صليبٍ. إزاء ذلك المنظر، انفطر قلبه، واجتاحته مشاعرُ متضاربة، فجمال الملاك الذي يندّ عن الوصف، والنظرات الوديعة العذبة التي رمقه بها، كانت تسحره، وتفعمه فرحًا. ولكن، في الآن عينه، كانت رؤية آلام المصلوب تضنيه، فراح يتساءل كيف يستطيع روحٌ ممجَّدٌ أزليّ، على ذلك القدر من الروعة، أن يقاسي مثل ذلك النزاع الضاري! كان مأخوذًا ومضطربًا معًا، فقد انقضّ عليه المجد والألم مجتمعَيْن، على نحوٍ غريبٍ، انقضاض الكواسر. وأُوحي إليه أنّ الربّ بعث إليه بتلك الرؤيا كي يُفهمه أنَّ تحوُّله إلى صورة المسيح المصلوب، سيتمّ عبر لهيبٍ داخليٍّ، أكثر ممّا باستشهادٍ جسديٍّ.

وفي تلك اللحظات الخالدات توهَّجت قمَّة ألڤيرنا بنورٍ ساطعٍ، على نحوٍ لا يوصَف ولا يُفسَّر، شاهده أهالي القرى المجاورة، فدهشوا للألائه غير المألوف، وخُيِّل إليهم أنَّ الشمس قد أشرقت على الجبل، في غير موعدها. أمّا الأخ ليون فهرع نحو فرنسيس مُستجليًا الأمر، ومكث أقرب ما يستطيع منه، من غير أن يُشعره بحضوره، فرأى كتلةً من نور تهبط من السماء، فتمسُّ وجه معلّمه، وتعود من حيث أتت.

وتلاشت الرؤيا، ولكنَّ ما أضرمته في قلب فرنسيس من لهيب لم ينطفئ حتّى مماته، وحبّ يسوع الذي أوحته ما كان له إلاَّ أن يزداد شدَّةً، ما بقي على قيد الحياة. أمّا في

سِمَات القدّيس فرنسيس

جسده، فقد خلَّفت الرؤيا آثارًا باقيةً دائمةً: فقد اخترقت مساميرُ سوداء راحتَيْه وقدمَيْه، وأشرعتْ فيها ثقوبًا نازفةً، وارتسمت على جنبه آثار طعنة حربةٍ، كانت غالبًا تنزّ دمًا يبلّل غلالاته وثيابه.

لقد وسمه يسوع بسمات صليبه، ومهره بطابعه الخاصّ، ومنذ تلك الساعة غدا فرنسيس جريح الحبّ الإلهيّ، في جسده وقلبه، وبات عليه أن يسير مترنّحًا. وقد صوّره بول كلوديل، في هذه اللوحة الشعريّة الرائعة:

«لقد أمعن فرنسيس في بذل نفسه، فلم يحتفظ بجسده؛
عبثًا سنطلب منه تفسيرًا، إذ لم يعد لديه ما يقوله
وما هو، في جملته، سوى هبةٍ،
إنّه يسري في رؤى الناس أجمعين مثل إنسانٍ ثملٍ...
ينتحب، ويضحك، ويترنَّح، ويشكو جُرحَ مجدٍ
كان فيه شريكًا، ولا يدرك له تفسيرًا.
إنّ ذاك الذي ينحدر مترنِّحًا من ألڤيرنا
ويُري، سرًّا، لكيارا، ذلك الجرح وتلك السمات،
إنَّما هو يسوع المسيح وهو فرنسيس، وقد باتا شيئًا واحدًا، حيًّا، متألّمًا، فاديًا».

وانتابت الحيرة فرنسيس: فتواضعه السحيق، وخَفَره المتأصّل، ورغبته الصادقة في إبقاء علاقته الحميمة بالله في منجاةٍ من فضول البشر، تدفعه إلى التستّر على تلك الكرامة الفذَّة التي وسمه بها الله، ولا سيَّما أنّ تلك الظاهرة العجيبة كانت تتجلّى فيه للمرّة الأُولى في تاريخ المسيحيَّة، وقد اعتبرها تجربةً شخصيَّة فائقة الطبيعة، فآثر إخفاءها. ولكنّ استمرار التستُّر كان مُتعذِّرًا، فدماء جراحه لا تني تنثال، وجرح جانبه، على الأخصّ، يبلّل ثيابه، فلا بدّ من تضميد الجراح وغسل الثياب، وفرنسيس لا يقوى على ذلك بمفرده، فكان الأخ ليون يُغيّر ضمادات يديه وقدميه، كلّ يومٍ، ليُخفّف من آلامه، خلا الفترة الممتدَّة بين مساء الخميس وصباح السبت إذ كان فرنسيس حريصًا، آنذاك، على مشاركة الفادي آلامه، إلى أقصى حدٍّ مُستطاعٍ؛ وكان الأخ روفان يغسل ثياب معلّمه، فيشهد عليها آثار الدماء.

وأخيرًا، بعد لأْيٍ، وكثيرٍ من التردُّد، استشار القدّيس، في الأمر، رفاقه، واستفسرهم، بعباراتٍ مُبْهَمة، هل من الواجب إعلان بعض النِّعَم الخارقة، أو إسدال ستار السرّ عليها، فردّ عليه بعض الإخوة: «ستُخطئ إن أنت احتفظتَ لنفسك بما مَنَّ به الربّ عليك، عبرةً للآخرين، علّهم يُدركون أنّه يُبارك نهجَك ويُؤيّده، وأنَّهم في انحرافهم عنه، لعلى ضلالٍ مبينٍ». وحينئذٍ روى لهم، في خَفَر جَمٍّ، ما جرى له؛ ولكنَّه حرص على ألاَّ يُريهم جراحه التي جهد في تضميدها وإخفائها، وبات يواري يديه طيَّ أكمامه. غير أنّ البعض قد شاهدوا تلك السِّمات، ولا سيَّما الأخ ليون الذي كان، باستمرارٍ، يغسل الدم عن جنبه، ويُضمّد يدَيْه ورجلَيْه؛ والأخ روفان، وإخوة آخرين أقسموا أنّهم شاهدوها؛ كما رأتها الأخت كيارا وبعض أخواتها، لدى إقامة فرنسيس عندهنَّ، في أيّام مرضه التي سبقت رحيله، و«الأخ» جاكلين وولداها، عندما ألبسته، وهو يحتضر، الثوب الرماديّ الذي كان قد أوصاها بإعداده لدفنه، والبابا أَلكسندر الرابع الذي أعلن على الملأ أنّه عاين السمات بعينيه.

وقد عمَّم الأخ إيليّا نفسُه، بُعَيْد وفاة فرنسيس، على جميع الإخوة الرسالة التالية:

«إنَّني أُبلّغكم فرحًا عظيمًا، ومعجزةً لم يُسمع مثلُها قَطُّ، إذ لم يُعْهَدْ بتاتًا، منذ وجود العالم، مثل تلك السمات إلاّ لدى ابن الله. فقد بات يشاهَد أخونا وأبونا، قُبَيْلَ وفاته، وقد وُسِم جسدُه بخمسة جراحٍ، كانت، حقًّا، سِمات جراح المسيح. فقد ظهر على يدَيْه ورجلَيْه ما يُشبه مسامير تخترقها من جهة إلى أُخرى، وبدا جنبه الذي غالبًا ما كان ينثال منه الدم، وكأنَّه طُعِن بحربة».

لقد حاول بعض العقلانيّين إنكار واقع السِّمات أو التشكيك به، مع أنّ المسامير المغروسة في راحتَيْ فرنسيس وقدمَيْه كانت تنهض دليلاً قاطعًا يزعجهم؛ ورُبَّما أزعجهم أكثر أنَّ العديدين ممَّن لا يقلُّون عنهم ذكاءً وعِلْمًا قد سلَّموا بالواقع وأعلنوه؛ ومثل ذلك الموقف ما زلنا نشهده حتّى اليوم. فظاهرة السِّمات سرٌّ إلٰهيّ، ولئن هي تجلّت في فرنسيس، أوّل ما تجلّت، على حدّ قول الأخ إيليّا، إلاّ أنّها ليست من مخترعات القرون الوسطى، ولا من أساطيرها، كما يحلو للبعض أن يتخيَّلوا كلَّ ما يأبون تصديقه، لأنَّهم لا يجدون له، في عقلهم الواهي، تفسيرًا، حتّى ولو كان الشمس في رابعة النهار. فهذه الظاهرة قد تكرَّرت، بعد ذلك، في بعض أولياء الله الآخرين، قدّيسين وغير قدّيسين، وما زالت تتكرّر حتّى أيّامنا هذه، تحت عيون أطبّاء وعُلماء وسواهم،

يستطيعون مراقبتها عن كثب، وتحليلها، وقياسها، ولمسها، وتصويرها واقعًا ماثلاً، حيًّا، مُحَقَّقًا، قد يؤمنون به، وقد يأبون الإيمان، ولكنّه واقعٌ ثابتٌ باقٍ، وهم زائلون. ومن أشهر الذين شوهدت سمات الصلب في أجسادهم، الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب (١٨٤٦ – ١٨٧٨)، والطوباويّ الأب پيّو الإيطاليّ (١٨٨٧ – ١٩٦٨)، والصوفيَّة الفرنسيّة مارت روبان (١٩٠٢ – ١٩٨١)؛ وفي أيّامنا الحاضرة السيّدة ميرنا الأخرس نظّور، وسيطة سيّدة الصوفانيّة بدمشق.

وكان فرنسيس قد أوصى إخوته بكتمان أمر السِّمات ما استطاعوا، ولكنّ الأخ ليون الذي لَمَس فيها إشارةً من السماء فريدةً، لم يستطع لجم لسانه، فشاع خبر المعجزة بين الناس، الذين باتوا يُحاصرون القدّيس كلّما سمعوا بمروره على مقربةٍ منهم، للتبرّك به، ولرؤية ما أجراه الله فيه من عجائب؛ ممّا كان يُحرجه حَرَجًا جمًّا. وقد حرص فرنسيس على إخفاء آثار السمات ما استطاع إلى إخفائها سبيلاً.

ولا مرية أنَّه، مع ذلك، كان ما انفكّ يعاني من أوصابه الجسديّة المبرّحة، ومن خيانة بعض إخوته لمنهجه الإنجيليّ، ومن مُضايقات الجحيم التي لا تدعه وشأنه أبدًا. بيد أنّ السمات التي طبعها يسوع في جسده كانت ضمانًا بالخلاص يُفعم قلبه سعادةً وطمأنينةً، إذ قلَّما تلقّى مخلوقٌ، وهو بعدُ على الفانية، ضمانًا بسعادةٍ أبديَّةٍ؛ ولا عَجَب إن فاض قلبه بنشيد التسبيح التالي، حيث نجد نفسَه كلَّها شاخصةً إلى الحقيقة الإلٰهيَّة، في دهشةٍ وإعجابٍ، وذهولٍ، مسحورةً بالله، مأخوذةً به:

«إنَّك قدُّوس، يا ربُّ، أنت الإله الوحيد، وصانع المعجزات الأوحد،

«أنت القويّ، أنت العظيم، أنت العليّ، أنت الكُلّيّ القدرة، الأب القدّوس، ملك السماء والأرض،

«أنتَ الثالوث والواحد، ربُّ الأرباب، أنت العطوف، البالغ العطف، اللامتناهي العطف، أنت الحياة الحقَّة،

«أنت الخير والحبّ، أنت التواضع والصبر، والراحة والفرح والسعادة،

«أنت العدل والحكمة، والغنيُّ يُغني كلَّ شيء،

«أنت الجمال والرحمة، أنت حامينا وحارسنا والمُدافع عنّا،

«أنت ملجؤنا وقوّتنا، أنت إيماننا ورجاؤنا، ومحبَّتُنا وعذوبتنا اللامتناهية،

«أنت حياتنا الأبديّة، أيُّها الربّ العظيم الجدير بكلّ تقديرٍ، اللّه الكلّيّ القدرة، المُخلِّص الكلّيّ الرحمة».

بيد أنّ تلك السعادة الدفّاقة الغامرة التي كانت تسكنه لم تحجب عنه هموم إخوانه ومعاناتهم؛ وقد اتَّفق أنّ الأخ ليون كان يجتاز، في تلك الآونة، مرحلة شكٍّ قاتلٍ، كادت تُفضي به إلى اليأس من خلاص نفسه؛ وكان ضحيّة «أقسى تجربةٍ روحيّةٍ» على حدّ تعبيره، وقد أبى أن يبوح بذلك الشكّ المؤرّق لأحدٍ، إلاّ أنّه كان يتمنّى، في دخيلة نفسه: «ليت الأب القدّيس يُسَطّر لي، بيده، بعض عبارات تشجيعٍ تحرّرُني، وقد تشفيني».

ولمس فرنسيس تلك المحنة، وقرأ تلك الأمنيّة في نفس صديقه الحميم، فكتب بيده على ظهر المخطوط الذي دوَّن عليه نشيد التسبيح السابق، وبخطٍّ عريضٍ، هذه البركة المُستمدَّة من الكتاب المقدَّس: «فليباركك الربّ أيُّها الأخ ليون». ورسم رأسًا، رمزًا لأخيه الحبيب ليون، ووقّع بحرف T رمزًا إلى «تواء» حزقيال، علامة المخلَّصين، ثُمَّ ناوَل المخطوط لصديقه قائلاً: «خذ هذه الورقة واحفظها بعناية حتّى مماتك».

وفي الحال تحرَّر ليون من القلق المسيطر عليه، إلى الأبد، وظلَّت تلك الذخيرة الغالية جاثمةً على صدره، لا تُبارحه، حتّى مماته، تُمِدُّه بالعزاء. وقد دوَّن عليها شرحًا للظروف التي كتبها فيها له القدّيس بيده؛ وهي ما زالت محفوظةً بين ذخائر القدّيس فرنسيس في الكنيسة المشادة تكريمًا له في أسّيزي.

وداع الألفيرنا

مع انتهاء شهر أيلول، أخذت الثلوج بالتّساقط مُنذرةً بعزل قمّة ألفيرنا عن العالم، شهورًا طويلةً. فكان لا بدّ أن يتعجّل فرنسيس في العودة إلى الپورتسيونكولا، وبما أنّ قدمَيْه اللَّتَيْن غرَس الربُّ في كلٍّ منهما مسمارًا، وأشرع ثُقْبًا ينزف دمًا، كانتا عاجزتين عن مسّ الأرض، فقد أرسل له الكونت رولاندو دي كيوزي حمارًا يُقلُّه، وفلاّحًا يقود الحمار.

وقد شقَّ على فرنسيس مغادرة مكانٍ علقت به في نفسه ذكرياتٌ غاليةٌ، وحباه اللّه،

بين جنباته، بنِعَمٍ سنيَّةٍ وكراماتٍ فائقةٍ، وقد بارحه مُكْرَهًا، حزينًا. ففي فجر يوم الثلاثين من أيلول، استمع إلى قدّاس في المُصَلّى الصغير، وألقى على إخوته كلمة إرشادٍ أخيرةً، ثُمَّ ودَّع الذين آثروا المكوث في الجبل متنسّكين، واحدًا واحدًا: ماسّيو، وأنجيلو، وسيلڤستر وإلُّوميناتو، قائلاً: «أقيموا في سلامٍ، أبنائي الأحبَّاء! وداعًا! إنّ جسمي ينأى عنكم، ولكنّني أترك لكم قلبي كلّه! إنّني ماضٍ الآن مع أخيكم ليون، حَمَل الله الصغير، هذا، إلى اليورتسيونكولا، ولن أعود إلى هنا! وداعًا أيُّها الجَبَل المقدَّس، وداعًا أيَّتها الألڤيرنا، وداعًا يا جبل الملائكة! وداعًا يا أخي الصقر الذي كان يوقظني بندائه، وشكرًا لك عن كلّ ما أبديتَه من اهتمامٍ بي! وداعًا أيَّتها الصخرة الكبيرة التي كنتُ تحتَها أُصلّي، فلن أراك، بعد، أبدًا، أبدًا، أبدًا! وداعًا يا كنيسة القدّيسة مريم، وأنت يا مريم، أُمّ الكلمة الأزليّ، إليك أُوكل الأبناء الذين أتركهم ههنا».

وفيما كان الإخوة مجهشين بالبكاء، باركهم فرنسيس ومضى، مذرِّفًا الدموع، هو أيضًا.

رُبّما كانت الرحلة إلى اليورتسيونكولا تقتضي أكثر من ثلاثة أيَّامٍ، ولكنَّها، آنذاك، استغرقت قرابة شهرٍ، فقد كان القدّيس من الوهن بحيث كان يُضطرّ إلى التوقّف والتريُّث في محطَّاتٍ كثيرةٍ، فضلاً عن رغبته في توديع إخوةٍ وأصدقاء كان يشعر أنَّه لن يراهم، بعدُ، أبدًا، ومرابع كان واثقًا أنَّه لن يُكتب له، من بعدُ، أن يغشاها. ولمّا انتهى إلى هضبة كازيلا، آخر هضبةٍ يمكن منها، رؤية قمّة ألڤيرنا، في الأفق البعيد، انحدر عن حماره، وجثا، وحدَّق إلى تلك القمَّة المباركة المكلَّلة بالسحاب، ورسم عليها إشارة صليب عريضةً، وباركها للمرَّة الأخيرة، قائلاً: «وداعًا أيُّها الجبل الإلٰهيّ، الجبل المقدّس، حيث يطيب العيش في عيني الربّ! وداعًا يا جبل ألڤيرنا، وليباركك الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس. أَقِمْ في سلامٍ، أَمَّا أنا فلن أراك، من بعدُ، أبدًا».

ويومًا فيومًا كان يتحوَّل موكبه إلى موكب نصرٍ، فقد غدا فرنسيس قدّيسًا معترَفًا به، ذائع الصيت، وذخيرةً حيَّةً، يتقاطر الناس، على امتداد الطريق، للتبرّك به، وتبيّن أعمال الله فيه، والجميع دَهِشون لما صار عليه من هزالٍ. كثيرون كانوا يأتونه حاملين أغصان الزيتون، على نحو ما استُقْبل يسوع، يوم أحد الشعانين، ويهتفون: هوذا القدّيس! هوذا القدّيس! وعديدون منهم كانوا يلتمسون، بواسطته، الشفاء، بمسّ

أهداب ثوبه، أو حتّى رسن حماره، فيظفرون بمبتغاهم، إذ كانت المعجزات تجري تلقائيًّا بمجرّد حضوره، والدنوّ منه أو لمسه. وكان ازدحام الناس من حوله يسبّب له ضيقًا جمًّا، فيجهد إخوته في ردع الجموع عنه ما استطاعوا، والحؤول دون تعريتهم له، إذ كان كلٌّ منهم يودّ اقتطاع رقعةٍ من ثوبه، ذخيرةً مقدَّسةً؛ وكان فرنسيس حريصًا على مقاومة فضولهم وإخفاء كرامات الربّ عليه، فكان يُغطّي قدمَيْه بلفائف صفيقةٍ، ويواري يدَيْه المضمَّدتين، طيّ أردان أكمامه، ويُخفي جبينه، حيث ارتسم ما يشبه إكليل شوكٍ، بقلنسوته التي باتت تنحدر، باستمرارٍ، حتّى حاجبَيْه.

وكان القدّيس يحاول إمتاع عينَيْه الكليلتَيْن، للمرَّة الأخيرة، بالمناظر الحبيبة المنبسطة أمامه، مناظر البقاع التي قد طالما زرع فيها ذكريات جهاده، وترسيخ صُوَرها في حنايا صدره، وأغوار ذاكرته.

وفيما كان موكبه ذات مساءٍ، في طريقٍ جبليٍّ ناءٍ عن المساكن المأهولة داهمتهم عاصفةٌ هوجاء، وانهمرت الثلوج كثيفةً، فجعلت المسالك متعذّرةً، ولم يَجِدوا من مأوًى سوى ثُغرةٍ في السفح تظلّلها صخرةٌ ناتئةٌ، ففزعوا إليها، واضطُرّوا إلى قضاء الليل تحتها؛ ولم يكن مثل ذلك هجينًا لدى فرنسيس وإخوته، الذين غالبًا ما رقدوا، على غرار طيور السماء والحيوانات البرِّيَّة، أينما تسنّى لهم؛ أمّا الفلاّح، صاحب الحمار، فقد أخذ يلعن ويشتم مُتبرِّمًا، مُستنكرًا مثل هذا الجزاء التعيس على تبرُّعه بمساعدة فرنسيس، ومتمنّيًا لو لزم بيته، وارتاح في سريره. ولكنّ فرنسيس خاطبه بألفاظٍ عذبةٍ أخمدت سورة غضبه؛ ثمّ ربَّتَ بيده، برفقٍ، على ظهره، فاستكان، وأخلد، في الحال، إلى سُباتٍ هانئٍ مريحٍ؛ وعندما استيقظ، في الغداة، أعلن، في دهشةٍ ممزوجةٍ بسعادةٍ غامرةٍ، أنَّه لم ينعم، قطّ، بالنوم مثلما نَعِم في ذلك الكهف، وسط الحجارة والثلوج.

يقظة الشباب

وانتهى الموكب، بعد لأْيٍ، إلى البورتسيونكولا، حيث أصاب فرنسيس قسطًا من الراحة والنقاهة، وبغتةً حدثَ أمرٌ غير متوقَّعٍ لذلك الذي كانوا يظنّونه قد تغرَّب عن عالمنا، وتاهت نفسه في الله، ونفد من جسده المُنهَك الهزيل كلُّ قوةٍ وحَوْلٍ، وزادته سِماتُ الصليب وَهَنًا؛ إذ هبّ ناشطًا، وقد انتابته موجةٌ من عنفوان الشباب واندفاعه، ورغبةٌ غامرةٌ في مواجهة العالم من جديدٍ، والعودة إلى حيث كان قد استهلّ رسالته،

مبشِّرًا بعجائب الله، داعيًا إلى التوبة والسيرة الإنجيليَّة، مستنفدًا كلَّ ما كان ذلك الجسم العليل لا يزال يختزن من طاقاتٍ يُنعِشُها الحبّ.

كان يُساوره شعورٌ حافزٌ ضاغطٌ بأنَّه، مع كلّ ما جاهد وبَذَل، فالمهمّة ما زالت، أمامه، كاملةً، رحبةً، تقتضي جمًّا من الجهد، وأنَّ الوقت لم يفُتْ، بعدُ، لاستئناف الكفاح، والمُضيّ به إلى نهاية الشوط، فأعلن لرفاقه: «حتّى اليوم، لم نكد نفعل شيئًا، فلنباشر، إخوتي، بخدمة الربّ». واندفع، في همّةٍ مضطرمةٍ، يجوب على ظهر حماره، مقاطعة أُمبريا وجوارها، كارزًا، واعظًا، في همّةٍ لا تُصدّق، إذ كان غالبًا ما يزور، في اليوم الواحد، أربعةً إلى خمسة أماكن مختلفةٍ، مُبَلِّغًا كلام الله الذي هو «روح وحياةٌ»، مُعلنًا بُشرى الخلاص، داعيًا إلى المصالحة والسلام، وإرساء العلاقات الإنسانيَّة على قواعد الإخاء والمحبّة، مُتَخطِّيًا كلّ طاقات جسده؛ وحيثما مرّ، كانت الجموع تتدافع، كثيفةً، لرؤيته وسماعه، ولمسه، والتبرّك به؛ وكانت شديدة التأثّر بما أصبح عليه من وَهَنٍ وهزالٍ، حتّى غدا شفَّافًا. وكان هو، مع شديد حرصه على إخفاء سمات الصليب في جسده، عاجزًا عن حجب النور المشعّ منه، والذي كان يبدو معه، وكأنّه صورةٌ حيَّةٌ للمسيح، ورَمزٌ ماثلٌ للصليب، بحيث كان بعضهم يتمنَّون لو يُقبّلون الترابَ الذي تدوسه قدماه. بيد أنَّ ذلك التكريم الشامل الذي كان يُحاط به، لم يكن لينال من تواضعه، في شيءٍ، ولم يكن، قطُّ، ليغرب عن باله قول يسوع: «لا تبتهجوا بأنَّ الأرواح الشرّيرة تخضع لكم».

وهكذا أمضى الشتاء كلّه، وقسطًا من الربيع، يجوب في مرابع صباه، وساحات كفاحه، ناثرًا بذور كلام الحياة، في الأرض التي طالما حرثها بقلبه، وسقاها بدمه ودموعه. بيد أنَّ ذلك العزم المتجدّد كان أشبه بانتفاضةٍ أخيرةٍ من لهيبٍ أوشك على الانطفاء؛ ففي حين كان فكره ما برح يَقِظًا، مُضطرمًا حماسًا، بدا جسده، على متن حماره، أشبه بجثّةٍ مُتحرّكةٍ منه بجسمٍ حيٍّ. والجسد غالبًا ما يثأر لذاته عمّا يُسام من عذابٍ ومهانةٍ. ولقد غدا جسد فرنسيس المنهار مقرًّا لطائفةٍ من العِلَل الجديدة، فيما كانت العلل القديمة تتفاقم فيه باستمرارٍ. وبات لا مناصَ له من العودة إلى البورتسيونكولا حيث عُصِبت عيناه اللّتان ما عادتا تُطيقان رؤية النور، واجتاح رأسَه ألمٌ مبرّحٌ لم يُفلح شيءٌ في تسكينه، أو في تخفيف وطأته؛ ولكنَّ تلك الآلام المتزايدة كانت تمدُّه بشعورٍ يُحاكي النشوة، من جرّاء مساهمته في آلام سيّده وحبيبه، يسوع.

وأبدى الأخ إيليّا اهتمامًا شديدًا بمعالجة فرنسيس، وتخفيف آلامه، فأمره بالمثول إلى رييتّي حيث كان المقرّ المؤقّت للكرسيّ البابويّ، لكي يفيد من علاج نطاسيّي البابا، ومنهم حكيمٌ عربيٌّ خبيرٌ بالمعالجة بالكيّ. وما كان، قطُّ، فرنسيس يرتاح إلى الأطبّاء، ولا يستسيغ الاستسلام إلى مداخلاتهم؛ ولكنَّه وعد بالامتثال إلى أمر «رئيسه» الأخ إيليّا. بيد أنّه رغب، قبل ذلك، توديع سيّدة الفقر، ابنته الروحيّة، الأخت كيارا، يحدوه الأمل في أن يستمدّ، بالقرب من تلك المرأة القدّيسة، الشديدة المراس، الأمينة، المُحبَّة، والتي تعكس أكمل صورةٍ وأروعها للفرنسيسكانيّة الأصيلة، العزمَ على قضاء الأشهر الأخيرة من حياته التي كان يشعر بدنوّ أَجَلها، في صبرٍ واستسلامٍ لمشيئة الربّ.

وكانت كيارا قد تابعت، عن كَثَبٍ، وفي تأثُّرٍ بالغٍ، أخبار فرنسيس، واستمعت بنشوةٍ إلى تجسيده حَدَث الميلاد في مغارة غريشيو، وإلى حظوته بسمات الصليب، على قمّة ألفيرنا، وإلى جولاته الرسوليّة الأخيرة؛ وكان قد اعتراها الحزن لما كان يعانيه من أوصابٍ؛ ومن ثَمَّ، تلقَّت، بفَرحٍ وقورٍ، نبأ قدومه إلى دير القدّيس داميانُس، فابتنت له، في حديقة الدير، كوخًا من أغصان الأشجار، كالذي كان يحبّ دائمًا الإقامة فيه، وأسدلت عليه ستائر من حصيرٍ، لإشاعة جوٍّ من العتمة في داخله، تقي عينَيْه من أشعَّة الشمس الساطعة الحارقة، في مثل ذلك الوقت من مطلع الصيف.

ولكن، مع كلّ ما كان يُحاط به من عناية كيارا وأخواتها، وبعض الإخوة الذين كانوا يقدُمون، كلَّ يومٍ، من البورتسيونكولا، لرعايته، كانت أوصابه تتفاقم، وأوجاعه تزداد حدَّةً؛ وقد ضاعف ضيقَه مداهمةُ أسرابٍ من الجُرذان الشرسة لكوخه، راحت تسرح فوق سريره وجسده ليلَ نهار، وتلتهم طعامه، ولا تدع له لحظة راحةٍ، أو هنيهة هدنةٍ يُصيب فيها بعض النوم، ولو دقائق معدوداتٍ؛ وكانت تلك الجُرذان من الكثرة والضراوة بحيث خُيِّل إلى إخوته أنَّها إنَّما طغمةٌ من الأبالسة أُطلقت أيديها للإمعان في اضطهاده والتنكيل به، كي تكتمل بذلك نفسُه تطهُّرًا وسموًّا. وكان فرنسيس يحتمل كلّ ذلك في صبرٍ وأناةٍ، بقلبٍ وذهنٍ شاخصَيْن إلى الربّ، مُلتمسَيْن عونه.

نشيد الخلائق

وهكذا سلخ فرنسيس نحوَ خمسين يومًا في حديقة دير القدّيس داميانُس يعاني من الآلام أقساها، ومن المضايق أعتاها، وإبليس جاهدٌ، عبثًا، في دفعه إلى هوّة اليأس.

وذات ليلةٍ، فيما كان يئنّ أَلَمًا، ويستغيث، من أعمق أعماقه، بمخلّصه، وإذ بذلك الصوت الخافت الذي طالما أَلِف سماعه، وطرب لجِرْسه العذب، يهمس في مسامعه: «طبْ نفسًا يا فرنسيس! افرح وتهلّل، وسط أوصابك وضيقاتك، ومنذ الآن عش في سلام، وكأنّك تشاركني ملكوتي!».

تأكيدٌ يتمنّى كلُّ مؤمنٍ سماعه، وضمانٌ بالخلاص والسعادة الأبديّة، منذ هذه الدنيا! دعوةٌ إلى الفرح تُشيع النشوة! وَعْدٌ غَمَرَ بالنور كلّ حياته الماضية بكلّ ما اعتراها من اندفاعٍ وإحباطٍ، من إنجازٍ وإخفاقٍ! لقد أدرك، دفعةً واحدةً، أنّ الدرب الذي كان سائرًا عليه، درب الآلام مع المسيح، إنّما هو السبيل القويم المفضي إلى أرض الأحياء. وأشرقت في صدره شمس الوجود كلّه بنورٍ وُضّاءٍ حبيبٍ؛ وتألّقت الكائنات جميعها، بإشعاعٍ قشيبٍ.

لطالما أحبَّ فرنسيس، منذ صباه، الكائنات كلَّها حبًّا جمًّا، وعقد معها وشائج صداقةٍ وتعاطفٍ حميمةً، صادقةً، قدسيّةً؛ فقد كان يرى، في كلٍّ منها، كلمة اللّه الحيّة، وتعبيرًا عن قدرة العليّ، وجماله ومحبّته، تعبيرًا غالبًا ما سحره واختطفه إلى عالَمٍ آخر. وهو، على حدّ قول القدّيس بوناڤنتورا «في كلّ واحدةٍ من تلك المخلوقات كان يتبيَّن، بوَرَعٍ فائقٍ، تدفّق المخلوقات، وقَرَن، على نحوٍ فذٍّ، الصوفيَّة الإنجيليّة الشخصيَّة الصميميّة بالصوفيَّة الكونيّة المتدفّقة حماسًا. وقد كتب عنه «الرفاق الثلاثة»، إخوته المخلصون: «نحن، وقد عايشناه، غالبًا ما شاهدناه يبتهج باطنيًّا وظاهريًّا بجميع الخلائق، بحيث إنَّه إذا ما رآها أو لمسها، كان ذهنه يبدو وكأنَّه قد فرّ من الأرض إلى السماء». فقد كان يتحسّس اللّه في الأشياء، ويستمدّ منها تجربةً كونيَّةً عن المُقَدَّسات.

وقد قيل فيه أيضًا: «رُبّما لم يوجد، قطُّ، وجدانٌ أكثر انفتاحًا من وجدان القدّيس فرنسيس، أو إحساسٌ أكثر عفويَّةً وإرهافًا واختلاجًا عنيفًا مع كلّ لمسةٍ تأتيه من اللّه، والطبيعة، والكائنات، كما لم توجد نفسٌ يواكبها الوحي باستمرارٍ مثل نفسه».

ولا عجب، بالتالي، إن هو دعى كلّ الكائنات إخوةً وأخواتٍ له، فتلك التسمية كانت تنبع لديه من تعاطفٍ صادقٍ، ومشاركةٍ حميمةٍ معها، ومن مشاعر مخلصةٍ منبثقةٍ من قلب إنسانٍ عاش، منذ نشأته، يتحسّس الأشياء ويحبُّها.

وفي أعقاب وعد الربّ له بسعادة الملكوت الوشيكة، فاضت نفسه المتهلّلة، شكرًا

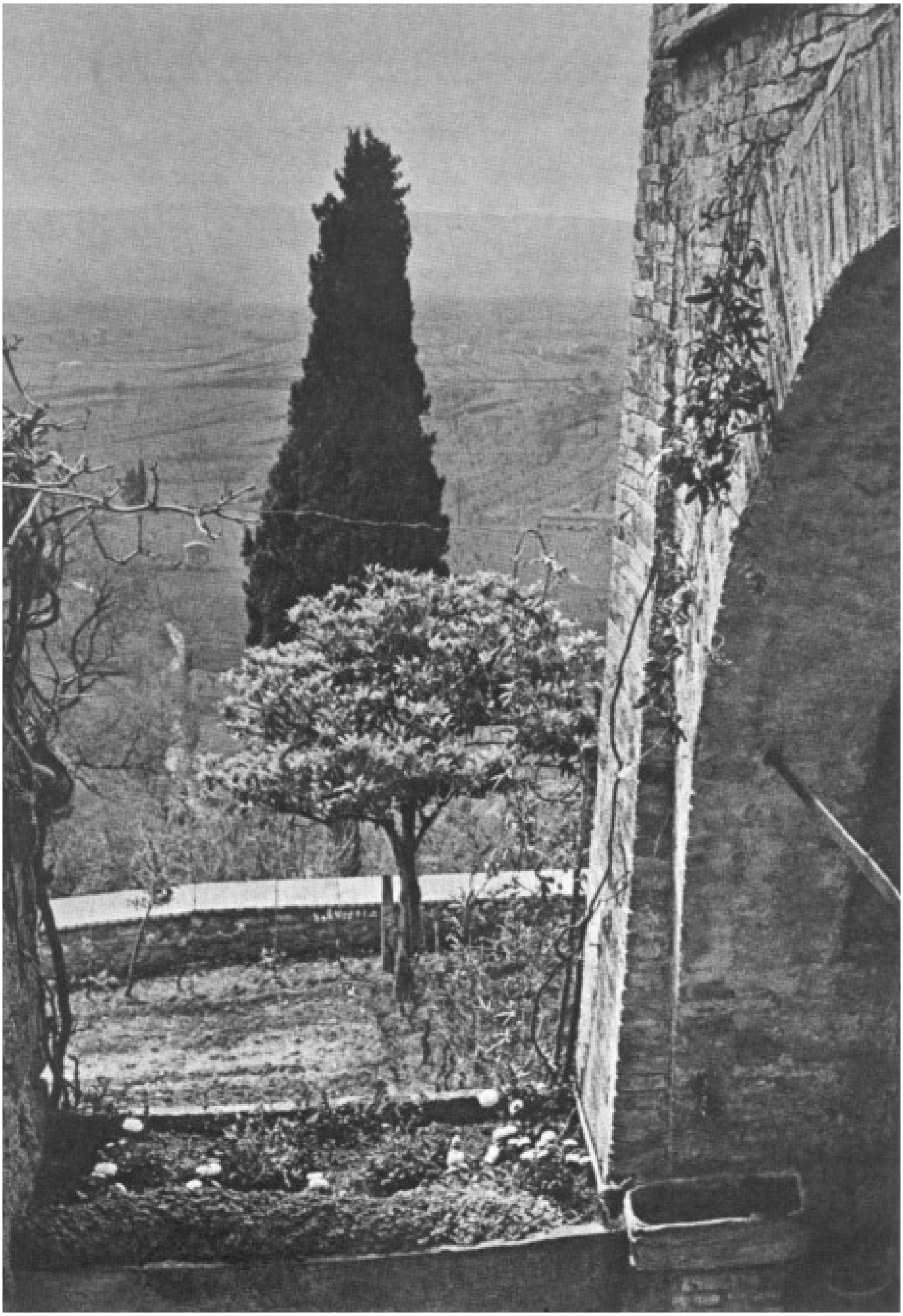

حديقة القدّيس داميانُس حيث ألّف القدّيس فرنسيس «نشيد الخلائق»

وتمجيدًا، وأبت إلاّ أن تُشرك جميع تلك الكائنات التي أحبَّها في شكر الربّ وتمجيده. وهو، خلافًا لسواد البشر، الذين تحجب عنهم آلامُهم وهمومُهم كلَّ ما في الكون من جمالٍ، ومع أنّ كلَّ نورٍ بات يوجعه، وأنّ عينَيْه عادتا لا تبصران من الخلائق شيئًا، ومع أنَّ شتّى عناصر الطبيعة أمست لا تُؤتيه إلاّ مزيدًا من ضيق، إلاّ أنَّه كان يراها جميعها في أعماق كيانه، سابحةً في نور تجربته الطويلة معها، متألّقةً بأشعّة حبّه لها، مُشعَّةً بسنى ملكوت الله الذي بات لديه واقعًا ماثلاً.

وهو، في تلك الليلة الفريدة بين الليالي، التي همس له الربُّ فيها وعدَ الخلاص، ومن أعماق فرحه الجيَّاش، لم يجد للتعبير عن اغتباطه وشكره خيرًا من التغنّي بالطبيعة الحارّة، المشعَّة، النيّرة: الشمس، والنار، والقمر، والنجوم؛ وبالطبيعة المُغذّية: الهواء، والماء، والأرض الأمّ. لقد اختلجت نفسه، وطَرِبَتْ، واستنارت بتلك الرؤيا الفسيحة الرائعة، التي امتزج فيها سَنى الملكوت السماويّ الذي غدا حاضرًا محقَّقًا، بجمال الكون الذي واكبه حبُّه، كلَّ يومٍ من أيّام حياته، وبتجربة حياةٍ حافلةٍ بالاندفاع، والبذل، والتضحية، والألم، والصبر، والبطولة، والنضال في سبيل القِيَم الإنجيليّة. وقد تجسَّد كلُّ ذلك في نشيدٍ بحجم الكون كلّه، يسري فيه نُسْغ العالم بأجمعه، وتشترك فيه العناصر جميعها، في تسبيحٍ أخويٍّ واحدٍ، وتتألّق فيه، فوق كلّ شيءٍ، نفسُ فرنسيس، ويتجلّى فيه طابع شخصيّته، وخلاصة حياته. وقد دُعي ذلك النشيد «نشيد الخلائق» أو «نشيد الأخت الشمس».

وفي الصباح الباكر استدعى فرنسيس إخوته، والأخت كيارا وأخواتها، وفي نشوةٍ سماويّةٍ، دفّاقةٍ، قُصوى، راح يتغنّى، بلحنٍ استوحاه من فرحه، وغبطته، وعرفانه بجميل الربّ، بهذا النشيد الذي ظلّ يتكوّن في صدره سنين طويلةً، إلى أن هبط، في ذلك الصباح الرائع، هبوط ثمرةٍ نضجت وأينعت:

«أيُّها الربُّ الكلّيُ السموّ، والقدرة، والمحبّة،
لك التسبيح، والمجد والتكريم،
وكلُّ تبريك،
فهي بك وحدَك تليق أيُّها العليّ،
وما من كائنٍ جديرٍ بلفظ اسمك.

فلتكن مباركًا، أيُّها الربّ،
مع خلائقك كلّها،
ولا سيَّما أختنا الشمس،
التي تهبنا النهار، والتي أنت بها تنيرنا،
فهي جميلةٌ ومشعَّةٌ بسنًى عظيمٍ،
وتعكس صورةً منك،
أيُّها العظيم السموّ.

* * * * * * * * * *

بوركتَ، يا إلٰهي،
عن الأخ القمر، وعن الأخوات النجوم،
التي خلقتها، في السماء،
وُضَّاءةً، نفيسةً ورائعةً،
بوركتَ، يا إلٰهي،
عن الأخت الريح،
عن الهواء، والغَيْم والسَّماء الصافية،
وعن جميع الفصول
التي، بها، تُحيي جميعَ الكائنات

* * * * * * * * * *

بوركتَ، يا إلٰهي،
عن الأخ الماء الجزيل الفائدة،
المتواضع، الثمين، العفيف.

* * * * * * * * * *

بوركتَ، يا إلٰهي
عن أُختنا النار،

التي بها يُضيءُ الليل،
الجميلة، الفرحة، القويّة، التي لا تُقْهَر.

* * * * * * * * * *

بوركتَ، يا إلٰهي،
عن أختنا وأمّنا الأرض،
التي تُغذّينا وتسندنا،
وتنتج شتّى الثمار،
والأزاهير المُوشّاة، والأعشاب،
مجّدوا الربّ وامدحوه،
اشكروه واخدُموه،
جميعكم، بكلّ تواضعٍ».

* * * * * * * * * *

ثمّ كرَّر ذلك النشيد مرارًا، كي يتلقَّنه إخوته الذين أهاب بهم أن يمضوا ينشدونه في كلّ مكانٍ، تكريمًا للربّ، في مخلوقاته، وإشاعةً للفَرَح والمصالحة بين الناس، ولا سيَّما عندما يكونون في جولات كرازةٍ، إذكان، حينئذٍ، على أحدهم ممّن يُجيدون الوعظ، أن يُمهّد له بكلمة إرشادٍ، ثُمَّ يتغنّى الجميع بذلك النشيد، ويقولون: «نحن شعراء الله الجوّالون، ولا نُريد منكم أجرًا سوى أن تتوبوا، وتنعموا بفَرَح الربّ».

وقد انتشر ذلك النشيد، وغزا العالم، وبه أصبح فرنسيس أخًا للبشر أجمعين، مُتخطِّيًا الخلافات العرقيَّة والثقافيَّة والدينيَّة، فضلاً عن أنّه، به، وَضَع أوَّل عملٍ أدبيٍّ يُذاع باللغة الشعبيّة الإيطاليّة المحكيّة، وذلك خمسين سنةً قبل أن يتبنّاها شاعر إيطاليا الأكبر دانتي، ويجعل منها لغة إيطاليا الرسميّة، بل كان ذلك النشيد جوهرة شعر النهضة الإيطاليّ، ولؤلؤة الشعر الدينيّ.

وقد تميّز أسلوبُه بالبساطة المُطلقة، ففرنسيس يتوارى خلف الوقائع التي يبرزها، ويتنكّب عن الصور، وهو مُتحرّرٌ من كلّ مأساويّةٍ أو صراعٍ، بحيث يبدو النشيد، من أَوّله إلى آخره، تأكيدًا ساجيًا مطمئنًّا لإخاءٍ شاملٍ، كلُّ شيءٍ فيه مباشَرٌ، واضحٌ، نيّرٌ، ينطق بلهجةٍ حميمةٍ، مُفعمةٍ تعاطفًا واحترامًا.

إنَّ بعض المتديّنين، في محاولتهم إبراز سموّ الله، غالبًا ما ينأون عن المادَّة، ويتعالون عليها، أو يحتقرونها. أمّا فرنسيس فهو يتقرّب منها كي يدعوها إلى تسبيح الخالق، ويستمدّ منها مزيدًا من تسبيحه، لأنَّه يحبُّها حقًّا، ويشترك معها في النهوض إلى الخالق. وما «نشيد الخلائق» سوى «روحنة الحياة»، وقصيدة مصالحةٍ داخل الإنسان، بين تطلُّعه الأسمى - تطلُّعه نحو الأسمى - وارتباطاته السُّفلى المُبْهَمَة، و«الأرض الأمّ»، وهذه المصالحة هي تعبيرٌ عن تجربةٍ عن الله رائعةٍ، وهي لقاء الله في الأعماق، ومشاركة الأسمى مع الأبسط والأدنى، «ولقاء سرّ الأرض بسرّ النجوم».

وهو يُلقي الضوءَ على سرّ تلك الحكمة الفرنسيسكانيّة التي تقرن، على نحوٍ رائعٍ، الصوفيَّة الإنجيليَّة الأكثر تجرُّدًا بالصوفيَّة الكونيَّة الأكثر اندفاعًا، وتقرن التجرُّد الروحيّ بالاتّصال الحميم بالأرض.

وهو دعوةٌ إلى عالَم جديدٍ، وخليقةٍ جديدةٍ قائمةٍ على المحبّة والإخاء، وإلى التجاوز نحو الأمثل، عبر التجرُّد والمحبَّة والبساطة، عبر تطويبات يسوع.

وقد أثبت ذلك النشيد تأثيره الخارق، عندما نشب خلافٌ حادٌّ بين أسقف أسّيزي ومُحافظها، أدَّى إلى رشق الأسقفِ المحافظَ بالحُرْم الكنسيّ، فردَّ عليه المحافظ بمنع رعاياه من أيّ تعاملٍ، في الشؤون المدنيّة، مع الأسقف؛ وتأزَّمت الأمور بينهما، حتّى كادت تُنذر بحربٍ أهليّةٍ داميةٍ. وعندما تنامت أنباء ذلك الخلاف إلى مسامع فرنسيس هتف مستنكرًا: «إنّه لعارٌ كبيرٌ علينا، نحن خدّام الله، ألاَّ يوجد فينا من يستطيع إقرار السلام». وفي الحال تفتَّقت قريحته عن مقطعَيْن جديدَيْن أضافهما إلى «نشيد الخلائق»، وأنفذ رسلاً إلى كلٍّ من الأسقف والمحافظ يدعوهما إلى اللقاء في دار المطرانيّة، في يومٍ محدَّدٍ. وكانا، كلاهما، يُجلاّن فرنسيس أعظم إجلالٍ. وفي الموعد المضروب، التقى الرجلان، يواكبهما جمهورٌ كثيفٌ، ووقف في وسط باحة المطرانيّة اثنان من الإخوة وقالا: «يودّ فرنسيس أن تُنصتوا إلى هذا النشيد الذي وضعه ولحَّنه، تمجيدًا لله، وعبرةً للناس أجمعين». وراحا ينشدان «نشيد الخلائق»، الذي استولى، منذ الوهلة الأولى على قلوب الجميع؛ فنهض المحافظ، وضمَّ ذراعَيْه، وكأنَّه في مكانٍ مُقدَّسٍ، يستمع إلى كلامٍ مُقدَّسٍ، وقد ازدحمت الدموع في مآقيه. وحذا حَذْوَه معظم الحاضرين. ثمَّ أنشد الأخَوان المقطعَيْن المضافَيْن اللَّذَيْن كانا نداءً إلى السِّلم والغفران، ورسالةً من صميم قلب فرنسيس إلى قلوب مواطنيه، وقد جاء فيهما:

«بوركتَ، يا إلهي،

عن الذين، حُبًّا بك، يَصفحون،

ويعانون الآلام والمضايقات،

وطوبى لمن يثابرون في دروب السَّلام،

فهم سيظفرون، منك، بإكليل المجد،

أيُّها العليّ».

وما كاد الأَخوان يفرغان من الإنشاد حتّى تفجَّرت المُعجزة، إذ تقدّم المحافظ من الأسقف، فجثا أمامه، وأعلن: «ما من إنسانٍ في العالم، حتّى ولو كان قاتل ابني، لا أتمنّى، في هذه اللحظة، أن أصفح عنه، محبَّةً باللّه، وبخادمه فرنسيس، وكم بالحريّ، يا سيادة الأسقف، أصفح عنك من كلّ قلبي، وأُعلن عن استعدادي لإرضائك وتنفيذ كلّ ما تشاء». فانحنى الأسقف، وأنهض خصمه، وقبَّله بحرارةٍ، ثُمّ قال: «إنّ وظيفتي تقتضي منّي أن أكون أكثر تواضعًا ومُسالمةً. ولكن يؤسفني أنّني ميّالٌ إلى الغضب، ولذلك ألتمس صفحك».

وهكذا أفلح هذا النشيد في إصلاح أسوأ الكائنات، أعني البشر، ولقد كان لتلك المصالحة العلنيّة الطنَّانة وقعٌ بليغٌ واسع المدى، في وقتٍ وبلادٍ كانت فيها الضغائن بين المدن والفئات والأحزاب رائجةً تُولّد، باستمرارٍ، صداماتٍ داميةً، وثأرًا لا تنطفئ له نارٌ. وتوفَّق فرنسيس، بفضل نشيده، في إخماد واحدةٍ من أضرى تلك الحرائق، وجعل السلام يُخيّم، من جديدٍ، على وطنه ومواطنيه.

لا ريب أنَّ المقطعَيْن اللّذَيْن كان قد ألحقهما بنشيده، لتلك المناسبة، لم يكونا إضافةً تتنافر وسائر النصّ، بل كانا نابعَيْن من وحي النشيد، سابحَيْن في روحه، يُلخّصانه، ويُضفيان عليه معناه العميق. فالإخاء الشامل الذي كان ينشده ليس مشهدًا للتأمُّل، بل مهمّةٌ ينبغي إنجازها، وعالَمٌ يجب بناؤه على أُسُسٍ سليمةٍ، تتغلَّب فيه الوحدة على كلّ تمزّقٍ وفرقةٍ، وينتفي فيه التعالي على الآخرين، ويتحقَّق بالكفاح اليوميّ، والمشاركة في الحبّ الخلّاق، والمصالحة الشاملة.

ولا جَرَمَ أنَّ من يعيش مثل تلك التجربة لا يعود يخشى شيئًا، ولا يعود الموتُ يُخيفه، فللموت، أيضًا، وجهُ أخويّ؛ وسيُحيّيه فرنسيس بمقطعٍ أخير، سينهي به نشيده.

موسيقى على درب الآلام

كانت آلام فرنسيس ماضيةً في التفاقم، والأخ إيليّا لا يني يهيب بالقدّيس أن يشخص إلى ريتّي للإفادة من معالجة أطبّاء القصر البابويّ. ولكنّ الرِّيَب والهواجس أخذت تُساور فرنسيس الذي بات يتساءل هل هو مُسرفٌ في العناية بجسده، وغدا يميل إلى رفض كلّ علاجٍ وعنايةٍ صحيَّةٍ، لولا أنَّه استشار أحد إخوته، عَهِد فيه صراحة القول، وسأله:

– ما رأيك في ما أُحيط به جسدي من عنايةٍ؟ ألستُ مُفرطًا في مراعاته بسبب علاَّته

فأجابه ذلك الأخ الحصيف:

– أبتِ، ألم يخضع لك جسدُك بأمانةٍ؟

– لا بدَّ لي من أن أشهد بذلك.

– إذن، يا أبي، أين ما عُهِد عنك من أدبٍ، وطيب قلبٍ، ورقَّةٍ؟ أهكذا تعامل صديقًا وفيًّا؟ أو هل كان بمُكنتك خدمة المسيح، لو لم يساعدك جسدك على ذلك؟ لقد تعرَّض، من أجلك، للموت، وأنت تفكّر بالتخلّي عنه، حين هو في حاجةٍ إليك؟ إيّاك وارتكاب هذه الخطيئة، يا أبتاه!

فأطرق فرنسيس، هنيهةً، ثمّ بارك مستشاره، وخاطب جسده برقّةٍ:

– تهلَّل، أيُّها الأخ الجسد، فإنّني على أهبة لمنحك ما تريد.

ولكنّ ذلك الجسد المتألّم كان قد غدا طَيِّعًا إلى أبعد حدود الطاعة، مستسلمًا إلى أقصى تخوم الاستسلام، ومُقدَّسًا، بعد أن غُرِس الصليبُ في صميمه، وضرب جذورًا في كلّ أعضائه.

ولقد كان على ذلك الجسد أن يمضي على درب الآلام حتّى نهاية الشوط، وأقصى طاقات الاحتمال. وحالما تمكّن فرنسيس، ودّع الأخت كيارا الوداع الأخير، وشَخَص على ظهر حمارٍ، يواكبه بعض الإخوة، إلى ريتّي، التي كان عليه أن يجتاز إليها أربعين

كيلومترًا، في جوٍّ قائظٍ، امتثالاً لأمر الأخ إيليّا. وقد استقبلت جماهير رييتّي القدّيس، الذي وسمه المصلوبُ بسماته، باندفاعٍ جامحٍ. وسُرعان ما غدا صرح المطرانيّة، حيث أمر الكردينالُ فرنسيسَ بالإقامة، مسرحًا لتظاهراتٍ صاخبةٍ، فقد كانت الجموع تتدافع لاختطاف رُقَعٍ من ثوبه، أو بعض شعراته، بل حتّى قُلامات أظافره. وكثيرون ممَّن كانوا يأتون ملتمسين العجائب كانوا يظفرون بها، مثل ذلك الراعي الذي مُنِيَ قطيعُه بعِلَّةٍ أنذرت بإبادته، فالتقط بعض الماء الذي اغتسل فيه فرنسيس ورشَّ به القطيعَ الذي شُفي في ساعته. ويُروى، أيضًا، أنَّ خوريًّا سيِّء السيرة، يُدعى جدعون، قد جاء القدّيس ملتمسًا بركته علَّه يُشفى من علّةٍ خبيثةٍ أصابته، فقال له فرنسيس: «كيف لي أن أرسم عليك إشارة الصليب، وأنت تعيش خاضعًا لشهواتك؟ ومع ذلك، فسأباركك باسم المسيح؛ ولكن لا يغربنَّ عن بالك أنَّك إن عدتَ لقيئك فستحلّ بك الرزايا». وما لبثت تلك النبوءة أن تحقَّقت، إذ ما إن تماثل الخوري للشفاء، حتّى عاد إلى سابق عهده من العيش الفاسق، وفيما كان، ذات يومٍ، يلهو مع ثُلَّةٍ من الرفاق الماجنين، انهار فوقهم سقف البيت وسَحَقهم جميعهم.

وكان وضع فرنسيس الصحّيّ ماضيًا في التدهور، وقد تفاقمت عِلَل معدته وطحاله وكبده، واشتدّت آلام عينَيْه ورأسه، ولم يُفلح علاجٌ في تهدئتها وعلاجها، حتّى بدا، على حدّ قول القدّيس بوناڤنتورا، «أنّ جميع العلل كانت قد تواعدت على التلاقي في ذلك الجسد المسكين». أمّا العمليّة التي استُدْعِي فرنسيس إلى رييتّي من أجلها، فكانت تُرجأ أسبوعًا عقب أسبوع، من جرّاء انشغال الأخ إيليّا الدائم، وحرصِه على أن يكون مُشرفًا على إجرائها. إلاّ أنَّ كلَّ تلك الأوصاب لم تنلْ بشيءٍ من قداسة فرنسيس وسموّ نفسه الغارقة في الله، ولا من يقظة فكره وخياله، ولا من الفرح الباطن الذي كان يُفعم صدرَه. وذاتَ ليلةٍ، تملَّكته الرغبة في الاستماع إلى موسيقى تساعد نفسَه على التحليق نحو خالقها، وتُضفي على جسده المعذَّب بعضَ السكون. فاستدعى الأخ پاشيفيكو، «ملك الشعر»، والمُنشد السابق، وقال له: «اسْعَ في الحصول، خِلْسَةً، على قيثارةٍ تعزف عليها بعض ألحانك، ففي ذلك عزاءٌ كبيرٌ لأخي الجسد الذي يُعاني آلامًا مُبرِّحةً، فضلاً عن أنَّ الموسيقى وُجِدَتْ لتمجيد الله، وإنَّني أجد فيها، إن هي كانت جميلةً، فرحًا روحيًّا جمًّا، وقد نُوفَّق إلى إرفاق الألحان التي ستعزفها بكلماتٍ تمجّد الله». ولكنّ الأخ الشاعر كان يخشى ردّ فعل الرئيس العامّ، الأخ إيليّا، الذي كان يجهد في إحاطة فرنسيس بهالةٍ من الوقار تنعكس على الأخويَّة التي كان يرئسها، هيبةً

الكأس والصينيّة اللتان كان يستخدمهما القدّيس فرنسيس في القدّاس

ونفوذًا. فأجاب معتذرًا: «ولكن، يا أبتِ، لو علم الناس بأمر عَزْفي لظنّوا أنّني راغبٌ في العودة إلى ما كنتُ عليه قبل انضمامي إلى الأخويّة». فأدرك فرنسيس حَرَجه وقال: «لا بأس، فلننسَ الأمر الآن. ورُبَّما كان ضروريًّا، أحيانًا، تحمُّل بعض التضحيات، مداراةً لرأي الناس». ولكن، في الليلة التالية، ومع أنّ التجوُّل كان محظورًا، ليلاً، في المدينة، تعالت من تحت نافذة فرنسيس ألحانٌ رائعةٌ، من قيثارةٍ لم يُعرف من كان يعزف عليها. وفي الغداة استدعى فرنسيسُ، مرَّةً أُخرى، الأخ پاشيفيكو المُحْرَج، المتردّد، وباح له: «لا تأسف على شيءٍ، يا أخي، فالربّ قد وهبني ما ضَنَنْتَ أنت به عليّ؛ وهو، سبحانه، يُبادر دائمًا إلى تعزية أصدقائه في محنتهم؛ ويسعني القول إنَّ الموسيقى التي تَسنّى لي سماعُها في هذه اللَّيلة لم أسمع، قطُّ، أجمل منها، طيلة حياتي».

في تلك الأثناء، كان إرجاء العمليَّة يتمادى، وفضول المؤمنين الراغبين في مشاهدة كرامات الربّ في قدّيسه فرنسيس، وفي التزوّد بذخائر منه، يصيبه بالضيق؛ فقرَّر التواري، بعض الوقت، في منزل كاهن قريةٍ مجاورة تُدعى قرية القدّيس فابيانُس. وكان ذلك الكاهن فقيرًا، يستعين على تأمين نفقاته بمحصول كرمٍ مجاورٍ لمنزله، يؤمّن له غلَّةً من العنب والنبيذ تسدّ عوزه. وقد سُرَّ ذلك الكاهن المسكين، بادئ الأمر، باستضافة القدّيس، ولكن سُرعان ما ندم عليها، إذ ما لبث أن شاع نبأ التجاء فرنسيس إلى منزله الذي بات مَحَجَّةً تغشاها الجموع، بلا انقطاعٍ، وغدت خيول الكرادلة والأساقفة والعظماء تعيث في الكرم تخريبًا، فيما كان خَدَمهم وحواشيهم يستلقون تحت الدوالي، ولا يقتصرون على اقتطاف ما يطيب لهم منها، بل يصطحبون معهم من العناقيد المختارة زادًا للطريق والمنزل، وانتهى الأمر بقضاءٍ شبه كاملٍ على موسم الكاهن المسكين من الكرم، فراح يشكو، ويتذمَّر، ويلعن الذين «خربوا بيته». وشقَّ على فرنسيس أن يكون سببَ تعاسة كاهنٍ استضافه، فقال له: «حَسْبُك، يا أبتِ، حزنًا، فما حصل قد حصل، ولكن قل لي كم كان يغلّ لك كرمُك في أفضل المواسم؟».

– ثلاثة عشر حِمْلَ حمارٍ عنبًا.

– إذن، إن أنت كففت عن شتم الذين التهموا كرمك، فأنا أضمن لك، في هذا الموسم، عشرين حملاً، وأتعهّد بتأمين كلّ ما ينقص عن ذلك.

وكانت دهشة الكاهن بالغةً، عندما جمع قطافه من العنب، فكان عشرين حملاً بالتحديد.

ثمَّ انتقل فرنسيس إلى منسك فونتي كولومبو، حيث لحق به طبيب العيون أخيرًا، وأشرع في صدغه كيًّا من الأُذن حتّى الحاجب. وعندما شاهد الإخوةُ قضيبَ الكيّ، وقد ابْيَضَّ من شدّة الحرّ، لم يُطيقوا رؤية معاناة أبيهم، فولّوا الأدبار، ولم يَبْقَ إلى جانبه سوى الأخ إيليّا، الذي دهش، وهو يراه، أوّلاً، يرتعد خشيةً، ثمّ يستجمع كلَّ رباطة جأشه وسكونه، ويخاطب النار برقَّةٍ، قائلاً: «أُختي النار، إنَّ العليَّ قد حباك بسنًى تحسدك عليه جميع الخلائق... أيُّها العنصر النبيل الجزيل الفائدة، لقد طالما أحببتك حُبًّا بالذي خلقك، فبادِلْني الآن المحبّة، وخَفّفْ عليَّ وطأتَك، كي أستطيع احتمالك».

ثمّ لمّا عاد إخوتُه للاطمئنان عليه، بادرهم بالعتاب: «يا لكم من جُبَناء رعاديد، قليلي الإيمان! ولكن اعلموا أنَّني لم أشعر بأيّ أَلَم». ثمّ التفت إلى الطبيب مازحًا، وقال: «إن لم أكن قد نَضَجْتُ بعدُ، فبوسعك استئناف طَهْيي!» وقد حمل الطبيب تلك الدعوة محمل الجدّ، إذ تراءى له أنّ ما أحدثه من كيٍّ غير كافٍ، ففتح له الشرايين فوق الصدغ، وثَقَب أُذنَيْه بقضيب الكيّ. بيد أنَّ كلّ تلك القسوة والآلام المبرّحة لم تُجْدِ، في شفائه، فتيلاً، وما كانت إلاّ لتُضيف حلقاتٍ جديدةً إلى سلسلة نزاعه المُضني، ومرحلةً جديدةً من مراحل درب صليبه الذي أراده له الربّ تطهيرًا نهائيًّا كاملاً قبل ولوجه ملكوت المجد؛ وقد تعاقبت تلك المراحل، إذ كان البابا، والكردينال هوغولينو، والأخ إيليّا لا يكفُّون يستدعونه إلى ريتّي لإخضاعه لشَعْوذات الأطبّاء العقيمة وتعذيبهم.

ومع ذلك، لم يفقد، يومًا، مرحَه. فذات يوم خطر له أن يدعو أحد أطبّائه إلى غداءٍ في منسك فونتي كولومبو. ووقع في حَرَجٍ شديدٍ، إذ لم يكن لديهم ما يُقدّمونه للضيف سوى اليسير من الخضار والخبز والماء القُراح. ولكن ما كاد الطبيب يجلس إلى تلك المائدة الزريَّة، حتّى قرعت البابَ فلاّحةٌ حاملةٌ سلَّةً من الأطايب تكفي لمأدبةٍ عامرةٍ. وقد تناول منها فرنسيس، هو أيضًا، بسعادةٍ، وبدا الأمر وكأنَّه مُعَدٌّ مسبّقًا بإحكام.

وانقضى شتاء ١٢٢٥ – ١٢٢٦، فيما آلام فرنسيس وأمراضه ماضيةٌ في التفاقم، والموت يحبو نحوه، ويدنو منه كلَّ يومٍ أكثر فأكثر، ومعه كانت أبواب السماء تُشرَع لاستقباله. غير أنَّ فرحه باقتراب تلك النهاية السعيدة كانت تعكّره باستمرارٍ رؤيتُه

الكثيرين، رغم كلِّ ما فعله الفادي لأجل خلاصهم، ماضين في الجري نحو هلاكهم، بإصرارٍ وعمى بصيرةٍ.

وفي ربيع ١٢٢٦، تلقّى فرنسيس أمرًا من الكردينال هوغولينو، والرئيس الأخ إيليّا، بالشخوص إلى سيينّا لتَلَقّي علاج أطبّاء ذائعي الصيت. وكم كان قد ضاق ذَرْعًا بالأطبّاء، ولا سيَّما ذائعي الصيت منهم، وبفنونهم الفاشلة! ولكنَّه، مثل أيّ أخٍ أصغر، امتثل للأمر.

وفي بعض الطريق، جرى لقاءٌ غريبٌ خلَّده أحد الفنّانين في لوحةٍ شهيرةٍ. فقد وقفت ثلاث نساءٍ على حافَّة الدرب، وكأنّهن في انتظاره، وخُيّل إلى موكب فرنسيس أنهنّ فقيراتٌ مُستعطياتٌ. ولكن عندما مرّ فرنسيس بالقرب منهنّ انحنينَ في احترامٍ جمٍّ، وقلنَ: «أهلاً بكِ أيَّتها السيِّدة الفقر». وقد غمرت تلك التحيّةُ فرنسيسَ بفرحٍ يندّ عن الوصف. أمّا رفاقه، فقد رابهم أمرُ النسوة، والتفتوا، بعد لَحَظاتٍ، ليتبيَّنوا ما حلّ بهنَّ، فإذا بهنَّ قد اختفيْن، وكأنَّهن طيورٌ توارت في السماء، على حدّ تعبير شيلانو. وحينئذٍ خطر لهم أنَّهنَّ كنَّ ثلاثة ملائكةٍ يرمزون إلى نذور الطاعة والعفّة والفقر، وقد جاؤوا يهنِّئون ذلك الفارس الممتاز الذي أخلص، أبدًا في حبّه «للسيّدة» الفقر، وفي خدمتها.

ولم يكن أهالي سيينّا دون أهالي رييتّي إقبالاً على التبرُّك بفرنسيس واختطاف كلّ ما يستطيعون منه، ذخائرَ مقدّسةً. وفي تلك المدينة أهدى إليه فارسٌ صقرًا سرعان ما أَلِفَه، حتّى بات الطائر لا يُطيق مبارحة القدّيس، ويأبى تناول أيّ طعامٍ إذا ما ابتعد عنه.

واتَّفق أن ساعد الأخ الشاعر پاشيفيكو أخًا قدم من بريشيا، على مشاهدة سِمات الصَّليب في جسد فرنسيس، خِلْسَةً، ولمَّا تبيَّن القدّيس ذلك قال لپاشيفيكو: «إنَّني أغفر لك فعلتك، ولكن فلتعلم أنَّك كدَّرتَني كثيرًا».

وقد باءت محاولات أطبّاء سيينّا بمثل ما باءت به محاولات أطبّاء رييتّي من فَشَلٍ ذريعٍ. وذات ليلةٍ، اشتدَّت آلام معدة فرنسيس، وشرع يتقيّأ دمًا غزيرًا، وخشي إخوته أن تكون ساعته قد أَزِفَتْ فتحلَّقوا حول فراشهِ منتحبين، ومتوسّلين أن يدوّن لهم كلمةً، بمثابة وصيّةٍ، فاستدعى رئيس الدير، الأخ بندكتس دي بيراكرو، وطلب منه أن يسجّل تلك الصرخة المتفجّرةَ من أعماقه: «إنَّني أبارك جميع إخوتي، الذين هم الآن في

الأخويَّة، والذين سينضمُّون إليها حتّى نهاية العالم. وبما أنّه يتعذَّر عليَّ الإفاضة بالكلام، فهذا ما أودّ أن أُبلّغهم في كلماتٍ ثلاثٍ: أن يحبّ دائمًا بعضُهم بعضًا، ويحترم بعضُهم بعضًا إكرامًا لذكري، أنا الذي أباركهم؛ وليحبّوا، أيضًا، ودائمًا، الفقرَ المقدَّس، ويُكرّموه؛ وأخيرًا فليظلّوا أبدًا خاضعين، بتواضعٍ، لأساقفة أُمّنا الكنيسة المقدَّسة وكهنتها».

ومع أنَّ فرنسيس كان يودّ العودة إلى البورتسيونكولا ليقضي نحبه فيها، اقتاده الأخ إيليّا إلى كورتوني، حيث هو كان يقيم آنذاك، كي يتمكَّن من العناية به عن كَثَبٍ، وأصاب القدّيسُ شيئًا من النقاهة في منسكٍ بجوار المدينة؛ وهناك، جاءَه رجلٌ فقيرٌ، كان قد فقد زوجته، وله أولادٌ كثيرون عليه إعالتُهم، والتمس حَسَنَةً، فتخلّى له القدّيس، في الحال، عن معطفٍ جديدٍ كان قد أُعطِيَه لتوّه، بدلاً عن معطفٍ كان قد أعطاه، في الطريق، لمستعطٍ آخر، وقال للرجل الفقير: «إنّ هذا المعطف لفاخرٌ، كما ترى. ولذلك فإن شئتَ أن تبيعه، فاقتضِ عنه ثمنًا جزيلاً». وقد حاول إخوة فرنسيس، فعلاً، استعادته منه، ولكنَّه تشبَّث به، فاضُطرّوا أن يدفعوا له الكثير لقاء تنازله عنه.

وفي كورتوني تفاقم وضع فرنسيس الصحّيّ سوءًا، إذ مُنِيّ باستسقاءٍ، فانتفخت ساقاه وبطنه انتفاخًا مريعًا، ممّا أبرز أكثر فأكثر نحول وجهه المفرط. وخشي الجميع أن تكون ساعته قد دنت، وأوجس، بالأخصّ، أهالي أسّيزي أن يموت قدّيسهم بعيدًا عن مسقط رأسه، فتختطف جثمانه مدينةٌ أُخرى، وتحرمهم كنزهم الأغلى؛ ورُبَّما هم استشفّوا، مذ ذاك، أنّ أسّيزي لم تعد تساوي شيئًا من غير فرنسيسها؛ فأنفذوا فرسانًا وجندًا مُسلّحين كي يعودوا به إلى مدينته. وكان حَرُّ ذلك الصيف قائظًا، فغدت تلك الرحلة الشاقّة، لجسمه المُنهَك، مرحلةً جديدة من مراحل درب صليبه، ولكنَّه تحمَّلها في صبرٍ جمٍّ، واستسلامٍ تامٍّ لمشيئة الله.

وأبى فرنسيس إلاَّ أن يحلّ في البورتسيونكولا، وأن يحتلّ فيها كوخًا على بعد عدّة أقدامٍ من المُصَلّى. وقد قضى في مربع اهتدائه ذاك، ومنبت أحلامه الإنجيليّة، ومهدِ كفاحه، نحو أُسبوعَيْن حافلَيْن باستعادة طوائف الذكريات. إلاّ أنَّ الرطوبة المُفرطة التي كانت سائدةً آنذاك، في البورتسيونكولا، كانت شديدة الوطء عليه، وكادت تودي به، فمضى به الأخ إيليّا إلى هضبة بانيارا حيث الهواء أكثر نقاءً وإنعاشًا، وحيث المياه المعدنيّة المتوفّرة في تلك البقعة قد تُجديه.

ومرَّ موكبه بمسقط رأسه أسّيزي، ولكنّ القدّيس كان قد فقد البصر، فلم يستطع تمتيع عينيه، مرَّةً أُخرى، بمعالم مدينته الحبيبة؛ غير أنَّه كان يُنصت إلى أصوات الناس، ويسعد بسماع لهجتهم الأليفة، ويتخيّل مرابع صباه وشبابه، ويُحاول، جاهدًا، مباركتهم بأطراف أنامله المضمَّدة، فيما كانت نفسه غارقةً في الربّ، هائمةً في العالَم الآخر، بحيثُ لا يكاد يُحسّ بتدافع الفضوليّين للمسه، والتبرُّك به، فيما يُحاول إخوتُه حمايته منهم، ما استطاعوا.

الوصيّة

قضى فرنسيس في هضبة بانيارا نحو شهرَيْن لم يُفلحا في وقف مسيرة الموت إلى جسده الواهن، ومرَّةً أُخرى، أبت مدينة أسّيزي إلاّ أن يموت قدّيسها في حضنها، فأنفذت كوكبةً من الفرسان والمُسلّحين عادوا به إليها. وإذ كان قد غدا عاجزًا عن امتطاء دابَّةٍ، فقد تناوب الفرسان على حمل جسده النحيل الهشّ، المتألّم، مثل ذخيرةٍ مُقدّسةٍ نفيسةٍ، بين أذرعهم، عبر المسالك الجبليَّة الوَعِرة، التي انتهجوها، اختزالاً للوقت.

وفي أثناء تلك المسيرة الشاقَّة، في رمضاء صيف ١٢٢٦، نال العَطَش والسَّغَب من الفرسان وأتباعهم الذين عبثًا حاولوا ابتياع ما يرويهم ويشبعهم، إذ كان الرعاة والقرويّون المُنتشرون هنا وهناك، في تلك المفازات المقفرة، يأبون بيع طعامهم لغرباء، فالتفتوا إلى قدّيسهم مازحين، وقالوا: «بما أنّ الناس هنا، يرفضون بيعنا أيّ شيءٍ، فقد بات من واجبك أن توفّر لنا الطعام والشراب». فقال لهم: «إنّكم مخطئون باتّكالكم على مالكم فحَسْب. ألا فاعلموا أنَّ جميع خيرات الأرض هي حَسَناتٌ يجود بها الله على الأخيار والأشرار، بنفس القدر من العطف. امضوا، إذن، واسألوا ما تحتاجون إليه، حُبًّا بالله». ففعلوا بما أوصاهم، ونالوا كلَّ ما كانوا فيه يرغبون.

ولقد غَمَر الحبورُ أهالي أسّيزي، عندما بات قدّيسهم المُدنف، أخيرًا، بين أسوار مدينتهم. ولكي يطمئنّوا على ذلك الكنز الثمين، أودعوه دار المطرانيّة، تحت حماية الفرسان اليَقِظة، ليلَ نهار، وتحت رعاية أطبّاء يعودونه باستمرارٍ. ومُذّاك غدت الأسابيع المعدودات المتبقِّية من حياة فرنسيس على الأرض أشبه بغروب شمسٍ تسكب خلاصة سَناها ورُوائها على الكون قبل أن تبارحه. وهكذا فرنسيس، قبل أن يغادر إخوته وأحبّاءه

أَوْدعهم زبدة قناعاته وتوصياته، وأعذب مشاعر عطفه، قبل أن يمضي إلى ربّه شاكرًا مطمئنًّا.

ولا بدّ من الاعتراف أنّ الأخ إيليّا، خلال تلك الفترة، قد أحاط فرنسيس بأقصى عنايةٍ، وترك إلى جانبه إخوتَه المخلصين له، الذين كان يرتاح إلى رفقتهم؛ بيد أنَّ هؤلاء كانوا يوجسون خشيةً ممّا قد ينقلب عليه إيليّا، بعد رحيل فرنسيس، وخُلوِّ الساحة له، فراحوا يطالبون أباهم بتعيين رئيس عامٍّ آخر على الأخويّة أكثر وفاءً لمُثُلها ومبادئها. ولكنّ فرنسيس كان يجيب متنهّدًا: «إنّني لست أجد، واأسفاه، من تتوفّر فيه كلّ الشروط المقتضاة في مثل ذلك الرئيس». أمّا تلك الشروط فأهمّها: أن يكون شديد التقوى والتقشُّف، طيِّبًا وحصيفًا، مُحبًّا لجميع الإخوة بلا استثناءٍ؛ ينهض باكرًا لحضور القدّاس ويستغرق، بعد ذلك، في الصلاة والتأمّل، ثمَّ يضع نفسه بتصرّف الإخوة، مُجيبًا على كلّ الأسئلة برقّةٍ، ومتيحًا للجميع، بسطاء وجهّالٍ، مثقّفين وعلماء، أن يسلبوه كلّ شيءٍ؛ وينبغي ألاّ يكون وَلعًا بالكتب وبجمعها، وأن يمقت المال وتوفيره، مكتفيًا لنفسه بثوبٍ، وسِجلٍّ، ومحبرةٍ، وخاتمٍ؛ ومن خصاله أن يكون مُعزِّيًا، باعث أملٍ، رؤوفًا، وأن يعتبر وظيفته عبئًا، لا موضع تكريمٍ؛ قد يتنازل أحيانًا عن حقوقه، ولكنّه يعرف كيف يحمل الآخرين على خشيته بقدر ما يحملهم على حبّه، منعًا لكلّ فوضى في الأخويّة. وإذا ما أرغمه تعبٌ مفرطٌ على تناول قسطٍ إضافيٍّ من الطعام، فليتناوله جهارًا لكيلا يخجل الإخوة المرضى من تناول طعامٍ إضافيٍّ، أيضًا.

قد يُخلّف البعض لأبنائهم أملاكًا وثرواتٍ. ولكنَّ فرنسيس الذي تخلّى عن كلّ متاع الدنيا، لم يُورّث إخوته سوى مثال حياته، على خطى يسوع، وسوى وصيّته التي طواها على كلّ المُثُل التي تشبَّث بها منذ مستهلّ رسالته، وعلى أمنيّاته الغالية التي اضطُرَّ إلى إقصائها من قانون الأخويّة. وفي تلك الوصيّة يروي، بصدقٍ مُؤثِّرٍ، مراحل مسيرته وكفاحه، مذكّرًا بأيّام الريادة الأولى التي كان يتمنّى أن تستمرّ، وبأسلوب العيش المثاليّ الذي كان يودّ ألاّ يطاله تغيير. وفيما يلي ترجمة لأهمّ فقرات تلك الوصيّة:

«لقد أعطاني الربّ، أنا الأخ فرنسيس، أن أهتدي إلى دروب التوبة على النحو التالي: عندما كنت أعيش في الخطيئة، كان يشقّ عليّ جدًّا رؤية البُرْص. ولكنَّ الربَّ قد قادني إليهم، فعكفتُ على العناية بهم والعطف عليهم؛ وعندما بارحتُهم انقلب ما كان يبدو لي مرًّا، عذوبةً للروح والجسد. وما لبثتُ أن هجرتُ العالم.

«وقد وهبني الربّ إيمانًا بالكنائس عظيمًا، بحيث بتُّ أُصلّي هكذا، بتواضعٍ: إنَّنا نعبدك أيُّها الربّ يسوع المسيح، هنا وفي جميع الكنائس الموجودة في العالم أجمع، ونباركك لأنَّك افتديتَ العالم بصليبك المقدَّس.

«ثمّ منحني الربّ، ولا يزال يمنحني، إيمانًا راسخًا بالكهنة الذين يعيشون وفقًا لشريعة الكنيسة الرومانيّة، بسبب المهمّة الموكلة إليهم، بحيث، ولو هم اضطهدوني، فإليهم أودّ ان ألجأ، وحتّى لو أُوتيتُ مثلَ حكمة سليمان، فإن أنا التقيتُ كهنةً أبرشيّين فُقراء، لن أرضى أن أعظ، من غير موافقتهم، في أبرشيَّاتهم. وإنّني أرغب في أن أُجلّهم، هم وجميع الكهنة الآخرين، وأن أحبَّهم وأُكرّمهم وكأنَّهم مُعلّمون لي. ولستُ أحفل بخطاياهم، فأنا أرى فيهم ابن الله، وأرى فيهم معلّمين. وإنَّما أنا أفعل ذلك لأنّني، في هذا العالَم، لستُ أرى، بعيون الجسد، شيئًا من ابن الله العليّ، سوى جسده ودمه المقدَّسَيْن اللَّذَين يتلقّونهما، وحدَهم، ويَهَبونهما للآخرين. وهذه الأسرار الفائقة القداسة، أَوَدُّ، فوق كلّ شيءٍ، أن تُكرَّم، وتُبجَّل، وتُحفَظ في أماكن مختارة. أمَّا أسماء الربّ الفائقة القداسة، وكلماته المكتوبة، فحيثما وجدتها في أماكنَ غير لائقةٍ، فإنَّني أودّ التقاطها، وأُهيب بإخوتي أن يلتقطوها، هم أيضًا، وأن يحفظوها في أماكن موقَّرةٍ. وعلينا أن نكرّم جميع اللاهوتيّين، ونحترمهم، وأن نُكرّم ونحترم جميع الذين يبلّغوننا الكلام الإلٰهيّ الكُلّيّ القداسة، إذ إنّهم يبلّغوننا الروح والحياة.

«وبعد أن أعطاني الربُّ إخوةً، لم يرشدني إلى ما يتوجّب عليّ عمله. ولكنّ العليّ نفسه أوحى لي أنَّ عليَّ العيش وفقًا لنموذج الإنجيل المقدّس. ولقد دوَّنتُ تلك السُّنَّة في بضع كلماتٍ بسيطةٍ، وأيَّدها السيّد البابا بموافقته. والذين كانوا يُقبِلون على اعتناق نظام العيش هذا، كانوا يوزّعون على الفقراء كلّ ممتلكاتهم، مكتفين بثوبٍ واحدٍ، مزدانٍ برُقَعٍ كثيرةٍ، في باطنه وظاهره، وبحبلٍ وسروالٍ. وما كنَّا نرغب في شيءٍ آخر.

«الإكليريكيّون، منّا، كانوا يتلون صلوات الفرض، على غرار جميع رجال الإكليروس الآخرين؛ أمّا العلمانيّون، منّا، فكانوا يقتصرون على تلاوة «أبانا». وكنَّا مثابرين على الاختلاف إلى الكنائس؛ وكنّا في غاية البساطة، خاضعين للجميع.

«وكنت أعمل بيدي، وما زلت أريد أن أواصل العمل. وأريد أن يمارس جميع الإخوة عملاً يدويًّا شريفًا لا غُبار عليه. وعلى الذين لا مهنة لهم أن يتعلَّموا مهنةً، لا طمعًا في الحصول على أَجْرٍ عن عملهم، ولكن لأجل إعطاء القُدوة الصالحة، والتحاشي

عن البطالة؛ وإن لم نحصل، من عملنا، على أجرٍ، فلنلجأ إلى مائدة الربّ، باستعطائنا على الأبواب.

«وقد أوحى لي الربّ هذه التحيَّة التي يتوجّب علينا المبادرة بها: «فليهبكم الربُّ السلام!» وليتحاشَ الإخوة عن قبول الكنائس والمساكن الوضيعة، وجميع الأبنية الأُخرى المشادة من أجلهم، إن هي لم تتوافق مع الفقر المقدّس الذي التزمنا به، بموجب قانوننا، ولنحرص على ألاّ نقيم في أيٍّ من تلك الأماكن، إلاّ كغُرَباء ومسافرين.

«وإنّني أحظر، حَظْرًا قاطعًا، على جميع إخوتي، باسم الطاعة، أن يتجرّأُوا، أينما كانوا، على التماس امتيازاتٍ من الكرسيّ الرومانيّ، بأنفسهم أو بواسطة الغير، سواءٌ من أجل كنيسةٍ أو من أجل أيّ مكانٍ آخر، ولا بحجّة الكرازة، ولا من جرّاء تعرُّضهم لاضطهاد. ولكن، إن هم لم يُرحَّب بهم، في مكانٍ ما، فليهجروه إلى مكانٍ آخر، التماسًا للتَّوبة، مصحوبين ببركة الله.

«وأُريد، عازمًا، الخضوعَ لرئيس هذه الأخويّة العامّ، و«للحارس» المحلّيّ، الذي يستحسن ذلك الرئيسُ تعيينَه عليَّ. وأودُّ أن أستسلم له، في خضوعٍ مُطلَق، بحيث لا أقوى على التحرّك أو العمل، خلافًا لأوامره وإرادته، لأنّه معلّمي. ومع أنّني إنسانٌ بسيطٌ وعليلٌ، أرغب في أن يكون إلى جانبي كاهنٌ يتلو لي صلوات الفرض، وفقًا لقانوننا...

«ولا يقولنَّ الإخوة: «هذا قانونٌ جديدٌ»، بل هذا تذكيرٌ وإرشادٌ وتحريضٌ، وهو وصيَّتي التي أضعها، أنا الأخ الصغير فرنسيس، من أجلكم، أبنائي المباركين، كي نُنفِّذ، على نحوٍ مسيحيٍّ أكمل، القانون الذي تعهّدنا به أمام الربّ.

«وليلتزم الرئيس العامّ وجميع الرؤساء والحرّاس (الرؤساء المحلّيّون)، باسم الطاعة، أَلاّ يُضيفوا إلى هذه الأقوال، أو يُنقصوا منها شيئًا، وليحملوا معهم هذا النصّ، دائمًا، مع القانون. وفي جميع المجامع التي سيعقدونها، عندما يتلون القانون، فليتلوا، أيضًا، هذه الكلمات، وإنّني أمنع، منعًا قاطعًا، جميع إخوتي، إكليريكيّين وعلمانيّين، باسم الطاعة، أن يؤوّلوا القانون، أو هذه الوصيّة قائلين: ينبغي أن تُفهَم كذا أو كذا. ولكن مثلما أعطاني الربّ أن أقول وأكتب القانون، وهذه الكلمات، ببساطةٍ ونقاءٍ، هكذا ينبغي أن تفهموها في بساطتها ونقائها، وأن تنفّذوها بروح القداسة حتّى مماتكم. وكلّ

من ينفّذها فلتغمره السماء ببركات الآب الأسمى، وليبارَك على الأرض بابنه الحبيب، وروحه المُعزّي، وبجميع فضائل السماء، وبشفاعة جميع القدّيسين.

«وأنا الأخ فرنسيس، خادمكم الصغير، أُؤكِّد لكم، بقدر ما أستطيع، في أعماق قلبي، وفي العلن، هذه البركة المقدَّسة، آمين!».

كم تبدو واهيةً أساليب البلاغة إزاءَ حديث النفس ذاك المنطلق على سجيَّته، وحيالَ تلك العبارات الصادقة التي تختزل، في وُضوحٍ وقُوّةٍ، الفرنسيسكانيّة كلَّها!

وهكذا، بعد أن دوَّن فرنسيس تلك الوصيّة، كان كمن أدّى الشهادة كاملةً، ولم يبقَ عليه سوى انتظار ساعة لقاء الله!

أهلاً بك، أخي الموت!

كان بين الأطبَّاء الذين يعودون فرنسيس، باطّرادٍ، طبيبٌ، عُهِدت عنه صراحة القول، وتربطه به وشائج صداقة، فاستجلى يومًا رأيه في ما سيؤول إليه مرضه، وأضاف: «أرجوك ألاَّ تُخفي عنّي الحقيقة، فسيّان لديّ، إن عشتُ أو متُّ، بل ما أرغب فيه هو تنفيذ مشيئة الله». وأجاب الطبيب: «في هذه الحال يسعني القول إنّه، وفقًا لعِلْمنا، لا أملَ في شفاء دائك. وأتوقَّع أن تموت في نهاية شهر أيلول، أو في مطلع تشرين الأوّل».

تلقّى فرنسيس نبأ وفاته القريب بالفرح العميق الذي لم يُبارحه في أحلك أيَّامه. وبجهدٍ، ضمَّنه كلّ ما تبقّى في جسده من بقايا قوّةٍ، رفع ذراعَيْه إلى السماء، وهتَفَ: «أهلاً بك، أخي الموت». وفي الحال، استقدم الأخوَيْن ليون وأنجيلو، وطلب منهما إنشاد نشيد الخلائق، فتغنّيا بأجمل قصيدة فرحٍ تفجّرت من قلب إنسانٍ، وهما ينتحبان، والعَبَرات تخنقهما. وقبل أن ينشدا التسبيحة الختاميّة، تعالى صوت فرنسيس رقيقًا، ولكن نابضًا بالفرح، مُنشدًا:

بوركتَ، يا ربّ، من أجل أخينا الموت الجسديّ

الذي لا ينجو منه حيٌّ.

ويلٌ لمن يموتون وهم في الخطيئة المميتة،

وهنيئًا لمن يجدهم الموت مُنفّذين إرادة الله المقدَّسة،

فالموت الثاني لن يصيبهم بأيّ سوءٍ».

كم كانت تلك النَّفس ساجيةً، نيِّرةً، مُطمئنّةً، كي تدعو الموت أخًا، وتُنشد له، مثلما أنشدت للشمس، ولكلّ جمالٍ في الوجود! لقد التقى الموت والشمس في قلبه يجمعهما نورٌ واحدٌ، بل غدا له الموت طريقًا من نورٍ نحو ملء الكون، وملءِ الحياة. ولا غَرْوَ، فالذي اقتحم مغامرة الإخاء الكبرى، في إثر المسيح، مع البشر أجمعين، قد غمر النورُ كلّ شيءٍ فيه، وبدَّد من داخله كلَّ ظلمةٍ، فسار نحو الموت بقلبٍ مُشرقٍ، مُشمِسٍ.

وقد التمس فرنسيس من أَخوَيْه ليون وأنجيلو أن يظلاّ إلى جانبه يُنشدان، عدَّة مرَّاتٍ في النهار، نشيد الخلائق وتحيَّة الأخ الموت، فيسكبان في نفسه العزاء، ويُنشدانهما ليلاً، عبرةً للآخرين، وتسريةً عن الرجال المسلَّحين المُكلَّفين بحماية فرنسيس. بيد أنّ الأخ إيليّا الذي كان قد شرع يُعدّ العِدَّة للمطالبة بإعلان قداسة فرنسيس فور وفاته، ولتخليد ذكراه بكنيسةٍ كبرى تحمل اسمه، لم يستسغِ الإنشاد فوق رأس إنسانٍ مُحتضرٍ، ولا مظاهر الفرح في حومة الموت، فهي لا تتناسب وما يتصوّره الناس، في القدّيس، من خشوعٍ، وتقشُّفٍ، وصرامةٍ؛ فجاء فرنسيسَ معاتبًا وقال: «أبتِ الحبيب، إنّه لممّا يُثلج صدري أن أراك فَرِحًا. ولكنّني أخشى أن تكون سببَ معثرةٍ لأهالي هذه المدينة الذين يعدُّونك قدّيسًا، بتأهّبك للموت على هذا النحو، بالغناء!».

ورُبَّما ضحك فرنسيس، في سرّه، فهواجس الأخ إيليّا تتعارض كلّيًّا مع ما كان يختلج في صدره، هو. فمنذ عشرين سنةً ما انفكّ يكافح، ويصارع نفسه، ويميتها، كي يقرأ الرضى في عيني ربّه عندما يواجهه، وها هوذا الهدف الذي طالما سعى إليه قد بات بمنال يده. وقد أكَّد له الربّ رضاه عنه، وها هي ذي أبواب الملكوت مُشرعةٌ أمامه، فكيف لا يبتهج وينشد؟

ولا عجب إن هو أجاب الأخ إيليّا قائلاً: «دعني وشأني، يا أخي، فإنَّني بنعمة الروح القدس، ومع كلّ ما أعانيه من آلام، أشعر أنَّني على اتّحادٍ وثيقٍ بربّي وإلٰهي، بحيثُ لا أتمالك عن الابتهاج به، والإنشاد له».

قد أدرك فرنسيس، باستسلامه المطلق للمشيئة الإلٰهيَّة، أنَّ الموت هو رفيق الحياة

الأرضيّة، وهو ممرٌّ إلى الحياة الدائمة، وولادةٌ جديدةٌ. ولذلك نظر إليه نظرته إلى أخٍ حبيبٍ، وأنشد له، وتقبّل، راضيًا، ما يواكبه من ألمٍ ووهنٍ.

كان قد وثّق مع الله علاقاتٍ من الرسوخ والحميميّة، بحيث تكوّنت لديه هذه القناعة: بما أنّ الله هو الله، بما أنّه الحيّ ومنبع كلّ حياةٍ، بما أنّني أحبّه وهو يحبّني، فلن أموت، ولو مات جسدي.

ولكنّه، شأن كلّ مريضٍ مُقْعَدٍ تتمادى علّته، كانت تنتابه، من السأم، رغباتٌ غريبةٌ؛ فذات ليلةٍ، التمس من أحد إخوته شيئًا من البقدونس علّه يلطّف آلامه؛ واعترض الأخ بأنَّه كان، أثناء النهار، قد اقتطف، من الحديقة، كلّ ما وجده من ذلك العشب، ولقي مشقَّةً في العثور عليه، في وضح النهار، فأنّى له الوقوف عليه في عتمة الليل؟ إلاّ أنَّه، إزاء إصرار فرنسيس، شخص إلى الحديقة، وقطف عشوائيًّا كلَّ ما طالته يده، وإذ به يعود بحصيلةٍ وفيرةٍ من البقدونس الذي طلبه القدّيس. ومرَّةً أُخرى، كان قد ظلَّ فرنسيس عاجزًا عن ابتلاع أيّة بلعة طعامٍ، طوال أيّامٍ عديدةٍ، فتنهّد قائلاً: «ربَّما لو جئتموني ببعض السمك، لاستطعت ازدراده». فراح الإخوة يبحثون عن سمكٍ يُطعمونه إيّاه. ولكن، سرعان ما أنحى القدّيس باللائمة على نفسه، من جرّاء إرباكه إخوته بمثل تلك الاهتمامات الباطلة، وأخذ يتساءل، في حيرةٍ وجيعةٍ: «قد أكون لأخي سببًا في ارتكابه خطيئة الغضب. ورُبّما جال بخاطر بعض إخوتي أنَّه، لولا انشغالهم بي، لكان بإمكانهم الانصراف إلى الصلاة، والتزام قانون الأخويّة، على نحوٍ أكمل». فاستدعى جميع الإخوة المُشرفين على رعايته، واستصفحهم عمّا يسبّبه لهم من إِزعاجٍ، سائلاً الربَّ أن يجزيهم خير ثوابٍ عمّا يسدونه من خدماتٍ.

في تلك الأثناء، كانت أسقامه تتضاعف وتمضي انتشارًا؛ وقد تبدَّد الورم الناجم عن الاستسقاء، فبدا جسمه في هُزالٍ مريعٍ، إذ لم يبقَ منه سوى عظامٍ نحيلةٍ التصق عليها جلدٌ شاحبٌ، بحيث غدا الأطبّاء أنفسهم يعجبون كيف يستمرّ مثل هذا الجسم حَيًّا، مع كلّ ما يضنيه من آلامٍ مُبرِّحةٍ؛ وقد سأل القدّيسَ أحدُ إخوته إن لم يكن يُؤْثر الموت بيد جلاَّدٍ على أن يكون ضحيّةً لمثل تلك الأوجاع، فأجاب: «إنّ ما أُوثره، هو ما يريده الله لي، ولكنّي أُقرّ أنَّ أقسى استشهادٍ هو أسهل احتمالاً ممّا أُقاسيه خلال ثلاثة أيّامٍ من آلامٍ كهذه».

وقد بلغ به الوهن، يومًا، بحيث خُيّل لإخوته أنّه سيلفظ أنفاسه الأخيرة في غضون

محبسة القدّيس فرنسيس

لحظاتٍ؛ فارتموا جاثين حول سريره، ملتمسين بركته الأخيرة. وإذ كان قد فقد البصر، سأل هل يده اليمنى مُستقرَّةٌ فوق هامة الرئيس العامّ، وعندما أكَّدوا له ذلك، قال: «بوركتَ، يا بُنيّ، ومن خلالك أبارك، بكلّ ما أستطيع، جميع إخوتي وأبنائي الأحبّاء. عيشوا دائمًا في مخافة الله، يا أبنائي، فإنَّ تجاربَ جسيمةً تتربّص بكم، وساعة المحنة تدنو. أمّا أنا، فإنَّني ماضٍ، مسرعًا، مُفعَمًا ثقةً بإلهي الذي أردت دائمًا أن أخدمه من كلّ قلبي».

غير أنّ ساعته لم تكن قد أَزِفتْ بعد، وهو، من أعماق كيانه، كان يأبى الموت في قصرٍ، ولو كان قصر أسقفٍ. وفي الحال طلب نقله إلى البورتسيونكولا، كي يلقى، فيها، وجه ربّه، وينهي حياته حيثُ استهلّ رسالته، ويُتمَّ، ثمَّة، ما ظلَّ يجهد في تحقيقه، طيلة عشرين عامًا.

لم يكن نقل القدّيس إلى البورتسيونكولا بالأمر اليسير، فالطريق منحدرةٌ ملتويةٌ، وفرنسيس يتألّم في كلّ ركنٍ من جسمه؛ وقد اضطُرَّ إخوته إلى حمله بين أيديهم، وهو مستلقٍ على فراشه، في حيطةٍ شديدةٍ، وحذرٍ متناهٍ. كم كان ضئيلاً وفقيرًا ذلك القدّيس العظيم بين أيدي إخوته!

بين الفينة والفينة كان فرنسيس يستفسر عن الموقع الذي انتهوا إليه من الطريق. وعند بلوغ الموكب مكانًا قريبًا من مشفى البُرْص، من حيث ينفسح منظر أسّيزي بمنازلها المتطابقة، المنضّدة الواحد فوق الآخر، وأزقّتها المصعّدة الملتوية، وأبراجها الوقور، يحتضنها، جميعها، جبلُ سوبازيو المهيب، حينئذٍ طلب فرنسيس من صحبه أن يتوقّفوا، ويضعوه أرضًا، ويُسندوا ظهره ورأسه. وتطلّع بعينَيْه اللَّتَيْن انطفأ منهما النور، إلى تلك المدينة الحبيبة التي شهدتْ شتّى مراحل مغامراته التي أوفتْ على نهايتها؛ وظلَّ، فترةً، صامتًا، متأمّلاً، وكأنَّه يرى بذاكرته وقلبه تلك المرابع الغالية؛ ثمَّ، بمشقَّةٍ، رَفَع يده المُضمَّدة، ورسم عليها إشارة الصليب، قائلاً: «بوركتِ، أيّتها المدينة العزيزة. أيّها الربّ يسوع، يا أبا المراحم، أتوسَّل إليك أن تذكر دائمًا فيضَ النعم التي كرَّمتها بها، فتكون، دائمًا، موطنًا لمن يُمجّدون اسمك المبارك، حتّى دهر الدهور، آمين». كم كان فرنسيس يُحبّ أن يبارك!

في البورتسيونكولا أبى القدّيس أن يقيم في غرفة التمريض، بل أصرّ على المكوث في كوخٍ ملاصقٍ لكنيسة القدّيسة مريم سيّدة الملائكة، حيث طالما تلقّى إيحاءات الربّ؛

ومن ذلك المكان الذي وجده الأكثر لياقةً للقاء ربّه، ودّع كلّ من كان لهم في قلبه حبٌّ ومودَّةٌ، وكلّ الخلائق التي كان بها كَلِفًا.

فقد أنفذ رسولاً إلى ابنته كيارا، التي كانت طريحة الفراش، شبه مقعدةٍ، وتتلهَّف إلى رؤيته، مرَّةً أُخرى، قبل مغادرته البسيطة، وطلب من الرسول إبلاغها «أن تنفي عنها كلّ ألمٍ وحزنٍ، لعدم تمكّنها من رؤيتي الآن، ولكن فلتعلم أنَّها، هي وأخواتها، سيرينَني، وسيتلقَّينَ منّي تعزيةً كبرى».

ثمَّ أوصى إخوته بالبورتسيونكولا، ذلك المكان الأثير على قلبه، أكثر من أيّ مكانٍ سواه، ففيه نبتت الفرنسيسكانيّة وازدهرت، وفيه نشأت وترعرعت الجماعة الإنجيليَّة المثاليّة الأُولى التي كان يودّ أن تظلّ القدوة لجميع الإخوة، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، وقال: «إنَّ هذا المكان لمقدَّسٌ، فأحيطوه بالتكريم، ولا تهجروه أبدًا. وإذا ما طُردتم من أحد أبوابه، فعودوا إليه من بابٍ آخر، فهنا كثَّر الربُّ عَدَدَنا، وأضاءنا بنوره، وألهب قلوبنا بحبِّه».

ثمّ إنّه، تكريمًا للفقر، طلب أن يُمدَّد عاريًا على الأرض العارية، وقد غطّى بيده سِمة الجرح في جنبه، وأعلن لإخوته: «لقد أتممتُ مهمّتي، فليرشدكم المسيح إلى تنفيذ مهمّتكم!» وظلَّ كذلك حتّى جاءه رئيس الدير ببعض الثياب كي يستخدمها في الفترة القصيرة الباقية من عمره على هذه البسيطة، وقال له بصوتٍ تخنقه العَبَرات: «إنّني أُعيرك هذا الثوب، وهذه القلنسوة والحبل والسروال، والأحذية؛ ولكيلا تظنّ أنّك صاحبها، أَحظُر عليك، باسم الطاعة، أن تهبها أيًّا كان». وقد اهتزّ ذلك الجسد الهزيل، الفاقد البصر، طرَبًا، لدى سماعه ذلك الأمر الذي لقيَ من نفسه أجمل استحسانٍ. فها هو يموت مُخلصًا للفقر الذي اقترن به، وينطلق نحو خالقه، في حرِّيَةٍ تامّةٍ، بعد أن تحرّر من كلّ شيءٍ. ولكنَّه خشيةَ أن يكون الثوب الذي أعيره غير مستوفٍ لشروط الفقر المقدَّس، طلب أن تلصق به بعض الرُّقَع، على غرار ثياب الفقراء. وبعدئذٍ وضعوه، من جديدٍ، فوق فراشه.

ثمّ استغفره الإخوة الحاضرون عن كلّ ما سبّبوه له من غمٍّ وعناءٍ، ملتمسين بركته، فوضع يده، بالتوالي، على رؤوسهم جميعًا، وباركهم، مُعلنًا أنَّه يغفر لكلٍّ منهم كلّ شيءٍ، ثُمَّ توجَّه بالكلام إلى الأخ برناردو دي كوانتاڤالي، رفيق الساعات الأولى، وقال له: «إنّني أغفر، أيضًا، لجميع الإخوة الغائبين، وأباركهم بقدر ما أستطيع، بل

فوق ما أستطيع. فبلّغهم قولي هذا، وباركهم عنّي». ثمّ إنّه، خشيةَ أن يتعرّض الأخ برناردو ذاك إلى اضطهاد الجيل الجديد من الإخوة، أعلن: «إنّني آمرُ أن يُحاط دائمًا، في هذه الأخويّة، أخي العزيز برناردو، بمحبّةٍ خاصّةٍ، وكأنّه أنا، فقد كان أوّل من وهب الفقراء كلّ ممتلكاته، والتزم بالسير معي على درب الإنجيل».

وفي تلك اللحظة الحاسمة، وهو على عتبة الموت، لم يساوره من الموت رهبةٌ، ولا على فراق إخوته قَلقٌ، بل سيطرت عليه الرغبةُ في إبراز محبّته لهم جميعًا، ومباركته لهم، فقد كان يحمل إلى العالم الآخر همومهم، وما انفكّ قلبه يخفق بحبّهم حتّى توقّف عن الخفقان.

ولقد كان لإيصائه بإجلال الأخ برانردو، وإيثاره دون الجميع، مغزًى بعيد المرامي، فبرناردو كان أوّل أتباع فرنسيس، وقد فاق، في التضحية، الجميعَ، حتّى فرنسيس نفسَه الذي زَهِد فيما قد يُصيبه من إرثٍ من والده، في حين تخلّى برناردو عن ثروةٍ طائلةٍ كان صاحبَها الأوحد، يتصرّف وينعم بها فعلاً، كي يعيش فقرًا إنجيليًّا مُطلَقًا. وإذ كان فرنسيس يقيم للقُدوة وزنًا كبيرًا، فقد حرص على إبراز ذلك الأخ الوفيّ، نُصْبَ عيون سائر الإخوة، مَثَلاً حيًّا أسمى للنموذج الذي كان يتطلّع إليه.

وطار خاطره، في تلك الساعات، إلى السيّدة الكريمة جاكلين، التي كان يدعوها «الأخ جاكلين»، وقال: «قد يستحوذ عليها حزنٌ شديدٌ إن هي عَلِمتْ بمبارحتي هذا العالم، من غير إحاطتها بذلك عِلْمًا». وأخذ يملي لها الرسالة التالية:

«إلى السيّدة جاكلين، خادمة الربّ، من الأخ فرنسيس الفقير الصغير في المسيح، تحيَّةٌ بالربّ واتّحادٌ بالروح القدس. أيّتها الصديقة العزيزة جدًّا، يتوجّب عليَّ إعلامُكِ أنَّ نهاية حياتي باتت وشيكةً، كما تنازل وأنذرني المسيح المبارك. ومن ثمّ، فإن كنتِ راغبةً في رؤيتي حيًّا، أسرعي بالمجيء، واصطحبي معك ذلك القماش الرماديّ لتكفيني، وما يلزم لمراسيم دفني؛ وأرجوك أن تأتيني، أيضًا، بتلك الحلوى التي كنتِ تطعمينني إيَّاها، أثناء مرضي في روما».

ولكنَّ السيّدة جاكلين كانت قد تلقّت، بتوارد الخواطر وتناجي الأرواح، رسالة فرنسيس قبل أن يُمليها، وفيما كان رسولٌ يتأهّب للمُضيّ بتلك الرسالة إلى روما، إذ بوقع سنابك خيلٍ تقترب من الدَّير، وإذ بالسيّدة جاكلين تقرع البابَ وقد وافتْ برفقة ابنَيْها ورجالٍ مُسلَّحين، حاملةً كلَّ ما طلبه فرنسيس، فضلاً عن الشموع التي ستُشْعَل

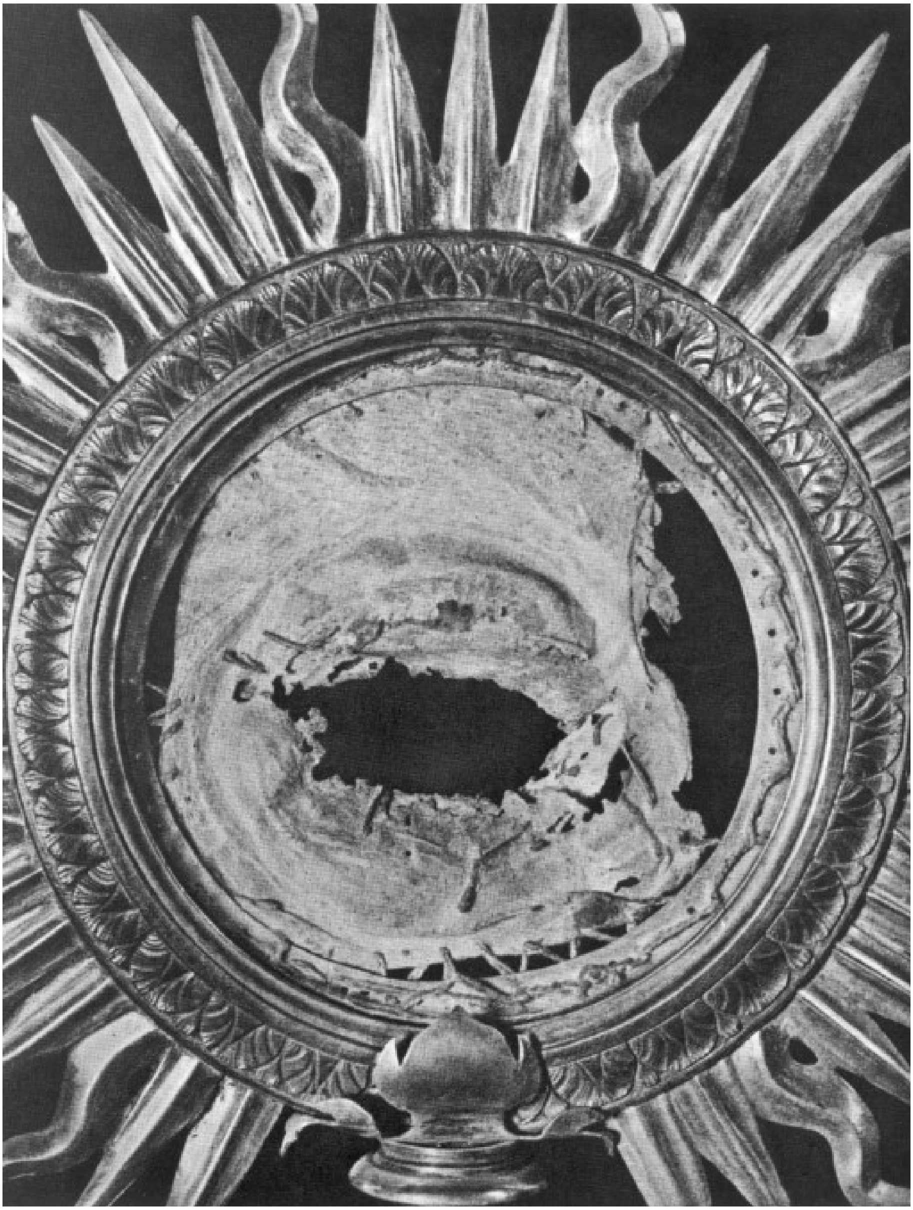

قطعة من جلد ماعز كانت تغطّي جرح القدّيس فرنسيس في جنبه الأيمن

له عند موته، والقناع الذي سيُغطّى به وجهه، والوسادة التي سيُسند إليها رأسُه بعد أن تفارقه الحياة. وقد أدهشتْ تلك المصادفةُ الجميع؛ وهُرع أحد الإخوة إلى فراش القدّيس المحتضر، وأعلن له: «إنّي آتيك بنبإٍ سارٍّ». فقال فرنسيس، من غير أن يستجلي أمر النبأ: «تبارك الله! أدخلوا السيّدة إلى هنا، فالحظر المفروض على دخول النساء إلى الدير لا ينطبق على الأخ جاكلين».

وجثت السيّدة جاكلين عند فراش القدّيس المدنِف، منتحبةً، ثمّ خاطت له الكفن الذي كانت قد حاكته بيديها، وحاولت إطعامه الحلوى المعجونة باللَّوز التي كان كَلِفًا بها، ولكنَّه لم يستطع سوى تذوّقها بطرف لسانه، ورغب في أن يتناولها، عنه، أخوه الأثير لديه، برناردو، الذي امتثل لرغبته، والدموعُ تغسِل وجهَه.

ولاح للجميع أنَّ حال فرنسيس قد تحسَّنت، وهمَّت السيّدة جاكلين بالعودة إلى روما، ولكنّ القدّيس دعاها إلى المكوث حتّى يوم الأحد قائلاً: «لن يطول بقائي أكثر من ذلك». وكان ذلك اليومُ الخميسَ، الأوّل من تشرين الأوّل ١٢٢٦.

وفي تلك الليلة، استغرق المحتضر في سُباتٍ أيقظته منه آلامٌ مُبرّحةٌ عاودته صباح يوم الجمعة، الثاني من تشرين الأوّل. وكان الإخوة ملتئمين، جميعهم، من حوله لا يبارحونه، فعبَّر لهم عن حبّه لهم، على غرار معلّمه الإلهيّ. وقد خُيِّل إليه أنَّ ذلك اليوم كان لا يزال يوم الخميس، وهو اليوم الذي تناول فيه يسوع عشاءَه الأخير مع تلاميذه، فاستقدم خبزًا، وباركه، وقسمه، ووزَّعه عليهم جميعًا، ثمّ قال: «ائتوني بالكتاب المقدّس، واتلوا لي إنجيل الخميس العظيم»، فاستمع الجميع، في خشوع وتأثُّرٍ بالغَيْن، إلى الفصل الثالث عشر من إنجيل يوحنّا:

«وقبل عيد الفصح، إذ كان يسوع يعلم أنَّ الساعة قد حانت له لينتقل من هذا العالم إلى أبيه، هو الذي أحبَّ خاصَّته الذين في العالم، أحبَّهم إلى الغاية. في أثناء العشاء... نهض، وخلع ثيابه، وأخذ منديلاً، واْتَّزَرَ به؛ ثمّ صبَّ ماءً في مغسل، وطفق يغسل أرجل التلاميذ، ويمسحها بالمنديل الذي كان متَّزرًا به... وبعد أن غسل أرجلهم، أخذ ثيابه وعاد فاْتَّكأ، وقال لهم: «أتدركون ما صنعتُ بكم؟ أنتم تدعونني معلّمًا وربًّا، وحسنًا تقولون، لأنّي كذلك. فإذا كنتُ، أنا الربّ والمعلّم، قد غسلتُ أرجلكم، وَجَب عليكم، أنتم أيضًا، أن يغسل بعضُكم أَرجُل بعضٍ؛ فإنّي قد أعطيتُكم قدوةً لتصنعوا، أنتم أيضًا، كما صنعتُ أنا بكم...».

لقد احتفل فرنسيس بلحظة موته الحاسمة، احتفاله بأخطر مناسبات حياته شأنًا. فموته لم يكن حَدَثًا مباغتًا، ولا هو كان فَصْلاً مُرتَجَلاً، بعد أن ظلّ يتأهَّب له، في كلّ لحظةٍ من لحظات حياته. ولم يكن الموت له نهايةً وبترًا، بل إكمالاً لكلّ ما سبق، وبدايةً للحياة الحقَّة.

وظلَّ الإخوة يُحيقون به سحابةَ يوم الجمعة، فيما كان الأَخَوان ليون وأنجيلو يؤاسيانه بترديدهما نشيده للخلائق. وكان بوسع الحاضرين أن يتبيّنوا مرافقته لهما في الإنشاد، بصوتٍ خافتٍ، كان يعلو قليلاً عندما ينتهيان إلى القول: «بوركتَ أيّها الربّ إلٰهي، عن أخينا الموت...».

صباح يوم السبت، الثالث من تشرين الأوّل، وافى الطبيب باكرًا، فسأله فرنسيس: «ألم يحن الوقت كي تُفتَح لي أبواب الحياة الأبديّة؟» وأضاف: «لا تخشَ القول إنّ الموت قد دنا، فهو، لي، باب الحياة، ثمَّ ٱلتمس من الإخوة أن يذُرّوا عليه الرماد، قائلاً: «عمَّا قريب لن أكون سوى ترابٍ ورمادٍ». وأوصى الإخوة ورئيس الدير قائلاً: «عندما سترونني قد بلغتُ نهايتي، جرِّدوني من ثيابي، ومدِّدوني عاريًا على الأرض العارية، واتركوني هكذا بعد أن ألفظ نَفَسي الأخير، المدَّةَ التي يقتضيها اجتيازُ مِيلٍ بخطًى وئيدةٍ». فقد كان حريصًا، حتّى النهاية، على التمثّل بيسوع، وعلى الموت في مثل عريه على الصليب.

وقُبَيْل غروب ذلك اليوم ارتفع فجأة صوت فرنسيس بالنشيد، ولكنَّه كان، في هذه المرّة، يُنشد المزمور ١٤١:

«بصوتي إلى الربّ أصرخ، بصوتي إلى الربّ أتضرّع. أسكب أمامه شكواي، أبثّ لديه ضيقي، عندما يغشى على روحي فيّ.

«وأنت قد علمت سبيلي، وكيف أخفوا لي فخًّا في الطريق الذي أنا سالكٌ فيه.

«نظرت إلى اليمين ورأيت فلم يكن من يعرفني.

«قد بادَ عنّي كلّ ملجإٍ، وليس من يسأل عنّي،

«صرخت إليك يا ربّ، قلت أنت مُعتصمي، أنت حظّي في أرض الأحياء.

«أصغِ إلى صراخي، فقد ذُلّلتُ جدًّا. أنقذني من مضطهديّ لأنَّهم قد قووا عليَّ.

«أخرِج من الحبس نفسي لكي أعترف لاَسمك، يحيط بي إكليلٌ من الصدّيقين حين تكافئني».

وفيما هو كان ينشد، تحطَّم، أخيرًا، ذلك القلب الذي طالما حوى العالم، وغشت الكوخَ الضيّق عتمةٌ كثيفةٌ، وخفَتَ صوت القدّيس، ثمَّ هَمَدَ، وساد صمت الموت المُطلَق، صمتٌ لن تستطيع، بعد، تانِكَ الشفتان الباردتان تمزيقه، فقد أُطبقتا إلى الأبد، أُطبقتا وهما تنشدان، وانتقل صاحبهما إلى دار الخلود، على أنغام نشيدٍ، وقد بزغ له فجر الحياة الأبديّة، وعلى حدّ قول شيلانو: «بعد أن تحقّقت فيه جميع أسرار المسيح طار جَذِلاً نحو الله».

وفجأةً تعالت، من حول الصَّومعة الصامتة الخاشعة، جَلَبةٌ عجيبةٌ، فقد انقضَّت عليها وأحاطت بها أسرابٌ كثيفةٌ من القُبَّرات اللواتي كان لهنّ في قلب الراحل حظوةٌ فريدةٌ، وهنَّ يصحنَ بحِدَّةٍ؛ وهو أمرٌ لم يُؤْلَف قطّ، فالقُبَّرات يُنشدنَ للصباح المُشرق، ولم يُعهَد عنهنّ الإنشاد عند المغيب. ولكنّهنّ، في ذلك اليوم الفريد بين الأيّام، حطَّمْنَ تقاليد جنسهنّ، ورحنَ يهتفنَ حبَّهنَّ لإنسانٍ فذٍّ أحبَّهنّ، ويُودِّعنَه الوداعَ الأخير.

وفي تلك اللحظة شاهد أخٌ قدّيسٌ نَجمًا متألِّقًا تحمله غمامةٌ بيضاء، وترقى به عاليًا، وقد استشفّ بها روح فرنسيس الرائعة، في رحلتها المظفَّرة، إلى حيث وُعدت بالسعادة الخالدة.

أمّا الجثمان فسرعان ما تحوَّلَ تحوُّلاً كاملاً. فقَسَماته، التي كانت الآلام توتّرها، استعادت استرخاءها، وغدت في مثل ليونة قسمات الأطفال، وأشعَّ المُحيّا بجمالٍ ملائكيّ، وانقلبت سمرة الجلد شحوبًا حليبيًّا، فتجلَّت سمات الصَّلب، فيه، مثلَ حجارةٍ كريمةٍ سوداء مُرَصّعةٍ في مرمرٍ. وخُيّل للبعض، مثل الأخ ليون، أنَّهم يشاهدون جسدَ يسوع، وقد أُنزل عن الصليب، وكأنَّهم يقرأون في ذلك الجسد قصّةَ آلام المسيح.

وما لبث أن ازدحم السهلُ المحيق بالپورتسيونكولا بجموع الأسّيزيّين الغفيرة، وقد جاءوا يودّعون قدّيسهم، ويعاينون كرامات الربّ فيه، ويحمونه من أيّة محاولةٍ لاختطاف جثمانه. واشترك كثيرون منهم مع إخوة القدّيس في تراتيلَ رجَّعت نغماتِها الغابةُ المجاورة، وأصداءُ الليل البعيدة؛ وقد بدَّدت ظُلُماتِ ذلك الليل الفريد ألوفُ المشاعل.

القدّيسة كيارا تكرّم القدّيس فرنسيس

ومنذ فجر يوم الأحد، الرابع من تشرين الأوّل، تألّف موكبٌ كثيفٌ، من إخوةٍ ينشدون التراتيل، وموسيقيّين يصدحون بأنغام الجنازة الحزينة، وجموعٍ غفيرةٍ مفجوعةٍ تحمل الشموع وأغصان الزيتون، وقد انتظموا في مسيرةٍ مهيبةٍ؛ خلف الجثمان المُقدّس، ومضوا يُصعّدون به نحو أسّيزي. وفي منتصف الطريق، عرّجوا على دير القدّيس داميانُس، تنفيذًا للوعد الذي كان القدّيس قد قطعه للأخت كيارا وأخواتها؛ وهناك كُشِف الجثمان في المُصَلّى، ورفعته ثُلّةٌ من الإخوة على أيديهم عاليًا لتتملّى الأخوات جميعهنّ من رؤيته؛ وانتُزع جزءٌ من الحاجز الفاصل بين المُصَلّى وحُصْن الراهبات، بحيث يستطعنَ تقبيل سِمات جراح أبيهنّ الموقَّر، والتبرّك به البركة الأخيرة، وقد بكينَه، جميعهنَّ، بعَبَراتٍ حارقةٍ.

ثمّ استأنف الموكب مسيرته إلى كنيسة القدّيس جاورجيوس، حيث ووري جثمان القدّيس، في نفس المكان الذي كان قد عُمّد فيه لأربعٍ وأربعين عامًا خلت.

ولكن، بعد مُضيّ نحو أربع سنواتٍ، أي في **٢٥** أيّار **١٢٣٠**، نقل ذلك الجثمان إلى مقرّه الأخير في قبو كنيسة القدّيس فرنسيس الفخمة التي شيّدها الأخ إيليّا، تخليدًا لمؤسّس الفرنسيسكانيّة. وإلى ذلك المزار، لا ينفكّ ملايين الحجّاج يتدفّقون بلا انقطاعٍ، ويقفون أو يجثون خاشعين أمام ذكر واحدٍ من أنصع الوجوه المسيحيّة، وأجملها، وأحبّها، مُكرّمين قدّيسًا ارتقى إلى ذرى القداسة السامية بانتهاجه الفقر والبساطة الإنجيليَّين، بكلّ ما ينطويان عليه من أصالةٍ، وجنونٍ، وحبٍّ، وسموٍّ.

الجزء السادس

في رحاب نفس

«الأمر الوحيد الذي يتيح لنا أن نرنو إلى العالم الذي نعيش فيه، بلا اشمئزازٍ، هو الجمال الذي يُفلح بعض الناس في إبداعه، من صميم الفوضى، بين فينةٍ وفينةٍ: كلوحاتٍ يرسمونها، وموسيقى يؤلّفونها، وكُتُبٍ يدبّجونها. وحياةٍ ينهجونها. وإنّ أجمل هذه الأعمال كلّها، حياةٌ أحسن المرء عيشها؛ فهي التحفة المثلى».

(سوميرست موم)

رجل التحدّي

رُبَّما لم يُجمعِ الناس، يومًا، بشتَّى فئاتهم ومشاربهم ونزعاتهم، مثل إجماعهم على حبّ فرنسيس الأسّيزيّ، وإجلاله، وإحلاله أرفع مقامٍ من التكريم. فهو في نظر المسيحيّين، أكثر القدّيسين قداسةً، وهو، في نظر غير المسيحيّين، الإنسان الذي ارتقى بالإنسانيّة إلى أسمى ذُرى الكمال والإرهاف.

فلقد أقرّ الكاتب اليونانيّ كازانتزاكيس: «في نظري، القدّيس فرنسيس هو نموذج الإنسان الملتزم الذي، بفضل جهادٍ مريرٍ، وبلا هوادةٍ، تمكّن من تحقيق واجب الإنسان الأقصى، الذي يسمو حتّى على المناقبيّة والحقيقة والجمال: أعني السموّ بالمادّة التي أوكلها إليه اللّه إلى مستوى الروح». ويضيف مواطنه بوليس مودينوس: «إنّ فرنسيس الأسّيزيّ يستأهل إعجاب كلّ من كان دينُهم الإيمان بالإنسان... إن كنتَ مؤمنًا أو غير

مؤمنٍ، يعتريك سحرٌ لامحدودٌ، عندما يكون لك أصدقاء ورفاقٌ يتكلّمون عن اللّٰه، أو أنّهم، مثل فرنسيس، يتكلّمون مع اللّٰه، فيجتاحك شعورٌ بالعذوبة والتفاؤل، يُسبغ على حياتك معنًى، ويُخرجك من العزلة التي سجنّا ذواتنا فيها».

فمن المُحقَّق أنّ فرنسيس هو موقظ الإنسانيّة في الإنسان، ولقد وَجَدت فيه روعةُ الإنسان ومأساته ترجمانًا ممتازًا.

وقد اعترف الكاتب الفرنسيّ ستاندال: «في نظري فرنسيس رجلٌ عظيمٌ جدًّا»، في حين صرَّح رينان: «منذ يسوع، كان فرنسيس الأسّيزيّ المسيحيّ الكامل الوحيد».

ولا جَرَم أنَّ فرنسيس قد تمتَّع بشخصيَّةٍ فائقة الغنى، جيَّاشة الحيويّة، زاخرةٍ بالمشاعر، جامعةٍ للمتناقضات، مثل معظم الشخصيّات القويّة؛ فلقد قرن، على نحوٍ فريدٍ، القوَّة والعزيمة الصُّلبة، بالرقَّة والحنان.

لقد كان مُغرِقًا في الدَّماثة والعذوبة، حلو المعشر، مُرهَف المشاعر، يفيض محبَّةً للجميع، وقد وصفه تشيسترتون بقوله: «كان مثل روح الصبح، نقيًّا على نحوٍ مدهشٍ، فحتّى ظلال نفسه كانت شفَّافةً نيّرةً». أمّا شيلانو فقال: «على نحوٍ مدهشٍ، لا يدركه الآخرون، كان يُفلح، بفضل بصيرة قلبه، في النَّفاد إلى أعماق كلّ خليقةٍ».

وكان متواضعًا، يَعُدّ نفسه آخر الناس أجمعين، زريّ اللباس، لا يملك شيئًا، ويعطي كلَّ شيءٍ، ويعرف سرَّ التوافق مع جميع الطباع، مهما تباينت. ومع كونه أكثر القدّيسين قداسةً، إلاّ أنَّه كان يبدو بين الخطأة، وكأنّه أحدهم. ولكنّه، بالمقابل، كان شديد القسوة على ذاته، صُلبًا في وفائه للرسالة الفريدة التي ائتمنه عليها المصلوب، ثابتًا بعنادٍ في تكييفها مع الواقع، ولكن فولاذيّ الحزم في عدم النيل بشيءٍ من عناصرها الجوهريَّة.

كان يصف نفسه «بالخادم الأصغر، العديم الفائدة، وبخليقة اللّٰه الحقيرة... خاضعٍ طائعٍ لجميع البشر في العالم، بل لجميع الحيوانات والوحوش... يُقبّل أقدام الجميع»... ولكنّه، في الآن عينه، كان راسخ الثقة بخطورة رسالته، ولا يجد حَرَجًا في التأكيد على أنَّ لأقواله مفعولاً خلاصيًّا، وأنَّ على جميع الإخوة اتّباعها بأمانة، وأداء الحساب عنها يوم الدينونة.

كان خاضعًا خضوعًا مُطلقًا للكنيسة ولأصغر ممثّليها، مهما ساء سلوكهم، ولكنَّه لم يتخلَّ، يومًا، عن حرّيّة التفكير والسلوك بما يضمن الوفاء لرسالته، ولم يسمح لأحدٍ

أن يُهمد ناره، أو أن يروّضه، وقد حظر على إخوته الحصول على أيّ امتيازٍ من السُّلطة الكنسيّة، كي يحافظوا على حرِّيَّة النهج في دروب الإنجيل؛ ولقد حثَّهم على تحويل سلوك الرؤساء الكنسيّين بتواضعهم وبإطاعتهم طاعةً تامَّةً، مع التشبُّث باستقلاليّتهم، وبتنكّبهم عن عادات الإكليروس الرائجة.

لقد كان فرنسيس رجلاً حرًّا في الصميم، وكانت حرِّيَّته تُشعّ من كلّ حركاته وأقواله. كانت انتصارًا حقَّقته في أعقاب مسيرة تحرُّرٍ متماديةٍ شاقّةٍ، أسفرت عن نضوج شخصيَّةٍ تسعى أبدًا إلى الترقّي أعلى فأعلى في معارج الكمال، وإلى النَّفاذ أعمق فأعمق في أغوار الذات.

وقد انعكست تلك الحرِّيَّة الُمشعّة على الأخويَّة الفرنسيسكانيّة، وهيمنت على قوانينها حيثُ الحدّ الأدنى من القانون، والحدّ الأقصى من الإنجيل. لقد أغدق فرنسيس تلك الحرّيّة على إخوته، وحضَّهم على الاستسلام لوحي الروح ونفحاته، لا بل إنَّه تمنّى أن يكون الروح القدس هو الرئيس العامّ الفعليّ على الأخويّة، «ففوق كلّ شيءٍ، ثمَّة روح الربّ وعمله».

وكان فرنسيس متشدّدًا في خياره للفقر والبساطة، إلاّ أنَّه كان حرًّا، حرّيّةً مطلقةً، حيال ذاته والآخرين، متحرِّرًا من كلّ فرّيسيَّة ورياءٍ، فقد كان يرتدي الأسمال الخَلِقة، ويأكل النفايات، ولكنَّه يتحاشى عن دينونة الأغنياء والباذخين؛ وقد يقبل ضيافة الموسرين، من غير أن يتخلَّى، لحظةً، عن خيار الفقر الذي التزم به، فلا يتردَّد، مَثَلاً، عن الُمضيّ للتسوّل، قبل جلوسه إلى مائدة الكردينال هوغولينو الفاخرة.

لقد كان حرًّا، لأنَّه كان مُتحرِّرًا من قيود الأهواء، والآراء المسبّقة، ومن إدانة الآخرين، ومن الحزن الذي قد تسبّبه الظروفُ المناوئة، ومعاملةُ الآخرين القاسية أو العدائيَّة.

كان حرًّا لأنَّه استسلم بين يدي الربّ، استسلامه لأبٍ حنونٍ، وانتبذ كلَّ خوفٍ، فعلى حدّ قول تشيسترتون: «لا يمكن إرهاب من لا يرغب إلاّ في الأصوام، بتهديده بالجوع، أو من يتعيّش من التسوّل بتهديده بالإفلاس، ومن يطفر فَرَحًا لمجرَّد تخيّله أنَّه يتعرَّض للضرب بتهديده بإنزال الضربات عليه. وإنَّه لعزاءٌ فاترٌ أن يُعامَل بازدراءٍ من تقوم كلُّ كرامته على مهانةٍ يرتضيها بطيب خاطرٍ، ومن إذا قُيِّد عنقه بحبلٍ عَدَّهُ هالةَ تكريمٍ».

ذلك التحرُّر رسَّخ فيه فَرَحًا عميق الغور ساجيًا، عايش لديه التقشُّفات الصارمة،

والتَّوبة الحارقة على ما ارتكبه في شبابه من مجونٍ، والصليب الذي كان يقطنه، وبه يشارك المسيح آلامه المستمرّة من جرّاء خطايا البشر، المتدفّقة عبر العصور؛ ولا عجب بالتالي إن امتزج في عينيه الفرح والحزن، مثلما امتزجت في نفسه القداسةُ السامية الفائقة، بالانسجام التامّ مع الطبيعة المُحيقة والخليقة كلّها.

في أوَّل عهد ارتداده، يوم تحطَّم حُلْمه في اقتحام عالم الفروسيّة، أشار له «الصوت» وهو في سبوليتّي أن «عُدْ إلى مسقط رأسك»، إذ كان عليه أن ينغرس في التربة التي زرعه فيها الله؛ إلاّ أنّه بعد أن عاد إلى أسّيزي «خرج من العالم» كما تنبثق النبتة من الأرض التي تحتضنها. لم يهرب من محيطه، بل تجذَّر فيه، ولكنَّه انتهج مسلكًا مناقضًا لمسلكه كي يكون مخلصًا للإنجيل؛ لقد جسَّد بيئته، ولكنَّه عارض قِيَمَها ومعاييرها، وأبرز أسمى تطلّعاتها الكمينة، فتخطّى تخوم موطنه وزمانه، وامتدّ تأثيره إلى العالَم أجمع.

ومن أبرز المفارقات في سيرة فرنسيس أنَّه، وهو ابن الكنيسة البارّ والمطواع، والذي انتدبه مؤسّس الكنيسة ذاتها لإصلاحها، كان علمانيًّا، وحرص على البقاء علمانيًّا. ولئن هو ارتضى في أيَّامه الأخيرة أن يسام شمَّاسًا إنجيليًّا، فلكي يتمكّن من تلاوة الإنجيل والكرازة ببشراه في الكنائس. إلاّ أنَّه أبى أبدًا أن يُكرّم برتبة الكهنوت رغم التزامه التامّ بكلّ مقتضيات الكهنوت من عفَّةٍ وفقرٍ، وتجرُّدٍ، وتقوًى وطاعةٍ. رُبّما كان من دوافع إحجامه عن الكهنوت، شعورُه المؤرّق بما ارتكبه في سني طيشه، ممّا يجعله غير خليقٍ بلمس جسد الربّ وتوزيعه؛ أو حرصه العنيد على ألاّ يتمتَّع بأيّ امتيازٍ كان يوفّره الكهنوت، امتيازٍ من شأنه النأي به عن صغار الناس الذين وطّن العزم على أن يكون بينهم الأصغر؛ فهو لم يهجر وضعه البورجوازيّ المريح كي يستقرّ في وضعٍ أكثر جاهًا، ولا يقلّ عنه أمانًا.

ومع ذلك أسهم فرنسيس العلمانيّ في نشر بشرى الإنجيل، وفي إصلاح الكنيسة كما لم يفعل، قطُّ، أيٌّ من رجال الإكليروس. فبقائه علمانيًّا خاضعًا للكنيسة، زفّ البشرى إلى علمانيّين أهملهم الإكليروس، ولا سيّما سواد الفقراء منهم، وأعاد إلى أحضان الكنيسة كثيرين ممّن كانوا منبوذين مبعدين عنها، ناقمين عليها، بسبب ظنٍّ منهم خاطئٍ أنَّ الكنيسة هي ممثّلوها الذين لا يتَّصفون دائمًا بالجدارة. وهكذا أوجد مسيحيَّةً شعبيَّةً، صادقةً، أصيلةً، وأكَّد خطورة الدور الذي بمُكنة العلمانيّين، بل من واجبهم، لعبه في الكنيسة التي هي كنيستهم.

ذلك العلمانيّ، كان رجلِ العودة إلى منابع الإنجيل الأصيلة، إنجيل الفقر والإخاء والسلام، بحيث أمسى إنجيلاً حيًّا، وبشيرًا بالكمال المسيحيّ؛ وعلى غرار معلّمه يسوع، قلب الموازين، وأعطى الأولويَّة للفقر، الذي غدا مركز روحانيّته.

وذلك الإنسان المُسالم الوديع قد فجَّر ثورةً بُركانيَّةً امتدّت حِمَمُها إلى أقاصي المسكونة، ناشرةً فيضًا من بذور الخير والحبّ. فمعه وُلد إنسانٌ جديدٌ، وانطلقت مسيرة عالَمٍ جديدٍ.

وذلك الإنسان المتواضع البسيط، الذي كان يصف نفسه بالجهل والحُمْق، تخطَّى حدود المعقول، فإذا بشخصيَّته تتَّسع في كلّ اتّجاهٍ، وإذا به يكاد يُصبح قادرًا على كلّ شيءٍ، بعد أن غدا إنسانًا جديدًا يقطنه الروح. ولقد تجلّى كفِكرٍ دينيٍّ رفيعٍ، أرشد إلى نشر السلام بين الأنام بعيشه الفقر بين ظهرانَيْ فقراء.

تلك المفارقات كلُّها قد ائتلفت وانسجمت على تناغمٍ واتّساقٍ، في تلك النفس الكبيرة، مثل معزوفةٍ متعدّدة النغمات. ولقد تجلّى ذلك الانسجام على أروع وجهٍ، في غروب حياة فرنسيس، إذ بات جَنوحًا إلى البوح العاطفيّ الذي ضمَّنه بعض رسائله، حيث تبرز غزارة غنًى داخليٍّ فيّاضٍ، وكثافةُ حيويَّةٍ ما برحت شابَّةً، ورهافةُ إنسانيَّةٍ فائقة الرقّة. فقد كانت تلك النفس، في تلك المرحلة، قد ارتقت إلى نقطة التوازن الفذّ بين الإنسانيّ، وما يفوق الإنسان، بين قسوة التقشُّف، وعذوبة المصالحة والتفاهم، بين القدّيس الذي لم يعُدْ يرى سوى الأبديّ، والأخ الذي، في يسوع، ومن أجل يسوع، راح يستعيد حرارة الصداقات الأرضيّة؛ بين اللامرئيّ الذي شرع يستشفُّ أنواره السماويّة، والمرئيّ الذي جهد في تجسيد الإلهيّ في إطاره.

ولقد تميَّز فرنسيس بسحرٍ أَخّاذٍ، بعيد النَّفاذ، كان ينبعث من كلامه، وسلوكه، بل من مجرَّد حضوره، ومن السَّلام السَّاجي الذي كان يشيع منه، والذي تحقَّق نتيجة صراعاتٍ مريرةٍ مع نفسه، ونتيجة انغماسه التامّ في الله. لقد كان سِحرُه نابعًا من غنًى إنسانيٍّ كثيفٍ، قادرٍ على استيعاب كلّ شيءٍ وفهمه، وفي اندفاع حبٍّ قادرٍ على كسب القلوب، وهزّ الضمائر، واستفزاز الهِمَم. ولا عَجَب، بالتالي، إن غدا سلوك الناس يتأثّر بلقائه أو عدم لقائه، فلقاؤه كان كفيلاً بتحويل مجرى المصائر، وتقويم سلوك البشر.

منذ ارتداده، أدرك فرنسيس أنَّ ما يُسبغ على الحياة معنًى، ليس خَلْقُ الثروة، بل

خلق الإخاء، وأنَّ أساس الحياة ليس الامتلاك، بل الكينونة بكلّ غناها، والتضامن والتعاطف مع جميع عناصر الخليقة، ومذ ذاك أخضع حياته لتلك القناعة، فعاشها بالعودة إلى الإنجيل، عاشها بالفقر والسلام الإنجيليَّيْن، عاشها بصدقٍ مُطلَقٍ، وجسَّدها في أخويّةٍ تنهج نهجه، وتخلّده، فتنشر، بذلك، في العالم أجمع، الرسالةَ التي انتدبه لها المصلوبُ، وتُرسِّخها.

وهو، حرصًا على الأمانة لتلك الرسالة، وعلى عدم الإساءة لها، ألزم نفسه بأداء كلّ مستلزماتها، أداءً كاملاً، دقيقًا، لا تقاعس فيه ولا رياء، وآلى على نفسه ألاَّ يدعو إلى أيّ سلوكٍ أو فضيلةٍ، لا يكون، هو، لهما، مثالاً وقُدوةً. فقد كانت القُدوة المُثْلى هي هاجسه الدائم، ورائدة سلوكه، ولا سيَّما في مضمار ممارسة الفقر الذي كان يحتلّ من فكره وممارساته الاهتمامَ الأوَّل، والحَيِّز الأوسع. ويروي «الرفاق الثلاثة» الأكثرُ التصاقًا به، والذين دوَّنوا، إثرَ وفاته، طائفةً من الأحداث الطريفة التي تبرز وجوهًا رائعةً من ممارساته البطوليّة، أنَّ فرنسيس كان مع أحد الإخوة في سهل رييتّي، أثناء شتاءٍ اشتدَّت برودته، وكان القدّيس مُعْتَلَّ الصحّة؛ فأشار عليه رفيقه أن يُبطِّن كلٌّ منهما ثوبه، بما يوفّر لهما مزيدًا من دفءٍ كانا يفتقران إليه. ففعلا وظفرا بشيءٍ من الراحة. وانصرف فرنسيس، عقب ذلك، إلى الصَّلاة، ثمَّ خرج منها بابتسامةٍ عريضةٍ، ساخرةٍ، وأخذ ينزع البطانة التي أضافها إلى ثوبه، مفسِّرًا عمله هذا بقوله لرفيقه: «لا ريب أنّ جسدي يحتاج إلى تبطين ثوبي، بيد أنّ لسائر الإخوة الحاجةَ عينها، ولكنَّهم رُبَّما هم لا يملكون المقدرة على فعل ذلك؛ وإنَّه لمن واجبي أن أعيش مثلما هم يعيشون، كي أُسهّل عليهم حياتهم». ويُضيف «الرفاق الثلاثة» قائلين: «نحن العائشين معه، لا يسعنا تحديد كم مرَّةً حرم نفسه الطعام واللباس كي يؤازر إخوته على احتمال الحرمان بطيب خاطرٍ».

وكان يحثّ إخوته على السلوك دائمًا، وأينما كانوا، بحيث يحملون كلّ من يتَّصل بهم على تسبيح الربّ وشكره على طيبه. وكان يؤكّد، بوجهٍ خاصٍّ، على السلام الذي عليهم أن يُحيُّوا به كلّ من يقابلون، مُهيبًا بهم أن يعيشوه بصدقٍ في ذواتهم، وفي ما بينهم، وألاَّ يسلكوا أيّ مسلكٍ يدفع إنسانًا إلى الغضب أو التشكّك، بل أن يكونوا قُدوةً في حمل الآخرين على حبّ السلام والطيب والمصالحة.

وممَّا لا ريب فيه أنَّ شخصيّة فرنسيس قد اشتدَّت، وترسَّخت، واكتسبت قوّة المراس

من مواجهةٍ ثابتةٍ، مستمرّةٍ، لسلسلةٍ من التحدّيات كانت أُولى حلقاتها قُبلة الأبرص، ولم تنتهِ حتّى مماته. تحدّياتٌ عظمى، أفضت إلى خلق شخصيَّةٍ عظمى. الأبرص كان نموذجًا للقريب الذي هو، في آنٍ معًا، شبيهٌ ومختلف جدًّا؛ ولا ريب أنّ الإنسان يغتني شخصيَّةً بقدر ما يتصدّى لتحدٍّ يأتيه من قريبٍ يختلف عنه، فذلك التحدّي يطالعه معًا من بعيد ومن أغوار ذاته، وبه يكتشف ذاته بكلّ ما تنطوي عليه من طاقاتٍ متباينةٍ، وفي مثل تلك التحدّيات، يكمن تحدّي الله الحيّ، النموذج الأَسمى للمثيل المختلف. وقد انقلبت تلك التحدّيات، في نهاية المطاف، امتثالاً دائمًا مطلقًا لإرادة الله، الذي جعل منه إنسانًا عظيمًا يجد فيه البشر، في كلّ عصرٍ ومكانٍ، «أخًا» ومَثَلاً أسمى. ولقد مضى فرنسيس في الامتثال لمشيئة الربّ، بحيث لم يعُدْ راغبًا في عمل ما يُرضي الله، بقدر ما غدا راغبًا في أن يُحقّق الله فيه ما يشاء، وهو مستسلمٌ، برضًى وسعادةٍ، أيَّةَ كانت تلك المشيئة.

وبفضل تصدّيه البطوليّ للتحدّيات، غدا فرنسيس تحدّيًا حيًّا لكلّ الذين عايشوه أو استقروا سيرته، إذ أثار داخل كلٍّ منهم، أزمةً عميقةً، تحمل بذور الخلاص.

إنَّنا، في ضوء سيرته، نقرأ ضحالتنا وجُبْنَنا في تلبية نداء الحقّ المنبعث من أعماق الإنجيل، فهو قد عاش، بكثافةٍ، جنون حبّ الإنجيل، وحافظ على جمرته مضطرمةً، رغم ما تذروه الحياة اليوميَّة من رمادٍ، ورغم ما تدعو إليه حِكمةُ البشر من تعقُّلٍ، فَدَوَّنَ، بذلك، في التاريخ، أُسطورة مصالحة الأرض والسماء، الذُّرى والوهاد.

إنَّه يضعنا، وجهًا لوجه، إزاء الإنجيل الذي اتَّخذه منهجًا، وموعظة الجبل التي جعلها شريعةَ حياةٍ، ورسالة يسوع التي لبَّاها بحرفيّتها، من غير تأويلٍ يشوّه سناها الساطع، غيرَ حافلٍ بالمنطق البشريّ الذي يؤثر الحيطة والتحفّظ؛ وقد فعل ذلك من غير تزمّتٍ، ولا انكماشٍ، بل في انفتاحٍ مشرعٍ على الآخرين، ولا سيَّما الصغار والخطأة، وفي فرحٍ نابعٍ من محبَّة الله وجميع خلائقه، وفي حُرِّيَّة الإنجيل اللامحدودة.

إنَّ فرنسيس يخاطب مجتمعنا الاستهلاكيّ، وكأنَّه يقول: «تخلّوا عن الرغبة في الامتلاك، تنعَّموا بالتحرّر، وأقلعوا عن الرغبة في الاستغلال، تتمتَّعوا بجمال الكون؛ لا تلتمسوا التَّرَف في منازلكم، فتتبيَّنوا أنَّ الفقر جمالٌ وتناغمٌ وفرحٌ، وأنَّه يُزيل كلَّ حاجزٍ يحول دون لقاء البشر في شفافية أخويَّةٍ، وفي روح خدمةٍ متبادَلةٍ، كما يليق بأعضاء أسرةٍ واحدةٍ، تجمعهم أُبوَّة الله الواحد».

قد تبدو تلك التطلُّعات حُلمًا، ولكنّ الحُلم هو، أحيانًا، جزءٌ من الواقع، ويُمثّل ما هو، في الواقع، مُمكنٌ، ومُستَقْبَلٌ كامنٌ، ودعوةٌ إلى تجاوز الحاضر بكلّ عوراته، إلى ما هو أسمى وأغنى، وأوفر إنسانيَّةً وأنسنةً.

وفرنسيس يخاطب مجتمعنا التقنيّ المغرور بإنجازاته، مُحذّرًا من أنّ المعارف لا تُقيم علاقات محبَّةٍ بين البشر، بل غالبًا ما تُفرّقهم، مذكّرًا بأنَّ أنوار العِلْم لا تضيء بالضرورة قلبَ البشر، وأنَّ العِلْم، ما لم يقترن بالحبّ، ليس دربًا إلى السعادة، ولا هو وسيلةٌ إلى السلام.

لقد كانت سيرة فرنسيس برمَّتها دعوةً إلى الخروج عن المألوف وانتباذ الخمول من أجل البحث عن خيارٍ تتحقَّق فيه أكثر معاني التضحية والتعاطف والفرح واحترام الكون.

ودعوتُه هذه مُغلَّفة بهالةٍ من السحر لأنَّها مشبعةٌ بالفرح والرقّة، ونابعةٌ من ثِقةٍ في الإنسان راسخةٍ، ومن إيمانٍ مُطلَقٍ في محبّة الله ورحمته.

ليس فرنسيس مثالاً أعلى فحَسْبُ، بل هو، أيضًا، روحٌ ساميةٌ، وفكرةٌ خالدةٌ، وأُسلوب عيشٍ يصلح لكلّ حقبةٍ ومكانٍ. إنَّه، أبدًا، جديدٌ، ورجل المستقبَل. حيالَه نكتشف نقصَنا الفادح، وعجزَنا المريع؛ ولكنَّ شعورنا حياله خالٍ من كلّ مرارةٍ، فرسالته تحمل من العذوبة ما يجعل الرديءَ يشعر أنَّه مدعوٌّ ليكون طيّبًا، والطيّب مدعوٌّ ليكون كاملاً، والكامل أنَّه مدعوٌّ ليكون قدّيسًا.

ولا ريب أنَّ الإحاطة بغنى تلك النفس الكبيرة ضَرْبٌ من المُحال، إلاّ أنّنا سنحاول، من خلال الصفحات التالية، استجلاء بعض ملامحها النيّرة الفريدة.

«قلب القدّيس سماء الله»
(جوليان غرين)

القدّيس

لقد تسنّم فرنسيس من القداسة أرفع قِمَمها، بحيث قيل فيه إنَّه أكثر القدّيسين قداسةً؛ وتوقَّل في مراقي الكمال إلى أسمى ذروةٍ، بحيث غدا للكمال مرآةً؛ وتوغَّل في التشبُّه بالمسيح إلى أقصى مدًى، فوُصِف بأنّه الأوَّل بعد الأَوحد، أي بعد يسوع.

كما أنَّه انتصب نموذجًا أمثل لما يستطيعه الروح من رُقيٍّ، وبلغ من رهافة الإنسانيّة، واتّساع آفاقها، وتعاطفها مع الخلائق جمعاء، ما جعله لكلّ خليقةٍ أخًا، وما أَهَّلَه لمحبَّة كافّة فئات البشر، وطبقاتهم، وأجناسهم، منذ ثمانية قرونٍ حتّى الآن، ولإعجابٍ عالميٍّ نادرًا ما حظي بمثله إنسان.

ومع أنَّه لم يتمتّع بَملكاتٍ نادرةٍ، ولا بمواهبَ خارقةٍ، ولا هو تميّز بعلمٍ أو باكتشافٍ، أو بفنٍّ وإبداعٍ، ولا جلّى في سياسةٍ ومُعتَرَك نفوذٍ، ولا خلَّف من المؤلّفات والروائع سوى بضع أناشيد، ورسائل ضمَّنها مُثُله وتجاربه، إلاَّ أنَّه كان من أعظم من صنعوا التاريخ، وأيقظوا العالم، وما انفكّ للعالم عاملَ يقظةٍ، وما برح النور الذي فجَّره يُساعد محبّيه وأتباعه، في كلّ حقبةٍ ومكانٍ، على رؤية كلّ شيءٍ في وجهٍ قشيبٍ؛ وما ذلك كلُّه إلاّ بفضل قُدوة سلوكه، وسحرِ مثاله.

بيد أنَّ من يستقري مسيرته لا يلمح في فتوَّته ومطلع شبابه ما يؤهّله لبلوغ ما بلغه، أو حتّى جزءٍ يسيرٍ منه؛ فقد نشأ فتًى مدلَّلاً، يظفر بكلّ ما يشتهي من غير عناءٍ، ويُسرف في البذخ والتَّرَف، واللهو والمجون؛ وحين يسأم العَبَث تراوده أحلام المجد، في زيّ فارسٍ متألّق الهندام والعدّة، يتطلّع إلى اقتناص لقب النُّبل في ساحات الوغى والطِّعان. ولو قُيِّض لأحلامه تلك أن تتحقّق، حتّى على نحوٍ أفضل ممّا ارتقب وتوقَّع، لما كان فرنسيس قد غدا أكثر من نبيلٍ ثريٍّ، يزدهي بماله، ويفخر بتفوُّقه الطبقيّ على أترابه وأبناء جلدته، يسعى إلى إرضاء أناه، ودغدغة غرور نفسه، ثُمَّ يرحل عن الوجود، وهو لم يُغيّر فيه شيئًا، ولم يأتِ بجديد، ولم يُخلِّف من أثرٍ سوى، رُبَّما، لعنات المسحوقين، ونقمة المُعْوزين.

فما الذي دهى فرنسيس حتّى هجر الطريق الرَّحب المُعَبَّد، الحافل بالغواية، واندفع في المسالك الوعرة المُصعّدة، التي أفضت به إلى القِمَم السامقة؟

لقد أشرقَتْ نعمة الهداية على نفسه، فأشرع لها كلّ نوافذه، وامتثل لكلّ مقتضياتها بلا هوادةٍ. آمن بها بلا تحفُّظٍ، فوهبها كلّ ذاته، وضحّى، في سبيلها، بكلّ شيءٍ، وأخضع لها فكره، وإرادته، وجسده، وكلّ طاقاته وكلَّ لحظةٍ من عمره، بلا حسابٍ، فأتاح لها العمل الوئيد، النَفَّاذَ، الذي يُحوّل الكيان، ويجترح المعجزات.

ذلك الامتثال المُطلَق لمقتضيات النِّعمة، وذلك السعي الجاهد الثابت، بهديها، بلا رجوعٍ، ولا تلفُّتٍ إلى الوراء، هما مكمن القداسة وسرُّها.

يقول ارنست بسيكاري: «النعمة هي من شأن الله، أمَّا الرغبة في النعمة فهي من شأني». فما من نفسٍ يضَنّ عليها الربّ بنعمة الهداية، ولكنّ البشر يُقرّرون مصيرهم وفقًا لموقفهم من هذه النعمة. قِلّةٌ منهم يُلبّونها، وينهضون بكلّ مستلزماتها، فيبلغون القداسة، وأمّا سوادهم الأعظم، فيتقاعسون عن ندائها، خشيةً منهم على عاداتٍ استمرأوها، ومُستنقَعاتٍ آسنةٍ تمرَّغوا في حمأتها، فخدَّرتْهم روائحها وخناها، وعلى أنانيّةٍ أحكمت على رقابهم طوقَها ونيرَها، وخمولٍ اطمأنُّوا إلى تواكله واسترخائه، فكانوا أشبه بالجَدَريّين الذين يذكر الإنجيليّ متّى أنّ يسوع مرّ بديارهم، وأعتق فيها مجنونَيْن، كانت تسكنهما أرواحٌ شرّيرةٌ شرسةٌ، ووَلَجت الأرواح المطرودة في قطيعٍ من الخنازير قفزَت إلى البحر فهلكَتْ، فهرع الجَدَريّون إلى يسوع، «طالبين منه التحوّل عن تخومهم»، وكأنّي بهم يقولون له: «نحن راضون بالأرواح الشرّيرة، فاترك لنا خنازيرنا».

إنَّ شرط القداسة رغبةٌ صادقةٌ في إتمام مشيئة الله، وعزيمةٌ ثابتةٌ على تنفيذها، مهما كلَّف ذلك التنفيذ من تضحياتٍ، قد يكون بذل النفس والحياة أعذبها. ولئن مُنيت حياة سواد الناس بالفَشَل، وحُكِم عليها بالضَّحالة والرداءة، فلأنَّهم أخفقوا في تسديدها نحو هدفٍ سامٍ يليق بنفسٍ على صورة الله ومثاله، أو لأنَّهم تقاعسوا عن ملاحقة هذا الهدف، وتولاّهم الجُبْن، فلم يجسُروا على بذل ما يقتضيه بلوغُه من جهدٍ وبطولةٍ.

أمَّا فرنسيس، فبعد أن وَأَد رغباته المادِّيَّة، حوَّل جميع طاقات نفسه صوب رغبةٍ وحيدةٍ ساميةٍ عارمةٍ متمثّلةٍ في اقتفاء آثار يسوع، والتشبّهِ به إلى أبعد مدًى. تلك الرغبة الملحاح كانت تدفعه إلى تَخَطّي أقصى التُّخوم، وقد أخضع لها كلّ قواه الروحيَّة والجسديّة. وفي هذا السياق يقول تشيسترتون: «كان فرنسيس يلتهم الأصوام، مثلما

القدّيس فرنسيس

(رسم من القرن الثالث عشر)

يلتهم الآخرون الطعام؛ كان يجري في إثر الفقر، مثلما يتدافع الآخرون في إثر الذهب. وذلك السعي الحثيث المضطرم اندفاعًا، وتلك الشهيَّة الهائلة، إنّما هما أسلوبه في تحدّي العالم الحديث المُتعطِّش إلى الملذّات».

كان إذا ما وطَّن العزمَ على أمرٍ، عاشه حتّى أقصى عواقبه. ولم يكن لديه وجودٌ للنَّظريَّة من جهةٍ، وللعمل من جهةٍ أُخرى، بل كلاهما متطابقان، متلازمان على نحوٍ مدهشٍ. وكان يقول هو نفسه: «لا يعرف المرء سوى ما يمارس». أمّا القدّيس بوناڤانتورا فقد قال فيه: «الرغبة التي كانت تحدوه، كانت من شدَّة الأَسْر بحيث إنّه، رغم صحّته الواهية الهشّة، كان دائمًا يسبق رفيق دربه؛ وفي استعجاله تحقيق مهمّته، كان يبدو وكأنَّه يطير منتشيًا بالروح القدس».

تلك الرَّغبة الجيَّاشة، المُحْكَمة التسديد والضوابط، هي شرطٌ جوهريٌّ للتصعيد نحو الله، في معارج الكمال، فهي التي تُخلّص المرءَ من النزعة الفطريَّة إلى الحياة الوثيرة، وإلى بذل القدر الأدنى من الجهد.

تلك الرغبة العنيدة كانت تدفعه إلى مناطحة المستحيل، وتستفزّ رغباتٍ مماثلةً لدى من عايشوه، وما فتئت تستفزّ مثل تلك الرَّغبات لدى فئةٍ ممَّن يُسحَرون بسيرته.

وبما أنّ من يرغب في المستحيل، وحدَه، ينتهي إلى تحقيق ما هو في مُكْنة الطاقة البشريّة، فقد تسنّى لفرنسيس تسنُّم أسمى القِمَم.

ولكن لا يَغْرُبَنَّ عن بالنا أنَّ فرنسيس، الذي لم تنطوِ نشأتُه الأُولى على أيّ عنصرٍ مؤَهِّلٍ للقداسة، لم يبلغ ما بلغه من بعيد الشأو في ميدانها، إلاّ بفضل جهادٍ مريرٍ، وانتصاراتٍ متعاقبةٍ مستمرَّةٍ على الذات، كلَّفتْه صراعاتٍ أليمةً، ودماءً غزيرةً. صحيحٌ أنَّ حياته، عقب هدايته، قد غدت ملحمةً رائعةً، ولكنَّها كانت ملحمةً داميةً، هي نسيجٌ من تجارب عميقةٍ امتزجت فيها الآلام المُبرّحة بالفرح الصوفيّ، وحصيلةُ انعتاقٍ من رِبَقٍ جمَّةٍ، وتحرُّرٍ من أغلالٍ ضاغطةٍ.

ففي فرنسيس، مثلما في كلّ قدّيسٍ عظيمٍ، كان يسكن إبليسٌ رهيبٌ تتحتّم عليه مصارعتُه بلا هوادةٍ؛ وفيه كانت ذُرى القداسة تُحاذي وهاد الوَهَن البشريّ؛ ولئن كانت الفضائل التي أحرزها خارقةً في سموّها، فذلك أنّ التجارب التي ظَهَر عليها كانت مُريعةً في جسامتها.

في أعماق كلّ إنسانٍ يتعايش الملائكةُ والأبالسة، وتتجاور نزعات التسامي، وبذلِ الذات، ومشاركة الآخرين، مع غرائز الأنانيّة والأَثَرة والصغارة؛ وتظلّ الخطيئة تُطارد النعمةَ، خُطوةً خطوة، ولا يُفلت القدّيسون من رِبْقَة تلك التناقضات، بيد أنّ قداستهم هي حصيلةُ وعيهم المُتبصّر لخطر غرائز الشرّ الناشبة بهم، ومقاومتِهم الضارية لقوى الدمار الكامنة فيها، وتطويعها لخدمة مشاريع الخير والكمال.

وفي مُعترَك هذا الصراع كان فرنسيس مُجلّيًا، فقد جعل حتّى من قوى الظلام دربًا إلى اللّه، في جمٍّ من البساطة والتواضع، ومن ثَمّ فقد راح يُنشد، على السواء، للحبّ وللأوهان وللموت، وقد انسجمت لديه جميعُ الوقائع، ضمنَ أُسرة اللّه الكبرى، مثلَ إخوةٍ وأخواتٍ.

لقد استسلم فرنسيس لنَفَحات الروح بلا تحفُّظ، وغدا للقداسة مثالَها الأسمى، «فكما أنّ يسوع هو الأساس، ومريم هي أمُّه، وبولس هو رسول الأُمَم، كذلك فرنسيس هو المثال الذي يُجسّد للكنائس كلّها، صورة الإنسان الذي تصدّى لمغامرة القداسة، وعبَّر عنها تعبيرًا عالميًّا». فضلاً عن أنَّه نبراسٌ ساطعٌ لكمال الروح، وتَجَلّي الإنسانيّة وسموّها، لكلّ جيلٍ، منذ ثمانية قرونٍ، وسيظلُّ كذلك أجيالاً طويلةً متعاقبةً، إذ إنّه بتجسيده تطلُّعات عصره، ذلك التجسيد الفذّ، قد تخطّى تخوم التاريخ وحدوده، وغدا «رجل العهود القادمة»، كلِّ العهود.

وفي هذا المعنى كتب ليوناردو بوف: «عندما يتغلغل القدّيسون، في إثر يسوع، إلى أغوار الأشياء، وحتّى جذور الوجود البشريّ، تتجلّى معاصرة الإنجيل الدائمة؛ فهؤلاء القدّيسون يُحطّمون حدود زمانهم الضيّقة، ويُصبحون معاصرين لكلّ زمن، ولكلّ إنسانٍ ينشد نَجْمًا. إنَّهم لا ينتسبون لا للقديم ولا للحديث، بل هم حاضرون، معاصرون، فحَسْبُ، وحاملون لتلك المعاصَرة الخاصَّة بقضايا الحياة الأساسيّة، في أيّ وقتٍ، تلك المعاصرة التي تُميّز يسوع المسيح».

ويُجمل ليوناردو بوف قداسةَ فرنسيس بقوله: «بين جميعِ القدّيسين الذين جعلتْ منهم التجربةُ رجالاً أحرارًا، يبدو القدّيس فرنسيس أكثرهم بروزا، ومتمتّعًا بتلك الحرِّيَّة، بتلك الثقة التي يودعها في قلب طاقات النور الكمينة، المغروسة في جميع القلوب، والتي لا تقوى خطيئةٌ، أو ضغطٌ من أيّ نوعٍ، على إلقاء الظُّلمة فيها».

«عندما يصبح المرء مُنقذًا للآخرين، ينقذ نفسه».

(الأب پيير)

«يُقال إنَّ اللّه يُحبُّنا، وفي هذا القول ما يدفع إلى الجنون، وهذا ما حدث فعلاً للمسيحيّين الأوائل، ولجميع القدّيسين».

(جوليان غرين)

ولادةٌ جديدةٌ

أمّا قصَّة تَحَوُّل فرنسيس فهو يجملها، بنفسه، في الفقرة الأُولى من وصيَّته حيث يقول: «هكذا أعطاني الربّ، أنا الأخ فرنسيس أن أباشر حياة التوبة. فعندما كنت لا أزال عائشًا في الخطيئة، كانت مشاهدة البُرْص تبدو لي أمرًا لا يُطاق. ولكنَّ الربَّ قادني إليهم. فأقمت بين ظهرانيهم، وعالجتهم، وتعاطفت معهم؛ وعندما بارحتهم، انقلب ما كان يبدو لي مريرًا عذوبةً للروح والجسد؛ وما لبثت أن هجرت العالم».

هذا الاعتراف، في إيجازه الناصع، يوضح الحقائق التالية:

–الارتداد، التحوّل الجذريّ، مباشرةُ حياة التوبة، إنّما هي عطيَّةٌ من الربّ، وعملُ نعمته، لا فضلَ لفرنسيس في إطلاق شرارتها، بل ثوابه الأعظم قد تمثَّل في الاستجابة المُطلَقة لها.

–على ضوء تلك الشرارة، تكشَّفت له بشاعةُ الحياة التي كان يمارسها من قبلُ، فدانها بجملتها، وعدَّها حياة خطيئةٍ لأنّ اللّه كان غائبًا عنها، ولأنَّها، بإكبابها على التماس المُتَع الحسِّيَّة، والتألُّق في عيون الناس، أغفلت معاناة القريب البائس والمسحوق، المنبوذ والمُعْدَم، فكانت بَرَصًا أفدح وبالاً وقُبْحًا من البَرَص الناشب بأجساد آخَرين، الذي كان يُثير لديه أشدَّ نفور.

وقد تحقَّق التحوُّل عندما قادته يد اللّه وسط أولئك البائسين الذين كان يتجاهلهم، وينفر منهم، فلامسهم، وآكلهم، وتعاطف معهم، فتحرّكت بحبِّهم أحشاؤُه. لو أنَّه اقتصر على نفحهم مبالغ من المال طائلةً، أو على شنّ حملةٍ لإعلام الآخَرين ببؤسهم،

رسم للقدّيس فرنسيس، ٣٤ سنة بعد وفاته (١٢٦٠)

ودعا إلى الرأفة بهم، وإغداق الإحسان عليهم، وبذلك أراح ضميره، وقَنِع من الغنيمة بالإياب، فقبع في ما أَلِفَه من عاداتٍ وأُسلوب عيشٍ، لما طرأ على نفسه وحياته أيُّ تبديلٍ، فالتحوُّل إنَّما ينبع من تحرُّك الأحشاء.

«قُبلة الأبرص»، تلك القُبلة التي طبعها فرنسيس على فمٍ متآكلٍ تفوح منه روائح الإنتان والتفسُّخ، هي التي حرَّرته من أنانيَّته وجُبْنه، وخطيئته، وتنكُّره للّه وللإنسان، ومكَّنته من السيطرة على ذاته، ودفعته على دروب الربّ. لقد أزاحت عن باصرته الحُجُب التي كانت تُخفي عنه عالَم الألم، عالَم الملكوت، عالَم المحبَّة والرأفة، عالَم الصليب والإخاء؛ لقد اكتشف تلك العوالم دفعةً واحدةً، وقد راح ذلك الاكتشاف يترسَّخ لديه، وتتَّضح معالمه كُلّما هو مضى قُدُمًا في فهم الصليب، وفي عيشه، وفي ممارسة الفقر والمحبَّة والتعاطف والإخاء.

ذلك الاكتشاف كان صدمةً زعزعت كيانه، وقَلَبت مسيرته، ففرَّ من بَرَص حياته السابقة، وأقبل على حياةٍ جديدةٍ، بل على دنيا قشيبةٍ، حافلةٍ بالمحبَّة والعطاء، بين ظهرانَيْ من نبذهم الناس، وآثرهم الربّ؛ وحينئذٍ ما كان يظنُّه مريرًا لا يُطاق انقلب عذوبةً للروح والجسد، فاختار منحًى جديدًا، و«هجر العالم».

خطوتُه الأُولى الحاسمة في مسيرة هجر العالم كان قد خطاها يوم تجرَّد من ثيابه، وقذف بماله أرضًا، أمام الأسقف وحشدٍ غفيرٍ من مواطني أسّيزي، وأعلن انتسابه إلى الأب الذي في السماوات، مُتخلِّيًا عن أُبوَّةِ پييترو بيرناردوني، التي كانت تُوفِّر له العيش الهانئ، والمستقبل الآمن الرغيد، مُؤْثرًا عليهما حياة الحرمان والفاقة والجوع.

وهو، بتجرُّده ذاك، قد رَمَزَ إلى صدوفه عن نَمَط العيش الذي كان يمارسه، عندما كان يزدهي بماله وهندامه الأنيق، وحلاه الفاخرة، وترفه الفاحش، وإلى اعتناقه حياة التوبة والزُّهد المطلَق.

العالَم الذي هجره هو العالَم المؤمن بحقوق الاستئثار بملكٍ ومالٍ وسلطانٍ – وكلُّ استئثارٍ يفرض نبذَ الغير واستبعادَه – عالَمٍ حيث المالكون المستأثرون – سواء هم كانوا أَباطرةً أو بابواتٍ، حُكَّامًا أو أساقفةً، تُجّارًا أو أرباب عملٍ – يَسنّون القوانين الكفيلة بالذود عن ممتلكاتهم وسلطتهم ونفوذهم، وبإقصاء الآخرين عنها.

والمجتمع الذي هجره هو مجتمع الكبار، المتنفّذين، المتعالين، مجتمع الطبقات العليا

المعتدَّة بثروتها ونبلها، وهو، أيضًا، مجتمعٌ كنسيٌّ إقطاعيٌّ السلوك، نسيَ أنَّ المسيحيَّة، في جوهرها، خدمةٌ ومحبَّةٌ، فاستأثر بالسلطان والمال، وذَهِل عن الخدمة والبذل، وادَّعى التفرُّد بالصواب، واحتكر الدين لمصلحته، وأعلن على من لا يطأطئون له الرؤوس حربًا شرسةً حاقدةً.

بيد أنَّ عزوف فرنسيس عن هذا المجتمع وذلك العالَم، لم يكن انكفاءً على الذات وتقوقعًا، وبترًا للعلاقات البشريَّة، والتعاطف الإنسانيّ، إذ أكَّدت قُبلة الأبرص انتماءَه النهائيّ، الذي لا عودة فيه، إلى عالَمٍ آخر، عالَم المنبوذين والمحرومين والمتألّمين.

لقد هجر دنيا المستأثرين، ومجتمع الكبار، كي يكون الأخير والأصغر والأفقر والأضعف، واحدًا من تلك الفئة العريضة المُغْفَلة التي ازدراها الكبار وتجاهلوها، والتي أحبَّها يسوع وتمثَّل بكلّ فردٍ من أفرادها، وبذل ذاته في سبيلها. لقد ارتضى أن يكون، في المجتمع، هامشيًّا، كي يلتصق بمن لفظهم المجتمع البَطِر، وقذفهم على هامشه؛ وفيما بينهم عَثَر على الله، وأدرك الإنجيل، واكتشف ذاته، وظفر بالفرح، كما يتجلّى من قانون أخويّته حيث قال: «على الإخوة أن يبتهجوا عندما يعيشون بن ظهراني قومٍ وضيعين، مُحْتَقَرين، فقراء وسقماء، بُرْصٍ ومتسوّلين».

ومذَّاك أمسى ذلك الذي طالما اختال بتأنُّقه وإسرافه، يصف نفسه بالمتعفّن، الكريه الرائحة، بالبائس والحقير؛ وكان وصفه ذاك يعكس واقعًا راهنًا، فمنظره زريٌّ، وثيابه رثَّةٌ، وعيشُه قَشفٌ، وحتّى خطاباته الحماسيَّة خاليةٌ من أساليب الفصاحة والجزالة.

بيد أنَّه، مع يقينه بالسير على دروب الربّ القويمة، وتأدية رسالةٍ فريدةٍ، أَوْكلها إليه المصلوب، لم يَدِنْ، يومًا، أولئك الذين ما انفكّوا يعيشون في ضلالٍ، ولا تناول بالنَّقد أحدًا، ولا رفع على أحدٍ صوتًا، لأنَّه كان يؤمن أنَّه لا يسمو على أحدٍ، وأنّ الجميع أرفع منه شأنًا.

ارتداد فرنسيس كان، في بدايته، اختيارًا لنمط عيشٍ اجتماعيٍّ جديدٍ، أكثر منه تحوُّلاً روحيًّا، ولكنَّه كان، أيضًا، ولادةً جديدةً. وكلُّ وليدٍ ينمو ويتطوَّر. وقد اتَّخذ ارتداد فرنسيس أبعادًا جديدةً، عندما نما في تربة الإنجيل، التربة التي غُرِس فيها الصليب، وارتدت توجُّهاته، شيئًا فشيئًا، مِسحةً صوفيَّة فائقة السَّنى.

«إنّني أتساءل هل المسيح قد جاءنا بإنجيله مرَّةً ثانيةً، أيّام القدّيس فرنسيس. لست أجهل أنّه يأتينا به كلّ يومٍ، بل كلّ ساعةٍ، ولكنّها، آنذاك، كانت مناسبةً خاصّةً، إن صحّ التعبير، وتحريضًا مُلحًّا، على نحوٍ فريد».

(جوليان غرين)

في مدرسة الإنجيل

مرَّةً أُخرى، فلنستوحِ وصيَّة فرنسيس حيثُ جاء: «لم يرشدني أحدٌ إلى ما كان يتوجَّب عليَّ فعله، بل إنَّ العليَّ نفسه أعلن لي المسلك الذي كان عليَّ انتهاجه وفقًا لنموذج الإنجيل المُقدَّس».

ولا غَرْوَ أنَّه ما من طريقٍ مُعَبَّدٍ، مرسومٍ مسبّقًا، نحو القداسة، بل على كلّ إنسانٍ أن يسلك إليها وفقًا لظروف الواقع الماثل، وعلى نور مقتضيات الإنجيل.

من الإنجيل، إذن، تلقَّى فرنسيس وتلقَّن كلّ معرفةٍ وعِلْمٍ، فكان له المدرسةَ والأستاذ، النِّبراسَ والدليل، «الروح والحياة»، ودستور سلوكٍ، جعل سلوكه قداسةً، وذروةَ كمالٍ.

لا ريب أنَّ فرنسيس، قبل ارتداده، كان قد طالما سمع مقاطع من الإنجيل، ولا سيَّما تلك التي كانت تُتلى في الكنائس أيَّام الآحاد؛ بيد أنَّ تلك النُّصوص كانت تكاد لا تُحرّك في نفسه وَترًا آنذاك. ولكن، بعد أن «هجر العالم»، ونَبَذ آراءه المُسبّقة وأوهامه، وأنماط سلوكه التي تنهض دون روح الإنجيل حاجزًا، استطاعت نَفَحات البُشرى أن تمتزج بميوله الفطريَّة إلى العطف والسخاء، وأن تعتمل وتتفاعل في أعمق أغوار كيانه.

وبعد أن أمعن في اكتناه أسرار الصليب، وبعد أن حرَّرته قبلةُ الأبرص من كلّ الأغلال التي كانت تقيّده، وحرثت نفسه في العمق، باتت كلمة الربّ مهيَّأةً للتغلغل في طوايا تربتها المُشرعة للخصب، فتُثمر فيها مئات الأضعاف.

وتعاطُف فرنسيس مع البُرص والفقراء والمنبوذين قد أَشرع ذهنَه على الإنجيل كما لم يكن بوسع أيّ تفسيرٍ لاهوتيٍّ أن يفعل، وفجأةً تعالت من أعماقه صرخة دهشةٍ كدهشة من يكتشف في أقوال آخَرَ تعبيرًا رائعًا عن رغباتٍ كمينةٍ في أغوار ذاته، كان عاجزًا عن استجلائها والتعبير عنها.

فالإنجيل هو همسة الحياة المنبثقة باستمرارٍ، دائمةَ الجدَّة، لا تكرار فيها، من نبعٍ هو اللّه نفسه، مبدأ كلّ حياةٍ؛ ولكن لا يقوى على التقاط ذلك الهمس إلاّ من تحرَّرت نفسه من صَخَب العالم، واحتفظ بحِسٍّ نقيٍّ، وظلَّ يعيش في «حالة ميلادٍ» دائمةٍ متجدِّدةٍ، أو عاد إلى العيش في تلك الحالة، غير مستلهمٍ أيَّ نموذجٍ بشريٍّ قائمٍ، غير متقيّدٍ بأيّ رأيٍ مُسبَّقٍ. وفرنسيس، بعد أن هجر حياته السابقة التي دانها، وتخلّى عن أنانيَّته وجُبنه اللَّذيْن حطَّمهما، عاد إلى حالة ميلادٍ متجدّدٍ، ناصعٍ، وأمسى مرهَف السمع، لالتقاط ما في الإنجيل من جديدٍ لم يُقَلْ بعدُ.

وحينئذٍ لم يعُدْ يُصغي إلى الإنجيل بسمعه، بل بكلّ كيانه، وجعل منه مادَّة حياته، إلى أن غدا، به، إنجيلاً حيًّا.

ولا مِراء أنَّ عيش الإنجيل بصدقٍ، يُحقّق وحدَه، التحرُّر الداخليّ، ويُعمّق في الإنسان جذور الحبّ، ويرقى بمستواه، ويُسبغ على حضوره بين الآخرين وقعًا أبلغ، إذ إنّه يؤهّله لمسامحة الأعداء، والتقرُّب من الصغار والفقراء.

ولقد عاش فرنسيس الإنجيل، كما لم يعِشْه أيُّ إنسانٍ سواه، بكلّ حذافيره، من غير إسقاط أيّ جملةٍ أو مقطعٍ منه، وبكلّ حرفيّته، من غير تأويلٍ أو ترويضٍ؛ عاشه بكلّ روحه وديناميّته، بعذوبته وقسوته، برقّته واستشهاده اليوميّ؛ عاشه في كلّ سلوكٍ وحركةٍ، وأتاح له أن يغزو كيانه، وكيَّفَ كلّ طاقاته مع الوفاء لمقتضياته. لم يكن له الإنجيل كتابًا يُطالَع، بل مغامرةً تُخاض، وتكون الحياةُ هي رهانها؛ لم يسمع يسوع يقول له: «خُذْ واقرأ»، بل دوَّت في حناياه صرختُه الساحرة: «تعالَ اتبعني». فاندفع في غمار تلك المغامرة، بكلّ قواه، ومن غير تحفّظٍ، فاستحوذت على كلّ جوارحه، وانطبعت في كلّ كيانه، لا عواطف المسيح نفسه، وآلامه نفسها فحَسْبُ، بل مصيره عينه، فمِثْلَه عَرَفَ النَّبذَ، ومثلَه عزم على مكافحة نَبْذِ كلّ إنسانٍ، وعلى غراره تمثَّل بالمنبوذين.

وعلى نقيض التفسيرات الرائجة التي تُميّز بين الشرائع الإنجيليّة التي تلزم كلّ مسيحيٍّ، والنصائح الإنجيليّة التي لا تُلزم سوى الصابين إلى الكمال، كان فرنسيس يضع على قدم المساواة كلّ مطالب الإنجيل، مؤمنًا أنَّه لا يسع الإنسان أن يكون مسيحيًّا ما لم يُنفّذ، في آنٍ معًا، شرائع الإنجيل ونصائحه كاملةً، وبلا تحفّظٍ.

وسرعان ما أدرك أنّ عيش الإنجيل، على هذا النحو، هو، في نظر العالَم، ضربٌ من الجنون، لأنَّه سِباحةٌ في عكس تيّار العالَم، ولكنَّه ارتضى ذلك الجنون، وتشبّث به. وإيمانًا منه بأنَّ الربَّ قد انتدبه لهذه المهمّة المجنونة، كما أوضح في ردّه على نصائح الكردينال هوغولينو، وعلى تيّار الإخوة المطالبين بانتباذ أسلوب الفقر المُطلَق، والنسج على منوال سائر الرهبانيَّات القائمة، أكَّد رفضه القاطع لكلّ تلك النماذج، مُعلنًا: «أبلغني الربّ رغبته في أن أكون بسيطًا وأحمق، كما لم يكن أيُّ إنسانٍ آخر حتّى الآن».

منذ الوهلة الأُولى أدرك فرنسيس أنَّ الإنجيل هو جنون الله، المستسلم للصَّلْب طوعًا، من أجل خلاص البشر، وأنَّه، بالتالي، جنونٌ مُنقِذٌ فادٍ، فعاشه، على غرار معلّمه الإلهيّ، هو وإخوانه، جنونَ بشرٍ ينشدون التطويبات وسط الدموع والفاقة والاضطهاد؛ عاشوه نموذجًا أصيلاً لا يُحاكي أيًّا من النماذج الشائعة؛ ومع احتراسهم من التعرّض لتلك النماذج، أو من مهاجمتها، إلاَّ أنَّهم قوَّضوا شريعة كلّ نظامٍ في المجتمع والكنيسة يتعارض ومبادئ الإنجيل.

وبحَدْسه الصائب، وبصيرته الروحيَّة النيِّرة، رأى فرنسيسٍ، في الإنجيل، تجاوزًا لكلّ ثقافات البشر وحضاراتهم، وكلّ بناهم وإنجازاتهم، بل تجاوزًا للزّمن. فاتَّخذه كتابًا أوحد يُغنيه عن كلّ كتابٍ سواه، واتَّخذ من معرفته العلمَ الوحيد الذي يُغنيه عن كلّ علمٍ؛ ولم يخجل، يومًا، من وصف ذاته بأنَّه «جاهلٌ» لكلّ ما هو غير الإنجيل؛ وهو، وإن لم يزدرِ العلم عند الآخرين، إلاَّ أنّه لم يبتغِ لنفسه ولإخوته علمًا سوى معرفة الإنجيل، فهو، وحده، «روحٌ وحياةٌ»، وهو، وحده، غذاءُ ذهنه، ونورُ روحه، ومرجعه الأوحد لتسديد سلوكه، والدستور الذي لا تعلو سلطةٌ على سلطته، ولا تزحزحه، عن وصاياه وشرائعه، نصيحةٌ بشريّةٌ، ولو هي صدرت عن أرفع مقامٍ كنسيٍّ.

وفرنسيس، بانتهاجه البساطة والفقر بملء مدلولهما الإنجيليّ، من غير تحرُّجٍ ولا وَجَلٍ، فضح انحراف فئةٍ كبيرةٍ من المسؤولين الكنسيّين عن جادَّة مؤسّس الكنيسة، وإزراءهم بإنجيله؛ وأثبت أنَّ الإنجيل يسمو فوق كلّ مؤسَّسةٍ، ويجب أن يظلّ المرجع الأعلى للكنيسة، ولكلّ مسيحيٍّ.

ولقد قاوم فرنسيس ميلاً وبيلاً لدى بعض رجال الدين إلى الاقتصار على تفسير بعض عبارات الإنجيل، غير عابئين بالغوص في معانيها؛ وقد كتب، في أحد إرشاداته، بهذا الشأن: «الحرف يقتل أولئك الذين يقف فضولهم عند ألفاظ النصّ، والذين لا يبتغون

رهبان في أثناء الصلاة

إلاّ إظهار أنّهم أوسع من الآخرين عِلمًا... الحرف يقتل رجال الدين الذين يأبَوْن التعمّق في روح الكتاب المقدّس، ويؤثرون الاقتصار على معرفة الألفاظ وتفسيرها؛ وبالمقابل يُحيي روح الكتاب المقدَّس أولئك الذين لا يعزون لذواتهم العلم الذي يمتلكونه أو يودُّون امتلاكه، ولكنّهم، بالكلام والمَثَل، يُسبّحون الربّ العليّ، مالك كلّ شيءٍ».

ولطالما أكَّد فرنسيس عُقْم اللاهوت الذي لا ينقلب، في صميم الحياة، عملاً روحيًّا خصبًا.

كان فرنسيس يُجلُّ الإنجيل أعظم إجلالٍ وأعمقه، فهو ليس كلام الله فحَسْب، بل إنّه، مع الإفخارستيّا، أحد مظاهر حضور المسيح الماديّ فيما بيننا. وكان يقدّس كل وَرَقةٍ أو قطعةِ رقٍّ دُوِّنتْ عليها عبارةٌ من عباراته، بل حرفٌ من حروفه، ويُحلُّها في أسمى مكانٍ. وفي عهدٍ لم تكن المطابع قد عمَّمت الإنجيل، كان يستنسخ منه كي يضعه في متناول أكبرعددٍ من إخوته. بيد أنَّ المكان الأمثل الذي اختزنه فيه، وأحاطه بأوفر إجلال، كان صدره وقلبه وذهنه، إذ كان لا يني يُمعن في نصوصه تأمُّلاً واستيعابًا، وفي تنفيذ مضامينها توغُّلاً، بحيث طَبَعت تلك النصوصُ تفكيرَه، وأُسلوبَه الكتابيّ، ونَفَسَه الشعريّ. كما أنَّ أمثال الإنجيل التي كان يسوع يستقيها من حقول الطبيعة الحيَّة، قد رسَّخت حبَّ فرنسيس للطبيعة، والخلائق جمعاء. وقد أكسبه التملّي من الإنجيل إغراقًا في معرفة ذاته، أفضت إلى التعمُّق في معرفة الله، كما مكَّنته من اكتناه رموز الكون، والإخاء الشامل، النابع من أُبوَّة الله الأوحد، والتوبة المتمثِّلة في العودة إلى منزل الآب، وفداء المسيح وفقره، وصليبه وقيامته.

وعندما أهاب بفرنسيس إخوتُه، في غروب حياته، إذ كانت الآلام تطحنه، أن يلتمس العزاء في التأمّل بالكتاب المقدَّس، أجاب: «إنّه لحسنٌ اللجوء إلى شهادة الكتب المقدّسة، ونشدان هداية ربّنا وإلهنا فيها؛ ولكنّني طالما غصت في تلك الكتب، بحيثُ ما عدتُ بحاجةٍ إلاَّ إلى اجترارها في التأمّل. ولم أعد في حاجةٍ إلى أيّ شيءٍ آخر، فأنا أعرف المسيح فقيرًا ومصلوبًا».

ولم يعرف فرنسيس يسوعَ بعقله فَحَسْب، بل بكلّ قلبه؛ وقد انقلبت معرفته له تمثُّلاً به، في وفاءٍ مطلَق، إلى أن ختم الله ذلك التشبُّه بسِمات صليب ابنه، في جسد فرنسيس، بعد أن كان قد رسَّخ الصليبَ في نفسه، وبات بوسع فرنسيس أن يقول مثل بولس: «تمثّلوا بي، كما أنا قد تمثَّلت بالمسيح يسوع».

لقد كان النصُّ الذي أشعل شرارة الإنجيل في نفس فرنسيس، هو نصّ إرسال يسوع لتلاميذه عُزَّلاً، مجرَّدين إلاَّ من الإيمان، لزفّ بُشرى الخلاص إلى العالم؛ وقد أدرك، منذ الوهلة الأولى، أنَّ على الإنجيل أن يكون، له ولإخوته، نموذجَ سلوك، وميدانَ رسالةٍ في آنٍ واحدٍ، ونشأ لديه الروح الإنجيليّ والروحُ الرسوليّ توأَمَيْن متعانقَيْن متمِّمًا أحدُهما الآخر، فعمل بالإنجيل، وعلَّمه، وكان له الثَّوابُ الأجزل.

لقد كان فرنسيس رَجُلَ الإنجيل حقًّا، يعيشه بعمقٍ، وينشر بُشراه باندفاعٍ، ولا يكرز بكلمةٍ منه لم يكن قد أحسن تمثُّلها، وتملّى من معانيها، وهيّأ لَها أن تتغلغل إلى أعماق روحه، وتفعل فيها فعل الخميرة في العجين. ومثلما فهم الإنجيل وعاشه بحرفيَّته وروحه، بشَّر به، أيضًا، بحرفيَّته وروحه، ببساطته وسموّه، بعذوبته وقسوته، من غير تأويلٍ ولا تزويقٍ.

وكان موقنًا أنَّ البُشرى لا بدَّ لها من النهوض على صداقةٍ صادقةٍ مجرَّدةٍ، خاليةٍ من كلّ تعالٍ، قائمةٍ على ثقةٍ راسخةٍ، واحترامٍ عميقٍ، فمن شاء أن يُبشِّر إنسانًا عليه أن يقول له: أنت، أيضًا، يُحبّك الله في يسوع، وعليه ألاَّ يقتصر على القول بل أن يوقن به حقًّا، لا بل أن يتخطّى اليقين إلى التصرّف مع ذلك الإنسان بحيث يجعله يشعر ويكتشف أنّ الخلاص قد حلّ فيه، وأنّ في داخله شيئًا أكبرَ وأنبلَ ممّا كان يظنّ، وبحيثُ يستيقظ إلى وعيٍ جديدٍ لذاته.

وقد حذَّر فرنسيس إخوتَه من الانتساب إلى هذه أو تلك من المدارس الكتابيَّة أو الكرازيّة، وأهاب بهم أن يكونوا تلاميذ الإنجيل فحسب، وألاَّ يكون تقدُّمهم في معرفة الحقيقة سوى نتيجةٍ لتقدّمهم في الطهر والبساطة والفقر، وألاَّ تكون كرازتهم سوى انعكاسٍ لعيشهم الإنجيل.

وكم قد آلمه، بعد أن ازدهرت أخويَّته، أن يرى الفتور يحلّ لدى فئةٍ من الإخوة الجُدُد، محلَّ حماس الرُّوَّاد الفرنسيسكانيّين في ممارسة الإنجيل. وكم قد تجرَّع غُصَصًا عندما اضطُرَّ، تحت ضغط الكردينال هوغولينو، إلى حذف مقاطع إنجيليَّةٍ مُسهبةٍ من نصّ قانون الأخويّة الأوّل، وكأنَّه، بحذفها، كان يقتطع كتَلاً من لحمه، وفَلذاتٍ من روحه!

ولا عَجب، بالتالي، إن اتَّسم وعظ فرنسيس وإخوانه بطابعٍ قشيبٍ، وطلاوةٍ محبَّبةٍ،

فهم، على خلاف واعظي عصرهم، لم يستخدموا اللغة اللاتينيّة، لغة الإكليروس والمُثقَّفين، بل استخدموا لغة الشعب، التي يفهمها بيُسر أكثر المستمعين أُمِّيَّةً، على نحو ما فعل يسوع عندما خاطب أهل الجليل؛ فالإنجيل ليس حِكْرًا على فئةٍ دون سواها، بل هو خميرةٌ مُهمَّتها إنضاج العجينة البشريَّة جمعاء، في كلّ مكانٍ وزَمنٍ؛ وقد تنكّب الواعظون الفرنسيسكانيّون عن العبارات المنمَّقة التي تُشوِّه سَنى الإنجيل، وتنال من بساطته الفريدة، وتُضعف قوَّة وقعه الفذّ، كما نأوا عن التأويلات والمماحكات، واكتفوا بالدعوة إلى التَّوبة والمحبَّة والمصالحة، مستسلمين لنفحات الروح، في بساطةٍ تسلَّلت إلى أغوار النفوس، وهزَّتها، وأحدثت فيها انقلاباتٍ جذريَّةً أحيانًا.

وقد أيقن فرنسيس أنَّ الكرازة بالإنجيل مرتبطةٌ بالمشاركة في آلام المسيح، وفي آلام الصغار والمرذولين في العالم؛ وبمشاركته الفعليّة تلك، أتاح للفقراء أن يُدركوا أنَّهم، هم أيضًا، الكنيسة؛ وما كان بوسعه أن يفعل ذلك لو لم يتحلَّ بالجرأة الإنجيليّة، وبحرِّيَّة الروح، وقد أثبت امتلاكهما إلى أبعد حدٍّ.

وامتدَّت تطلُّعاته الرسوليَّة إلى العالَم أجمع، وإلى البشر أجمعين، أيًّا كانوا وحيثُما وُجدوا، بلا استثناءٍ، فكان شعاره «لِنَجُبِ العالم» كارزين.

ولم يغْرُبْ عن باله أنَّ الوعظ ليس بمُكْنة إخوته جميعهم، ولكن بمُكنة جميعهم بل واجبٌ عليهم جميعًا أن يكونوا إنجيلاً حيًّا، وأن يعظوا بمثال سلوكهم، وقُدوة حياتهم وفعالهم؛ ولطالما أوصاهم «أن يعيشوا وسط العالم بحيث إنَّ كلَّ من يراهم أو يسمعهم يُمجِّد الآب السماويّ». كما أنَّه لم يكفَّ عن دعوتهم إلى الصلاة من أجل خلاص الخطأة، ومن أجل إحلال السلام، ملكوت الله على الأرض، فالصلاة الصامتة خير دعمٍ للواعظين، والوسيلة المُثلى لإقالة عثار الخاطئين.

وكان يُحرّض إخوته قائلاً: «فلنُظهر للعالم، رجالاً ونساءً، بكلامنا ومُثُلنا، أنَّ عليهم أن يتوبوا عن خطاياهم، ولا سيَّمَا خطيئة الحقد والشقاق التي تجعل السلام مستحيلاً». وخير دليلٍ يُقدّمونه مصداقًا على دعوتهم تلك، هو الأُخوّة الصادقة التي تنتظمهم، وتحكم علاقاتهم؛ وفي هذا السياق، كان فرنسيس يُؤكّد: «العيش عيشَ إخوةٍ ليس مُستحيلاً، بل هو خيارُنا. فرغم نقاط التباين فيما بيننا، نحن إخوةٌ، لأنَّ يسوع المسيح أعطى بعضَنا لبعضٍ إخوةً». وفي الواقع كانت المحبَّةُ الحارّة، الخالصة، المتبادَلة بين إخوة فرنسيس تُثبت للآخَرين أنَّهم أبناء الإنجيل، مثلما هي كانت دعوةً إلى السلام، والإخاء

الشامل، وبُرهانًا على قدرات الإنجيل الخارقة، وتأكيدًا أنّ باستطاعة البشر أجمعين العيشَ وفق الإنجيل، وعلى نقيض حياة العالَم الزائفة.

وفرنسيس نفسه كان يعظ «بكلّ كيانه»، على حدّ قول شيلانو، الذي يضيف: «غالبًا ما اتَّفق له أن وعظ أمام آلاف المستمعين، ولكنّه كان يفعل ذلك، في مثل الثقة الساجية التي كان يحافظ عليها، في حديثٍ له مع رفاقه. فالجمهور الأكبر عددًا، كان يساوي في نظره شخصًا واحدًا، ولكنَّه كان يُبدي من الاندفاع في مخاطبة شخصٍ واحدٍ، مثلما يبدي في مخاطبة جمهورٍ غفيرٍ».

ولفرط إحساسه بمسؤوليّة الرسالة، كان شديد اليقظة، مُفرطًا في القسوة على ذاته، لئلاّ يقع في وَهَنٍ يُشكّك الآخرين، وكأنّي به لسان حال بولس الرسول القائل: «إنَّما أقمع جسدي وأستعبده لئلاّ أصير أنا نفسي مرذولاً، بعدما وعظتُ غيري».

وفي مدرسة الإنجيل الذي أمعن في ممارسته تأمُّلاً وعملاً، أضحى فرنسيس حجّةً ومرجعًا للكثير من مُثُله، ولا سيَّما الصليب والفقر والفرح.

«الصليب أغزر الكتب التي يمكن مطالعتها علمًا. ومن لا يطَّلع عليه جاهلٌ، ولو هو أحاط بكلِّ ما في الأرض من كتبٍ. وليس عالِمًا حقيقيًّا إلاّ من أحبّ الصليب واتَّخذه مرجعًا وأمعن في دراسته. إنّه كتابٌ مُرٌّ، ولكن ليس من سعادةٍ أكبر من الغرق في تلك المرارة. وكلَّما أطال المرء التتلمذ عليه، ازداد به تعلُّقًا. معه يمرّ الوقت بلا سأمٍ، وبه يدرك المرء كلّ ما يودّ معرفته، ولكنّه لا يرتوي أبدً ممّا يتذوّق فيه...».

«التألُّم، مع الحبّ، ليس ألمًا».

(خوري آرس)

سمات الصليب

من شفتي المصلوب تلقّى فرنسيس مهامّ رسالته؛ ومن مثال المصلوب استوحى منهج سلوكه، فطبع الصليبُ مسيرته، وانحفرت معانيه في أغوار ذاته، قبل أن ترتسم على أعضاء جسده، ختمًا إلهيًّا خالدًا.

ومذ انغرس الصلب في جلجلة نفسه، تحوَّل تحوُّلاً جذريًّا، فغدا صوفيّ الصليب، وعلى ضوئه بات يرى لكلّ شيءٍ وجهًا قشيبًا. في معيار الصليب تبدَّت له حياته السابقة، البعيدة عن الله، مُغرقةً في البشاعة، فبكاها بكلّ ما في مآقيه من دموعٍ، وتاب عنها توبةً صادقةً، عبَّر عنها بتقشُّفاتٍ هدَّت جسده؛ وتوغَّل في إماتة ذاته، تكفيرًا عن ماضيه، ومشاركةً ليسوع في آلام صلبه المستمرّة حتّى نهاية العالمِ، إذ كان يتألَّم بعمقٍ، لكلّ ما يسبّب للمسيح ألمًا؛ وكانت مشاركته في آلام يسوع حسِّيَّةً وعاطفيَّةً معًا، فأهّلته ليشارك، أيضًا، في فداء البشر، وإنقاذ الخطأة.

وفي سبيل التشبُّه بالمصلوب، مضى فرنسيس بعيدًا على دروب التقشُّف، وصَلْب الذات، بحيث يعسر فهم كيف استطاع ذلك الإنسان الذي يفيض عطفًا على أصغر المخلوقات وأتفهها، أن يكون على ذلك القدر من القسوة على نفسه. وفي هذا السياق كتب القدّيس بوناڤنتورا: «كان (فرنسيس) يقاوم شهواته بسلوكٍ من القسوة، بحيثُ كان يكاد لا يمنح طبيعته رَمَقها الضروريّ. حياتُه كلُّها، كان يراها تمرينًا على التوبة...». والتوبة، عنده، هي التحوّل إلى إنسانٍ آخر، إنسانِ الملكوت، وهي القضاء على

انفلات الأهواء، وتوجيه طاقاتها الخلاّقة نحو القداسة، ومزيدٍ من الإنسانيّة. وفرنسيس كان يرمي من تقشُّفاته إلى جعل جسده أكثر أمانةً وانقطاعًا لخدمة الله. كان يعترف أنَّه ينبغي إعطاء الجسد حقَّه وحاجته للبقاء، كي يتمكَّن من ممارسة الصلاة من غير مُثبّطٍ؛ أمّا إذا نال الجسد قسطَه، وظلَّ يجمح، فلا بدَّ من رفسه بالمهماز، وكبحه باللجام. ومن ثَمَّ فالتقشُّفات ذريعةٌ للسيطرة على الذات وللانضباط، اللَّذَيْن لا نضوج للشخصيَّة في معزلٍ عنهما، وللتناغم التامّ بين الروح والجسد، بين الرغبة في التصعيد، وإخضاع الحواسّ. ولمّا سأله أحد الإخوة إلى أيّ مدًى كان جسده خاضعًا له، في حياته، استطاع أن يؤدّي له هذه الشهادة: «لقد كان، أبدًا، مطيعًا، يجود بذاته، من غير تحفُّظٍ، لا بل قد هرع دائمًا، إن أمكن القول، مُطرِقَ الرأس، لتنفيذ ما كنتُ آمره به، ولم يتجنَّب أيّ عملٍ، ولم يتحاشَ عن أيّ تعبٍ في هذا السبيل؛ لقد ساد، دائمًا، بيني وبينه، تفاهمٌ تامٌّ، من أجل خدمة سيّدنا يسوع المسيح، ولم يُثِرْ، قطُّ، اعتراضًا».

بالتوبة والتقشُّف، شرع فرنسيس يُقِلّ، ظاهريًّا، الصليبَ الذي كان يحمله في قلبه؛ وبصَلْبه ذاتَه، على غرار يسوع، كَبَح جماح الشهوات التي تثمر الخطيئة، وتُسبِّبُ صَلْبَ يسوع المستمرّ. وَلَجَمَ الجسدَ الذي اعتبره ألدّ عدوٍّ للإنسان، فاكتسب لروحه الحرِّيَّة التي مكَّنتْه من الانطلاق في دروب الربّ من غير عائقٍ، حتّى إنَّه اضطُرَّ، في غروب حياته، إلى استغفار «الأخ الحمار» – هكذا كان يدعو جسده – عمَّا أوسعه من عنفٍ ومهانةٍ، ولكنَّه كان، آنذاك، قد أحكم السيطرة على ذاته، وطهَّر جسده حتّى جعل منه هيكلاً مقدّسًا للروح وحده، وبلغ ذلك الانسجام المُطلَق، في الحياة الروحيّة، حيث يتعاون الجسد والروح، في تناغمٍ تامٍّ، يؤَهّل للتوغّل في مراقي الصوفيّة.

مذ علقت عينا فرنسيس بالصليب، وغاصتا في أسراره، ظلَّتا شاخصتَيْن إليه، تستمدّان منه النور والهداية والقوّة، وبات التأمُّل في آلام يسوع شاغله ليلَ نهار. وعلى ضوء الصليب، استبان بطلان مفاهيم العالم ومقاييسه، وزيف ملذّاته ومسرّاته، فهجرها جميعًا، بعد أن أفعم نفسَه مرارةً كلُّ ما كان قد غَرَفَه منها، وغمرته عذوبة حياة التضحية والبذل المستوحاة من مثال الجلجلة؛ فتجرَّد من كلّ شيءٍ، حتّى من ذاته وإرادته، وسكن جراحَ المصلوب، متلاشيًا فيها، فتصاعدت من صميم أعماقه تلك الصرخة المؤثّرة: «أرجوك، ربّي، أن تجعل قوّة حبّك الحارقة العذبة، تستولي على نفسي كلّها، وتنتزعها من كلّ ما هو تحت السماء، كي أموت حبًّا بحبّك، مثلما تنازلتَ ومتَّ حبًّا بحبّي!».

غير أنَّ هجر فرنسيس للعالَم ومفاهيمه، لم يسجنه في عزلةٍ أنانيّةٍ عن إخوته البشر، ولم يُقصِه عنهم، فالصَّليب هو الرمز الأسمى للمحبّة والبذل. وقد أسهم تأثُّر فرنسيس لخُطى الصليب، في دفعه نحو إخوته البشر، وربطه بهم بمِلاطٍ من الحبّ السامي، الصافي، السخيّ، المِبذال. لقد تعلّم من الصليب أنَّ العطاء ليس حفنة نقودٍ تُقْذَف في كفِّ فقيرٍ، بل هو تحرُّك الأحشاء، وانقضاضٌ، بفيضٍ من العطف والحَدَب، على المعوزين والمنبوذين، العطاش والجياع إلى الحبّ والاحترام. وهكذا، بحافزٍ من الصليب، وبوحيٍ منه، قَبَّل فرنسيسُ الأبرصَ قُبلةً حرَّرته، وبها انضوى في صفوف المقهورين والمرذولين الذين صُلب يسوع كي يجعلهم طلائع سكّان الملكوت. وبانفتاح ذهن فرنسيس على أسرار الصليب أُشرع قلبُه على سرّ رحمة الله للعالَم أجمعين، ووُسِمت نفسه بطابعٍ من البذل والسخاء لا يُمحى.

ومن شَفَتَي المصلوب نهل فرنسيس الروح الذي يبعث في الإنسان الحياة. فالمصلوب الذي اكتشفه ليس إنسانًا مهزومًا، بل هو إنسانٌ انتصر بصليبه على الموت، وحطَّم جميع قواه؛ وقد غمرت تلك الرؤية نفسَه تفاؤلاً وعزيمةً وفرحًا، فرحًا يكتمل بصلب الذات حبًّا بيسوع وبالإخوة البشر.

وقد ظلّ الصليب لفرنسيس، طوال مسيرته، النبراسَ والهادي. وقد جعل فرنسيس من الصليب خاتَمه الرسميّ، ولقَّن إخوته «كتاب صليب يسوع»، ووضع صلاةً خاصَّةً بالآلام دأب على تلاوتها ولقَّنها للأخت كيارا التي تبنَّتها في أخويَّتها وعمَّمتها؛ وعندما أمسى، في أيَّامه الأخيرة، عاجزًا عن القراءة، اقتصر على الإمعان في التأمّل في أسرار الصليب. وكانت وصيَّته الأخيرة التمثُّل بالمسيح مصلوبًا.

وقد أَلِفَ إحاطة رمز الصليب بالتَّكريم أينما وجده، فحثَّ إخوته على الركوع، وتمجيد الربّ، حيثما رأَوا صليبًا؛ وكان حريصًا على إضاءة السُّرُج أمام الصلبان أينما كانت. فبعد أن كلَّمه صليب كنيسة القدّيس داميانُس، وأوكل إليه المهمّة الرفيعة، نقد خوري الكنيسة كلّ ما حوته جيوبه من مالٍ، كي يبتاع ما يكفي من زيتٍ لإبقاء السُّرُج مضاءةً أمام ذلك الصليب الذي قلب حياته. ومن بعدُ، لم يتردَّد في مجابهة أكثر المواقف حَرَجًا ومهانةً في سبيل استعطاء الزيت لهذا الغرض عينه. ولقد تحقَّقت رغبته فوق ما تمنَّى، عندما جاءت كيارا «المضيئة»، فأشعلت ذاتها أمام صليب كنيسة القدّيس داميانُس، سراجًا حيًّا.

وبالمقابل، كان الصليب يُنير درب فرنسيس، ويدفعه أكثر فأكثر في مراقي القداسة؛ وقد أكَّد الربُّ للملأ، بعد ثمانية عشر عامًا، وفاء فرنسيس المطلق للصليب، وعيشه وفقًا لمعانيه، عندما حفر سمات صليبه في جسده، فجعل منه صليبًا حيًّا، وأيّةُ شهادةٍ أصدق من شهادة الربّ، وأعظم؟

تلك السمات لم تنتزع فرنسيس من إنسانيّته، بل عمَّقت فيه صفات الإنسانيّة، على غرار المسيح الإله المتأنّس الذي أكّد قبوله الإنسانيّة بإقباله على الصَّلب راضيًا.

ولئن كانت قَسَمات وجه الإنسان، وشكل يدَيْه، تدلّ، في غروب حياته، على مسيرة وجوده، فقد أفصحت سِماتُ الصليب في جسد فرنسيس عن حقيقة شخصيَّته، إنسانًا اكتملت إنسانيَّته في الصليب، وفي التشبُّه بالمصلوب.

أحد الكهوف

«من يبحث عن الله، ويُنفق، في هذا السبيل، كلّ شيءٍ ما عدا الفلس الأخير، فهو مُغرقٌ في الحمق: فبالفلس الأخير يمكن شراء الله».

(قولٌ صينيّ)

«وفي كلّ شيءٍ لا أرى سوى أقذارٍ، كي أربح المسيح»

(فيلبي ٣: ٨)

«الفقير الصغير»

الفقر هو الصفة الأكثر التصاقًا بفرنسيس، والأكثر دلالةً عليه، بحيث غدا لَقَبُ «الفقير الصغير» مرادفًا للأسّيزيّ.

والفقر الذي مارسه فرنسيس حتّى أمسى يُعرَف به، هو الفقر الإنجيليّ الطوعيّ، المختار، بإرادةٍ واعيةٍ، نهجَ حياةٍ، تمثُّلاً بالفقير الأسمى يسوع، والمُعاش بكلّ قسوته وتجرُّده، وما يؤتيه من فرحٍ وتحرّرٍ.

فهناك فقرٌ مفروضٌ على فئةٍ عريضةٍ من بني البشر، من جرّاء خَلَلٍ في النظام الاجتماعيّ، وأنانيَّةٍ قاسيةٍ لدى أصحاب الثروة والحظوة وأولي السلطان؛ ومثل هذا الفقر القسريّ، إنّما هو حطٌّ لكرامة الإنسان، ومصدر بؤسٍ وغضبٍ ونقمةٍ ويأسٍ؛ وهو يبدو وكأنَّه لعنة الوجود، وخطأٌ في الخليقة فادحٌ، وفوضى ناشبةٌ بالبشر تسبّب عذابهم، وإغفالٌ من الله.

ولكن، ثَمَّة، بالمقابل، فقرٌ طوعيٌّ، مستوحًى من وعد يسوع: «طوبى للفقراء بالروح، فإنّ لهم ملكوت السموات»، فقرٌ يختاره البعض بإرادةٍ واعيةٍ، في محاولةٍ لدرء الفقر المفروض على الضُّعفاء والمحرومين، وعاثري الحظّ؛ ومثل هذا الفقر يُثبت أنَّ اللَّعنة ليست في الفاقة، بل في الثروة والسيطرة والاستغلال، وفي الفائض المتراكم لدى الأغنياء الذي يُقسّي قلوبَهم ويُسمِّمها، ويبرهن أنَّ الفقر ليس خطأً في الخليقة، إذ إنَّه يضع الإنسان في مواجهة الأسرار، ويحمله على البحث عن الله، كما يبرهن على أنَّ الفقر ليس إغفال الله للإنسان، بل الطريقة المُثْلى، وإن هي كانت الأقسى، كي يستخرج من أعماقه الحبّ المجّانيّ، والإيمان العاري الصادق.

مثل هذا الفقر الطوعيّ هو موطن الإلهيّ المُفضَّل، والمدرسة العليا للحبّ الحقّ، والدافع الأقوى على الرأفة والعطف، والذريعة الفضلى للقاء الربّ، والطريق الأوفر أمنًا لاجتياز الوجود.

والذين يختارون هذا الفقر ويمارسونه، لا يخامرهم خوفٌ ولا حزنٌ، ولا غضبٌ، ولا نقمةٌ ولا يأسٌ، بل إنَّ فقرهم ثوبٌ جميلٌ يتسربلون به، وإيمانٌ مُشرِقٌ، بأنَّ الله يقودهم ويُساندهم بحضوره، فيجعلهم قادرين على الحبّ رغم الفاقة، صابرين على المصائب، أغنياء بالرجاء، أقوياء في مواجهة ظروف الزمان، سُعَداء بمشاهدتهم الربَّ حاضرًا كلَّ يومٍ في حياتهم، ساهرًا عليهم سَهَرَه على طيور السماء التي لا أهراء لها، يطعمهم بيديه فينشيهم طَرَبًا، ويُفعم نفوسهم جَذَلاً. فالله يُعنى بمن لا يُعنون بذواتهم.

ذلكم هو الفقر الذي اختاره فرنسيس، وعاشه على أكمل وجهٍ؛ اختاره امتثالاً لنصيحة الإنجيل، ثُمَّ توغَّل بالمسيح، الفقير الأوَّل والأمثل، فاستأهل قول الطوباويَّة أنجيلا دي فولينيو فيه: «لقد كان هو الفقر عينه، في الباطن وفي الظاهر»، وقد وصفه القدّيس بوناڤانتورا بأنَّه «الفقير الأكثر مسيحيَّةً». وبوسعنا أن نُضيف أنَّه أكثر المسيحيّين فقرًا، فقد عاش الفقر، بحذافيره، وإلى أقصى حدوده، فتسنّى له اكتشاف سنى أسراره، وغنى كنوزه، وبات صوفيَّ الفقر بلا منازِعٍ.

يسوع قال للشابّ الغنيّ: «بع كلَّ شيءٍ، وتعالَ اتبعني». إنّ عبارة «اتبعني» هذه هي التي تنير الفقر وتُسوِّغه. وفرنسيس، الشابّ الغنيّ، زهرة المجتمع البورجوازيّ، قد سمع نداء يسوع، فباع كلّ شيءٍ، وتخلَّى عن الثروة والعيش الرغيد، والمستقبل الزاهر الواعد، وتعرَّى عريًا تامًّا، مستسلمًا للفاقة والحرمان، والتشرُّد والتسوّل، كي يكون مؤهَّلاً لاتّباع يسوع. وهكذا وجد ذلك الغنيُّ خلاصه في الفقر، وما كان يبدو لدى البشر مستحيلاً جعله الربُّ ممكنًا، فعَبَر الجملُ في ثقب الإبرة.

ومذ اقترن فرنسيس بالفقر، انعتق من كلّ خوفٍ، وتحرَّرت نفسه من كلّ قيدٍ، وعاش الحرِّيَّة الحقَّة، حرِّيَّة أبناء الله العظمى.

لقد كان هاجسه الالتصاق بيسوع، فهجر كلَّ امتلاكٍ من شأنه تجميده عند ما يمتلك، وبذلك اكتشف الفقر وعَلِقَ به. وكان توَّاقًا إلى اقتفاء آثار المصلوب، فتعرّى من كلّ شيءٍ لمعانقة الصليب، في تجرُّدٍ مطلَقٍ. لقد تخلّى عن كلّ شيءٍ، كي يمتلك المسيح وحدَه، وبه يَغنى عن كلّ ما سواه.

لم يعُدْ يخيفه عري الجسد، بل بات يرعبه ثوبٌ نفيسٌ يستر نفسًا عاريةً.

ويسوع، الذي امتثل فرنسيس لنصيحته باعتناقه الفقر، قد كشف له أنّ الفقير، على الأرض، هو ممثّله الحقيقيّ، وهو الذي يحقّق حضوره كقاضٍ يأمر بممارسة المحبّة والعدل حيال المحرومين وذوي الحاجة: العراة، والجياع، والعطاش، والمهجَّرين، والمسجونين. فالفقير في نظر المسيح، هو «قاضي السماء، وحارس أبوابها»، وهو مُؤَهَّل للشفاعة لدى الديّان الأبديّ، كما أنَّهُ امتدادٌ تاريخيّ لتجسُّد يسوع، الخادم المتألّم.

واتّباع يسوع قد دفع بفرنسيس إلى وسط الفقراء والمنبوذين، إذ سرعان ما تبيَّن أنّ خدمة الفقير هي خدمة المسيح نفسه. وقد أكسبه اكتشافه للتلازم والتضامن بين يسوع والفقراء رؤيةً جليَّةً، وغنًى روحيًّا ثرًّا، إذ زاده تعاطفه مع الفقراء غَوْصًا في أسرار الصليب، مثلما آزره المصلوب على تعميق معرفته للمصلوبين من البشر. الإنجيل دفعه على دروب الفقر، في حين أنَّ ممارسة الفقر أشرعت له أبواب الإنجيل وأسراره، فبات يقرأ الإنجيل، وكلَّ واقعٍ، من خلال الفقراء.

لم يكن، إذن، فقر فرنسيس هَدَفًا في ذاته، بل وسيلةً نحو قيمةٍ لا تُثمَّن. حافزه كان رغبةً صادقةً في التشبّه، إلى أقصى مدًى، بالمسيح الفقير، وبالأكثر فقرًا وألَمًا، وهدفه الاتّحاد الأخويّ بالأَصغر والأدنى، وخصوصًا بالخادم المتألّم، يسوع المصلوب. ومذّاك غدا الفقر، في نظره، الفضيلة الملكيّة الأوفر سموًّا، إذ إنَّها تألَّقت أَسنى تألُّقٍ لدى ملكٍ طفلٍ، وملكةٍ عذراء. لقد غدت العذراء «سيّدته» الأولى، والفقر «سيّدته» الثانية. ولطالما أعلن: «عندما تشاهد فقيرًا، فإنَّ عينَيْك تبصران صورة المسيح وأمّه». أمّا شيلانو فقد شهد: «في كلِّ بؤسٍ يصادفه، كان يستشفّ المسيح متألِّمًا، وفي جميع الفقراء، كان يتعرّف ابن العذراء الذي عاش فقيرًا. كان يحمل، في قلبه، عاريًا، ذاك الذي حملته، عاريًا، بين ذراعيها».

وقد استفسر فرنسيسَ إخوتُه، يومًا، عن الفضيلة المُثْلى الكفيلة بتقريبهم من يسوع، فأجابهم: «اعلموا، إخوتي، أنَّ الفقر هو طريق الخلاص المفضّل، وأنَّ ميزاته لا تُحصى، ولكنّ قليلين هم الذين يدركونه». وكم كان مصيبًا وثاقب البصيرة، في نُصحه هذا! فالفقر هو أولى التطويبات بلا منازعٍ، وفي موكبه ينتظم التواضع والمحبّة، وصفاء القلب وسائر الفضائل الأساسيّة.

وما لبث أن غدا الفقر لدى فرنسيس هو حجر زاوية رسالته، وأساس قداسته، وركيزة الكمال الإنجيليّ، وكنز الملكوت الدفين الذي لا بدّ من اكتشافه والحرص عليه.

صحيحٌ أنَّ فرنسيس، منذ طراوة عوده، قد تميَّز بعطفه على الفقراء، فكان جَوادًا عليهم، كريمًا. بيد أنَّه، عندما لبّى دعوة الإنجيل اتَّضح له أنَّ ذلك غير كافٍ، فعاش فقيرًا حقًّا، بين ظهراني فقراء، مثل الفقراء، بل أكثر من أشدّهم فقرًا، ولم يشأ أن يتبع سوى المسيح المتجرِّد العاري، فقضى على جميع رغباته خلا رغبة الفقر الذي مضى في ممارسته إلى أقصى شوط، بحيث بات يذوب خزيًا إن هو صادف إنسانًا أفقر منه.

مباشرته حياة الفقر والتجرُّد بدأت يوم استعاض، أمام أسقف أسّيزي، وجمهورٍ حاشدٍ، عن پييترو بيرناردوني، بأبيه السماويّ، وعن ثيابه الفاخرة بأسمالٍ تكاد لا تستر عريه، وعن الاستقرار في منزلٍ وثيرٍ بالضرب في صحراء العالم، في التزامٍ ثابتٍ، ووفاءٍ شجاعٍ لا تراجع عنهما، وفي حميَّةٍ تجعل سيره جريًا، وفي سِحرٍ ما انفكّ يجلب إليه، ويؤلّب حوله، عوضًا عن العابثين طالبي المتعة، تائبين مرتدّين، يتجرّدون من كلّ شيءٍ للسير معه على دروب الفقر.

حينذاك لم تعُدْ دوافعه نابعةً من عالم البشر، بل من لقاء إله الحبّ بالذات، من حضوره في حياته، ومن مشاركته، ممَّا صار يضاعف اندفاعه بلا حدودٍ؛ فبات يسعى بحثًا عن الفقر مثلما يلهث آخرون في بحثهم المحموم عن المال، وتحفزه رغبةٌ ملتهبةٌ في التمثّل بالمصلوب، ممَّا يدفعه في دروب التوبة والتضحيات والتقشُّف والصليب.

ومن المدهش أنَّ تلك الدروب قد أفضت به إلى التحرّر، وبالتالي إلى الفرح.

لقد تقمَّص فرنسيس وضع الفقير أصدق تقمُّص وأروعه، وعاش فقيرًا بين فقراء وقف ذاته على خدمتهم، فلامسهم، وقبَّلهم، وآكلهم في طبقٍ واحدٍ، وعقد معهم علاقاتٍ حسّيّةً، ودِّيَّةً، صافيةً، تلك العلاقات التي تؤنسن الفقر، وتعيد للفقراء الكرامة التي يحاول الأغنياء استلابها واغتيالها.

وقد عاش الفقر المادّيّ تجرُّدًا مُطلقًا من كلّ امتلاكٍ، ومالٍ، ومقرٍّ، وضمانٍ للغد، غريبًا في الأرض مرتحلاً، لا يحمل من متاع الدنيا شيئًا، سوى ثوبٍ خَلِقٍ، انتشرت فيه الثقوب والرُّقَع، ولا يتورّع عن اقتطاع أجزاء منه كي يهبها من هم أشدّ منه عريًا؛ أمّا المعاطف التي يجود عليه بها إخوته وخلاّنه، فرغم حاجته إليها لوقاية جسده العليل

من لسعات البرد وأوصابه، فهي إنَّما كانت تعبر فوق كتفَيْه عبورًا سريعًا كي تستقرَّ على أكتاف من يظنُّهم أشدَّ منه حاجةً إليها.

أَوَدُه كان كِسَر خبزٍ من حصيلة التسوّل، وماءً قراحًا؛ وعلى غرار ابن البشر لم يكن له مكانٌ يسند إليه رأسه، فيستريح على قارعات الطريق، ويَطْعَمُ عند أيّ نبعٍ أو جدولٍ، ويُلقي بجسده المكدود أينما تيسَّر له، تحت سماء الله. وإذا ما استقرّ لحينٍ، ففي كوخٍ من طينٍ وأغصانٍ جافّةٍ، حيث يفترش اليابسة، ويتوسّد حجرًا أو حطبةً، ولا يتردَّد في هجر ذلك المقرّ المؤقّت الزريّ، إذا ما رغب أيُّ طارقٍ أو دخيلٍ في الحلول فيه، رافضًا بإباءٍ أيّ مكانٍ خاصًّا به. فقد جاءه أحد الإخوة، يومًا، قائلاً: «كنت في صومعتك». فاستنكر القدّيس ذلك القول بحدّةٍ، وأعلن: «بما أنَّك تدعوها صومعتي، فلن أقيم فيها بعد اليوم أبدًا، بل ستكون لسواي، فأنا لست أملك أيَّ شيءٍ يخصُّني».

وفي مناسبةٍ أُخرى، رغب إخوةٌ يقيمون في أحد الأديرة تكريم أبيهم فرنسيس، فشيَّدوا له صومعةً أنيقةً، من خشبٍ أبدع أحدهم في زخرفته، على نحو ما يُبدع الإيطاليّون الأعمال الفنّيَّة؛ فرفض، بعنادٍ، المكوث فيها، وطالب الإخوة بإقامة خصٍّ من أغصان شجرٍ، يأوي إليه كما يليق بمن اقترن بالفقر. ولم يكن ذلك الموقف ناجمًا عن تزمّتٍ، بل وليد حرص فرنسيس على ألاَّ يُصيب من طعامٍ أو لباسٍ أو سَكَنٍ قسطًا أوفى ممّا يصيبه أكثر الفقراء بؤسًا ومتربةً؛ وإذ كان يعلم أنَّ، ثمَّةَ، من لم يتهيَّأ لهم سوى مساكن هشّةٍ، معرَّضةٍ لعبث الأنواء، لا تقيهم لا من قيظِ حرٍّ، ولا من قرِّ شتاءٍ، ولا من مطرٍ وريحٍ، فأنَّى له أن يهنأ في صومعةٍ آمنةٍ، أنيقةٍ!

لقد كان يعُدّ كلَّ امتلاكٍ يفيض عن حاجات الإنسان الأساسيَّة ضربًا من السرقة لما هو ملكٌ للآخرين، لا بدّ من إرجاعه إليهم؛ ويعدّ كلّ استخدامٍ لخيراتٍ لا يملك مثلَها أشدُّ الناس فقرًا اغتصابًا لحقوقهم ينبغي الرجوع عنه؛ وكلّ احتفاظٍ بما يحتاج إليه الآخَرون أكثر من احتياجه إليه نوعًا من الاعتداء يتحتَّم إصلاحه والاستغفار عنه. بل كان يعتبر حتّى خبزه اليوميّ ولباسه الزريّ ملكًا لمن هم أفقر منه فيتخلّى لهم عنهما.

انطلاقًا من مثل هذه القناعات، مارس فرنسيس الفقر، وممارسته الصادقة البطوليّة هذه كشفت له أنّ الفقر الحقّ ليس ظاهريًّا فحسب، فيسوع قال: «طوبى للمساكين بالروح». فلا مندوحة، إذن، للفقر، كي يكتمل، من أن يتغلغل إلى أعماق الروح،

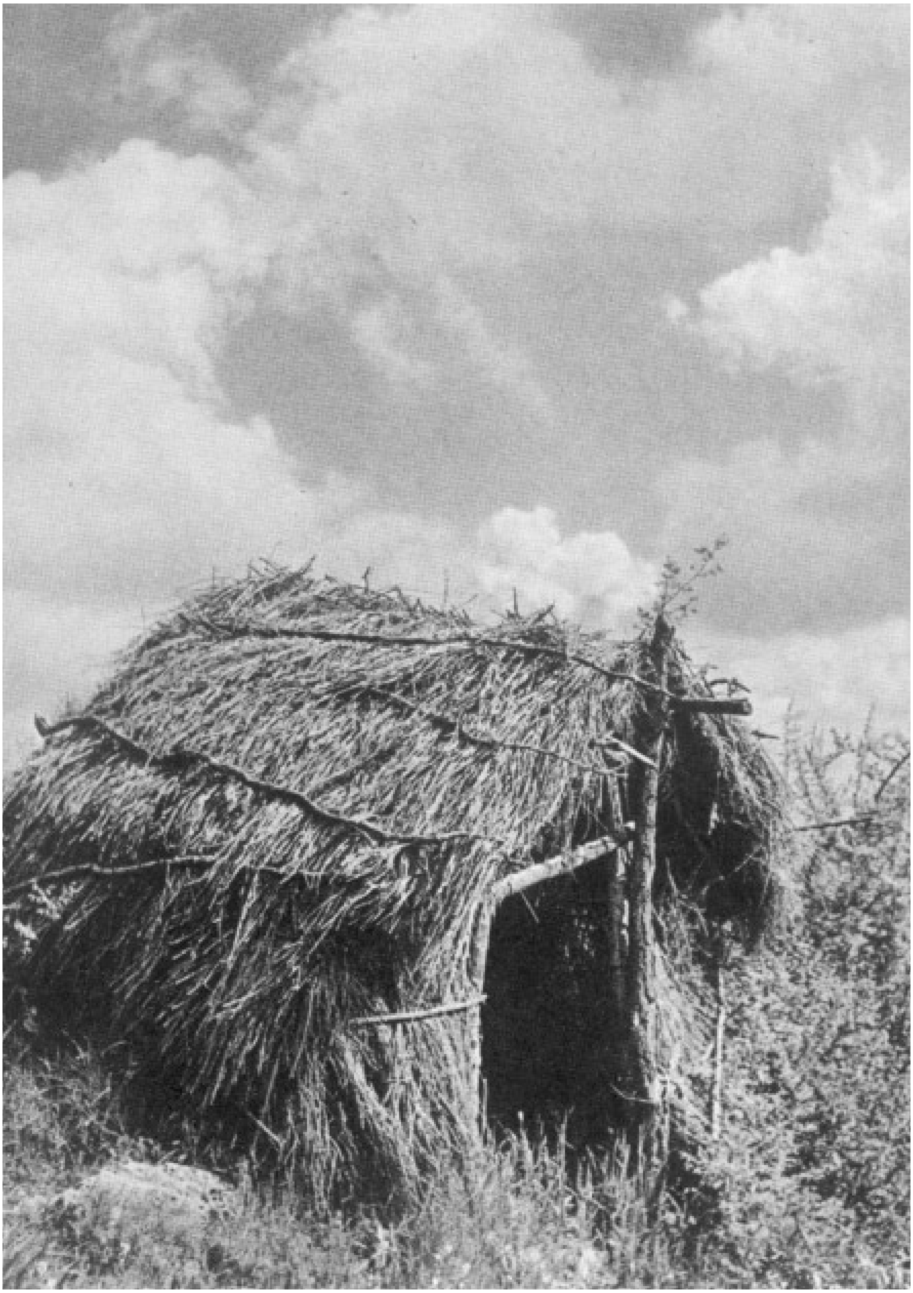

خصّ من أغصان الشجر كان القدّيس فرنسيس يأوي إلى مثله

ويَسِم السرائر والتطلُّعات، ويصبح فقر الرغبة والإرادة، والفكر والروح، فضلاً عن كونه فقر المال والتملّك.

فما جدوى التخلّي عن مالٍ أو رفاه، لا يزال المرء راغبًا فيهما، توّاقًا إليهما؟ أليس أشبه بواجهةٍ حسنة المنظر تُخفي بناءً خَرِبًا؟ ومن ثَمَّ، فقد كان فرنسيس ينظر إلى المال نِظرةَ ازدراءٍ، ولا يُقيم له من الوزن أكثر ممّا يُقيم لتراب الطرقات؛ لا بل إنَّه كان يرى في المال مقرًّا للشيطان، وذكرى ليهوذا، حامل الكيس، الذي باع معلّمه بثلاثين من الفضّة. وما كان يُطيق أيَّ مظهرٍ من مظاهر البذخ أو البحبوحة يُذكِّره بما أَلِفه في مطلع شبابه، عندما كان لا يزال «عائشًا في الخطيئة» على حدّ تعبيره، ولا هو كان يتذوَّق للراحة طعمًا إلاَّ في ما هو مُغرِقٌ في التقشُّف والعري.

والفقر، عنده، أيضًا، تجرُّدٌ عن حبّ الذات، وعن كلّ أنانيَّةٍ. وقد كتب، في هذا السياق: «هنيئًا لمن يمتلكون روح الفقر، فملكوت الله لهم. هناك كثيرون شَغِفون بالصلوات والطقوس، ويُخضعون أجسادهم للكثير من الإماتات والحرمان؛ ولكنَّهم إزاء كلمةٍ تبدو لهم مهينةً، أو أيّ مساسٍ بأناهم العزيز، أو عند انتزاع أيّ شيءٍ يخصُّهم، يثورون، ويضطربون، ويفقدون سكينة النفس. هؤلاء يفتقرون إلى روح الفقر الحقّ؛ فالذي يمتلك روح الفقر الحقّ، يُبغض ذاته، ويحبّ من يُذلّه»، وهكذا يصبح الفقر صِنوًا للتواضع، ومنبعًا له.

ولقد أدرك فرنسيس أنَّ الفقر الحقّ هو الاستسلام المُطلَق لمشيئة الربّ، والتجرّد عن الإرادة الخاصّة. وقد انتهى فرنسيس إلى مرحلةٍ لم يعد فيها لما يريده أيُّ وزنٍ لديه، أو بالأحرى بات كلّ ما يريده هو أداء ما يبتغيه منه الربّ فحَسْبُ، بعد أن جعل من إرادته مُجرَّد أداةٍ لتنفيذ إرادة الربّ. وقد بلغ أوج الحكمة في هذا المضمار، وقمّة التسليم، في أعقاب المحنة المُضْنية التي نغَّصت السنتَيْن الأخيرتَيْن من حياته، بعد أن شهد طائفةً ممَّن تقلَّدوا إدارة أخويَّته ينحرفون بها عن محجّة الفقر والبساطة، أي عن جوهر الرسالة التي أوكلها إليه المصلوب، وكرّس لها هو كلَّ ما تبقّى من عمره وطاقاته. حينئذٍ انتابه الغمّ والحزن والشكّ القاتل، إلى أن ذكَّره الربُّ أنَّ الأخويَّة كانت من صنعه هو، لا من صنع بشرٍ، وأنَّه هو المسؤول عنها لا عبده فرنسيس؛ إذَّاك أدرك أنّ ما على المرء سوى أداء ما يُناط به من مهامّ، بأمانةٍ، غير عابئٍ بنتائج عمله؛ عليه أن يحرث وينقب

ويزرع فحسب، ويدع الحصاد لربّ الحصاد. حينئذٍ، فقط، استعاد سكينة النفس والفرح، بعد أن استسلم، استسلامًا مُطلقًا لمشيئة معلّمه، هاتفًا، من الأعماق، على غراره: «لتكن مشيئتك، لا مشيئتي، يا أبتاه!»

واتَّضح لفرنسيس أنَّ الفقر هو، أيضًا، فقر الروح، أي التجرُّد من كلّ كبرياء، واعتدادٍ، وتعالٍ على الآخرين؛ وبالتالي، فإنَّه، وفاءً للفقر، عزف عن العلم وجافاه، ولئن هو لم يَزْدرِه لدى الآخرين، ولم ينتقص قدرَه، إلاَّ أنَّه كان يحذر كلَّ علم لا ينقلب حبًّا، ولا يهدف إلى محبّة الله وتمجيده، وإلاّ أمسى غرورًا، وضلالاً، ومدرجةً إلى الخطيئة التي جعلت من ملائكة النور أبالسةً، وأعداءً لله. ومن ثمَّ كان يحلو لفرنسيس وصف نفسه بالجهل والغباء، واكتفى من العلم بالإمعان في معرفة الصليب وحكمته، وكان يحدوه إلى ذلك، فضلاً عن الدوافع التي بيَّنّاها، رغبةٌ في نفي كلّ شعورٍ بالتفوّق على جماعة الفقراء الذين لم يُصيبوا من العلم قسطًا، حرصًا منه على أن يظلَّ دائمًا الأصغر والأفقر.

ولا جَرَم أنَّ ممارسة الفقر على هذا النحو تغدو مَعينًا لأسمى الفضائل الأساسيَّة، كالمحبَّة، والتواضع، والبساطة والرجاء والعفّة. بيد أنّ فرنسيس عَلِم أنَّ اكتساب هذه الفضائل، وإغناء النفس بها، ينبغي ألاّ يكونا، هما، ولا أيَّةُ رغبةٍ روحيَّةٍ من ذلك القبيل، هدف الفقر الذي يجب ألاَّ يروم سوى الامتثال لمشيئة يسوع، والتمثُّل بفقره، ليس إلاّ، إذ إنّ الله يحبس ذاته حتّى عمَّن يلتمسونه من أجل إغناء ذواتهم به.

وهكذا ينقلب الفقر تجرُّدًا مُطلَقًا حتّى من الذات، ومن أسمى الرغبات. ولطالما نصح فرنسيس إخوته: «لا تحتفظوا لأنفسكم بشيءٍ، كي يتقبَّلكم بكاملكم ذاك الذي يهبكم كامل ذاته»، وعلى هذا النحو يمسي الفقر الوسيلة لاقتناء الجوهرة الفريدة الفائقة الثمن، ملكوت الله، ولاقتناء الله.

بيد أنَّ فرنسيس لم يقتصر على ممارسة الفقر تلك الممارسة البطوليَّة، الفائقة، المُطلَقة، بمفرده، بل عاشه جماعيًّا مع آلافٍ من الإخوة، ودعا إليه البشر أجمعين، وعدَّ نشر معانيه وفضائله رسالةً شخصيَّةً أناطها به المصلوب، فاندفع في تنفيذها بلا هوادةٍ، ومن غير تحفُّظٍ، حتّى غدت الفرنسيسكانيَّة مرادِفًا للفقر الإنجيليّ.

لقد كان عليه إصلاح الكنيسة تنفيذًا لأمر المصلوب. وكان موقنًا أنَّ الكنيسة لن

تصطلح حالاً إلاّ بالعودة إلى منابع الفقر الإنجيليّ. لا مِراءَ أنَّ الكنيسة قد عُنِيتْ دائمًا، عبر تاريخها، بالفقراء؛ بيد أنّ مسؤوليها، وطائفةً كبيرةً من مؤمنيها، غالبًا ما انحرفوا عن جادّة الفقر، وانجرفوا إلى أبشع ممارسات البذخ، والتملُّك، والاستغلال، والسلطة المستأثِرة. وكان همّ فرنسيس أن يعيدها كنيسة فقراء حقيقيّين، يعيشون فقرهم مع الفقراء وبين ظهرانيهم؛ ولم يكن سبيله إلى ذلك نقد الممارسات الشاذَّة والتهجّم عليها، ولا التعليم من أعلى المنابر، بل القُدوة الصادقة المُؤَثّرة.

كان فرنسيس يعي، بعمق، فرادة رسالة الفقر الإنجيليّ، فحرص عليها حرصَ الضنين، وأبى إلاَّ أن تتميَّز أخويّته، بفقرها، عن سائر الجمعيّات الرهبانيّة الأُخرى التي لم يكن الفقر هو هدفها الأوَّل، وأبى، بثباتٍ، الانصياع لشتّى الضغوط الرامية إلى النأي به عن التشدّد في ممارسة الفقر.

فثمَّة رهبانيَّاتٌ يلتزم أفرادُها بالفقر شخصيًّا، في حين تمتلك جماعتهم أو رهبانيّتهم أملاكًا خاصَّةً، ودخلاً ثابتًا يوفّر للجميع خبزهم اليوميّ. قد يكون عشاؤهم زهيدًا متقشّفًا، ولكنَّهم واثقون من الظفر به، وقد يكون منزلهم ضَنْكًا، ولكنَّه، مثل غدهم، مضمونٌ، وقد يكون عيشهم قاسيًا، ولكنّه مُنَسَّقٌ، مستقرٌّ.

أمّا فرنسيس وإخوته فقد عقدوا العزم على ألاّ يكون لهم مقرٌّ ثابتٌ، وألاّ يضمنوا أن يصيبوا عشاءً، وقد يُضطرّون إلى النوم على الطَّوى؛ وألاَّ يمتلكوا، فرديًّا وجماعيًّا، سوى الفقر المُطلَق، فقر يسوع وأمّه وتلاميذه الذين كانوا يتلقَّون طعامهم من يد العناية الإلهيَّة. ذلك الفقر الجماعيّ كان بدْعةً في الكنيسة، وقد أصاب بالذعر الكرسيَّ الرومانيّ، وفئةً من الفرنسيسكانيّين أنفسهم، غير أنَّ فرنسيس لم يتنازل، يومًا، عنه، طالما ظلَّ على قيد الحياة، فهو الصِّفة التي تُميّز رسالته، وتسمو بها إلى ذرى الفرادة، بوحيٍ من الربّ نفسه.

كان على الفرنسيسكانيّين، إذن، أن يستسلموا، بثقةٍ، بين يدي أبٍ حنونٍ، وفي آنٍ معًا، أن يعملوا بأيديهم، لقاءَ خبزهم اليوميّ، وقد حظر عليهم ادّخار أيّ طعامٍ للغد. وإن هم لم ينالوا، لقاءَ عملهم، أيَّ طعامٍ، فعليهم اللجوء إلى «مائدة الربّ». هكذا كان فرنسيس يدعو التسوُّل، تأكيدًا على أنَّ كلَّ فائضٍ عن حاجة الميسورين، إنَّما هو حقٌّ من حقوق الفقراء، وذوي الحاجة.

في رأي فرنسيس، كلّ مائدةٍ يجلس إليها البشَر هي مائدة الربّ؛ والربّ يمدّ مائدته

بواسطة سخاء الطبيعة وعَمَل البشر. ويَمُدُّها للجميع، فالجميع أبناؤه. ولا ريب أنَّ العمل يُؤهّل الإنسانَ للجلوس إلى تلك المائدة، وهو فخورٌ بأنَّه أسهم في مدّها. ولكنَّها تظلُّ مائدة الربّ، والجلوسُ إليها من حقِّ كلِّ إنسانٍ بمجرّد كونه إنسانًا. وفرنسيس عندما يستعطي، بعد أن يكون قد عمل سحابةَ النهار، يسلك سلوك إنسانٍ مسؤولٍ، ويده الممدودة تقول للذين يزعمون أنَّ لهم حقوقًا في ما يملكون، إنَّ هذه الخيرات ما وُجدت كي تُحفَظ، بل إنّ الربّ أعطاها لإحياء الجميع، وينبغي أن تبقى مُشترَكةً بينهم جميعًا.

قد يستنكر البعض، اليوم، دعوة فرنسيس إلى التسوّل، ذلك لأنّهم لا يُدركون أيَّ بُعدٍ صوفيٍّ كان يضفيه عليه؛ فتسميته إيّاه «مائدة الربّ» إشارةٌ إلى أنَّ خيرات الأرض مشاعٌ بين جميع البشر الذين يتعيَّن أن ينتظمهم روح الإخاء والمشاركة، فيقتسم من ينال الكثير مع من لا ينال كفافه، بحيث تنتفي التخمة عن البعض، والعِوَز عن الآخرين؛ وهكذا يتناول الفقير ما قسمه له الربّ، من غير مِنَّة بشرٍ، فيما يتخلّص الميسور، إذ يهب الفائض عنه، ممَّا قد يجرُّه إلى الخطيئة والهلاك، مؤدّيًا، بذلك، واجبًا فرضًا. وعلى هذا النحو، بفضل الفقراء، يستقيم ميزان العدل، ويشيع الإخاء بين البشر، وبفضل عطاء الأغنياء يتجرَّد المال والتملُّك من غلالات الوهم، وتهوي الحواجز التي تولّد المنافسات والأحقاد.

ولا بدّ من التنويه بأنَّ التسوّل، في مذهب فرنسيس، لا يقوم مقام العمل، ولا يعفي منه، بل يُكمّله ويلازمه، وهو، بالتالي، ليس دعوةً إلى الكَسَل والتواكل، بل إنّه تعبيرٌ عن الثقة بالله، وبالإخاء البشريّ.

وعلى نحو ما مارس فرنسيس الفقر في تجرُّدٍ مُطلَقٍ، كذلك شاء أن يمارسه كلّ أفراد أخويّته، فكان شرط قبول أيٍّ منهم فيها، تخلّيه عن كلّ ما يملك والتنازل عنه للفقراء. ثُمَّ على الإخوة أن يعيشوا مثلما يعيش أكثر منكودي الطالع فقرًا، في عدم اطمئنانٍ ماديٍّ تامٍّ للغد، شأن البؤساء الذين يفتقرون إلى كلّ شيءٍ. فلا شيء على الإطلاق يخصُّهم، وهم لا يستخدمون سوى ثوبٍ واحدٍ، يُضيفون إليه الرُّقَع كلّما انتشرت فيه الخروق. لا يمتلكون بيوتًا ولا أديرةً ولا كنائس خاصَّةً بهم، ولا يختلفون إلاَّ إلى أكثرها فقرًا ووضاعةً، وكأنَّهم، في الدنيا، «حجّاجٌ وغرباء»، لا قرار لهم، وهم، دائمًا، على أُهبةٍ للتخلّي عن أيّ مكانٍ يقيمون فيه، إذا ما رغب آخرون فيه، على نحو ما هجر الإخوة الأوائل مقرَّ ريفو تورتو لفلاّحٍ وحماره رغبا في احتلاله.

أمّا المال، فرِجْسٌ ووَثَنٌ، على الإخوة انتباذُه انتباذًا مُطلَقًا، وازدراؤُه أشدّ ازدراءً. وقد أدّى فرنسيس أبلغَ درس، في هذا المضمار، ذات يومٍ، إذ كان مسافرًا مع أحد الإخوة، فوجدا هِمْيانًا مَلقيًّا على قارعة الطريق، منتفخًا بالنقود. ولم يلتفت إليه فرنسيس، في حين راح رفيقه يلجّ في طلب التقاطه من أجل توزيع محتوياته على الفقراء، مُسهبًا في الإشادة بثواب من يجود على ذوي الحاجة ويُعينهم. وظلّ فرنسيس يرفض رفضًا قاطعًا تلبيةَ رغبة رفيقه، مؤكّدًا له: «إنّه لَشِرْكٌ نصبه إبليس، إذ لا يسوغ أخذ مال الآخرين، وإنّ استخدامه، حتّى في مساعدة المعوزين، إنّما هو خطيئةٌ، وليس عَمَلاً يستحقّ الثواب». واجتازا، بيد أنّ رفيق القدّيس لم يقنع بحُجَجه، وعاد يلحّ على رغبته في التقاط النقود وتوزيعها على المعوزين. وأخيرًا تظاهر فرنسيس بالامتثال لرغبته، بُغْيَة تلقينه درسًا في حكمة الله السرّيَّة، فعادا أدارجهما إلى حيث كانت النقود مرميَّةً. وأثناء مسيرتهما أهاب القدّيس بشابٍّ كان جالسًا على حافّة الطريق أن ينضمّ إليهما، كي يكون، هو أيضًا، شاهدًا على حكمة الربّ. ولّما انتهوا إلى حيث كان الهِمْيان مرميًّا، انتحى فرنسيس وصلّى، ملتمسًا من الربّ فضح حِيَل الشرّير، ثمّ أمر رفيقه بالتقاط الهِمْيان. إلاَّ أنَّ ذلك الأخ كان قد شرع يشعر تجاهه بالريبة والخشْية، ولكنّه، انصياعًا لأمر الطاعة، تغلَّب على تردُّده، والتقط الهِميان، وإذا بأفعى ضخمةٍ مرعبةٍ تخرج منه. حينئذٍ قال له فرنسيس: «اذكرْ، يا أخي، أنّ المال ما هو، لخدَّام الله، سوى شيطانٍ رجيمٍ، وأفعى قاتلة».

ولئن كانت تلك هي نظرته إلى المال، فلم تكن نظرته إلى روح التملُّك بأقلّ وضوحًا وعداءً. فقد كان يُدرك، بعمقٍ، ما ينطوي عليه التملُّك الاستئثاريّ من إيذاءٍ للقريب والجماعة، ومن غوايةٍ توحي بالأهواء والملذّات، ومن تلطيخٍ للنَّفس، وتزييفٍ للقِيَم، وازدراءٍ للعمل، ودفعٍ للجسد إلى شتّى ضروب الإسراف، وهو، في ذلك، لم يكن يعني امتلاك الخيرات المادّيّة فحَسْب، بل، أيضًا، غنى الفكر والعلم، والمواهب الفطريّة، التي تُوهم مالكَها أنّه أرقى مستوًى من سواه. ومن ثَمَّ فقد دعا المتعلّمين من إخوته إلى الانعتاق من غرور العلم وكبريائه، والاستسلام بين يدي المصلوب، ونَصَحَ غير المتعلّمين بالاكتفاء، من العلم، بحكمة الصليب.

لقد ألغى لقَبَ الرئيس في أخويَّته، لكي لا يغترَّ أحدٌ بتسميةٍ توحي بالتفوُّق، وجَهد في إفهام إخوته أنَّ على المسؤول عن إدارة شؤونهم أن يكون لكلٍّ منهم حارسًا وأُمًّا

وخادمًا، وغاسلاً لأرجلهم؛ فالفرنسيسكانيّ لا يمارس أيَّ ضربٍ من السيطرة والسُّلطان على أيٍّ سواه، ولا يفخر إلاّ بغسله أرجل الآخرين. ويُؤكّد «الرفاق الثلاثة» الذين اشتركوا في كتابة أصدق سيرة لفرنسيس، أنّه، في أثناء تولّيه رئاسةَ الأخويّة، لم يكن حاكمًا لمرؤوسيه، بل أبًا عطوفًا وسط أبنائه، وطبيبًا وسط مرضاه. وكم قد استعجل في التخلّي عن الرئاسة، بعد أن تبيَّن أنَّه، بكونه رئيسًا لجمعيّةٍ تعاظم شأنُها، قد بات مُقرَّبًا من الكبار وذوي الأمر، يخاطب البابوات والكرادلة الذين يقدّرونه ويجلّونه ويصغون إليه، وقد رأى في ذلك تعارضًا مع عزمه على الإقامة في صفوف الضُّعفاء والصغار والمنبوذين؛ لقد عزف عن الرئاسة لأنّها مركزٌ متميّزٌ، كي يعود أخًا أصغر، وبذلك يظلّ قدوةً لكلّ أخٍ أصغر، فقد كان حرصُه على القُدوة هَوَسًا يقود كلَّ سلوكه.

وإثر تخلّيه عن الرئاسة طلب ألاّ يُعطى أيَّ مرافق، وقد فسَّر شيلانو ذلك الطلب بقوله: «مجدُه الوحيد كان يكمن في انتباذ كلّ مظهرِ تفرُّدٍ وادّعاءٍ، كي يفسح في ذاته المجالَ لكلِّ قوَّة المسيح». فهو كان قد خَبَرَ أنّ قوَّة المسيح تتجلّى في الضعف الذي يهبط إليه الإنسان طائعًا، أكثر من تجلّيه في ضعفه الفطريّ. وكما أنّ العجز عن قسر البشر، الذي وضع فيه المصلوبُ نفسه، قد حدا كلَّ راغبٍ في الحياة إلى اللجوء إليه، كذلك فرنسيس، بعد أن تنحّى عن الرئاسة، أسهب في بسط تطلُّعاته ومُثُله، عبر رسائل ووصايا، لم يعُدْ لها أيّة صفةٍ رسميّةٍ، ولكنَّها أمست المرجع لكلّ راغبٍ في العودة إلى أصالة الفرنسيسكانيّة؛ فتلك الوثائق كانت، كالصَّليب، نابعةً من الحبّ، الحبّ القادر، وحدَه، على استيعاب الناس وتعبئتهم.

لقد عدَّ فرنسيس الإرادة والذكاء ممتلكاتٍ خاصّةً، قد تفضي بمن يفخر بها إلى الخطيئة وإلى أحضان إبليس، إلى التمرُّد على الله، وإلى رفض ملكوته، تحت أشكال الجشع والتسلُّط، والحَسَد والكبرياء، وابتغاء المجد، وشتّى صنوف المكائد.

كلّ الخيرات، في نظر فرنسيس، نابعةٌ من الله، وينبغي أن تعود إليه، وعلى البشر تأمين هذه العودة بشكر الربّ، وبالمشاركة فيما بينهم. بيد أنَّ أهمّ الخيرات التي يتحتّم إعادتها إلى الله هي الإرادة، تلك الثمرة التي أدّت الرغبة في التمتّع بها، بمعزلٍ عن الله، إلى طرد الجنس البشريّ من الفردوس.

أبوانا الأوَّلان كانا يعرفان الله ويشاهدانه، طالما هما لم يستأثرا بإرادتهما. ولكنّ الاستئثار بالإرادة يوصد دون الإنسان كلّ سبل المعرفة، فالمعرفة هي نور النفس، واستقامة الإرادة، وصفاء القلب، ولا شأن لها بغزارة العِلْم.

العلم يمكن امتلاكه بالعقل، والإنسان الذي يجعل من إرادته قانونًا ومرجعًا قد يُصبح «بئر عِلْمٍ»، وقد يُلِمّ بجمٍّ من المعلومات، ولكنَّه لن يدرك المعرفة، فالمعرفة شيءٌ آخر، إنَّها قضيّةُ إيمانٍ.

العلم يفضي إلى التشبُّث بالإرادة الخاصّة، وإلى التعالي على الآخرين، فيما الإيمان، وابنته المعرفة، يُشرعان البشر بعضهم على بعض، والجميع على الله.

المعرفة شأنُها شأنُ الاستسلام لمشيئة الله، تمرّ عبر التضحية بالذات.

ولطالما حذَّر فرنسيس إخوتَه من الثَّورة على النَّقد الموجَّه لهم، ومن الامتعاض من الإرشاد، بداعي الدفاع عن الكرامة، جامعًا برباطٍ وثيقٍ بين الفقر والتواضع والطاعة.

كما حذَّرهم من الابتهاج داخليًّا بفضائلهم التي حقَّقوها بجهودهم الخاصّة، وبما يوليهم ذلك من ثقةٍ بالإخلاص لله. فمن تساوره مثلُ تلك الخواطر، إنّما يحاكي من يخفي مال سيّده، ويُنكر صاحب الفضل الأوَّل والأوحد، أي الله، فخلاص الإنسان مرهونٌ برحمته وحدَها.

بالمقابل حذَّرهم، أيضًا، من الابتئاس من جرَّاء أوهانهم وأخطائهم، ودعاهم إلى إيداع هذه الأوهان والأخطاء نفسها بين يدي رأفة الله وغفرانه؛ فالفقر هو تنظيف النَّفس من كلّ شيءٍ، وإفراغها من كلّ شيءٍ، كي يملأها الربّ بحضوره؛ والفقر هو الاكتفاء بالإيمان أنّ الله موجود، والسعادة بوجوده، وعدم الرَّغبة في أيّ شيءٍ سوى إتمام مشيئته؛ وحينئذٍ يصبح القلب طليقًا، صافيًا، رشيقًا «مثل قُبَّرةٍ سكرى بالفضاء اللازورديّ».

وبالإجمال، نفث فرنسيس في إخوته ما كان قد اكتسبه، هو، من تجرُّدٍ مطلَقٍ، خارجيٍّ وباطنيٍّ، تجرُّدٍ هو تخلٍّ عن الطمأنينة الدنيويَّة، وعن هموم العالم والمال، وهو حرّيَّةٌ مُطلَقةٌ مستسلِمةٌ كُلِّيًّا لله، وتحرُّرٌ من الرغبة في العلم والسيطرة والتَّعالي على الآخرين؛ تجرّدٍ يدفع المرء إلى أن يكون الأصغر بين إخوانه، مُرتدًّا إلى الله، منقطعًا إلى تمجيده، وإلى خدمة الملكوت؛ تجرّدٍ يُثبت أنَّه الوسيلة المُثلى للسير في إثر المسيح والتشبّه به، ويتجلّى في الفقر والتواضع والفرح والخدمة والطاعة والبساطة، والحبّ، ونقاء القلب.

ولا ريب أنَّ ممارسة التجرُّد على هذا النحو تقتضي فضائل بطوليّةً، وتعايشًا ودِّيًّا مع

الفاقة والجوع، وتعرُّضًا للمهالك، ولشتّى صنوف الحرمان. وقد أقرَّ بعض المعاصرين أنّ إخوة فرنسيس كانوا عرضةً لأشدّ الاستشهاد قسوةً، والأكثر تجاوزًا للطاقة البشريَّة، ولكنَّهم يُضيفون أنَّهم «لم يكونوا يحتملونه في حزنٍ، كمن يحمل وِقْرًا لا قِبَل له على التخفُّف منه، بل كانوا يحيون مبتهجين، سعداء بالحياة، مندفعين حماسًا، رقيقي المعشر، ممَّا كان يُصيب بالحيرة كلَّ من شهدوا نَمَط حياتهم ذاك».

كثيرون عدّوا ممارسة فرنسيس وإخوته للفقر الإنجيليّ، بكلّ أشكاله، ضربًا من الجنون؛ وعلى أيّة حال، فإنّ إصرار الفرنسيسكانيّين على عدم التملّك قد أفقدهم اعتراف المجتمع الذي ينبذ من لا يملكون، وجعلهم، حتّى في أحضان الكنيسة، «خارج الملاك». ففرنسيس نفسه لا صِفَةَ كهنوتيَّةً له، وأخويَّته لا تمتلك «أملاكًا كنسيَّةً»، وأوقافًا تربطها بالمؤسَّسة الكنسيَّة.

بيد أنَّ الفرنسيسكانيّين قد أثبتوا أنَّ الفقر والتجرُّد اللَّذَيْن مارسوهما إلى أبعد مدًى هما السبيل الأمثل لإشاعة الإخاء الشامل، وترسيخ علاقاتٍ إنسانيَّةٍ سليمةٍ. فالرغبة في التملّك تنهض حاجزًا منيعًا دون الإخاء بين البشر، ودون لقاء الله. فبين الإنسان وأخيه ينتصب جدار المصالح، وجدار كلّ امتلاكٍ استئثاريّ. قد يُخيَّل للمالك أنَّ امتلاكه يوفّر له الطمأنينة، في حين أنَّه يُقصيه عن الآخرين، ويجتثُّ جذور إنسانيّته المُحيية المتمثّلة في الحنان، والتعايش الودّي، والتضامن، والتعاطف والحبّ.

ولذلك اختار فرنسيس وإخوته، الذين كانت تحدوهم رغبةٌ ملتهبةٌ في ترسيخ إخاءٍ شاملٍ، العيش على مستوى الأرض حيث بوسع الجميع التلاقي والتآخي؛ ونبذوا كلَّ تملّك لأنّ التملّك يحول دون تلاقي البشر وتآخيهم؛ واعتنقوا الفقر المُطلَق لأنّه السبيل إلى الإخاء الكامل؛ ومارسوا التجرّد، لأنَّ المتجرِّد الحقّ وحده يستطيع أن يُصبح أخًا للجميع.

لقد أثبت فرنسيس وإخوته، بقُدوة سلوكهم، خَطلَ الاعتقاد بأنّ التملّك يوفّر الطمأنينة وأنسنة الإنسان، لا بل إنّهم برهنوا على نقيض ذلك، أي على أنّ اهتمام الإنسان الصادق بالآخرين هو الذي يُفرغ على الوجود إنسانيَّته. فهذا التعاطف هو الذي يوفّر جوّ الأسرة الواحدة، وما توحيه من اطمئنانٍ؛ وقد دلَّل الإخوة على ذلك بتوقهم الدائم إلى التلاقي، ولمّ الشمل، وبالبهجة الغامرة التي كانت تُهيمن على لقاءاتهم. وبذلك أكَّدوا أنَّ التجرُّد هو التحرُّر الأكمل الذي يؤدّي إلى المحبّة والفرح، فوحدَه

يستطيع تذوُّق العالم، من غير تشويه حقائقه ورُوائه، من لا تراوده الرَّغبة في امتلاكه والتهامه. وهذا ما عبَّر عنه الشاعر الفرنسيسكانيّ فراجاكوبوني دي تودي، في القرن الثالث عشر، إذ أنشد:

«الفقر هو عدم امتلاك أيّ شيءٍ،

وعدم الرَّغبة في أيّ شيءٍ،

وامتلاك كلّ شيءٍ،

في روح الحرِّيَّة».

كثيرون مارسوا الفقر في عزلةٍ عن البشر، ولكنَّ فرنسيس وإخوته آثروا عيشه وسط الجماهير، في الشوارع، ومع عامَّة الناس. حبُّ الفقر بات يعني لهم حبّ الفقراء، والحَدَب عليهم، وخدمتهم، بل خدمة أكثرهم بُؤسًا ونبذًا؛ ومن ثَمَّ كانت العناية بالبُرْص من مهامّهم الأساسيّة؛ وقد اقتضى منهم ذلك التحرُّر من قيود العالم وقوانينه، للسير، بحرِّيَّةٍ، في إثر المسيح، سيّد الحياة. لم يكن، ثَمَّة، نموذجٌ يقتفونه، بل كان عليهم اكتشاف أسلوبهم باستلهام الإنجيل وعيشه يوميًّا. خطوتهم الأولى تمثَّلت في التخلّي عن المال وكلّ رموزه، للظَّفَر بحرِّيَّة الحركة، وحرِّيَّة الرُّوح والفكر والإرادة. أمَّا الخُطوة الثانية فكانت إقامة علاقاتٍ بشريّةٍ وفق الإنجيل.

وخلافًا لأنظمة البشر قرّروا ألاّ يمتلكوا شيئًا خاصًّا بهم، إذ لا يسوغ أن يحتكر فردٌ أو جماعةٌ ما وضعه الربُّ في متناوَل الجميع، فمثل ذلك الاستئثار يعني حرمانَ الآخرين ممَّا قد يكونون في حاجةٍ ملحّةٍ إليه. إنّه لأكثر إنصافًا أن يتعاون جميع البشر، كإخوةٍ، على تأمين احتياجاتهم. ولقد أبرز فرنسيس وإخوته، باختيارهم ألاَّ يتملّكوا شيئًا، الحياة المُثلى التي دعا إليها يسوع، حياة عالَمٍ إنسانيٍّ يؤمن فيه كلّ فردٍ بالآخر كأخيه. وبانتباذهم كلَّ امتلاكٍ خاصٍّ، عاشوا الإخاء مع البشر أجمعين، مؤمنين بالبشر أجمعين، وبالإخاء الذي ينتظمهم، في سلامٍ غير سلام البشر الذي يضمن لكلّ فردٍ أو جماعةٍ ما يمتلكون بقوّة القانون. إنّ سلام الفرنسيسكانيّين هو ذاك الذي يهبه الربّ من يُوثِّقون، فيما بينهم، علاقاتٍ أخويّةً، بقوّة الإيمان.

لم يدَّعِ فرنسيس لنفسه حقًّا، ولا نازع إنسانًا في حقٍّ يمتلكه أو يدّعي امتلاكه. بل هو، في إثر المسيح، نَشَد الحياة، فحَسبُ، والحياة وافته طغماتٍ من الشبَّان أصبحوا

«إخوةً أصاغر»، وزرافاتٍ من النسوة أصبحن «سيّدات الفقر»، وقد زهدوا، كلُّهم، في الاستئثار بأيّ امتلاكٍ، فأثبتوا، بقُدوة سلوكهم، لمجتمع أقام وجوده على حقوق الامتلاك، وعلى الدفاع عن ممتلكاته لإقرار السلام، أنّ ديناميّة الحياة أوفر ازدهارًا لدى أولئك الذين وطّنوا العزم على ألاّ يمتلكوا شيئًا، وتخلّوا عن كلّ حقّ، وارتضوا أن يكونوا منبوذين، لكي يكونوا «إخوةً أصاغر».

الإخاء الإنسانيّ الشامل، هو، إذًا، الهدف، والفقر الطوعيّ هو السبيل إليه، مثلما هو السبيل إلى يسوع الذي عاش فقيرًا بين ظهرانينا. ومعيار الفقر الحقّ يكمن في الفقير الحيّ، وفي يسوع الفقير، فعلى من يودّ ممارسة الفقر الحقّ أن يعيش كأفقر الفقراء، وأن يبادر إلى تحرير الفقر القسريّ المفروض على طائفةٍ غفيرةٍ من البَشَر، من كلّ ما يمتهن كرامتهم، ويُشوّه إنسانيَّتهم. فإنَّ ما يجعل الفقر القسريّ لا إنسانيًّا ليس، فقط، الافتقار إلى الحدّ الأدنى الضروريّ لإشباع الحاجات الأساسيّة، بل التعرُّض للازدراء والنبذ، والإقصاء عن دائرة التوادّ البشريّ، والمثول في صورةٍ سلبيّةٍ ترسمها الطبقات المحظيَّة، بحيث ينتهي الفقير إلى الاعتقاد بأنَّه حقيرٌ حقًّا، وجديرٌ بالازدراء، وبأنَّه مُهمَلٌ من الجميع، فلا أحدَ يُسانده، بل الجميع يناصبونه العداء: البشر، ورزايا الزمن، وكروب الحياة.

صورة الفقير المنبوذ تلك هي التي جهد فرنسيس، دائبًا، في سبيل محوها وتغييرها. فقد اتّفق، يومًا، أن سمع أخًا يردّ، بجفاءٍ، متسوِّلاً ملحاحًا، فهرع إليه، وأنّبه، وأمره قائلاً: «هيّا اخلع ثوبك، وارتمِ عند قدمي هذا الفقير، واعترف علَنًا بخطإك، واستغفره، والتمس منه أن يُصلّي من أجلك» ثمَّ أردف: «أخي عندما تصادف فقيرًا، فإنَّما عيناك تقعان على صورة ربّنا وأُمِّه الفقيرة... إنَّ من يقسو بكلامه على الفقير، يشتم المسيح الذي، من أجلنا، صار، في هذا العالم، فقيرًا».

وفي مبادرة فرنسيس إلى مدّ يد العون إلى الفقراء، لم يجاره أحدٌ سخاءً، وعطاءً بلا قيدٍ، ولا حدودٍ، على نحو ما فعل يوم وافت امرأةٌ فقيرةٌ ديرًا كان يُقيم فيه، وإذ لم يكن ذلك الدير، آنذاك، يمتلك ما يقدّمه لها، لم يتورّع فرنسيس عن إعطائها النُّسخة الوحيدة من الإنجيل الموجودة فيه، علّها تبيعها وتستعين بثمنها على قضاء حاجاتها، ممّا أثار اعتراضَ بعض الإخوة واستنكارهم، فردّ عليهم فرنسيس قائلاً: «في رأيي أنّنا نرضي الله أكثر بإعطاء الإنجيل، ممّا نرضيه بمطالعة صفحاته».

وقد مضى الفرنسيسكانيُّون في ممارسة الفقر إلى أبعد من الفقر الخارجيّ، والفقر الداخليّ، والتجرُّد التامّ، والجَوْد على المُعوِزين، إذ بات همُّهم الأوَّل الاندماج في مجتمع المنبوذين، المُمثِّلين الحقيقيّين ليسوع، مثالهم الأسمى، ومرجعهم الأوّل والأخير، اندماجًا صادقًا، حقيقيًّا، مُعاشًا في كلّ لحظةٍ، بكلّ ما يواكبه من احتقار الآخرين وازدرائهم ونبذهم؛ وباندماجهم هذا، أثبتوا، بالواقع المُعاش، أنّ الفقراء هم، أيضًا، أصدقاء الله ومختاروه، بل هم أصدقاؤه الأثيرون، وهم الذين يكوّنون كنيسته النقيّة الخالدة، التي لا يشوبها عيب، وأنَّهم روّاد ملكوت الله على الأرض، والمبشّرون بحقبة الإخاء الإنسانيّ الشامل.

وبما أنّ النفاذ إلى قلوب الصغار والمجروحين والمنبوذين يتعذَّر على من يتعالى عليهم، ولا يتسنّى إلاّ لمن يُشعرهم أنَّه وضيعٌ مثلهم، فقد أثبت فرنسيس وإخوته، بسلوكهم، أنَّهم حقًّا، «الأصاغر».

وقد كان فقرهم مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بمصير الفقراء والمنبوذين، فعاشوا حُلم عالَمٍ استعاد طابعَه الأخويّ بانفتاحه على جميع الذين قذفهم المجتمع على هامشه، وذلك حبًّا بالفقير المنبوذ الأكبر، يسوع. وفي هذا السبيل، استعاضوا عن النظام السائد، بعلاقات المشارَكة والإخاء، وبمجتمعٍ إنجيليٍّ حقٍّ، وبوقوفهم في مواجهة مجتمعٍ أنانيٍّ يسعى نحو التفرقة والتهميش والنبذ، وذلك باندماجهم الفعليّ في جماعة المسحوقين والمرذولين.

لقد كان هاجسهم إغداق الحبّ على أولئك الذين طردهم الفقرُ القسريّ من شركة الحبّ التي هي قوام البشريّة بصفتها أُسرة أبناء الله، وعلى أولئك الإخوة، مُمثّلي المرذول الأكبر، الذين يتعيَّن إعادة دمجهم في أخويَّة شعب الله الكبرى. وكان فرنسيس، في ذلك، لإخوته، القُدوة المُثلى، إذ إنّه مع وهَنه وهشاشته، كان يُقِلّ على كتفَيْه أعباء الفقراء وهمومهم، وبوحيه أمسى كلُّ فقيرٍ هو الأخ المفضَّل لكلّ فرنسيسكانيٍّ. وكم اتّسعت الحلقة التي نسجوها على هذا المنوال، وكم ترامت أطرافها!

إنَّ تجربة فرنسيس وإخوته في ممارسة الفقر وسيلةً إلى الإخاء الإنسانيّ الشامل ما انفكَّت متوهّجةً تطرح على الأجيال تحدّيًا صارخًا. فهل سيُقدَّر لجماعاتٍ كتلك التي كان يحلم بها أن تعيش الفقر الإنجيليّ المُطلَق بحيث تُحقِّق إخاءً حقًّا كاملاً؟

لقد برز فرنسيس وإخوته، في مواجهة نظامٍ إقطاعيٍّ تحكمه قبضةٌ من المتنفّذين المستغلّين، كالأصاغر، خُدّامًا لكلّ إنسانٍ، خاضعين للجميع؛ وفي مواجهة البورجوازيّة المرتكزة على الثروة نادوا بالفقر المطلق، والتجرُّد التامّ من المال؛ وفي مواجهة كنيسة عصره السُلطويّة، نهض فرنسيس علمانيًّا يأبى أيّة سُلطةٍ. وحتّى عندما سيم شمّاسًا إنجيليًّا، ظلّ في منأًى عن جميع امتيازات الإكليروس.

الإخوة الروّاد الاثنا عشر، نواة الأخويَّة الفرنسيسكانيّة، كانوا ينتمون إلى شتّى المشارب، قادمين من جذورٍ شديدة التباين، ولكن كان يجمعهم ويوحّدهم العزمُ العنيد على «الخروج من العالم»، بنبذ مفاهيمه ومعاييره، من أجل اتّباع المسيح الفقير المتمثّل في الفقراء، ممّا يتيح تغلغلاً، أعمقَ غورًا، في عالَمٍ جديدٍ يعيش إنجيل الخدمة والإخاء الشامل، بمعزلٍ عن كلّ تبايُنٍ اجتماعيٍّ وثقافيٍّ وعرقيٍّ ومذهبيٍّ، وفي موقفٍ ديمقراطيٍّ مُشرَعٍ على الخليقة كلّها، التي يأبى المسيحيّ أن يعقد معها علاقات تملُّكٍ، مُؤْثرًا الارتباط معها بعلاقات تعايُش وتبادُل، مع ميلٍ إلى منح الامتيازات، في توزيع الخيرات، إلى الفقراء، والضُّعفاء والمحتاجين، وفي حرصٍ على صَوْن كرامتهم الأكيدة الراسخة، وفي تبادُلٍ وِدِّيٍّ معهم.

ولئن كان بعض الفرنسيسكانيِّين، إثرَ انتشارهم الواسع، وتكاثر أعدادهم في شتّى الأصقاع، قد انحرفوا، بعضَ الشيء، عن سِراط فقر مؤسِّسهم بيد أنَّ الفقر الذي بشّر به فرنسيس سبيلاً إلى عيش الإنجيل بكلّ أصالته وصفائه، والإخاء الشامل بكلّ غناه الإنسانيّ، سيظلُّ، أبدًا، بؤرةً مُشعّةً، ونبراسًا نيّرًا، يهدي كلّ البشريّة إلى سبيل خلاصها.

فوفاء فرنسيس للفقر كان مُطلَقًا، رائعًا، في كلّ يومٍ من أيّام عمره، مذ اعتنقه حبًّا بيسوع، حتّى مماته، حين «رامت نفسه، من قلب الفقر، التحليق عائدةً إلى ملكوتها، ولم ترغب لجسده سوى الفقر تابوتًا»، على حدّ قول دانتي.

ولا مراء أنَّ فرنسيس كان عملاقًا في فقره، لكنَّه أبى إلاّ أن يُسمّى «الفقير الصغير» وما أعظمه من اسمٍ!

ولا مِراءَ أنَّ فرنسيس كان فارس الفقر وشاعره، وكان مُفْعمًا نحوه حبًّا عذريًّا، فخلَّده تخليده لحبيبةٍ ساميةٍ. ولقد صوّر الشاعر الكبير دانتي ذلك الحبّ بقوله:

«بعد أن فقدت «سيّدة الفقر» عريسها الأوّل (يسوع)
ظلّت منسيَّةً، حزينةً،
ألْفًا ومئة عامٍ، بل أكثر،
ولا أَحَد يخطُب وِدَّها
حتّى وافاها هو...
وِفاقُهما التامّ، الفرحُ الذي كان يغمرهما،
نظراتُهما الرقيقة، حُبّهما الرائع،
كلُّ ذلك كان يُولّد في من يراهما
خواطرَ مُقدَّسة».

ولكن، فوق ذلك، كان فرنسيس صوفيَّ الفقر، وقد أكبّ على استجلاء أسراره، عبر توغّله في ممارسته تمثُّلاً بيسوع، وعبرَ تأمّله المتعمّق في الإنجيل؛ فانتهى إلى رؤيةٍ لاهوتيّةٍ ساميةٍ راسخةٍ، وإلى تصوُّرٍ صوفيٍّ أخّاذٍ.

وقد شرع، هو نفسه، يسلك وفق تلك الرؤية، عندما تعرّى وتجرّد من كلّ شيءٍ، كي يستطيع أن يهتف بصدقٍ: «أبانا الذي في السماوات»؛ ثمّ ناهض، في ذاته، كلَّ أنواع التملّك الماديّ والفكريّ والنفسيّ، بحيث يكون مُؤَهَّلاً لتناول خبزه، كلَّ يومٍ، من كفّ الله، في بساطةٍ وعفويّةٍ، مستسلمًا بلا تحفُّظٍ، لمشيئته.

وكان نبراسه وهاديه، في ذلك، وجه يسوع الساحر، يسوع الذي تنازل طوعًا عن ألوهته، بل أفرغ ذاته منها، كي يلبس جسدًا بشريًّا، جسد عبدٍ يموت على الصليب، وتخلّى عن الغنى الأكمل والأوسع، كي يختار الفقر.

يسوع قدَّم ذاتَه لنا طريقًا، فعلينا اقتفاؤه، سبيلاً إلى الآب، واقتفاؤه يعني سلوك دروب الفقر والتواضع والطاعة، أُسوةً به، فهو كان:

خادمًا يغسل أقدام تلاميذه، وينحني، بحدبٍ، على آلام البشر لإعتاقهم منها؛

مُرسَلاً هجر، طوعًا، المجدَ الإلهيّ، وانقطع لخدمة الآب، ولكي يكون كلامَه الحيَّ؛ حاجًّا ومُرتَحِلاً، لا مقرَّ له، يعتمد، في عيشه، على كَرَم مضيفيه.

وبالإجمال كان فقيرًا، بسيطًا، متواضعًا، مطيعًا، نقيَّ القلب. وكلُّ تلك النعوت، في قاموس فرنسيس، مترادفاتٌ.

وتحتلّ السيّدة العذراء «الفقيرة الصغيرة»، في رؤية فرنسيس، حيِّزًا جوهريًّا، فالتجسُّد

هو مسعى فقر، وحبّ اللّٰه قد تجلّى عبر فقر يسوع، وكان لا بدَّ أن تكون العذراء فقيرةً كي تُصبح أمَّ اللّٰه الذي «من أجلنا صار فقيرًا».

ومذ أصبح الفقر هو لغة الحبّ الإلهيّ، توهَّج بألَقٍ سرّيٍّ فائق السنى!

وقد تجلّى فقر مريم، أيضًا، في موقفها النفسيّ المتجرّد، المتأهّب أبدًا، المستسلم لمشيئة اللّٰه.

ومن مثال العذراء استنتج فرنسيس أنَّ رسالة الكنيسة تتمثَّل في إسهامها بأمومةٍ تُحاكي أمومة العذراء، في ولادة المسيح وإنمائه، كلَّ يوم، في قلوب البشر؛ ومن العذراء تعلَّم، أيضًا، أنَّ الفقر وحدَه يتيح انبعاث الحياة الإنجيليَّة.

من كلّ ذلك استمدَّ فرنسيس إدراكًا نبويًّا للعلاقة الوثيقة بين الفقر والإخاء؛ فقد أُعطي أن يتحقّق مدى تقويض الغنى للعلاقات الإنسانيَّة، فأبغض المال أشدَّ بغضٍ، وعدَّه «سِرّ الشيطان»، لأنَّه يُغلِق مَن يتعلّق به على أخيه الإنسان، وعلى اللّٰه.

ثُمَّ إنَّه بتأسيسه «أخويَّةً» تتَّسم بعلاقات إخاءٍ أفقيّةٍ، حيث الكلّ متساوون، بفضل تنازل كلٍّ منهم عن كلّ امتيازٍ أتاه بالمولد أو بالثروة، وبفضل اعتراف كلٍّ منهم بعُرْيه التامّ أمام أبي كلّ النِّعَم، كان، في الواقع، يُبلْور بُعدًا جديدًا للعلاقات، قائمًا على السَّلام، وعلى الترحيب بكلّ مخلوقٍ، وبالخليقة كلّها، وعلى المشاركة والمحبّة، والخضوع المتبادَل، وقبول جميع الفوارق، واحترام حرِّيَّة كلّ فردٍ، والتنافس الجماعيّ على تحقيق الملكوت.

كان فرنسيس طَموحًا إلى غرس الإخاء والتضامن حيث الخطيئة تجأر بالتملُّك والسلطان؛ وبوقوفه إلى جانب إخوته المرذولين من بني البشر، رام الوقوف إلى جانب ابن البشر، «الحبّ» المهجور، وقد عبّر عن ذلك التوق بصرخته المؤثّرة: «الحبُّ ليس محبوبًا».

أَوَليس ذلك هو مُناخ الإنجيل الحقّ؟

أَوَليس هكذا يُفلح عباقرة الروح، في فتراتٍ من التاريخ مضيئةٍ، متعاقبةٍ، في قراءة الإنجيل في الأعماق، وفي إبراز جوانب منه إبرازًا مؤثّرًا، وفي اكتشاف جواهره النادرة النفيسة؟

«يجب أن يكون الإنسان قد حقَّق الكثير كي يدرك أنّه لم يحقّق سوى القليل».

(فوليرو)

تواضعٌ وبساطةٌ

فقير المسيح الصغير، يمكن، أيضًا، تسميته القدّيس المتواضع البسيط. فتواضعه وبساطته ملازمان لفقره، وعلى غرار فقره، كان تواضعُه سحيقًا وبساطته خارقةً، وكانا مُستَمدَّيْن من تأمّله المستمرّ في تجسّد الله، وتواضع يسوع وبساطته الفائقَين في أثناء وجوده على الأرض، واللَّذَيْن امتدّا إلى الأبد في سرّ القربان.

كان عميق الشعور بهوانه، وبأنَّه لا يملك شخصيًّا سوى خطاياه، وأنّ كلّ ما عداها هبةٌ من الله مجّانيَّةٌ، لا ثواب له فيها.

وقد عبَّر عن تلك القناعة أجمل تعبير يوم أخبره الأخ پاشيفيكو أنَّه شاهده، في رؤيا، وقد غمره مجد الله، فردّ عليه قائلاً: «أمَّا أنا فأرى نفسي أكبر خاطئٍ؛ فلو أنَّ الربَّ، في رأفته، وهب أيَّ شرّيرٍ بقدر ما وهبني، لبلغ من الروحانيَّة عشرة أضعاف ما بلغتُ، ولكان عارفًا بجميل الربّ أكثر منّي بما لا يُقاس».

وبقدر ما يُعنى سواد الناس بإخفاء مواطن ضعفهم وتمويهها، كان فرنسيس حريصًا على إبراز أوهانه وكبواته للعيان وتجسيمها، على نحو ما فعل عندما أعدَّ له الإخوة حِساءً من لحم طائرٍ، علّه ليساعده على مكافحة مرضٍ مِعويٍّ شديدٍ، وشعر فرنسيس بشيءٍ من المتعة في تناوله، فانتابه النَّدَم والشعورُ بالذنب، وأمر أخًا أن يربطه من عنقه برَسَن، ويجوب به ساحات أسّيزي وأَزِقَّتها، وهو يصبح: «تعالوا شاهدوا هذا المُرائيّ الذي تظنُّونه قدّيسًا، والذي يتنعّم بتناول لحم طائرٍ، فيما أنتم تصومون».

من خلال مثل تلك المواقف كان فرنسيس يتوخّى إظهار حقيقة وَهنه بجلاءٍ، ممَّا يساعد على إظهار كَرَم الربّ الذي اختاره، رغم ضعفه وضآلة شأنه، لكي يخزي به نُبلَ العالَم، وصَلَفه وعِلْمه.

وكان شعوره الصادق بهوانه يرسّخ لديه القناعة بأنَّه يستحقّ أقسى امتحانٍ من الربّ؛

الكاردينال هوغولينو يكرّس المذبح

فعندما برَّحت به الآلام في أيّامه الأخيرة، رثا لحاله أحد إخوته قائلاً: «اسأل الربَّ أن يكون أكثر رفقًا بك، فإنّه، حقًّا، يُثقل عليك يده». فتنهّد القدّيس وأجاب: «لو لم أكُن واثقًا من صفاء نيَّتك، ومن بساطتك، لغدت رفقتك بغيضةً لديَّ، لأنَّك تجاسرتَ فأنحيتَ باللائمة على سلوك الله معي».

ومع أنَّ المرض كان قد هدَّه هدًّا، ارتمى أرضًا، وعفَّر جبينه الشاحب بالتراب، وقبَّل الأرض وقال: «أشكر لك، اللهمّ، كلَّ ما تمتحنني به من آلام، وأسألك أن ترسلَ لي منها مئات الأضعاف، إن كانت تلك هي مشيئتك، فإنَّه ليسعدني أن أتلقّى منك الألَم بلا هوادةٍ ولا شفقةٍ، إذ إنَّني، بإتمام مشيئتك، أفيض فرحًا».

وقد جاء في أحد إرشاداته: «هكذا يمكن معرفة أنَّ أحد خدّام الله يمتلك روح الربّ: فعندما يُجري الربُّ بواسطته خيرًا، لا يزدهي «جسد» خادم الربّ، ذاك، كبرياءَ، ذلك الجسد المعادي لكلّ خيرٍ، بل إنَّه، على النقيض من ذلك، يزداد ازدراءً لذاته، ويَحكُم على ذاته بأنَّه الأصغر بين الناس طُرًّا».

وكان فرنسيس يضيق ذرعًا بما يُحاط به من مظاهر التكريم، ويراها متنافرةً مع من عدَّ نفسه «الأصغر». وقد ضَرَب مثلاً على نفوره من التكريم، ذات يومٍ، إذ كان يهمّ بدخول مدينةٍ بصحبة الأخ ماسّيو، وكان نبأ قدومهما قد سبقهما، فخرج موكبٌ مهيبٌ يقوده أُسقف المدينة، لاستقبال القدّيس بحفاوةٍ بالغةٍ، ممَّا أصاب فرنسيس بالهَلَع والخزي، فقال لرفيقه: «ما العمل؟ اسأل الربّ أن يُنقذنا من هذا الخزي» فأجاب ماسّيو: «وما حيلتنا بعدُ؟ إنَّه لا يليق بنا أن نفرّ أو نتراجع، بل فلنسعَ في إيجاد الحلّ الأمثل». وفيما كان الموكب يدنو، تلفَّت فرنسيس فلمح، إلى جانب الطريق، حوضَ صلصالٍ لأحد الخزَّافين. وفي الحال شمّر ثوبه، وخاض في الحوض، وراح يعجن الصلصال برجليه، ويصنع منه أشكالاً. فلما رأى الأسقف ذلك، أعرض عنه في ازدراءٍ وحنقٍ، ووصفه بالحُمق، وقفل راجعًا. ولكنَّه فيما بعد، أجال الأمرَ في فكره، بتروٍّ، وأدركَ أبعاد سلوك فرنسيس، فاعتبر به.

الفقر والتواضع كانا أساس حياة فرنسيس الداخليّة؛ وهذا ما أراد بثَّه في إخوته الذين عُرفوا بالأصاغر، وكانوا، حتّى بين الفقراء، أصغرهم؛ ولطالما أهاب بهم أن يُمثّلوا، بإخلاص، مدلولَ اسمهم، فلا يتعالوا على أحدٍ، ولا يمارسوا على أحدٍ سلطةً، وهذا ما أكّده للكردينال هوغولينو: «أصاغرَ دُعيَ إخوتي، لكيلا يتطلّعوا، يومًا، إلى أن

يصبحوا أكابر. ودَعْوَتهم تعلّمهم البقاء في طريق العامّة، على مستوى الأرض، واقتفاء تواضع يسوع».

وقد تجلّى تواضع الفرنسيسكانيّين في خضوعهم المُطلَق لرجال الكنيسة، وفي تفادي انتقادهم أو مهاجمتهم، وفي إبداء أعمق احترام لهم، أيًّا كان سلوكهم. كما تجلّى في أُسلوب وعظهم البسيط، المجرّد، الخالي من كلّ تزويقٍ رغم جرأته، إذ إنّه لا يستهدف سوى استقطاب النفوس لحبّ الله، ولا تخامره أيّةُ رغبةٍ في إبراز مواهب الواعظ وعلمه. فقد تركوا لسواهم المجادلات اللاهوتيَّة، واقتصروا على الكلام البسيط الذي يخاطب القلب، كلامٍ في متناوَل العامَّة، كما آثروا من الجماهير أشدَّها بساطةً فتوجَّهوا، على نحوٍ خاصٍّ، إلى الدَّهماء، والفلاَّحين، وأصحاب المِهَن الوضيعة.

ولا ريب أنَّ درب البساطة والتواضع هو، أيضًا، درب الحرِّيَّة، لأنَّه يقتضي مسيرة تبسيطٍ، أي تحرُّرٍ من كلّ نافلٍ، وتركيزٍ على الجوهريّ فحَسْب؛ والجوهريّ، عند فرنسيس، هو المسيح، والمسيح موجودٌ في الإنجيل، وقد اختار فرنسيس أن يعيش الإنجيل، على غرار الصغار، البسطاء والمتواضعين، وأن يمضي ينشره في العالم، كحاجٍّ وضيفٍ، لا مقرَّ له ولا استقرار.

لقد جعل نفسه الأصغر بين الفقراء، وخادمًا للبؤساء، ورهن ذاته للعناية بالأشدّ فقرًا، فلم يتحرّج من تناول طعامه في طَبَقٍ واحدٍ مع البُرْص. ولعَمْري كانت تلك خير مدرسةٍ للقداسة أتاحت له استيعاب الأكثر وضاعةً، والتآلف مع الأشدّ بعثًا على النفور.

لقد مارس فرنسيس التواضع إلى أقصى حدوده، فاستأهل أسمى مجدٍ يخصُّ به الربّ المتواضعين. وقد شاهد أحد الإخوة، في رؤيا، السماء وقد اتَّسقت فيها مقاعد كثيرةٌ، يتوسَّطها عرشٌ مرصَّعٌ بالجواهر، متألّقٌ بالمجد، وقيل له إنّ هذا العرش كان قد خُصّص للوسيفوروس الذي فقده من جرّاء كبريائه، فمُنِح لفرنسيس مكافأةً له على تواضعه.

إلاَّ أنَّه، على هذه الأرض، أيضًا، كان قد جنى ثمرةَ تواضعه وما واكبه من تحرّرٍ، وكانت تلك الثمرة هي الفرح.

«إن كان فيك شيءٌ حزينٌ، فلأنّ فيك ارتباطاتٍ، كتلك العُقد التي، في جذع الشجرة، تحول دون صعود النسغ»

(يوحنّا الصليبيّ)

الفرح

طالما التمس الإنسان فرحَه من مقتنياتٍ يسعى إلى امتلاكها، وملذّاتٍ يجهد في اقتناصها، وظروفٍ يودّ أن يدفعها على نحو ما يتمنّى، ظلّ فرحه عرضةً لتقلُّب الظروف، وهبوب الريح على غير ما تشتهي سفنه، وضحيَّةً لخيبات أملٍ ذريعة تولّدها مُتَعٌ لا تفي بوعودها، ولشعورٍ مُضْنٍ بالفراغ يعقب فرحة الظفر بمقتنياتٍ سرعانَ ما تُثْبت عجزها عن بعث الرضى في نفسه.

وطالما توقَّع المرءُ السعادة من الغير، ظلَّ أُلعوبةً في أيدي الآخرين، يؤلمه إهمالهم، ويُحزنه إغفالهم له وانصرافهم عنه، ويوجعه ازدراؤهم، وتُجرِّعه إهاناتُهم الغُصَص.

وبالمقابل، يبدو التجرُّد المطلَق نبعًا ثرًّا لفرحٍ بلا حدودٍ. فليس من فرحٍ أعمق وأبقى من فرحِ من تحرَّر من كلِّ شهوةٍ، ومن فقدت الغواياتُ قدرتَها على النيلِ منه، فبات يجد سعادته في الفقر والحرمان، ومن أحكم السيطرة على ذاته، فما عادت إهانةٌ تهزُّه، ولا نجاحٌ يبعث فيه الدوار، ولا فشلٌ يصيبه بالقنوط، ولا مصيبةٌ، مهما عظمت، تُحطِّمه. ومن تحرَّر من كلّ خوفٍ، ما عاد يخشى حياةً أو موتًا، وغدت عنده سواسيةً ظروفٌ مؤاتيةٌ أو ظروفٌ مناوئةٌ.

تلك العوامل: السيطرة على الذات، والتجرُّد والتحرُّر، تصبح مصدرًا للفرح أغنى وأثبت، إن لم يكن الدافع إليها فكرةٌ مجرَّدةٌ، ومثالٌ مُبْهَمٌ، وإن هي ارتبطت بكائنٍ سامٍ ينشب حبُّه بالكيان كلِّه، ويأخذ بمجامع القلب. وفرنسيس قد مارس التجرّد والفقر، والتحرُّر والسيطرة على الذات اقتداءً وحبًّا بيسوع الذي ملك عقلَه وقلبَه وكلَّ ذاته، فكانت ممارسته لتلك الفضائل خارقةً، وكان الفرح الذي سكبته تلك الممارسة في نفسه بحرًا لا تحرِّك أعماقَه عواصف، ولا يخالطه عَكَرٌ. ففرحه مستقرٌّ في أغوار ذاته، لا يقوى عاملٌ خارجيٌّ على النفاذ إليه، وفرحه اسمه يسوع، فلا شيء يستطيع انتزاعه

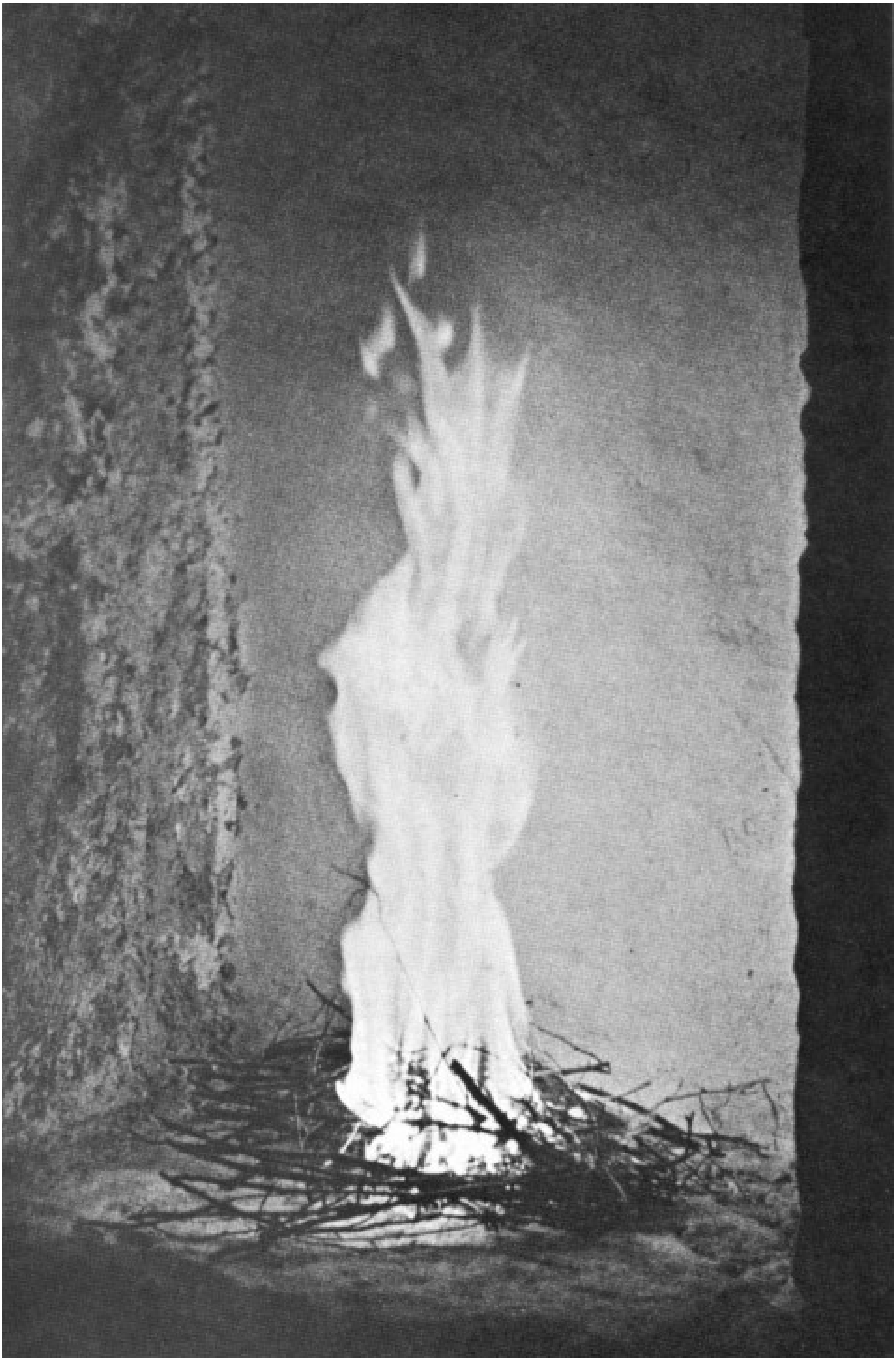

«نحمدك أللّهم حمدًا، لأجل أختنا النار...»

منه؛ لا بل إنّه، بدافع رغبته العارمة في التشبّه بيسوع الذي أهين وتألّم من أجلنا، كان فرحه يتضاعف، ويبلغ ذروة الاكتمال، بقدر ما يُسام من إهانةٍ وتحقيرٍ، ومن ألَمٍ وقسوةٍ وحرمانٍ.

وقد أجمل فرنسيس فلسفة الفرح الأسمى تلك في حواره الشهير مع الأخ ليون، حيث أكّد أن لا إصابة النجاحات الباهرة في ميدان الرسالة، ولا حتّى اجتراح المعجزات، كافيةٌ لتوليد الفرح الأسمى الذي يتحقّق فقط عندما يتقبّل الأخ، بالإضافة إلى التَّعَب والنَّصَب والجوعِ والقرِّ والجروح، تَنكّر إخوته، وإهانتهم وصدّهم له، وإيساعهم إيّاه ضربًا وتنكيلاً، في استسلام مُطلقٍ لمشيئة الربّ، ورضًى ساجٍ جَذِلٍ، وشُكرٍ صادقٍ للّه لأنَّه أتاح له التشبّه بالمتألّم الأكبر يسوع، في ما واجه من آلام الصليب، ومن تنكُّر إخوته الدائم له.

لقد كان ذلك الفارس المقدام يرتعش فرحًا لفكرة مقاسمته سيّده آلامه، وفاءً منه للإنجيل الداعي إلى الابتهاج وسط المِحَن والاضطهاد. لقد أنشد فرنسيس عندما ألقى به لصوصٌ في حفرةٍ مليئةٍ بالثلج، يوم تخلّى عن كلّ شيءٍ في سبيل اللّه، وظلَّ يُنشد سحابةَ حياته كلِّها، وكأنّ مهمّته الأساسيّة هي ممارسة السعادة في ذاته، وإشاعتها من حوله.

وقد أثبت عمقَ فرحه، وعجز العوامل الخارجيّة عن تعكيره، عندما أنشد، كما لم يُنشد قطُّ وهو في أوج عافيته، للشمس والقمر، بعد أن داهمه العمى، وبات عاجزًا عن رؤية أشعّتهما؛ وأنشد لوهج النار بعد أن فقد القدرة على تأمّل لهيبها، ولجمال الكائنات بعد أن أمسى شبه مقعدٍ، لا يستطيع إلى التمتُّع بذلك الجمال سبيلاً، على نقيض معظم البشر الذين يلعنون كلّ ما يفشلون في الظفر به، وكلّ ما ينأى عن متناول يدهم. وبذلك برهن فرنسيس على أنّه ارتبط، مع كلّ تلك المخلوقات، بروابط إخاءٍ رقيقةٍ، فكلُّها من صنع أبيه وأبيها، وقد سكنت تلك الكائنات في مناطق مقدَّسةٍ من أغوار ذاته، في مأمنٍ من كلّ تأثيرٍ خارجيٍّ. ومثلما أنشد للكائنات، أنشد للموت الذي استوى معها في حبّه، فهو، أيضًا، أخٌ منقذٌ محبوبٌ.

ولا غَرْوَ أنَّ فرنسيسس قد شرع يعرف الفرح الحقّ، ويُرسّخه في ذاته، فقط بعد أن هجر حياة العَبَث والمجون وأفراحها الزائفة، وبعد أن رأى، في الحياة، هبة اللّه، التي تجد تعبيرًا عنها في كلِّ حيٍّ مهما بدا صغيرًا وضئيل الشأن، فقرَّر أن يكون الأخ الأصغر للجميع ولكلّ الكائنات. وبعد أن اغتسلت عيناه من كلّ شهوةٍ، وانعتق قلبُه من كلّ

رغبةٍ في الامتلاك، بات يلقي نظرةً قشيبةً بريئةً على مخلوقاتٍ وضعها، بسخاءٍ، في متناول البشر، أبٌ حنونٌ يُطلع شمسه، ويهمي غيثَه على الأخيار والأشرار، من غير تمييزٍ.

وقد ترسَّخ فرحه واكتمل بقُبلته للأبرص، تلك القُبلة التي حرَّرته من كلّ مخاوفه وأوهامه السابقة، وحقَّقت له وعد يسوع بأن يمقت كلَّ ما كان يستعذبه، ويستعذب كلّ ما كان يبدو له مريرًا لا يُطاق. تلك القُبلة أشرعت له درب الإخاء الشامل، والتمثُّل بالمسيح في إيثار المرذولين، وهو دربٌ حافلٌ بالفرح.

وفرح فرنسيس لا ينفصل عن توبته، وتقشُّفه وفقره، فالمُطْلَق الكفيل بملء نفوسنا يجثم خلف حواجزَ لا مفرَّ لنا من تحطيمها كي نستطيع القفز إليه، وتلك الحواجز مبنيَّةٌ من عاداتنا وهمومنا وأهوائنا، وكلّ الصغارات والترّهات التي نتعلّق بها، وقد تخطّاها فرنسيس جميعها، فتدفّق في نفسه سيلٌ من الفرح الكامل.

وهو، عملاً بنصيحة الإنجيل بألاّ يُظهر الصائمُ صومَه بسحنةٍ مكفهرّةٍ، كان يَشعّ فرحًا، حتّى في غمرة احتدام أزماته، ومن ثَمّ فقد كان فرحه بطوليًّا، وكان نصرًا يُحرزه باستمرارٍ، بفضل جهادٍ مريرٍ مُكْلِفٍ. وإذ كان صريحًا، صادقًا، لا يُظهر عكس ما يُضمر، فقد جهد في إبقاء جذوة فرحه الداخليّ مضطرمةً أبدًا، كي تعكس، بأمانةٍ، الفرح الظاهريّ الذي كان يعبّر عنه بالغناء، أو عندما يستطيره الجذل، بتمثيله العزف بخشبتَيْن يلتقطهما حيثما يجدهما.

فرحه كان وليد كفاحٍ مريرٍ، وآلامٍ مُبرِّحةٍ، وظُلماتٍ داخليَّةٍ كثيفةٍ، وشكٍّ مضنٍ، وقَلَقٍ على مصير أخويّته، ظهر عليها جميعها، باستسلامه التامّ بين يدي الربّ، وتسليمه بمشيئته، فغمر نفسَه السلامُ الذي يُنتج الفرح.

وعلى نقيض الكثيرين من أصحاب البِدَع المُشبَعة بالتشاؤم، أيقن فرنسيس أنّ القلق يُولّد الحزن الذي يغتال الفرح ويخمده. فمن أقواله: «الفرح الروحيّ للنفس في مثل ضرورة الدم للجسد». أمّا الحزن فكان يُعدّه عملاً شيطانيًّا. ففي نظره، الإنسان الكئيب هو من قاطني مدينةٍ ملعونةٍ، إذ كان يدعو الكآبة «مرض بابل»، الذي يُسهِّل مهمّة إبليس، ويجعلنا عرضةً لسهامه. في حين أنّ خادم الله الذي يسعى إلى الحفاظ على الفرح لا يفلح إبليس في النيل منه، أو النفاذ إلى نفسه، فيفرّ منه خاسئًا.

ومن ثَمَّ، حذَّر فرنسيس إخوته من الكآبة، وحرَّض كلَّ أخٍ يساوره القلق أن يُكبّ على الصلاة، وألاّ يكفّ عن مواجهة الربّ حتّى يسكب في نفسه اليقين بالخلاص. ولا عجب، إذًا، إن تميَّز الفرنسيسكانيُّون بكونهم جماعةً من الإخوة الفَرِحين، الذين يجهرون بخلاصهم بواسطة يسوع، وبفرح القيامة الحافل بالرجاء، وبمجيء عالَمٍ جديد.

إنّ الفرح الفرنسيسكانيّ تعبيرٌ عن القناعة برحمة الله التي تتجاوز كلّ خطايانا. فنادرًا ما بكى إنسانٌ في مثل مرارة فرنسيس، ولكنّه ما انفكّ، أبدًا، فرحًا لقناعته برحمة الله اللامحدودة، تلك الرحمة التي تدعو إلى الرأفة بجميع الخاطئين ومحبّتهم، على نحو ما يرأف الله بهم ويُحبّهم.

فرح فرنسيس فرحٌ فذٌّ، لأنَّه نابعٌ من تحرّره، ومن مشاركته المسيح قيامته. إنّه فرحُ من يرى في كلّ صباحٍ جديدٍ رمزًا للتحرُّر والانطلاق، فرحُ من أكَّد له الربّ أنَّه سيخلص، فمضى يجوب العالم، بثوبٍ واحدٍ رثٍّ، بلا مالٍ ولا زادٍ سوى ابتسامةٍ مُشرقةٍ، يشدو تحرّره وحنينَه إلى الملكوت.

فرحُه فرحُ مَن تحرَّر من العبوديّة، وصار ابنًا لله، يُحبّ بلا حدودٍ، ويفعل ما يوحيه له الحبّ، وينقلب سيره رقصًا لأنَّ الله إلى جانبه، ولا يكفّ عن إنقاذه، حتّى وهو غارقٌ في بحثه القَلِق. فرحُه فرحُ من يرى العالم بعيونٍ غير عيون البشر، ويكتشف في ثناياه القيمة الإلهيّة التي تملأه، يراه عالمًا غسله دم المخلّص، فاستعاد انسجامه، وقد أنشد له فرنسيس بدهشةٍ وغبطةٍ.

فرحه نابعٌ من حبٍّ كثيفٍ يتقبّل كلّ السلبيّات البشريّة؛ وإنّ من ارتقى مثل تلك القمّة من الحبّ، لا يعود شيءٌ قادرًا على تهديده؛ إنّه فَرحُ مَنْ أحكم السيطرة على ذاته إحكامًا كاملاً، فلم يعُدْ يتغيَّر له موقفٌ، سواءٌ هو تسلّق أسمى الذرى، أو قُذِفَ به إلى جحيم المهانة، ولا عجب، بالتالي، إن هو دعي «الأخ الفَرِح دائمًا».

ولا شيء كان أعذب على قلب ذلك الفقير الصغير من رؤية البهجة الروحيّة التي تتغذّى بالتجرُّد وتتجاهل خيبات الأمل، والاندفاع الجَذِل الذي يُفعم قلب الفارس سعادةً، لكونه يخدم أفضل الأسياد وأطيبهم وأقواهم، يتجلّيان في إخوته. فذات يومٍ عاد أحد الإخوة من جولة تسوُّلٍ، وهو يُنشد، فهرع نحوه فرنسيس، وتناول جرابه،

وقَبَّل كتفَه، ثُمَّ أمسك بيده وهتف: «فليكن مباركًا أخونا الذي مضى يستعطي، من غير أن يُطلب منه ذلك، ثمّ عاد إلى البيت متهلِّلاً».

ومرَّةً أُخرى، شاهد أخًا نَكِد السحنة، فقال له: «إن كانت خطاياك هي التي تحزنك، فهذا شأنٌ بين الله وبينك، فامضِ واستغفره، ثُمّ ارجع مُشرقَ المحيّا». بيد أنّ حالاتِ النَكَد هذه كانت نادرةً استثنائيَّةً، فالفرح الدافق هو طابع الأخويّة.

لقد كتب جوليان غرين، في هذا السياق: «إنّ حياة راهبٍ فرنسيسكانيٍّ، مثلما كانت حوالي عام ١٢٠٠، تبدو لنا استشهادًا، لأنَّنا لا نلمس منها سوى مظاهر القسوة فيها التي تأباها نظرتنا إلى الرفاه، ولا ندرك فيها فرحًا داخليًّا يَنِدُّ عن الوصف، يُمثِّل المقابلَ لذلك الفقر المريع (في نظرنا). لقد كان أولئك الرجال سكارى بالفرح، بفرحٍ تعجز مُتعاتُنا التعيسة عن الدُّنُوِّ منه». ومن جهةٍ أُخرى ينطوي فرح فرنسيس على مغزًى كبيرٍ، وهو أنَّ الفرح متاحٌ أيضًا للفقراء الذين، على غرار فرنسيس، لا يمتلكون شيئًا، وأنّه ليس وَقْفًا على الأثرياء والمَحْظِيِّين، بل إنَّه ثمرة الفقر الطوعيّ، لأنّه روحيٌّ، ينبجس من أعماق الوجدان، وليس مادّيًّا أو اقتصاديًّا، أو ناجمًا من عوامل خارجيّة. فمن لا يملك ما يخاف عليه، ومن لا تحفزه الرَّغبات المستبدّة، ولا يشعر بافتقاره إلى شيءٍ، إنّما هو أغنى بني البشر، وأكثرهم فرحًا.

وقد بلغ فرح فرنسيس أوجه، عندما ضرب جذوره في رغبة التشبُّه بالمسيح، ولا سيَّما المسيح المصلوب، فمذ اقترن فرنسيس بالفقر خَبَرَ الجوع والتشرّد، وتعرَّض للقرّ والقَيْظ والعواصف وتقلّبات الأنواء، كما تعرَّض للإهانات والازدراء، وللاتّهام بالجنون، ولتنكُّر ذويه، ولازورار إخوانه عنه، وفي كلّ ذلك تمتَّع بفرح مشاركة مصير حبيبه يسوع، فتصاعدت من أعماقه تلك الصيحة الملتهبة: «أسألك، اللهمّ، أن تسيطر بقُوّة حبّك الحارقة العذبة على نفسي، وتنتزعها من كلّ ما هو تحت السماء، كي أموت حبًّا بحبّك، مثلما تنازلتَ أنت، ومُتَّ حبًّا بحبّي».

لقد كان فرنسيس، لزمانه، نَغَمًا ساحرًا، وما انفكَّ سحره غلاّبًا، يستحوذ على بشريَّةٍ تفتقر إلى من يُلطّف أحزانها، بشريَّةٍ تقف على عتبة الألف الثالث، واليأس يتربّص بها. ولكنّ فرنسيس يدعوها إلى أن تعتلي فوضاها، وترنو إلى السماء، وتُنشد برجاءٍ وفَرَحٍ.

«يريد العالم أن يسلبنا طفولتنا، لأنّ العالم يقوده الشيطان»

(جوليان غرين)

روح الطفولة

بساطة فرنسيس وفرحه قد تجلَّيا في روح الطفولة الذي وَسَمَ كلَّ سلوكه، طفولةٍ هي دَهْشةٌ أمام جمال الخليقة الذي يسطع، في كلّ لحظةٍ، قشيبًا؛ وهي صدق علاقاتٍ مع الآخرين متحرِّرةٍ من كلّ رياءٍ وحيطةٍ، وغشٍّ، وازدواجيّةٍ؛ وهي عفويّةٌ في تصرّفٍ يزري بالتقاليد الرائجة، وبحكم الآخرين. وقد تميّزت بعض تصرُّفات فرنسيس، من جرّاء روح الطفولة، بنكهةِ شقاوةٍ، مثل إرساله روفان للوعظ في كاتدرائيّة أسّيزي، في زيٍّ خفيفٍ مُخْتزَلٍ، مقتصرٍ على شعاراته الداخليّة، ولحاقه به في نفس الزيّ، تكفيرًا عن إحراجه؛ ومثل سرقته لبعض عناقيد عنبٍ إنقاذًا لرفيقه الحبيب ليون المتهاوي جوعًا، تلك السرقة التي كلَّفته بضع ضرباتٍ بالعصيّ نَظمَ فيها شعرًا ساخرًا؛ ومثل أمره أحد الإخوة بربطه من عنقه بحبلٍ، وجرّه في شوارع أسّيزي، مُعلنًا اقترافه خطيئة النَّهَم. ولقد حفلت سير الإخوة الأوائل بطوائف من أمثال تلك الطرائف الممتعة.

ويتجلّى روح الطفولة أكثر ما يتجلّى، لدى فرنسيس وإخوته، في اتّكالهم المطلق على الربّ على نحو ما يثق الطفل أنّه، بتعويله على والديه، يستطيع كلَّ شيءٍ، رغم ما يعتوره، في ذاته، من عجزٍ ووهنٍ. إنّ روح الطفولة هذا هو الذي اقتضاه يسوع شرطًا لولوج الملكوت.

ويبرز روح الطفولة الفرنسيسكانيَّة، أيضًا، في سلوكٍ عامٍّ، مبنيٍّ على «البساطة الطاهرة المُقدَّسة»، التي كان فرنسيس يعدُّها أُختًا للحكمة، لأنَّها تُؤَهّل لرؤية الله، على حدّ قوله: «من يدرس الكتاب المقدّس بتواضعٍ، ومن غير ادّعاءٍ، يبلغ بيُسرٍ إلى معرفة ذاته، ومعرفة الله».

وبفضل هذه الأولويّة التي أولاها الفرنسيسكانيّون للحَدْس والمحبّة، ظلَّ روح الطفولة خفَّاقًا في قلوبهم، رغم جنوح بعضهم إلى التوغّل في علوم اللاهوت.

وفي سلوك فرنسيس براءةٌ مُذهِلةٌ، تجلَّت، على أروع وجهٍ، في علاقته بالطبيعة،

وفي حَدَبه على الكائنات جميعها، وفي قدرته على التعاطف مع الفقراء، وتآخيه مع عناصر الكون، وحتّى مع الموت. وما البراءة سوى الاحتفاظ بألَق الطفولة في الكهولة، بحيث يستبقي كلُّ شيءٍ طلاوته، ونقاءه، وجدَّته، وزهْوَ ألوانه. هذه البراءة تُولّد الدهشة والسحر، وتُفضي إلى الروحانيّة، وتُعبّر عن ذاتها، غالبًا، بالشعر.

«لا جَرَم أنّ القدّيس فرنسيس كان أعظم شعراء الدنيا، بحيث يسوغ التساؤل هل القداسة هي الشعر في شكله المُطْلَق».

(جوليان غرين)

شاعر الخليقة

لقد كان فرنسيس شاعرًا فذًّا، بفضل قدرته على التقاط الرسالة السامية السرِّيَّة المنبعثة من كلّ كائنٍ، وبفضل الحبّ الخفَّاق بين جوانحه، الحبّ المُطهَّر من ثِقل الأرضيّ، والذي بتحرّره من كلّ عبءٍ، بلغ نبع سحر كلّ حبّ، أي الله الذي يهب ذاته في كلّ شيءٍ، وعبرَ كلّ شيءٍ.

لقد كان شاعرًا لأنَّه استعاد وضع البراءة الأصليّة، التي لا تجهل الشرّ، ولكنّها ترى الخليقة، أبعد من الشرّ، في مستقبل المسيح المتجلّي، فرأى كلَّ شيءٍ نقيًّا، ولأنَّه احتفظ بنظرةٍ مُفْعَمةٍ دهشةً وإعجابًا إلى الخليقة والبشر، إلى الحاضر والمستقبل، رغم تبصُّره البؤسَ والخطيئة.

فقد كان يرى الخليقة عملاً متَّصلاً يقوم به الخالق المخلّص، رغم مأساة الخطيئة، يقوم به الثالوث الأقدس بكلّ الحبّ الذي يجمع أقانيمه. ذلك السرّ كان يسحر فرنسيس، ويُلهب خياله، ويُفعم قلبَه حبًّا لكلّ ما يصنعه الربّ.

كان يدنو إلى الكون بنظرةٍ مسيحيّةٍ، يرى بها يسوع بدءًا ونهايةً ومركزًا لكلّ شيءٍ، مُسبغًا على الكون المخلوق كلّه معنًى وعظمةً، وديناميكيّةً. لا بل كان يرى أنّ سرّ نُبل الجسد البشريّ مستمدٌّ من المسيح، على حدّ قوله: «تأمَّل، أيُّها الإنسان، مدى الكمال الذي رقّاك إليه الربّ، فقد خَلَق جسدك، وصاغه على صورة ابنه الحبيب، وابتدع روحك على شبه روحه».

لقد خلق الله كلَّ شيءٍ بواسطة ابنه، ومن أجل ابنه، وعندما كوَّن الكون كان تجسُّد ابنه ماثلاً في فكره.

وفرنسيس كان يجد في كلّ مخلوق مرآةً تعكس حبَّ الله، فيتأمّل بإعجابٍ وإجلالٍ وحبٍّ، صانعَه، ويعزو إلى الخالق كلّ صفات الخلائق التي كانت له مدرجةً للتسامي

إلى من هو السبب الأَوَّل، ومبدأ كلّ حياةٍ. كان كلُّ جمالٍ في الكون يستدعيه إلى تأمّل الكُلّيّ الجمال، فيتبيَّن في كلّ جميلٍ الجمالَ الأمثل الكامل، وفي كلّ خليقةٍ يكتشف الخالق، حتَّى غدت له الخليقة سُلَّمًا يتسلَّقه نحو عرش الله، وغدا للكون معنًى كبيرٌ لأنَّ له خالقًا صنعه بحبٍّ، فالأزاهير قُبُلاتُه، والطيور رُسُلُه، والمخلوقات كلُّها نَبَضات قلبه، ومن خلالها يستنشق فرنسيس عبيره، ويستشفّ ضياءه.

وبما أنَّ جميع الكائنات تنتمي إلى أبٍ واحدٍ هو الله، فإنّ علاقات إخاءٍ تنتظمها جميعًا، وفرنسيس يرى في الكون ابنًا للّه وأخًا للمسيح، ومن ثمَّ فإنَّ حبَّه الكونيّ يمتدّ إلى أبعد من الإخوة البشر، إلى كلّ الكائنات. وذلك الحبّ لا يني يتغذّى من الطبيعة الفسيحة المُشْرَعة بسخاءٍ أمام تأمّله وإعجابه، فيبعث رُواؤُها في حنايا نفسه دهشةً وفرحًا يندّان عن الوصف. إنَّ فرنسيس، على غرار معلّمه يسوع، يستقي شِعره مباشرةً من جمال الكون الماثل بين يَديْه وأمام ناظرَيْه.

كثيرون سواه استشهدوا بالكائنات لتمجيد الربّ، ولكنَّه كان أَوَّل من أقام معها علاقات إخاءٍ، ودعا عناصرها إخوةً وأخواتٍ، وعاش تلك العلاقة بصِدْقٍ وعمقٍ مَكَّناه من ممارسة نوعٍ من السِّحر عليها، سواءٌ هي كانت طيورًا وكواسر، أسماكًا وزواحف، بل حتّى الجماد، بحيث باتت النار تُحرقه ولا تؤلمه، وأيُّ شعرٍ في مناشدته إيّاها أن تكون رفيقةً به!

بفضل تأنّس يسوع، تقدَّست الخليقة، وتألّه الإنسان، وتصالحت الخليقة مع النعمة وغدا جميعُ الإخوة المخلوقين على صورة الله محبوبين، وأمست جميع الخلائق مُكلَّفةً بقيادتنا إلى المسيح، ومن ثَمَّ يتَّضح أنّ سرّ التجسُّد هو مُلهم فرنسيس ومِحْوَر تأمّله.

وبفضل الصداقة الصافية، وعلاقات الإخاء التي عقدها مع الأشياء كلّها، أوجد فرنسيس في ذاته فردوسًا أرضيًّا، يسود فيه جميعَ الكائنات إخاءٌ مطمئنٌّ، في أحضان بنوّة أبٍ واحدٍ، ففي المنزل الأبويّ الفسيح، الجميع وكلُّ شيءٍ على وئامٍ تامٍّ حميمٍ، من غير عداوةٍ ولا تهديدٍ، بين إخوةٍ وأخواتٍ.

ذلك الفردوس المسحور لم يتبلْوَر، في حنايا فرنسيس، إلاّ غِبَّ مسيرةٍ طويلةٍ من التطهّر الداخليّ، وعزوفٍ عن العالم، أتاحت له غَزْوَ العالم من جديدٍ.

إنّ ما يَحول دون رؤية سواد الناس لجمال العالم، واستشراف سنى أسراره، هو

نظرتهم إليه من خلال مصالحهم ورغباتهم الوبيلة في إخضاعه وكأنّهم خالقه، ولا عَجَب، بالتالي، إن حَفلت نظرتهم إلى الكون بالحزن، لأنَّهم ما عادوا يرون فيه سوى موادّ للاستغلال والاستهلاك، بوحيٍ من التقدُّم التقنيّ المغرور؛ ومن ثَمّ، فَقَدت الأشياء بُعدَها الرمزيّ، بعد أن غاب الله عنها، وفقدت قدرتها على الإدهاش. فحتّى السماء المزدانة بالكواكب لم تَعُد مكانًا يُشيد بحمد الله، بل أصبحت مجالاً للاستكشاف والاستغلال، بل للحرب أيضًا! وعندما ينكفئ المرءُ على ذاته، وعلى أفقه الضيّق، وعلى أنانيّته، فهو غالبًا ما يفقد أحلامه.

أمّا فرنسيس، فقد أيقظ بَصَره يسوعُ، الذي دعانا إلى أن نستشفّ من خلال العالم الذي نعيش فيه، عالَمًا أجمل هو عالَم الملكوت، وأن نستقري في عالمنا هذا عملَ الآب، الذي يهيب بنا إلى مشاركته في خلقه، وإتمام ما بدأه، وإن نحن فعلنا، لم تَعُد الخليقة واقعًا جامدًا، بل هي تتجلّى عالَمًا حيًّا يُكلّمنا عن الله.

لم يلتمس فرنسيس من الخليقة رغد العيش المادّيّ، ولا وفرة الموارد الطبيعيّة، بل المشاركة مع مخلوقاتٍ تكشف له، في كلّ لحظةٍ، أسرار محبّة أبٍ كريمٍ، مالكِ كلّ خيرٍ وموزّعه.

تلك الحقيقة قد عاشها فرنسيس حسِّيًّا كما لم يَعِشْها أحدٌ سواه، شعورًا بالتآخي مع جميع الكائنات، وإحساسًا صوفيًّا ببنوّة الله الشاملة. لقد مارس الفقر، وفقرُه كان موقفًا من الأشياء يفسح لها إمكانيّة الوجود، بعزوفه عن إخضاعها واستغلالها والتسلّط عليها، فهو لا يُقيم فوقها، بل معها وإلى جانبها؛ وهذه الأشياء تُمجّد باريها بمجرّد وجودها.

بصدوفه عن كلّ رغبةٍ في التملّك والسَّيطرة والاستئثار، تحرَّر فرنسيس من كلّ ما يفصل عن الواقع الرائع الفسيح، وغَمَرَه الشعورُ بغنى محبّة الله، الذي يُتيح التمتُّع بكلّ روائع الخليقة، تلك الروائع التي هي الصورة المرئيَّة لمحبَّة الله وكَرَمه، والتي لا يراها سوى من انعتق من مُتطلَّبات المنافع المادِّيَّة.

لقد تخلّى عن كلّ شيءٍ فأُعيد له كلُّ شيءٍ: وانغمس، بتواضعٍ وتجرُّدٍ، في نبع الكائنات الخفيّ، فَغَمَره الشعورُ العذبُ بالتناسق الكونيّ الشامل الأخويّ، ولم يَعُد العالم يبدو له كُتْلةً غامضةً عمياء، بل أشرع أمامه كتابًا مفتوحًا، وغدت الكائنات والأشياء تتمتّع بكثافةٍ خارقةٍ، تُعبّر عن شيءٍ من كيان الله نفسه، وتبوح له بأمورٍ جوهريَّةٍ

حول المصير، وتنير له معنى الخليقة المضيء، فكلّ ما يشقّ طريقًا نحو سرّ نبع الحياة يُصبح إشارةً ورمزًا.

لقد اعتلن له العالم، فاشترك في حياته العميقة، وفي انطلاقه نحو العليّ. ولطالما صبا إلى الانعتاق من الأرض، كي يحدّق إلى ما لا يحدّه وصفٌ؛ وبما أنَّ ذلك الصُّبوّ يمرّ عبر مشاركةٍ أخويَّةٍ مع جميع المخلوقات، فقد اتَّخذ من الكائنات كلِّها إخوةً وأخواتٍ حملوه وساندوه، وبصحبتهم شَخَص نحو الله، وبذلك تمَّ له الفصح الإلهيّ، أي العبور إلى عالَم الملكوت، ممَّا أضفى على سيرته بُعدًا وألَقًا كونيَّيْن.

وجديرٌ بالتنويه أنّ حبّ فرنسيس للعناصر هو وليد عشرةٍ طويلةٍ معها. فلطالما تآخى والأرضَ التي افترش أديمها العاري، وعلى سطحها القاسي جثا الساعات الطوال يناجي الخالق؛ وخَبَر، في جسده، القيظَ والقرّ، الهواء اللاسع والنسيم العليل، وعايش الشمس الساطعة، والحجارة التي توسَّدها وداسها بقدمَيْه الحافيتَيْن، والماءَ الذي ارتشفه واستحمّ به، والنجوم التي آنست لياليه وأسفاره، والأعشاب والزهور التي واكبت مسيراته، وعليها استراح نظره. ولقد سحره، على نوع خاصٍّ، النورُ، فتألَّق في عينَيْه الشمس والقمر، والنجوم والنار، رمزًا لفجرٍ لا حدودَ له.

لقد عايش كلّ تلك العناصر، شاعرًا أنَّه وإيّاها من صنع يدٍ واحدةٍ حنونٍ، وتنتظمه معها أواصر الأُخوَّة؛ ومن قلبه النابض حبًّا أخويًّا، كانت تشعّ حرارةٌ تمتدُّ إلى الكائنات جميعها، وتنفُذُ إلى أغوارها، فتجعلها أكثر نورًا، وصِدقًا وسلامًا وشفافيّةً. كان يعيش معها في حالة دهشةٍ دائمةٍ، ودهشتُه انقلبت نَشيدًا بلا حدودٍ: نشيد إيمانٍ، ورجاءٍ، وغفرانٍ، ومصالحةٍ شاملةٍ في المسيح يسوع.

وكانت الترجمة الحسِّيَّة لهذه الدهشة، ولتلك العلاقات الحميمة بالكائنات، نشيد الخلائق الذي سَكَن أبدًا في صدر فرنسيس، وتدفَّق منه، في غروب حياته. ذلك النشيد لم يكن وصفًا خارجيًّا للكائنات، ولا لما قد توحيه من أحاسيس مادّيّة، فهو، عندما أَنشده، كان قد فَقَد القدرة على الرؤية. لقد كان ذلك النشيدُ تعبيرًا عن سحرٍ داخليٍّ، وعلاقةٍ حميمةٍ، وعن تجربة إنسانٍ لم يعد يخشى عناصر الكون، بل عَقَد معها معاهدة مصالحةٍ وحبٍّ وسلامٍ. ذلك النشيد لم يكن مُمكنًا ما لم يكن وليد مصالحةٍ تامَّةٍ تعرَّت فيها الطبيعة من كلّ جلابيب الظُّلمة والخوف، وغدت مضيئةً شفَّافةً، بل غدت مرآة نفسٍ اتَّحدت واستنارت فيها قوى الرَّغبة والحياة، في حبٍّ وحيدٍ جبَّارٍ.

ولقد جعل الفرنسيسكانيّ إيلوا ليكلير من نفسه لسانَ حال فرنسييس، وهو أكثر من توغَّل في استقراء روحانيّته، فكتب مفسِّرًا ذلك النشيد الفريد:

«إن كان لنشيدي سنى الصباح

فلا تنخدعوا،

فإنَّما هو كذلك لأنَّه انبعث عندما شرع الليلُ يطوي سجوفَه؛

وإن الْتَمَع نشيدي بألَق نورٍ وليدٍ،

فلأنَّ جميع دموع الظلِّ فيه

تتوهَّج، فجأةً، وكأنَّها قطراتُ ندًى.

وإن كان نشيدي ساجيًا كاللازَوَرْد،

فلأنّه اجتاز العاصفةَ والبرقَ المُريع،

واضطرمت فيه نارٌ غدتْ صافيةً طاهرةً.

ولئن كان نشيدي، نشيد الخلائق كلِّها

فلأنّه نشيد الوحدة الكبرى،

نشيد السائح الميمّم شطرَ نجمةٍ فريدةٍ.

ولئن كان نشيدي هو نشيد البشر،

فلأنّه كان أقوى من كلِّ عنفٍ،

وكلِّ صمتٍ،

لأنّه نشيد كلِّ غُفرانٍ.

لقد بتُّ أعمى لا أبصر الشمسَ

ولا سطحَ الأشياء المُتوهِّج،

ولكنَّني أسمع الخليقةَ تستيقظ في داخلي.

لست أخشى الموت. وفوق نفسي العارية

المُشرَعة لكلّ نفحات الروح،
يهبّ نسيم خليقةٍ جديدةٍ.
نشيدي وَسْوَسة نبعٍ عميقٍ
في أغوار الرَّغبة.
إِنّه سيلٌ يتوثّب نحو منبعه
في قلبِ كلّ حياةٍ».

صحيحٌ أنَّ قصائد فرنسيس المكتوبة التي وصلت إلينا، قليلةٌ جدًّا؛ بيد أنَّ فرنسيس كان يعيش قصائدَه أكثر ممّا يكتبها. كان يتخيَّل ملاحم رائعةً، ويُؤدّي بنفسه أدوارَها الرئيسيّة. كان الشِّعر يفوح في أقواله أكثرَ ممّا في كتاباته، وفي أفعاله أكثر ممّا في أقواله.

أمّا القصيدة العصماء الرائعة الكاملة فكانت حياته.

القدّيس فرنسيس يشفي رجلاً جريحًا

«تُعلّمنا المسيحيَّةُ أنّ الإنسان يبلغ ذروة الكمال عندما يُحبّ بلا حدودٍ».

(كارل شتيرن)

«قياس الحبّ، حبٌّ بلا قياسٍ».

(القدّيس برنارد)

محبَّةٌ وإخاءٌ وسلامٌ

لقد جعل يسوع من المحبَّة المتبادَلة العلامة المميِّزة لأتباعه، بقوله لرسله: «فليُحبَّ بعضكم بعضًا كي يعرف الناس أنَّكم تلاميذي».

وفرنسيس الذي كان جُلُّ مبتغاه اتّباع يسوع بأمانةٍ، قد مضى إلى أقصى شوطٍ في ممارسة المحبَّة، حتّى بات لها وللإخاء الشامل الرمزَ والنبيّ. وكان رائده، في ذلك، حبّ يسوع الفادي المذهل، الذي يندُّ عن كلّ وصفٍ. لقد أحبّ فرنسيس المسيح حبًّا مُطلَقًا، وكان، إذا ما تكلَّم عن حبيبه يسوع، ينقلب شخصًا آخر، فيُشرق وجهُه، ويرتعش كيانه كلّه.

ولا بِدْعَ، بالتالي، إن غدا طابعَ السلوك الفرنسيسكانيّ المميِّز، ودافعه، وأساسًا لفضائله، حبٌّ تلقائيٌّ، حرٌّ، ملتهبٌ، مجنونٌ، غير مُقيَّدٍ بصيغةٍ أو أسلوبٍ، ويبدو غير معقولٍ، لأنَّ حبَّ المسيح كان كذلك، فحبّ يسوع هو مبرِّره الأوحد. وقد عبَّرت حياة فرنسيس كلُّها عن ذلك الحبّ، في اندفاعٍ لا يحدُّ من زخمه حائلٌ. فلئن كان للجرأة والبسالة والقوَّة، والحياة، درجاتٌ ومعاييرُ وحدودٌ، إلاَّ أنَّ الحبَّ لا قياسَ له ولا حدود، فهو لامحدود، وكذلك كان حبُّ فرنسيس.

أمرٌ واحدٌ كان يُعكّر صَفْو حبّه، هو أنَّ «الحبّ غير محبوبٍ»، أي إنَّ حبَّ يسوع لا يُقابَل بما يستأهله من حبّ البشر.

لقد كان حبُّه لله وللبشر، وللحيوانات، وللخلائق كلِّها، غريزيًّا، تلقائيًّا، طبيعيًّا، بحيث أمست الشمس والقمر، والكواكب والأرض وكلُّ العناصر إخوةً له وأخواتٍ.

كان فرنسيس يعيش ويتكلَّم، فيولد الخير تلقائيًّا من حوله. كانت الطيبة تتفجَّر منه

تفجُّرها من النبع، لا الطيبةُ الناجمة عن ضعفٍ أو كَلَلٍ أو انهيارٍ، بل المُنبثقةُ من أعماق الذات، المُفعمةُ قوّةً، وتضحيةً وتفانيًا، لا الطيبة المرتبطة بالعدل. فالعادل ليس بالضرورة طيِّبًا.

غايته كانت تحرير البشر من أوهانهم وأسقامهم، ووسيلته إلى ذلك التحرير، على نحو ما اتَّضح في علاقته مع اللصوص: المودَّة، والصبر، والاحترام والتحاشي عن الدينونة والاحتقار، بل اللجوء إلى الطيب، والأناة، والثقة في طاقات الخير الكامنة في كلّ إنسانٍ، والتي يمكن تنميتها بالتفاهم والودّ. ففرنسيس كان يستشفّ، حتّى في قلب اللصّ، أخًا قدّيسًا لا بدّ من توظيف الكثير من الطيبة والمحبَّة لتحريره. وما قصَّته مع ذئب غوبيو سوى الرمز الأمثل، والبرهان الأسطع على ذلك.

لقد جهد فرنسيس، أبدًا، في النظر إلى الخطيئة نِظرَة الربّ الكلّيّ القدرة إليها؛ فحيث نرى نحن خطأً يجب دينونته، يرى هو كارثةً جديرةً بالنجدة. إنَّ الربّ الكلّيّ القدرة هو، أيضًا، أعذب الكائنات، وأكثرها صبرًا وتنزُّهًا عن الحقد، فهو، حتَّى عندما تتمرّد خليقته عليه وتُهينه، إلاَّ أنَّها تبقى، في نظره خليقته. لا ريب أنّ بوسعه تدميرها، ولكن أيّة سعادةٍ سيجد الله في تدمير ما براه بحبٍّ جمّ؟ إنّ لكلّ ما أبدعه، في أعماقه، جذورًا متأصّلةً، وهو، من ثَمَّ، لا حيلةَ له حيال خلائقه، مثل أمٍّ حيال بنيها. هنا يكمن سرُّ ذلك الصبر الذي يثير دهشتنا أحيانًا.

إنَّ فرنسيس، على خلاف معظمنا، لا يُحرّك مستنقعات الوجود حيث تغفو الأحقاد، ونوايا الثأر والسيطرة، بل يراهن على طاقات الحبّ والحنان؛ وعلى حدّ قول إيلو لكلير: «حيث لا نلمح، في معظم الأحيان، سوى نقائص ونوايا خبيثةً، يكتشف، هو، منذ الوهلة الأولى، مرارةً كمينةً، وكتلةً من الطيبة مجهولةً، وبالتالي، كائنًا ينبغي إنقاذه. إنّه، بالإجمال، إنسانٌ طيّبٌ، طيِّبٌ حتّى أعماقه».

ولقد أثبت فرنسيس، بنهج حياته، أنَّ على من يروم القداسةَ أن يكون إنسانيًّا، والإنسانيَّةُ رهافةٌ وحنانٌ.

عندما كان فرنسيس وحيدًا حائرًا، وحدَه المصلوب رَمَقه بعطفٍ، فتعلَّم العطف من ذلك المصلوب الممجّد، من ذلك الإله الذي ارتضى أن يغدو هشًّا ومزدرًى، أكثر من أيّ إنسانٍ، حبًّا للبشر. لقد نصب يسوع ذاته ذائدًا عن حياض جميع المرذولين: من

عَبَدة أوثانٍ، وسامريّين، وبغايا، وعشّارين، وجنود احتلالٍ، ومسكونين بأرواحٍ شرّيرةٍ، وبُرصٍ، وذوي عاهاتٍ ميؤوسٍ منها، ومَن انصبَّت عليهم لعنات رجال الدين وحُرُمهم، ولقد أحبَّهم جميعهم حتّى مات فداءً عنهم.

ذلك الحبّ قد أثَّر في فرنسيس، وسَكَن أغوار أحشائه، فهو قد تعلَّم، من تأمّله في حياة المخلّص، أنّ المحبَّة هي عدم اليأس من أيٍّ كان، وأنَّ أكثر من يفتقر إلى الحبّ هو العاجز عن منح الآخرين حبَّه. ولقد اكتشف، من العيش في جوار الربّ، أنَّ الرحمة ليست إحدى صفات الله، بل هي جوهر كيانه، وأنّ الأخطر من الخطيئة هو دينونة الخاطئ وازدراؤه. إنّ فرنسيس، على غرار يسوع، يثق بالجميع حتّى باللصوص، وهو، بالثقة والحبّ، يعلّمهم الإيمان، ويجتذبهم إلى يسوع.

ولئن هو غدا لكلّ كائنٍ أخًا، فلأنَّ حنان الآب سحره، ولأنّ الابن الأبديّ، يسوع، قد ربط مصيره بمصير كلٍّ منّا. لقد عاش، بعمقٍ، علاقة الله الآب، ويسوع الابن المتجسّد، أخي أبناء الله بالتبنّي؛ والإيمان بتلك العلاقة يفضي إلى علاقات إخاءٍ حميمةٍ تنتظم البشر أجمعين. وهكذا أضفى فرنسيس على المحبَّة والإخاء الشاملَيْن أبعادًا صوفيّةً رائعةً، ساميةً.

إنَّ المهمّة التي أناطها به المصلوب هي مهمّة جمع البشر الذين أشفى مجتمعهم على الانهيار، من جرّاء انقسامه وتمزُّقه، بِملاط الإيمان، على نحو ما حاول يسوع نفسه إنقاذ البشريّة من الدمار، إيمانًا بإخوته البشر، ذلك الإيمان الذي دفع به إلى الصليب.

وبفضل ما مارسه فرنسيس من فقرٍ مطلَقٍ، وما ولَّده ذلك الفقر من نقاء قلبٍ تامٍّ، وتحرُّرٍ من كلّ أنانيَّةٍ، أحبَّ فرنسيس جميع البشر، بلا تمييزٍ، سواءٌ هم كانوا نبلاء المحتد أو قطّاع طرقٍ، مؤمنين أجلّوه واتّبعوه، أو غير مؤمنين، يتمنّى بذل دمه في سبيل اجتذابهم إلى الإيمان بيسوع.

إنَّ ما دفعه نحو البشر، أيًّا كانوا، بُرْصًا أو لصوصًا، أو سلطان المسلمين، إنّما هو فعل إيمانٍ: ففي كلٍّ من هؤلاء، وفي كلّ إنسانٍ، كان يرى قَبَسًا من ذاته، وتتحرّك فيه أحشاء الإنسان تجاهَ الإنسانِ فيهم.

لقد كان رجلَ المشاركة، والمشاركة تبادُلٌ مُطمئنٌّ بين أناسٍ تجمعهم ثقةٌ متبادَلةٌ؛ وعندما تنتفي الثقة، يستعيض عنها الناس بالشرائع والقوانين. أمّا فرنسيس فلم يطلب، قطّ، من القانون، ما لا يمنحه سوى الإيمان.

اختباره الأوّل لذلك الإيمان كان قد اجتازه بنجاحٍ، بقُبلته للأبرص. فهو، إزاء البُرْص، وجد نفسه، فجأةً، في مواجهة أصعب الأمور على نفسه وقعًا، وأكثرها إثارةً لنفوره، بل في مواجهة قرار حاسمٍ لمصيره: فإمّا أن يفرّ قافلاً إلى عيشه المطمئنّ، أو يدفع مالاً ويظلّ بمنأًى عن أيّ تورُّطٍ، وإمّا أن يجابه التحدّي، وينغمس في مواجهةٍ لطالما خشيها وتحاشاها. وقد وطّن العزم على التعاطف مع البُرْص، والخروج على النظام السائد الذي لا يُقرّ إلاّ بوجود الأغنياء والمحظيّين وذوي النفوذ.

وتعاطفه مع البُرْص قد حرّك كلَّ أحشائه وإنسانيّته وحنانه.

وقد تجلّى حنانه في علاقاته الإنسانيّة، إذ توخّى أن يكون جميع البشر إخوةً ينتظمهم الوئام، وهو، لجميعهم، «الأخ الأصغر». وحنانه الأعظم كان يتَّجه إلى من هم في أشدّ الحاجة إليه، كالفقراء والمرذولين، فكأنّ ارتداده إلى الله كان ارتدادًا إلى الفقراء ومصلوبي الحياة، ومن ثَمَّ المسيح الفقير المصلوب؛ وقد بات الفقير، والمسيح الفقير، في نظره، واحدًا، وغدا يهرع إلى مؤازرة كلّ من صلبته الحياة، وصلبه الناس، ويرى المسيح المهان في كلّ مكانٍ، فيبادر إلى وقاية حتّى الديدان الزاحفة من الدَّهس، لأنَّها كانت تُذكِّره بيسوع.

وانقلبت الرأفة، عنده، محاولةً للقضاء، لدى كلّ مرذولٍ متألّمٍ، على شعوره بالنبذ، وبالإقامة على هامش مجتمع الأصحّاء والأقوياء، وذلك بفضل حبٍّ صادقٍ، وبذلٍ سخيٍّ: فالأبرص الذي يمدّ كفَّه مستجديًا، يظفر، إضافةً إلى الحسنة، بقُبلةٍ مفعمةٍ حنانًا؛ وكذلك شأن كلّ من يشعر أنَّه دون الآخرين، إذ يجد، لدى فرنسيس، معاملة الندّ والأخ، ويستعيد شعوره بكرامته البشريّة، مثل اللصّ الذي يُطعمه فرنسيس بنفسه، والحمّار الذي يروي غليل عطشه، والكاهن الفاسد الذي يُقبّل يده. وعلى حدّ قول تشيسترتون: «لم يصادف إنسانٌ، يومًا، تلك النظرة الحارقة في تَيْنِك العينَيْن البنِّيَّتَيْن، ولم يحصل لديه اليقين بأنَّ فرنسيس بيرناردوني يهتمّ حقًّا به، وبحياته الداخليّة الفريدة... وأنّه يهتمُّ به اهتمامًا جدِّيًّا».

ذلك الاهتمام بات لديه دافعًا لا يُقاوَم، فلم تقوَ حتّى الأمراض المضنية التي حلَّت به على طيّه على نفسه، وصرفه عن العناية بإخوته والقلق عليهم.

وعطف فرنسيس لم يكن، قطُّ، فكرةً مجرَّدةً، مُبْهمةً، بل كان واقعًا معاشًا، وكان

ينصبّ على كلّ فردٍ يلقاه، شخصيًّا. فهو لم يحفل، قطّ، بجمهورٍ مُغْفَلٍ كذلك الذي يتظاهر الديماغوجيّون بمداعبته ومداهنته، بل إنّه أحبَّ كلّ إنسانٍ التقاه، بصدقٍ، حبًّا وجد في الواقع ترجمته.

فالرأفة، لدى فرنسيس، هي مشاركةٌ صادقةٌ في ألم الآخرين وبؤسهم. والعملُ على تلطيفهما، على نحو ما برهن بمعالجته للبُرْص، ومؤاكلتهم في طبقٍ واحدٍ، ومعايشتهم.

ورأفته هي، أيضًا، ضربٌ من التحدّي، يودّ، به، حثَّ الناس على بذل ذواتهم، وبيانَ مدى المشوار البعيد الشوط الذي يمكن اجتيازه حبًّا بالمسيح، والفردوسَ الأرضيّ الذي يمكن إرساء أسسه، حيث يتبارى الجميع في العطاء، وفي نسيان الذات، وخدمة الآخَرين؛ تحدٍّ يهزّ اللامبالاة، ويوجع وجدانَ الأنانيّين، ويبعث على تجاوز الذات.

ولقد كان التجاوب مع حنان فرنسيس رائعًا، في عصره، فقال شيلانو: «لم يهزَّ العالَم نداءٌ مماثلٌ منذ عهد الرسل» إذ تكاثرت المبرّات بوحيٍ من أعماله وأقواله. ويقول ريلكي: «إنَّ عودة «فقيرٍ صغيرٍ» إلى قرننا العشرين، قد يحطّم أنانيَّة عالَمنا ويُحيلها أشلاءً متناثرة».

لقد أفلح فرنسيس في إسقاط العديد من الأقنعة، وبرهن على أنَّ الواقع الإنسانيّ ليس نظامًا جامدًا، ولا هو فكرةٌ مجرَّدةٌ، بل هو تعاطفٌ جمٌّ، وطاقةٌ على الحنان لا حدودَ لها. ومن ثَمَّ فقد استطاع أن يجتاز بيُسرٍ بين الدموع والبسمات، وأن يُنشد للموت أنشودة حبٍّ. ولقد قَرَن، في قلبه، «بين السماء والأرض، وألهب بجمرة الحياة الأبديَّة، العالَم الأرضيَّ الفاني. ورُبَّما كان أكثر من عبَّر عن حبٍّ قادرٍ على توثيق علاقاتٍ مع أشدّ الناس غرابة».

ومن ثَمّ، فإنّ المحبَّة التي طَبَعت سلوك فرنسيس تُضفي على معنى الوجود بُعدًا إلهيًّا وإنسانيًّا فذًّا. فعلى حدّ قول ليوناردو بوف: «لدى فرنسيس، السعادة المتواضعة التي قد ينعم بها وجودنا الذي تحكمه شتّى المِحَن، تضرب جذورَها في قلب الآب اللامتناهي الحنان، وفي قلب الإنسان المُشرَع على التعاطف والمحبّة. فإذا ما تغذّى الوجود البشريّ بهذين الجذرَيْن، اكتشف الفرح في سعادةٍ محدودةٍ، هي عربونٌ للسعادة التي يُعِدّها الآب للجميع في ملكوته. أمّا إن نحن رفضنا تقبُّل الآب، لغدت الحياة خاويةً نكراء؛ وإن لم نعترف بالقلب وبكلّ حقوقه، لتَصَلَّب كلُّ شيءٍ، وفقد رُواءه. فبمعزلٍ عن الآب، لا خِصْبَ للقلب، ومن غير قلبٍ، تتلاشى حرارة الآب».

وقد تجلّى حنان فرنسيس في حبّه لإخوته، إذ جهد أن يكون لكلٍّ منهم توأمًا، وأن يكتشف فيه الميزات التي ينفرد بها. وقد كانت لفظة الإخاء أثيرةً لديه. لقد كان يُحبّ إخوته كما تحبّ الأُمّ أبناءها، ويحرّض الإخوة على إقامة مثل علاقة الحبّ تلك في ما بينهم؛ وكان يفيض عطفًا، بنحوٍ خاصّ، على المرضى والذين يعانون من أَزماتٍ نفسيَّةٍ.

وإنَّ «الأخويَّة» التي أسَّسها، حيث حلَّ اسم «الأخ» محلَّ الألقاب الرهبانيَّة والكهنوتيَّة، و«الإخاء» الذي نشر لواءه، قد استقطبا ألوف الشبَّان الذين سَحرهم ما تنطوي عليه معاني الإخاء من فَرحٍ، مع أنَّ الإخاء الذي كان يعنيه ليس عشًّا دافئًا منعزلاً، بل هو إرادةٌ متجدّدةٌ في الرأفة المتبادَلة والمصالحة، والمحبَّة الصافية، مُستمدَّةٌ من نظرة الربّ العطوف إلى البشر، والتي على كلّ أخٍ أن يسلك بهديها.

الإخاء كما علَّمه فرنسيس هو احترامٌ لحُرّيَّة كلِّ أخٍ، وهو تبادُل أخذٍ وعطاءٍ، تبادُلٌ مُفعمٌ حبًّا: فكلّ واحدٍ يُعطي كلَّ شيءٍ، ويتلقّى كلَّ شيءٍ؛ كلُّ واحدٍ يعيش بالآخر وللآخر، وهكذا يسمو الإخاء فيصبح اختبارًا للثّالوث الأقدس. فعندما يُبلِّغ أخٌ أخاه حاجته، فهو، من خلاله، يلتمس عون الآب، وعندما يتلقّى العون، فهو إنّما يتلقّاه من الآب، من خلال أخيه، فيختبر دور الابن الذي لا يملك من نفسه شيئًا، بل يلتمس ويتلقّى كلَّ شيءٍ، من الآب. وكذلك، فالذي يُعطي، يعطي من قبل الآب، ويكتشف في ذاته حبًّا نابعًا من الآب يخترقه ويغزو كيانه، فيختبر دور الآب، ويلمس غنى عطفه.

ومن خلال هذا التبادل يكتشف الجميع روح الحرِّيَّة والمحبّة الذي يجعل هذا التبادل نبعَ حبٍّ لكلّ واحدٍ. وعلى هذا النحو تصبح الحياة الأخويَّة مدخلاً إلى سرّ الحبّ المتبادَل بين الآب والابن والروح القدس، وتنغرس فيه.

لقد كان فرنسيس الأخ الشامل الذي يرى في كلّ خليقةٍ ملامح أخويَّةً، لأنَّ حضور الله الخلاّق يُفعم قلبه البنويّ. كلُّ كائنٍ أخٌ له أو أختٌ، من الشمس حتّى الموت، لأنَّه، وهو بعدُ على الأرض، يسكُن مجدَ السماوات، والأرضَ الجديدة، أرضَ الأحياء التي قاده إليها فقر الربّ يسوع السامي.

ونظرته إلى الكون لا حُكْمَ فيها ولا دينونة، بل هي نظرةٌ متعاطفةٌ، بنَّاءةٌ، خلاصيَّةٌ، تفيض صفحًا بلا حدودٍ، فهو، أكثر من أيّة خليقةٍ، يسامح ويتألّم، في سلام الهجران،

فلكأنّه إيقونة الرأفة الأبويّة، المُعلَنَة في الابن المتمّم القصد الأبديّ، لمصالحةٍ شاملةٍ في الروح القدس.

إنّ ما علّمه الإنجيل، وما أثبته فرنسيس بسلوكه، هو إمكان النضال في سبيل العدل، وكرامة الإنسان، من غير إثارة الضغائن، ولا سفك دماءٍ. فالمسيح لم يعلّمنا اللاعنف لكي نخسر المعارك، بل لكي نربحها بالطريقة الوحيدة اللائقة بالإنسان، أي ببذل ذاته عن الآخرين. ولقد كان فرنسيس، في إثر يسوع، من أبرز روّاد اللاعنف.

وكانت نظرة فرنسيس تتغلغل إلى أعماق الأشياء، حيث تتراجع الخلافات بين شتّى فئات الناس إلى مكانٍ قصيٍّ، وتبرز، في المقام الأوّل، تلك العلاقة الوثيقة من الإخاء التي تربطهم جميعًا، وتضعهم معًا بين يدي الأب الواحد، رغم جميع الانقسامات الدامية أحيانًا التي ولّدتها الإيديولوجيّات أو الرَّغبة في السَّيطرة.

وقد توخّى فرنسيس تجسيد تلك النظرة في أخويّةٍ مهمَّتُها نشر السلام، وأنفذ إخوته إلى العالم، حاملين ذلك الحلم، منادين بالسلام والمصالحة، فكانت «الأخويّة الفرنسيسكانيّة» عدوى مصالحةٍ، بفضل قدوة الإخوة، وعلاقاتهم الأخويّة المتبادَلة، بعد أن أهاب بهم فرنسيس أن يتنكّبوا عن كلّ نقاشٍ وشجارٍ، في ما بينهم ومع الآخرين، وعن كلّ حكمٍ ودينونةٍ، ودعاهم إلى إبداء أوفر قسطٍ من العطف نحو البشر.

الإخاء الفرنسيسكانيّ رجاءٌ مُعاشٌ في المسيح، وسط صراعات العالم، إنّه رؤيةٌ لعالَمٍ ينتصر فيه الصُّلح على الفرقة، ويتمّ فيه تجاوز كلّ شقاقٍ للانفتاح على دنيا من الحوار والمشاركة، في نفحة صلحٍ ومصالحةٍ لا حدود لها. بالإجمال، إنّه إخاءٌ يستمدّ زخمه وفحواه من سرّ الفداء.

وقد تكون مثل تلك الأخويَّة عسيرةَ التحقيق، ولكنَّها رجاءٌ عظيمٌ للعالم، عليه السعي إلى تحقيقها، بلا هوادةٍ.

فرنسيس، رجل المحبَّة والإخاء والتعاطف، يتجلَّى أيضًا رجل السلام، لا بل إنّ أكثرَ ملامحه تألُّقًا بروزه كإنسانٍ بلغ السلام الكامل، وأكمل فصح المسيح، وحقَّق مصالحةً مع ربّه ونفسه، ومع كلّ كائنٍ، ممّا جعل منه «إنسان الجيل القادم»، إنسان عالَمٍ جديدٍ.

لم يكن السلام هدفًا يسعى إليه فحَسْبُ، بل كان نَهْجَ حياةٍ، وفي سبيله رفض كلَّ عنفٍ، واستخدم وسائل الإقناع والشعر والنشيد. لقد بشَّر أبدًا بإنجيل السلام، فغدا

«مَلِك السلام». كان يُحيّي كلّ إنسانٍ يلقاه، بعبارة: «السلام لك وكلّ خير». وكان يستهلّ كلّ عظةٍ بمخاطبة مستمعيه: «فليهبكم الربّ السلام»، ويهيب بإخوته أن «امضوا وبشّروا العالَم بالسلام». وما أكثر ما وُفِّق إلى إحلال السلام محلَّ العداء والقطيعة، فعلى حدّ قول شيلانو: «كان غالبًا ما يُعطى، بنعمة الله، أن يتحوَّل أعداء السلام إلى أبناء السلام».

إنَّه لم يقتصر على الكرازة بالسلام، بل كان يخلقه بكلّ وسيلةٍ متوفّرةٍ، وكانت إحدى المهامّ الجوهريّة التي أوحاها له الإنجيل هي رسالة نشر السلام الإنجيليّ، ذلك السلام الملازم للبُشرى، المعبِّر عن مصالحة الله والبشر، عن نظرة الله الحانية على بنيه، وعن علاقته الجديدة معهم، التي تفترض مصالحةً في ما بينهم، وعلاقاتٍ مبنيّةً على أُسُسٍ أخويَّةٍ جديدةٍ.

ورُبَّما كانت مساعي فرنسيس السلميّة محدودةَ الأَثَر في زمانه، بيد أنّ صداها النبويّ ما انفكّ مُدوِّيًا في وجدان البشر؛ وفي كلِّ حقبةٍ ينهض من يتجاوب معها، ويعيد إليها زخمها ودويَّها، مثلما فعل غاندي، في عصرنا، على نحوٍ رائعٍ؛ ولا غَرْوَ في ذلك، فكلُّ مشروعٍ إنسانيٍّ عظيمٍ، يتَّصف بشمول الفكرة، ولئن كان مجال تطبيقه، في وقته، محلِّيًّا ومحدودًا.

ولقد أوجز تشيسترتون رسالة فرنسيس السلميَّة بقوله: «لقد اجتاز فرنسيس العالَم، وكأنَّه غفران الله، أعني أنَّ حياته قد سجَّلت حقبة مصالحة البشر لا مع الله فحَسْبُ، بل مع الطبيعة، وما هو أَعْسَر، مع ذواتهم».

«من نظر إليَّ أرسم صورتي فيه»

(من رسائل الصوفانيّة)

مرآة يسوع

كتبت القدّيسة كيارا، في وصيَّتها: «لقد جعل ابن الله نفسه لنا طريقًا، والأب الطوباويّ فرنسيس، حبيبه الوفيّ، والمُتمثِّل به، قد أرشدنا إلى ذلك الطريق، وعلَّمنا انتهاجَه بكلامه ومَثَله».

وشهد شيلانو: «كان فرنسيس يعيش مع يسوع، ويحمله في قلبه، في فمه، في أذنيه، في عينيه، في يديه، في كل أعضائه...»، غايته الجليَّة، ورغبته الأساسيَّة، وهدفه الأقصى اتِّباعُ الإنجيل، في كلّ بنوده، بدقّة، والتزامُ تعليم سيّدنا يسوع المسيح، واقتفاء خطاه، بكلّ عنايةٍ، وكلّ غَيْرةٍ، وبكلّ تطلُّعات فكره، وكلّ حرارة قلبه. أقوال يسوع ماثلةٌ أبدًا في ذاكرته يتأمَّلها بحرصٍ، وأفعاله تحت أنظاره يمعن في تقصّيها بعمقٍ».

فمن المُحقَّق أنَّ حياة فرنسيس الروحيَّة قد قامت على اقتفاء آثار يسوع والتشبّه به، في كلّ شيءٍ، ظاهريًّا وباطنيًّا، عبر اتّحادٍ حميمٍ وكثيفٍ به. وقد توغَّل في هذا المضمار شوطًا بعيدًا جدًّا، بحيث وصفه أحد البابوات بأنَّه «نسخةٌ أمينةٌ عن المسيح». ولا عجب في ذلك، فالإنسان عندما يتمثَّل الطعام يُحوّله إلى طبيعته، ولكنَّه عندما يتمثَّل الله يتحوّل هو إلى طبيعة الله.

لقد ارتكزت روحانيَّة فرنسيس على التزامه بيسوع المصلوب، وبالإنجيل حرفًا وروحًا، وعلى تجربةٍ صوفيَّةٍ فريدةٍ دفعته إلى العيش مثل معلّمه، ومع معلّمه، وبمعلّمه، في علاقةٍ حسِّيَّةٍ شخصيَّةٍ، وفي رغبةٍ مضطرمةٍ في تقليد المعلِّم إلى أبعد ما يمكن التقليد.

وتمثُّله بيسوع لم يكن تقليدًا حرفيًّا أعمى، بل هو استلهم سلوك يسوع، وأسلس القياد للرُّوح القدس كي يرشده إلى عمل ما كان من شأن يسوع أن يعمله، لو واجه ما كان يواجه، هو، في حياته، اليوميّة، وقضاياه الخاصّة، وعلاقاته مع الآخرين. وبذلك جسَّد فرنسيس «اقتداءً بالمسيح» يُلبّي احتياجات عصره ومحيطه.

فهو، مذ اقتحم المصلوبُ حياتَه وغزا قلبه، غدا يضطرم رغبةً في إعطاء يسوع من جديدٍ لعالَمٍ هوى إلى البؤس والهلاك، بابتعاده عنه. وأيّةُ وسيلةٍ إلى ذلك أجدى، حسب منطق فرنسيس الصارم، الذي يأبى كلّ رياءٍ وخداعٍ، من التمثُّل الدقيق الأمين بيسوع؟

فضلاً عن أنَّ فرنسيس قد أحبَّ يسوع حبًّا بلا قياسٍ، بلغ مبلغ الوَلَه، حبًّا مبنيًّا على إعجابٍ به بلا حدودٍ، عَبَّر عنه برغبةٍ في إرضائه لا يعترض اندفاعَها عائقٌ، وبِحَذْوِ حَذْوِه بكلِّ طاقة ما استطاعة إنسانٍ أن يتشبَّه بإلهٍ متأنّس.

لقد تقمَّص، في كلّ حينٍ، وفي كلّ حركاته وسكناته، سلوك يسوع وروحه، بحيث لم يعد في حاجةٍ إلى إنباء البشر بمن هو المسيح في نظره، إذ قد بات المسيحُ نفسُه يُعلِن عن ذاته، عبرَه.

فعلى غرار يسوع، مارس فرنسيس ممارسةً بطوليَّةً كاملةً، التواضعَ والبساطةَ والفقرَ، والمحبَّةَ والصَّبرَ، حتّى إزاء من كان يعرف أنَّهم يخونونه، وحتّى حيالَ إخوةٍ ازْوَرّوا عنه في الأزمات. مثلَه احتمل الإهانة، وهو الذي لم يأتِ، يومًا، سوى الخير والعطف على الجميع بلا استثناء؛ مثله قَرَنَ الغيرةَ اللاهبة، بالرقَّة اللامتناهية، ومثلَه أبغض الخطيئة وحاربها، وأحبَّ الخطأة، وبذل ذاته في سبيل إنقاذهم؛ ومثلَه آثر الفقير والضعيف والمنبوذ والمسحوق، والسقيم جسديًّا وروحيًّا، وبادر إلى مؤازرتهم بكلّ ما توفَّر لديه، في سخاءٍ لا محدودٍ.

مثلَ يسوع، كان، في أعقاب يومٍ حافلٍ بالنشاط، يختلي وحيدًا، على قمَّة تلّةٍ أو جبلٍ، كي يناجي الربّ؛ مثلَه صام أربعين يومًا، وعلى غرار الغريب الشاخص إلى عمّاوس، وافى أحد الأديرة، ثاني أيّام الفصح، في زيِّ مُتسوِّلٍ مرتحلٍ، كي يفتح عيون إخوته على مبادئ الفقر التي تجاهلوها. مثلَه استسلم، دائمًا، وبلا تحفُّظٍ، لمشيئة الآب، ومثلَه احتفل بما يُشبه عشاءً سرِّيًّا أخيرًا مع إخوته قُبَيْلَ انتقاله من هذا العالم، ومثلَه شاء أن يموت عاريًا.

وقد حدا به انغماسه في حياة يسوع إلى محاولته بعث تلك الحياة، بحيث يراها الناس بأعينهم، ويلمسونها بأيديهم، فيدركون أبعادها الإلهيّة السامية، ومن ثَمّ عمد، في غروب حياته، إلى تمثيل مولد يسوع تمثيلاً حيًّا، في مغارة غريشيو، حيث أبرز

طفولةَ المسيح، تلك الطفولة التي تُمثّل شرطًا لولوج الملكوت، وإنسانيَّته الكاملة التي عاشها طوال إقامته على كوكبنا، وفقرَه الذي أرغم أُمَّه على وضعه في إسطبل، ممّا أدرجه في فئة المنبوذين، وبهذا المولد قلب يسوع موازين العالم وقِيَمه كلَّها.

وكان سرُّ الفداء الذي عبّر عنه الصليب ذا وقعٍ خاصٍّ على سلوك فرنسيس، فذكرى صلب يسوع كانت تعتصر قلبه حزنًا، كما يشهد على ذلك شيلانو الذي كتب: «كان ينتحب ويذرف دموعًا حَرّى لآلام يسوع، كما لو أنّ مشهدها ماثلٌ أبدًا أمام ناظرَيْه، وكانت الأزقَّة تُردّد أصداء نحيبه، ولم يكن شيءٌ يعزّيه عن ذكرى جراح المسيح».

لقد انحفرت سمات الصليب في أعماق قلبه قبل أن ترتسم على أعضاء جسده، ومنها تلقَّن فرنسيس مشاركة آلام الاخرين والإصداء لنبضات قلوبهم، واحتمال الآلام الجسديَّة والنفسيَّة، والإهانات والتخلّي، برضًى وامتثالٍ مُطلَقٍ لمشيئة الله، والتأهُّب الدائم لبذل الذات، بل للاستشهاد في سبيل يسوع وفقرائه، بحيث بات يتجلّى، في كلّ سلوكه، توثُّبُ قلبه البركانيّ ذاك، الذي رَوَّضه التقشُّف وصَلْبُ الذات. وقد سأله أَحد إخوته، في أيّامه الأخيرة، التي كانت نسيجًا مُتَّصلاً من آلامٍ مُضنيةٍ لا تهادنه، إن لم يكن يؤثر الاستشهاد على ذلك المرض المتمادي، فأجاب: «إنَّ أيَّ استشهادٍ لأهون احتمالاً من ثلاثة أيّامٍ من هذه الآلام»، ولكنَّه استدرك وأضاف: «إنَّ الأعذَب لديَّ والأمتعَ هو ما يطيب للّه أن يُحقّقه فيّ. إنَّ إرادتي لا تنفصل أبدًا عن إرادته».

وقد بلغ تشبُّهه بالمصلوب ذُروتَه على قمّة ألفيرنا، حيث، بعد صيامٍ أربعينيٍّ، التمس تمثُّلاً جوهريًّا بالمصلوب، ونعمتَي الألَم والحبّ، بمخاطبته معلّمه وسيّده: «يا ربّي يسوع المسيح، أرجوك أن تهبني نعمتَين قبل موتي: أولاهما أن أعاني، وأنا حيٌّ، في نفسي، وفي جسدي، وبقدر المستطاع، ذلك الحبّ اللامحدود الذي كان يلهبك، أنت ابن الله، والذي حدا بك إلى مقاساة كلّ تلك الآلام في سبيلنا، نحن الخطأة».

تلك الصلاة الكثيفة المتّقدة التي تفجّرت في أعماق فرنسيس، ومن كلّ جوارحه، لم يكن بوسع الربّ سوى الاستجابة لها، فجعل منه صورةً لحبّه وحنانه، وكافأ وفاءه المُطلَق الشجاع، بدمغه جسد عبده المُخْلِص بسمات صليبه، شهادةً داميةً ماثلةً للعيان على اكتمال تشبُّهه به، وعلى إيمانه الصامد، وعلى الصليب الذي كان يعيشه في داخله، والذي به غدا التلميذ «مرآةً مقدَّسةً لقداسة المعلّم».

ومن جرّاء التصاق فرنسيس الوثيق بيسوع، التصق، أيضًا، ومن غير تحفّظ، بكلّ ما يمسّ يسوع مباشرةً، ولا سيَّما بأُمّه العذراء، وبالكنيسة، جسده السرّيّ.

وقد أَوجزت الطوباويَّة أنجيلا دي فولينيو موقف فرنسيس في هذا المضمار بقولها: «كلّ ما ازدراه الله الإنسان، يسوع المسيح، ازدراه فرنسيس أيضًا، ازدراءً كاملاً، وكلّ ما أحبَّه الله الإنسان، يسوع، أحبّه، أيضًا، فرنسيس، بكلّ جوارحه، وإلى أقصى مدًى، مُقتفيًا آثاره اقتفاءً كاملاً لا يحيط به وصفٌ، بحيث يتمثَّل به في كلّ شيءٍ، وبكلّ ما أُوتي من قوّةٍ».

من خلال صفحات الإنجيل، التي وجد فيها إجاباتٍ على كلّ تساؤلاته، استبان فرنسيس سُبُل اقتفاء خطى يسوع، فكان الإنجيل دستوره الأسمى، والسُّلطةَ العليا التي لا يخضع لسواها، والنبع الذي منه استقى مبادئ تمثُّله بيسوع؛ وعلى فقراتٍ منه أرسى قواعد أخويَّته التي أراد أن تستوحي كلَّ نهجها من يسوع مباشرةً؛ عبر الإنجيل. وقد طمح في أن تكون تلك الأخويَّة مجموعةً ممَّن لا يَكُفّون يُحدّقون في يسوع، ويُرهفون السمعَ للإصغاء إليه، وينهجون في سلوكهم وفقَ سلوكه وأقواله؛ وبالإجمال يُؤَلّفون جماعة «مقتدين بالمسيح».

«الربّ هو الروح، وحيث يكون الروح، فهناك الحرّيّة... نحن لم نأخذ روح العالم، بل الروح الذي من الله، لكي نعرف ما أنعم به الله علينا من النعم، ونتكلّم عنها لا بأقوالٍ تعلّمها الحكمة البشريّة، بل بما يُعلّمه الروح»

(القدّيس بولس)

«مَن هو فيّ، أكبر ممّا ذاتي هي فيّ»

(پول كلوديل)

في قبضة الروح

لقد اكتشف فرنسيس تلازُمًا وثيقًا بين تأثُّر خطى يسوع، وامتلاك الروح القدس، على نحو ما يتّضح من دعائه لله الآب: «إذا ما تطهَّرتْ نفوسنا، وأنارت داخلَنا نارُ الروح القدس وألهبَتْه، استطعنا تأثُّر خطى ابنك». وقد أوضح، في غروب حياته، أنَّه لن يُكتَب لأخويّته الاستمرار ما لم تقدها نفحات الروح، «فالروح القدس هو الرئيس العامّ على الأخويّة» و«على الإخوة أن يرغبوا، فوق كلّ شيءٍ، في امتلاك روح الربّ، وجعله يعمل فيهم».

فمذ استسلم فرنسيس للروح، وقَبَّل الأبرص، ما انفكَّ الروح يعمل فيه مُحوِّلاً المرارة عذوبةً، وشيئًا فشيئًا نضجت فيه ثمار الروح التي هي، على حدّ قول القدّيس بولس: «المحبّة، والفرح، والسلام، وطول الأناة، واللطف والصلاح، والأمانة، والوداعة، والحنان»، حتّى غدا لكلّ الخلائق أخًا.

واستسلم، أيضًا، لقيادة الروح، حين أتاح لوصايا الرسالة التي أنفذ بها يسوع تلاميذه إلى العالم، لبثّ بُشرى الخلاص في أرجائه، أن تتغلغل إلى أعماقه وتسيطر على رغباته وطاقاته؛ ويقول القدّيس بوناڤانتورا بهذا الشأن: «مذ نفذت إلى نفسه كلمات الإنجيل هذه، غمره روح المسيح، وهيمن عليه بقوّةٍ قلبت جذريًّا أُسلوب حياته»، فغدا رسول سلام الله.

وقد التهمه «حريق حبّ يسوع» الذي طهَّره من كلِّ وَهَنٍ، وجُبْنٍ، وأنانيَّةٍ، وحوَّلته نار الروح القدس إلى مسيحٍ اكتملت صورتُه على قمّة الڤيرنا، فغدا ليسوع مرآةً.

وقد أثبت فرنسيس، بقُدوة سلوكه، أنَّ امتلاك الروح القدس يقتضي التحرّر من الروح الأرضيّ الذي يدفع على دروبٍ غير دروب الإنجيل. ويقتضي تحوُّلاً روحيًّا كذاك الذي أخرج فرنسيس من العالم ومفاهيمه؛

وتحوُّلاً في معايير «النجاح»، وكنه الحياة، بالزهد في الامتلاك، والصدوف عن الرغبة في التباهي، والتألّق في عيون الناس، والتعالي على الآخرين، والسيطرة عليهم، وعن ازدرائهم، والعبور على أكتافهم ورؤوسهم وكرامتهم إلى المجد والثَّروة والسُّلطان، والاستعاضة عن كلّ ذلك بالعمل وفق الإنجيل، أي بأن يكون الأكبر هو خادمُ الجميع، محتقِرًا الأمجاد، معظِّمًا الأصغر بين الناس.

وتحوُّلاً في مقاييس الثروة يغدو، في منظورها، من يملك كلّ شيءٍ هو الأفقر والأجدر بالرثاء، فالمال، والامتلاك المادّيُّ عبءٌ يُزهِق الروح، وحاجزٌ دون الاتّصال بالله والبشر، ومَفْسدةٌ للقلب، فالقلب الطاهر هو الذي يزدري كلَّ امتلاكٍ أرضيٍّ، ولا يُقيم للخيرات الدنيويَّة وزنًا، ولا يعلق بها. إنَّ، ثمَّةَ، أُسلوبَيْن لتلقّي الأشياء: أُسلوبًا أرضيًّا يجعلها تُقصينا عن الله؛ وأُسلوبًا آخر نتلقّى به الأشياء على أنّها هبةٌ من الله، ممّا يُسبغ عليها طابع السماء، ويجعلها تقذف بنا بين ذراعي الربّ، وإنّما هذا هو أسلوب الروح وعمله.

وتلك التحوُّلات كلُّها تحمل الإنسان على التنازل عن ذاته، وعن مطامعه الأنانيّة وعن إرادة السيطرة، وعن مواقع القوّة، فيقف كمتسوّلٍ على عتبة العالم الجديد فاتحًا يدَيْه وقلبه كي يغزوه ويؤثّر فيه إله الحبّ والرأفة والمشاركة، فيجد السبيل إلى الاتّصال بإخوته البشر جميعًا، بلا عائقٍ، ويرتبط معهم بعلاقاتِ إخاءٍ نابعٍ من إيمانٍ ببنوّة الأب الواحد، ويستطيع الولوج معهم جميعًا، صغارًا وكبارًا، إلى ملكوت الحبّ المتقاسَم مجّانًا.

وتلك التحوُّلات تعني التسلُّح بروح «الروح»، مقابل «حكمة هذا العالم» و«حذر الجسد»، وتعني إحلال روح الفقر محلَّ عطش التملّك، فيعترف المرء أنَّه لا يملك بنفسه شيئًا سوى خطاياه، وكلُّ ما سواه هو من الله وإلى الله صاحب كلِّ خيرٍ وغنًى؛ وتعني إحلال التصاغر والتواضع محلَّ الرغبة في السيطرة، فيصبح الإنسان خادمًا ومطيعًا لكلّ إنسانٍ، بوحيٍ من حبّ الله له، على نحو ما غسل يسوع أرجل تلاميذه.

إنَّ الروح، وحدَه، يُثبِّت أنظارَنا على رؤية الله، في القربان، وفي الفقراء، وفي الخليقة كلِّها، ويتوغّل في أعماق سرّ الله الذي أصبح إنسانًا فقيرًا بدافع الحبّ.

الروح، وحدَه، يقود إلى ملء حياة العلاقة الحميمة بالله.

الروح، وحدَه، يُطهّر القلب، بتحريره من كلّ سلاسله الأرضيَّة، وأنقياء القلوب يعاينون الله.

الروح، وحدَه، يصون طفولة الروح؛ وأطفال الروح هم أبناء الملكوت.

«قد يظنّ البعض، وهم يرون الصوفيّ جامدًا، مصلوبًا، أو مُصلِّيًا، أنّ نشاطه في سُباتٍ. ولكنَّهم، في ذلك، مخطئون، فلا شيء يعيش ويعمل بكثافةٍ أكثر من الطهر والصلاة، العالقَيْن، مثل نورٍ لا يتحرّك، بين الكون والله. ومن خلال شفافيّتهما الساجية، يتدفّق الموج الخلاّق مُثْقَلاً بالفضيلة الطبيعيّة وبالنعمة».

(تيلار دي شاردان)

فرنسيس الصوفيّ

ما كان بوسع فرنسيس المُضيّ في التشبّه بيسوع، لو هو لم يُغرق في التأمّل في حياته، والإمعان في كلامه وفي تمثّله؛ ومن التأمّل والإمعان والتمثّل، انتهى إلى لاهوتٍ نابضٍ بالحياة، رائع السموّ، موغلٍ في ذرى الصوفيَّة الصافية.

يُروى أنَّ فرنسيس كان، يومًا، في مدينة سيينّا، ومرَّ بتلك المدينة لاهوتيٌّ دومينيكيٌّ ضليعٌ، رغب في مقابلته، فحادثه عن كلام الله، وعندما غادره أقرَّ أمام رفاقه: «أيُّها الإخوة، إنَّ لاهوت هذا الرجل ينطوي على انطلاقة الصقر، وهو يحلّق بجناحَي الطُّهر والتأمّل. أمَّا عِلْمُنا، نحن، فملتصقٌ بالأرض ويزحف على بطنه».

إنَّ مجموع كتابات فرنسيس لا يتعدّى مئة صفحة، طواها على إرشاداتٍ ورسائلَ، وتوصياتٍ، وصلواتٍ، ومع ذلك فإنَّ مئات اللاهوتيّين وعمالقتهم يعُدّونه ملفانهم؛ ولا ريب أنَّ أثره الأعظم والأغنى، والأكثر إفصاحًا عن لاهوته، ودلالةً على صوفيَّته، كان حياته.

مذ كلَّمه المصلوب في كنيسة القدّيس داميانُس، لم يعُدْ يسوع، له، كائنًا فوقيًّا، بعيدًا، يُقيم في مكانٍ قصيٍّ، مُطلَقًا لا يُنال، ولا فكرةً مجرَّدةً، بل اختبره إلهًا وإنسانًا حيًّا، أقام معه علاقاتٍ حسِّيَّةً حميمةً، وربطه به حبٌّ سامٍ ملتهبٌ، بلا قياسٍ ولا حدود؛ وكثيرًا ما كان الروح يختطفه إلى جواره، بعيدًا عن الأرض، فيزداد من معرفة يسوع إلمامًا، وفي سناه إيغالاً، وفي حبّه وَلَهًا. ومن ثَمَّ فقد عُهِد عنه نزوعٌ دائمٌ نحو المسيح، وعَطَشٌ متلظٍّ لذاك الذي وقف على حبِّه كلَّ قلبه وجسده وروحه.

ويشهد الإخوة الذين عايشوه على مدى الرقَّة والعذوبة الفائقتَيْن اللَّتَيْن كان يحدّثهم بهما كلَّ يومٍ، وباستمرار، عن يسوع؛ كان يتكلّم فمه من فيض قلبه، فيتدفّق إلى الخارج، حِمَمًا ونورًا، أتّون حبّه المضطرم الذي كان يلهبه في الداخل. الاستماع إليه كان يحاكي الإنصات إلى ينابيع تتفجَّر، فهو لا يتكلّم، بل يُنشد، أو، بعبارةٍ أصحّ، كان يسوع يُنشد بواسطته. لم يكن بحاجةٍ إلى استخدام ألفاظٍ مُبهَمة، أو اللجوء إلى خواطر مجرَّدةٍ، فهو كان يتكلَّم عن الكائن الحبيب الذي تلقَّن معرفته في نار حياته، وبوتقة تجاربه، وكانت أوصاف الله التي تتردّد على شفتيه: النور، الحبّ، الحنان، العذوبة، القُوّة...

فلا عَجَبَ، بالتالي، إن دعاه معاصروه «سيرافيميًّا»، أي واحدًا من تلك الأرواح السامية التي تشاهد الله وجهًا لوجه، ولا تكفّ تُسبّحه، وتؤنس حضوره الدائم إلى جانبها، بل طيّ حناياها.

ولئن لم يتَّخذ فرنسيس مكانه الحقّ بين الصوفيّين المشهورين، فلأنّه لم يهتمّ بتدوين تجربته وتحليلها، كما فعل مشاهير الصوفيّين، واكتفى بعيشها بعمقٍ وكثافةٍ.

إنَّ فرنسيس أبعد ما يكون عن اللاهوتيِّ المحترف، بيد أنَّ إيمانه وحبَّه الخارقَيْن قد مكَّناه من التوغُّل في معرفة السرّ الإلهيّ، وفي إبراز جماله.

لاهوته كان ثمرة إغراقه في العبادة والصلاة، وممارسة الفضائل الإنجيليّة، والتحديق إلى وجه يسوع، والتأمّل في حياته من أجل التشبّه به، ممّا أفضى به إلى اتِّحادٍ صوفيٍّ حميمٍ به. فعلى حدّ قول الطوباويَّة أنجيلا دي فولينيو: «لأنَّ الله أَوْكل إليه رسالةً خاصَّةً، حباه بعطايا فريدةٍ، فامتلأ بالروح وفاض به؛ وقد قاده الروح في كلِّ حقٍّ، وطهَّره في الباطن والخارج، ووحَّده بالله وحدةً دائمة، تستعصي على الوصف».

وبواسطة الصلاة وثَّق فرنسيس اتّحاده بالله، وعاش حياةً داخليَّةً كثيفةً، وكانت صلاته متَّصلةً، عميقةً، بحيث قال عنه شيلانو: «لم يكن رجُلاً يُصلّي، بقدر ما كان إنسانًا صار بأكمله صلاةً». وكان يتلظّى فيه عَطشٌ لا يرتوي إلى الدُّعاء والتأمّل والعبادة، وغالبًا ما ردّد: «لنُقِمْ للربّ دائمًا، في ذواتنا، هيكلاً ومقامًا، هو الذي قال: «اسهروا وصلُّوا في كلّ حينٍ»... فلنعبده بقلبٍ طاهرٍ، إذ ينبغي أن نصلّي دائمًا، ولا نملّ أبدًا... الله روحٌ، وعلى عابديه أن يعبدوه بالروح الحقّ». لقد كانت حياته كلُّها نسيجًا من تسبيحٍ

ونشيدٍ وشكرٍ، والتماس معرفة مشيئة اللّه وتنفيذها، كما يتجلّى من دعائه: «أَعطنا (أيُّها الآب)، أن نعملَ ما نعرف أنّك تريده، وأن نريد دائمًا ما يرضيك، بحيث، وقد تطهَّرنا داخليًّا، وأنارت نفوسَنا نارُ الروح القدس وأحرقتها، نتمكَّن من اقتفاء أَثَر ابنك المحبوب، سيّدنا يسوع المسيح، وبفضل نعمتك وحدَها نبلغ إليك أيُّها العليّ».

والصلاة، عنده، عبادةٌ، أي تَمَركُزُ النفس حول الربّ وأمور السماء، ومن ثَمّ الاحتراز من التشتّت بهموم الأرض، والانعتاق من أغلالها. ولئن لم تكن العزلة من خصاله الفطريّة، إلاَّ أنَّه اختارها لممارسة الصلاة، وسرعان ما عَلِقَها حتّى ساورته الرغبةُ في الانقطاع عن العالم للانصراف إلى التأمّل والعبادة. ومن ثَمّ، لم تكن صلاته متسرِّعةً، ومرتَجَلةً، مسروقةً من اهتماماته الطاغية، بل كانت متماديةً، متأنِّيةً، وئيدةً، مُفعمةً تعبُّدًا واستسلامًا متواضعًا ساجيًا. ولكي تنقطع نفسه بكلِّيّتها للاتّحاد باللّه، كان يلتمس العزلة للتعبّد؛ وحتَّى وهو محاطٌ بجمعٍ غفيرٍ، كان يغيب بالروح عنهم جميعًا، عندما يزوره الربّ، كي ينصرف إليه وحده، وهو حريصٌ على ألاَّ يَظهَرَ على ملامحه أثرٌ لما يتفاعل في داخله. أمَّا إذا ما هو تأكّد من عزلته، في غابةٍ أو منسكٍ، في منجًى من مراقبة الناس، فكان يتدفَّق دموعًا وتأوُّهاتٍ، ويقرع صدره، ويناجي الربّ مناجاةً حميمةً. وغالبًا ما كان يتوارى، أيّامًا طويلةً، في أحد المناسك، للانقطاع للصلاة، بعيدًا عن كلّ ما يُبعده عن اللّه؛ وكثيرًا ما حضَّ إخوته على اصطحاب صومعتهم، ومنسكهم الداخليّ، أينما ذهبوا، بحيث يستطيعون الاستغراق في التأمُّل والصلاة، في كلّ حينٍ. ولا ريب أنَّه، هو، لم يكفَّ، لحظةً، عن الصلاة، حتّى في حُميًّا نشاطه، إذ كانت حياته كلُّها على اتِّصالٍ وثيقٍ باللّه، مُحدِّقةً أبدًا إليه، وبالتالي كانت صلاةً متَّصلةً.

وهو إذا ما صلّى، فبالاشتراك مع الكون كلّه الذي يُهيب به أن يُسهم معه في تسبيح الخالق وعبادته، ومع البشر إخوته، وعلى الأخصّ، مع المسيح، على حدّ قوله: «عندما نتوجَّه إلى اللّه، في صلاتنا، لا نفصلنّ الرأس عن جسده. بل فليكن سيّدنا يسوع المسيح ابن اللّه، هو الذي يصلّي من أجلنا، ويصلّي فينا، ونصلّي به. إنَّه يصلّي فينا، بصفته رأسنا، ونصلّي له على أنَّه إلهنا، فلنميِّز إذن، أصواتنا فيه، وصوته فينا».

وصلاة فرنسيس كانت إكبابًا على التأمّل في سعة غنى اللّه، وفي هُوّة فقر الإنسان. هدف صلاته كان نشدان اللّه، واكتشاف وجهه اللامرئيّ الحيّ، بالإيمان، وبواسطة الروح القدس. وغالبًا ما أكّد فرنسيس أنّ الروح، وحدَه، هو الذي يُرينا اللّه، وأنَّه

أَعمقُ حقائق الإنسان، فهو جوهر الإنسان الصافي، كما أنَّه قلب اللّه، بل اللّه عينه. ومن ثَمّ، فما من صلاةٍ ممكنةٍ إلاّ «وفقًا للروح وبالروح».

ولكي يُدرك المرءُ أسرارَ اللّه، لا بدَّ له أن يكون نقيًّا. فهو، بقدر ما يتنقّى، ينفتح على اللّه؛ وشرط العبادة الحقَّة نقاءٌ تامٌّ، نقاء القلب والجسد، والفكر والضمير؛ وأنقياء القلوب، هم الذين يتجرَّدون من ذواتهم، ويُشرعونها على اللّه، هم الذين يَنشُدونه في الروح القدس. وهكذا تصبح الصَّلاة تحرُّرًا داخليًّا، ينطلق من الفقر ويفضي إلى الفرح، ويُعبّر عن ذاته نشيدًا وتسبيحًا وشعرًا، وتصبح الصلاة هي التي تحدّد صفات الإنسان في عين الربّ. وقد جعلت الصلاة من فرنسيس صورةً أمينةً للمسيح، خَتَمها الآب بروحه القدُّوس.

وقد آمن فرنسيس إيمانًا وطيدًا بجدوى الصلاة في تحقيق الخلاص، وإنقاذ الخطأة، ومؤازرة الكرازة، وكان من دواعي سعادته وعزائه، ازدهار الفرع النسائيّ لأخويَّته، بقيادة القدّيسة كيارا، ذلك الفرع الذي غدا الجناح الآخر الذي حلّقت به الحركة الفرنسيسكانيّة، ففي حين كان الإخوة يمضون إلى العالم كارزين، كانت تواكبهم كيارا وأخواتها بصلواتهنّ المتواتِرة التي لا يسمعها سوى اللّه؛ وبخلوتهنّ التي لا يؤنسها سواه، وبتضحياتهنّ الخلاصيّة، وهكذا غدت البورتسيونكولا، ودير القدّيس داميانُس، رئتَيْ الفرنسيسكانيّة.

وبعد أن خَبَر فرنسيس عُذوبة السماء، فقدتْ كلُّ مُتَع الأرض طعمها لديه، وبات جلُّ مبتغاه التوغُّل في الاتّحاد باللّه، بتركيز كلّ طاقاته ومَلَكاته على التأمُّل في صفاته تعالى، بحيث غدا، وهو على الأرض، وكأنّه من مواطني ملكوت السماء.

خطوته الأولى في دروب الصوفيَّة، كان قد خطاها يوم ودَّع رفاق لهوه، وتخلَّف عن موكبهم، إثر سهرةٍ صاخبةٍ، حين داهمه شعورٌ مهيمنٌ أدرك معه بطلانَ كلّ شيءٍ أرضيٍّ، وقد كان لذلك الحَدَث كلُّ صفات التجربة الصوفيَّة، من مباغتةٍ، وسُبات حواسّ، وتذوّق عذوبة الربّ.

أمّا خطواته التَّالية، فتمثَّلت في لقائه بيسوع المصلوب، الذي رسَّخ فيه حبّ الصليب، بحيث غدا لا يكفُّ يراه بعيني القلب، ولا يقوى على حبس دموعه لذكرى آلام الفادي، حتّى مماته. ومذّاك ما انفكّ يمضي توغُّلاً في دروب الصوفيّة التي غالبًا ما أوقعته في انخطافاتٍ مباغتةٍ. وحين كان الربُّ يزوره على هذا النحو، كان لا يتورَّع عن هجر كلّ شيءٍ، حتّى الصلوات الطقسيّة، من أجل الاستغراق في الربّ، وقد برَّر لإخوته موقفه

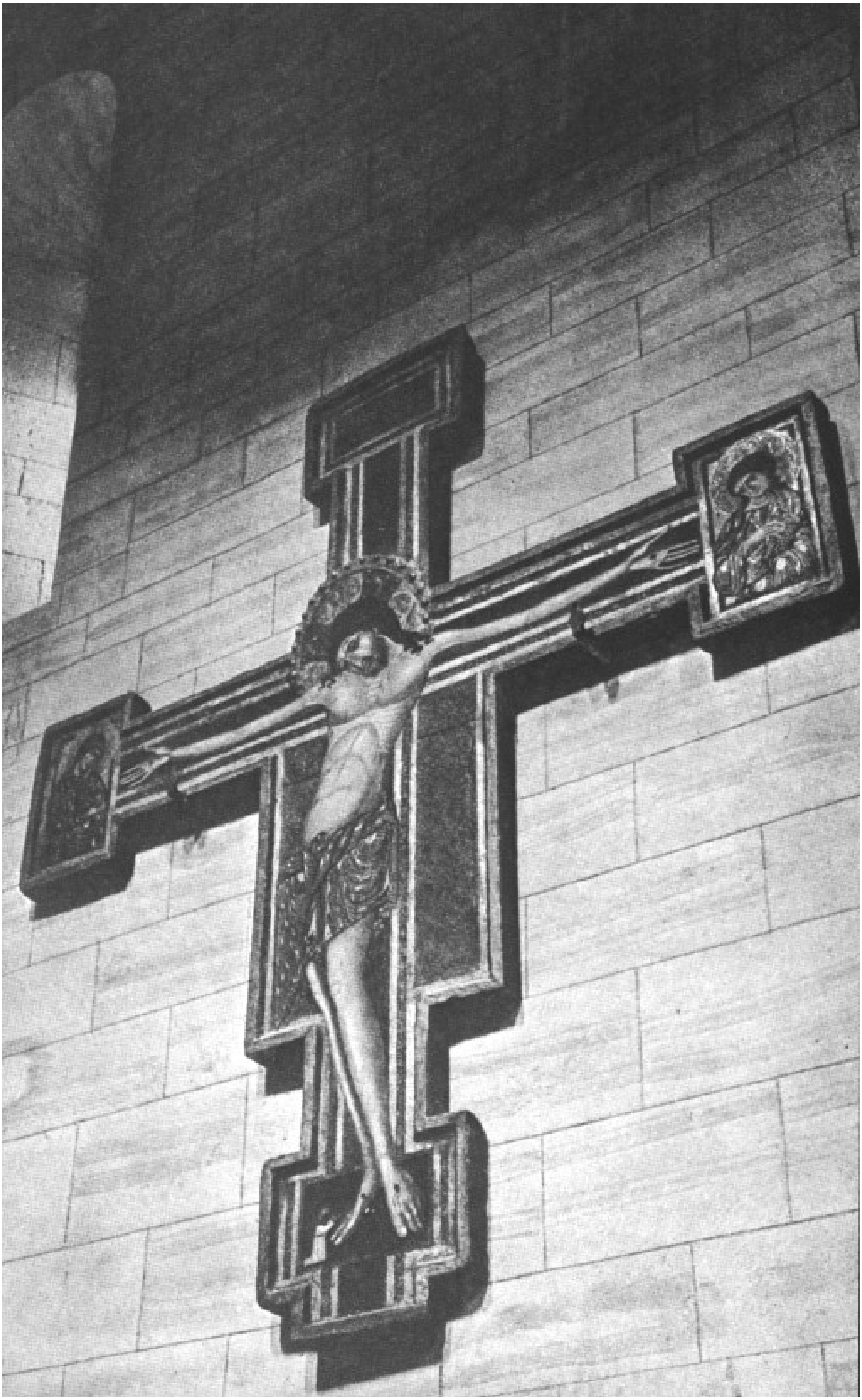

ذاك قائلاً: «إنّني لا أستطيع الظَّفَر بمثل زيارة الروح هذه متى شئت، ولكنَّني أستطيع تلاوة فروض الصلاة إن أنا اضطررتُ إلى تفويتها». بيد أنَّه كان يحاول جاهدًا إخفاء ذلك السُّبات الصوفيّ، وحالما يُفيق منه، يثوب إلى مهامِّه الوضيعة المألوفة.

كان مجرَّدُ ذكر اللّه يُلهب نفسه، ويمضي به إلى عالمٍ آخر، كما لو أنَّ أناملَ سماويّة قد مرَّت على قيثارة نفسه؛ وإذا ما تلفّظ باسم اللّه، أو باسم المخلّص، كان ينقلب إنسانًا آخر، قادمًا من عالَمٍ آخر، فيغشاه الحُبور. وكان انخطافه وذهوله يزدادان في أعقاب تناوله القربان المقدَّس.

ويشهد رفاقه المقرَّبون أنَّه كان، إذا ما جلس إلى مائدة طعامٍ وذُكِر على مسمعه اسم يسوع، أو حتَّى لُمِّح إليه تلميحًا، يُغفل الطعام وينطلق إلى عالَمٍ بعيدٍ. وكان، إذا ما زاره الروح، يمَّحي كلّ الوجود الأرضيّ من حوالَيْه، فلا يشعر حتّى بازدحام المحيقين به، وهم يلمسونه ويدفعونه، ويشدّون ثيابه، ويقتطعونها، فيما هو يبدو، وكأنَّه جسدٌ بلا روحٍ. وحين يفيق من انخطافه، كان من الواضح أنَّه غير عالمٍ أو شاعرٍ بشيءٍ ممّا جرى له.

وفضلاً عن كون فرنسيس خيرَ من أَتْقَن «ممارسة المسيح»، وعيشه، والاقتداء به، كان من أكثر من عمَّق النظرةَ إلى يسوع الإنسان، بعد أن سادت، حقبةً طويلةً، النظرةُ إلى يسوع السيّد الرهيب. وقد أفلح، بوَرَعه وقُدرة سلوكه، أن يُثبِّتَ تلك النظرة في قلوب الجماهير. ولئن هو استطاع ذلك، ففي أعقاب مسيرةٍ روحيَّةٍ حثيثةٍ، كشفتْ لبصيرته، شيئًا فشيئًا، معالم وجهٍ ساحرٍ يفيض سنًى وحبًّا، بفضل إمعانه في تأمُّل سرّ التجسّد الذي لعب دورًا أساسيًّا في تكوين روحانيّته، وبفضل جهده في إدراك كُنْهه، لا إدراكًا عقليًّا لاهوتيًّا، بل بالقلب الذي يحسّ باللّه، ويبصر الجوهريّ الذي يخفى عن الأبصار. وقد اكتشف، على نحوٍ خاصٍّ، في سرّ التجسُّد، تواضع اللّه الرهيب الذي تخلّى عن تعاليه، وبات واحدًا منّا يسير مَعَنا جنبًا إلى جنبٍ، متجرِّدًا من كلّ علاقات السُّلطة، متمَثّلاً بالأوضع والأوهن على الأرض. لقد اكتشف فرنسيس، بدهشةٍ وذهولٍ، إنسانيَّة اللّه وتنازلَه، إذ قد أصبح إلهُ المجد أخًا لنا في الفقر والتواضع. ومن ثَمَّ تبيّن أنَّ صُلْب المسيحيّة، بل سرَّها العميق، ينبثق من المساكين والفقراء، ومن حضور اللّه فيهم.

التجسُّد، لدى فرنسيس، هو يسوع، طفلاً يبكي، ويرضع، ويبتسم، ويثغثغ، وينمو بفضل رعاية والديه، وفتًى يلعب مع أترابه، وعاملاً بسيطًا مغمورًا، يشتغل بيديه ليقوم بأَوده وأَود أُمّه؛ ورسولاً يجوب دروب فلسطين الترابيَّة، يشفي المرضى، ويجادل الفرّيسيّين، ويُرشد إلى الخلاص، ورفيقًا لرُسله الذين يؤلّف معهم أُسرةً متضامنةً؛ يجوع

ويعطش، ويعقد بعض صداقات مع أفرادٍ مثل لعازر وأُختَيْه، وإنسانًا يضطرب في بستان الزيتون ويُرهقه الشعورُ بالتخلّي وهو على الصليب.

* * * * *

سرٌّ آخر، شاهدٌ على تواضع الربّ الرهيب، وبرهانٌ على إقامته الحسِّيَّة الأبديَّة بين ظهراني البشر، هو سرُّ الإفخارستيّا، الذي كان فرنسيس مسحورًا به، مؤمنًا به إيمانًا مدهشًا، بحيث لم يعُدْ يراه سرًّا، بل واقعًا مادِّيًّا يلمسه، ويعيش به مأخوذًا، متدفِّقًا شكرًا، وعُرفانًا للربّ بجميلٍ لا يوصَف. ومن أقواله في هذا الشأن: «لست أرى أيَّ أثَرٍ جسديٍّ لابن الله العليّ، الكُلِّيّ القداسة، في هذا العالم، سوى جسده ودمه المقدَّسَيْن... الحيَّيْن، الحقيقيَّيْن». وجسد يسوع في القربان «لم يعُدْ ميتًا، بل هو منتصرٌ ومُمجَّدٌ أبدًا»، إذ قد مات فيه الموت، وغرق في الحياة الجديدة المنبعثة من الصليب.

ومن أقواله أيضًا، في هذا الشأن: «مثلما كان يسوع، قديمًا، يتجلّى للتلاميذ القدّيسين في جسدٍ حقيقيٍّ، كذلك هو يتجلّى لأعيننا الآن في القربان المقدّس. كان التلاميذ عندما ينظرون إليه بعيون الجسد، لا يشاهدون منه سوى جسده، ولكنَّهم كانوا يتأمّلونه بعيون الروح، فيؤمنون أنَّه الله. وكذلك نحن أيضًا، عندما لا نرى بعين جسدنا سوى الخبز والخمر، فلنتعلّم أن نرى ونؤمن، بثباتٍ، أنَّهما جَسَد الربّ ودَمُه الأقدسان الحقيقيّان، الحيّان. فتلك هي الوسيلة التي اختارها لكي يبقى دائمًا مع الذين يؤمنون به».

كان القربان المقدَّس هو غذاء روح فرنسيس، ومبعث قداسته، فكان يتلو «أبانا»، على هذا النحو: «أعطِنا، اليوم، خبزَنا كفافنا، ابنَكَ الحبيب، سيّدنا يسوع المسيح». ولا غرابةَ، بالتالي، إن هو دُعِيَ «صوفيّ التجسّد».

بيد أنَّ رؤية فرنسيس ليسوع الإنسان لم تحجُبْ، يومًا، عن بصيرته، ألوهَتَه. لا بل إنّ إيمانه بأُلوهة المسيح هو الذي كان يُبرز عظمة تجسّده؛ فيسوع، في نظره، قادمٌ من ملكوتٍ حيث الحبُّ هو الواقع الوحيد، ويودّ إقراره على الأرض؛ فهو ليس إلهًا بعيدًا، بل إله حبٍّ راغبٌ في مشاركة مخلوقاته عطاءً وقبولاً. وهذه النظرة كانت تُلهِبُ فرنسيس جذلاً يتجلّى من خلال أقوال كهذه، حيث الكلمات تُحاكي دموعَ فَرَحٍ منهمرةً:

«فلنحبَّه بكلِّ قلبنا، وكلّ نفسنا، وكلّ روحنا، وكلّ مَلَكاتنا، وكلّ قوانا، وكلّ عقلنا، وكلّ طاقاتنا، وكلّ عطفنا، وكلّ أحشائنا، وكلّ رغباتنا، وكلّ إرادتنا».

«فليسعد، أولئك الذين يحبّون الله هذا، ويحبّون إخوانهم على نحو ما يحبّهم الله! فهم أبناء الله، ويُنفّذون أعماله؛ إنّهم أزواجٌ وآباءٌ، وأُمّهاتٌ للربّ».

«فنحن له أزواجٌ عندما نتَّحد مع يسوع المسيح، بالروح القدس. ونحن له إخوةٌ عندما نُحقّق رغبة الآب، ونحن له أُمّهاتٌ عندما نحمله في قلبنا وجسدنا، ونضعه في العالَم بأعمالٍ سخيّةٍ. ما أجملَ وما أروعَ أن يكون الروح المحامي قريبًا لنا! يا له من سحرٍ، ويا له من سلامٍ، ويا لها من عذوبةٍ! ويا له من فرحٍ منعشٍ، يسمو على كلّ ما نرغب فيه، أن يكون لنا مثلُ هذا الأخ، ومثلُ هذا الابن الذي أسلم نفسه من أجلنا!».

وإن كان الإنسان في يسوع لا ينفصل عن الله، فهو، في الله، لا ينفصل عن عمل الثالوث الأقدس. فالابن هو شريكٌ في مجد الآب، وهو كلمته الأزليّة، التي تجسَّدت فأعلنت عن الآب، مصدرِ كلّ خيرٍ، ومنشأ الخلق والخلاص، وعن الروح باعث الحياة.

يسوع هو تجلّي الروح ومنبعه، وفرنسيس لا يرى الابن المتجسّد من غير قدرة الروح، ولا يرى الروح القدس بمعزلٍ عن الابن المتجسّد.

وإذا ما صلّى فرنسيس، فهو أبدًا يتوجَّه إلى الله في وحدته وثالوثه، وقد جاء في وصيَّته لإخوته: «إليكم نموذجًا من الإرشاد والتسبيح الذي يسَعُ جميع إخوتي، كلَّما رغبوا، وأمام أيّ جمهورٍ، أن يردّدوه، مع بركة الله: اخشوا وكرّموا، سبّحوا وباركوا، اشكرُوا واعبدوا الربّ الكلّيّ القدرة، في ثالوثه ووحدته، أبًا وابنًا وروحًا قدُسًا، وخالقَ كلّ شيءٍ».

ومن التأمُّل في الإنجيل، والإمعان في الطقوس الكنسيّة، أحسّ فرنسيس، بكلّ كيانه «الثالوث الأسمى، والوحدة المقدّسة، في الآب والابن والروح القدس». وقد أظهر له توغُّلُه في تقصّي حياة يسوع، الابن الحبيب الذي تلقّى، في المعموديَّة والتجلّي، كلَّ حنان الآب، وملءَ الروح، والربّ الناهض من الموت الذي بعث إخوته في مُهمّة «كما أرسله الآب»، وأسبغ عليهم سلطانَ الروح كي يُعمّدوا جميع الأمم «باسم الآب والابن والروح القُدُس».

لم يكن الثالوث لفرنسيس استنتاجًا لاهوتيًّا، بل كان علاقةً مُعاشةً، وحقيقةً حيَّةً، وفيضَ حياةٍ، وحضورًا نفَّاذًا.

وقد استشفَّ، في ذلك السرّ العظيم، نشيدَ حبٍّ يغمر الأرض، وقِصَّة خلاصٍ تستفزّ الأجيال، فتصاعدت من أعماقه صلاة شكرٍ مُضطرمةٌ: «نشكرك (أيّها الآب) من أجل ذاتك، لأنَّك، بابنك الوحيد، وبالروح القدس، خلقت جميع الأشياء الروحيَّة

والجسديَّة». فالثالوث هو الخالق والفادي، لا بل هو عمل خلقٍ وفداءٍ مستمرٌّ. وحتّى عن وجود يسوع في القربان يقول فرنسيس: «إنّه بكلّيَّته في كلّ مكانٍ، مع الربّ، الآب والروح القدس المعزّي» وكذلك «كلام سيّدنا يسوع المسيح، هو كلام الآب، وكلام الروح القدس، هو روحٌ وحياةٌ».

لقد كانت المسيحيَّة التي عاشها فرنسيس وعلَّمها، نتيجة اقتحام وجه يسوعِ الحيّ حياتَه، ذلك الاقتحام الذي دفع به إلى ولوج سرّ الثالوث، فلا مسيحيَّةَ صحيحةً بمعزلٍ عن الثَّالوث، وفرنسيس قد رأى يسوع، دائمًا، في علاقاته البنويَّة مع الآب، وفي استسلامه المُطلَق للروح، فهو «ابن الله المبارك الممجّد» و«ابن الله العليّ»، و«الابن الحبيب». إنّه الابن الذي يحدوه الروح، والمُتَّجه بكلّيَّته نحو الآب، وهو الابن المتجسّد والوسيط الأمثل بين الله والإنسان البائس الخاطئ الذي لا يستحقّ أن يدعو اسم الله، ولا يستطيع أن يعبد، ويصلّي، ويُمجّد الآب، إلاّ بواسطة الابن.

يسوع هو وسيط كلّ نعمةٍ تحلّ على البشر، والمتعبّد الوحيد الذي يُقدّم للآب الشكرَ باسم إخوته؛ وهو، أيضًا، الذي يبذل حياته، ويشفع بإخوته؛ وتلك الرؤية تأخذ بمجامع قلب فرنسيس فيهتف: «آه! كم هو مقدَّسٌ، وثمينٌ، سارٌّ ومتواضعٌ، مُطمئِنٌ وعَذْبٌ، عزيزٌ ومرغوبٌ فيه فوقَ كلّ شيءٍ، أن يكون للإنسان مِثلُ هذا الأخ، وهذا الابن الذي وهب حياته من أجل نعاجه، والذي دعا أباه من أجلنا!».

ولم يُغفل فرنسيس أداة التجسّد وشريكة الفداء، أُمّ الله التي كان يُكرّمها تكريمًا فائقًا، إذ هي جعلت من يسوع أخًا لنا؛ ولطالما استفزّ فقرُ وضعها ليسوع تأثُّرَه، واستدرّ دموعَه؛ وقد ناشدها قائلاً:

«أيَّتها السيّدة العذراء مريم، لا شبيه لك بين كلّ نساء هذا العالم، فأنتِ ابنةُ الملك الأسمى، الآب السماويّ، وخادمته، وأُمّ ربّنا القدّوس يسوع المسيح، وعروس الروح القدس» أنت التي «اختارها أبو السماء الكلّيّ القداسة، وكرَّمها هيكلاً له ولابنه الحبيب ولروح قدسه».

كان فرنسيس يرى في العذراء النموذج الأسمى للحياة المسيحيّة؛ فعلى غرارها ينبغي أن يشكر كلُّ مسيحيٍّ الربّ لاختياره، ويفرح لقرانه بالروح القدس، ويحمل الكلمة في أحشائه، ويضعها في العالم، كلمةَ حياة، بالعمل الواقعيّ.

إنّ العذراء توضح مآل البشريّة عندما تتقبّل الروح، وتُجسّد الإنجيل.

إنّها رجاءٌ جمٌّ، ودعوةٌ للجميع، ففيها يتألّق ما نحن مدعوّون إليه من مصيرٍ.

إنّها توجز مسيرة كلّ حياةٍ مسيحيّةٍ، تحمل طابع الاختيار والتكريس والخصب.

إنّها رائدةُ نَمَطِ حياةٍ جديدةٍ. ففيها يتجلّى سلامُ كلّ من يرتضي أن يكون خادمًا، وفرحُ من يهب ذاته للحبّ.

إنّها أمّ الأحياء، والأرضُ الخَصبةُ التي فيها ينمو الخلاص.

«لا تفتقر الكنيسة إلى مُصْلِحين، بل إلى قدّيسين»

«لا يُصلح الكنيسةَ إلاّ من يتألّم من أجلها»

(جورج برنانوس)

«الكنيسة، كهيئةٍ مُنظَّمةٍ، كسُلطةٍ، وظاهرةٍ اجتماعيّةٍ، حافلةٌ بالشوائب؛ إنّها ليست خيرًا مطلقًا، ولكنَّها ضروريّةٌ، إذ لا بدّ من مثل هذه القنوات، كي يصل النبع إلينا، ولا يسوغ أن نرفض القنوات باسم النبع»

(جوستاف تيبون)

فرنسيس والكنيسة

الكنيسة هي مُمثِّلة يسوع على الأرض، ومنها رضع فرنسيس الإيمان مع لبن أمّه، ومنها نال الأسرار التي أدخلته إلى أحضانها، ومنها اقتبس العادات المسيحيَّة، ومن ثَمّ فهي بَنَتْ كيانه الجوهريّ، وكوَّنت هويَّته الروحيَّة، وكانت له مَعين حياةٍ ينبع من الإنجيل، ويمتزج بأحلام القداسة؛ وبعد أن هو تخلّى عن انتمائه إلى پيترو بيرناردوني ومجتمع أسّيزي الرفيع، بات الأب السماويّ أباه، والكنيسةُ أُمَّه.

إلاّ أنّ الكنيسة هي، أيضًا، مؤسَّسةٌ ذات تاريخٍ، وكيانٌ إداريٌّ، وبصفتها هذه، نأت شأوًا بعيدًا عن الإنجيل، بل خانته أحيانًا كثيرةً؛ فسُلطة البابا غالبًا ما واكبها سلطانٌ زَمنيٌّ مُطلَقٌ، وتحالُفٌ مع السلطة السياسيَّة والثروة، بحيث بات الرؤساء الكنسيّون يُختارون من النبلاء الأثرياء، ويُختار إكليروس المدن الكبرى من المثقَّفين، أي من النخبة الاجتماعيَّة، ويتمتَّع بامتيازاتٍ مادِّيَّةٍ واجتماعيَّةٍ رفيعةٍ، في حين كان كهنة القرى جهلةً مُعدمين، ويفتقرون إلى حدٍّ أدنى من المستوى الخلقيّ، وفي حين كان سواد المؤمنين يرزحون تحت عبء الإقطاع والحرمان.

إزاء ذلك التضارب الصارخ بين واقع المؤسَّسة الكنسيّة، وتعليم يسوع، انبرى كثيرون من العلمانيّين، وبعض الكهنة، لإصلاح الكنيسة، ولكنَّهم غالبًا ما ناصبوها العداء، وشنّوا عليها حربًا شعواء، وتردَّوا في وِهاد البِدَع والهرطقات.

أمّا فرنسيس، فقد انتدبه يسوع نفسه لإصلاح كنيسته، فاضطلع بتلك المهمَّة الجُلّى، اضطلاعًا مدهشًا، محقِّقًا معادلةً تبدو شبه مستحيلةٍ بين خضوعه التامّ لكنيسةٍ أحبَّها حبًّا جمًّا، ووفائه المُطلَق لتعاليم الإنجيل التي تدين رجال الكنيسة وسلوكهم.

فمن يرقب حرص فرنسيس على عيش الإنجيل بنقاءٍ وبساطةٍ، من غير مهادنةٍ ولا تنازلٍ، يتوقَّع بينه وبين الكنيسة، أخطار الصدام والمعارضة والمرارة والتهجُّم المتبادَل. فكلُّ مواقف فرنسيس الإنجيليَّة الأصيلة إدانةٌ صريحةٌ للكنيسة: ففقره إدانةٌ لثروات كبار رجالها وجَشَعهم؛ وحرصه على الخدمة، والتزام المواقع الدنيا يتعارض مع سيطرتها السياسيّة؛ واندفاعه الرسوليّ الأعزل يتعارض وحملاتها الصليبيَّة؛ وجرأته في الكرازة بين صفوف الشعب تَعَدٍّ على احتكار رجال الدين «وظيفة» الوعظ؛ وإنشاؤه أخويَّةً يتمتَّع أفرادها بالحرِّيَّة والمساواة يتنافر والتنظيم الهرميّ الإقطاعيّ السائد في المؤسَّسة الكنسيَّة، وفي المجتمع.

وجديرٌ بالتنويه أنَّ الكنيسة، في أيَّام فرنسيس، كانت قد بلغت أوج السلطة الزمنيَّة والدينيَّة، وجاهدت في سبيل تدعيم تلك السُّلطة وتوسيع رقعتها، وإضفاء طابع القدسيّة عليها باسم الله والمسيح. إزاء ذلك، بل على نقيض ذلك، أطلق فرنسيس مشروعًا مجنونًا: اتّباع المسيح المصلوب في الفقر والبساطة المطلقَيْن، فأسَّس، بعيدًا عن كنيسة الأسياد والعظماء، جماعة الأصاغر الذين يأبَوْن أيَّة سلطةٍ على ذواتهم وعلى الآخرين، وفي مقابل إنجيل السُّلطة، بَشَّر بسُلطة الإنجيل، ومارَسَها.

لم يبرز فرنسيس في وسط مركز السُّلطة، بل في حواشيها، ولم ينتمِ إلى الإطار الإكليريكيّ أو الرهبانيّ، بل ظلَّ علمانيًّا مكرَّسًا للربّ؛ استهلَّ عمله في اليورتسيونكولا، التي تمثّل، في ذاتها، رمزًا، فقد قيل عنها: «لا يمكن وجود كنيسة أشدّ فقرًا، في جميع بقاع أسّيزي». واليورتسيونكولا قائمةٌ عند هامش المدينة، بعيدًا عن السُّلطة التي تنهض معيارًا لكلّ شيءٍ، وتضبط كلَّ شيءٍ، ولكن حيث الحياةُ زاخرةٌ بغناها وتحدّيها، وحيث يُقيم الفقراء، وكلُّ الذين يأملون ويعيشون على هامش كلّ تنظيمٍ. ففي الضاحية، على هامش المدن، يوجد الطَّمْيُ المُخصِب، ومن الضاحية ينبعثُ الأنبياء والمُصلِحون، ويتدفَّق نُسْغ الروح؛ في ضاحيةٍ وُلد ابن الله، ومن ضاحيةٍ انطلق فرنسيس يُخاطب المركز ويدعوه إلى الارتداد والتحوّل.

لقد كان فرنسيس ثائرًا في أعماقه، ثائرًا أصيلاً متشبّثًا بأصالة الإنجيل، وبكلّ نقاء تعاليمه وعذوبتها وقسوتها وجنونها، ولم يرضَ، يومًا، أن يحيد عنها قيدَ أنملةٍ. إلاَّ أنَّه لم يخطر له ببالٍ أن يتمرّد على أمّه الكنيسة، وظلَّ أبدًا ثابتًا في عزمه على الخضوع التامّ لها، والمكوث في أحضانها، بل عند قدمَيْها، وإظهار أعمق احترامٍ لممثِّليها، بسبب ما منحوا من امتياز تكريس القربان وتوزيعه، حتّى ولو كانت خطاياهم ذاتها، وخيانتهم للكنيسة، صارخةً؛ وقد أقرَّ في قانون أخويَّته نبذ أيٍّ من الإخوة يتمرَّد على الكنيسة، ولا يخضع لها، وبذلك وَقى أخويَّته من التردّي في مهاوي البِدَع والهرطقات، التي هوت إليها حركاتٌ إنجيليَّةٌ مماثلةٌ كانت ناشطةً في عهده. كثيرون غيره، ومن بعده، تصدَّوا لإصلاح الكنيسة، ولكنَّ قليلين منهم كان لهم مثلُ إيمانه بخلودها، ورسوخِ دعائمها، رغم وهن رجالها؛ ونادرًا ما تحلّى منهم بمثل ما تحلّى به فرنسيس من صبرٍ، ورجاءٍ، وثقةٍ، ومحبّةٍ، واحترامٍ للرمز الذي أنشأه يسوع؛ ومن ثَمَّ انتهت محاولات معظمهم إلى شقّ ثوب المسيح.

ولقد أحبَّ رجالُ الكنيسة فرنسيسَ وأَجلُّوه وقدَّسوه، من جرَّاء تواضعه وخضوعه المُطلَق وبساطته، ووفائه لمُثُلٍ هي صُلْب الإنجيل، ولئن هم نأَوْا، في سلوكهم، عنها. إلاَّ أنَّهم لم يستطيعوا دائمًا التسامي إلى مستوى البطولة التي ارتقى إليها، في إخلاصه للمبادئ الإنجيليّة، وممارسته لها، والتي جعلها أساسًا لأخويَّته، ممّا عدّوه إزراءً بالحكمة والتعقُّل. وقد انحاز بعضهم إلى الفئة المعارضة من الإخوة الذين، حتّى في أثناء حياة فرنسيس، حاولوا الحدَّ من شدَّة ممارسات الفقر والبساطة، والاستعاضة عن الأكواخ الزريَّة بأبنيةٍ حجريَّة، وعن اللااستقرار، والاستسلام المُطلَق للعناية الإلهيَّة، بامتيازاتٍ من روما، وبسكَنٍ ثابتٍ، وعن التزام المقامات الدنيا، بقبول السُّلطة والنفوذ، وعن البساطة بالإقبال النَّهِم على العِلْم، وعن التلقائيَّة الخلاّقة الطليَّة التي ميَّزت تعاليم فرنسيس وكتاباته بقوانين جامدة، حاولوا سجن ذلك الصقر الجبّار بين قضبان قَفَصها.

ومن المحقَّق أنَّ كلاًّ من فرنسيس والسُّلطات الكنسيَّة كان يسير في اتّجاهٍ مختلفٍ. ففرنسيس، مع خضوعه التامّ والمتواضع لتلك السُّلطات، لم يخنع لها، ولم يسمح لها بخنق الروح والحرِّيَّة الخافقَيْن بين جوانحه، ولا بإقصائه عن جادَّة الإنجيل الذي مارسه، أبدًا، بكلّ حذافيره، مُحقِّقًا، بذلك، إحدى أبرز مفارقات حياته المتمثّلة في التوفيق بين حرِّيَّةٍ شخصيَّةٍ خلاّقةٍ، فذَّةٍ، قادرةٍ على التجديد خارج بُنى زمانه الكنسيَّة والدينيَّة،

وطاعةٍ صادقةٍ للكنيسة الكاثوليكيَّة؛ وهو، في ذلك، ينهض نموذجًا متألِّقًا للاتِّزان الكفيل بإضاءة سبيل المسيحيّين في كلّ عهدٍ، بحيث لا يُضحّون بما ينطوي عليه إيمانُهم من طاقةٍ نبويَّةٍ، لصالح خضوعٍ أعمى للمؤسَّسة والنظام، ولا يتنكَّرون للمؤسَّسة الكنسيَّة بحجّة وفاءٍ أكبر للإنجيل.

وقد ورد في قانون الأخويَّة الذي وضعه فرنسيس: «إنَّني آمر رؤساء الأديرة أن يلتمسوا من السيّد البابا انتداب أحد كرادلة الكنيسة الرومانيَّة المقدَّسة لتولّي إدارة الأخويّة وحمايتها وتصحيح أخطائها، فنظلّ بذلك، خاضعين، أبدًا، لهذه الكنيسة عينها، جاثين عند أقدامها، ثابتين في الإيمان الكاثوليكيّ، وفي آنٍ معًا، نحافظ على ما يدعونا إليه سيّدنا يسوع المسيح، في إنجيله المقدَّس، من فقرٍ وتواضعٍ، وفقًا لما تعهّدنا به تعهُّدًا ثابتًا».

وتنطوي وصيَّة فرنسيس، أيضًا، على دعوةٍ مماثلةٍ، حارَّةٍ ومؤثِّرةٍ، إلى الجمع بين الحفاظ على الوفاء لمُثُل الإنجيل الأصيلة، والإخلاص للكنيسة وممثّليها، حيثُ جاء:

«لقد وهبني الربُّ إيمانًا راسخًا بالكهنة الذين يعيشون وفقًا لقانون الكنيسة الرومانيَّة المقدّسة، بحيثُ حتّى لو هم اضطهدوني، فإليهم أودّ اللجوء، رغم كلّ شيءٍ. فلو كنت أملك مثلَ حكمة سليمان، واتَّفق لي أن صادفتُ كهنةً مساكين يعيشون في الخطيئة، فلن أرتضي أن أعظ في أبرشيّاتهم، إن هم لم يأذنوا لي بذلك. هؤلاء، وجميع الآخرين أَودّ أن أحترمهم وأُحبَّهم، وأكرّمهم، وكأنَّهم أسيادي، ولا أريد أن أتبيَّن فيهم الخطيئة، بل إنَّما ألحظ فيهم ابن الله، ولذلك هم أسيادي حقًّا».

ويُبرّر فرنسيس موقفه هذا بقوله: «إنَّما أعمل ذلك لأنَّني لست أرى من ابن الله العليّ أيَّ شيءٍ محسوسٍ، في هذه الدنيا، سوى جسده ودمه اللَّذَيْن يكرِّسهما الكهنة، ويضطلعون وحدهم بخدمتهما». ومن ثَمّ فالكنيسة هي المكان الذي يتابع فيه يسوع عمله الفدائيّ، وهي أداة هذا الفداء في العالم.

لقد رأى في الكنيسة، رغم الأكدار التي تُلطِّخ وجهَها الزمنيّ، سرّ حضور المسيح الدائم على أرض البشر، فالتمس منها ضمان سلامة عقيدة أخويَّته، كما أهاب بإخوته أن يُذكِّروا أولي السُّلطة فيها، بفضل سلوكهم ووفائهم، للإنجيل، بواجب الفقر المقدَّس، وأن يحرّروهم من الانغماس في الشؤون المادّيَّة على حساب الإنجيل.

القدّيس فرنسيس يخطب في حضرة البابا هونوريوس الثالث

وهكذا أثبت، على نحوٍ رائعٍ، إمكانيَّة التوفيق بين وحي الروح المدهِش، وحرِّيَّة الضمير المُطلَقة من جهةٍ، والخضوع للكنيسة المؤتَمنة على وديعة الإيمان والتقليد، من جهةٍ أُخرى. وقد برهن على خصب مثل هذا الموقف وجدواه، إذ كانت قداسته من التألُّق بحيث لم يشكَّ أحدٌ في صدق نهجه وسُموِّه، وفي الآن عينه رأوا في سلوكه انتصارًا للكنيسة الكاثوليكيّة التي كان قد أعلن عاليًا وفاءَه لها. لقد خضع للكنيسة، ولكنَّه أبى أن يهبط من ذرى تحليقه، أو أن يُضيِّق مدى آفاقه، فاستطاع أن يعيش نقيًّا طليقًا، وسط فسادٍ شاملٍ.

لقد آمن فرنسيس أنَّ الكنيسة لن تؤدّي رسالتها الجوهريّة، إلاّ إذا هي تضامنت مع الفقراء، واستقبلتهم استقبال المسيح لهم، فتُثبت بذلك وفاءها لمؤسِّسها الذي عبَرَ هذا العالَمَ فقيرًا، وأراد أن يُخْدَم عبر الفقراء، وأن يُخلِّص بهم جميعَ البشر. وقد مكَّنته إنجيليَّته الصادقة، البسيطة، الساذجة، المُطلَقة حتّى أقصى عواقبها، من التوفيق بين خضوعه لكنيسة التقليد، ووفائه لكنيسة الفقراء. لقد اختار هذه بكلّ جوارحه، ولكنّه لم يتخلَّ عن احترامه لتلك، لأنَّها العلامة الحسِّيَّة للمسيح في العالم. لقد حافظ على كامل وفائه لكلٍّ من الفقراء والمؤسَّسة الكنسيّة، ولم يَخُنْ أيَّ قطبٍ من ذَيْنِك القطبَيْن، فأضفى نبلاً عن كِلَيْهما: على الفقراء بإبلاغهم رسالة الإنجيل، وبتعزيتهم، وبتأسيسه معهم جماعاتٍ كنسيَّةً، وعلى المؤسَّسة الكنسيّة ببثّه القَلَق الإنجيليّ في أوصالها، وباعتباره كلّ ما قام به من أجلها، عملَ الكنيسة، لا عملَه هو.

ولقد أثبت فرنسيس، أيضًا، واقعًا على جانبٍ كبيرٍ من الخطورة، وهو أنّ الكنيسة ليست فقط مكانَ رجال دينٍ، ورتبًا كنسيَّةً، وطقوسًا وقوانين، وبالإجمال مؤسَّسةً قائمةً، بل، أيضًا، حيثما يلتئم أناسٌ تجمعهم كلمة الله، فيكتشفون أنَّهم أبناء الله، وإخوةٌ فيما بينهم، ويقتفون أثر يسوع، ويقفون حياتهم على خدمة البشر؛ وبإيجازٍ، أثبت أنَّ الكنيسة هي، أيضًا، حَدَثٌ إيمانيٌّ يتفجَّر، تلبيةً لتطلُّعات شتّى الحِقَبِ، وينطوي على مدلولٍ إنسانيٍّ ودينيٍّ كبيرٍ.

لقد كان فرنسيس نعمةً أسبغها الربّ على كنيسته، التي تلكَّأَتْ في تقبُّله، ولكنَّها، بتبنّيها إيّاه أخيرًا، أَثبتَتْ أنَّ نُشدان الحرِّيَّة، والثورة على الرداءة والخطأ، هما جوهر كيانها، ومن عوامل تجدُّدها الدائم.

فبعد أن تلقّى فرنسيس من يسوع مهمّة إصلاح كنيسته المتداعية، سرعان ما أدرك، بفضل قراءته للإنجيل، بكلّ كيانه، أنّ إصلاح الكنيسة لا يتحقّق بتدعيم سُلطانها، بل بالعودة بها إلى مَعينها الصافي، إلى الإنجيل، ولا سيَّما إلى خطبة الجبل، إلى يسوع الذي تمثَّلَ بالفقراء والمنبوذين. وقد أتاح الحبر الأعظم للكنيسة، بموافقته على مشروع فرنسيس، أن تتجدَّد في أعماقها، ولا سيَّما بين الفقراء.

وقد توخّى فرنسيس أن تنهض أخويَّته نموذجًا لما يتوجَّب على الكنيسة أن تكون، فلا تَنشُد سوى امتلاك الله دون أيِّ شيءٍ سواه، على حدّ ما عبَّر عنه بقوله: «إنّ جماعة الإخوة الأصاغر قطيعٌ صغيرٌ طلبه، أخيرًا، ابن الله من أبيه السماويّ، قائلاً: «يا أبتاه، أودُّ أن تنهض وتهبني شعبًا جديدًا متواضعًا، يتميَّز عمَّن سبقوه جميعًا بتواضعه وفقره، ويكتفي بامتلاكي وحدي، فأكون كلَّ ثروته». وقد أجاب الآب ابنه الوحيد: «يا ابني، إنّ ما طلبت قد تحقَّق». أليس رائعًا أن يكون الربُّ قد ابتغى شعبًا صغيرًا متميّزًا عن جميع من سبقه، مكتفيًا بامتلاك الربّ العليّ المجيد، وحدَه، دون سواه؟!».

بيد أنَّ فرنسيس لم يتطلّع إلى تأسيس نظامٍ جديدٍ، بل ابتغى أن يعيش، وإخوته، ما يتوجّب أن يعيشه كلُّ مُعمَّدٍ، مقتفيًا آثار يسوع، بهدي الإنجيل، وأن يعيش سرَّ الكنيسة، الذي هو سرّ يسوع فقيرًا، متواضعًا. كما أنّه لم يستهدف إنشاء كنيسةٍ صغيرةٍ، في حضن الكنيسة، بل إضفاء ديناميّة الإنجيل على الكنيسة كلِّها، فتُؤدّي الدور الذي وُجدت من أجله، وتكون كنيسة فقراء، كنيسةً فقيرةً متجرّدةً من كلّ امتلاكٍ أرضيٍّ، غير محصورةٍ بين أسوار الهياكل والأديرة الموصدة، بل مُشرعةً على العالم الرحب حيث تبثُّ بُشرى الخلاص، وتُوثّق مع شعب الملكوت أواصر محبَّةٍ وتضامنٍ.

لقد كوّن فرنسيس رؤيةً للكنيسة أجمل ليوناردو بوف ملامحَها، فإذا بها:

– كنيسة العلاقات الأخويّة: فلا يغترَّنَّ أحدٌ بأنَّ رتبته تُوليه امتيازًا، وتضعه فوق الآخرين، بل هو خادِمٌ لهم، والجميع سواسية.

– كنيسةٌ تتغذّى بالكلمة: «الكلمة» هي المِلاط الذي يوثّق الأواصر بين الإخوة، وهي اقتفاءٌ للمسيح، وتضامنٌ مع الفقراء.

لقد كان دافع فرنسيس الأساسيّ، التأمّل في كلام الإنجيل، والعمل بموجبه؛ وقد

أدرك الإنجيلَ بقلبه، وبكلّ جوارحه، ولذلك فهمه أكثر من اللاهوتيّين. كان يسترشد به كلّما واجه مأزقًا، وما كان وعظه سوى تبشيرٍ به.

– كنيسة تعاطُفٍ متبادَل: فالجماعة الفقيرة لا تعتمد على ما تملك، بل على المحبّة الأخويّة، وعلى التعاطف في ما بين الإخوة، وعلى اهتمام كلٍّ بالآخر اهتمام أُمٍّ بأبنائها، لا في الأمور المادّيّة فحَسْب، بل في شؤون الروح، وفي كلّ المجالات.

– كنيسةٌ حيّةٌ، واقعيّةٌ، غير مقيّدةٍ بأغلالِ طقوسٍ جامدةٍ، بل تعرف كيف تلبس لكلّ مناسبةٍ لباسها الذي يُبرز حيويّتها.

فرنسيس نفسه كان، في وعظه، يلجأ إلى أمثلةٍ من صميم الحياة، وإلى حركاتٍ بليغة التعبير؛ وقد أماط نشيدُه للخلائق اللِّثامَ عن معنًى قشيبٍ للصلاة في علاقتها الحميمة مع الحياة ومآسيها وأفراحها.

– كنيسة التّقوى الشعبيّة: وقد ضرب فرنسيس مُثُلاً عديدةً على ذلك، باحتفاله بالميلاد احتفالاً حيًّا، وفي ابتداعه طقس درب الصليب، وبوضعه صلاةً خاصّةً بالآلام، وبتفسيره لصلاة «أبانا» وبتشجيعه التعبُّد لسيّدة الحَبَل بلا دَنَس، وبتقليده يسوع في عشائه السرِّيّ، وهو على فراش الموت...

– كنيسة الرسالة: حتّى في أيّامه، عرفت أخويّته انتشارًا واسعًا في العالم، وقد باتت الآن حاضرةً في كلّ مكانٍ، ولا سيّما بفضل وجه فرنسيس المُشرق الأخّاذ، وبتوفيره إجابةً على توقّعات كلّ إنسانٍ في مضمار الإيمان، وبعودته إلى نموذج حياة المسيحيّين الأوائل، بل حياة الرسل. هو وإخوته كان يحدوهم اليقين بأنّهم مكلّفون من قبل الربّ نفسه ببعث كنيسة الإنجيل.

– كنيسةٌ هي سرّ الروح: وهي التلقائيّة والخلق والتعاطف، وكلُّ هذا يقتضي وجودًا غامرًا للروح القدس، على نحو ما كان فرنسيس رجل الروح القدس حقًّا، ومن منابعه استقى أصفى مياه روحانيّته.

– كنيسةٌ كاثوليكيّةٌ، جديرةٌ بالحبّ والطاعة، ولكن من غير خنوعٍ لرؤسائها يطفئ شعلة الروح، أو يُخمد جُذوة الإنجيل.

ولشدَّة حبّ فرنسيسس للكنيسة واحترامه لها، مثّلها بالعذراء مريم، إذ كلتاهما مكلّفتان بتجسيد المسيح، وقد أنشد لأمّ اللّه:

«سلام يا مريم، أيّتها السيّدة القدّيسة

الملكة أمّ اللّه المقدّسة

أيّتها العذراء التي غدتْ كنيسةً».

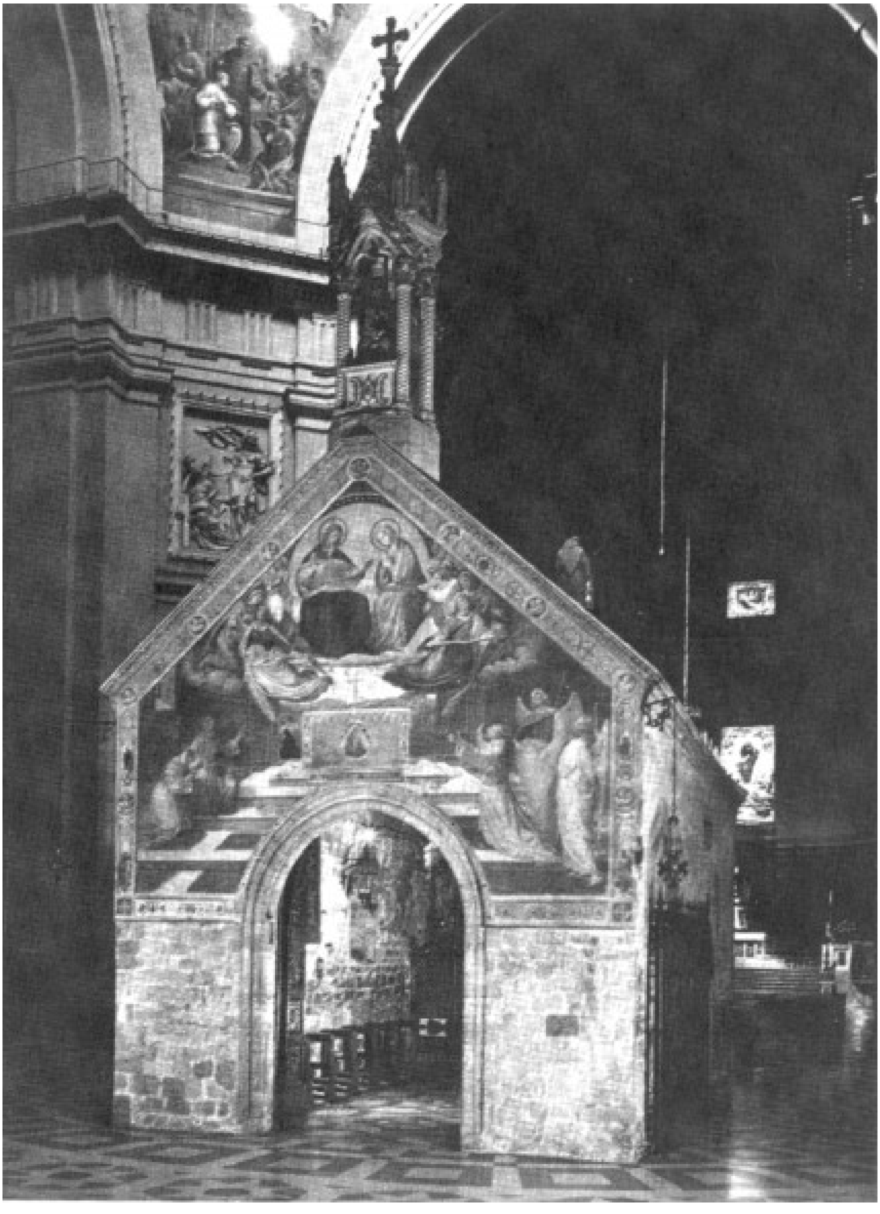

«لا يطلب منّا الله أن ننجح، بل أن نعمل فحسب»

(القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم)

الفرنسيسكانيّة بعد فرنسيس

إنَّ بقاء أيّة جماعةٍ ونموَّها يستلزمان حيِّزًا أدنى من المكان لإقامة أفرادها، وحدًّا أدنى من الموارد لإطعامهم. غير أنّ الانضمام إلى أخويَّة فرنسيس لم يكن يقتضي من الراغب فيه سوى التأهّب للاكتفاء ببعض ثمارٍ بريَّةٍ يقتطفها من الحقول، أو بكِسْرات خبزٍ جافٍّ يستعطيها على الأبواب، ولافتراش اليابسة تحت قبّة السماء، أو قضاء الليل على صخرةٍ أو عند عتبة دارٍ؛ ولا عَجَب، بالتالي، إن تكاثر الفرنسيسكانيّون تكاثرًا سريعًا مذهلاً.

فضلاً عن تميُّز الفرنسيسكانيّة عن سائر الرهبانيّات الأُخرى بالأُخوّة، أي بالمساواة والتعاطف؛ فرفاق فرنسيس لم يُشكّلوا «جمعيّةً»، بل «أخويَّةً»، بكلّ ما يُلوّن هذه اللفظة من فوضى وسحرٍ وخِصْبٍ، وبكلّ ما تنطوي عليه من طلاوةٍ إنجيليَّةٍ، وما ترسمه من علاقاتٍ ودِّيَّةٍ، وما تتَّصف به من تحرُّرٍ حقٍّ. ففي أحضان الأخويَّة، على حدّ قول الأب شينو «يشعر المسيحيّ أنَّه يدخل مجالاً حيويًّا، أكثر ازدهارًا من الرهبانيّات المعهودة، التي غالبًا ما انقلبت، في بعض جوانبها، وكأنّها نسخةٌ كنسيّةٌ للإقطاع الاجتماعيّ». وعلى نقيض ذلك، برزت الأخويَّة الفرنسيسكانيّة، وكأنّها صورةٌ نبويَّةٌ لما يتعيّن أن تُصبح عليه، يومًا، الجماعةُ البشريَّة بأسرها.

لقد كان فرنسيس يتوقَّع الكثير من الرجال غير العاديّين الذين انضووا تحت لواء أخويَّته، مثلما توقَّع الكثير من سواد الشعب الذين كان يُنفذ إليهم رجالَه. كان يقتضي من العلمانيّين الجَوْدَ بالطعام، في مثل الثقة التي كان يقتضي، بها، من إخوته، الزُّهد والصوم. كان يعتمد على كرم ضيافة الناس، لأنَّه كان يعُدُّ، حقًّا، كلَّ بيتٍ بيتَ صديقٍ، ولكأنَّه كان يودّ أن يُخرجَ إخوتَه من صفوف سواد الشعب، كي يُشجّع أفراد الشعبَ على عيش الإنجيل، حيثُ هم.

أمّا تعامله مع إخوته، فهو لم يسعَ، يومًا، إلى شدّهم إليه، بل ساعدهم، دائمًا، على اكتشاف ذواتهم، وحاول الانضمام إلى مسيرتهم الخاصّة، فأصبح لهم، جميعًا، أبًا.

وكانوا، جميعهم، أيَّةً كانت نزعاتهم، ومهما تباينت، يُجمعون على الرَّغبة في أن يكونوا له أبناءً. قد يختلفون في ما بينهم، ولكنَّهم، جميعهم، يَدّعون تمثيل روحه، ولا يرتضي أحدٌ منهم أن يكون له أبٌ سواه. وربَّما كان ذلك أخطر نجاحٍ أصابه فرنسيس من غير أن يسعى إليه، بل من غير أن يخطر له ببالٍ.

ولا غرو أنَّ مُثُل فرنسيس، ولا سيَّما في ميدان الفقر والتجرّد والبساطة، كانت من الشدَّة والوعورة بحيث تخاذل دونها كثيرون من إخوته، حتّى في أثناء حياته. وقد برزت المعارضة لنهجه المتشدّد، ولا سيَّما بعد أن هو تنازل عن رئاسة الأخويَّة للأخ إيليّا، الذي كان يحدوه طموحٌ مضطرمٌ إلى الأمجاد، وإلى رفع الأخويّة الفرنسيسكانيّة إلى مستوًى تتفوّق به على سائر الرهبانيّات القائمة. مذ ذاك ظهرت اتّجاهاتٌ متباينةٌ في صفوف الفرنسيسكانيّين، بين الوفاء المُطلَق لمُثُلِ فرنسيس التي لا تقبل أيّ تنازلٍ أو تراخٍ، من جهةٍ، والاستعاضة عنها بقوانين أقلّ شدّةً تتيح للإخوة امتلاك الأديرة المريحة والإقامة فيها، والإقبال النَّهِم على العلم، وقبول المناصب الرفيعة، بل السعي إليها، من جهةٍ أُخرى.

وهذا الاتّجاه الأخير قد آلم فرنسيس أبلغ إيلامٍ، وحوَّل أيّامه الأخيرة إلى مِحنةٍ مُضنيةٍ، إذ رأى الأخويَّة التي أنجبها ورعاها بحنان الأب والأمّ تتمرّد عليه وتسير في نهجٍ مخالفٍ لما شاء لها أن تنهج، فكان في مثل وضع إبراهيم الذي حقَّق له الربّ الوعد المُذهل، بمنحه ولدًا من صلبه، بعد أن طعن هو وامرأته في السنّ؛ وعندما ترعرع ذلك الولد طلب منه الربّ، كي يمتحنه، أن يُضحّي به؛ وهكذا طلب الربُّ من فرنسيس، بعد معاناته تمزُّقًا قاتلاً، أن يُسلّم أمر أخويّته للربّ، فاستسلم لمشيئة الربّ، واستعاد سلام النفس. ومضت أخويَّته في نموّها المدهش، مثل نسل إبراهيم، وتكاثرت حتّى غشت الأرض كلَّها، وحمل أفرادُها رسالة الإنجيل، بكلّ نقائها وأصالتها، كما فهمها وعلّمها فرنسيس، إلى كلّ بقاع المسكونة، فكانوا، على سبيل المثال، أوّل مُرسَلين يحملون البُشرى إلى الصين .

فلدى وفاة فرنسيس كان عدد أعضاء أخويَّته يناهز خمسة آلاف أخٍ، وما كاد ينقضي خمسة وعشرون عامًا حتّى أربى عددهم، عام ١٢٦٠، في عهد رئاسة القدّيس بوناڤانتورا، على خمسةٍ وثلاثين ألفًا، يُمثّلون أكبر رهبانيَّةٍ عددًا في العالم.

العمل الأوَّل الذي أبرز نزعة الأخ إيليّا والمتعاطفين معه، المتعارضة مع مُثُل فرنسيس،

بُعَيْدَ وفاة هذا الأخير، تمثّل في إشادة «الدير المقدّس» المنيف، وكاتدرائيَّة القدّيس فرنسيس الفخمة ذات الطابقَيْن، المُنتصبة مثل قلعةٍ شمَّاء على تلَّةٍ في شمالي أسّيزي، متعاليةً، غنيّةً، لاهجةً بالخُيَلاء، وقد تنافس في تزيينها، وتغطية جدرانها باللوحات الرائعة، مُختلف مدارس الفنّ الإيطاليّة، تخليدًا لذكرى من رام حياة الامّحاء والفقر المُطلَق، ويا لها من مفارقةٍ!

وفي ١٩ آذار ١٢٢٧، انتُخِب الكاردينال هوغولينو حبرًا أعظم، فباشر، في الحال، إجراءات إعلان قداسة صديقه فرنسيس، التي تمّ إعلانها، رسميًّا، في ١٦ تمّوز ١٢٢٨. وكانت المفارقة الثانية، عندما أعلن الحبر الأعظم نفسه، في ٢٨ أيلول ١٢٣٠، أنَّ وصيَّة فرنسيس التي أكّدت تشدُّده في مضمار الفقر الإنجيليّ، غير مُلزِمةٍ لأيٍّ من الإخوة، وسمح للأخويَّة بامتلاك عقاراتٍ وأموالٍ، بواسطة مُمثّلين ووكلاء، مثل الكرسيّ الرسوليّ.

وهكذا، ما كادت تنقضي أربع سنواتٍ حتّى انتقل مركز الفرنسيسكانيّة من البورتسيونكولا، بكلّ ما تمثّله من وفاءٍ لروح فرنسيس، إلى مدينة أسّيزي وأبنيتها الشامخة المُشادة تحدّيًا لذلك الروح. ورُبّما كان أسطع برهانٍ على ذلك التضارُب، الخلاف الذي نشب بين ليون، الأخ الوفيّ لفرنسيس، والرئيس إيليّا، الذي كان قد أقام صندوقًا لجمع التبرُّعات لبناء كاتدرائيّة القدّيس فرنسيس الكبرى. وقد استنكر الأخ ليون ذلك السلوك، بعنفٍ، وأعلن إدانته له، عاليًا، بل مضى في معارضته إلى حدّ تحطيم الصندوق، فأمر إيليّا بجلده، وعاقبه عقابًا شديدًا.

ليون وإيليّا كانا يرمزان إلى التيَّارَيْن المتناقضَيْن المتنازعَيْن في أحشاء الأخويَّة الفرنسيسكانيّة؛ أحدهما كان يرى أنّ الوفاء لروح فرنسيس ينبغي أن يحاكي وفاء فرنسيس نفسه لروح الإنجيل وحرفه، من غير تأويلٍ ولا تشويهٍ، فيما كان يرى الآخَر أنّ الوفاء لا يعني الجمود، ولا يتنافى والتطوّر، وبحجّة التطوّر كان ينأى كثيرًا أو قليلاً عن مُثُل المؤسّس، ممّا كان يُدمي قلوب رفاق فرنسيس الأوائل، البسطاء، الفقراء الذين يُلهب الإنجيلُ قلوبَهم، والذين تمكّنوا، في عهد الرئيس العامّ الذي خلف الرئيس إيليّا، من جمع طائفةٍ ثمينةٍ من أحداث حياة فرنسيس، الأكثر دلالةً على نهجه وروحانيّته، والتي كانوا عليها شهودًا، وأُضمومةً عطرةً من أقواله التي استقوها منه مباشرةً.

غير أنّ النزوع إلى التبحّر في العِلْم كان ماضيًا في الترسّخ، وطغيان عدد الكهنة

المثقَّفين على العلمانيّين البسطاء، خلافًا لما كان عليه الأمر، في عهد حياة فرنسيس، كان متزايدًا باطّرادٍ، بحيث بات العِلْم أحد ركائز الفرنسيسكانيّة، إلى جانب الفضيلة، وبحيث من المرجَّح أنَّه لو أنَّ فرنسيس نفسه طلب الانضمام إلى الأخويَّة، ثلاثين سنةً بعد وفاته، لقوبل بالرفض، بسبب «جهله». وقد تأكَّدت هذه النزعة، في عهد رئاسة القدّيس بوناڤانتورا، اللاهوتيّ اللامع، والذي استحقّ لقب الملفان الملائكيّ، بفضل غزارة علمه، وسُموّ قداسته. وقد جَهِد هذا القدّيس، طوالَ السبعة عشر عامًا التي رئس إبّانها الأخويّة، في توحيدها، والحدّ من تصارع تيّاراتها المختلفة؛ وقد أمر بإتلاف جميع سير فرنسيس التي كُتِبَتْ حتّئذٍ، والتي يُبرز كلٌّ منها جانبًا من روحانيَّته، ويُغفل جوانبَ أُخرى، وفقًا لنزعة كاتبيها؛ ودوَّن بنفسه سيرةً لفرنسيس حاول أن يجعل منها نموذجًا للتوفيق والاعتدال، وعدم الانحياز لهذا الفريق أو ذاك، وأرادها أن تكون المرجع الأوحد لفهم روحانيّة فرنسيس، وإدراك مفهوم الفرنسيسكانيّة، كما أنّه حدّد زيًّا جديدًا للإخوة. وقد عدّه البعض المؤسّس الثاني للفرنسيسكانيّة.

بيد أن القدّيس بوناڤانتورا، رغم علمه وقداسته، لم يكن يتمتّع بمثل جاذب فرنسيس وسِحْره، فكماله كان فِطريًّا، تلقائيًّا، بحيث كان، دائمًا، واثقًا من سلامة سلوكه، ولم يخشَ الخطيئة، قطّ، لأنَّه كان يجهلها، فيما بلغ فرنسيس ما بلغه من سموٍّ وكمالٍ، بفضل جهادٍ دامٍ مريرٍ، واستشهادٍ يوميٍّ، وترقٍّ وئيدٍ دائبٍ، جاهِدٍ، ظلَّ معه يخشى الخطيئة حتّى مماته، ممّا يجعله أقرب إلى قلوبنا ووهننا؛ وبالتالي، فقد ظلَّ للكثيرين هو المثال الأسمى، وهو الأسوة التي لا يقبلون أُسوةً سواها.

وهكذا رغم طغيان عنصر الكهنة المُثقَّفين، في صفوف الأخويّة، الذين أخذت الكنيسة تستقي من مَعينهم الكثيرَ من أساقفتها ومسؤوليها، ورغم البراءات البابويَّة المتلاحقة التي أعفت فئاتٍ عديدةً من الفرنسيسكانيّين من نذور الفقر المطلق، ورغم حصر انتخاب الرئيس العامّ على الأخويّة، فترةً طويلةً، بفئة المجدّدين الذين اختاروا العلم الجامعيّ، والأديرة الحديثة الفخمة، فحَسْب، إلاّ أنّ نواةً من المتشبّثين بنهج فرنسيس ظلَّت صامدةً، وانطلقت تؤسّس فئاتٍ مستقلّةً في شتّى مُدُن أوروبّا، إلى أن سمح لهم البابا لاون العاشر، عام ١٥١٧، أن ينتخبوا رئيسًا عامًّا عليهم، وأن يحملوا اسم الإخوة الأصاغر؛ وحتّى القرن التاسع عشر ما انفكّت تزدهر فئاتٌ محافظةٌ على إرث فرنسيس الروحيّ، شديدة الالتزام بفقره.

وتنقسم الأخويَّة الفرنسيسكانيّة، اليوم إلى ثلاث فئاتٍ: الإخوة الأصاغر الفرنسيسكانيّين، والإخوة الأصاغر الكبّوشيّين، وكلتا الفئتَيْن لا تمتلكان عقاراتٍ، رسميًّا على الأقلّ، فأديرتهم تخصّ سواهم؛ ثُمّ الإخوة الأصاغر الديريّين الذين يمتلكون عقاراتٍ خاصّةً بهم. أمّا، فيما عدا ذلك، فلا خلاف جوهريًّا في أسلوب عيش تلك الفئات الثلاث، إذ قد اقتنع الجميع بضرورة العودة، ما أمكن، إلى ممارسة الفقر في شتّى مرافق السلوك والحياة. وتضمّ الفئاتُ الثلاث كهنةً، وإخوةً غير كهنةٍ، وقليلاً من النُّسَّاك.

عدد الفرنسيسكانيّين اليوم يناهز الأربعين ألفًا، وهم منتشرون في شتّى بقاع العالم حيث يُخلّدون روحَ مؤسِّسهم، بوقوفهم إلى جانب المنبوذين، والمغلوبين على أمرهم، والذين رذلهم العالم، الذين يجهدون في مصالحتهم مع الحياة والله والبشر.

قد لا يمارس الفقرَ، على نحو ما مارسه فرنسيس، سوى فئةٍ ضئيلةٍ منهم، مثلما لا يمارس المسيحيّة، كما علّمها يسوع، سوى قلّةٍ من المسيحيّين؛ غير أنّ معظمهم أوفياء لذكراه، وجوهر تعليمه، ساعون إلى إبقاء الخميرة الإنجيليّة فاعلةً، مُنتجةً، في ثنايا العجينة البشريّة، ناشرين المصالحة والسلام والفرح، أينما حلّوا. وهم، في كلّ عصرٍ ومكانٍ، يقرأون نفس الإنجيل، ولكن من زوايا مختلفة، حسب مقتضيات الزمن، وخلاص الإنسان.

وبين فينةٍ وفينةٍ، ينهض منهم من يثورون على التبايُن بين مُثُل فرنسيس وواقع الأخويّة الماثل، ويرفضون خيار الأغلبيّة التي آثرت اليُسر والبحبوحة، فيحرصون على اقتفاء آثار فرنسيس بأمانةٍ تامّةٍ، ويصرخ سلوكُهم بدينونة المتقاعسين. هؤلاء يُمثّلون استمرار تفجّر النُّسْغ المتجدّد، ومن صفوفهم ينطلق رُسُلٌ يبعثون نصاعةَ الإنجيل، على غرار فرنسيس، ويُصلحون ما أفسده المُتَثَقِّفون.

ومن خصائص الفرنسيسكانيّين إشاعة تقوًى شعبيّةٍ واسعة النطاق، تدين بالكثير من حرارتها للعذراء مريم؛ فالفرنسيسكانيّون على غرار فرنسيس، كانوا أشدَّ المدافعين عن عقيدة الحَبَل بلا دَنَسٍ؛ وقد تلخّصت دعوتهم في التمثُّل بالمسيح الفقير المصلوب، على أنّه مُعلِّم الروح، والتعبّد للعذراء أمّه، المنزَّهة من كلّ عيبٍ، على أنّها ملجأ الخطأة.

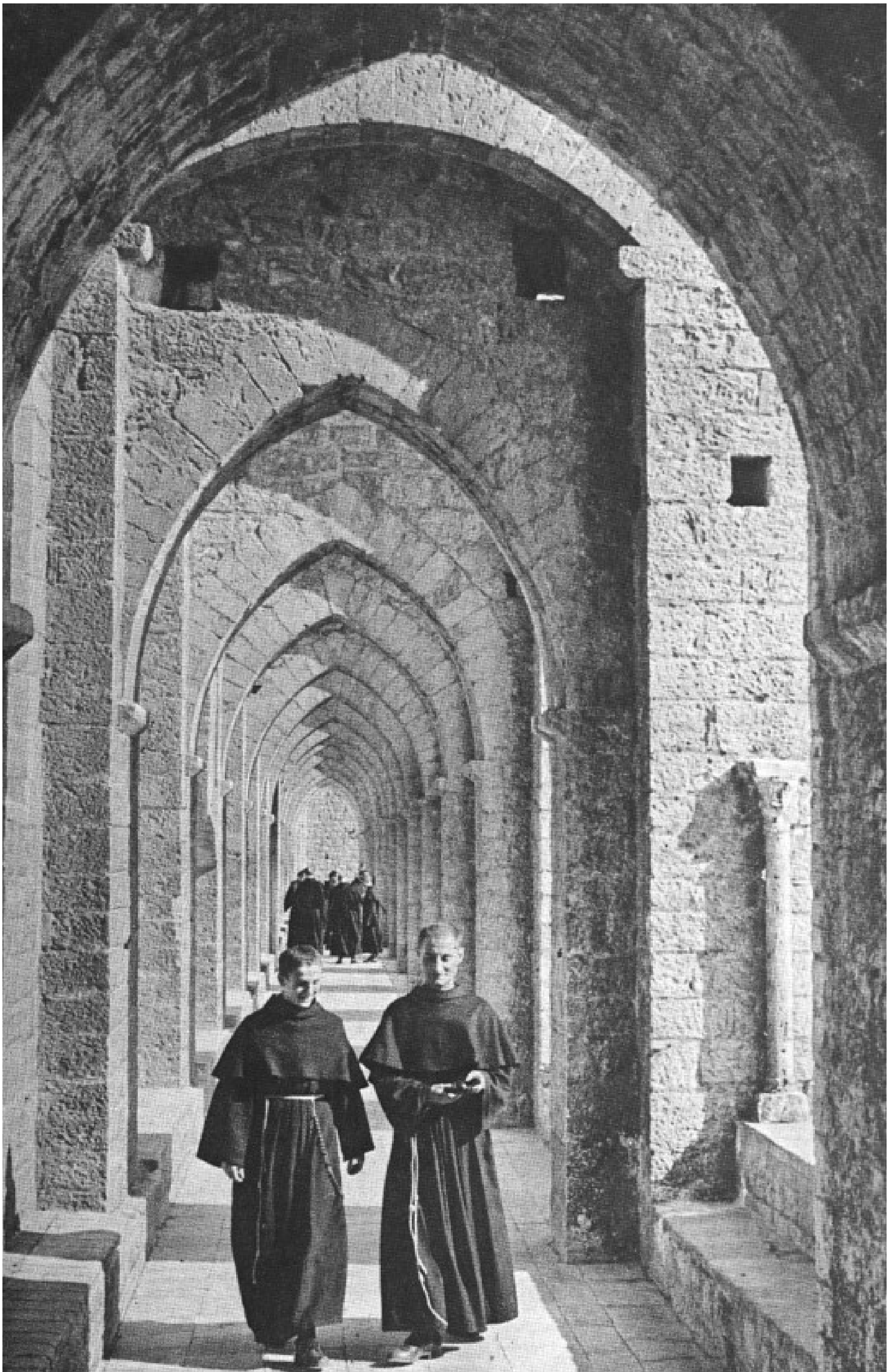

وهم، بذلك، قد أسهموا في جعل الفنّ والرسم أكثر واقعيَّةً وإنسانيَّةً، وأتاحوا لكلّ مؤمنٍ أن يعقد علاقةً حميمةً مع واقعٍ أسمى، واقع الله الخالق.

وإلى جانب الإخوة الفرنسيسكانيّين، ثَمَّة نحو ثلاثة عشر ألف راهبةٍ، فرنسيسكانيَّاتٍ وكلاريسّاتٍ، يواصلنَ مسيرة فرنسيس وكيارا الخلاصيّة، يؤازرهنّ نحو مئة ألفٍ من راهبات «الرهبانيّة الثالثة»، اللائي يندفعنَ إلى تلبية كلّ نداء استغاثةٍ، حتّى القادم من ديارٍ نائيةٍ، ولا يتردَّدنَ في الشخوص إلى أيّة بقعةٍ على وجه البسيطة، حيث يكافحنَ الجهل والفقر والمرض، وينشرنَ المصالحة والعزاء والفرح، ويمارسنَ شتّى أنواع الرسالات من تمريضٍ وتعليمٍ، ونُسْكٍ.

وهناك مئات ألوف المتزوّجين والمتزوّجات المنتسبين إلى «الرهبانيّة الثالثة»، في مختلف بقاع المسكونة، الذين يجهدون في إحياء روح فرنسيس، وعيش مسيحيّتهم، بوحيٍ من عيشه لها.

فضلاً عن أعدادٍ لا تُحصى من كلّ جنسٍ وعِرْقٍ ولَوْنٍ، يسري في عرقوهم نُسغ فرنسيس وحبُّه. ففرنسيس، بعد ثمانية قرون، ما زال حيًّا، يستفزّ أبطالاً وقدّيسين، ومدافعين عن نقاء الإنجيل، وكرامة الإنسان.

إنّ العواصف التي هبَّت وستظلّ تهبّ على الفرنسيسكانيّة، والتي هزّتها أحيانًا بعنفٍ، لم تُفلح ولن تفلح في القضاء عليها، فهي تحمل في أحشائها بذرة الإنجيل، التي ستظلُّ إلى الأبد حيَّةً، ولو تخاصم الذين يحتضنونها، وتباينت مسالكهم. ففوق الوَهَن البشريّ، الذي قد ينال من بعضهم، وفوق الأنانيَّات، والصغارات، وتباين الطباع، يظلّ الإنجيل يحتلّ مكانه المركزيّ من الجماعة التي ما انفكّت، في أعقاب ثمانية قرونٍ، محافظةً على خصبها، وزخمها الخلّاق، وتمسُّكها بالروح الذي كان يحدو فرنسيس ورفاقه الاثني عشر، الذين كانوا يرقدون في كوخٍ ضيّقٍ يغمره فرح الربّ، في ريڤو تورتو. وما زالت الأخويّة تحمل، بوضوحٍ، طابعَ مؤسّسها الذي أثبت قدرته على التكيُّف مع جميع المتبدّلات والأوضاع الجديدة.

لقد أعلن يسوع: «كلُّ غرسةٍ لم يغرسها أبي السماويّ تُقْلَع». والفرنسيسكانيّة قد غرسها الآب بنفسه، فترعرعت وامتدَّت فروعها حتّى غطّت العالَم أجمع، وما زالت فوّارةً بالنُّسْغ المتدفّق، تؤتي ثمارًا رائعةً، وغالبًا مدهشةً غير متوقَّعةٍ.

وقال يسوع أيضًا: «لقد جئتُ كي أُضرم على الأرض نارًا»؛ ومن ثَمَّ فإنّ الإنجيل لم يفرض قالبًا جامدًا ثابتًا، يُسكَب فيه سلوكُ البشر أجمعين، سلوكٌ محدَّدٌ إلى الأبد، بل إنَّه أوحى فكرةً، وأشرع أفقًا، وأشار إلى منحًى، وأهاب بكلّ إنسانٍ أن ينهج وفقًا لذلك الوحي، وفي ذلك الاتّجاه، حَسْب مقتضيات الزمان والمكان، على ألاَّ يحيد عن جوهر الفكرة، وعن سراط التعليم الإلهيّ. وكذلك فعل فرنسيس، فقد أوحى بفكرةٍ وأخلص لها، ورُبّما اضطرّ إلى تجسيدها في صيغةٍ كي تستوعب جماعةً متكاثرةً باطّراد؛ ولكنّ الفكرة كانت أكبر من الصيغة، وأوسع، بما لا يُقاس، من الحصر في سلوكٍ مُعيَّنٍ. ولئن فشلت الصيغة في الظفر بالإجماع، إلاّ أنّ الفكرة ظلَّت حيَّةً، فاعلةً، خالدةً، لن تموت.

إنّ تجربة فرنسيس لم تكن حَدَثًا عابرًا في تاريخ الكنيسة، بل إنّها تنطوي على قيمة المَثَل، ومغزى النبوّة؛ لقد كانت للكنيسة عاملَ يقظةٍ في القرن الثالثَ عشر، وما انفكّت تحمل في ثناياها قدرةً جبَّارةً على التجدّد، واستعادة الشباب، كما أنَّها ما فتئت تسحر عددًا كبيرًا من الرجال والنساء، وتُلهمهم. فأيّ محبٍّ للإنجيل لم يحلم، يومًا، بعيش ما عاشته الأخويّة الفرنسيسكانيّة الأُولى، من تواضعٍ وبساطةٍ وفَرَحٍ وفقرٍ؟ إنّ كثيرين قد أقدموا، وما انفكّوا يُقدمون، على تحقيق ذلك الحُلم بعزمٍ وإصرارٍ.

ولا بِدْعَ أنّ لغنى شخصيّة فرنسيس سهمًا بارزًا في تحقيق تلك التجربة الفذّة، فهي شخصيَّةٌ فريدةٌ، خلاّقةٌ، ديناميّةٌ، وُضّاءةٌ، تشعّ منها حياةٌ خفّاقةٌ تقرن البساطَة بشدّة المراس والتألّق. إنّها شخصيّةُ رائدٍ يجذب أتباعه خارج الدروب المطروقة، وتستعيد معه الحياة نفحةَ الخليقة الجديدة؛ طابعه المميّز طاقةٌ خارقةٌ على المشارَكة، وقدرةٌ متجدّدة أبدًا على الدهشة والإعجاب، والاستقبال والتضحية، وبالإجمال. ذهنٌ وقلبٌ مضيافان، متيقّظان لجميع الكائنات، يزدهران في السلام والفرح.

تلك الشخصيَّة الثرّة قد داهمها الإنجيل، فلم يُحطّم نوابضَها، ولم يعطّل من قدراتها شيئًا، بل حرَّرها ونمّاها وسما بها؛ كما أنّ الإمعان في التقشّف، والتوغُّل في كثافة الحياة الروحيّة لم يَثْلُما شيئًا من رهافة إحساسها؛ فظلَّ كلُّ ما فيها ثمينًا، نابضًا ونقيًّا في قبضة الله.

لقد كان ارتداد فرنسيس مشاركةً عميقةً، صميميّةً، مع كائنٍ حيٍّ هو يسوع المسيح، الذي غمر بحبّه وقدرته تلك الشخصيّة الناصعة، فحرَّر طاقاتها من كلّ ما كان فيها ضيِّقًا، محدودًا، وأشرعها على العالم الفسيح.

وأخيرًا، تواطأت تلك الشخصيّة الغنيّة، التي ازدادت بالإنجيل غنًى وسموًّا وطاقةً، مع تيّارٍ تاريخيٍّ هادرٍ، إذ استجاب فرنسيس لتطلُّعات حقبته إلى إقرار العدل والتحرّر والمساواة والسلام، ونشر الفرح، وصَوْن كرامة كلّ إنسانٍ، وإلى روحانيّةٍ إنجيليَّةٍ نظيفةٍ ونقيّةٍ، وقد استنارت تلك الاستجابة بهدي الإنجيل، وتزوَّدت بزخمه، فاتَّسمت بأبعادٍ تخطَّت تُخوم زمانها ومكانها، وغدت قُدوةً تصلُح لكلّ عصرٍ وكلّ موقعٍ.

ولا عَجَب، بالتالي، إن وُصف فرنسيس بأنّه «رجل العصر القادم»، لا بل يمكن القول إنّ مِثال حياته، وسلوك أخويَّته، بوحيٍ من ذلك المثال، يجعلان منه رجل جميع العصور.

ملحقات

لقد أوردنا، في متن الكتاب، الكثير من أقوال القدّيس فرنسيس ومن كتاباته، التي كان فيها مُقِلاًّ. وفيما يلي بعض المزيد منها، حيث تنبض روحه، المجبولة بالإنجيل جبلاً حميمًا.

أ – «إرشادات أبينا القدّيس فرنسيس»

١– حول جسد المسيح

قال يسوع لتلاميذه: «أنا الطريق والحقّ والحياة، لا يأتي أحدٌ إلى الآب إلاّ بي. إن كنتم قد عرفتموني، فستعرفون الآب أيضًا، بل من الآن تعرفونه، وقد رأيتموه». قال له فيلبّس: «يا ربّ، أَرِنا الآب، وحَسْبُنا». قال له يسوع: «أنا معكم كلَّ هذا الزمن، ولا تعرفني يا فيلبّس! من رآني، فقد رأى الآب». وقيل: «إنّ مسكن الآب نورٌ لا يُدنى منه»، وإنّ «الله روح»، و«الله لم يَرَه أَحدٌ قطُّ». وبما أنّ الله روح، لا يستطيع أحدٌ أن يراه إلاّ بالروح، فالروح يُحيي، أمّا الجسد فلا يفيد شيئًا». أمّا الابن، فبمَا أنّه مساوٍ للآب، لا يستطيع أحدٌ رؤيته سوى الآب والروح القدس. ومن ثَمَّ، فكلُّ الذين شاهدوا الربّ يسوع المسيح، مشاهدةً بشريَّةً، ولكنَّهم لم يرَوا ولم يؤمنوا، وفقًا للروح، ووفقًا لله، أنَّه ابن الله حقًّا، فهؤلاء مدانون، وكذلك شأن جميع الذين يرون سرّ جسد المسيح، الذي كرَّسه كلام الربّ على الهيكل، وفي يدي الكاهن، تحت أعراض الخبز والخمر، إلاَّ أنّهم لا يرون ولا يؤمنون، وفقًا للروح ووفقًا لله، أنَّه، حقًّا، جسد سيّدنا

يسوع المسيح، ودمه المقدّسان، تصديقًا لقول العليّ نفسه: «هذا هو جسدي، ودم العهد الجديد» وأيضًا: «من يأكل جسدي، ويشرب دمي، فله الحياة الأبديّة».

وبالتالي، فإنّ روح الربّ القاطن في مؤمنيه، هو الذي يتلقّى جسد الربّ ودمه الكلّيّ القداسة؛ أمّا جميع الآخرين الذين لا يشتركون بهذا الروح، والذين يتجاسرون على تلقّي هذا الجسد وهذا الدم، فهم إنّما يأكلون ويشربون دينونتهم. فيا بني البشر، حتّى متى ستظلّون قُساة القلوب؟ لمَ لا تدركون الحقيقة، ولا تؤمنون بابن الله؟ فها هوذا يتواضع كلَّ يومٍ، مثلما فعل عندما هبط من عرش ملكه إلى أحشاء العذراء؛ وكلَّ يومٍ يأتي إلينا، تحت مظاهرَ متواضعةٍ، وكلَّ يومٍ يهبط من أحشاء أبيه، إلى الهيكل، بين يَدي الكاهن. ومثلما ظهر للتلاميذ القدّيسين، في جسده الحقيقيّ، فهو يُظهر لنا ذاته الآن، في القربان المُقدّس؛ وكما أنَّهم، بعيونهم الجسديّة، لم يشهدوا سوى جسده، ولكنَّهم كانوا يؤمنون أنَّهم يرون الله نفسه الذي كانوا يتأمَّلونه بعيون الروح، كذلك علينا، نحن، إذ نشاهد الخبز والخمر بعيون جسدنا، أن نرى ونؤمن، إيمانًا ثابتًا، أنَّ ثمَّة جسده القدّوس، ودمه الحيّ الحقيقيّ؛ وعلى هذا النحو، يبقى الربّ أبدًا مع المؤمنين به، على حدّ قوله، هو نفسه: «ها أناذا معكم، إلى انقضاء الدهور».

٢ – في شرّ الإرادة الخاصَّة

قال الربّ لآدم: «من جميع شجر الجنَّة تأكل، وأمَّا شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل منها». كان، إذن، بوسع آدم أن يأكل من جميع أشجار الفردوس، وطالما هو لم يعصَ أمر الربّ، لم يخطأ. أمّا من يتبع إرادته الخاصّة، ويفخر بالصلاح الذي يقوله الربُّ ويحقّقه من خلاله، فهو يأكل من شجرة معرفة الخير والشرّ، ويستحقّ العقاب.

٣ – حول الطاعة الكاملة، والطاعة النَّاقصة

قال الربّ في الإنجيل: «كلُّ واحدٍ منكم، إن لم يزهد في جميع أمواله، لا يستطيع أن يكون لي تلميذًا» و«من أراد أن يُخلّص نفسه يخسرها». إنَّه يزهد في كلّ ما يملك، ويخسر جسده وحياته، ذاك الذي يستسلم بكُلّيّته بين يَدَيْ رئيسه، كي يطيعه؛ وإنَّ كلّ ما يفعله أو يقوله، وهو عالمٌ أنَّه غير مخالفٍ لإرادة رئيسه، شرط أن يكون ما يقول

ويفعل خيرًا، فإنَّما ذلك طاعةٌ حقّةٌ. وإن هو رأى، أحيانًا، أنّ ثمّة أُمورًا أفضل وأجدى لنفسه من تلك التي يأمره بها رئيسه، فليُضحّ للّه بإرادته، وليجهد في تنفيذ أوامر رئيسه، فتلك هي الطاعة الحقّة، المتوافقة مع المحبّة، والتي تحظى برضى اللّه والقريب.

أمّا إذا ما أمر رئيسٌ أحد مرؤوسيه بأمرٍ يخالف ضميره، حينئذٍ يحقّ للمرؤوس ألاَّ يُطيعه، ولكن لا يحقّ له هجر رئيسه؛ وإذا ما اضطهده بعضهم لهذا السبب، فليحبَّهم أكثر، حبًّا باللّه. فمن يؤثر احتمال الاضطهاد على الانفصال عن إخوته، يُمارس، حقًّا، الطاعة الكاملة، إذ إنّه يُضحّي بحياته في سبيل إخوته. إنَّ هناك العديد من الرُّهبان الذين، بحجّة أنّهم يرتأون ما هو أفضل ممّا يأمرهم به رؤساؤهم، ينظرون إلى الوراء، ويعودون إلى قيء إرادتهم الخاصّة. إنّ هؤلاء قَتَلَةٌ، ومن جرّاء مثالهم السيّئ، يسبّبون هلاك نفوسٍ كثيرةٍ.

٤ – لا يستأثرنَّ أحدٌ بمنصب الرئيس

«لم آتِ لأُخْدَم، بل لأخدُم» قال الربّ. وعلى الذين كُلِّفوا بقيادة الآخرين أن يفخروا بهذه المهمّة، كما من شأنهم أن يفخروا إن هم كُلِّفوا بغسل أرجل إخوانهم...

٥ – لا يتكبَّرنَّ أحدٌ، بل فليفخر كلُّ واحدٍ بصليب الربّ

تأمَّل، أيّها الإنسان، أيَّ مستوًى من الامتياز وضعك فيه الربّ، إذ قد خلق جسدك وصاغه على صورة ابنه الحبيب، وخلق نفسك على مثاله؛ ومع ذلك فإنّ جميع الخلائق، تحت السماء، تخدم خالقها، وتعرفه وتطيعه، بأُسلوبها الخاصّ، خيرًا منك. ففي حين أنّ الأبالسة نفسها لم تصلبه، أنت، بالتعاون معها، وضعته، وما زلت تضعه على الصَّليب، بتمرُّغك في معاصيك وخطاياك. فَبِمَ، إذن، تفخر؟ فحتّى لو كنت من الذكاء والعلم، بحيث تمتلك كلَّ معرفة، وتتكلّم بجميع الألسن، وتسبر، في أعماقها، كلّ أسرار السماء، فلن يمكنك أن تفخر بشيءٍ من كلّ ذلك، إذ إنّ شيطانًا واحدًا قد عرف من أسرار السماء، ويعرف الآن من أسرار الأرض، أكثر من جميع البشر مجتمعين، مع أنَّ من بين هؤلاء من تلقّوا من الربّ معرفةً خاصَّةً بالحكمة البشريّة السامية. وكذلك الأمر، لو أنَّك تفوّقت جمالاً وغنًى على الجميع، ولو أنّك تمكّنت

من إجراء المعجزات، مثل طرد الشياطين. فذلك كلّه يُؤْتيك الضرر، ولن يُجديك فتيلاً، ولن تستطيع الافتخار به، إذ إنّنا بأوهاننا، فقط، نستطيع أن نفخر، وبحملنا، كلَّ يومٍ، صليب سيّدنا يسوع المسيح المقدّس.

٦ – في الاقتداء بالمسيح

فلنتأمّل، جميعًا، إخوتي، الراعي الصالح، الذي من أجل خلاص نعاجه، عانى آلام الصَّليب؛ وقد تبعته نعاج الربّ، في الضيقات والاضطهادات، في المهانة، والجوع والعطش، في الأسقام والتجارب، وشتّى المِحَن؛ ولقاء ذلك نلنَ من الربّ الحياة الأبديّة. ومن ثَمّ، فإنّه لعارٌ كبيرٌ علينا، نحن خدّام الله، أن يكون القدّيسون قد اضطلعوا بأعمالٍ جليلةٍ، فيما نحن نقتصر على سردها والوعظ بها، وندَّعي، منها، لأنفسنا، المجد والتكريم.

٧ – في أنّ على الأعمال الصالحة أن ترافق العِلْم

لقد قال الرسول: «الحرف يقتل، أمّا الروح فيُحيي». هؤلاء يقتلهم الحرف، الذين لا يلتمسون سوى معرفة الألفاظ كي يظهروا، بها، أرفع حكمةً من الآخرين، ولكي يقتنوا ثرواتٍ كبيرةً يوزّعونها على ذويهم وأصدقائهم. والحرف يقتل الرُّهبان الذين يأبون العيش وفقًا لروح الكتاب المقدّس، ويؤثرون ألاّ يعرفوا منه سوى ألفاظه التي يُفسّرونها للآخرين. وإنّ روح الكتاب المقدّس يُحيي أولئك الذين لا يستمدّون أيَّ نفعٍ مادّيٍّ من العِلْم الذي يمتلكونه أو يسعون إليه، والذين، بقولهم ومَثَلهم، ينسبونه إلى الربّ العليّ، الذي وحدَه يملك كلّ شيءٍ.

٨ – في ضرورة التحاشي عن خطيئة الحسد

قال بولس الرسول: «لا أحدَ يستطيع أن يقول: «يسوع الربّ» إلاّ بالروح القُدس» وقال صاحب المزامير: «ليس من يصنع الصلاح، ولا واحدٌ». ولذلك فإنّ من يحسد أخاه، بسبب الصلاح الذي يقوله الربّ أو يفعله بواسطته، يرتكب خطيئة التجديف، لأنّه يحسد العليّ نفسه، قائل كلّ صلاحٍ وفاعله.

٩ – في المحبّة

قال الربّ في الإنجيل: «أحبّوا أعداءكم...» إلخ. وإنّه يحبّ عدوّه، حقًّا، ذاك الذي يبتئس بسبب إهانةٍ يلحقها به، بل إنّه، حبًّا بالله يتألّم فقط، بسبب الخطيئة التي يكون قد ارتكبها، ويُعبّر له عن محبّته له.

١٠ – في الإماتة الجسديّة

ثَمَّة كثيرون، إذا ما ارتكبوا خطيئةً، أو تلقّوا إهانةً، غالبًا ما يلومون عدوّهم أو قريبهم، ولكنّهم، في ذلك مخطئون، إذ بوسع كلٍّ منّا السيطرة على عدوّه، وما هذا العدوّ سوى الجسد، أداة الخطيئة. ومن ثَمّ فهنيئًا للخادم الذي يُبقي ذلك العدوَّ سجينًا، مُحكِمًا عليه قبضته، ومُتَّقيًا ضرباته بحكمة؛ فطالما هو سلك على هذا النحو، لن يقوى عدوٌّ مرئيٌّ أو غير مرئيٍّ على النَّيل منه.

١١ – ينبغي ألاّ يتشكّك أحدُ بسبب خطيئة الغير

ينبغي ألاّ يُكدِّر خادمَ الله شيءُ سوى الخطيئة؛ فإذا ما اضطرب خادم الله أو غضب، من جرّاء أيّة خطيئةٍ يرتكبها إنسانٌ، وما لم يكن اضطرابه وغضبه بدافع المحبّة، فإنّه يدّخر لنفسه كنزًا من المعاصي. إنّ خادم الله الذي لا شيءَ يسبّب اضطرابه وحَنَقه، يسلك في استقامةٍ وبلا خطيئةٍ.

وهنيئًا لمن لا يستبقي لنفسه شيئًا، بل يُعيد لقيصر ما هو لقيصر، ولله ما هو لله.

١٢ – حول أسلوب معرفة الربّ

هكذا يمكن تبيُّن امتلاك خادم الله روح الربّ: فإذا ما حقَّق الربُّ بواسطته أيّ عملٍ صالحٍ، لا يستمدّ، من ذلك، جسدُه أيَّ كبرياء، فالجسد هو، دائمًا، خصمٌ لكلّ خيرٍ: بل يَعُدّ ذلك الخادم نفسَه أكثر حقارةً، ويضع نفسه دون سائر البشر.

١٣ – حول الصبر

لا يمكن تبيُّن مدى الصبر والتواضع في قلب خادم الله، طالما هو كان يظفر بكلّ ما يبتغيه. ولكن عندما يحين وقتٌ يلقى فيه المقاوَمة من كلّ من كان يتوقّع منهم المصانعة والمساعدة، فحينئذٍ يتَّضح أنّه يمتلك، حقًّا، من الصبر والتواضع، بقدر ما يُبدي منهما، ليس إلاّ.

١٤ – فقر الروح

«طوبى للمساكين بالروح، فإنَّ لهم ملكوت السموات». كثيرون يثابرون على الصلاة والقدّاس، ويفرضون على أجسادهم الكثير من التقشّفات والإماتات؛ إلاَّ أنَّهم، لُمجرَّد سماعهم لفظةً يعدّونها إهانةً، أو لمجرّد حرمانهم شيئًا ما، يتشكَّكون ويضطربون. هؤلاء ليسوا فقراء بالروح، فالفقير بالروح الحقّ، يبغض ذاته، ويُحبّ من يصفعونه.

١٥ – المسالمون

«طوبى لصانعي السلام، فإنَّهم أبناء الله يدعون». هؤلاء مسالمون، حقًّا، الذين، وسط جميع الآلام التي يكابدونها في هذا العالم، يحتفظون بسلام الروح والجسد، حُبًّا بسيّدنا يسوع المسيح.

١٦ – نقاء القلب

«طوبى لأنقياء القلوب، فإنّهم يعاينون الله»؛ أنقياء القلوب هم الذين يزدرون خيرات الأرض، ويتطلَّعون إلى خيرات السماء، ولا يكُفّون يعبدون الله الربَّ الحيَّ الحقّ، ويبصرونه بقلبٍ وفكرٍ نقيَّين.

١٧ – خادم الله المتواضع

هنيئًا لذلك الخادم الذي لا يفخر بالصلاح الذي ينطق به الربّ ويحقّقه بواسطته، أكثر من افتخاره بالصلاح الذي ينطق به الربّ ويحقّقه بواسطة سواه. وإنَّه ليخطئ ذلك الإنسان الذي يقتضي من قريبه أكثر ممّا يريد أن يهب، هو، من نفسه، للربّ.

١٨ – في التعاطف مع القريب

طوبى للإنسان الذي يحمل قريبه، في وَهَنه، بقدر ما يودّ أن يُحْتَمَل، هو، في وضعٍ مماثلٍ.

١٩ – الخادم السعيد، والخادم التعيس

طوبى للخادم الذي يُعيد كلّ ما يمتلك للربّ. فالذي يستبقي لنفسه شيئًا، يُخفي مال سيّده، ومن ثَمَّ، فسيُنزَع منه ما كان يظُنُّ أنَّه له.

٢٠ – في الراهب المتواضع الطيّب

طوبى للخادم الذي لا يَعُدّ نفسه أفضل حالاً، لدى سماعه ثناءَ الناس وتمجيدهم له، ممّا يَعُدّ نفسه عندما يسمع تحقيرهم له، ووصفهم له بالجهل والدناءة. فالإنسان لا يساوي، في الواقع، أكثر ممّا هو يساوي في عيني الربّ، ليس إلاّ. وويلٌ لذلك الراهب الذي رفعه الآخرون في مراقي الكرامة، فبات يرفض التنازل، طوعًا. وهنيئًا للخادم الذي يأبى أن يُكرَّم تكريمًا رفيعًا، ويرغب في أن يظلّ دائمًا عند أقدام الآخرين.

٢١ – في الراهب السعيد، والراهب الرديء

هنيئًا لذلك الراهب الذي لا يجد مُتْعةً وفرحًا إلاّ في الأحاديث القدسيَّة، وفي أعمال الربّ، وبواسطتها يقود الناس إلى حبّ الله، في الفرح والبهجة. وويلٌ لذلك الراهب الذي يتمتَّع بالأحاديث الفارغة الباطلة، وبها يحمل الناس على الضَّحِك.

٢٢ – في الراهب الطائش الثرثار

هنيئًا للراهب الذي لا يتكلّم طمعًا في مكافأةٍ، والذي لا يُفصح عن كلّ ما يجول في خاطره، والذي لا يتسرّع في الكلام، ولكنّه يتمعَّن، في حكمةٍ، كلّ ما يتوجّب عليه أن يقوله أو يُجيب به؛ وويلٌ لذلك الراهب الذي لا يحتفظ، في سرّه، بالخير الذي يُريه إيّاه الله ولا يُظهره للآخرين بأفعاله، بل يؤثر أن يُظهره لهم بأقواله، أملاً في مكافأةٍ. وهكذا يتلقّى هو مكافأته، في حين أنّ مستمعيه لا يظفرون إلاّ بالزهيد من الثمر.

٢٣ – في التأديب الحقّ

طوبى للخادم الذي يخضع، راضيًا، للتأديب والدينونة واللَّوم من قبل آخر، في مثل الصبر الذي يُظهره لو هو أُدِّب ودين وليم من قبل ذاته. طوبى للخادم الذي إذا ما أُنِّب، خضع في رقّةٍ، وأطاع في احترامٍ، وأقرّ بخطئه، في تواضعٍ، وأصلحه طوعًا. طوبى للخادم الذي لا يتعجّل في استماحة الأعذار، والذي يحتمل، في تواضعٍ، العار والتأنيب عن خطيئة لم يقترفها.

٢٤ – في التواضع الحقّ

طوبى لمن يُظهر من التواضع بين مرؤوسيه، مثلما يُظهر أمام رؤسائه. وطوبى للعبد الذي يبقى أبدًا خاضعًا لعصا التأديب. «الخادم الأمين الفطن» هو الذي لا يؤجّل التكفير عن خطاياه، داخليًّا بالتوبة، وخارجيًّا بالاعتراف، وبأعمال التعويض.

٢٥ – في الحبّ الحقّ

طوبى للأخ الذي يُحبّ أخاه السقيم والعاجز عن أيّة خدمةٍ يسديها له، مثل حُبّه للأخ السليم المعافى القادر على خدمته. طوبى للأخ الي يُحبّ ويخشى أخاه الغائب مثلما يُحبّه وهو حاضر، والذي لا يقول، أبدًا، في غيابه، ما لا يستطيع أن يكرّره بكلّ محبّةٍ، في حضوره.

٢٦ – في أنّ على خدّام الله تكريم رجال الدين

طوبى لخادم اللّه الذي يثق برجال الدين، الذين يعيشون في استقامة، وفقًا لوصايا الكنيسة الرومانيَّة المقدّسة. وويلٌ لمن يحتقرهم. فحتّى لو هم كانوا خطأة، لا يحقُّ لأحدٍ أن يدينهم، فالدينونة إنّما هي من حقّ اللّه وحده. فبقدر ما تسمو المهمّة التي يضطلعون بها، على المهامّ الأُخرى، بصفتهم مُكلَّفين بجسد ودم سيّدنا يسوع المسيح الكلّيّ القداسة، اللَّذَيْن يتلقّونهما ويوزّعونهما، وحدَهم، دون سواهم، على الآخرين، بنفس القدر تتخطّى الخطايا المقترفة بحقّهم، في خطورتها، الخطايا المقترفة بحقّ جميع الناس الآخرين في هذا العالم.

٢٧ – في الفضائل الكفيلة بطرد الرذائل

حيث المحبّة والحكمة، لا خوفَ ولا جهلَ؛ وحيث الصبرُ والتواضعُ، لا غَضَبَ ولا اضطرابٌ؛ حيث الفقر مقترنًا بالفرح، لا جَشَع ولا بُخل؛ حيثُ السلام والتأمُّل، لا قَلَق ولا تَشَوُّش؛ وحيث خوف الله يحرس باب المنزل، لا ثغرةَ يتسلّل منها العدوُّ؛ وحيث الرأفة والتبصُّر، لا بذخَ باطلاً، ولا قسوة قلبٍ.

٢٨ – في أنّه يجب إخفاء الخير، خشية فقدانه

طوبى للخادم الذي يكنز للسماء كنوزًا من الخيرات التي يوفِّرها له الربّ، ولا يسعى إلى إظهارها لعيون الناس، أملاً في مكافأة؛ فإنَّ العليّ نفسه يُظهر أعماله لمن يشاء، وطوبى للخادم الذي يحتفظ في قلبه بأسرار الربّ.

ب – عظمة الكهنوت

لئن كانت العذراء القدّيسة مريم مكرَّمةً أسمى تكريمٍ، وهي به جديرةٌ لأنّها حملت المسيح في أحشائها المباركة؛ ولئن كان القدّيس يوحنّا المعمدان قد ارتعد هلَعًا، ولم يجسر أن يلمس هامة إلهه المقدّسة؛ ولئن كان الرمس الذي سُجّي فيه جسد المسيح بعض الوقت مُحاطًا بالتكريم، فكم يجب أن يكون قدّيسًا، وصالحًا، وجديرًا بالتقدير ذاك الذي يُمسك بيدَيْه، ويتناول في قلبه وفمه، ويُطعم الآخرين المسيحَ الذي لم يعُدْ مائتًا، ولكنَّه يحيا، إلى الأبد، مُمجَّدًا، والذي تتمنّى الملائكة أن تُلقي عليه أنظارها.

فتأمّلوا كرامتكم، إخوتي الكهنة، وكونوا قدّيسين لأنّه قدّوسٌ. إنّ الربّ قد كرّمكم فوق الجميع. ما أشدّ بؤسكم، وما أشقى ضعفكم، عندما تُمسكونه، هكذا، في حضوره الحيّ، وأنتم مشغولون بشؤون الدنيا. فلتغشَ الرهبةُ كلَّ كيان الإنسان، وليرتعد الجميع ولتبتهج السماء، عندما يمثل المسيح، ابن الله الحيّ، على الهيكل، بين يدي الكاهن! ويا للعظمة الرائعة، والمحبَّة المذهلة! يا للتواضع السامي، ويا للسموّ المتواضع! فسيّد جميع الأشياء، الله وابن الله، يبلغ من التواضع، بحيث يتوارى في كِسْرة خبزٍ، زهيدة القدر، من أجل خلاصنا.

تأمّلوا، إخوتي، تواضع الله، واسكبوا قلوبكم أمامه. وتواضعوا، أنتم أيضًا، كي تُمجَّدوا معه، ولا تحتفظوا لأنفسكم بشيءٍ من ذواتكم، لكي يتقبَّلكم بأكملكم ذاك الذي يهبكم كامل ذاته.

ج - صلوات

«أبانا»

أبانا الكلّيَّ القداسة، خالقنا، وفادينا، ومخلّصنا، ومعزّينا.

الذي في السموات، في الملائكة والقدّيسين، الذين تنيرهم كي يعرفوك، لأنّك، يا ربّ، أنت النور؛ وتلهبهم بحبّك، لأنّك، يا ربّ، أنت الحبّ، وتسكن فيهم، وتملأهم سعادةً، فأنت، يا ربّ، الخير الأسمى، والخير الأبديّ، الذي منه ينبع كلّ خيرٍ، ولا خير بمعزلٍ عنه.

ليتقدّس اسمك: فتتّضح فينا معرفتك، وندرك سعة نعمتك، وامتداد وعودك، وسموّ عظمتك، وعمق أحكامك.

ليأتِ ملكوتك، فتملك فينا بالنعمة، وتدخلنا إلى ملكوتك حيث تتيسّر رؤيتك بلا حجابٍ، ويمكن حبُّك حبًّا كاملاً، وتتهيّأ السعادة في الاتّحاد بك، والتمتُّع بنعيمك الأبديّ.

لتكن مشيئتك على الأرض، كما هي في السماء، لكي نحبّك بكلّ قلبنا، ونفكّر دائمًا بك، بكلّ نفسنا، فتكون، أنت، دائمًا، موضع رغباتنا؛ وبكلّ ذهننا، فتكون محطّ جميع نوايانا، ويكون مجدك هو مُلتَمَسنا في كلّ شيءٍ؛ وبكلّ قوانا، فنبذل كلّ طاقاتنا، وكلّ حواسّ روحنا وجسدنا، في خدمة حبّك وحده، دون أيّ شيءٍ سواه؛ ولنحبّ القريبين منّا كذواتنا، فنجتذب جميع البشر، ما استطعنا، إلى حبّك، مستمتعين بسعادتهم، وكأنّها سعادتنا، ومؤاسينهم في رزاياهم، ومتحاشين عن إلحاق أيّة إهانةٍ بأيٍّ منهم، في أيّ حينٍ.

أعطِنا، اليوم، خبزَنا كفافنا: أي ابنَك المحبوب، سَيّدَنا يسوع المسيح، أعطِنا إيّاه، اليوم، فنذكر، ونُدرِك، ونحترم حبَّه لنا، وكلّ ما قاله وفعله، وكلّ آلامه من أجلنا.

واغفر لنا معاصينا، برأفتك التي لا توصف، وبفضل آلام ابنك الحبيب، سيّدنا يسوع المسيح، وبشفاعة واستحقاقات الكلّيَّة القداسة العذراء مريم، وجميع مختاريك.

كما نحن نغفر لمن أساؤوا إلينا؛ فاجعلنا يا ربّ، نصفح صفحًا كاملاً عمَّن نعجز عن الصفح عنهم، فنحبّ، حقًّا، أعداءنا، إكرامًا لك، ونشفع لديك من أجلهم، بكلّ وَرَعٍ؛ ولا نردّ لأحدٍ الشرَّ بالشرّ، بل نجهد في الإحسان إلى الجميع، من أجلك.

ولا تجعلنا ننهار أمام التجربة، خفيَّةً كانت أو ظاهرةً، مباغتةً أو ملحاحًا.

بل نجّنا من الشرّ الماضي والحاضر والمستقبل، آمين.

ح – دعاء

أيّها الربّ الكلّيّ القدرة، الأزليّ، العادل، الرحيم، هَبْنا، نحن التعساء، أن نعمل، من أجلك، ما نعلم أنّه مشيئتك، وأن نبتغي دائمًا ما يرضيك، فتُطهَّر سرائرنا، وتستنير، وتلتهب بنار الروح القدس، فنتمكّن من اقتفاء آثار ابنك، ربّنا يسوع المسيح، وبفضل نعمتك وحدها، نبلغ إليك، أيّها العليّ، أنت الذي في ثالوثك الكامل، ووحدتك المطلقة، كائن، مالك، ولك كلّ مجد، أيّها الربّ الكلّيّ القدرة، في جميع الدهور، آمين.

خ – صلاة منسوبة إلى القدّيس فرنسيس

يا ربّ، اجعل منّي أداة سلمك،
فأُحلّ الحبَّ محلَّ البُغض،
وأضع الغفران محلّ المعصية
والوئامَ محلَّ الفُرقة
والحقيقةَ محلَّ الضلال
والإيمان محلّ الشكّ
والرجاءَ محلّ القُنوط
والنور محلَّ الظُلُمات
والفرح محلَّ الحُزْن
اجعلني أنشد سكبَ العزاء، أكثر من نشداني العزاء لنفسي،
وأن أفهم الآخرين أكثر من حملهم على فهمي،
وأن أحبَّهم أكثر من حملهم على حبّي،
فالإنسان ينال بعطاء ذاته

ويجد نفسه عندما ينساها

ويظفر بالصفح عندما يسامح

وبالموت ينهض إلى الحياة الأبديَّة.

د – على خطى فرنسيس

فرنسيسكانيٌّ مُسِنٌّ نصح أحد إخوته قائلاً:

«إن أنت سمعتَ نداء الروح، فأنصتْ إليه باهتمامٍ، واجهد في أن تكون قدّيسًا بكلّ نفسك، وكلّ قلبك، وكلّ قواك.

«ولكن إن حال ضعفُك البشريّ دون بلوغك القداسة، فاسعَ إلى أن تكون كاملاً بكلّ نفسك، وبكلّ قلبك، وكلّ قواك.

«ولكن إن حالت ضحالة حياتك دون بلوغك الكمال، فاسعَ إلى أن تكون طيِّبًا بكلّ نفسك، وكلّ قلبك، وكلّ قواك.

«ولكن إن حالت فخاخ العدوّ دون أن تكون طيّبًا، فحاول على الأقلّ أن تكون عاقلاً، بكلّ نفسك، وكلّ قلبك، وكلّ قواك.

«وإذا، أخيرًا، عجزت أن تكون قدّيسًا، أو طيّبًا، أو عاقلاً، من جرّاء وقر خطاياك، فحاول، على الأقلّ، أن تحمل هذا العبء أمام الله، وأَوكل حياتك لرحمته.

«ولئن أنت فعلت ذلك، من غير مرارةٍ، وبتواضعٍ، لا بل بفرحٍ، بسبب حنان الله الذي يغمر بحبّه حتّى العاقّين والأشرار، فحينئذٍ ستشرع تدرك معنى التعقّل، وستتعلّم أن تكون طيّبًا، وشيئًا فشيئًا، ستصبو إلى الكمال، وستنتهي إلى التطلُّع، بتوقٍ، إلى القداسة.

«ولئن فعلتَ ذلك، كلَّ يومٍ، بكلّ نفسك، وبكلّ قواك، حينئذٍ أستطيع أن أؤكّد لك، يا أخي، أنَّك ستسير على درب القدّيس فرنسيس، ولن تكون بعيدًا عن ملكوت الله».

(عن ليوناردو بوف)

هـ – من رسالة الأخ إيليّا إلى الأخ غريغوريوس النابوليّ رئيس الفرنسيسكانيّين في فرنسا، يُشعره فيها بوفاة القدّيس فرنسيس:

قبل الشروع بالكلام، أبدأ بالتنهُّد، وللتنهّد ما يُبرّره. فألمي يتدفّق مثل سيلٍ عارمٍ، لأنّ المصاب الذي طالما خشيتُه قد انقضّ عليكم وعلينا. فذاك الذي كان لنا نَبع عزاءٍ قد مضى، والذي كان يحملنا بين ذراعيه كالحِملان قد انتهى إلى ديارٍ قصيَّةٍ. ذاك الذي أحبّه الله والبشر حلَّق صوب مقرّ النور... علينا أن نبتهج لأجله، ولكن ينبغي أن نبكي على ذواتنا، فبدونه نحن محفوفون بالظُّلمات وظلال الموت.. لقد بتنا يتامى، وفقدنا نور عيوننا. فإنّما كان أخونا وأبونا فرنسيس، ليس فقط لنا، نحن الذين عشنا إلى جواره، بل أيضًا للذين كانوا ينهجون غير نهجنا من نمط العيش، كان نورًا منبثقًا من النور الحقّ يُضيء القابعين في الظُّلمات كي يقود خطاهم على دروب السلام. لقد أنارته الشمس الحقّة وأدفأته بنارها، فبشّر في كلّ مكانٍ بملكوت الله، جامعًا شمل الآباء والأبناء، نافثًا في الحمقى حكمة الصالحين، ومُعِدًّا للربّ جيلاً جديدًا. وقد ذاع صيته حتّى الجزر النائية، وأُعجبت الدنيا كلُّها بفعاله...

إن بكيتم فابكوا على ذواتكم لا عليه، فنحن غائصون في الموت، أمّا هو فقد انتقل من الموت إلى الحياة. فحريٌّ بكم أن تبتهجوا، لأنّ ذلك الأب الرقيق، قبل أن يُنتزَع منّا، قد بارك جمع أبنائه، وغفر لهم جميع الأخطاء التي قد يكونون ارتكبوها، ولو بالفكر، في حقّه.

والآن أُنبئكم بفرحٍ جمٍّ مقرونٍ بمعجزةٍ جديدةٍ، لم يُسمع قطُّ بمثلها، خلا عن ابن الله، المسيح، الذي هو نفسه إله. فقبل وفاته، شوهد أخونا وأبونا، في ما يشبه المصلوب، وهو يحمل في جسده جروحًا خمسةً، هي حقًّا سمات صليب المسيح: فقد ظهر على يديه وقدميه ما يُحاكي ثقوبًا أحدثتها مسامير نفذت من جانبٍ إلى آخر، وكانت تلك الجروح قد اندملت، فبدت وكأنَّها مساميرُ داكنة اللون. وبدا جنبُه الذي كان ينثال منه الدم أحيانًا، وكأنّه قد فُتِح بطعنة حربةٍ، وقد فقد كلّ رُواء، فتشوَّهت قسمات وجهه، ونخر الألَمُ كلَّ أجزاء جسمه، فغدت أعضاؤه، من جرّاء تصلّب أعضائها، في مثل قسوة الجثّة. ولكن، بعد وفاته، استعاد كلّ بهائه، وبياضًا متألّقًا، بحيث غدا التأمّل فيه ممتعًا جدًّا، وعادت إلى أعضائه ليونتها، فبات بالإمكان تحريكها من جانبٍ إلى جانبٍ، وكأنَّها أعضاء جسم طفلٍ مرونةً...

موت القديس فرنسيس

احفظوا ذكرى أبينا وأخينا فرنسيس، لما كرَّمه به الله الذي مجّده بين البشر والملائكة؛ صلّوا لأجله تنفيذًا لرغبته، وفي آنٍ معًا، التمسوا شفاعته، لكي يجعلنا الربّ، يومًا، شركاء في مجده.

و – دعاء موجَّه من قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني إلى القدّيس فرنسيس، بتاريخ ١٩٧٨/١١/٥.

لقد جهدتَ كثيرًا في سبيل توثيق صلة المسيح بحقبتك، فأعنّا على أن نحذوَ حَذْوَك، في هذه الأوقات الحرجة العصيبة.

أيّدنا بأَزرك، فهذه الحِقْبَة تترقّب المسيح في قَلَقٍ متزايدٍ، ولو أنّ الكثيرين عن ذلك غافلون. إنّنا ندنو من العام الألفين بعد المسيح. أَوَلا يتحتّم علينا، في بعض الأزمنة، أن نتأهّب لميلاد المسيح من جديدٍ؟ إنّنا، كلَّ يومٍ، في صلاتنا الإفخارستيّة، نُعبّر عن ترقّبنا الشاخص إليه وحدَه، فادينا ومخلّصنا، هو الذي به يكتمل تاريخ الإنسان والعالم.

فأعنّا، أيُّها القدّيس فرنسيس الأسّيزي، على توثيق الصلة بين المسيح والكنيسة، وعالَم اليوم.

أنتَ يا من حمل في قلبه هموم كلّ مواطنيه، أعنّا على أن نستوعب كلّ ما يمسّ بَشَر حقبتنا، بقلبٍ وثيق الصّلة بالفادي.

أعنّا على أن نترجم إلى لغة الإنجيل البسيطة المثمرة، مشكلاتنا العسيرة، الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، والسياسيَّة، مشكلات الثقافة والحضارة المعاصرة، وجميع آلام إنسان اليوم، ورِيَبه، وإنكاره، وهروبه، وتوتُّره، وعِقَده، وقلقه.

أعنّا على حلّ كلّ شيءٍ بأسلوب الإنجيل، لكي يكون المسيح نفسه، لإنسان زماننا، هو «الطريق، والحقّ، والحياة»...

ز – زيارة قداسة البابا إلى «ألڤيرنا»

في ١٧ أيلول **١٩٩٣** شخص قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني إلى الألڤيرنا، ذلك الجبل حيث اكتمل تمثّل القدّيس فرنسيس بيسوع المصلوب، إذ ارتسمت على أعضاء جسده سمات الصلب. وقد احتفل الحبر الأعظم بالذبيحة الإلهيّة في الكنيسة المشادة

قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني

على قمّة الأَلْفيرنا، تخليدًا لذلك الحَدَث الأوَّل من نوعه في تاريخ الكنيسة، وألقى خطابًا في جماعات الصلاة التي احتشدت من حوله، وآخر في مجموعةٍ من الشبّان؛ كما أَنّه رفع إلى القدّيس فرنسيس صلاة استشفعه فيها من أجل عالَم اليوم، والكنيسة؛ وفيما يلي ترجمة لتلك الصلاة، وللخطابين المشار إليهما:

١ - خطاب في جماعات الصلاة

هوذا «الرجل الذي رمّم البيتَ في حياته، ووطّد الهيكل في أيّامه» (سي ٥٠/١).

وكان اسم ذلك الرجل فرنسيس: «إنسانٌ جديدٌ، هو هبة السماء للأرض» على حدّ قول القدّيس بوناڤانتورا.

وها نحن، ههنا، في إثره. فمن هنا مرّ «الفقير الصغير» الأسّيزيّ. وههنا كشف النقاب عن الحبّ العظيم الذي كان يُلهب فؤاده، ذلك الحبّ الذي جعله شبيهًا بالحبيب، بالمصلوب: «إنّني أحمل في جسدي سمات الربّ يسوع» (غلا ٦: ١٧). هذه الكلمات التي تلفّظ لها بولس، قد تحقّقت على نحوٍ رائعٍ في فرنسيس. وقد كانت منطقة أومبريا شاهدةً على ذلك، كما شهدت عليه هذه البقعة الجبليّة التي قُيّض لي اليوم زيارتها: ألڤيرنا.

إخوتي الأعزّاء جدًّا في ألڤيرنا، إنه يتعيّن عليكم واجب إبقاء حضور القدّيس فرنسيس حيًّا في هذا المكان، بحيث يقف كلّ من يصعّد إلى هنا، على كلّ أصالة التمثّل بالمسيح المصلوب الذي تحقّق في أيلول من عام ١٢٢٤، هنا بالذات، بفضل موهبة السمات.

إنّ سمات آلام المسيح، على جسد القدّيس فرنسيس، كانت العلامة الفريدة التي بها اعتلن الصليب، الذي كان يتقلّده يوميًّا، بالمعنى الحرفيّ للكلمة. أَوَلم يقل يسوع: «من أراد أن يتبعني، فلينكر ذاته، وليحمل صليبه، كلّ يومٍ، ويتبعني... من أهلك نفسه من أجلي، فهو يخلّصها»؟

ولقد اعتنق فرنسيس كلّ حقيقة هذه المفارقة. خبزه اليوميّ كان الإنجيل، الذي لم يقتصر على مطالعة أقواله، بل إنّه، من خلال عبارات الكتاب الموحى به، كان ينشد من هو روح الإنجيل الصميم. ففي الإنجيل تعتلن، اعتلانًا كاملاً، التدابير الإلهيّة،

وتتّخذ ألفاظ «الربح» و«الخسارة» معناها النهائيّ، المطلق. ولقد أعلن فرنسيس، بوجوده، وهو ما برح، اليوم، يعلن كلمة الإنجيل الخلاصيّة وإنّه لمن العسير وجود قدّيسٍ تدوم رسالته، وتمضي، في مثل ذلك العمق، متحدّيةً الزمن.

ففرنسيس هو، على نحوٍ ما، قدّيسٌ كونيٌّ، شاء المسيح أن يعلن، من خلاله، الإنجيل، لا لحقبته فحسب، بل لحقبٍ أُخرى، ولحقبتنا، وأيضًا لثقافاتٍ وحضاراتٍ شديدة التباين.

وبالتالي، فإنّ ذلك الذي «خسر حياته» من أجل المسيح، قد «خلّصها»، وكان خلاصها رائعًا.

وإنّنا لنراه، وقد تجلّى، به، الصليب، تجلّيًا أصيلاً، وعميقًا، ولم يتجلّ فيه أيّ شيءٍ آخر سوى «صليب ربّنا يسوع المسيح».

إنّه علامة تمثّلٍ باسم الحبّ. لقد قال الرسول بولس، وردّد فرنسيس الأسّيزيّ من بعده: إنّ صليب المسيح، وقوّة الحبّ قد جعلا «العالَم مصلوبًا لي، وجعلاني مصلوبًا للعالم».

إنّ العالم يأبى الصلب، ويفرّ من الصليب. والإنسان يهرب من الكائن «المصلوب للعالم». هكذا كان في زمن فرنسيس، وهكذا هي الحال اليوم أيضًا. والصراع بين «العالم» والصليب مستمرٌّ أبدًا. إنّه صراعٌ ضدّ صليب الخلاص!

ومن ثمَّ فقد يبدو فرنسيس شاهدًا لغير زماننا، وعديم الجدوى. فالذي يخاطب المسيح قائلاً: «ربّي، أنت سيّدي، ولا خير لي سواك»، قد يُثير امتعاض العقليّة المعاصرة. فغالبًا ما يأبى الإنسان الاعتراف بانّ الربّ يعلو عليه، إذ إنّه يتطلّع إلى أن يكون سيّد ذاته، وسيّد العالم. ولهذا السبب، أيضًا، تغدو رسالة فرنسيس علامة معارضةٍ، إذ يبدو أنّ تلك الرسالة جديرةٌ بالنبذ، في حين أنّها تستفزّ، أبدًا، المزيد من الأتباع.

تلك الرسالة هي نداءٌ ملحاحٌ للعودة إلى المسيح، علّنا نجد في صليبه، على حدّ قول القدّيس بوناڤانتورا «الحياة، ومشعل الحقيقة»، الحقيقة التي تحرّرنا، وتجعل منّا تلاميذ للمعلّم الإلهيّ.

فقد تميّزت مسيرة فرنسيس الروحيّة باقتفاء الإله المتأنّس اقتفاءً وفيًّا، وبمحاولته، من غير تحفّظٍ، التمثّل بإنكاره ذاته، وتخلّيه المطلق عن كلّ شيءٍ. ممّا جعل منه، كما قال

أيضًا القدّيس بوناڤانتورا، المثال الأسمى «للفقير المسيحيّ جدًّا»؛ وقد بلغت تلك المسيرة ذروتها في الألڤيرنا، بانطباع سمات الصلب فيه. تلك اللحظة كانت، رغم آلام الجسد، إعلان انتصارٍ، على غرار إعلان القدّيس بولس: «إنّني أحمل، في جسدي سمات يسوع».

ومن ثمّ فإنّ السمات التي برزت في الألڤيرنا تمثّل تلك المحاكاة لصورة يسوع، التي تجعل من فرنسيس المثال الذي يستطيع كلّ مسيحيٍّ استلهامه على درب تقرّبه التدريجيّ من الربّ الباري والمخلّص. وفي هذا السياق، تبدو كلمات «الفقير الصغير»، في غروب حياته، ذات دلالةٍ بليغةٍ: «لقد قمت بدوري، فليعلّمكم المسيح دوركم».

لا تمثّل هذه الكلمات انكفاءً على الذات، ورضًى عن النفس، بل هي صلاة شكرٍ عن كلّ أعمال الله فيه. وهي إنّما تعني: «فليعلّمكم الله، مثلما علّمني، أن تكونوا له تلاميذ».

ومن تعاليم المعلّم الإلهيّ، ثمّة عبرتان التزم بهما فرنسيس بوفاءٍ مطلقٍ: الطاعة للبابا، ممثّل المسيح على الأرض، وتكريم والدة الله القدّوسة، والتمثّل بها...

لقد كان فرنسيس يحيط أُمّ الربّ يسوع بحبٍّ يندّ عن الوصف، إذ إنّها جعلت من ربّ المجد أخًا لنا؛ وهو كان، على نحوٍ خاصٍّ، يضع فيها ثقته، بعد المسيح...

وقد اقتفى مثال العذراء مريم، في صمتها المتأمّل، ولا سيَّمَا بعد أن تلقّى من المسيح، على هذا الجبل، سمات آلامه، للدّلالة على أنّه، بقدر عظمة كرامات الله، يَتعيَّن على من يحظى بها أن يتوارى. وقد كتب القدّيس بوناڤانتورا بهذا الشأن: «إنّ رجل الإنجيل فرنسيس، انحدر من الجبل، وهو يحمل، في ذاته، صورة المصلوب، التي رسمها الله الحيّ بإصبعه» «وإذ كان يعي ذلك السرّ الملكيّ، فقد كان يحيط بالكتمان، إلى أبعد حدّ، تلك العلامات المقدّسة...».

إنّ «العالَم المصلوب» في المسيح، ما انفكّ، اليوم، يعتلن «عالَمًا محبوبًا». أَجل، «فقد أحبّ الله العالم حتّى إنّه بذل ابنه الوحيد». ولقد كان فرنسيس شاهدًا على ذلك الحبّ اللانهائيّ، ولا يزال حتّى اليوم شاهدًا عليه.

الحبّ، وحده، كفيلٌ بإنقاذ الإنسانيّة والعالم من الفشل؛ فالعالم يحاصر الإنسان بكلّ ضروب النُّذُر.

وها نحن نشخص إليك، يا فرنسيس، في هذا المكان الذي كان أثيرًا لديك،

نأتي إليك كي ترسّخنا، مجدَّدًا، في القناعة بأنّ الحبّ هو أكبر من جميع القوى السلبيّة.

إنّنا نحيّيك في نهاية الألف الثاني الميلاديّ،

الكنيسة والأُسرة البشريّة، تحيِّيانك

ونسألك، يا فقير أسّيزي الصغير: «شدّد المدينة» في أيّامنا هذه، وشدّد الكنيسة.

آمين.

٢ – خطاب إلى الشباب

إخواني الشبّان،

إخوتي وأخواتي الأحبّاء،

ما الذي اجتذبكم إلى هذا المكان، الذي كان، لثمانية قرونٍ خلت، مسرحًا للتمثُّل الصوفيّ بين المسيح المصلوب، وذاك الذي تشبّه به تشبُّهًا مذهلاً: فرنسيس الأَسّيزيّ؟

إنّ ما اجتذبكم هو وجه «الفقير الصغير» الساحر. فالأجيال تتعاقب، فيما لا ينفكّ قدّيس أسّيزي يخاطبنا، وكأنّه من أبناء اليوم. فالحركة الروحيّة التي أطلقها هي أشبه بربيع شبابٍ يزدهر بانتظامٍ مع كلّ جيلٍ.

ومع أنّ نمط عيش ذلك الرجل، في القرن الثالث عشر، اتّسم بصفاتٍ من الفرادة بحيثُ يبدو لا يُجارى، وبعيد المنال، إلاّ أنّه، مع ذلك، بل ربّما بسبب ذلك، ما برح يمارس سحرًا فريدًا.

وفي الحقيقة إنّ حقبتنا المتأرجحة بين الانتصارات والهزائم، والممزّقة بين أسباب الرجاء ودواعي اليأس، تنشد السبيل إلى أصالةٍ قشيبةٍ. ومن المُحقّق أنّ القدّيس فرنسيس يُبرز صورة إنسانٍ أصيلٍ، إنسانٍ جعل من حياته نجاحًا، وأفلح في إقرار السلام مع اللّه، ومع ذاته، ومع الآخرين، ومع الكون.

ولكن ما هي جذور شخصيّته العميقة، وما هو سرّ سحره الحقيقيّ؟

لا ريب أنّ تلك الجذور وذلك السحر تكمن في اختياره للمسيح. فبين اهتداء فرنسيس الشابّ بفضل صليب كنيسة القدّيس داميانُس، وتمثّله بالمسيح المصلوب الذي تحقّق جسديًّا بالسمات التي طُبعتْ فيه على قمّة الألڤيرنا، يمتدّ كلّ طريق ارتداده. وهو نفسه لم يغفل، في وصيّته، ذكر حقبةٍ كانت «منعطفًا» في حياته.

ويحسن بنا أن نستعيد سماع روايته البسيطة والبليغة التأثير: «لقد أعطاني الربّ، أنا الأخ فرنسيس، أن أشرع في ممارسة التوبة، إذ فيما كنت لا أزال في الخطيئة، كان يشقّ عليّ رؤية البُرْص. بيد أنّ الربّ قادني إليهم، وقد قابلتهم بالعطف، وعندما بارحتهم تحوّل فيّ ما كان يبدو لي، حتّئذٍ، مرًّا، عذوبةً للنفس والجسد».

وإذن، فالمسيح الذي سمعه في كنيسة القدّيس داميانُس، والذي قبّله في شخص الأخ الأبرص هو نور فرنسيس الجديد.

هل كان فعله هذا زهدًا في الحياة؟ كلاّ، بل على نقيض ذلك، إنّه غدا أكثر قدرةً على تذوّق الحياة والتغنّي بها. ولم يكن «نشيد الخلائق» الذي تفجّر في ساعة آلامٍ مبرّحةٍ، مجرّد صلاةٍ رائعةٍ، بل كان نشيدًا للحياة، وللفرح، وللعالَم المشاهَد مغمورًا بضياء الله.

أيّها الشبّان الأحبّاء، أحبّوا الحياة. أحبّوها في مثل عمق حبّ فرنسيس الأسّيزيّ واندفاعه. أحبّوها في جمال الطبيعة، وفرح الصداقة، وانتصارات العلم، وفي الكفاح السخيّ من أجل بناء عالمٍ أفضل.

لا تهدروا الحياة في مسرّاتٍ زائلةٍ، في مغامراتٍ لا غَدَ لها، وفي التزامٍ أجوف، بل تطلّعوا إلى فوق، واستهدفوا الأبديّة؛ وعلى دروب الفرح الحقّ الذي تصبو إليه قلوبكم، فلتتقدكم مريم، أمّ يسوع، وأُمّ فرنسيس، وأُمّ جميع القدّيسين.

ولتُنِرْ مريم، «نورُ الظلمات» أذهانَ البشر وضمائرهم، بنور الحقيقة والحبّ. ولتنرْكم، أنتم، على نحوٍ خاصٍّ، أيّها الشبّان الأحبّاء، الذين، على غرار فرنسيس، يستشفعون، في ثقةٍ، بالعذراء، أمّ الكنيسة، والنموذج الدائم لشبابها.

٣ – صلاة مستوحاة من روحانيّة الأَسّيزيّ

«أيّها القدّيس فرنسيس، الذي نال سمات المصلوب، على قمّة الأَلڤيرنا،
إنّ العالم في شوقٍ اليك،

أنت، يا إيقونة المسيح المصلوب.
العالم يفتقر إلى قلبك المُشرع على الله وعلى العالم،
وإلى قدمَيْك الحافيتَيْن المقرّحتَيْن،
وإلى يدَيْك المثقوبتَيْن المتضرّعتَيْن.
العالم في شوقٍ إلى صوتك الرقيق،
صوتك القويّ بقدرة الإنجيل.
أيّها القدّيس فرنسيس، أَعِنْ أَبناء اليوم
على تبيُّن شرّ الخطيئة،
وعلى محاولة التطهّر منها بالتوبة.
آزرهم على التحرّر
من أغلال الخطيئة
التي تكبّل مجتمع اليوم وترهقه.
أَذكِ، في وجدان الحُكَّام،
ضرورَةَ السلام الملحّة،
في ما بين الأُمم والشعوب.
أَشِعْ، بين الشبّان، طلاوة حياتك
الكفيلة بتحطيم شراكِ
علوم الموت المتكاثرة،
وعلّم، أَيُّها القدّيس فرنسيس،
ضحايا شتّى ضروب المظالم،
فَرَح الصفح.
وأمام جميع المصلوبين،
مصلوبي الأَلم، والجوع، والحرب،
افتح، من جديدٍ، أبواب الرجاء.
آمين.

المراجع

CARLO CARETTO: *MOI, FRANÇOIS D'ASSISE,* traduit de l'italien, le Centurion, Paris, 1981.

ELOI LECLERC: *FRANÇOIS D'ASSISE – LE RETOUR À L'ÉVANGILE,* Désclée de Brouwer, Paris 1981;

– *LE CANTIQUE DES CRÉATURES,* Désclée de Brouwer, Paris, 1988;

– *SAGESSE D'UN PAUVRE,* Désclée de Brouwer (15e édition), Paris. 1991;

– *EXIL ET TENDRESSE,* éd. Franciscaines, Paris, 1961.

EPHREM LONGPRE: *FRANÇOIS D'ASSISE,* Bibliothèque de Spiritualité, Beauchesne, Paris, 1966.

EVANGILE D'AUJOURD'HUI: *LA SPIRITUUALITE DE FRANÇOIS D'ASSISE,* éd. Franciscaines, 1991.

FELIX TIMMERMANS: *LA HARPE DE ST. FRANÇOIS,* traduit du néerlandais, Bloud et Gay,1933.

G. K. CHESTERTON: *ST. FRANÇOIS D'ASSISE,* éd. Dominique Martin Morin, France, 1979.

GEORGES HOURDIN: *FRANÇOIS, CLAIRE ET LES AUTRES,* Désclée de Brouwer, 1984.

HENRI QUEFFELEC: *FRANÇOIS D'ASSISE, LE JONGLEUR DE DIEU,* éd. Calman Lévy, 1982.

JOERGENSEN: *ST. FRANÇOIS D'ASSISE,* traduit du danois, librairie Jules Tallandier, Paris, 1979.

JULIEN GREEN: *FRÈRE FRANÇOIS,* Seuil, Paris, 1983.

LEONARDO BOFF: *FRANÇOIS D'ASSISE,* traduit du portugais, Cerf, Paris, 1986.

M. A. SANTANER: *FRANÇOIS D'ASSISE ET DE JÉSUS,* Désclée, 1984.

MOISE BLATRIX: *ST. FRANÇOIS, FILS D'ASSISE FILS D'ÉGLISE,* C. L. D., Chambry, 1981.

N. KAZANTZAKI: *LE PAUVRE D'ASSISE,* traduit du grec, Plon. 1957.

OMER ENGLEBERT: *VIE DE ST FRANÇOIS D'ASSISE,* éd. Albin Michel, Paris, 1982.

POLYS MODINOS: *DIALOGUE AVEC LE PETIT PAUVRE D'ASSISE,* éd. Les Belles Lettres, traduit du grec, Paris. 1986.

RAOUL MANSELLI: *SAINT FRANÇOIS D'ASSISE,* traduit de l'itallien, éd. Franciscaines, Paris, 1981.

ST FRANÇOIS D'ASSISE: *OEUVRES,* traduction, introduction et notes par Alexandre Masseron, éd. Albin Michel, Paris, 1959.

LES FIORETTI DE ST FRANÇOIS D'ASSISE, traduction, commentaires et notes de Jean Anglade, Livre de poche, 1983.

STAN ROUGIER: *FRANÇOIS D'ASSISE, TROUBADOUR ET PROPHÈTE,* éd. Salvator, 1990.

THOMAS DE CELANO: *VIE DE ST FRANÇOIS D'ASSISE,* traduite du latin par le p. Damien VORREUX, éd. Franciscaines, Paris 1952.

فهرسٌ

إهداءٌ ٥

مقدّمةٌ ٧

الجزء الأوّل: عَبَثٌ وفروسيّةٌ وقلقٌ ٢١

– أسّيزي ٢١

– أسرة بيرناردوني ٢٤

– فرنسيس الطالب ٢٦

– شخصيَّةٌ تتكوّن ٢٧

– فرنسيس التاجر ٢٨

– حقبة تبدّلات جذريّة ٣٢

– الأسير ٣٥

– نقاهةٌ وتأمُّلٌ ٣٨

– فارسٌ، في خدمة من؟ ٤٠

– فروسيّةٌ من نمطٍ آخر ٤٢

– عودةٌ إلى أسيّزي ٤٤

– على دروب الربّ ٤٧

الجزء الثاني : نداء الربّ ٥٥

– فرنسيس أصلح كنيستي ! ٥٥
– «أبانا الذي في السماوات» ٦١
– «منادي الملك العظيم» ٦٨
– مرمّم الكنائس ٧٠

الجزء الثالث : مجنون الله ٧٩

– شاهد الكلمة ٧٩
– الإخوة الأوائل ٨٦
– النظام الفرنسيسكانيّ ٩٨
– البابا والفقير ١٠٣
– «ريڤوتورتو» : الساقية الملتوية ١٠٩
– حبّة الخردل تصبح شجرة ١١٥
– بيرناردو كوانتڤالي ١٢٦
– إيجيديو ١٣٢
– ماسّيو ١٣٩
– روفان ١٤٤
– جينڤر ١٤٨
– جيوڤانّي البسيط ١٥٢
– ليون ١٥٥
– الفرح الكامل ١٥٦

– أنجيلو ١٥٩

– ملحمة الفقر ١٦٠

– فرنسيس الواعظ ١٦٤

– القدّيسة كيارا ١٦٩

– ربيع الفرنسيسكانيّة ١٩٢

– الراهب الفقير والبابا المحتضر ١٩٩

– غفران اليورتسيونكولا ٢٠١

– فرنسيس والأساقفة ٢٠١

– فرنسيسكانيّون جدُدٌ ٢٠٢

– أحلام فروسيّة في سبيل المسيح ٢٠٤

– الشاعر الراهب ٢٠٥

– الأخ جاكلين ٢٠٦

– تقدمة فارس ٢٠٨

– حيرةٌ أمام مفترقٍ ٢١١

– فرنسيس والخلائق ٢١٥

– المجامع الفرنسيسكانيّة ٢٢١

– الفرنسيسكانيّون يغزون العالم ٢٣٣

– فرنسيس يعظ أمام البابا ٢٣٩

– سلطة فرنسيس ٢٤٠

– فرنسيس في المشرق ٢٤٣

– لقاءٌ مع أمير المؤمنين ٢٤٤

الجزء الرابع : معركة القانون ٢٤٩
– عودةٌ إلى الوطن ٢٤٩
– الواقع المرير ٢٥٠
– نورٌ متألّقٌ في الظلام ٢٥١
– انتفاضةٌ في مدينة بولونيا ٢٥٢
– فرنسيس والعلم ٢٥٣
– في حماية الكنيسة ٢٦٧
– الرهبانيّة الثالثة ٢٦٩
– فرنسيس أخٌ أصغر ٢٧٤
– الأخ إيليّا ٢٧٧
– المشرّع ٢٨٠
– أسلوب فرنسيس ٢٨٨
– الشريد ٢٩٠
– القانون النهائيّ ٢٩٤
– كفّارة الحبّ ٣٠٠
– محنة فرنسيس ٣٠١
– عيد ميلادٍ فريدٌ ٣٠٦
الجزء الخامس: في رحاب الله ٣١٥
– بين الله والعالم ٣١٥
– رسائل فرنسيس ٣١٦
– القدوة ٣١٨

– في القمم مع الله ٣٢٦
– سمات الصليب ٣٣٠
– وداع الألفيرنا ٣٩
– يقظة الشباب ٣٤١
– نشيد الخلائق ٣٤٣
– موسيقى على درب الآلام ٣٥١
– الوصيّة ٣٥٨
– أهلاً بك، أخي الموت ٣٦٢
الجزء السادس: في رحاب النفس ٣٧٥
– رجل التحدّي ٣٧٥
– القدّيس ٣٨٣
– ولادةٌ جديدةٌ ٣٨٨
– في مدرسة الإنجيل ٣٩٢
– سمات الصليب ٤٠٠
– الفقير الصغير ٤٠٤
– تواضعٌ وبساطة ٤٢٤
– الفرح ٤٢٨
– روح الطفولة ٤٣٤
– شاعر الخليقة ٤٣٦
– محبّةٌ وإخاءٌ وسلامٌ ٤٤٢
– مرآة يسوع ٤٥٠

– في قبضة الروح ٤٥٤
– فرنسيس الصوفيّ ٤٥٧
– فرنسيس والكنيسة ٤٦٧
– الفرنسيسكانيّة بعد فرنسيس ٤٧٦
ملحقاتٌ ٤٨٥
– إرشادات ٤٨٥
– صلوات ٤٩٥
– على خطى فرنسيس ٤٩٧
– رسالة الأخ إيليّا تنعي القدّيس فرنسيس ٤٩٨
– البابا يوحنّا بولس الثاني يتحدّث عن القدّيس فرنسيس ٥٠٠
مراجع ٥٠٩
فهرسٌ ٥١١

ظهر للمؤلّف

- **قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب** (سلسلة دراسات كرمليّة)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٠**
- **السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٢**
- **فرنسيس... أَصلحْ كنيستي** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٤**
- **صوتُ مَن لا صوت لهم: الأب پيير** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٧**
- **حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتاويّة** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٨**
- **أنا، الأخت إيمّانويل، أشهد...** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٩**
- **بولس، رسول يسوع، وقلبه، ولسانه** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **٢٠٠٣**
- **جان ڤانييه وسفينته** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **٢٠٠٣**
- **أبانا** (سلسلة صفحات روحيّة)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **٢٠٠٥**
- **يسوع في إنجيله**، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **٢٠٠٦**
- **يسوع في حياته**، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **٢٠٠٦**

كتب مترجمة

- **على درب الحياة مع ألكسي كاريل**، دمشق، ١٩٨٤، (طبعة ثانية ٢٠٠٠)
- **يد الله** (سلسلة الشهود)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٨٨
- **ثلاث عشرة قصّة** (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٠
- **أيدٍ ملطّخة بالدمّ** (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٥
- **أُذكروا الله: تأمُّلات من وحي رسائل الصوفانيَّة**، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٥
- **سيرة المسيح** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٣
- **حدِّثني عن الحبّ** (سلسلة الشباب مستقبل الغد)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، (طبعة ثالثة ٢٠٠٥)
- **كتاب الحكمة والفضائل المستعادة** (سلسلة صفحات روحيّة ٣٥)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٧
- **العذراء في حياتنا** (سلسلة صفحات روحيّة ٣٦)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٧

أنجزت المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان
طبع هذا الكتاب
في شهر آب سنة ٢٠٠٨